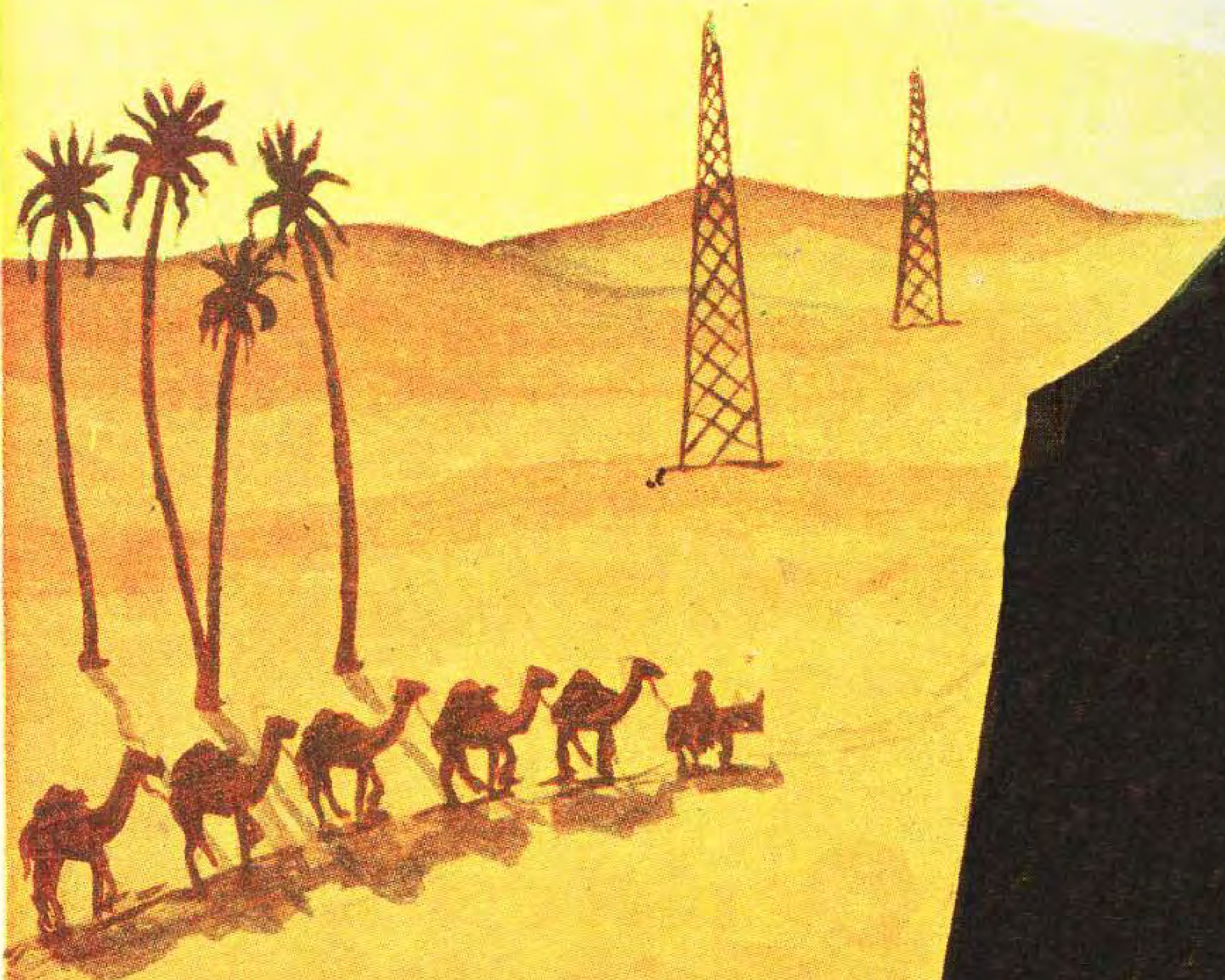
كارلتون كون



القافلة

قصة الشرق الأوسط

ترجمة: برهان دجاني

مراجعة: الدكتور إحسان عبّاس

القافلة

قصة الشرق الاوسط

نشر بالاشتراك مع

مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر

بيروت — نيويورك

القافلة

قصة الشرق الاوسط

تأليف : كارلتون كون
ترجمة : برهان دجاني

مراجعة : الدكتور إحسان عباس

الناشر

دار الثقافة — بيروت

مطابع « الكريم » — جونيه



المسهمون في اخراج هذا الكتاب

كارلتون كون : مؤلف الكتاب .

هو عالم انثربولوجي مشهور واستاذ في جامعة ولاية بنسلفانيا . ولد في ولاية ماساشوستس ودرس في هارفارد . وبعد ان حصل على شهادة الدكتوراه سنة ١٩٢٨ ، جاء الى الشرق الاوسط وقام بدراسات وابحاث في الجزيرة العربية وشمالي افريقيـــة والبلقان والحبشة ، استمرت تسع سنوات . ثم عاد الى هارفارد وتابع التعليم فيها حتى سنة ١٩٤٨ ، حين احتل منصبه الحالي في جامعة بنسلفانيا .

وقد قام الدكتور كون برحلات كثيرة في اوروبة وآسية وافريقية ، وهو يتكلم ست لغات منها العربية والفارسية . وله عـــدة دراسات انثربولوجية منها قصة الانسان ، وهذا الكتاب .

برهان دجاني : مترجم الكتاب .

احد اساتذة التجارة في الجامعـــة الامريكية ببيروت والسكرتير الدائم لمؤتمر الغرف التجارية العربية . وله نشاط واسع في حقل الاقتصاد العلمي واسهام معروف في الاقتصاد النظري . الف وترجم عـــدداً من الكتب في الاقتصاد وسواه .

احسان عباس : مراجع الكتاب .

الاستاذ المساعد للادب العربي بجامعـة الخرطوم . مؤلف ومترجم مشهور في الادب والنقد ، اصدر فيها ما يقرب من العشرين كتاباً .

الفصل الاول

الصورة واجزاؤها

بسم الله الرحمن الرحيم

عندما يبتدىء أحد من أبناء الشرق الأوسط عملا ، او يروي قصة ، فانه يتجه في الغالب الى الذات الالهية طالباً منها الارشاد والعون . وقد يستعمل هذه الكلمات عينها – اعني البسملة – ، أو يستعمل كلمات غيرها تؤدي المعنى ذاته . وقلّ بين المحاولات الأدبية ما يحتاج الى مثل العون والارشاد اللذين تحتاجهما هذه المحاولة لرسم صورة عن مدنية الشرق الأوسط وجميع شعوبه ، في كل مكان ، وفي كل زمان .

وقد اخترنا لهذه الصورة اسم « القافلة » ، لأنها صورة متحركة مكتملة الألوان ، يرافقها الصوت والرائحة ، والحر والبرد ، ولفع الرمال التي تذروها الرياح ، والأمطار ، ولأن أبرز عنصر في مدنية الشرق الأوسط هو حركة النقل وتجارة البضائع الفاخرة التي يصنع الكثير منها في مدنه ، ولأن القافلة مؤسسة عظيمة التعقيد دقيقة التنظيم وهي بذلك تشبه مدنية الشرق الأوسط ، ولأن أعظم القوافل التي عرفها التاريخ هي تلك التي توفرت على نقل الأتقياء من عباد الله نحو الأماكن المقدسة ، والشرق الأوسط مكان تقدسه شعوب كثيرة .

ويغشى هذه الصورة من أولها إلى آخرها وهج تاريخ موغل في

السعة ليس من السهل فهمه وتمثله ، ويطرزها وشي من العاطفة ، ولذا فهي صورة تتسع حولها مسافة الخلف بين الآراء . ومن أبسط هذه القضايا الخلافية ، ما يتعلق بتسمية الاقليم ذاته . والعلماء الذين يلذ لهم الجدل في الأعراض دون الجواهر ، منقسمون حول هذه التسمية الى فريقين . فالظاهر ان الاسم قد نحت ، لأول مرة ، ابان الحرب العالمية الثانية ، محدداً المنطقة العسكرية التابعة لقيادة الجيش البريطاني في القاهرة . وقبل ذلك كان الناس يتحدثون عن الشرق الأدنى ويقصدون بـه ، بشكل عام ، اجزاء الأمبراطورية العثمانية التي تقطنها شعوب عربية ، من مصر الى العراق ومن سوريا الى شبه الجزيرة العربية . وما زال بعضهم على هذه التسمية .

اما الشرق الأوسط كما يفهم اليوم ، عموماً لا اجماعاً ، فيضم البلاد التي يشكل المسلمون جمهرة سكانها(1) من مراكش حتى افغانستان ويشمل مراكش ، والجزائر ، وتونس ، وليبيا ، ومصر ، واسرائيل ، والأردن ، ولبنان ، وسوريا ، والعراق ، والعربية السعودية ، واليمن ، ومحمية عدن ، وعمان ومسقط ، والكويت والبحرين ، وايران ، وافغانستان . وفي استطاعة المرء ان شاء ان يضيف باكستان والسودان ، مع انهما ، مثل تركيا ، يشكلان نقاط انتقال نحو مناطق ثقافية أخرى .

أمـا الذين يقيسون التسمية بخطوط الطول فانهم ينكرون كلمة « الأوسط » ويعتبرونها غير منطبقة على الواقع ، اذ ان بعض مناطق الاقليم تقع الى الغرب من غرينتش ، وهي اقرب الى امريكا من القارة الأوروبيـة . ولكن المنطقة « وسطى » ولا شك بالنسبة لخطوط

---

(1) ما عدا منطقتين وهما لبنان واكثرية سكانه من المسيحيين ، واسرائيل واكثرية سكانها من اليهود .

العرض ، وهي وسطى ايضاً بمعان هامة متعددة . فهي ذات موقع متوسط بين اشباه القارات الغنية الآهلة الواقعة في الكتلة الأرضية الاوراسيوية وهي الصين والهند وأوربا ، وهي متصلة بالبحر والقوافل بأجزاء افريقيا الواقعة الى الجنوب من الصحراء الكبرى . ولقد قام سكان الشرق الأوسط بدور الوسطاء لبضائع هذه المناطق المتباعدة وأفكارها .

وفي وسع المرء أن يبرر اسم « الشرق الأوسط » من الناحية الثقافية . وسأحاول أن أظهر أن الشرق الأوسط منطقة ثقافية قائمة بذاتها ، ذات مركز ومحيط . والمدنية التي تميز هذه المنطقة ، في أشكال اقليمية متعددة ، ليست أنها وحدة واحدة فحسب ، ولا أنها فحسب متوسطة بين مدنيتي الشرق والغرب ، بل انها من نواح عديدة أم لهاتين المدنيتين . ولم تكن مجرد وسيط ، بل كانت ايضاً مدنية مبدعة خلاقة . فعنها أخذنا معظم النبات والحيوان الذي نأكل نتاجه اليومي ، سواء مارسنا العبادات أو لم نمارسها . ولا يحق لأحد ان يتطلب المزيد من قطعة من الأرض تبدو قاحلة اذا ما قيست بمروج العالم الغربي وغاباته الخضراء .

ان وصف مدنية الشرق الاوسط أمر على أعظم جانب من الصعوبة ، شأنه في ذلك شأن وصف مدنية أوربا الغربية . ففي كلا المنطقتين يواجه المرء لغات متعددة وتفرعات ثقافية لا يمكن فهمها بالرجوع الى التاريخ . وانك لا تكاد تصل الى ما قبل الرومان حتى يصبح تاريخ اوربا الغربية بسيطاً نسبياً . غير ان التغيرات التي أصابت الثقافة الاوربية في الحقبة الواحدة من الزمن تغيرات عظيمة نسبياً . أما تاريخ الشرق الاوسط فانه يعود القهقرى الى اكثر من خمسة آلاف سنة ، ثم قد يجد المرء في أيامنا هذه أناساً يعيشون كما عاش الناس أيام المسيح او حتى أيام ابراهيم .

وأبرز الحقائق عن مدنية الشرق الاوسط اليوم ان السكان في كل بلد كرقعة الفسيفساء يتألفون من أنماط شتى من الشعوب المختلفة . فأنت تجد في مدينة كبغداد مثلاً المسلم العربي ، والمسيحي العربي ، والآشوري ، والكردي ، واليهودي ، والتركي ، والفارسي ، والارمني ، وأفراداً من شعوب أخرى غير هذه . وتجد العرب المسلمين الذين ينتمون الى قبائل أو قرى تعيش كل منها مستقلة بذاتها ، وينقسمون الى فئتين دينيتين رئيسيتين هما السنة والشيعة . وكان في استطاعتك قبل اربعين سنة او خمسين ان تميز الشعوب المتعددة التي تعيش في مجتمع واحد بألبستها الخاصة ، او لغاتها او لهجاتها الخاصة ، أو بتسريحة الشعر او اللحية ، او بنوع الاكل او بايام العبادة والراحة . اما اليوم فان كثرتها تلبس الزي الافرنجي ، بحيث أصبح من الصعب تمييزها .

ولو أنك نزلت في بغداد في أحد الفنادق التي يؤمها البريطانيون والامريكيون لوجدت أن أصحاب الفندق وكتبته من المسيحيين العرب ، أما الخدم فمن الآثوريين . وفي مواجهة الفندق وكالة لاستيراد السيارات يديرها يهودي ، وعلى مقربة منه مكتب لتجارة التصدير والاستيراد يملكه ارمني . وترى الحمالين الاكراد يحملون الصناديق على ظهورهم ويسيرون بها على أرصفة الطريق ، بينما تنطلق السيارات مسرعة في الطريق ذاته يقودها عرب ارسلوا لحاهم واعتمروا الكوفية او العمامة .

ولو كنت من المنقبين عن الآثار لكان من همّك ، ولا شك ، ان تجد عدداً من الرجال المدربين المختارين الذين توصي بهم دائرة الآثار . ولرأيت ان في مقدور هؤلاء الرجال ان يكتشفوا هيكلا عظمياً وينظفوه من غير كسر عظمة واحدة فيه . وفي وسعهم ايضاً ان يستخرجوا قطعة من الفخار المدهون من غير ان ينالها أي ضرر او تشويه ، فهم من الخبراء في أمر التنقيب . ونحن نسميهم الشرقاطيين

نسبة الى قرية شرقاط التي يعيشون فيها حين يقفون عن التنقيب . ولقد قام احد الاثريين فيما مضى بالتنقيب في موضع قريب من قريتهم ودرب هؤلاء أبناءهم ، حتى أصبحوا اليوم جماعة مختصة تبدو كالحجر اللماع في فسيفساء الشرق الاوسط ، وهم يحتكرون صنعتهم هذه التي يتقنونها أعظم الاتقان .

ولا شك ان المصادفة هي التي ولدت هذه السلسلة من الاحداث وجعلت من أهل شرقاط جماعة من خبراء التنقيب عن الآثار . وان مصادفات مماثلة وقعت في التاريخ ، ويصعب اليوم تقصيها ، تفسر الدور الخاص الذي يقوم به الارمن مثلاً ، او تفسر لماذا يأتي معظم حافري الآبار المراكشيين من اقليم دراع ، او لماذا كان معظم الكتبة في مصر حتى عهد قريب من الاقباط . ومهما يكن من أمر فالذي حصل هو ان شعوب الشرق الاوسط انتظمت في نظام اجتماعي معقد مبني على تخصص كل شعب بنوع من العمل .

وقد استطاع ابناء كل شعب من هذه الشعوب ان يتقنوا حرفة خاصة ويكتسبوا مهارة خارقة ، وذلك لانهم يصرفون كثيراً من اوقاتهم معاً ، ويحيون اعيادهم معاً مستقلين عن غيرهم من الجماعات ، ويوحون إلى ابنائهم أن عليهم أن يتعلموا نوعاً خاصاً من العمل ، ويتقنوه جيداً . ومن ضروب هذه المهارة مجتمعة تتكون مدنية الشرق الاوسط . كيف يقدرون على نسج الحرير بمثل هذه الدقة ؟ وكيف تستطيع الايدي البشرية ان تصنع مثل هذا السجاد ؟ وكيف يستطيع ذلك التاجر في السوق البلدي ان يحسب في ذهنه سعر قطعة من القماش بالدولارات بأسرع مما استطيع حسابها على الورق ؟ لسبب في غاية البساطة ، وهو ان أفراد هذه الشعوب ركزوا جهودهم على أساليب مهنية خاصة ، جيلاً بعد جيل .

ومن الجائز ان هذا التخصص والتقسيم في العمل ابتدأ — أول الامر —

نتيجة سلسلة من المصادفات ، ولكن ليس من قبيل المصادفة ان نما هذا النظام واستمر كلما اتخذ حجر جديد مكانه في رقعة هذه الفسيفساء . وكان هذا الاسلوب ، ومـــا زال ، خـير منهج لحياة الناس في محيط فقير تتباعد فيه القرى والدساكر والمواد الاولية تباعداً كبيراً ، وهو أيضاً خير منهج لهم في عصر معدني تسوده صناعة يدوية. ولقد تغير النمط تغيراً بسيطاً بين زمن وآخر بسبب نشوء ديانات جديدة ، او توسع أحدى الدول الامبراطورية ، ولكن الصورة الاجمالية بقيت على حالها ، تقص علينا نفس القصة مع قسط ضئيل من الاختلاف . ولن تتغير القصة ما بقيت البيئة وما يبقى الناس يتخذون من عضلاتهم مصدراً رئيسياً للقوة الصناعية . ان التلازم بين الانسان وبيئته قد وصل ذروته منذ زمن بعيد ، وكل تغيير سوى ادخال القوة الآلية ، يبدو سطحياً ، مثله في ذلك كمثل لصق ورق جديد على حائط قديم غاية القدم .

وليس هذا النظام الفسيفسائي لمجتمع الشرق الاوسط فريداً في بابه . فعندما غزا كورتيز المكسيك كان شعب الازتكة ، الذي قطع عليه كورتيز ، في غلظة وفظاظة ، أضاحيه المرغة بالدم ، قد ابتدأ ينتظم بهذا الاسلوب نفسه . وفي الهند ، او بالاحرى في الهند والباكستان ، وصل الاسلوب الى طرف متناه لا مثيل له في العالم ، فهناك آلاف من الطبقات المغلقة التي لا يتزاوج ابناؤها مع غيرهم ، يختص كل واحد منها بحرفة خاصة او بجزء من حرفـة . وحتى القرية الهندية المتوسطة التي يبلغ سكانها ١٤٠٠ نسمة[٢] تشتمل على أشخاص ينتمون الى ست وعشرين طبقة او فرع من طبقة ، ويفد اليها بين الحين والحين رجال آخرون ينتمون الى ست طبقات غير هـــذه ، ليؤدوا فيها خدماتهم

---

(٢) M. Opler and R. D. Singh, « The Division of Labour in an Indian Village » in C. S. Coon, A Reader in General Anthropology (New York, 1948), pp. 464-469 chap. 17 .

الخاصة . وتتباين أنظمة الهند والشرق الاوسط في وجهين رئيسين . فبينما تتجه الصناعات في الشرق الاوسط لان تكون وراثية ، لا تجد شخصاً يلزم الزاماً اكيداً باتباع حرفة أبيه . حتى إن سقّاء الماء قد يصبح ملكاً . وبينما يندر التزاوج بين ابناء الديانات المختلفة فان العائلات التي تنتمي الى دين واحد وعرق واحـــد وتتمتع بمستوى اقتصادي واحـــد ، تتصاهر بقطع النظر عن الحرفة . فهذا النظام الفسيفسائي ليس نظاماً طبقيـاً . وليس الوعي العرقي بارزاً في الشرق الاوسط ، بروزه في الهند والباكستان . بل إن معظم شعوب الشرق الاوسط تنتمي الى عرق واحد .

ان المحك لمتانة نظام اجتماعي مـــا إنما يكون في تعريضه للتوتر ومشاهدة ما يحصل له آنذاك . وتجري هذه التجربة أمامنا اليوم . فلقد احتقب اكثر من خمسة ملايين من الهندوس المقيمين في باكستان صناديقهم وحصرهم وقدورهم ومقاليهم وهاجروا الى الهند ، بينما غادر الهند الى باكستان سبعة ملايين من المسلمين[٣] . ونشأ عن ذلك انتقال عدد من الخبراء البارعين من كل من المنطقتين قبل ان يستطيع ابناء تلك المنطقة اكتساب المهارة اللازمة ليخلفوا المرتحلين .

وهاجر عشرات الالوف من اليهود الذين كانوا يقيمون في اليمن من عصور ما قبل التاريخ ، وذهبوا الى اسرائيل . وكان ليهود اليمن فيما مضى شبه احتكار لتجارة البلاد الخارجية من تصدير واستيراد ، والصرافة ، وبيع القماش بالمفرق ، والبناء بالحجارة ، ومهنة الحدادة . ولا بد ان المسلمين اليمنيين قـــد لاقوا شدة وهم يتكيفون للظرف الجديد بعد أن هاجر التجار والصيارفة والبزّازون والبناؤن والحدادون . وهجرة أمثال هؤلاء من اليهود النافعين من العراق وغيره من بـلاد الشرق الاوسط للالتحاق بأبناء دينهم من اليهود الاوربيين في اسرائيل

---

(٣) انظر : United Nations World (November, 1950), pp. 50f.

قد أخلّت ولا شك بالتوازن القائم في تلك الشعوب . وسواء أنقل المهاجرون معهم « رساميلهم » أم لم ينقلوها ، فان هذا من الامور الثانوية بالنسبة الى خسارة المهارة الانسانية . وهذان المثلان يبرزان بوضوح قوة النظام الفسيفسائي ، وما يحصل فيه من اختلال عندما يزول عنصر من العناصر التي يتكون منها .

ويتناقض النظام الفسيفسائي القديم بشكل واضح مع القومية الحديثة . فالقومية تتطلب من كل شخص يعيش بشكل ثابت في بلد ما أن يصبح مواطناً ، وان يشعر بأنه عضو في الامة مساوٍ في الحقوق والواجبات لكل عضوٍ من اعضائها الآخرين . اما بموجب النظام الفسيفسائي ، فانك اذا كنت مسيحياً في بلد اسلامي ، تعتبر زائراً ، ولو كنت انت واجدادك زائرين منذ مئات السنين او منذ آلافها . وولاؤك مرتبط برهطك الخاص او « أمتك » ، مع انه قد لا يكون لامتك هذه وطن قومي .

ويمكننا ان نفهم بسرعة كيف يعمل هذا النظام الفسيفسائي اذا ما أخذنا مثالاً بسيطاً . لنفرض انك تنهض من نومك في يوم شتوي فتشعل موقدك وتملأه بالوقود ، وتساعد زوجتك في تحضير طعام الفطور ، وتؤدي اعمالك المختلفة وتعود الى بيتك قبيل المساء ، وتحسو قليلاً من الشراب ريثما يجهز العشاء . وقد تقضي المساء في صنع خزانة للمطبخ او تصليح سلك لاحد المصابيح . فاذا كان الوقت صيفاً فانك تشتغل في حديقة البيت .

اما من يماثلك من ابناء الشرق الاوسط مركزاً ودخلا ، فلن يفكر في ان يمس الموقد او غيره من وسائل التدفئة . ولن يجهز طعامه ، او يقود سيارته او يشتغل في بستانه أو ينجز أو يصلح سلكاً في بيته . فهو رجل أعمال ، وعمله الخاص هو وحده الشيء الاقتصادي النافع الذي يهتم به . ولن يذهب الى دكان لشراء اللحم في

اوقات فراغه ، فلديه طاه يجهز له طعامه . ولديه سائق سيارة ، وخولي بستان ، اذ لا يبني الخزانات غير النجارين ، ولا يصلح الاسلاك غير الكهربائيين . ولديه عدد من الخدم والحشم ، فان اجرة العامل تبلغ نصف دولار في اليوم ولا يزيد اجر الطاهي عن خمسة عشر الى عشرين دولاراً في الشهر ، مضافاً اليها ما يحصل عليه من هدايا من الجزارين والبقالين الذين يشتري منهم حاجة البيت .

وان المفتشين الرسميين الذين تعينهم حكومات الشرق الاوسط لمرافقتنا نحن الامريكيين في تجوالنا ومساعدتنا في مهماتنا ، ليدهشون ويستغربون مما يرون من سلوكنا . فلا يستطيعون ان يفهموا سبب اصرارنا على قيادة سيارات الجيب والشحن المخصصة لنا ، ولا انصرافنا الى أعمال الحفر والتنقيب بأيدينا ، ولا ما يرونه فينا من استعجال وحركة . ونحن في نظرهم مبعوثون مجانين أرسلهم ذلك الغرب الذي يصعب فهمه . ومما يفرق الغربيين عنهم ان الغربيين يهتمون بالزمن اعظم الاهتمام فبينما يحسب الاجر في الغرب على اساس ساعة العمل يحسب في الشرق الاوسط على اساس نوع العمل . فالحداد المعلم الذي يصنع صواني الشاي ، يرجع الى عمله متى شاء ويتركه متى شاء . وليس لديه ساعات منتظمة يعمل فيها ، ولا لوحة على باب محله تعلن انه « ذهب للغداء وسيعود بعد خمس عشرة دقيقة » . وعندما ينتهي من صنع صينية ممتازة يبيعها ويبدأ في صنع غيرها . وليس عليه رئيس ولا عنده ساعة للوقت . فليس في طبيعة عمله ما يتطلب ملاءمة وثيقة بين جهوده وجهود غيره من الخبراء ، كما هو الحال في المصانع الغربية .

ويجلس التاجر في مخزنه فيقرأ كتاباً او يتحدث مع جاره في المخزن الملاصق . ويأتي احد الزبائن سائلاً عن ثمن زوج من الاحذية . وتجري مساومة بين التاجر والزبون قد تستمر نصف ساعة ، وقد

يشترك فيها المارة والاصدقاء . ويتظاهر الزبون بالانصراف ويتظاهر التاجر باعادة بضاعته مكانها . وأخيراً يشتري الزبون زوج الاحذية عادة بسعر معقول . ويتساءل الاجنبي ، لماذا يفعلون كل ذلك ؟ لماذا لا يعلقون وريقة على البضاعة تعلن سعرها المحدود ؟ لان التاجر يحب المساومة مع زبائنه . تلك حرفته وهو يجد المتعة فيها . فاذا نظرنا الى المسألة من هذه الزوايا فانها لا تبدو لنا مجرد اضاعة للوقت . وقد يمر عليه ذات يوم زبون مغفل فيبتز ما معه . ولكن هذا أقل أهمية من المتعة التي يجدها في هذا النوع من المشاركة .

ويسألك الواحد من أبناء الشرق الاوسط اسئلة شخصية كثيرة : كم دفعت ثمناً لهذه السلعة ؟ كم لك من الاولاد وهل هم من الصبيان أو من البنات ؟ فهو يحب ان يتعامل مع الناس على أساس شخصي ، وما مساومته حول ثمن المبيعات سوى مظهر من مظاهر هذا الاهتمام الشخصي . ولا تثير اهتمامه آلات البيع الاوتوماتيكية ، ولا وسائل توفير العمل . فالعمل رخيص في بلاده . ولا تستهويه الادوات بمقدار ما يستهويه الناس . فان كنت فطناً مهذباً وفاهماً أحبك ، مهما كان دينك أو عرقك أو لغتك .

وقد يعسر عليه أن يفهم لماذا يتسمّى بعض الامريكيين بأسماء انكليزية وبعضهم الآخر بأسماء المانية او ايطالية او سلافية . وكيف يمكن ان يقوموا جميعاً بنفس الاعمال ويعيشوا معاً ويعملوا معاً من غير تمييز ، مع ان بينهم البروتستانتي والكاثوليكي واليهودي . وما سبب ذلك أن الناس لم يألفوا وجود خليط من الشعوب ، ولا سببه أن الشعوب في بلادهم تعجز عن العيش جنباً الى جنب ، فقد عاشت كذلك على مدى آلاف السنين . بل ان الذي يحيرهم هو درجة انصهار الامريكيين بحيث اصبحوا شعباً واحداً .

وانك لواجد في الوقت الحاضر بضع مئات من الافراد في كل بلد

من بلاد الشرق الاوسط ممن لم تعد تدهشهم هذه المظاهر الغربية من المدنية الغربيـة ، وهم الذين تعلموا في الغرب ، وبعضهم ، وهم ابناء الدبلوماسيين ولدوا في بلاد الغرب . ولهؤلاء قيمة لا توصف بالنسبة الينا لانهم تواجهة المدنية الغربية الى ابناء قومهم . ولكن لا يجوز ان يحملوا العبء وحدهم . فان تعلمنا شيئاً عن مدنيتهم استطعنا ان نساعدهم . والزمن يجري ضدنا ، فعلينا ان نتعلم ما نستطيع تعلمه ، وان نفعل ذلك بأقصى السرعة .

ولن نستطيع ان نتعلم جيداً او سريعاً اذا ركزنا اهتمامنا على تعقيدات شارع الرشيد في بغداد ، او منطقـة الجزيرة في القاهرة او ميدان ديل هورلوج في الدار البيضاء . فعلينا أن نحيـد عن الشوارع العامرة التي تعج بها السيارات ودور السينما ، وان نتجه الى الاسواق البلدية ، وأفضل من ذلك ان نذهب الى قرية ريفية بعيدة عن الطريق او الى خيمة رعاة في أحد المروج العالية ، أو مخيم بدوي . بل إن هذه جميعاً قد تأثرت بالعصر الى حد ما . فلنعد اذن القهقرى في الزمن . ذلك لان الحضارات في فترات الانتقال يصعب وصفها ويصعب فهمها ، فعلينا اذن ان نعود الى فترة من التاريخ كانت الحضارة فيهـــا ثابتة مستقرة . فاذا عرفنا الركاز الحضاري البعيد ، استطعنا ان ندخل الى الصورة السيارات ودور السينما والبرلمانات والاذاعات اللاسلكية ، وعندها فان وجود هذه القطع من العجائن والزجاج المكسر في رقعة فسيفساء لن يشوش علينا جوهر الصورة وخطوطها .

لقد بلغت مدنية الشرق الاوسط أوجها في عهد الخلافة العباسية في بغداد ، وخلافة الأمويين في قرطبة بالأندلس . (٤) الا ان هذا العهد

---

(٤) وقد وصفها فيليب حتى بتفصيل في كتابه **History of the Arabs**
(4th ed., London 1949)

موغل في القدم بالنسبة لغرضنا الحالي ، فضلا عن أن ارتباطه بالحاضر غير وثيق . لأنّ ظهور الدويلات الايطالية واسبانية والبرتغال وهولندة وفرنسة وبريطانية ، وامتلاكها قوى بحرية ، ومهارة أبنائها في الابحار في المياه العميقة وفي القذف بالمدافع - كل هذا دفع الشرق الاوسط الى عهد فترت فيه التجارة وقلّت الثروة وقل الاتصال مع البلاد الاخرى . ثم جاء هولاكو حفيد جنكيز خان فغزا ايران والعراق ودمرهما تدميراً ما زالت آثاره باقية الى اليوم .

وفي نفس الوقت الذي كانت الامم الغربية فيه تتجه الى البحار حاملة معها التوراة والمدافع ، مستولية على تجارة الشرق من العرب والفرس ، اصبحت البلاد التي يعنينا أمرها بهذا البحث ، ابتداء من الجزائر ثم شرقاً حتى العراق اجزاء من الامبراطورية العثمانية ، ولم يبق على استقلاله بينها سوى مراكش وايران وافغانستان . وهذه الرابطة السياسية التي ترأستها دولة اسلامية حافظت نسبياً على ثبات مدنية الشرق الاوسط وتجانسها ، لمدة ثلاثة قرون او اربعة ، مع اختلافات يسيرة في اقليم دون آخر ، الى ان انسحب الاتراك وجاء الغربيون بقطاراتهم وسياراتهم الشاحنة وآلات الحفر للنفط ، وبالافكار الجديدة عن الحكومة وبالصناعة . وحينذاك فقط اهتزت ثقافة الشرق الاوسط المعتمدة على العمل اليدوي والمنتمية الى العصر المعدني .

وفي وسع المرء ان يحدد تاريخ الثورة الصناعية في مصر باستيلاء محمد علي على السلطة فيها سنة ١٨٠٥ اما في اليمن فانها ابتدأت في هذه الايام . وتتفاوت نسبة تقدمها في البلاد الاخرى التي تهمنا بين هذين الطرفين .

فالمدنية التي يصفها هذا الكتاب اذن هي مدنية هذه البلاد قبل ان تتأثر بالثورة الصناعية ، ايا كان الوقت الذي ابتدات فيه هذه الثورة

في البلد المختص . فاذا ما قرأ احد ابناء الشرق الاوسط هذا الكتاب فلا يقل بأن الاستاذ كون قد رسم صورة مهينة وغـــير صحيحة عن بلادنا ، وان بلادنا اكثر تقدماً واقرب الى العصر مما جاء في هـــذا الوصف . فاني اعلم صحة ما يقول . ولكن لو اراد هذا الشخص عينه ان يدرس الشعب الامريكي ، فمن الافضل له ان يدرس تاريخ الولايات المتحدة وثقافتها زمن الثورة الامريكية . وانا لم افعـــل شيئاً سوى تطبيق هذا المبدأ في دراستي لبلاد الشرق الاوسط .

الفصل الثاني

الارض والمياه والرياح

بما ان الجغرافيا تدرس في الصفوف الابتدائية الى جانب أحرف الهجاء والحساب ، فان معظمنا يتصور أنها شيء بسيط وأولي وان مواضيعها من نمط « ما هي عاصمة افغانستان ? » او « اذكر حدود ولاية أيوا » . وقل بيننا من يدرك انها أميرة بين العلوم ، اذ انها تجمع نتائج ابحاث علم طبقات الارض (الجيولوجيا) وعلم الاجواء (الميتورولوجيا) وعلم الانساب (الانثروبولوجيا) وعلم الاجتماع (السوسيولوجيا) والاقتصاد وعدد من الحقول الاختصاصية الاخرى . وما الجغرافي القدير إلا فيلسوف .

ولقد عرف عرب القرون الوسطى هذه الحقيقة ، وهم الذين كتبوا بعضاً من أعظم الابحاث الجغرافية التي دونها الانسان — عرفوا ان ثقافة شعب ما تتصل اتصالاً وثيقاً بالارض التي يعيش فيها . وعرفوا أن جغرافية اقليم ما تقرر نوع الحياة التي يحياها سكانه ، مثلما تقرر عظام الرجل الصحيح وعضلاته الشكل الذي يتخذه جلده . وقد ادرك علماء كابن بطوطة والادريسي وابن خلدون انه اذا اراد امرؤ فهم حضارة شعب ما ، فعليه ان يبدأ بجغرافية الارض التي يقطنها ذلك الشعب .

ونلاحظ ، من الناحية الجيولوجية ، بأن بعضاً من أقدم مدنيات العالم نشأ في أحدث الاراضي تكويناً . ففي العصر الميسوزويك (عصر الزحافات) ، وفي عصر الزحافات المبكر ، كانت معظم أجزاء افريقيا وشبه الجزيرة العربية وفلسطين وسوريا والعراق وايران وافغانستان مغمورة بالمياه . وعندما برزت هذه الاراضي الى السطح كانت تغطيها طبقات من الرسوبات البحرية المكونة من الحجر الرملي والحجر الكلسي . وهذان الحجران يسهل اقتطاعهما واستعمالهما في أغراض البناء . والحجر الكلسي منهما يمكن تحويله الى كلس مشوي واستعماله ملاطاً لتثبيت الحجارة . والرخام نوع نادر من الحجار الكلسية يصلح لصنع التماثيل . اما الصوان فانه نوع من الاحجار الكلسية غير النقية ، وهو ملائم جداً لصنع أدوات القطع التي كان يستعملها الانسان الاول .

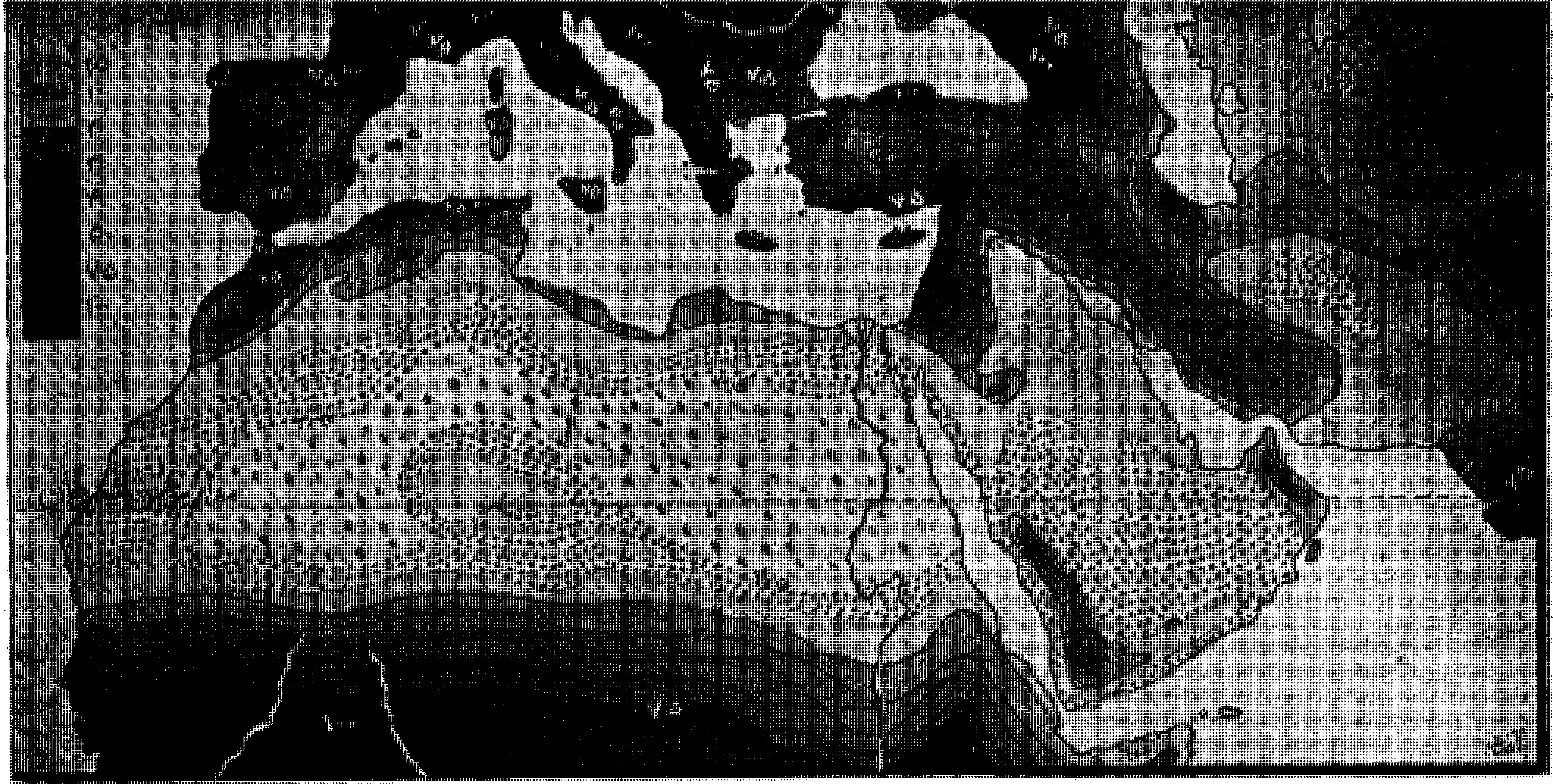
الا ان الحجرين الرملي والكلسي لا يحتويان على الخامات المعدنية او على المواد المفيدة مثل حجر اليشم وحجر الحرارة . ولا توجد هذه الخامات المعدنية النافعة في الشرق الاوسط الا في المناطق التي تموجت فيها الارض وانكسرت بحيث ظهرت الطبقات القديمة العميقة . وهذا ما يفسر لنا وجود مناجم الحديد في جبال الاطلس والنحاس في شبه جزيرة سيناء ، والنحاس في أرمينيا وفي زاجروس بايران ، والفضة في طوروس والحديد والفضة في افغانستان . وان ندرة هذه المواد والابعاد الواسعة بين النقاط التي وجدت فيها أدت الى نشوء حركة نقل فيه منذ فجر العصر المعدني . بل ان الحاجة الى السبج الارمني واليشم التركستاني لصنع الادوات جعلت التجارة عبر المسافات البعيدة امراً لا غنى عنه حتى قبل ذلك العصر .

وان جبال الشرق الاوسط الفتية ، تشبه الجبال الفتية في كل مكان في شدة انحدارها وكثرة شماريخها . فجبال الاطلس التي تأخذ شكلاً

مواربـاً وتخترق مراكش والجزائر الى تونس من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي ، تنقسم في ثلاث سلاسل رئيسية تفصلها وديان مرتفعة . ففي الطرف الغربي يقع وادي السوس الغني بين جبلي الاطلس الداخلي والاطلس الكبير ، مكوناً منطقة جغرافية منعزلة . وتنعكس هـذه العزلة في محافظة المنطقة على نمط ثقافي قديم كما سنرى فيما بعد . وفي الطرف الآخر تمتد اصابع جبلية ثلاث الى خليج قابس ، حيث يتحول الساحل الى محور يسير في اتجاه جنوبي شمالي . وهنا يتكون الواديان الواسعان اللذان يقطنهما معظم سكان تونس . والى الشمال من جبال الاطلس في مراكش ، تنحني السلسلة الريفية بشكل مستدير لتشكل مع جبال سيرا نفادا الاسبانية دائرة منكسرة . ولطالما أحست فجوة تازة الواقعة بين الريف وأواسط الاطلس ، بوقع حوافر الخيل ، وهدير سلاسل الدبابات ، من أيام عقبة بن نافع حتى أيام القائــد الامريكي باتون .

وتنكمش جبال الاطلس بين تازا وأجدة مسافة غـير قليلة فتسمح للصحراء بأن ترسل ذراعاً نحو البحر عند مصب نهر مولوية ، وتصل بذلك ما بين المنطقة الواقعة عبر الاطلس على ساحل البحر الابيض المتوسط وواحة « تفيلْلتْ »، التي اشتهرت يوما بينائها الصحراوي سجلماسة ، وبطرقها الى السودان . وهناك امتداد صحراوي آخر ، اكبر وأشد ، يفصل المرتفعات الواقعة في ظهر طرابلس الغرب عن رأس برقة المرتفع . وهذه المناطق الصحراوية المنخفضة هي التي تقسم شمالي افريقيا ، بما فيها مصر ، الى مجموعات ثلاث يعرفها العرب باسم مصر ، وافريقيا ، والمغرب الاقصى .

وفي مصر ذاتها شق النهر مجراه وسط الحجارة الرملية وما تحتها من صخور صوانية مؤلفاً بذلك تلالاً صخرية كانت تقطع منها حجارة البناء منذ ايام الفراعنة . وسيناء جبلية . وتشكل فلسطين ولبنان



خريطة توزيع المطر في اقاليم الشرق الاوسط

والساحل السوري سلسلة مزدوجة تقرب من البحر وتتصل في الشمال بجبال الصخور الكلسية في بر الاناضول . ومع ان شبه الجزيرة العربية منبسطة على وجه العموم فانها تنبسط في زاوية ، فتشبه ورق اللعب المائل الى جهة واحدة ، واليمن — زاويتها الجنوبية الغربية — هي اعلى نقطة فيها ، وفي الزاوية المقابلة ينحني الجبل الاخضر كما لو كان عضواً ضالاً في مجموعة جبال **زاجروس** ، ويجاهد للعودة الى رفاقه .

وفي الزاوية الشمالية الغربية من ايران وفي المناطق المجاورة في تركيا وما وراء القزوين من روسيا يقع نتؤ هو عقدة الجبال الارمنية واعلى قممها جبل ارارات . وتنقسم هذه العقدة الى فرعين ، يتجه احدهما الى الجنوب الشرقي ويشرف على المحيط الهندي ، وذلك هو جبال زاجروس . اما الفرع الثاني فيكاد اتجاهه يكون شرقياً مستقيماً ويصل الى حدود تركستان وافغانستان . وهذا هو جبال البرز . وتقع الهضبة الايرانية الجرداء بين سلسلتي زاجروس والبرز . واهم مظاهر التكوين الطبيعي في افغانستان سلسلة جبال هندو — كوش — الفرع الغربي للهملايا ، وسلسلة اخرى تقع الى الجنوب والشرق وهي جبال السليمانية التي تفصل افغانستان عن باكستان وبها تنتهي الهضبة .

وبعض هذه الجبال مرتفع مع انه ليس بينها ما يصل الى ارتفاع ٢٠,٠٠٠ قدم وهو ارتفاع جبال همالايا وبامير الواقعة وراء الحدود الشمالية الشرقية لافغانستان مباشرة . واعلى جبل في منطقتنا هو جبل دماوند في سلسلة البرز وهو قريب من طهران ، ويبلغ ارتفاعه ١٨,٩٣٤ قدماً وهو اعلى من اي جبل في النصف الشمالي من النصف الغربي للكرة الارضية باستثناء جبل اوريزابا (Orizaba) في المكسيك الذي يعلوه بـ ٢٣٤ قدما . فاذا تجاوزت جبل اوريزابا فلن تجد له مثيلاً حتى تصل جبل لوجان (Logan) وجبل ماكنلي (Makinley) . واذا نظرت الى دماوند المجلل بالثلج من شاطىء بحر قزوين المنخفض عن سطح

الارض بمقدار ٨٥ قدماً بدا لك في مثل روعة جبل فوجي ياما الياباني وفي نصف ارتفاعه تقريباً .

ويبلغ ارتفاع جبل شاه فولادي بأفغانستان ١٦,٨٧٠ قدماً ، واذا تقدمنا غرباً يقل ارتفاع الجبال . فأعلى نقطة في لبنان تبلغ ١٠,٠٤٩ قدماً ويقال ان اعلى نقطة في هضبة اليمن تبلغ ١٢,٠٠٠ قدماً[1] وتصل جبال الاطلس المراكشية الى ارتفاع ١٣,٧٧١ قدماً في اعلى قممها . ولنتذكر انه بالرغم من كون معظم جبال الشرق الاوسط اقل ارتفاعاً من عشرة آلاف قدم فهي ليست سهلة الاجتياز . فان سلسلة الريف الوعرة التي لا يزيد ارتفاع اعلى قممها عن ٨١٠٥ قدماً والتي يقل ارتفاع معظمها عن ٦٠٠٠ قدماً هي حاجز قوي ، وكانت كذلك على مدى التاريخ ، فأصبحت هذه النافذة المطلة على جبل طارق ملجأ يحتمي فيه البشر .

فالجبال ، إذن ، موجودة في كل دولة من دول الشرق الاوسط ما عدا الكويت ، وهي تؤدي في كل دولة وظيفة مزدوجة ، عرقلة النقل ، وحماية العصاة واللاجئين . ولها وظيفة ثالثة اعظم اهمية من غيرها ، وهي تجميع الغيوم واجتذاب الرطوبة من الرياح . والرطوبة التي تمتصها من الرياح سبق لها ان تبخرت من البحر . وعلى ذلك فان البحار والرياح تستحق اهتمامنا .

يحد الشرق الاوسط سبع مناطق مائية بينها محيطان هما المحيط الاطلسي والهندي ، واربعة بحار هي البحر الابيض المتوسط والبحر الاسود وبحر قزوين والبحر الاحمر ، وخليج واحد هو الخليج العربي . ومعظم المياه التي تصل بلاد الشرق الاوسط تأتي من المحيطين ، وهذا امر منتظر ، والقسم الاكبر منها يأتي من المحيط الاطلسي . والبحر

(١) Hugh Scott, In the High Yemen (London, 1942, rev. ed. 1947) p. 8

الابيض وبحر قزوين هما اكثر البحار مساهمة بالمياه .

ففي اشهر الشتاء تهب من المحيط الاطلسي رياح غربية ، وتحمل معها اثقال المياه شرقاً . ومعظمها يذهب في الاتجاه الشمالي ، وكثير منها يهطل على الارض في جبال الالب والجبال الكارباتية ، ومن هذه المياه تتزود انهر الرون ، والراين ، والبو ، والدانوب ، والالب ، ومعظم الانهار العظيمة الاخرى في اوربا . واوربا قارة تنال مقادير وافية من المياه . وتدخل بعض الرياح الغربية فجوة البحر الابيض المتوسط عبر مقاطعة بروفنس الفرنسية . وتدخل غيرها البحر المتوسط جنوبي جبل طارق وتلقي احمالها من الامطار الثلوج على جبال الاطلس وجبال الريف في طريقها . وتنال الكتلة البرقاوية حصة من مياهها ، وينال جبل لبنان حصة اكبر . ويستمر ما تبقى بعد ذلك في سيره الشرقي حتى يستقر اخيراً فوق الجبل الاخضر بعمان وفوق سلسلتي زاجروس والبرز بايران ، وفوق جبال افغانستان . وكلما ابتعد المرء شرقاً قلت المياه . ولو لم يزدد علو الجبال في الجهات الشرقية البعيدة لكانت معظم اجزاء ايران وافغانستان قاحلة وخالية من السكان ، إذ تصلها الرياح الغربية خالية من ماء المطر .

والرياح الغربية غير ثابتة في خط العرض الذي يقع عليه الشرق الاوسط . ففي بعض السنوات ترسل امطاراً تزيد عما ترسله في غيرها . واياً كان مجموع المطر الهاطل والمتراوح بين الصفر وخمسين بوصة في السنة في هذا الاقليم فان التغير السنوي عظيم جداً . فقد تجد نقطة في الصحراء لم تر المطر اثنتي عشرة سنة ، ثم تتدفق عليها امطار غزيرة ترسل السيول وتحيط رجال القوافل بالماء وهم في مضاربهم . والحقل الذي انتج القمح لعدة آلاف من السنين لن ينتج شيئاً منه في السنة التي ينزل فيها مطر مقداره بوصة واحدة بدل العشرين بوصة المعتادة . وقد عرف القدماء ذلك ، وبنوا الاهراء احتياطاً له .

اما الرياح الموسمية في المحيط الهندي فليس فيها اي اضطراب ، بل تظهر في مواعيدها المعينة وكأنها عقرب الساعة . ولكنها لسوء الحظ لا تنقل الامطار الا لجزء صغير من البلاد التي نبحثها . وهي تأتي من ساحل افريقيا الشمالي في الصيف ، وتمر فوق الزاوية الجنوبية من شبه جزيرة العرب وتنزل مياهها في مكانين مرتفعين : جبال قارة التي تحد ظفار على الساحل الجنوبي ، وهضبة اليمن . وفي الوقت ذاته فانها تضرب مرتفعات الحبشة غرباً ، وتملأ بحيرة تانا الى حـــد الفيضان . وهذه المياه ، مضافاً اليها مياه أوغنده هي التي تزوّد النيل . وهكذا فان مصر الواقعة على البحر الابيض المتوسط تستعمل مياه المحيط الهندي ، ومياه هذا المحيط كلها ثابتة من سنة الى سنة وترتفع في فصل الصيف .

اما مياه البحر الاسود فتحملها الرياح الغربية الى السفوح الجنوبية للقفقاس ، والى تجويف ما وراء القفقاس ، مضافاً اليها غيوم محملة بمياه الاطلسي . وبفضلها وجدت الغابات الكثيفة في منطقـــة باطوم حيث فتش ياسون عن الجزة الذهبية وقطع ملاحو سفينته من اشجارها اعمدة لاشرعة مركبهم . ومياه بحر قزوين التي تهب من الشمال وتمتزج بمياه البحر الاسود والاطلسي تضرب السفوح الشمالية لجبال البرز بعنف ، ولذا فان المقاطعات القزوينية من ايران رطبة بشكل مدهش . ومطرها هذا ثابت نسبياً ايضاً ، لاننا الآن على حافة حزام العواصف الشمالية .

واذا استثنينا اليمن وظفار ومنابع النيل ، فليس بين بلاد الشرق الاوسط بلاد يهطل عليها المطر صيفاً بكميات مذكورة . لقد رأيت مطراً في طنجة في شهر تموز (يوليه) ولكن لطنجة مناخاً قلّما ، أقرب شبهاً بمناخ البرتغال منه بالمناخ المتوسطي العادي . وقد شهدت عواصف رعدية في الجبال الواقعة غربي بحيرة اورمية في ذات الشهر ، وتظهر القياسات ان بعض المطر يهطل على الرشت في كل شهر من اشهر السنة ، مع ان اشهر الصيف أقل الأشهر مطراً في تلك المنطقة من

الغابات الكثيفة التي تدعى جانجال (ومنها اخذت كلمة Jungle التي تعني غابة باللغة الانكليزية) . وفي اشهر الصيف تهب الرياح الرئيسية من اليابسة في اتجاه خارجي ، وبما انها تأتي من الصحاري فهي حارة وقد تحمل معها الرمال والغبار .

وتمر بمصر ودول المشرق رياح مؤذية غاية الأذى تسمى الخماسين ، والتسمية مأخوذة عن عدد الأيام التي يعتقد انها تهب خلالها . وتسمى هذه الرياح في مراكش « الشرقية » . وقد تهب الشرقية طوال اسبوع دون انقطاع ، وفي اثناء هبوبها يعجز كل مركب غير آلي عن دخول جبل طارق من المحيط الأطلسي . والذين زاروا كهوف هرقل — موطن الانسان النيندرثالي في الايام التي سبقت أول أسد قتله هرقل — كثيرا ما لاحظوا مجموعات السفن نزلت الراسية في حماية الحروف الجبلية المرتفعة التي نقرت فيها الآلهة الملاجيء والكهوف . والمسافرون الحمقى او الذين يقضي عليهم نكد الحظ ان يزوروا بغداد في الصيف ، يغلقون نوافذ غرف نومهم وابوابها عبثا ، وهم يحاولون منع وصول الغبار الذي تحمله رياح الجنوب بلاءً للمدينة . تلك هي الحال اذن ، فلكل بلد رياحه الصيفية الشيطانية ، تمتحن صبر المؤمنين الربانيين .

والصيف حار في كل مكان من الشرق الاوسط ، فيما عدا الجبال . ويختلف الحر متراوحاً بين مئة وعشرين درجة فارنهيت واكثر على الخليج الفارسي والبحر الأحمر وفي بعض اجزاء العراق ، وبين السبعين في طنجة وهمذان — العاصمة الصيفية القديمة لدارا . والصحارى حارة في كل مكان في الصيف ، ولكنها تمتاز عن تهامة الرطبة ، وعن عمان ، والكويت وشط العرب ، في ان هواءها جاف ، ويلطف بسرعة اثناء الليل ، فيما عدا اسابيع صعبة قليلة .

ومن صفات المناخ المتوسطي* ، والمناخ القاري المعتمد على امطار

* نسبة الى البحر الابيض المتوسط .

الشتاء ، أن الحر ينتهي فجأة ، ويتحول الصيف الى شتاء دون أن يتخلله الفترة التي يسميها الغربيون الذين توجد عندهم الغابات — فترة سقوط الاوراق أو الخريف . وفي الشتاء تختلف درجات الحرارة في الشرق الاوسط اختلافاً كبيراً . فعلى مقربة من ساحل البحر الابيض المتوسط في افريقيا ، وفي مصر ، والعراق النهري ، والساحل اللبناني ، وعند الشاطيء الجنوبي لبحر قزوين ، وفي نقاط أخرى محظوظة ، لا تكاد درجة الحرارة تهبط عن درجة تجمد المياه . والمناخ رطب ، منشط منعش . ويختار المزارعون هذا الوقت لحرث ارضهم . وينضج البرتقال في كانون الثاني (يناير) ، وبعد ذلك يخف هطول المطر ، وينمو القمح ، وتغطي الارض بالزهور البرية بعد ان كانت في ايلول (سبتمبر) تبدو كصحراء . لقد حل الربيع بهوائه البارد العليل ، وأشرقت الشمس المتوهجة ، وتناثرت الغيوم ، وعم الشعور بالمرح والبهجة . وهذا هو فصل الاعياد عند جميع شعوب البحر الابيض المتوسط ، أياً كانت دياناتها . ويجري تتابع الفصول بالشكل المتقدم في الهضبة الايرانية ، ولكن درجات الحرارة تختلف . فالامطار المبكرة تتبعها الثلوج التي يعتمد سقوطها على الارتفاع وعلى مزاج تلك السنة ، وتملأ هذه الثلوج ممرات الجبال وتعرقل النقل . وهي سماد الارض عند الفقراء ، وتغطي الحقول وقتاً ثم تذوب في الربيع . وقد تجري الحراثة قبلها او بعدها او قبل وبعد . اما المحاصيل فتنضج فيما بعد . ولكن عيد النيروز عند الفرس فيه مثل مرح أعياد المتوسط ومثل بهجتها .

ويقسو الشتاء في الجبال العالية ، كالاطلس ، وزاجروس ، والبرز ، وهندوكوش ، حتى ان معظم الناس الذين يقضون الصيف مع أغنامهم في الاماكن المرتفعة الغنية المراعي ، يهبطون في الشتاء نحو المناطق الادفأ والاجف . اما في اليمن فهناك وضع مختلف .

فالشتاء بارد جاف ، وينكمش الناس في معاطفهم المصنوعة من جلد الأغنام وهم يسيرون في الطرق العاصفة . وقد تظهر بين الحين والحين قطعة جليد رقيقة في الخزانات الحجرية التي يجمعون بها مياه الصيف ، ويفيضونها على حقولهم .

وتسود جدة وتهامة وعدن وساحل عمان والكويت وموانىء النفط الايرانية حرارة صيفية على مدار السنة . وقد نزلت في شهر كانون ثاني (يناير) سنة ١٩٣٤ في المكلا على ساحل حضرموت واستقبلني طبيب الميناء ، وهو هندي مسلم ، وقد لبس معطفاً صيفياً وأخذ يرتجف من البرد . وقال لي « ان الجميع هنا يشكون من البرد » . وكانت الحرارة في مدى الثمانين درجة . وهذه الشقة الساحلية المحاذية لشبه جزيرة العرب من ثلاث جهات ، هي شقة خاصة من ناحية المحيط ، وقليلة الشبه بسائر اجزاء الشرق الاوسط الأخرى التي ندرسها . وقد أوجدت شعباً خاصاً ، وطرقاً خاصة في الحياة .

وتوضح الخارطة رقم (١) توزيع المتوسط السنوي للمطر ، فلا حاجة اذن لوصفها بتفصيل هنا . ولنلاحظ بأن مجموع الأمطار لا يصل مستوى اربعين بوصة وخمسين بوصة الا في بعض المواقع القليلة المحظوظة ، وهذا وضع شبيه بالأقسام الشرقية من الولايات المتحدة الامريكية ، وأوروبا الغربية والهند والصين . وتعاني كل منطقة من المناطق المحظوظة بالأمطار في الشرق الاوسط من صعوبة تكاد توازي مزيتها . ففي مراكش تهطل أغزر الأمطار في اواسط جبال الأطلس على ارتفاع يبلغ عشرة آلاف قدم ، وفي مناطق من غابات الأرز الكثيفة . فاذا استثنينا امكانات قطع الأخشاب من هذه الغابات وجدناها مرتفعة لحد انها لا تصلح للعمل في مدار السنة ، حسب المستوى المعيشي الذي تألفه شعوب الشرق الاوسط ، لان نمط حياتهم إنما تكوّن ليلائم مناطق ادفأ وأجف . والرقع المكشوفة بين غاباتها ، تغطيها ثلوج تصل الى

الركبة اثناء الشتاء ، فلا تصلح للأغنام . ولذا فان رجال القبائل الذين كانوا يمتلكون هذه المراعي (قبل ان يحيلها الفرنسيون الى جنة للتزلج على الثلج ولصيد سمك التروات) كانوا يضطرون الى ان ينتقلوا الى مناطق أقل ارتفاعاً كل خريف ، ليعودوا في مطلع الصيف عندما تكون حشائش المناطق المنخفضة قد بدأت تذبل .

والى الشرق توجد المنطقة الساحلية في تبركة والرأس الابيض ورأس سِرَّت ، في تونس . ولي بهذه المنطقة معرفة خاصة أشترك فيها مع غيري ممن حاربوا اثناء الحرب العالمية الثانية في غابات الفلين والسنديان الكثيفة التي تغطيها . ويعيش في هذه البلاد قطعان هائلة من الخنزير البري . وسكانها قلائل ، ما زالو يعيشون على النمط المعروف في العصر الحجري . وهم يعتاشون من رعي الماعز والأبقار على أوراق الشجر . والتربة رملية جداً لا تصلح للزراعة الجدية .

ونقفز بعد ذلك قفزة واسعة الى لبنان قبل ان تطالعنا اراض أخرى خضراء . فهنا ترتفع الجبال بشكل حاد . ويضيق السهل الساحلي . وقد اصبحت جبال لبنان ملجأ رئيسياً لأبناء الطوائف الخارجة عن المعتقدات العادية ، وللطوائف الدينية التي لم تجد لها مكاناً خارجه ، وذلك راجع لوعورتها . وكانت ايضاً للسبب ذاته المعقل الاساسي لنصرانية ما قبل الاسلام في الشرق الاوسط كله . وقد مهّد الناس كل شبر من السفوح الغربية من تلك الجبال وقسموها الى ربعان ؛ وذلك القطر آهل بالسكان جيد العمران ، وقد هاجر مئات الالوف من ابناء شعبه الصغير الى بلاد ما وراء البحار ، وهم يرسلون الأموال من مهاجرهم الى اقاربهم ، وتساهم أموالهم هذه في رفع مستوى المعيشة العالي في لبنان .

فاذا اتجهنا شرقاً وصلنا غابات شاطىء قزوين ، موطن التنين الخرافي الابيض في مازاندران ، وهو التنين الذي ذبحه رستم في الشاهنامة

ملحمة الفردوسي الشعبية . وهذا ايضاً من المواقــع المحظوظة ، فهو مصدر للخشب الصلب والفحم ، وأهم من ذالك انه قابل للزراعة الكثيفة . ويزرع فيه في أيامنا الحالية الأرز والشاي وتوت دودة القز ، والقطن ، والتبغ وأشجار الحمضيات . ومع أنه أكثف مناطق ايران بالسكان فان له عيبه ، وهو انتشار الملاريا فيـــه . الا أنّ مسحوق الدي دي تي (D. D. T) قد أخذ يتغلب بسرعة على هذا المرض .

ولا نعرف الا القليل عن أمطار جبال هندوكوش البعيده . ولكن لا بد ان تكون عظيمة لان سفوحها مغطاة بغابات كثيفه ، أو كانت مغطاة بها . وهنا ايضاً مواقع تصلح ملجأ للملتجئين ، وكان يسكنها شعب يسميه الافغانيون شعب « الكافر » ، وهم يشربون النبيــذ ويعبدون الاصنام ، وقد أدخلوا في الاسلام قسراً بحد السيف ، قبل نصف قرن من الزمن ، على يــد الامير عبد الرحمن خان ، الذي لم يوفر ما لهم من الاهمية الانثروبولوجية .

* * *

من الواضح ، إذن ، أن مناطق المطر الغزير في الشرق الاوسط لا تقارن بلندن وفيلادلفيا وكلكتا وشنغهاي ، ففي الشرق الاوسط تجد عيباً لكل منطقة ــ البرد الشديد ، او الانحدار الحاد ، او الرمل الكثير ، او كثرة المستنقعات وعدم الملاءمـة للصحة . فهذه المناطق المطرية ليست هي المراكز التي نمت فيها المدنية المميزة للشرق الاوسط :

تقع مراكز المدنية في المناطق المزودة بمياه ثابتة وغزيرة ، فاذا كان حر الصيف فيها مزعجاً ، فان شتاءها غير شديد البرد بحيث لا يضايق شعباً يسير افراده حفاة الأقدام ويلبسون ألبسة فضفاضة ، وتربتها غنية دائماً ، ويسهل فيها نقل المحاصيل ومواد البناء وغيرها من السلع الثقيلة .

وهذه المناطق هي وديان الأنهار الوافدة وهي : البلاد الواقعة على ضفاف النيل ، ودجلة والفرات وأسفل نهر قارون وهلمند والسند . وفي كل واحد من هذه الأنهار مياه دائمة تصلح للري . وهكذا فان مزارعي هذه الوديان يستطيعون زراعة المحاصيل ، سواء نزل الغيث أم انقطع . وهذه المياه تنقل معها من الجبال الغرين المخصب للتربة . وهي تصلح للملاحة ، ويمكن استعمال القوارب فيها على نطاق واسع ، سواء تجارياً أم بأقنيتها . وفي مصر يستطيع الملاحون ان يبحروا ضد التيار بمساعدة الرياح الشمالية .

وقد جرت العادة على أن تبزغ المدنيات العالية في مثل هذه الاماكن . فقد كان شعب الازاتكة يمتاز عن غيره من هنود المكسيك في انه مستوطن بالقرب من احدى البحيرات . ولذلك كان أفراده ينقلون سلعهم بالقوارب بدلاً من ان يحملوها على ظهورهم . وليس من المصادفة ان تكون مدنيتهم انشط مدنيات اميركا الوسطى عند اكتشافها . وقد أخذت التلال المديدة في وادي الميسيسيبي تثبت للمنقبين عن الآثار ان مدنية عالية كانت قد بدأت هناك ايضاً بمساعدة الملاحة النهرية . وفي الهند وسيام والصين ساهمت الأنهر والأقنية والقوارب المائية المختلفة بتطوير المدنيات المحلية مثلما ساهمت السكك الحديدية بتطوير امريكة .

ولا يستهن المؤرخون والمنقبون بهذه النقطة فيوهموا الناس بأن أودية دجلة والفرات والنيل اصبحت مراكز لمدنيات قديمة عالية بعامل من عوامل الصدفة . بل إن ذلك كان نتيجة خطة مدبرة وضعها خالق الأرض ومدبّرها .

فالنيل ودجلة والفرات هي من غير شك أشهر هذه الوديان النهرية المعروفة من حيث المدنيات التي انتجتها ، وهي أهمها من حيث النتائج .

ولكن قارون الأسفل كان مركزاً لعدد من الثقافات ذات الصلة بثقافة دجلة والفرات ، كما اظهرت الحفريات عنـد سوسة ، وفي الأهواز . وتقع على ضفتي نهر هلمند عند مصبه في هاموني سكارى تلال عاليـة كبيرة ، بدت لعيني غير المجربتين اكبر من تلال أور مدينة الكلدانيين ، ان لم أقل اكبر من نيبور . وهـذه التلال تنتظر الحفر والتنقيب . ونشأت على ضفاف السند ايضاً مدنية واسعة معقدة في العصر البرونزي ، وقد كشفت عنها الحفريات التي أجريت في هرابا (Hurapa) وموهنجوداور (Mohenjo-Daro)

الا ان الباكستان الشرقية تقع خارج نطاق هذا الكتاب . وننتهي اذن عند الحافة الشرقية للهضبة الايرانية ولن ندرس العالم الهائل المعقد الذي كان يدعى الهند . امـا من الناحية المناخية فان باكستان تقع ضمن منطقتنا ، لان أنهارها تصرف مياه الجبال الأفغانية ، وامطارها امطار شتوية وليست من امطار الرياح الموسمية الصيفية ، ويفصلها عن بلاد الامطار الصيفية في الهند صحراء ثار .

فاذا عدنا الى النيل والى دجلة والفرات ، واجهتنا عدة اختلافات جغرافية ، وقـد أثرت هذه الاختلافات في التاريخ . فالنيل يتكون من مجرى واحد بينما يتكون نهرا دجلة والفرات من مجريين اثنين . ولا يستطيع فلاحو مصر ان يزرعوا اكثر من أميال قليلة على جانبي النهر ، لان واديهم مغلف بالتلال والصحارى الرملية . اما سكان وديان النهرين العراقيين ، ففي استطاعتهم ان يحفروا الاقنية بين النهرين فيهيئوا للزراعة رقعة أعرض وأوسع ، ويزيدوا في اتساع الأرض التي تستطيع المراكب ان تصل اليها . والنيل يجري طويلاً بعد منبعه قبل أن يصل الى الرقعة المزروعة في مصر . وعلى جانبيه صحارى جرداء ، بينما تكثر المستنقعات والوحول عند مصبه . ومصر بلاد مغلقة في ذاتها وهي وحدة جغرافية مغلقة عن باقي العالم . والهجرات الوافـدة من

الشرق تمر بالدلتا وتستمر في حركتها الغربية بمحاذاة الساحل ، تاركة القسم الرئيسي من مصر دون ان يمس او يتأثر . والمراكب التي تبحر في النيل لا تستطيع النفاذ الى البحر الابيض المتوسط بسهولة ، ثم ان المراكب الضحلة ذات الجوانب الواطئة التي تـلائم الملاحة النهرية لا تتلاءم وعواصف البحر الابيض المتوسط . وكذلك الساريات الطويلة التي تعلى لتضربها الرياح العالية فوق النهر ، فانها غير مناسبة لرياح المياه المالحة . ولذا فان تجارة مصر مـع العالم الخارجي كانت منذ أقدم الازمنة بأيدي الاجانب .

أما في بلاد ما بين النهرين فاننا نجد الصحراء غربي النهرين ، والجبال شرقيها . والصحراء ليست في مثل محل الصحراء المصرية ، بل يعيش بها عدد قليل من الرعاة الذين يهبطون ضفاف الانهار صيفاً إذا لم يهطل في الشتاء غيث يكفي لرعي قطعانهم وسقيها . ويسكن الجبال شعوب قوية ، وهذه الشعوب ايضاً تزور وديان النهر بين الحين والآخر . فبلاد مـا بين النهرين ليست معزولة كمصر . وهي على اتصال دائم بالبدو وسكان الجبال ، وهـذا أدى الى تكرر التغير في العناصر الوراثية التي يتكون منها السكان وأوجد تبادلاً ثقافياً اوسع . وتقع بلاد ما بين النهرين على الطريق الرئيسي بـين الهند والبحر الابيض المتوسط ، وعلى ملتقى للطرق والتجارة . اما مصر فتعتبر نسبياً جيباً جانبياً . فليس صدفة ان تأخذ مدنيتنا قسطاً أوفر من بلاد ما بـين النهرين ، التي أخذنا منها الدائرة ذات الثلاثمائة وستين درجة ، والساعة المؤلفة من ستين دقيقة . وأعظم مدن الشرق الاوسط اليوم ، بغداد والقاهرة ، لانها واقعتان في نقاط ملائمـة من أنهرهما ، كما هي حال نيويورك ، ولندن ، وشانغهاي ، وكلكتا .

ان علماء الاجواء يعتبرون النبات مقياساً عامـاً للمناخ ، يلخص جميع المظاهر المطرية ، والحرارة ، والرياح السائـده ، والارتفاع .

ولو استطاع امرؤ ان يختلط بأجداده في الوقت الذي تكوّن فيه مناخ ما بعد عصر الجليد ، وقبل ان يتمكن هؤلاء الاجداد النشيطون من تجفيف المستنقعات وتعرية الجبال ، ولو كان هـــذا الرجل عالم نبات بيده دفتر لتدوين الملاحظات ، وآلة للتصوير ومقدار كبير من الصبر ، لاستطاع ان يصف لنا نبات الشرق الاسط بكثير من الدقة .

والحقيقة أنه ليس على سطح الارض بلاد تعرت تربتها وانجرفت ، كبلاد الشرق الاوسط ، اللهم الاذا استثنينا الصين . واننـا لنقرأ في التاريخ عن الحديقـــة المراكشية الغناء زمن الرومانيين ولا نرى في مراكش اليوم سوى جبال جرداء . واستورد المصريون آلافاً وآلافا من جذوع اشجار الارز من لبنان ، وترى في جميع متاحف العالم التي تضم آثار مصر نماذج من هذا الخشب صنعت منها التوابيت او غيرها من قطع الاثاث . ولو ذهبت الى الجبل نفسه لما وجدت فيه أرزاً يكفي لصنع مركب واحد ، بالرغم من الجهود الاخيرة للمحافظة على الغابات ولاعادة التحريج .

قبل مئة عام[٢] كان حمالو الحطب يذهبون من بغـداد الى جبال السليمانية في كردستان لقطع الاشجار ، التي كانت تلقى بمياه دجـــلة لتجري فيها مـع فيضان الربيع . وكان الحراس يوضعون على طول النهر لمنع سرقتها ، ثم تلتقط أخيراً في بغداد . اما اليوم فيصعب ان تجـــد شجرة باسقة في لواء السليمانية كله . وفي ايران يدهش المرء للاختلاف بين نوعين من تعري الارض من الاشجار احدهما في المناطق المزروعة او القريبة من القرى ، حيث يخرج الاطفال بأكياسهم كل صباح لجمع كل قشة نباتية قابلة للاحتراق فلا يتركون وراءهم شيئاً حتى

---

(٢) حديث خاص مع الدكتور جورج كاميرون .

ما نسيته الحيوانات او عفت عنه ، وثانيها في الصحراء البعيــدة عن القرى والتي لا تنال مثل هذه العناية ، فتجد فيها وفرة من النباتات الطبيعية وبينها النباتات ذات الرائحة العطرة . وقد شاهدت بالقرب من جبال البرز عند سرخس مرة اشجار عرعر كانت قد قطعت وحطمت . فسألت احد الجنود « الا يحمي القانون هذه الاشجار » ? . فأجاب : « نعم يحميها ، ولكن الحكومة لا تستطيع ان تضع جندياً بجانب كل شجرة » .

والمأزقان الكبيران في الشرق الاوسط هما الماء والخشب . ويظهر الناس براعة فائقة في استعمال المياه . ففي الجبال الريفية يلاحظ المسافر الذي يسير بحذر بالقرب من الوديان بأن الممر الذي يسير عليه هو ايضاً جدار لاحد خنادق الري . وتنقـل المياه من جانب لآخر من الوادي في الأماكن الضيقة بواسطة أقنية من جذوع الاشجار المجوفة . وترى مناظر مشابهة في جميـع جبال الشرق الاوسط . وعندما تصل المياه الى الأراضي المنخفضة ، فانها تكون قد استعملت بضع مرات . وفي اليمن قد تعد ثلاثمائة جدار في جانب واحد من الجبل ، بعضها فوق بعض . وفي مصر وسوريا يستعمل الفلاحون طرقـاً عديدة بينها العجلات والقساطل في الأماكن السريعة الجريان ، لرفع المياه الى مستوى الحقول . وفي الصحراء يرفع البدو الماء من آبار قديمـة عميقة . وفي ايران وافغانستان وعمان يحفر الناس الأنفاق لجر الميــاه الجوفية من الينابيع الواقعة في أطراف الجبال الى الواحات الاصطناعية التي تبعـد أميالاً عنها في السهول . فاذا كانت التربة ناعمـة فانهم يقوون الأنفاق بالكلس المشوي . ويلاحظ المسافر قضباناً عمودية تتابع كل خمسين ياردة وترال بها الانهيارات في الأنفاق . وتعود هذه الأقنية الى عهد دارا ، وربما الى ما قبل ذلك .

وما زال الخشب موجوداً بكميات تجارية في بعض انحـــاء شمال

افريقيا كما في غابة كتامة في مراكش الشمالية ، وفي منطقة صفرو في الأطلس الاوسط وفي أعالي الجزائر الشرقيـــة حول جولة . ولم يبق من الخشب في لبنان وسوريا ومعظم العراق سوى كميات قليلة . وأهم مصدر للخشب في ايران هو السفوح الشمالية لجبال البوز التي كانت تقتطع منها اخشاب الصناديق ، وما زالت فيها غابات كثيفة من السنديان والزان . هذه الغابات النادرة البعيدة لا تكفي لتزويد الشرق الاوسط بالاخشاب التي يحتاجها . ومعظم الاخشاب المستعملة في الخزائن الدقيقة التي تصنع في أي سوق من موقدر حتى كابل تستورد من الخارج ، ومعظمها لا يأتي من اوروبا او امريكة وانما يستجلب من الغابات الاستوائية في افريقيا والهند والملايو .

ولنذكر ان الخشب ليس مادة بناء فحسب بـل هو وقود ايضاً . والفحم اثمن وقود في الشرق الاوسط ، لانـــه يعطي شعلة حارة لا دخان لها ، وهو ضروري في بيوت بنيت مساكن صيفية لا شتوية . ويحتاج اليه في صنع المعادن وشواء الفخار والخـــبز . ومعظم الناس يستعملون روث الحيوانات وقوداً لغــــلي الشاي والحساء وغيرها من العمليات التي تحتاج درجة حرارة مقدارها ١٠٠٠° ف . واكثر . اما طبخ اللحم ، والخبز ، والصهر وغيرها من العمليات التي تحتاج نيراناً أحر فهي من المشاريـع العامة او التي يتخصص لها بعض الناس .

وفي إيران يستغرب الناظر وجود نصف فـدان من اشجار الحور النامية بجانب قناة المياه على مقربة من كل قرية . وهذه الاشجار تنمو بسرعة وتبقى اغصانها قريبة من جذوعها . والشجرة ذات الجذع البالغ اربع بوصات تنمو على بعد لا يزيد عن ثماني عشرة بوصة من الشجرة المجاورة لهـــا . وزراعتها افضل الطرق واسرعها لانتاج قضبان طول احدها عشرون قدماً ، في اصغر مساحة ممكنة من الارض . وجذوع الحور هي المادة الشائعة لقضبان السقوف ، وإطارات النوافذ وعمدان

الابواب وغيرها . لقد انتقلت الغابة من الجبل الى السهل .

ومن السهل علينا نحن الامريكيين الذين لم ننتبه إلى أهميـة حفظ الغابات إلا مؤخراً ، ان نستهجن قطع غابات الشرق الاوسط . لقد عشنا في بلاد غنية لفترات تتراوح بين مائة عام وثلثمائة ، حسب تاريخ فتح البلد الذي نعيش فيه ، ولم نهدر في هذه المدة اكثر من نصف مواردنا الاولية من الغابات وتربة السطوح . اما شعوب الشرق الاوسط التي تعيش في محيط أفقر بكثير فانها استنزفت في خمسة آلاف سنة ما لا يزيد عن تسعين بالمائة من هذه الموارد ، فماذا كان يحصل لو انهم استنزفوها بسرعة استنزافنا لمواردنا ! .

* * *

ومـــع ان أبناء الشرق الاوسط يحطمون أشجار الغابات ، فانهم شديدو التقدير للأنواع النباتية الصالحة للأكل والتي تتوفر بكثرة في اراضيهم . فلم ينجح الانسان في اي مكان آخر من البسيطة بتأليف مثل هذا العدد الكبير من النباتات والاشجار القابلة للزراعة وتحسينها . ومعظم المأكولات النباتية التي نأكلها استنبطت في هذه المنطقة . فقد عرف فيها القمح والشعير والشوفان من الحبوب الصغيرة ، وربما الذرة ايضاً . وكذلك الفاصوليـا ، والحمص والعدس والكرسنة والقطاني . وفيها استنبت البصل والثوم والكراث . ومنها أخذنا التـين والكرم وجميـع الانواع المنتمية الى فصيلة البطيـخ ، التي تروي المسافر في حر الصيف ، وكذلك الرمان ، وما زال في مازندران غابة بريّة كاملة منه ، والزيتون والسمسم للزيت ، والتفاح والكمثرى والسفرجـل . وفي السفوح الغربيه لزاجروس قرب **سانانداج** غابة من الكمثرى البرية . ثم الخوخ والدراق ، والمشمش واللوز ، والجوز والزعفران . وينمو النخيل في الصحراء وعلى مقربة من الانهار .

ومهما تكن هذه القائمة ناقصة فانها تكفي لتظهر ان انسان الشرق الاوسط تعلم قبل وقت طويل زراعة النباتات التي توفر الكاربو - هايدروجين ، والبروتين ، والزيوت ، وكذلك السكر المستنبط من على الفواكه المجففة التي يأخذها من بستانه ومن نخيله . وليس ثمة من يعرف اين ابتدأت الزراعة ومتى ابتدأت . وهناك ما يدل على ان الناس كانوا يحصدون حشائش القمح في اريحا في الايام السابقة لصنع الخزف ، قبل سنة ٦٠٠٠ ق. م. والقرائن على ذلك تشمل الصوان المسنن الجوانب الذي كان يستعمل مناجل للحصاد ، والذي ما زال يحمل آثار الرمل من سنابل القمح ، وكذلك المطاحن الحجرية التي كانت تستعمل في طحنه . وهناك قرائن على زراعة أقدم عهداً في جنوبي بحر قزوين ، بينها مناجل للصوان ، والمطاحن ، والفؤوس وبعض الخزف الفج الصنع ، التي ربما عاد صنعها الى سنة ٥٣٣٠ ق. م.(٣) .

ربما ابتدأت الزراعة في اكثر من مكان واحد ، وتوسع القائمون بها في كل مكان حتى اتصلوا بغيرهم وتبادلوا وأياهم المنتجات والافكار ، والحاجة تدعو الى بحث طويل ، والى ازالة التراب عن تلال و كهوف كثيره بشكل نظامي ، وفي عمق ، قبل ان نقطع في الامر براي . فمن حفر تلّا او كهفاً فلا يكتف بالتسجيل الدقيق للصوان والحجارة والخزف ، طبقة فوق طبقة ، بل يجب ان ينقب عن عظام الحيوان بنفس الصبر الذي يبحث فيه عن عظام الانسان . فعظام الحيوان تكشف ناحية ثانية من القصة ، ناحية تأليف حيواناتنا الرئيسية في المزرعة والاصطبل ، وهي الثور والاغنام والماعز والخنازير والحصان والحمار ، وحتى الكلب .

---

(٣) E. K. Ralph, Univ. of Penna, Radio Carbon Dates I., Science, Vol. 121, pp. 149 - 51, 1959.

ان الامريكيين الذين يأكلون لحم البقر في أيام الآحاد ، ولحم الخنزير مع البلدي ، لا يعرفون مستحقاً للشكر على هـذه الطيبات سوى المصدر الالهي الأعلى الذي منحنا كل شيء في هـذا الوجود . ولكنهم لا يعرفون ان الصيادين الاوائل والمزارعين القدماء في الشرق الاوسط هم الذين اصطادوا هذه الحيوانات وألفوها لاستعمالهم . تصور نفسك راجلا ، لا سلاح معك سوى القوس والسهام وحبل طويـل وفأس من حجر ، وقد تكون منفرداً او مع جماعة من ابناء جنسك ، وقد خرجتم جميعاً الى الغاب لاصطياد ثور بري او كبش بري في شعاب الجبال.

وبعدما اقتنصت هـذه الحيوانات وألفت امكن استعمال معظمها لاغراض غير توفير اللحم والجلود ، أقول معظمها مستثنياً الخنزير وحده من بينها ، فهو يأكل كمية كبيرة من الطعام ويستطيع أن ينمو بسرعة ، ويسمن كثيراً ، وتلد انثاه اثنى عشر خنزيراً دفعة واحدة . فهو « مصنع » الطعام المدهش في المزرعة . الا أنه لا يصلح للعمل المفيد ولا يحلب ولا يجز صوفه . وهناك قصة عربية قديمة تتحدث عن خروف ومعزاة وخنزير عاشوا معاً ، فقال الخروف « لنذهب الى السوق مع صاحبنا » وقالت المعزاة « اسرع ايها الخنزير ، فنحن ذاهبون الى السوق » فقال الخنزير « يمكنكما ان تسعدا وتستعجلا ، فأحدكما سيحلب ، والآخر سيجز صوفه ، اما أنا فانني سأذبح وأقطع » .

واذا استثنينا الكلب فلعل الاغنام والماعز اول الحيوانات المبونة تأليفاً ، وقد حصل تأليفها حتى قبل زراعة الحبوب . فأما الثور الذي جاء فيما بعد فقد كان في الغالب اول حيوانات الجر ، ثم تبعه الحصان . وأصبح هذان الحيوانان مضافاً اليهما الحمار حيوانات الاثقال . ووفرت الابقار والماعز والاغنام الحليب ، وأخذ الصوف ايضاً من الاغنام . ويحتاج الثور الى بلاد غزيرة المياه لانـه يعيش في الغابات والسهول الغزيرة المرعى ، ويحتاج الحصان الى حبوب يأكلها . وتأكل

الماعز اوراق الاشجار في الغابات ، وتجوب شعاب الجبال ، بينا تحتاج الاغنام الى حشائش المروج والسفوح . والخنزير الذي دخل الاصطبل مع الثور في نفس الوقت تقريباً ، لا ينفع اقتصادياً الا في غابات الزان والسنديان ، وترتفع كلفته في غيرها من الامكنة . وتظهر آثار العصر المعدني القديم في الشرق الاوسط بقايا عظام خنزير كثيرة . وبتزايد السكان وتضاؤل الغابات ، حلت الحيوانات الاقل كلفة والمفيدة لاكثر من غرض واحد محل الخنزير . وقد ألف احدهم الجمل في مكان ما ، والظاهر ان هذا الحدث وقع في الالف الثانية قبل الميلاد في جنوب غربي آسيا[٤] ، ولم يعرف في اوربا قبل ايام الفرس (حوالي سنة ٥٠٠ ق. م.) ولم يعرف في شمال افريقيا الا حوالي سنة ٤٠٠ ب. م. وعندما ادخل الى الصحراء الافريقية خلق ثورة في حياتها كما سنرى .

ومنذ بداية العصر الحجري المتأخر فهم مزارعو الشرق الاوسط ، الذين سرعان ما دخلوا العصر المعدني ، العلاقة الوثيقة بين الزراعة والحيوانات الاليفة . وجرت الثيران المحاريث والالواح التي تسوى التربة وتمشطها . وداست الثيران والخيل على القمح لدرسه في البيادر والاجران . ورعت الابقار في حقول القمح بعد حصاده ، وأصبح روثها سماداً يزيد في خصوبة التربة ، اذا لم يستعمل وقوداً .

ولم يحصل في أي مكان آخر من العالم مثل هذا الارتباط الوثيق بين تربية الحيوانات والزراعة ، الا فيا بعد ، اقتباساً ، بأوربا . فزارع الرز الصيني يستعمل الثيران ولكن نوع زراعته يتطلب عملا انسانياً اكبر . وهو لا يعتمد كثيراً على الحيوانات في النقل ، لان معظم نقله الداخلي يجري بواسطة الانهار . ويصدق الشيء ذاته على

---

(٤) هذا الحدث محاط بالغموض . انظر الفصل الرابع ، التعليق العاشر .

معظم الهند وأفريقيا السوداء ، حيث تقسم البيئة الناس — ومن عناصر البيئة ذبابة التسى تسى – الى رعاة او مزارعين ، ولكنهم قلما كانوا رعاة ومزارعين معاً . ولم يؤلف قدماء الامريكيين الاصليين سوى حيوان واحد ، هو اللاما ، الذي اقتصر على منطقة صغيرة لانه يختص بالمرتفعات العالية .

وقد نجت حيوانات كثيرة في الشرق الاوسط من التأليف . فالاسد كان ذات يوم يتجول ويزأر ، من طنجة حتى مضيق خيبر . وقبل أقل من مئة عام تقريباً اي في سنة ١٨٤٦ اصطاد سيردرموند هي أسداً بالقرب من مضيق جبل طارق[٥] ، وفي المدة الواقعة بين سنوات ١٨٤٠ و ١٨٤٢ اصطاد سير هنرى لايارد الاسود مع شيوخ البختياري في سفوح جبال زاجروس[٦] . ولم يتبقَّ إلا بعض الاسود في الاطراف الشمالية للصحراء الافريقية ، وربما بقي القليل منها في افغانستان وايران . وهذه الاسود هي من سلالة تلك الحيوانات المتكبرة التي أحب ملوك آشور ان يقووها بالارسان ، كما تظهر لنا مخلفات خواتيهم . ويستعمل الاسد نموذجاً للشعار القومي في ايران ، ووراءه الشمس الطالعة ، وفي يده سيف مسلول .

ومـا زالت النمور ترهب حارقي الفحم في غابات البرز ، والفهود السوداء تشكل هدفاً طيباً للصيادين في جبال الاطلس الوسطى . وفي سنة ١٩٣٠ كان امام اليمن يحتفظ بفهدين كبيرين في قفصين بقصره في صنعاء . وتوجد الخنازير البرية بكثرة حيثما وجدت غابات السنديان . وتكثر الضباع في أطراف الصحراء ، وتهبط الذئاب من الجبال في الشتاء لمهاجمة الاغنام ، بينما تختبىء بنات آوى في الخنادق في كل مكان .

---

(٥) B. Meakin, The Land of the Moors (London, 1901), p. 56.

(٦) Sir A. H. Layard, Early Adventures in Persia, Susiana, and Babylonia (London, 1887), I, 438-446.

وأهم حيوانات الصيد الغزال الذي يصطاد بالكلاب السلوقية والصقور. وتهدد سيارة الجيب بقاءه بالابادة. غير ان بعض الحيوانات بعيدة عن متناول الجيب كحيوان الاوداد او المفلون، والغنم البري في آسيا والوعل الذي يعيش في صخور جنوبي شبه جزيرة العرب والماعز ذات القرون المعقوفة في جبال البرز. وتصطاد طيور السمن، والحبارى، والحمام في الاماكن الجرداء الموحشة. وتقصد رفوف البط والاوز المهاجرة الى مستنقعات شط العرب وأسفل هلمند ومزارع الرز الواقعة على بحر قزوين فيتبعها الصيادون ببنادقهم وشباكهم. ولعل وفرة الطيور المائية كانت من أهم الاسباب التي دفعت الناس الى الاستيطان في وديان دجلة والفرات والنيل في أقدم الازمنة، عندما كانت الحشائش والاشجار تنمو على أطراف هذه الانهار.

ومن الدوافع الاخرى توفر السمك بكثرة في هذه المياه. وتقع أهم مناطق السمك في الشرق الاوسط في ايامنا الحالية على مبعدة من مصبات الانهار. فمياه النيل الحمراء المليئة بالمواد النباتية توجد منطقة سمكية كبيرة بين مصر وكريت ولبنان. والمنطقة الثانية تقع في الخليج العربي وهي مشهورة فبلآلئها، وهناك منطقة ثالثة واقعة في مياه قزوين الجنوبية في الانهر السريعة التي تنصب فيها مياه غابات البرز. وهذه مشهورة بسمك السترجين وكافياره الذي يأخذه الروس بموجب حقوق مكتسبة بمعاهدة.

ولو نظرنا الى بلاد الشرق الاوسط ككل واحد لوجدنا ان بيئتها كانت جد ملائمة لنمو مدنية عالية في الازمنة القديمة وللمحافظة على تلك المدنية في آلاف السنين التالية. فالمناخ المعتدل والمتغير، ووجود النباتات والحيوانات الملائمة للزراعة والتأليف، والانهر التي تجلب المياه الثابتة الوافرة وتهيىء فرص الملاحة الداخلية وتحتاج الى ضبط من أجل الري، وندرة المعادن المفيدة وما جرت اليه من حاجة

للانتقال والتجارة – هذه كلها كونت الاطار الطبيعي للشيء الذي تم فعلاً. وانتقل الزمام بعد ذلك الى بلاد اغنى واكثر ملاءمة للمرحلة التالية بعد ان اوجد الشرق الاوسط الوسائل التقنية الاولية ، بسبب نقص الوقود والماء فيه . والآن بعد ان اكتشفت مصادر جديدة للوقود في الشرق الاوسط وبعد ان اصبحت السدود التي تبنيها الآلات الحديثة قادرة على توفير الماء وتزويد القوة ، وبما ان هذه البلاد ما زالت تحتفظ بأهميتها الاستراتيجية ، فانها قد اخذت تستعيد مكانها المركزي على مسرح العالم .

الفصل الثالث

الشعوب

القديم منها والحديث

ان شعوب الشرق الاوسط متعددة ومتنوعة ، ولو أردنا ان نعددها بلداً بلدا او لغة لغة لاحتجنا الى كتاب كامل . وترتبط هذه الشعوب كلها فيما بينها في ان لكل منها دوراً يلعبه في تقسيم العمل القائم على الاختلاف العرقي ، ذلك التقسيم الذي يشكل اول الابعاد وأوضحها في هذه الفسيفساء . فاذا تجاوزنا هذه العلاقة العامــــة فان أفضل طريقة لتعدادها ، من أجـل غايات البحث ، هي في تصنيفها الى ستة أصناف على أساس من اللغة ، وهذه الاصناف الستة هي التالية :

أ — الشعوب القديمة التي انقرضت لغاتها (الشومريون والعيلاميون والمصريون وغــــيرهم) . ب — البربر . ج — الدراويديون . د — الساميون . هـ — الهند — اوربيون . و — الترك — مغوليون .

وهـذا التصنيف اللغوي لا يعني ان أفراد كل شعب من الشعوب المذكورة يتكلمون لغة واحدة دون غيرها ، فان القلائل في الشرق الاوسط هم الذين يتكلمون لغة واحدة فحسب ، خصوصاً بين الكبار . بل ان التصنيف مبني على أساس اللغة التي يتكلمها افراد كل شعب في هدوء منازلهم — تلك اللغة التي يتعلمها الطفل قبل غيرها ويرضعها مع حليب أمه او بعده بقليل .

الشعوب القديمة والفريدة والمنقرضة

بالرغم من ان العديد من اللغات التي يتكلم الناس بها اليوم في الشرق الاوسط كانت متداولة على الالسنة منذ آلاف السنين فلقد عرفت فيه لغات أخرى زالت اليوم واندثرت ، وبين هـذه اللغات المنقرضة لغة الشعب الشومري أقـدم الشعوب التي وضعت لحياتها سجلاً مكتوباً . فالشومريون هم الذين اخترعوا حروف الكتابة الاسفينية [المسمارية] ، ونقشوها على لوحات من الآجر ؛ وهذه الكتابة التي ابتدأت كالكتابة الصينية على أساس من التصوير ، انتقلت من التصوير الى مرحلة الايحاء فوضعت انواعاً عديدة من الرموز التي تمثل مخارج صوتية وأصنافاً من شتى الظواهر . ولحسن الحظ فان المادة التي كتبت عليهـا هي مادة تطيق البقاء نسبياً . وبالرغم من ان بعض اللوحات قـد تكسر فان غيرها بقي سليماً على حاله . ويقضي بعض العلماء حياتهم كلها وهم يقرأون هذه الوثائق الاخاذة .

ومعظم اللوحات عبارة عن حسابات تجارية — فلان مدين لفلان بمبلغ معين ، سلـّمت ثلاث بقرات واثنا عشر كيلاً من قمح الى فلان ، يتعاقد فلان مالك المركب مـع فلان الربان ليبحر بمركبه الى البلاد الاجنبية على ان يتقاسما الربح مناصفة فاذا غرقت السفينة كان الربان هو وحده المسئول عنها . وبعضها يتعلق بالكنز المقدس لآله من الآلهة بينا يتحدث بعضها الآخر ، كملحمة جلقاش ، عن أعمال الشجاعة العظيمة التي قام بها ابطال ينتمون الى عهد أقدم وأبعد .

واللغة الشومرية التي كشفها العلماء خلال جيلين في كثير من الصبر والمهارة ، هي لغـة يصعب ربطها بأي شكل معروف من أشكال اللغات . فهي تشابه اللغات التركية والفنلندية ولغة البشكنس [البسك]

ولغـــات أهل القفقاس في أن كلماتها تتكون من تعاقب التراكيب . وكان لها نظام من أحرف العلة المنسجمة ، أمكن بواسطته الملاءمة بين أحرف العـلة الموجودة في كل جزء من أجزاء الكلمة المركبة . ولا صلة بين كلمات هذه اللغة وبين أي من اللغات المكتوبة ، وسبب ذلك يرجع في الغالب الى انه لا توجـــد لغة معروفة تساويها في القدم الا اللغة المصرية .

ولا يعرف أحد من أين جـاء الشومريون ولكن من الواضح أنهم هبطوا وادبي دجلة والفرات من مكان آخر ؛ وقـــد كانت الاقسام السفلية من هذين الواديين تتكون حوالي سنة ٤٠٠٠ قبـل الميلاد من تربة رسوبية تصل حتى الخليج الفارسي ، وكان هـذا الخليج يمتد الى الشمال الغربي بمسافة تتجاوز موقعه الحالي بمقدار مئة ميل . ولم يكن في هذه الارض قطعة صوان واحدة ولا حجر واحـــد ولا ذرة من معدن .

جاءوا مزارعين ومجذفين في مرحلة انتقالية بين العصر الحجري المتأخر والعصر البرونزي . واستجلبوا معهم أدوات من حجارة السبـج لقطع الجلد واللحم وطحن الحبوب ، وفؤوساً من حجر اليشم وغـــيره من الحجارة الصلبة لقطع الاخشاب ، واستجلبوا البرونز[١] للسلاح ولبعض الادوات القليلة ، والصخور البركانية لطحن الحبوب ، والحجار الثمينة مثـل حجر الطلق والبلور لتطعيم الاواني ؛ والذهب والفيروز وغيرها من المعادن الثمينة والحجارة الكريمـــة للزينة ولاغراض الاستعمال

---

(١) هذا القول مبني على أساس تحليل كياوي لبعض النماذج المكتشفة في أور ، وقد اجرى التحليل سيرليونارد وولي . انظر :

H. J. Plenderleith « Metals and Metal Technique » in C. L. Woolley, Ur excavations (London & Philadelphia, 1934), II, 284-248, chap. *14*.

« ويشك جورج كاميرون بهذا القول » .

الرمزي ، وجلبوا ايضاً القمح والشعير ومعظم النباتات التي سبق ذكرها ومعظم الحيوانات الاليفة المعروفة واهمها الثور والخنزير والغنم والماعز ، وربما لم يكونوا يعرفون الحصان في بادىء الامر لكنهم عرفوه بعد ذلك بقليل . ويختلف العلماء في الرأي حول المكان الاصلي الذي جاء منه هؤلاء ، فمنهم من يعتقد بأن المكان واقع على شواطىء الخليج الفارسي وانهم نزحوا عن طريق البحر . ولكن التنقيب الاثري القليل الذي اجرى حتى الان في تلال البحرين وعلى الشاطىء السعودي لم يكتشف اية آثار بعيدة القدم . ويرجم غير هؤلاء ظناً بأن المكان الاصلي لا بد واقع على شواطىء بحر قزوين ونهر [جيحان] عندما أصبح هـذا النهر الاخير يصب في بحر قزوين . ولكن هؤلاء ايضاً يعوزهم الدليل فليس هنالك من أثر محسوس يثبت هذا القول او يدحضه . ولا نعرف عنهم سوى أشياء توحي بأنهم كانوا بحارة حين جاءوا ، اذ ان لغتهم تحتوي على جميع الكلمات المتعلقة بالمراكب والابحار كالقلاع والصواري والاشرعة والحبال التي تعلي الاشرعة وتحفظها وأماكن بناء المراكب والترسانات .

وقد اخترع الشومريون اختراعين أحدهما ميكانيكي والآخر كيمائي كان لهما في العالم تسلسل كبير وأثر عظيم ، أو لعلهم إن لم يخترعوهما فقد اكملوهما ونشروهما في العالم . فالاختراع الاول هو نظرية الدولاب الدائر . ويبدأ هذا الاختراع باكتشاف الانسان للنار ، ذلك الاكتشاف الذي يعد أول مأثرة انسانية انفرد فيها الانسان عن الحيوانات ، اذ بواسطته تمكن من توليد قوة غير قوة عضلاته . والناس في كل العالم يوقدون النار : فبعضهم يوقدها بحجارة الصوان وحجارة الحديد ، وبعضهم يوقدها بالقدح في كوم من القش ، وبعضهم يوقدها بواسطة محراث النار او منشار النار اذا توفرت لديهم الانواع الملائمة من الخشب ، وهناك من أوقد النار في الايام التي سبقت حجارة الصوان والفولاذ وأعواد الثقاب بادارة قضيب خشبي في موقد خشبي . وكان قدماء المصريين بين هؤلاء الذين استعملوا القضيب الخشبي والموقد الخشبي كما يتضح من الرسم

الهيروغليفي الذي وضعوه للنار ، ويعني هذا الرسم عندما يستعمل مع غيره من الرمز « مثقب النار[٢] » .

وأسهل طريقة لادارة دولاب إنما هي في إدارته بين راحتي اليدين ولكن القضيب لا يلبث أن ينزلق من الايدي وهـذا يستدعي فترة ركود ، والابتداء مجدداً ، قبـل الوصول الى اللحظة التي تقدح فيهـا النار ؛ فمن الافضل اذاً استعمال طريقة أخرى ، كأن يستعمل قوس أو حبل . وربما كان أفضل من هذا وذاك استعمال حبلين مربوطين في اتجاهين متعاكسين وموثوقين بقضيب ، ولا تبقى سوى خطوة بسيطة بين هذا القضيب والمثقب المتحرك . وقد نقش الشومريون أختاماً على اسطوانات ، وكانوا يستعملونها للتوقيع على وثائقهم الدينية والسياسية . وكان لنفس الختم على الآجر مفعول شبيه بمفعول الامضاء في ايامنا الحالية ولكن الختم كان اكثر نفعاً لان الموظف العادي لم يكن يعرف الكتابة ، فكان يترك التفاصيل للكتبة المحترفين .

ولو أخذت قضيباً وأدخلت طرفه مسافة قدمين في حفرة من الحفر وثبّت اعلاه وألصقت به قرصاً خشبياً لحصلت على دولاب الخزّاف ، ولو وصلته بمحرك رجـلي وجلست على طرف الحفرة لامكنك ادارة القرص الرجلي بقدمك تاركاً يـــدك حرة لصنع الخزف على القرص المتحرك ، وما دولاب الخزاف سوى جهاز للاسراع في صنع الخزف ، يمكّن الفرد الواحد من ان يصنع من الاواني الخزفية في اليوم الواحد أضعاف ما يستطيع ان يصنعه بيديه .

---

(٢) Arthur Ungnad, Zeitschrift für Aegyptische Sprache (1906), Bd. 43, pp. 161-162. See also its use in « The Tale of the Shipwrecked Sailor, » op. cit., p. 9, quoting the Petersburg Papyrus 1115, ll. 54-55.

والآن لنفرض انك شومري قديم وأن لديك في فناء منزلك عدداً من دواليب الخزف . قد يخطر ببالك ان تجمع اثنتين من هذه الدواليب المستديرة في قضيب واحد ، بحيث يكون كل دولاب في طرف من طرفي هذا القضيب . وفي استطاعتك الآن ان تدحرج هذا الجهاز في الشارع فاذا كان لديك قارب حجري ، او لوح خشبي ، او صندوق ووضعت اياً منها فوق القضيب بنفس الطريقة التي تدخل فيها العجلات بالقضيب أصبح لديك عربة . ولا شك انك شاهدت الكثير من الثيران وهي مشدودة الى المحاريث بنير فوق أعناقها ، فاذا ربطت النير بالعربة التي صنعتها لم يبق عليك الا ان تملأ العربة بالاحمال وتسوقها . وان اختراع العربة ذات الدواليب لم يكن يرتكز الى مبادىء جديدة ، او يحتاج أدوات جديدة ، وكل ما كان يحتاجه هو القليل من الخيال للربط بين بعض المخترعات الموجودة وذلك بالاستفادة مما كان موجوداً أيضاً من الادوات . ولسنا ندري اذا كان الشومريون هم الذين اخترعوا العربة ذات الدواليب بهذه الطريقة او غيرها ، او ما اذا كان جيران مجهولون لهم هم الذين اخترعوها وكل ما نعرفه انه كانت لديهم العناصر الضرورية . وانهم صنعوا العربات .

وفيما تلا ذلك من العصور تقدمت هذه العملية خطوتين جديدتين فاستعملت مبدأ الدولاب الدائر في الطحن ، فلقد كان نساء الشومريين يقضين كثيراً من وقتهن في جهد مضن وهن يطحن القمح في جرن من الحجاره الصوانية . وهذه الاجران معروفة منذ أول مراحل العصر الحجري المتأخر . وقد وجدت قطع منها في آثار شواطىء بحر قزوين ، فلم تكن اذن من اختراعات الشومريين . وتذكر لنا التوراة في العهد القديم ان الاسرائيليين ظلّوا يستعملونها حتى عصر السبي البابلي ، واستعملها العرب في القرن العاشر بعد الميلاد في منطقة نيبور . وما زال إماء عبيد الطوارق ونساء الاحباش يطحنّ بها قمحهم حتى

هذا اليوم .

وفي العصور الرومانية وربما قبلها ايضاً أصبح النساء يصرفن وقتاً أقل في عملية الطحن وذلك عندما اخترعت الرحى اليدوية الدائرة على محور . اقطع حجراً صلباً واجعله مستديراً وضع في وسطه قضيباً وضع فوقه حجراً آخر في وسطه ثقب يلقى منه القمح واجعل له يداً يدار بها وأدرها . هذه هي الرحى التي ما زالت تستعمل في جزر الهبرديس وفي الشرق الاسط من طرف لطرف .

والى جانب التحسين في هذه الادوات المنزلية حصل تحسين فني في الشكل وذلك بانشاء رحى اكبر تديرها الدواب . فاذا ثبت محور أفقي في حجر علوي كبير وربط بـــه حمار مجلل العينين ، او دفعه اثنان من العبيد ، استطاع الطحان ان ينجز من الطحين ما يساوى حاجة عائلات عديدة في ساعة واحدة . ولكن ربما لم تكن هنالك حاجة لاستعمال الدواب او العبيد ، فكلاهما يحتاج الى طعام واكلاف . فليمد المحور بشكل عمودي الى أسفل كما لو كان مثبتاً بدولاب الخزف ولتثبت فيه مجاذيف أفقية ، ولتسلط المياه عليه بواسطة أنبوب يستمد مياهه من احدى أقنية الري . فاذا كان مسقط الماء كافياً ، دار المحور وأمكن طحن القمح بقوة الماء . فان لم يكن لديك ماء بل مضرب ريح فمد المحور إلى أعلى وثبت فيه مراوح ، وابن حائطاً من الطوب لتحجب الريـح امام نصف المراوح وتجعلها تهب على النصف الآخر . فان الريح ستدير مطحنتك وتطحن لك القمح . وان تاريـخ اختراع هاتين الحيلتين لاول مرة من الالغاز التي لا نعرفها . وهمـــا اليوم منتشرتان اوسع الانتشار ، وهما ابسط من العجلة المائية ذات المحور الافقي ، والمطحنة الهوائية المعروفة في اوربا . وفي مقدور نجار قروي ان يصنعها ويصلحها بأدوات بسيطة ، لان بالامكان صنعها من الخشب ، وهما غير محتاجين الى معشقات . فعلينا ان نتذكر ان التطبيقات المتقدمة

لمبدأ المحور الدائر التي أدخلت في مدنيتنا الحديثة الى المخرطة التي يستعملها صانع الادوات ، والى مصنع النسيج الضخم ، والى السيارة والطائرة ذات المحرك الاسطواني ، والى اشياء أخرى غيرها لا يكاد يحصرها عد ، ابتدأت لدى الشومريين ، واننا لمدينون لهم بهذه الاشياء كلها .

واما الاختراع المتسلسل الآخر فيتعلق باستعمال الحرارة بعد أن يكون القضيب الحراري قد ولدها . فان النار العادية التي توقد في الخلاء دون مداخن خاصة ، او نفخ ، والتي يستعمل الحطب وقوداً لها تولد حرارة تتراوح بين ٥٠٠ و ٦٠٠ درجة فارنهيت . وتكفي هذه الحرارة لشواء اللحم وتدفئة الناس . وتكفي لطبخ الحساء وأنواع الاكل في اوعية بدائية من الخزف ، وتكفي لشواء الخزف ذاته بعدما يتم صنعه . ولكن أوعية الخزف التي تشوى على هذا الشكل هي أوعية ثقيلة وسريعة الانكسار . ولو تفحصت واحدة منها لوجدت ان سطحها صلب وأحمر ، ولكن جوفها ناعم وأسود . وهذا الخزف هو الخزف البسيط الذي كان يصنع في العصر الحجري المتأخر ، وكان النساء هن اللواتي يصنعنه في فناء البيت ويشوينه حيث يصنعنه .

وعلى نساء العائلة أيضاً أن يخبزن العجين . وفي وسع المرأة أن تخبز في فناء البيت فوق نار معدة لهذا الغرض ، ولكن في هذه الطريقة إسرافاً في الوقود ، وبما أن أسفل العجين وحده هو الذي يتعرض للنار فان الخبز الوحيد الذي تقدر عليه هو الخبز الفطير الذي لم تخالطه الخميرة وهو شبيه بالتورتيلا المكسيكية . وكثير من أبناء الشرق الاوسط يأكلون هذا الخبز كل يوم ، ويأكله اليهود المتدينون في عيد الفصح ، وذلك في ذكرى الفترة التي اضطر أجدادهم فيها أن يعودوا إلى استخدام طريقة الخبز هذه نزولاً على حكم ظروف طارئة . ولكن شعوب الشرق الاوسط تفضل أن تأكل أرغفة من الخبز المخمر كلما استطاعت ذلك ، وإذا لم توجد موانع دينية تحول دون أكله .

ويدخل في صنع الخبز المخمر اقدم نبات بيتي ، وذلك هو الخميرة . (الارجح ان الخميرة استنبطت في اول الامر من خمور الحبوب (البيرة) . وجميع شعوب العصر الحجري المتأخر وكذلك جميع المزارعين البدائيين كانوا يستطيبون على وجه العموم نوعاً من خمر الحبوب ، مثل خمر الذرة الذي يشربه رجال القبائل الافريقية او خمر الشيشة (Chicha) المصنوع من الذرة والذي يشربه هنود امريكة الجنوبية . ويبدو ان البيرة قديمة قدم الحبوب ذاتها) . فاذا ما تم عجن الحبوب وجب وضعها في فرن وهو مكان مغلق يمكن احماؤه بحيث تتساوى درجة الحرارة في جوانب الرغيف كلها . ويجب ان لا يكون في الفرن دخان والا أفسد الخبز ، ولذا كان الفحم وقوده المفضل .

وبوجود الفحم والفرن المغلق يمكن توليد حرارة تبلغ ١٠٠٠ الى ١١٠٠ درجة فارنهيت ، اذا كان النفخ كافياً . وفي الامكان استعمال الفرن الصالح لخبز العجين لشواء الفخار ايضاً . ويمكن عندئذ جعل هذه الاواني الفخارية أرق ، لان صلابتها ستكون متساوية في جميع اجزائها . وان صنع ادوات فخارية جيدة يحتاج الى مثل هذا الفرن ومثل هذه الحرارة . وهذه الحرارة ذاتها تذيب النحاس ، فاذا ذاب النحاس امكن صنع الادوات منه واذا أضيف اليه معدن القصدير لصنع البرونز ، كانت النار أقل حرارة من هذه ، وامكن الحصول على معدن أنقى .

ولا يعرف احد متى ابتدأت هذه السلسلة من الحوادث ، ولا من ابتدأ بهذه الناحية منها او تلك . ولكن الامر الثابت ان النار وخمر الحبوب (البيرة) والخبز ، وأواني الفخار والمعادن ، كلها اجزاء من اكتشافات معقدة موحدة ذات طبيعة حيوية كيمائية وحرارية ، وان الشومريين قد استعملوها كلها ونقلوها أو أورثوها الى باقي اجزاء المعمورة . وهذه الاكتشافات ، مضافاً اليها المحور الدائر تشكل أساساً لتقنية

العصر المعدني السائدة في الشرق الاوسط وأساساً للتقنية الغربية ايضاً . وهذا الى جانب ما عرفه الشومريون من الزراعة وتربيـة الحيوانات والملاحـة .

وهذه الضروب من المهارة العالية تتطلب متخصصين متفرغين لهـا تفرغاً كلياً . ووظيفة المرأة الاولى في المجتمعات كلها هي ادارة المنزل والعناية بالاطفال . وفي معظم مجتمعات العصر الحجري المتأخر ينصرف الرجال الى الاهتمام بالحيوانات والى الاعمال الزراعية الثقيلة والى صيد الحيوانات والاسماك وصنع الادوات وقطع الاخشاب . أما صنع خمر البيرة والخبز وصنع آنية الفخار ، والطحن وما شابهها وكذلك نسج الثياب ، فأعمال تقوم بها المرأة . ولذلك كلما وصلت أي من هذه الاعمال الى مرحلة تحتاج معها تركيزاً اوفى ومهارة أعظم ، انتقلت من اختصاص النساء الى اختصاص الرجال . ولذا فان الخمار والخبـــاز والخزّاف والطحان والنساج وغيرهم من رجـال الحرف الذين احترفوا اعمالاً كانت مخصصة من قبل للنساء ، لا ينالون بين بني قومهم نفس المكانة العالية التي يحظى بها اولئك الذين يشتغلون بحرف الرجولة من زراعة وتربية حيوانات ، بـــل يعيشون في مرتبة ثانية ، ولا يرضى اصحاب الاراضي ان يزوجوهم من بناتهم .

وتحتاج أعمال الري ، وضبط الفيضان ، وجمع الطعام وتخزينه في الاهراء ، وحماية التجار والارض ، نوعاً آخر من الاختصاصيين وهؤلاء هم الملوك والمحاربون وحواشيهم . ولا بد من أجل المحافظة على توازن المجتمع ، من وجود طقوس تحمل الالهة مسؤولية الازمات والشدائد ، وتحتاج هذه الطقوس الى جماعة ثالثة هي جماعة الكهنة ، وهي جماعـة وثيقة الارتباط بالملوك لان كلًا منهما يحمي الآخر ويدعمــه . وكل منهما يحتاج الى الكتبة . ويصبح للمعابد أراضيها الخاصة ، بينما يوسع الامراء أملاكهم .

وبنى الشومريون على أساس من هذا النمط العام ، الذي لم يكن في حـــد ذاته وقفاً عليهم ، بنوا عدداً من الدول المدينية ، ولكل منها عاصمتها والهها الخاص ، ثم توحدت هذه المدن في مملكة متحدة . ورسخ تقسيم المجتمع الى مزارعين ، وأصحاب حرف ، وتجار ، وكهنة ، وملوك ، لان هذا التقسيم كان أكفأ اسلوب تستطيع بواسطته شعوب في مثل هــذه البيئة أن تنظم نفسها على المستوى التقني الذي بلغته . وبما ان هذا المستوى التقني قد استمر من أكثر النواحي حتى القرن الحالي ، فان هذا النوع من المجتمع ما زال قائماً بشكل او بآخر في طول الشرق الاوسط وعرضه .

وقد عاشت في الشرق الاوسط شعوب أخرى كانت تتكلم لغات منقرضة ، وربما كانت فريدة ، ولكننا نفتقر الى الدليل الذي يثبت انها في مثل قدم الشومريين ، على الأقل بمعنى كونها شعوبـــاً متمدنة ومثقفة . ومن هــذه الشعوب العيلاميون الذين عاشوا في القسم السفلي من نهر قارون الى الشرق من بلاد شومر . وقد استعملوا ايضاً الخط المسماري « الاسفيني » وشاركوا في نمط المدنية الذي وصفناه ، وتكلموا لغة تركيبية كلغة الشومريين ، ولكن انسجام أحرف العلة فيها أقل . وكان ملوكهم يرثون العرش بالتسلسل عن الأم[٣] .

وكما ان الشومريين نقلوا تفاصيل حضارتهم الى جيرانهم من الشعوب المتكلمة باللغات السامية ، كذلك كان العيلاميون هم معلمي الفرس في عهود كورش ودارا وأحشويرش . وبقيت اللغــة الشومرية لغة للطقوس الدينية بعد ان بطل استعمالها لغة للحديث والتخاطب ، بوقت طويل ، وهي تشبه في ذلك اللغة اللاتينية الكنسية . اما اللغة العيلامية فقد بقي

---

(٣) George C. Cameron, « History of Early Iran » (Chicago 1936) p. 227

الفرس على استعمالها في الحسابات التجارية . ولعل شكلاً من اشكالها قد بقي في صورة لهجة محلية في خوزستان حتى نهاية الألف السنة الأولى بعد المسيح[٤] .

ويعود الفضل للدكتور أفرايم أ. سبيزر[٥] (Ephreim A. Speiser) وغيره في تعريفنا بعدد من شعوب أخرى قطنت الشرق الاوسط في العصر البرونزي . وبين هؤلاء شعوب اللولو (Lullu) والجوطيون (Gutians) ، والكاشيون (Kassites) الذين سكنوا سفوح جبال زاجروس من لورستان حتى بحيرة فان . كذلك كان الحوريون (Hurrians) الذين سكنوا شمال سوريا وشمال العراق . ويعتقد سبايزر أن لغات هذه الشعوب المتشابهة من حيث التركيب تقارب اللغات الحية المعروفة في القوقاز كاللغة الكرجية والشركسية والششنية واللسغية . ومن المؤكد أن لغات من هذا الصنف كانت في وقت من الأوقات أكثر انتشاراً مما هي اليوم بكثير . ولكن لا بد من أبحاث كثيرة قبل أن يمكن حل هذه المشكلة اللغوية الصعبة .

الحاميون

ويساوي قدماءُ المصريين الشومريين في القدم ، وتنتمي لغتهم التي حفظت لنا بفضل ما اعتادوه من نحت كلماتهم الهيروغليفية على الحجر ، وبفضل مناخ مصر الجاف الذي حفظ لنا ملفاتهم من أوراق البردى ، الى العائلة الحامية وهي عائلة أفريقية خالصة من حيث التوزيع التاريخي .

---

(٤) George C. Cameron, The Persepolis Treasury Tablets, University of Chicago Oriental Institute Publications (Chicago, 1948), LXV, 18.

(٥) Ephraim A. Speiser, Mesopotamian Origins (Philadelphia, 1930.

وانّنا لنعرف فرعين من اللغات الحامية ، وهما – لغة البربر التي يتكلم بهـــا بربر افريقيا الشمالية . واللغة الكوشية في الحبشة وبعض اجزاء تنجانيقا وكينيا والسودان . أما لغة مصر القديمة فانها مزيج يجمع بين هذين النوعين مضافاً اليها بعض العناصر السامية . وتدل الشواهد الأثرية على ان قدماء المصريين الذين بنوا الاهرام ونحتوا اسماءهم على الحجارة ، كانوا يعيشون في وادي النيل ، مدة قرون طويلة ، قبل ان وصلوا الى العصر المعدني بما فيه من كتابة وبناء وملوك وكهنة . إلا انه من الصعب ان نعتقد ان ثقافتهم ثقافة أصلية ، وهم يشبهون الشومريين في ان كليهما كان يزرع نفس النبات ويربي نفس الحيوانات . وربما كان الشعير والحمار هما الوحيدَيْنِ ، من بين هـذه النباتات والحيوانات ، اللذين تعود أصولها الى افريقيا . واضافة الى ذلك فان المصريين كانوا متأخرين قليلًا عن أشباههم الأسيويين . فحوالي سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد كان الشومريون قـد دخلوا تماماً في العصر البرونزي الذي دام بضعة قرون فقط ، وبعـد ذلك صنعوا أدواتهم من النحاس ، بينما لم يعد خلفاؤهم في بلاد مـا بين النهرين الى استعمال البرونز الا حوالي سنة ١٤٠٠ قبل الميلاد . امـا المصريون فانهم ابتدأوا في استعمال النحاس بشكل عـام حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد . وحصلوا على البرونز عن طريق التجارة حوالي سنة ٢٢٠٠ قبل الميلاد[٦] ، ومع ان شعوب ما بـــين النهرين كانت تستعمل العربات وتجرها بالجياد عند ابتداء الالف الثانية قبل الميلاد فان المصريين لم يعرفوا الخيـــل ولا العربات ذات العجلات حتى جـــاءهم غزو الهيكسوس من آسيا حوالي سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد .

---

(٦) إن التحليل الكياوي لادوات المصريين القدماء المدنية هو أساس هذا القول .

A. Lucas, Ancient Egyptian Materials and Industries (2d ed.; London 1934), pp. 146-229, chap. 7

ولئن جاز ان تكون حضارتا مصر وشومر حضارتين مقتبستين من مكان لا نعرفه ، فانهما كانتا اصيلتين بمعنى هام غاية في الاهمية ، وذلك ان حضارة المدن بدات عندهما . وقـــد كان المصريون والشومريون يتكلمون لغات مختلفة ويعبدون آلهة مختلفة ، ولكنهم كانوا متشابهين من وجوه اخرى كثيرة . فنظامها الزراعي كان متشابهاً مع اختلاف واحـــد ، وهو ان اراضي مصر كانت تغطى بمياه الفيضان في فصل الصيف اثناء ارتفاع النيل بينما كان الفيضان في بلاد ما بـــين النهرين يحصل في الربيع . وبما ان اياً من الشعبين لم يكن يعتمد على الامطار بل كان كل منهما يمارس زراعة الري فلم يكن لهذا الاختلاف من اثر يذكر . وكان كل من الشعبين يصنع نفع السلع تقريباً ، وارتكز النظام الاجتماعي لدى كل منهما على اساس تقسيم العمل بين المزارعين واصحاب الحرف والحكام والكهنـة . واهتم كل منهما بالحياة الاخرى لملوكهم وحكامهم وبنوا لهم الاضرحة الفخمة رغم ان الشومريين لم يبنوا شيئاً يمكن قياسه بالاهرام .

وهناك اختلاف ملحوظ في طراز البناء بينهما . فلقد توفر للمصريين مورد لا ينضب من حجارة البنـــاء الممتازة التي كانوا يقتطعونها من صخور على ضفاف النيل وينقلونها بالمراكب الى امكنة البناء . وكان لذلك المظهر ناحيته الاجتماعية الهامة فان الحكام المصريين استطاعوا بسبب ذلك ان يشغلوا مزارعيهم في وقت الفيضان ، ولو لم يشغلوهم لقضوا هذا الوقت في بطالة خطرة . اما الشومريون الذين لم يكن لهم حجارة قريبة المتناول فانهم تقدموا في صناعة الطوب وجعلوا منها فناً جميلاً . وقـد صنعوا نوعين من الطوب : نوع غـــير مشوي يجفف بالشمس وآخر يشوى بالنار . وبما ان الوقود كان نادراً فقد اقتصر استعمال الطوب المشوي على الواجهات والمباني العامة ، وليعوضوا عن هذا النقص اخترعوا ملاقط من الآجر المشوي ، ووضعوا هذه المخروطات في الطوب المجفف

من اجل الزينة . وأهم من هذا ان سكان ما بين النهرين اخترعوا القبة نظراً لنقص الخشب عندهم ، كما فعل الاسكيمو .

وظلت الحضارة المصرية على حالها بشكل عام لمدة ٢٥٠٠ سنة . وقد وفد الاسرائيليون الى مصر وخرجوا منها دون ان يذكروا او يشار اليهم في ملفات البردي . وتاجر الكريتيون وغيرهم من الشعوب البحرية مع موانىء الدلتا . وغزا الهيكسوس مصر وحكموها وطردوا في النهاية منها . وغزا الفرس مصر بقيادة قمبيز ابن كورش سنة ٥٢٥ قبل الميلاد وتبعهم الاسكندر . وكانت مصر تعتبر مستعمرة ثمينة في الامبراطورية الرومانيين ولكن روما لم تفعل شيئاً لتغيير المصريين ، الذين اعتنقوا اثناء حكمها الديانة المسيحية ولكن على مذهب غـير المذهب الروماني . ولم تحصل نقطة التحول في تاريخ مصر الا عندما غزاها العرب بقيادة عمرو بن العاص سنة ٦٣٩ بعد الميلاد . وقد حافظ كثير من المصريين على ديانتهم المسيحية وعلى لغتهم لاغراض الصلاة والطقوس الدينية . وما زال هؤلاء المسيحيون الاصليون في مصر حتى اليوم وهم الاقباط . وهم يشكلون ثمانية الى تسعة بالمئة من السكان . ويعيش معظمهم في مصر العليا حيث يشتغلون في الزراعة بشكل ناجح . ويعيش كثير منهم في المدينة حيث يكادون يحتكرون صناعة المحاسبة ومسك الدفاتر كما فعل الكتبة من اجدادهم قبلًا . ولكنيستهم نظام مرتبي قليل التعقيد على راسه حبر وفيه طبقتان من الكهنة ورهبان وراهبات . وقد استمروا بعد الغزو الاسلامي وكيفوا انفسهم كشعب خاص في فسيفساء الشرق الارسط .

* * *

ولم تعرف الثقافة البربرية في شمال افريقيا تطوراً كالتطور الذي بلغته مدنيات الشومريين وقدماء المصريين . وقد اظهرت التنقيبات في

الكهوف الواقعة بالقرب من اعمدة هرقل ، خارج مدينة طنجة ، أن السكان المحليين الذين كانوا من البربر عاشوا على مرحلة العصر الحجري المتأخر من الثقافة عند حلول الفتح الروماني ، وظلوا كذلك مدة طويلة بعده . وتعطينا الكهوف ذاتها وبعض المواقع الاخرى بعض المعلومات عن اجداد البربر وسابقيهم .

وزائر هذه الكهوف الواقعة في موقع ملائم بين احد المطاعم الاسبانية واحد شواطىء السباحة الرائعة ، قد يدهش للشبه الذي يراه بين الازياء التي يلبسها المراكشيون المحليون ، وازياء الرهبان الفرنسسكان الذين يتنزهون في تلك المنطقة . فكلاهما يلبس برانس ذات غطاء راسي واكمام واسعة ، وكلاهما يلبس طاقيات للرأس ، ويرسل اللحى . فاللباس الفرنسسكاني من البسة العصر الروماني المتأخر ، وكذلك اللباس المراكشي .

وفي احد ايام عام ١٩٤٧ وعندما انتهينا من الحفر ، جاءنا احد مراقبي العمال بوعاء من العصر الحجري القديم ، كامل وسليم ، فيما عدا ثقباً في القاع . فسألته : في اية طبقة عثرت على هذا الوعاء ؟ فأجاب مبتسماً ، « لم اعثر عليه في اية طبقة ، ولكن راعي الخنازير الاسباني كسره بالامس وكان قبل ذلك يستعمله للطبخ » . فقلت له متسائلاً « واين وجده » ؟ فأجاب « صنعته له احدى نساء قريتنا » .

إن روح المحافظة هي المفتاح الذي يفتح لنا مغلقات شمال إفريقيا . لقد وجدنا في الطبقات السفلى من « الكهف العالي » بقايا إنسان من الحلقة النيندرثالية[٧] . واستمرّت طريقته في تدبيب الصوان ، مع انها استبدلت في اوربا باسلوب الحد الجارح في العصر الذي تلا عصر الجليد ،

---

(٧) M. S. Senyürek, Fossil Man in Tangier, Peabody Museum Papers (Cambridge, Massachusetts, 1940), XVI, No. 3, 140.

وتطورت منعزلة في بيئتها ، وبلغت حد الاكتمال . وعاش في الجزائر حتى بزوغ العصر الحجري المتأخر ، رجال ضخام أشداء مربعو الوجوه ، يشبه فك أحدهم الفانوس . وكان عملهم جمع الطعام ؛ ثم وصل مزارعو العصر الحجري المتـــأخر ومعهم خنازيرهم ، وماعزهم ، وأغنامهم ، وآنيتهم الفخارية الدقيقة ، وشعيرهم وقمحهم ، إلى مراكش قادمين اليها من الشرق . وربما عاصر هـذا الحادث ظهور الكتابة لأول مرة في مصر والعراق . وما زالت ثقافتهم باقية هناك في جوهرها ، بعد أن علتها إضافات فينيقية ، ورومانية ، وعربية ، وفرنسية ، واسبانية .

إن مزارعي العصر الحجري المتأخر هم الذين أدخلوا اللغات البربرية التي يتكلم بهـــا اليوم خمس وستون بالمائة من سكان مراكش وتسع وعشرون بالمائة من سكان الجزائر وأقل من واحد بالمئة من سكان تونس ، الى جانب سكان جبل نفوسة في طرابلس الغرب ، وسكان واحة سيوة في الصحراء الليبية القريبة من مصر . وكان سكان جزر الكنارى أيضاً يتكلمون بها حتى الغزو الاسباني لبلادهم في القرن الخامس عشر ، وكان الكناريون حينذاك ما يزالون يعيشون في العصر الحجري المتأخر . وتصف لنا الكتب المعاصرة لتلك الفترة كيف استطاع هؤلاء المحاربون أن يضايقوا الغزاة بأسلحتهم المصنوعة من الحجارة والأخشاب ، وكيف قاوموا سنوات عديدة رغم تفوق الاسبانيين بالسلاح . وهذه الكتب هي البينة الوحيـــدة المبينة على المشاهدة[٨] عن حضارة العصر الحجري المتأخر من النمط الخاص بالشرق الاوسط ، وهي بالتالي ذات قيمة وفائدة عظيمتين .

---

(٨) ما لم يكن هنالك مصادر كلاسيكية لم اطلع عليها عن شمال افريقيا قبل العهد الروماني .

تتكون مجموعة جزر الكنارى من سبـــع جزر هي لانزاروته (Lanzarote) فويرتافينتورة (Fuertaventura) ، جران (Gran) ، كناريا (Canaria) تنريفة (Teneriffe) ، جوميره (Gomera) ، هيّرو (Hierro) ، وبالمة (Palma) . وهي جزائر مرتفعـة ذات أجراف حادة ومهاو ، وتفتقر الى الموانىء . وأعلى قممها يقع في تنريفة ويبلغ ارتفاعها ١٥٢ ١٢ قدماً . ويهطل عليها المطرفي الشتاء ، ولكن صيفها جاف . وأهم نبتها الغار والسنديان ، الى جانب الاعشاب طبعاً . وتفتقر الى وسائل المواصلات الداخلية ، ولذلك فقد وجدت بين سكان الجزر السبع اختلافات ثقافية بسيطة ، وتمّ أعظم التطورات في التركيب الاجتماعي والسياسي في الجزر الكبيرة منها .

وقـــد صنع سكانها أدوات القطع من الصخور ومن حجر البازلت والحمم البركانية . ولم توجد عندهم مواد مناسبة للفؤوس الحجرية المسنونة ، ولا بـد ان الفؤوس القليلة التي اكتشفت عندهم كانت مستوردة من بلاد أخرى . وصنعوا من عظام أرجل الماعز أدوات متعددة — كالملاقط والابر وأشباهها . وصنعوا من القرون المغارف ، ورؤوس الرماح ، وصنارات صيد السمك . ومن الأصداف صنعوا الصنارات والعقود التي تحلي الأعناق ، وهي تشبه عقود الهنود الأمريكيين . وبالرغم من افتقارهم الى الأدوات الجيدة ، فقد حفروا من الخشب صحوناً وملاعق ورماحاً وصولجانات ودروعاً ، وتوابيت . اما فخارهم فكان من النمط المعروف في العصر الحجري المتأخر ، مـــع فجاجة وقلة تعريض للنار . ومن الأنسجة صنعوا حصراً وسلالا ، ولكنهم لم ينسجوا قماشاً . وألبستهم التي تكونت من البرانس الموصولة بغفـــارة على الرأس كانت تصنع — في إحدى الجزر على الأقـــل — من جلد الماعز المجفف ، المخيط تخييطاً دقيقاً .

وقـــد بنوا بيوتهم من الحجارة وسقفوها بقضبان شجر الصنوبر

وغطّوها بالتراب ، وصبغوا جدرانهـا الداخلية باللون الأحمر . وكان قصر ملك تنرفه مزيناً بأخشاب صنوبرية نقشت نقشاً جميلاً . وعرفوا الكلاب والخنازير والأغنام والماعز ، وزرعوا القمح والشعير والقطاني والتين . وعرفوا طريقة حفظ اللحوم والتين بتجفيفها ، وصنعوا الجبن من اللبن . واصطادوا كثيراً من الاسماك بالصنارة والشرك وبالمشاعل والرماح ، وبالشباك ، وبتسميم المياه الراكدة بالعصارات السامة .

ولا يختلف هذا الموجز لثقافتهم المادية الا قليلاً عن ثقافات كثير من شعوب الشرق الاوسط المعاصرة . فاذا أضفت المعادن ، والنسج ، والأبقــار ، والحمير ، وبعض الثمار والخضار ، والشاي أو القهوة ، والسكر والتبغ ، وفرص الاتجار مــع المدن ، كانت أمامك صورة عن المرحلة السائــدة في قرية نائية من قرى الشرق الاوسط في وقتنا الحاضر .

وكان هؤلاء يعرفون بالجوانش (Guanches) ، وقـد استطاعوا بهذا الاقتصاد الحجري أن يقيموا بنياناً معقداً نوعــاً من المؤسسات الاجتماعية والسياسية والدينية ، نستنتج منه اموراً في مثل اهمية ما استنتجناه من ثقافتهم المادية . فبعض الجزر كانت عبارة عن ممالك ، وقـام في بعضها الاخرى عدة دول ذات سيادة . وكان الملك يرجع في الشورى الى مجلس من الشيوخ النبلاء . وقد فرض على النبلاء اتباع نهج دقيق من التصرف في سلوكهم والا انزلت مراتبهم . فكان محرماً على النبيل ان يحلب الحيوانات او يذبحها ويسلخها ، او ان يقوم بأي عمل يفيد الحياة الاقتصادية ، وهو يشبه بذلك مالك الارض او موظف الحكومة في بـلاد الشرق الاوسط . وكان النبلاء يملكون قطعان الحيوانات ، وهي أهم مورد للثروة في الجزر ، وهذا يجعلهم أيضاً في طبقة مالكي الأراضي . وأهم مسؤول الى جانب الملك هو الكاهن الأعظم ، وهو

يعمل قاضياً أيضاً . والجمع بين الدين والقضاء إجراء عادي في الشرق الاوسط وقد طبقه الشومريون والمصريون وطبقته الشريعة الاسلامية .

ويظهر انه كانت هنالك مرونة في وراثة العرش . فاذا مات الملك انتقل الملك الى أكبر الأحياء من اخوته ، فمن يليه ، حسب التسلسل الأخوي . وينتقل الحق بعد أصغر الأخوة الى أكبر أبناء الوريث الأول وهكذا . ومثل هذا النظام الوراثي صعب التطبيق ، فلا بد ان يورث المشاكل والاضطراب . تأمل الاضطرابات الأخيرة في اليمن والاضطراب الذي يحصل في الممالك العربية والذي يعود قسم منه الى وجود كثير من الأمراء . وكان للملوك الجوانش حق افتراع العروس قبـــل زوجها ، وحق اختيار المرافقات أثناء السفر ، ولذلك فقد كثر أبناءوهم .

واشتملت طبقة رجال الدين ، الى جانب الكاهن ، على مجموعة من النساء الورعات اللواتي يعشن في بيوت خاصة ويلبسن الملابس البيضاء . وكل بيت منها حرم او حمى يلجأ اليه كل من فرّ من وجه الانتقام . وكانت إحـدى هؤلاء النساء رئيسة عليهن . وكلهن كاهنات يستنزلن الالهام ويقدمن المشورة ويشتركن في المواكب الدينية وغيرهـا من الشعائر . واعتبرت بعض الأماكن في بعض الجزائر لا كلها ، أماكن ذات قدسية خاصة ، ومعظمها من الصخور . وقد كان الناس يلجأون الى هذه الأماكن في أوقات الشدائد للطواف والصلاة والصوم والتضحية . وكانت بعض هذه الشعائر مشمولة بالنواح حيث يبكي المصلون ويرددون المراثي الباكية ، ويئنون كمن به مس من الجنون . ومن أهم دواعي الشعائر الاستسقاء للغيث . وفي مثل هذا المقام يدخل رجلٌ « يرى فيه القوم قديساً » الى احد الكهوف ويتصل بالاله .

والى جانب هذه الشعائر العامة كان الأفراد يحجون الى المعابـــد

المقامة عند الأماكن المقدسة ، حيث يقسمون الايمان على ارواح اجدادهم ويقدمون الأضاحي . وكان مذهب تبجيل الموتى مهماً عندهم بمقدار ما كان مهماً عند المصريين . وقد شابهوا المصريين في تحنيط الموتى من اصحاب المكانة العليا الذين كانوا يلفونهم بأكفان من جلد اختاروه خصيصاً لهذا الغرض . وكانت المومياءات تترك في كهوف يصعب الوصول اليها في جنبات المهاوي ، وتترك معها توابيتها . ولقد كانوا يبذلون جهداً كبيراً للعناية بالموتى ووقفوا كثيراً من مهارتهم على هذا الأمر ، وكان المحنطون بينهم يشكلون طبقة محترفة متخصصة . اما آلهتهم فلم تكن كبيرة العدد ، ولكل مملكة إلهها الخاص ويمثله في بعض الأحيان صنم خشن الملامح موضوع في هيكل حجري ، ويهرع المصلون الى هذا المعبد لتقديم تضحيات من اللبن والزبد . وفي إحدى الجزر وجد صنمان ، أحدهما لرجل والثاني لامرأة وكان كل جنس يعبد الصنم الذي يمثله .

إن المقارنة بين ديانة الجوانش كما وصفها شهود العيان الاسبانيون ، والنظم الدينية لشعوب الشرق الاوسط منذ بداية الكتابة حتى الوقت الحاضر واضحة ظاهرة . فالنساء في تلك الديانة اعظم مساهمة مما هن عليه في الاسلام ، ولكن مساهمتهن هذه لا تفوق دَوْرَهُنّ في ديانات اقدم تاريخاً ، وفي بعض اشكال المسيحية . واذا كان اقتصاد الجوانش ماثلاً اليوم في القرية الحديثة ، كذلك فان الاطار الاجتماعي والسياسي والشعائري لثقافات الشرق الاوسط الحديثة يعود في اصوله الى العصر الحجري المتأخر . ولا بد من ان تكون الدول المدينية التي ظهرت في بدء الألف الثالثة قبل الميلاد في وديان الأنهر القديمة في الشرق ، قد مرّت بتجربة نيوليتكية طويلة من النوع الذي وصفناه على مقياس ابسط . اما الانتقال من العصر الحجري المتأخر الى العصر البرونزي فكان عملية توثيق ، وتثبيت ، وتفصيل واتقان ، ساعد عليها تحسن في

الوسائل ، وتجارة متزايدة – ولم يكن كله بنياناً جديداً كل الجدة .

ولنعد الى شعوب شمال افريقية الذين يتكلمون البربرية . فاذا نظرنا الى الخارطة رقم (٤) وجدنا ان معظم البربر يتركزون في جماعات خمس : اهل الريف ، والبرابر ، والشلوح ، واهل القبيلة والشاوية . ومعظم هؤلاء من سكان الجبال المزارعين . اما البرابر القاطنون في جبال الاطلس الوسطى فهم انصاف بدو . وهناك غير هؤلاء الغمارة الذين فقدوا لغتهم البربرية تقريباً ، وصنهاجة سرير الذين يقطنون شمالي مراكش ، وهم من سكان الغابات المتخصصين بالاشغال الجلدية والخشبية ، واهل المزاب في واحة غرداية ، وهم مزارعو نخيل وتجار . وسكان جزيرة جربة وهم مزارعون ومراكبية وتجار ، والسيويون [سكان سيوة] وهم مزارعو نخيل . ومن البربر ايضاً بقايا الطوارق .

ويتكلم هؤلاء البربر لهجات يمكن تصنيفها في ثلاث مجموعات : المصمودية والصنهاجية والزناتية . فالمصمودية لغة اكثرية السكان المزارعين الذين كانوا يقطنون مراكش قبل الفتوحات العربية . ويتكلمها اليوم الشلوح والغمارة ، بينما لغة الريف لغة مختلطة فيها بعض عناصر المصمودية . وكانت الصنهاجية لغة الرعاة والبدو اشباه الرحل ويتكلمها اليوم سكان الغابات في شمال مراكش وفي جبال الاطلس الوسطى ، وبنو القبيلة والشاوية والطوارق . اما الزناتية التي كانت في الاصل مقتصرة على هضاب الجزائر المرتفعة وعلى منطقة أُجدة ، فقد نشرها الموحدون في مناطق كثيرة اهمها مناطق الصحراء الكبرى ، ومنها واحة سيوية .

فاذا عدنا الى الخارطة رقم (٤) وجدنا ان المتكلمين العصريين باللغات البربرية يتركزون في الغرب ، وفي الجبال وفي الصحارى ، اي انهم موزعون في المناطق التي تصلح ان تكون ملاجيء بطبيعتها . وقد فتحت بلادهم مرات عديدة منذ ظهور المدنية اليربرية ، ولكن

اهم الفتوحات حصلت في موجات اربع . فالموجة الاولى جاءت من الشرق ، وكان الفاتحون فيها هم الفينيقيين المتكلمين باللغات السامية . وقد بنوا قرطاجة ، واستقروا في واديين واسعين من وديان تونس ، وأسسوا مراكز تجارية على طول الساحل في نقاط ملائمة . وقد رافقهم الاغريق ، وربما اليهود أيضاً ، وأعطوا لبربر العصر الحجري المتأخر فرصة للاتجار وزودوهم بالمعادن .

وجاءت الموجة الثانية من الشمال بعد ان هزم الرومان هنيبعل . اذ لما دمروا قرطاجة القديمة بنوا مدينة جديدة مكانها وأسسوا مستعمرات متراصة عميقة . ومن أجمل الابنية الرومانية ، الآثار الموجودة في شمال افريقيا مثل تبسَّه وتلبت وقسطنطينه وغلما وغيرها . وكانت تونس من الناحية الثقافية اقليما رومانيا وكذلك كان الساحل الجزائري . واعتنق كثير من أهالي شمال افريقيا المسيحية ، سواء كانوا فينيقيين ــ رومانيين ، أو بربراً .

وعندما جاءت الموجة العربية الثالثة فانها انقضت أيضاً من الشرق . وعرَّبَ العرب سكان تونس الذين كانوا قد صبغوا بالصبغة الرومانية قبلًا ، واتجهوا غرباً على الطرق الطبيعية الموصلة الى المحيط الاطلسي . وجاء العرب في غزوات متعددة أهمها غزوة بني هلال التي وقعت في منتصف القرن الحادي عشر بعد الميلاد . وبالتدريج جزءوا البربر الى مناطق محلية واستولوا على السهول وبنوا المدن . ومع انهم مع الزمن ادخلوا البربر في الاسلام ، إلا انهم فشلوا في معظم الاحوال في فرض السيطرة السياسية عليهم . بل ان اثنتين من السلالات الاسلامية العظيمة التي ظهرت في شمال افريقيا واسبانيا كانتا من البربر ، وهما سلالتا الموحدين والمرابطين .

أما الموجة الرابعة فتختلف عن سابقتها بأنها انقضت من الشمال ، وابتدأت باحتلال الجزر الصغيرة ومراكز التجارة الواقعة على السواحل

من قبل الاسبان والبرتغاليين . ثم ارتفعت تلك الموجة عندما احتل الفرنسيون الجزائر في عهد نابليون ، وتضخمت بانشاء محميتين فرنسيتين في مراكش وتونس ، وباحتلال الايطاليين لطرابلس الغرب ، والاسبانيين لشمالي مراكش وأفني وريو دي اورو .

والموجة الخامسة هي الآن في طور التكوين وهي آتية من الشرق . واول ثمراتها الظاهرة هي القومية العربية في شمال افريقية .

ولم تؤثر هذه الموجات الاربع ، والخامسة التي تتكون الآن ، على البربر إلا قليلاً . فالريفيون ما زالوا مزارعين ، وما زالوا منظمين في قبائل ، مـع انهم لم يعودوا يحملون البنادق . وبرابر الاطلس الاوسط الباقون ، مـا زالوا يرعون الاغنام في الجبال في الصيف ويعودون بها في الشتاء . والشلوح مثابرون على الغدو والرواح الى زراعة الربعان في جبالهم ، من قرى تشبه قرى الهنود الحمر ، ويضعون احرازاً حمراء على أقفية عباءاتهم خوفاً من عين الحسود . ويخدم ابناء القبيلة في تقديم الطعام في المطاعم والفنادق بالجزائر وفرنسا ويصعب تمييزهم عن الاوربيين ، فاذا جمعوا كفايتهم من المال عادوا الى قراهم واشتغلوا في السياسة المحلية متحزبين لهذا الصف او ذاك من الصفوف المتنافسة في القرية .

اما الشاوية الذين يقطنون اوراس فيحرثون أراضيهم المرتفعة ، كما ان السيويين يسمدون نخيلهم . والطوارق هم الجماعة الوحيدة التي تغيرت تغيراً جذرياً (وسنتحدث عنهم بتفصيل اكثر فيما بعد) ، وما ذلك إلا لان اقتصادهم معتمد على استقلالهم السياسي ، الذي كانوا جميعـاً يتمتعون به — وظل البعض منهم مستقلاً حتى وقت جـد قريب . والخضوع للفرنسيين والاسبان هو اول تغير حقيقي في تاريخهم الطويل منذ ان جاءهم التجار والصناع اليهود ودخلوا اراضيهم من المستعمرات الرومانيـة ، ونقلوهم من العصر الحجري المتأخر الى العصر المعدني ،

وانشأوا بينهم الجوالي اليهودية . وما زالت هذه الجوالى هناك ، وهي تتكلم اللهجات البربرية .

ويمارس البربر كل حرفة يعرفها اي شعب آخر في شمال افريقيا ، ما عدا بعض الحرف الاوربية الوافدة حديثاً . وحتى هـــذه فانهم يتعلمونها بسرعة . وبعضهم رعـاة ، وكثيرون منهم جنود ، ولكن معظمهم مزارعون . وفي السوس مدن بربرية صغيرة ومدينة كبيرة واحدة هي تارودانت . وهنا تمارس جميـع انواع المهاره المعروفة في المدن الشرقية ، بما في ذلك الاعمال الكتابية والحكومة ، وكثير من ميكانيكي السيارات ، وسائقي الباصات ، والمكانيكين في شمال افريقيا هم من البربر . وكان العامل الرئيسي للجهاز التلفوني عند عبد الكريم سنة ١٩٢٦ صبياً بربرياً في الرابعة عشرة من العمر .

وكثير من البربر يختصون بأعمال معينة . فالسوسيون في مراكش ، والمزابيون في الجزائر ، والجربيون في تونس يشتغلون باعة في المخازن الصغيرة الشبيهة بمخازن الضواحي في البـــلاد الغربية . والدراويون* يحفرون الآبار ، والامازلن ، وهم جماعة منحطة ، موجودون في اماكن عديدة ويشتغلون بالدلالة والوزن والموسيقى . ويشتغـــل السوسيون وبعض ابناء مُوقَدُرْ في الالعاب البهلوانية ، وقد تجدهم في سيركات امريكة وفي الفودفيل .

وقد اظهروا ذكاء ، وتكيفاً ، وشجاعـــة ، واباء . والمحافظة الثقافية البينة في مضاربهم وقراهم ، لا تتعارض بحـال من الاحوال مع مقدرتهم على التكيف في العالم الحديث . ويحبهم الاوربيون لانه يبـدو عليهم انهم اقرب الى الاوربيين منهم الى الشرقيين في النظرة

---

* هم ابناء منطقة : دَراعَه او : دْرَا (كما تلفظ أحياناً) .

العقلية . ولكن ليتذكر الاوربيون ان البربر ليسوا من اوربا ، وسيكيفون انفسهم مع الموجة الخامسة بمثل ما كيفوا انفسهم مع الموجة الرابعة ، مع الاحتفاظ بصفتهم الاصلية الراسخة كالصخر ، فيبقون بربر مهما تناثرت فوقهم الامواج ، من كل صوب واتجاه .

الدراويديون

مع ان باكستان تقع خارج نطاق هذا الكتاب ، فاننا لا نستطيع تجاهل الدور الذي لعبته حضارة الوادي النهري الثالث نهر السند العظيم في تكوين فسيفساء الشرق الاوسط . وان ما نعرفه عن حضارة وادي السند اقل مما نعرفه عن حضارات العراق ومصر . وقد كان لسكان السند كتابة كالشومريين والمصريين ، ولكن لم تفك رموزها حتى الآن . ويبدو الهندوس ، كالشومريين ، وكأنهم ابتدأوا فجأة عصراً برونزياً من غير ان يمروا قبله بعصر حجري محلي . ومصطلح « يبدون وكأنهم » الذي يستعمله العلماء لتغطية الاحتمالات غير المنتظرة ، يجب ان يحمل هنا محمل الجد العظيم . اذ لم توجد هناك حتى الآن آثار عصر حجري ، ولكن لا بد من تنقيب أوسع قبل ان نقطع برأي في هذا الشأن .

وفي وقت ما في النصف الثاني من الالف الثانية قبل الميلاد فتح اجداد الهندوس والباكستانيين الحاليين من المتكلمين باللغة السنسكريتية ، باكستان والهند ، ودخلوهما عبر ممر خيبر مستجلبين معهم كامل عدتهم من الكهنة البراهميين ، والمحاربين ، والابقار . وايا كانت اللغة او اللغات الرئيسية في شمال غرب الهند والباكستان فانها زالت بتأثير الفتح الآري . وقد لا يتسنى لنا ان نعرف نوع هذه اللغة ، غير ان لدينا دليلاً واحداً نسترشده في وضع افتراض حولها . فاللغات الرئيسية في جنوبي الهند الى الجنوب والشرق من اللغات الآرية الحديثة ، هي

لغات دراويدية . والدراويدية مجموعة لغوية تتصف بالكلمات الطويلة المركبة والاصوات الصعبة التي تخرج من أعلى الفم . وهي منتشرة لا بين عدد كبير من شعوب جنوبي الهند فحسب ، بل يتكلمها أحد شعوب الشرق الاوسط وهو الشعب البراهوي .

وبلاد البراهوي بلاد جبلية تقع في جنوب شرقي افغانستان والاجزاء المجاورة من باكستان . ويعيش بعض البراهويين ايضاً في ايران . فان الموقع الجغرافي الذي يسكنه هذا الشعب غربي وادي السند ، والقرابة اللغوية بينه وبين هنود الجنوب ، يشيران الى ان لغة الدراويديين كانت معروفة في وادي السند ، وان الفتح الآري أزال اللغة القديمة وجزأ هذا الاقليم الى جزئين جغرافيين طبيعيين ، وقد بقي الجزءان الى يومنا هذا .

ويعيش البراهويون بالاسلوب الذي يفرضه محيطهم . فبعضهم رعاة وبعضهم مزارعون . وهم ينقسمون الى قسمين رئيسين يقطنان جلوان وسروان . وتعيل كل واحدة من هاتين المنطقتين عدداً من القبائل التي يعتبر بعضها اشرف من غيره ، ويتبع مراتب الشرف عندها قيود على التزاوج فيما بينها . وانبلها جميعاً هم آل احمد زاي في جلوان ، وهم العائلة التي انجبت خانات قلات . وكان هؤلاء حاكمي بلوجستان قبل الغزو البريطاني .

وهذه القطعة من فسيفسائنا قطعة رفيعة ومعقدة بسبب قربها الشديد من الهند . وللبراهويين جيران كثيرون ، منهم قبائل البلوجيين ، وقرى التاجيك (الفرس) وتجار الهندوس ، وطبقات كثيرة أخرى من الخدم والمهرجين ، واشهرهم الدومب الذين يرحلون الى الهند . والبراهويون متعودون على السلطة ولذا فانهم يتفوقون في اعمال الشرطة والجيش ، ويخدم كثيرون منهم بالدرك [الشرطة] في ايران ، وخاصة في خراسان .

وقد ذهبت مرة للتفتيش عن الكهوف مـــع دركيين براهويين ، أحدهما مرشح ضابط ، والثاني حامل بندقيته . كان مرشح الضابط طويلاً يبلغ طوله ستة أقدام . ويزن اكثر من ٢٠٠ رطـــل (٩٠ كيلوغراماً) . وقد جلس هو ومساعده في المقعد الخلفي من سيارة الجيب يتحدثان بلغتها الوطنية ، التي بدت مليئة بحرف الثاء . وفي احد الاماكن أمرني بالتمهل واطلق النار على رف من الطيور فأسقط أحدها . وابلغني أن له ثلاث زوجات احداهن كرديـة والثانية فارسية والثالثة من قريباته . وقضى حياته في مطاردة المهربين والقتلة . وفي ذلك اليوم ركب حصانه في جانب عمودي من الجبل ودخل أحد الكهوف ، مع اننا كنا نسير بحذر على أقدامنا . إن أمثاله من الرجال قادرون على صنع أية مدنية بما في ذلك مدنية وادي السند .

الفصل الرابع

السَاميّون

تطلق كلمة الساميين على الشعوب التي كانت في الازمنة القديمة وما زالت الى اليوم تتكلم اللغات السامية ، ويشكل أفرادها كثرة السكان في الشرق الاوسط . ولهم من النواحي الجغرافية والتاريخية والثقافية مركز متوسط . وأياً كان اللون الذي تميزهم به فانك واجد انـــه اللون الاسطع في رقعة الفسيفساء ، بل اللون المركزي الاساسي الذي به تستبين وعنه تتميز سائر الالوان الاخرى . وهو ايضاً لون الملاط القوي الذي يمسك القطع من ان تزحل من مواضعها . ولو أراد المرء اختيار أبرز العناصر في مدنية الشعوب المختلفة التي تتكلم اللغات السامية لوضع بينها قلة اكتراث هذه الشعوب بالزمان والمكان ، واهتمامها الاصيل بالنواحي الرفيعة من العلاقات الانسانية وتدينها العميق .

إن معرفتنا باللغات السامية لا تتجاوز عهد نشوء الكتابة . ونعلم ان متكلمين باللغات السامية كانوا يعيشون في وادي ما بين النهرين الى الشمال من الشومريين في العصر البرونزي ، وربما أيضاً الى الجنوب منهم في « الاراضي البحرية » من شبه جزيرة العرب ، وانهم اقتبسوا الخط الاسفيني السومري . وأقدم اللغات السامية المكتوبة هي اللغة

الاكدية ، ومنها انبثقت لغتا بابـل وآشور المتأخرتان[1] . وكانت الحضارة البابلية وريثة حضارة الشومريين . وقد أخذ البابليون جميع الوسائل الحضارية التي اخترعها معلموهم ، كما أخذوا عنهم نظام الحكومة ، والقوانين بل وتفاصيل التنظيم الديني . فأصبحت المعابد البابلية بدورها شركات وقفيـة تمتلك أراضي واسعة ، وتلقى الكهنة علوم الرياضيات والفلك عن معلميهم وطوروها .

اما الآشوريون الذين تألق نجمهم في أوائل العصر الحديدي ، فقد قطنوا المنطقة الجبلية الواقعة شمالي السهل الغريني ؛ وهي منطقـة آبار النفط الحالية الواقعة قرب كركوك . ولما كانوا مجاورين لجبال أرمينيا وجبال زاجروس فقد توفر لهم خام الحديد الذي صنعوا منـه سلاحاً قصموا به أعداءهم . والتاريخ القديم مـلىء بقصص الآشوريين وهم يقتلون الآلاف من أبناء شعب مـا ، ويسلخون غيرهم بالعشرات أحياءً ، ويقطعون الايدي ، ويضعون البعض على الخوازيق ، ويقطعون رؤوس المئات من الناس . واخترعوا الكبش وغيره من الاجهزة المدرعة التي حسنها الرومان فيما بعد . وكانوا أول الخبراء في عمليات الافناء وفي نقـل الجموع الى المنافي . ولقـد طغوا ونهبوا وسلبوا في المناطق الواقعة بين نهر النيل ، ومنحدرات دماوند ، وبـين صحارى العرب وغابات البلاد المعروفة اليوم باسم ارمينيا ، وشواطىء بحـيرة

---

(١) Arthur Ungnad, Babylonish-Assyrische Grammatik. (Munich 1925) p. 1.

يقول الدكتور جورج كامـيرون « ان الاشورية المتأخرة مولدة من اللغة الاكلاية اما البابلية فقد اقتبست جزئياً من اللغة الاكلاية ولكنها تعرضت لتأثيرات مهمة من الشمال الغربي في عهد الاموريين » . ذلك ما قاله في حديث خاص .

فان . ولم يبق لهم أثر لغوي او عرقي ، وهذا من رأفة الله بعباده[٢] .

أما الشعب الذي يسمي نفسه « الاثوريين » في هذه الايام ، فهو لا يتكلم الآشورية بل اللغة السريانية ، وهي فرع من الآرامية . وقد ظهرت اللغة الآرامية حوالي القرن السابع عشر قبل الميلاد وأصبحت لغة جميع القسم الشمالي الغربي من المنطقة السامية . واتخذ الآراميون دمشق عاصمة لهم ، ويقال إنها أقدم مدن العالم التي لا تزال مأهولة في أيامنا الحاضرة . وفي عهد المسيح كانت الآرامية هي اللغة الشائعة في الاقسام الشمالية والوسطى من فلسطين غربيّ نهر الاردن ، وكذلك كانت في العراق . ولقد خلقت الشعوب السامية التي اعتنقت المسيحية أدباً واسعاً بهذه اللغة واستعملت الحروف الابجدية السريانية . وقام النسطوريون من بينهم بأعمال تبشيرية عظيمة في إيران وأواسط آسيا ، ووصلوا الى العاصمة المغولية في عهد جنكيزخان وكادوا ينجحون في جعل المسيحية دين الدولة في إمبراطوريته . وليست حروف الابجدية المغولية الحالية وكذلك حروف المانشو سوى حروف سريانية تكتب عمودياً بدلاً من كتابتها أفقياً .

وعندما غزا العرب العراق كان معظم سكانه من النصارى المنتمين الى طوائف شتى ، أهمها الطائفة النسطورية ، رغم احتفاظهم بالنمط

---

(٢) يعترض الدكتور جورج كاميرون بشدة على هذه الفقرة قائلاً ما يأتي « لقد كانت هذه دعايات آشورية . ولقد اوضح اولمستد (Olmstead) في كتابة تاريخ آشور (History of Assyria) ان الاشوريين كانوا يعرفون بأن الاستعمار يعني الحرب وسفك الدماء . ولم يجدوا سبباً للتهوين من هذه الحقيقة . وحاولوا إرهاب الشعوب للخضوع لسيطرتهم بما كانوا يفاخرون به من امجاد يدعونها . ولا ريب في ان هذا كله جهاز دعاية من الدرجة الاولى . فلماذا نصدق دعاواهم هذه . أما إدارتهم فكانت ممتازة وكانت لهم جهود طيبة في سبيل استعادة طرق التجارة عبر الشرق الادنى » . حديث خاص .

الثقافي الموروث عن الازمنة القديمة . وبالتدريج تعلم معظم الناس اللغة العربية وأصبحوا مسلمين . إلا ان بينهم من تمثل اللغة العربية وظلّ منتمياً الى طائفته . وحصل الشيء ذاته في سوريا ولبنان وما زال المسيحيون اللبنانيون الذين ينقسمون الى موارنة (اي قائلين بالطبيعة الواحدة منتمين الى الكنيسة الكاثوليكية) وارثوذكس ، ويعاقبه ، وبروتستانت يستعملون اللغة السريانية في طقوسهم الدينية . وفي سوريا قرى قليلة ما زال أهلها يتخاطبون بالسريانية في امور المعيشة اليومية .

وقد انتقلت الجماعات المتكلمة بالسريانية والتي كانت تقطن العراق الى الجبال الواقعة على حدود العراق وتركيا وايران بعد ان اباد معظمها غزو هولاكو في القرن الثالث عشر ، وتوطنت على الشاطىء الغربي الخصيب لبحيرة أورميه ، وهناك اسست مدينة أورميه التي تدعى الآن رضايه . وعندما قامت الثورة العراقية ضد البريطانيين عام ١٩٢٠ — ١٩٢١ جنّد البريطانيون هؤلاء النسطوريـــين وحاربوا بهم المسلمين ، وعندما تخلى البريطانيون عن حكم العراق عام ١٩٣٢ اوقع المسلمون بالنسطوريين وقتلوا منهم قرابة ستمائة شخص حسب أدق التقديرات . وفي إيران وقعوا عدة مرات ضحية المذابح التي قام بهـــا جيرانهم الاذربيجانيون الاتراك في مناسبات عديدة خلال القرن الاخير .

ومع ان كنيستهم الاصلية منظمة تنظيماً وثيقاً مرتبياً على رأسه حبر يدعى « مار » ، فان كثيراً من النسطوريين قـــد اصبحوا من الكاثوليك او البروتستنت نتيجة للجهود التبشيرية المركزة التي بذلت بينهم في القرن الاخير وبالاخص في رضاية التي كان للكاثوليك والمشيخيين [البرسبتيريين] مراكزاً نشيطة فيها . وكان للارسالية المشيخية في رضاية مدارس ومستشفيات عملت مدة قرن من الزمن من عام ١٨٣٦ حتى ١٩٣٦ عندما اغلقها رضا شاه بهلوي . ونتيجة للجهود التبشيرية اصبح معظم الآثوريين متعلمين . ويشتغل الكثيرون منهم موظفين في الحكومة ،

بينما هاجر الآلاف منهم الى امريكا . أما اولئك الذين بقوا منهم في العراق فانهم يتخصصون في العمل خدماً للاوربيين . وهم يشتغلون في العراق وايران في قيادة سيارات النقل وفي تصليح السيارات وصيانتها .

ولنعد من جديد إلى بداية العصر الحديدي . في استطاعتنا ان نقول ، ولكن دون برهان، بحصول هجرة قام بها شعب خاص يتكلم لغة سامية ، من شواطىء الخليج الفارسي الى شواطىء البحر الابيض المتوسط في لبنان وفلسطين الشمالية ، وذلك هو الشعب الفينيقي . فان الملاحة في الخليج الفارسي تعود الى الايام الشومرية والبابلية وتذكر لنا السجلات الاسفينية المعاصرة بأن البحارة كانوا يعيشون على سواحل قُطْر يدعى « الاراضي البحرية » . والظاهر ان المقصود بهذه التسمية هو المناطق الساحلية الواقعة على الجانب العربي من الخليج العربي ، والمناطق الواقعة على مصب النهرين وكذلك جزر البحرين . ومن الجائز انها كانت تشمل في وقت من الاوقات اليامة « وهي جزء من ساحل عمان » وتهامة اليمن . وان أسماء المواقع الثلاثة الاخيرة مشتقة كلها من الجذور السامية لكلمة « يم » أي البحر[٣] . وكثير من السلع التي كانت تستجلب الى بلاد شومر عبر الخليج الفارسي كان مصدرها الهند او ما وراء الهند . فالملاحة في المحيط الهندي عملية سهلة اذ انه يمكن الاستفاده من الرياح الموسمية للابحار في اتجاهين بأشرعة مثلثة بسيطة ، بين القسم الجنوبي من الخليج العربي ونقاط عديدة تقع على الساحل الغربي للهند وعلى ساحل افريقيا الشرقي كذلك . وهذه الطريق البحرية المتبعة ، متعرجة تسير بحذاء الشواطىء . وبالرغم من انه يمكن بالابحار في هذه الطرق الوصول الى النقاط البعيدة ، مثل مدغشقر واندونيسيا ، بل لقد وصل الاقدمون فعلاً الى هذه البلاد ، فان

---

(٣) R. P. Dougherty, The sealand of ancient Arabia, Yale Oriental Series researches (New Haven, 1932), Volume XIX

الجزر المتوسطة وبينها جزيرة (ری یونیون) (التي نفي اليها الامير عبد الكريم الخطابي) وموريشيوس (موطن طير الضوضو) لم تكتشف الا في العصور الحديثة . ويرجح انه كان بين أوائل البحارة الذين جابوا المحيط الهندي أندونيسيون وهنود . ولسنا نعرف بالتدقيق متى ركب العرب البحر صوب الهند وأفريقيا بمعونة الرياح الموسمية .

أما من جهة الملاحة فان الامر الذي يجب ان نتذكره عن التجارة البحرية عبر الخليج العربي هو ان محمولات السفن كانت تفرغ ويعاد شحنها في نقاط متعددة منها دلمون التي يعتقد بأنها جزيرة البحرين ، وميناء آخر يدعى ملوخه . وهذه النقاط كلها كانت تقع في الغالب داخل الخليج فلماذا التفريغ وإعادة الشحن اذن ؟ لسنا ندري ، وربما كان من أسباب ذلك ضحالة الخليج الفارسي فوق البحرين والحاجة الى قوارب منبسطة والى ملاحين محليين مختصين بارعين . وربما كان من بين الاسباب ايضاً الرغبة في المشاركة في الارباح او رغبة الربابنة في العودة الى البحر قبل سكون الرياح الموسمية ، اذ انهم لا يستطيعون الخروج من الخليج عندما تبتدىء الرياح الجنوبية الغربية العاتية .

وعلى أي حال فقد وقعت أحداث متعددة حوالي سنة ألف قبل الميلاد ، ولا بد أنها كانت مترابطة الاسباب ، وهذه الاحداث تشمل اول اشارة الى تأليف الجمل وتشمل أيضاً تأسيس الممالك العربية الجنوبية ، ونشوء الطرق البرية من جنوب شبه الجزيرة العربية متخللة الحجاز الى البحر الابيض المتوسط ، وهجرة جدود الفينيقيين الى الشواطىء الشرقية لذلك البحر ، وهي الهجرة التي افترضنا حصولها . والعلاقة بين هذه الاحداث منطقية وواضحة مع انه لا يمكن اثباتها . غير ان مفتاحها هو الجمل . إذ انه بدلاً من تفريغ البهارات وغيرها من السلع في مكان يقع على الخليج العربي ليعاد شحنها بعد ذلك ، وجد بحارة المحيط الهندي ان بوسعهم تجنب تلك المياه ، وايصال حمولاتهم الى ميناء او

موانىء قريبة من موقع المكلا او الشحر ، او لعلها في هذه المواقع ذاتها . وهنا كان رجال القوافل من أبناء جنوبي شبه الجزيرة العربية يحملونها على جمالهم وينقلونها عبر حضرموت وقتبان وسبأ ومعين الى مكة فيثرب وغيرها من واحات الحجاز حتى تصل الى محطها الاخير . فمنطقي اذن ان ينتقل بعض البحارة الى البحر الابيض المتوسط ويدخلوا حرفة الملاحة التي كانت قبل ذلك إحتكارا بيد الايجيين ، والتي أخذت الآن تتسع بعد ان فتح القسم الغربي من البحر الابيض المتوسط(٤) .

هل كانت اصول اللهجة الفينيقية موجودة في « الاراضي البحرية » أو مشتقة من اللغات الكنعانية المحلية ؟ إن الافتراض الثاني هو الذى يرتضيه العلماء بعامة . ولكن بالرغم من هذا الشاهد اللغوي فمن الجائز ان يكون البحارة قد جاءوا من الخليج الى البحر الابيض المتوسط لان اللغات يمكن ان تتعلم وان تنسى وهو شيء كثير الحدوث . وعلى اي حال فانهم بعد ان كمّلوا مهارتهم في خوض المياه الجديدة ، وحلّوا محل الكريتيين ، سادةً للبحر الابيض المتوسط ، جابوا الساحل الغربي الغني لهذا البحر ، واستوطنوا في قرطاجة وقرطاجنة وقادس وغيرها من الاماكن المعروفة ، واستجلبوا القصدير من البرتغال ، وربما أيضاً من الجزر البريطانية ، ونقلوه الى المراكز الشرقية للحضارة . ويذكر هوميروس أشياء كثيرة عن الفينيقيين أعظم الملاحين في بحر ايجه الذين اوصلوا للبرابرة الاغريق معاصريهم ، الدروع البرونزية ، والاسلحة والعبيد والملابس الرقيقة ، وأخذوا في مقابلها الابقار والنبيذ والخمور .

---

(٤) يعارض جورج حوراني الذي قرأ المسودة الاولى لهذا القسم وانتقدها ، هذه الفكرة التى تقول بأن الفينيقيين هاجروا في صورة شعب واحد من الخليج الفارسي الى البحر الابيض المتوسط . اما نظريتي الحالية فانها تفترض ان قسماً من بحارة الخليج الفارسي هاجروا أفراداً او جماعات من الملاحين وان الفينيقيين ربما نشأوا من امتزاج هؤلاء مع السكان المحليين .

ولقد نقل الفينيقيون عشرات الالوف من العبيد فساهموا بذلك في نشر المعارف وضروب المهارة المحلية .

وكانوا هم بدورهم من مهرة الصناع فاستخرجوا عصارة قوقعة الموريكس وحوّلوها صبغ ، ومنها كان اللون الارجواني المسمّى بالصوري ، وبنوا هيكل سليمان من الحجارة الكلسية ومن جذوع الاشجار من غير ان يسمع ضجيج مطرقة ، وصنعوا أدوات معقدة من البرونز . والى جانب مهارتهم في التجارة والصناعة والملاحة كانت لهم ميزة أخرى وهي تطرفهم في الدين ، ذلك التطرف الذي استجلب نقمة انبيـــاء العهد القديم عليهم .

وكان امام الملاح الفينيقي أخطار عظيمة ، فسفراته البحرية في الجزء الغربي من البحر الابيض المتوسط وفي سواحل المحيط الاطلسي سفرات بعيدة لا يعرف متى سيعود منهـا وكم من الاشهر والسنوات ستنقضي قبل ان يعود . وكانت الصفقات التجارية ذاتها تتضمن المخاطرات الكثيرة . وكل أمر من هذه الامور منوط بتوفيق الله فلا عجب إذن ، ان يسلم نفسه الى آلهته مقدماً ، بل وان يضحي لاصنامها البرونزية ابنه البكر ، وهو أعز ما يملك ، ليضمن التوفيق والنجاح . وكان هؤلاء الفينيقيون على جانب عظيم من الخشونة والانصراف الى العمل ولقد أدوا دورهم خير تأدية في فترة حضارتهم قبل ان تبتلعها روما .

أما النساء الخوالف ، فانهن اوجدن لانفسهن متنفساً في وحدتهن عند غياب ازواجهن في رحلاتهم البحرية الطويلة . فكانت طقوس الآلهة عشتروت عند نبع أدونيس المقدس ، مليئة بالمتع والتهتك ووجدت الزوجات المغيبات فرصتهن في ظل من التبرير الديني . اما المُرْدُ « الناعمون » فكانوا يجتمعون في حلقات تضم متديني العزاب ويوقعون في أنفسهم الاذى والالم ، ومازالت مثل هذه الحلقات تشاهد في الشرق الاوسط وغيره من بلاد العالم .

ومع انه ليس في عالمنا اليوم من يدعو نفسه فينيقياً فان تراث الفينيقيين ما زال حياً في اماكن عديدة . فالبحارة العرب الذين يقلعون من الكويت ومسقط يؤدون نفس عمل الفينيقي بطريقته التقليدية ذاتها . واللبنانيون المسيحيون القاطنون في الجبال الواقعة خلف الساحل الذي استوطنه الفينيقيون ، يبحرون الى جميع البلاد للاتجار . وهنالك شعب مسيحي آخر له شغف بالترحال ، هو الشعب المالطي ، الذي يقوم ابناءوه بادارة فنارات السفن الواقعة بالبحر الاحمر ويتكلمون لغة خليطا من السامية والايطالية ، وبينهم من يعتقد بأن هذه اللغة تحتوي عناصر من اللغة الفينيقية ، مع ان فيليب حتي — الذي ربما كان هو نفسه من أحفاد الفينيقيين — يعتقد بأنها محرفة عن العامية العربية الشائعة في شمال افريقيا[٥] .

وما دمنا في صدد الحديث عن اللغات فلنذكر ان الفينيقيين نشروا احد العناصر الرئيسية في حضارتنا الحديثة اعني الحروف الابجدية . ففي وقت ما يقع بين سنوات ١٨٠٠ و ١٥٠٠ قبل الميلاد ، ابتدأ الكنعانيون — وهم اسلاف الفينيقيين — طريقة للكتابة لم تلبث ان تطورت وانتهت الى اقتباس الرموز الصامتة في الكتابة المصرية واهمال الرسوم . ومن هذه الصامتة التي نشرها الفينيقيون في الغرب ولدت حروف الابجدية في العبرية ، والآرامية ، والسبأية ، والعربية ، والاغريقية والاترسكية . ومن الحروف الاترسكية اخذت الحروف الرومانية التي تكتب بها اللغات الغربية اليوم . ومن الحروف الاغريقية اخذت الحروف القبطية والكيرلسية التي تستعملها بعض الشعوب السلافيــة . وتعود الحروف الارمنية والكرجية الى المصدر ذاته .

ولا بد لنا من ذكر بعض الامور حول الحروف الابجدية ، والرسوم

---

(٥) « Arabic Language », Encyclopedia Americana (1948) p. 124.

والرموز الصامتة . كان للمصريين الجدية ممتزجة بتراكيب مقطعية تستعمل في بدء الكلمات . ولكنهم كانوا يصورون في نهاية الكلمة رسماً لشيء او لفعل او لفكرة للتأكد من ان القارىء فهم القصد . اما السبب في عدم تخليهم عن هذه الرسوم فهو عين السبب الذي يمنعنا من استعمال الهجاء الصوتي ، وهو تماثل النطق الصوتي لالفاظ ذات معان مختلفة . فاذا كتبنا مثلاً كلمات (to, too, two) بطريقة صوتية فجعلناها كلهـا (tu) ، واذا كتبنا (right) و (rite) بشكل (rait) وكتبنا (shoe, shoo) بشكل (shu) الخ . . . فقد نقع في خطأ وتشويش . واللغة الفرنسية من هذه الناحية اسوأ من اللغة الانكليزية حيث توجد فيها كلمات (mére, maire) و (foi, foie, fois) الخ . . .

ولئن استطاع الفينيقيون ان يستنبطوا عناصر الحروف الابجدية من الرموز المصرية فلذلك سبب واضح ، اذ لم يكن لديهم اية صعوبة من ناحية تطابق الاصوات . فاللغات السامية تحتوي تنويعاً عظيماً في الاحرف الساكنة ، التي يصعب على غير الساميين تعلمها . فالدال والسين والتاء والهاء والذال والزين تلفظ كلها من سقف الفم . والالف تلفظ بتنفس هادىء ، والهمزة تخرج من الحلق . اما العين فيستحيل وصف مخرجها . والغين تشبه الـ (r) الفرنسية ولكنها تأتي مع اهتزاز اكبر في سقف الفم . واستطاع الساميون ، بما فيهم الفينيقيون باستعمالهم ثمانية وعشرين حرفاً ساكناً ان يتجاهلوا حروف العلة المؤثرة في المعنى والاصوات المتطابقة استعمالها .

واخص الشعوب بـين الشعوب الخاصة في الشرق الاوسط ، هم اليهود . فلقد كانت لهم اهمية خاصة في التاريخ لانهم كانوا جسراً بين عالم الشرق الاوسط وعالم الغرب من عهد الامبراطورية الرومانية حتى يومنا الحاضر . ولو استثنينا الجماعة الايرانية التي تعبد النار لوجدنا انهم الشعب الوحيد بين شعوب الشرق الاوسط الذي حافـظ على طابعه

المتأصل ، ودياناته ، ولغته ــ الى حد ما ــ مدة تزيد على ثلاثة آلاف سنة . ولقد احبهم الناس وأبغضوهم ، وتقربوا اليهم وطردوهم ، وتمثلوهم جزئياً ، في بلد إثر بلد ، وفي قرن إثر قرن .

والأرجح انه ما من شعب سجل تاريخه مثل ما سجل تاريخ اليهود ، وما من تاريخ مثل تاريخهم ، يمكن فيه اظهار العلاقة بين تغيرات البيئة والتقنولوجيا ، والحكومة والدين . ولو تتبعنا قصص التوراة لشاهدناهم عند اول ظهورهم رعاة في مكان مـا من الهلال الخصيب شمال فلسطين وشرقيها . وهم إحدى الفروع القبلية التي انحدرت من صلب ابراهيم ، ولذلك نجدهم حينذاك يختارون النمط الثقافي الشبه البدوي الذي مرت به القبائل السامية والذي يتمثل في عهدنا الحاضر بالرعاة . وقد اندفعوا صوب الجنوب والغرب مفتشين عن المراعي والكلاء ، ولا شك ان الدافع لهجرتهم كان تعاقب السنوات الجافة . فقصدوا بلاد الكنعانيين التي تكثر فيها المياه ، إلا انهم لم ينزلوا فيها وهبطوا مصر بدلاً عنها ، وقضى بعضهم اجيالاً عديدة في مصر شعباً مستذلاً يدفع الجزية . ومن المرجح ان المصريين كانوا قد تعودوا على القبائل البدوية التي تضطر لترك الصحراء وتفتش عن ملجأ لها في مصر .

ثم غادروا مصر خشية ان يذبحوا فيها واتجهوا الى مقصدهم الاول ، أرض كنعان . ووقعت لزعيمهم موسى تجربة دينية على طور سيناء . فأقنع شعبه بأن يعبد يهوه ، إله ذلك الجبل ، من حيث انـــه رب النصر . ودخلوا كنعان في حماية إله الجبل الناريّ ، وفتحوا مدنها الواحدة تلو الاخرى ، واستقروا فيها ، وأخـذوا يزرعون الارض ويحرثونها . وتفرض حياة المدن على سكانها تعلم الصنائـع والتجارة ، فتعلموا من الكنعانيين حرف الصياغة والحدادة والتجارة . وما إن اطل عهد سليمان حتى فقد تنظيمهم القبلي والأسباطيّ معناه ، إذ كان في كل قبيلة نفر من الاغنياء وآخر من أقربائهم فقراء . وحكم القضاة في المدن

بدلاً من شيوخ القبائل. وأدرك سليمان آفاق التجارة العالمية بين المحيط الهندي والبحر المتوسط فحفزه هذا الى جمعهم في وحـــدة قومية ، فأسس مركزاً للحكم والدين في القدس ، وكان قد استولى عليها حديثاً من يد اليبوسيين ، وما كان لها حينذاك معنى رمزي لأي من القبائل اليهودية ، مع أنها اصبحت ذات معان عظيمة لأعداد كبيرة من الناس بعد ذلك .

وأوجدت الصناعة والتجارة تغيرات اجتماعية ، كان بعضها مزعجاً . فالاغنياء زادت ثرواتهم ، والفقراء زاد فقرهم ، وقام الانبياء لاصلاح الامور بطرقهم الخاصة . وقد بـدأ الأنبياء كجماعات من الدراويش والمتصوفين ، القادرين على ان يصلوا الى حالة من النشوة والغيبوبـــة بتعطيلهم عمل المخيخ والاذن الداخلية بما يقومون به من حركات وما يرددونه من كلمات وما يقعون فيه من « أحوال » . وهذه الحيلة قديمة قدم الانسان . فاذا ما توصلوا الى هذه النشوة فانهم يتفوهون بأنواع الكلام ، ويفسر الناس هذا الهذيان تفسيرات شتى – كل حسب مذاقه . وهذه طريقة شائعة بين الساميين ، بل بين البشر جميعاً . وما زالت موجودة بين الساميين الأقل تعلماً في جزيرة العرب .

وقد نشأ عنها ، كما ينشأ عن كثير غيرهـا من الاشياء البسيطة ، أمور اكثر تعقيداً واكثر أهمية بالنسبة لتاريخ العالم . ونشأ من بـين جماعات الاخوان والدروايش أفراد من الانبيـاء لهم اتباعهم . وزعم الانبياء بأن الله قد أوحى اليهم ، ولكنهم بالاضافة الى ذلك استطاعوا ان يشخصوا علل المجتمع الذي عاشوا فيه وان يصفوا لها الدواء . ولما كانوا اقوياء الشخصية ، فقد كانت لهم مصادرهم الخاصة في الحصول على المعلومات ، وأصبحوا مصدر ازعاج للسلطات الحاكمة في ايامهم .

وأهم ما حققه الانبياء هو إدراكهم وتعليمهم الناس بأن يهوه ليس مجرد رمز لنجاح بني اسرائيل ، ولا هو اله خاص بين عصبة من الرموز

الوطنية ، على غرار آلهة الاولمب ، بل هو رمز للانسانية بأجمعها ، وللعدل والتوازن والتناسق بين الطبقات والحرف الاجتماعية وبين الامم كلها . وهو يقف بجانب كل من يعبده باخلاص ويتبع اوامره ووصاياه تلك الاوامر والوصايا التي تحقق السلام والعدالة على ظهر الارض . واصبح يهوه حسب هذا التحديد رمزاً يستطيع كل إنسان ان يعبده بايمان واخلاص ، مهما كان عرقة ومحيطه ومهما كانت ثقافته . وكل من عبده اصبح قادراً على ان يلعب دوره في تقدم الانسان والعالم ، منسجماً في ذلك مع غيره من الناس ومن الاشياء المحيطة به . وقد مهدت يهودية الانبياء للمسيحية والاسلام ، وللحضارة التي يحاول الغرب ان يدافع عنها ضد الذين لا يؤمنون بالله .

وقد اتخذت اليهودية صفة تبشيرية في بعض الاماكن ولفترة من الزمن . وقبل المبشرون اليهود دخول الناس الى دينهم في شمال افريقيا والحبشة وبين الخزر في شبه جزيرة القرم . غير ان تبشيرية اليهود العظيمة موجودة في حياة المسيح واعماله وفي جهود حوارييه واتباعه . ثم دفعت العوامل التاريخية في الشرق الاوسط وغيره ، هؤلاء اليهود ، بشكل متزايد ، الى تأدية دور خاص . فأثناء السبي البابلي في سنوات ٥٨٧ — ٥٣٧ قبل الميلاد نقل عدد من قادة مملكة يهوذا الجنوبية الى العراق . وعندما غزا الآشوريون اليهود اختفت القبائل اليهودية والمملكة الجنوبية ولعلها امتزجت مع السكان المجاورين . وليس ثمة من يعلم ما حصل لها ، وقد وضعت افتراضات لا تحصى منذ ذلك الحين لتفسير اختفائها . وسمح كورش الكبير فاتح بابل ، لليهود بأن يعودوا الى بلادهم ويبنوا هيكلهم ولكن الكثيرين منهم بقوا حيث كانوا . ووصل بعضهم الى واحات آسيا الوسطى قبل عهد الاسكندر او اثناءه . وذهب آخرون الى القرم مع الاغريق . وربما نشأت الجاليات اليهودية في شمال افريقيا والحبشة في بعض الاحوال قبل العهد الروماني ، بل

وربما نشأ بعضها قبل السبي البابلي ، على ان هذا امر قابـل للجدل . وكان في الحجاز جاليات يهودية قبل الرسول العربي ، وكذلك جالية كبيرة في اليمن . ومن الجائز ان يكون ملوك سبأ – الذين سنتحدث عنهم فيما بعد – قد اعتنقوا الديانة اليهودية في وقت من الاوقات .

وعندمـــا توسع الرومان في غربي أوروبا ذهب عدد من اليهود ، وغيرهم من ابناء الشرق الاوسط ، الى البلاد التي تدعى الآن فرنسا والمانيا . وقطن التجار اليهود في المدن الرومانية الواقعة على الضفاف الغربية لنهر الراين والتي بنيت من اجل التجارة . وعندما غزا العرب شمال افريقيا كان اليهود يقيمون فيها ودخلتها اعداد جديدة منهم . كذلك فان السكان اليهود الذين قطنوا اسبانيا والبرتغال قبل ان طردهم فرديناند وايزابيلا مع المسلمين عام ١٤٩٢ ، كانوا بالغالب من اصول معقدة . وقديماً انتقل اليهود المتكلمون باللغة الالمانية شرقاً من حوض الراين للالتقاء باليهود القادمين من القرم في غاليسيا . ونشأ من التقاء الجماعتين اللتين كانت كثرتها من المتكلمين بالالمانية ، اليهود السكناج [الاشكنازيم] الذين يتكلمون لغة اليديش . اما اليهود الذين طردوا من اسبانيا ، ويعرفون بالسفارديم ، فقـــد استوطنوا شمال افريقيا (وكان قد سبقهم اليها يهود متكلمون باللغة العربية واللغة البربرية) كما استوطنوا في هولندا والجزر البريطانية وفي اجزاء عديدة من الامبراطورية الرومانية على مقربة من البحر الابيض المتوسط .

وفي العالم انواع كثيرة من اليهود أهمها واشهرها السكناج والسفارديم ، الذين تجد ابناءهم في كل مدينة غربية تقريباً ، فبعضهم ممتزج مـــع السكان امتزاجاً كلياً ، وبعضهم منحاز عنهم كل الانحياز . وفي الشرق حافظ اليهود المحليون (وهم خلاف اليهود الوافدين حديثاً من الغرب) على وضعهم بوصفهم شعباً خاصاً وانصرفوا الى اعمـال المال والتجارة والتعليم والحرف التي تتطلب مهارة فائقة . ومارس بعضهم الزراعة ،

كما في اليمن وجبال الاطلس ، ولكن هذا قليل نادر . اما في الغرب فمع ان اليهود يفضلون الحرف ، الا انهم فقدوا بالغالب هذه الصفة المميزة ، ولولا الاحداث التي وقعت خلال الحرب العالمية الثانية لاستمر التغير في حياتهم مطرداً .

أما العبرية ، التي هي لغة بني اسرائيل ، فانها احدى اللغات المعروفة باللغات السامية الغربية ، يشاركها في ذلك اللغتان الفينيقية والكنعانية . وهي شديدة الشبه باللغة الكنعانية . ولهذا الشبه سبب تاريخي واضح ، اذ ان اليهود غزوا الكنعانيين وتشربوهم . وبقيت اللغة العبرية وقتاً طويلًا لغة عبادة فحسب حتى أحيتها الحركة الصهيونية .

* * *

وثمة لغة سامية أخرى او بالاحرى مجموعة من اللغات وتلك هي لغات جنوبي شبه جزيرة العرب . وكانت هذه اللغات محكية دارجة في الممالك القديمة لمعين وسبوه وقتبان وحضرموت الواقعة في المناطق الصحراوية الممتدة بين اليمن والمملكة العربية السعودية ومملكة عدن . وكانت عواصم هذه الممالك الاربعة هي المدن الآتية على التوالي : معين ومأرب وتمنع وشبوه . ولا نعرف الا القليل عن الشعوب التي كانت تسكن هناك في الأيام السابقة للاسلام وما زالت هذه البلاد في حاجة الى اكتشاف وتنقيب . وما زالت آدابها القديمة التي حرمها المسلمون الاوائل بعيدة المتناول . واننا لنعرف من التوراة والقرآن ومما كتبه المسعودي والثعلبي أشياء قليلة عن بلقيس ملكة سبأ وصديقة سليمان التي عاشت في مأرب . وقد اكتشف الجزء الثامن من كتاب الاكليل الهمداني الذي يصف قلاع اليمن كما وجد منه الجزء العاشر الذي يتحدث عن قبائل اليمن .

وأوردت النقوش المسطورة على الحجارة[٦] اسماء أشخاص وآلهة وأماكن ووصفاً لبعض الأحداث القليلة . ولدينا ما وصل الى علم ديودور الصقلي بطريق غير مباشر . وكذلك ما كتبه كل من سترابون ومؤلف « الكشاف البحري » . وهذا هو كل ما نعرف .

وقد كانت هذه الشعوب تعيش على الزراعة القائمة على الري . وكان الري معتمداً على عدد من السدود أكبرها واشهرها سد مأرب . وقد تهدم هذا السد مرتين في سنة ٤٤٩ و ٤٥٠ بعد الميلاد واصبحت الزراعة مستحيلة بعد انهياره . الا ان الزراعة كانت تقدم الغذاء لشعب اتجه نشاطه الاول نحو النقل والتجارة . فالعرب الجنوبيون كانوا ينقلون البضائع القادمة من الهند والشرق من موانىء تفريغها الواقعة على المحيط الهندي ويسيرون بها في الطريق البري الذي يعبر الممالك الأربعة الى مكة ، ويواصلون السير حتى البحر الابيض المتوسط . وكان سليمان مهتماً بأمر هذه التجارة في الطرف الواقع على البحر المتوسط وكذلك كان الفينيقيون . ومن البضائع التي كانت تنقل البخور والطيب ، الذي كان ينتج في تلال قاره . وكانت هذه الصموغ العطرة تستعمل في الطقوس الدينية ، وسلع الطقوس الدينية ثمينة ذات اسعار عالية ، وما زالت تستعمل في الشرق الاوسط وفي غيره من البلاد .

وبعد غزو العرب لليمن اضمحلت اللغات القديمة ولكنها كشأن معظم اللغات القديمة بقيت في بعض الاماكن النائية . وما زالت هنالك أربع

---

(٦) لقد نقلت بضعة آلاف من النقوش ومع ان بعضها بسيط من نوع النقوش الموجودة على القبور او المتضمنة لبعض النذور فان بينها عدداً من النقوش المسطورة على الابنية ، وبين هذه النقش المسطور على سد مأرب ويبلغ ١٣٦ سطراً . حديث خاص لـ (Sir Hamillon Gibb)

لهجات من هذا النوع[٧] باقية الى يومنا هذا بين رعاة الأبقار في قاره وجيرانهم ، وجزيرة سُقُطْرة ، التي ما تزال مجهولة والتي تعتبر موضوعاً مهماً لعلماء الانثروبولجيا في المستقبل . والشعوب التي كانت تتكلم هذه اللغات ليست صافية في إسلامها إذ أن أبناءها يقدمون الأضاحي للجن ويحلفون على قبور أجدادهم . وهم بقايا عصر قديم . وهنالك حاجة ملحة وسريعة لدراستهم قبل ان تضمحل وتندرس طرقهم القديمة .

غير ان أهم الآثار الحية للغة جزيرة العرب موجودة في الحبشة وارتريا . ففي منتصف السنوات الالف الاولى قبل الميلاد غزت جبال الحبشة جموع من حضرموت واستوطنت فيها وأدخلت اليها اللغة الجعزية ، وهي لهجة حضرموتية ، ما زالت تستعمل في الطقوس الدينية . ولكن ما لبث ان حلّ محلها لغات منبثقة منها هي اللغة الأمهرية والتغرية ، والتغرانية . وهكذا فان لغة امبراطورية هيلاسلاسي الرسمية وهي الأمهرية تخلد لغة الجدة التي يدعي هيلاسلاسي نفسه الانتساب اليها وهي ملكة سبأ .

اما اللغة العربية ، ونعني بها لغة القرآن ولهجاتها الحديثة ، فكانت من الناحية التاريخية آخر اللغات السامية ظهوراً . والظاهر انها كانت في القرن السابع بعد الميلاد ، لغة الشعب الذي كان يعيش بين المنطقة الآرامية من فلسطين وسوريا والعراق والمنطقة السبأية من اليمن وحضرموت . وهي تعتبر الى جانب اللغة السبأية من اللغات السامية الجنوبية . ولا شك ان الأفراد الذين كانوا يتكلمونها في العصر السابق

---

(٧) Bertram Thomas (Four strange tongues from south Arabia, the Hadara Group) proceedings of the British Academy XXIII (London 1937), 1-105.

كان بحث توماس هذا بحثاً تمهيدياً ويجري الدكتور شارل ماثيوز من شركة ارامكو دراسة للتأكد من ذلك .

محمد كانوا اقل عدداً من المتكلمين باللغتين الأخريين . وهي تستحق الدرس الخاص من نواح عديدة .

فأولاً كان العرب الذين يتكلمون اللغة العربية في الغالب من البحارة ورجال القوافل والبدو وسكان المدن الذين يعيشون على النقل والتجارة والحرف ، وخدمة الحجاج . اما المناطق اللغوية الاخرى التي وجدت في الشرق الاوسط القديم ، فكان النظام الاجتماعي الذي تعيش فيه نظاماً مبنياً على القرى والمزارعين ، ولقد كان للعرب اختصاصهم حتى قبل أيام توسعهم ، فان البدو متعودون على الترحال بخلاف المزارعين ، والتجار ايضاً رجال ترحال خصوصاً اذا كانوا يشتغلون في النقل البحري وفي تجارة القوافل . ولذا فان العرب كانوا مستعدين للحركة عندما حان وقتهم وجاء زمانهم .

وثانياً كانت اللغة العربية لغة خاصة ، فالعرب كانوا يتكلمون لهجات متقاربة يفهمونها جميعاً ، ولكن كان لديهم لهجة مركبة ، احتفظوا بها للشعر(٨) . وقد اختارت شعوب العالم المختلفة وسائـط متنوعة للتعبير عن أوثـق اشواقها واقدسها . فالألمان يعبرون عن أنفسهم بالموسيقى ، والفرنسيون يتخذون من الرسم والطبخ وغيرها من الفنون وسيلة للتعبير ، بينما اشتهر الاغريق ببنائهم ونحتهم ومسرحياتهم ، اما العرب فلم تكن الموسيقى قد تطورت عندهم بشكل خاص ، ولا الرسم ، ولا الطبخ ، ولا البناء ، ولا النحت ، ولا المسرح ، وكان لا بـد لأجهزة التعبير الفني عندهم ان تكون سهلة النقل . والواقع ان هـذه الاجهزة كانت مكونة من الاوتار الصوتية والحنجرة وغيرها من اعضاء

---

(٨) C. Brockelmann, History of the Islamic Peoples, trans. by J. Carmichae and M. Perlmann (New York, 1947) p. 12. Philip Hitti « Arabic Language », op. cit, p. 123

الصوت التي يمتلكها الشاعر ، وكان نتاجها الشعر مع الغناء او بغير غناء .
ويقول اليمنيون ان في ايامنا الحاضرة قبيلة عربية في نجران ، تشبه ان تكون اسطورية ، إذ ان أبناءها جميعاً لا يتخاطبون الا بالشعر .
وعلى ذلك فان اللغة بالنسبة للعرب هي اعظم بكثير من مجرد وسيلة للتخاطب ، بل هي في نهجها الصحيح وسيلة لمعظم التعبير الجمالي عندهم ، وسنرى فيما بعد كيف تلاءمت مع الدين الذي أوجده العرب ونشروه .

وتحتل اللغة العربية اليوم مكاناً فريداً ، فرجال العلم في جميع البلاد الاسلامية يقرأون لغة القرآن ويكتبونها ، وفي القرآن تبلور الشكل الشعري لهذه اللغة . ومع ذلك فان الكثيرين منهم لا يستطيعون التكلم بها . ولقد أجلست في حفلة في احدى عواصم المقاطعات في ايران بالقرب من أستاذ للغة العربية ، على أمل ان نستطيع التحدث معاً ، غير انني دهشت عندما علمت ان كلامه باللغة العربية أسوأ حتى من كلامي بها ، بل لا يكاد يستطيع أن يبين بها البتة ، وقال لي باللغة الفرنسية : انني استاذ للغة العربية ولكنني استطيع قراءتها لا التحدث بها . ترى كم من اساتذة اللغات في العالم الغربي يصدق عليهم هذا القول !

وبجانب اللغة العربية الفصحى هناك شكل أدبي شائع ، وذلك هو لغة الصحافة الحديثة التي تنتشر في مصر والعراق وسوريا وشمالي افريقيا، والاشخاص المتعلمون يقرأون هذه اللغة ، ولكن الغربي الذي تعلم اللغة العربية الفصحى وتعلم التحدث باحدى اللغات العامية يجدها صعبة عليه . واني لأشك فيما اذا كان بين الامريكان الذين لم يولدوا في بلاد عربية من يستطيع قراءة اللغة الأدبية الحديثة بسهولة .

اما لغة الكلام التي لا تجد طريقاً إلى المطابع أو حتى الى الرسائل الخاصة فتنقسم الى عشرات من اللهجات المحلية ، وكثير من هذه اللهجات لا تفهم خارج نطاقها . مثلًا عندما يتحدث أحـــد سكان طنجه عن « جرو ستيتو » يعني كلباً صغيراً ، فانه يصعب على ساكن فاس التي لا

تبعد سوى ١٣٠ ميلاً عن طنجه أن يفهمها . ويحيي الحجاج الجزائريون إخوانهم من الحجاج الآخرين في جدة بقولهم « بنجور عليكم » وهذا مما يثير اشد الاستغراب . ويستعمل سكان شمال افريقيا كلمة « مزين » بمعنى حسن بينما يستعمل العراقيون مصطلح « مو زين » بمعنى معاكس تماماً .

فاذا وسمنا الخطوط بين المناطق التي تفهم فيها اللهجات المحلية خارج نطاقها ولو مع شيء من الصعوبة ، وبين تلك التي لا يفهم الأمي منها شيئاً اذا كان غريباً عنها امكننا تقسيم منطقة اللغة العربية الى أجزاء عديدة كاملة ، وهذه الاجزاء تشبه وجوه اللغات البرتغالية والقشتالية والقطلانية وربما ايضاً الايطالية في العالم الذي يتكلم فروع اللغة اللاتينية، ولكن مع هذا الفارق ، وهو انه بينما يكتب الناس بنات اللغة اللاتينية ويتحدثون بها فان اللهجات المتفرعة عن العربية في العالم العربي لغات حديث فحسب . ولو جرت جميع الاحاديث العلمية في العالم الروماني بلاتينية هوراس ، وكتبت جميع الجرائد بلون عصري منها لكان الشبه أكمل.

ففي أفريقيا الشمالية نرى ان خطاً يسير من الشمال الى الجنوب ويقع في الجبال التي تبعد بضعة أميال الى الغرب من تونس ، يفرق اللهجة المصرية عن اللهجة المراكشية . وتحد شبه جزيرة سيناء لهجة مصر شرقاً. وتشكل سوريا ولبنان منطقة ثالثة ويشكل العراق منطقة رابعة . وتتكون المنطقة الخامسة من شبه الجزيرة العربية والأردن . ويقال بان لهجة الاردن أقرب اللهجات الى الفصحى بينما تعتبر لهجات السوريين والمصريين اكثر اللهجات تهذيباً وتطوراً . ويزداد انتشار هاتين اللهجتين بتأثير الراديو والجرامفون والسينما وربما أدى التلفزيون في المستقبل القريب دوره في التقريب بين اللهجات .

ومما يدل على أن العربية ليست لغة واحدة ، انه لا بد من الترجمة بين أهل الاقاليم المختلفة . فعندما كنت في صنعاء تحدثت باللهجة المراكشية الى يهودي كان بدوره يترجم ما اقول الى اللهجة اليمنية وبالعكس ،

وفي العراق وجدت ان من أفضل وسائل التفكهة لقضاء ليلة طويلة مملة من ليالي الشتاء سرد قصة باللهجة المراكشية ، وفي العادة يفهم احد السامعين ما يقال فيترجم للآخرين ، فيغرق هؤلاء في الضحك . ومع هذا الافتقار إلى الفهم المتبادل فان اللغة في أساسها لغة واحدة ، ونحوها واحد ومفرداتها تشكل وحدة واحدة على وجه العموم اذا استثنينا الكلمات التي تستعمل اكثر من غيرها ، وتختلف بين محلة وأخرى ، وهي مائة كلمة او دون ذلك .

ان التاريخ القديم للعرب الذين نشروا هذه اللغة المدهشة غامض كل الغموض[٩] ، ومعظم تفاصيله محجوبة تحت الاطلال العديدة الموجودة في المملكة العربية السعودية ، والتي ما زالت في حاجة الى التنقيب . فهناك تلال إثر تلال من الحجارة القديمة والتماثيل والحجار المنقوشة . وهناك كهوف تثير فضول المنقبين عن الزيت . ومن الواضح ان اقساماً من هذه البلاد كان لها مدنية عظيمة او سلسلة من المدنيات ، وهذا يصدق بشكل خاص على المناطق الواقعة على ساحل الخليج العربي . ولما كنا نفتقر الى البينات جاز لنا ان نقدم بعض الافتراضات .

إن نظريتي الخاصة هي ان التاريخ العربي في العصر المعدني السابق للاسلام يمكن ان يقسم الى عصور ثلاثة : العصر السابق للجمل ثم عصر الجمل الذي رافقته تجارة كثيرة على طول المرتفعات الغربية ، ثم عصر الجمل الذي قلّت فيه التجارة .

العصر الاول ـ العصر السابق للجمل وتشير اليه المواقع الغنية

---

(٩) Georgio Levi dell Vida, « Pre Islamic Arabia » in N. A. Faris, the Arab Heritage (Princeton University Press. Princeton, 1944) pp. 25-57. See also Philip Hitti, History of the Arabs, pt. I (See also late editions through the fourth)

الواقعة على الخليج العربي وعلى جزيرة البحرين . وكان العرب فيه يجدون غذائهم في الواحات وينالون أرباحاً عظيمة من التجارة البحرية ويزودون حضارات بلاد ما بين النهرين بالبضائع المنقولة بحراً من بلاد الشرق . وكان لجدود الفينيقيين وغيرهم دور هامّ في هذا النشاط .

وقد قام نشاطهم هذا في أساسه على مجموعة من الخدمات البريـــة والبحرية . فعمل ملاحو البلاد البحرية في جلب البضائع عبر المحيط الهندي الى مصبات دجلة والفرات . وهناك كان يعاد تحميلها في قوارب نهرية تسير بها في الأنهر والاقنية الى ابعد نقطة يمكن الوصول اليها بالملاحه النهرية ، حيث تفرغ وتحمل الى اسواق المدن القديمة . وكان غيرهـا من البضائع يأتي على ظهور الحيوانات عبر الطرق البرية من هضاب ايران في الطريق الممتدة من ممر اسعد أباد ، الى بسيتون فخانقين ، وهي اليوم طريق معبدة . وكانت سلع أخرى تنقل من جبال أرمينيا بواسطة نهر دجـلة . ومن منحنى نهر الفرات تشعبت طريق برية الى دمشق فالبحر الابيض المتوسط عبر الممرات اللبنانية ، وهنا ايضاً كانت البضائع ترسل الى شواطىء البحر او تشحن من الموانىء بعـــد ان تفرغها مراكب جابت القسم الغربي من البحر الابيض المتوسط والبحر الاسود بل حتى شواطىء المحيط الاطلسي وراء اعمدة هرقل . وفي هـذه الفترة اشترك العرب في هذه الحركة عند قطاعين : فساهموا في التجارة البحرية في الخليج الفارسي وربمـا ايضاً في المحيط الهندي ، وساهموا في النقل البري من شواطىء الفرات ومنطقة بغداد الى دمشق .

العصر الثاني – عصر الجمل وتجارة المرتفعات الغربية : يرجح ان هذا العصر لم يبتدىء قبل سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد وربمـا كان ابتداؤه بعد هذا التاريخ بقرنين من الزمن ، وأقدم إشارة تاريخية معروفة الى الجمل هي تلك الموجودة في احد نقوش تغلث فلاسر الاول وهو ملك

أشوري ، عاش في ١١١٥ حتى ١٠٧٤ قبل الميلاد(١٠) والكلمة السامية القديمة للجمل(١١) هي Gammalu ، وقد كتبت بالرموز الاسفينية الشومرية التي ترمز الى البحر باعتبار ان الحيوان الجديد هو « حيوان الاراضي البحرية » .

وليس مستغرباً ان يكتشف انسان بأن العرب الذين ربط الاشوريون بينهم وبين هذا الحيوان الحامل للأثقال ، قد عرفوا هذا الحيوان من شعوب شرقية كالشعب البرهوي مثلاً ، او كأجداد البلوجيين او امم سلفائهم . وليس لدينا بينات على ذلك حتى الآن بل « ليس هنالك من بينة تدل على ان الجمل كان معروفاً أصلاً لدى شعب وادي السند(١٢) » . كما يقول ماكي في حديثه عن حضارة عصر النحاس والبرونز في هرّابا وموهن جودارو التي وجدت من سنة ٣٠٠٠ الى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد . وهذا يحدد للجمل تاريخاً لا نستطيع ان نتجاوزه الى ما وراءه ، فاذا انتقلنا غرباً لا نجد أية بينة مقبولة تدل على ان المصريين استعملوا الجمل حتى ما بعد ابتداء العصر الفارسي في القرن السادس قبل الميلاد(١٣) .

---

(١٠) Bruno Miesner, « In Assyrien Wurde es (das Kamelle) von Tiglat-Pilezer I eingefuhrt und gezuchtet » Babylonien und Assyrien (Heidelber 1920), I, 220. For terminal date, see A. Poebel « The Assyrian Kings'List », Journal of the Near east Seciety 11 (1943), 87

(١١) Dougherty, op. cit., p, 155

(١٢) Ernest Mackay, The Indus Civilization (London, 1935) p. 44.

(١٣) Adolf Erman, Life in Ancient Egypt (London 1935) p. 44
ه. رانكه يؤكد هذا في مراجعته لنفس الكتاب تحت عنوان
Aegypten und aegyptisches Leben in Altertum (Tübingen, 1923) p. 586.
واعتقد اننا يمكننا تجاهل مجهورات E. A. W. Budge في كتابه
The Mummy (Cambridge, 1925), p. 388
الذي يفترض معرفته بالجمل في مصر معتمداً بعض الاكتشافات التي تمت في Naqada لهياكل بعض الحيوانات القديمة .

اما بربر شمال أفريقيا فلم يعرفوا هذا الحيوان حتى القرن الرابع بعد الميلاد[١٤] . وعندما عرفوه تغيرت حياة سكان الصحراء تغيراً عظيماً كما حصل لسكان شبه جزيرة العرب قبل ذلك بألف سنة وخمسمائة .

وأياً كان المكان الذي جاء منه هـــذا الحيوان القبيح في شكله العظيم في نفعه ، فان في استطاعتنا ان نتأكد بأن الصحراء كانت قبل مجيئه مكاناً أكثر هدوءاً وأقل سكاناً مما هي اليوم ، وربما كانت تضم جوالي منعزلة من مزارعي النخيـل والذرة في الواحات المتناثرة ومن قبائل الرعاة المتنقلين ببطء في المناطق المحاذية للأراضي المزروعة ، ومن جماعات يقتنون الحمير ويجوبون الصحراء في سرعة بحثا عن الصيد والتجارة ، وما زالت شعوب شجرة النخيل والاغنام والحمير موجودة ، ولكنها تعمل على التحضير للدور المثير الذي يؤديه رجـــال الجمال وهم الذين تتواشج حياتهم بحياة أولئك الآخرين من نواحٍ عديدة شتى .

ولقد نمت التجارة ايضاً بمجيء الجمـل ، فالطريق الغربية التي كانت تنقل البهارات اليمنية والبخور الحضرموتي الى المدن اليمنية ذات الابنية المتعددة الطوابق كانت تمر خلال العسير والحجاز . وكانت مكة احدى محطاتها وكذلك يثرب التي سميت فيما بعـد المدينة ، والى الشمال من يثرب كانت الطريق تتشعب الى فرعين ، فالفرع الغربي يتجه الى البحر الابيض المتوسط والفرع الشرقي يتجه الى دمشق فحمص فحماه فحلب . وفي هذا العصر كان نفوذ جنوبي جزيرة العرب مسيطراً في شبه الجزيرة كلها ، فقد انتقل المركز من شرق الجزيرة الى غربها .

---

(١٤) E.F. Gautier. Sahara, the Great Desert, trans. by Dorothy Ford Mayhew (New York, 1935), pp. 121-135, chap. 10.

جوتيير Gautier يقول ايضاً ان الفرس جلبوا الجمل الى مصر في سنة ٥٢٥ ق. م (ص ١٣٤) .

وحيثما وجدت المياه دائمة وفيرة ، كما في مكة ويثرب ، كبرت القرى وأصبحت مدناً يعيش سكانها من العمل في القوافل وفي التجارة. وربما كانت الواحات المحيطة ببعض المدن واسعة بحيث تنتج من الطعام ما يكفي حاجات السكان المحليين والمسافرين . وفي بعض المدن الاخرى دعت الحاجة الى استيراد قسم من الطعام على الاقــل . وكان البدو يجوبون الصحراء بينما لهم اقرباء في المدن ، وكانوا يزودون التجار بالجمال . وعلى ذلك ساد النظام القبلي في المدن ومضارب الخيام على السواء . ولا بد ان العلاقة الاقتصادية الوثيقة بين البدو وسكان المدن كانت قــد توطدت لان لا حياة للبدو بدونها .

والتاريخ مـلـيء بالاشارات الى العرب في العصر الاغريقي الروماني او في الايام المتأخرة من هذا العصر ، فلقد انتقلت قبيلة اثر قبيلة من الصحراء الى الشمال ، وأصبحت إمّا من التجار المقيمين في الواحات او من حراس الطرق العاملين لاحدى الدول الثابتة ضد اخوانهم الذين لم يتم إخضاعهم في الجنوب ، او عملت كلا الامرين معاً . وفي القرن الثالث قبل الميلاد احتل النبطيون الاراضي الواقعة شرقي الخطّ الممتد من البحر الميت حتى خليج العقبة ، والذي تتكون منه اليوم المملكة الاردنية الهاشمية ، ومدن البطراء وبصرى وجرش ودمشق . وقــد استولوا على تجارة البهارات والبخور من السبأيين الذين كان لهم عملاء وممثلون في مناطق مثل جزر بحر ايجه ، مثلما كان لتجار الاستيراد والتصدير من اهالي فاس وكلاء في مانشستر في القرن التاسع عشر . وأصبح النبطيون حينئذ شعباً خاصاً له ممثلوه في المناطق الغربية البعيدة حتى ايطاليا . او كما يقول دلافيدا :

« تبدو الحضارة النبطية وكأنها مستبقة لما حققه الاسلام فيما بعـد على نطاق أوسع بكثير ، وذلك هو مزج العناصر العربيـة وعناصر الشرق الادنى والعنصر الاغريقي في حضارة موحدة . ولكن النبطيين

لم يكونوا يفتقرون فحسب الى الحمية الدينية العظيمة التي عرفها الاسلام بل كانوا يفتقرون ايضاً الى الحافز العسكري الذي عرفه الفاتحون العرب ، ثم إنهم واجهوا الامبراطورية الرومانية في أوج عظمتها[١٥] » .

وبعد النبطيين جاءت شعوب غيرهم نذكر منها شعب تدمر الذي ترك لنا آثاراً كلاسيكية محدثة لا تقل في عظمتها عن البطراء ، وهؤلاء ايضاً انتشروا في العالم الروماني كله تجاراً وعساكر ، وكانوا شعباً متميزاً . وعندما نشأت الامبراطورية الساسانية في بلاد الفرس في القرن الثالث بعد الميلاد ، أجزل الرومان والساسانيون العطاء للأمراء العرب لحماية حدودهم . وكان العرب يقاتلون عرباً لقاء ما يبذل لهم من مال . وفي القرن الرابع بعد الميلاد غزا الاحباش من اكسوم جنوب شبه جزيرة العرب ، وحاولوا ان يفتحوا مكة كما جاء في القرآن ، وفي هذا الوقت كانت تجارة البهارات والبخور قد اضمحلت ، وكان سد مأرب قد تهدم ، وابتدأ عصر الظلام عند العرب[١٦] .

ان العصر الثالث الذي أفترضه وأسميه عصر الجمل وتضاؤل التجارة لهو نفس العصر الذي يسميه ديلافيدا عصر الظلام . وهو عصر استمر من القرن الثالث حتى القرن السابع بعد الميلاد . وقد نتساءل : لماذا كان هذا العصر عصر الظلام ؟ بما ان شبه جزيرة العرب كانت دائماً تعتمد على التجارة الخارجية ، فلا بد ان احداثاً خارجية كانت مسؤولة عما حدث . ففي هذا العصر تدهورت قوة روما ، وانتقلت سوق البضائع الشرقية من ايطاليا الى بيزنطه ، وكان للبيزنطيين طرقهم الخاصة الى الشرق المارة عبر واحات تركستان الى شواطىء بحر قزوين ، ومنخفض القفقاس والشواطيء الجنوبية للبحر الاسود .

---

(١٥) Della Vida, op. 39.

(١٦) Della Vida, pp 41 ff.

وبتضاؤل التجارة ضعفت المدن وقل سكانها ، وتحوّل بعض المزارعين في جنوبي شبه الجزيرة العربية الى حياة البداوة ، وانتقلوا صوب الشمال مفتشين عن المراعي . ومن هؤلاء جدود بني كلب وطي من القبائل التي ما زالت موجودة حتى يومنا هذا . اما الواحات التي كانت على مقربة من المدن أو بعيدة عنها ، والتي كان البدو يحتاجونها مراكز للتجارة ولتجميع الجمال فقد أصبحت ضعيفة حتى فرض البدو عليها الجزية ، إلا مكة فانها بفضل مياهها الدائمة وما فيها من مقدسات الحج القديمة ، وبفضل ما تبقى من تجارة القوافل استطاع سكانها ان يحافظوا على استقلالهم . ذلك هو الاطار الذي نشأ فيه محمد الذي يعتقد اكثر من ٣٠٠ مليون شخص في عالمنا اليوم بأنه رسول الله .

وبفضل العمل العظيم الذي قام به في السنوات الاخيرة من حياته بزغ عهد جديد في سرعة لا يكاد العقل يصدقها ، وهذا العصر يمكننا أن ندعوه عصر النور ، وفيه سار العرب شمالاً لغزو العراق وايران ومصر وشمالي افريقيا واسبانيا ، ومن ثم السند . ونشروا لغتهم حيث كانت لغات سامية أخرى سائدة من قبل ، الا انهم كانوا اقل نجاحاً في البلاد التي تتكلم سكانها لغات غير سامية . وعلى أي حال فان هذا العصر أوجد الوضع الراهن اليوم حيث يتكلم الملايين من الناس القاطنين خارج شبه الجزيرة العربية اللغة العربية . ويعيش هؤلاء الملايين بنفس النمط الاقتصادي السائد في الشرق الاوسط . وبعبارة أخرى فان معظم المتكلمين باللغة العربية خارج شبه جزيرة العرب هم اليوم من المزارعين كما كانوا قبل مجيء العرب وذلك بقطع النظر عن مقدار ما خالط دماءهم من « دم عربي » .

الفصل الخامس

الايرانيّون

بينما تحتل اللغات السامية المقام الأول في الشرق الأوسط ، فان المقام الثاني من حيث عدد المتكلمين باللغات المختلفة هو لمجموعة اللغات الهند – اوربية . غير ان اللغات السامية هي في موطنها بالشرق الاوسط ، اما اللغات الهند – اوربية التي يتكلم بها ايضاً مئات الملايين من الاشخاص في أوروبا والامريكتين والهند واستراليا ونيوزيلاندا ، فقد نشأت خارجه . وبينما كتبت بعض المآثر الادبية العظيمة في بادىء الامر باللغات السامية ، الا ان معظم المؤلفات المكتوبة في العالم بما في ذلك هذا الكتاب ، مكتوبة باللغات الهند – اوربية . وفي الشرق الاوسط ، تنافس احدى اللغات الهند – اوروبية وهي اللغة الفارسية اللغة العربية كواسطة للتعبير الأدبي .

ولو استثنينا الأجانب المقيمين في الشرق الأوسط مبشرين ودبلوماسيين ومنقبي آثار وموظفي شركات النفط ، لوجدنا سبع جماعات عرقية تتكلم بلغاتها الخاصة او بمجموعات اللغات واللهجات الهند – اوروبية . وهؤلاء هم الفرس (بما في ذلك الأكراد والجيلانيون [الجيلك] *

* هم سكان منطقة جيلان ، وقد درج سكان المنطقة على تسمية أنفسهم « جيلَك ». (المراجع)

والبلوجيون والبطهانية واهل كافرستان والارمن واليونان والغجر واليهود السفارديم . وتستحق اربعة من هذه المجموعات ذكراً خاصاً يتجاوز هذه الفقرة . فاليونانيون موجودون في مصر حيث كانت الجوالي الهلينية تعيش باستمرار منذ الايام الكلاسيكية ، والغجر الذين يتجولون في جميع البلاد الواقعة شمالي شبه جزيرة العرب وشرقي السويس حتى تركيا وأوروبا ، يتكلمون أشكالاً مختلفة من لغة تركيبية أساسها اللغة الهندية . واليهود السفارديم يتكلمون اللغة الاسبانية .

وعلماء اللغات ليسوا أكثر اتفاقاً من غيرهم من العلماء ، وهم يقسمون اللغات الهند ـ أوربية عادة بطريقتين مختلفتين ، فالطريقة القديمة تميز بين الفرعين الغربي «الكافيّ» (ويدعى Centum) والشرقي «السيني» (ويدعى Satem) ، ويقوم التمييز على ما اذا كان حرف (K) أو (S) موجوداً في بعض أصول الكلمات . والنوع الشرقي هو الفرع الذي يهمنا في هذا البحث ، وهو يضم لغات البلطيق واللغات السلافية والارمنية والايرانية والهندية . (انظر الخارطة رقم ٥) . والايرانية تشمل الفارسية والكرديه والجيلانيه والبلوجيه في أحد فروعها ، وتشمل لغه البَشتو في فرع آخر . واللغه الهنديه الوحيدة التي تهمنا هنا هي . الفرع الدَرْدِيّ (Dardic) الذائع في أفغانستان ، ويستعمله اهالي كافرستان وبعض جيرانهم المسلمين المدعوين بالبيوشانيه * (Parachis)[1] .

أما الطريقة الثانية في التصنيف وهي الطريقة الاحدث فتقوم على أساس تصنيف اللغات بمقدار ما في تركيبها من الشبه باللغة الاصلية

---

* اعتقد ان هذا هو النطق الصحيح لما سماه المؤلف «Parachis» والبيرشانية فرقة شيعية في أفغانستان وهم اتباع «شيخ النور» كما يدل عليه اسمهم . (المراجع)

(١) George Morgenstierne, Indo-Iranian Frontier Languages, Inst. fur Sammenlignende Kulturforskning (Oslo, 1929) Serie B, Skrifter, XI, Vol. I.

المفترضة ، وهذا يفترض ان اللغـــات لم تتجزأ ولكنها ابتعدت عن الاصل ، واحدة تلو الاخرى ، وعلى هذا الاساس تكون أقرب لغات الشرق الاوسط الهند ـ اوروبية الى اللغة الام هي اللغة الحثية المنقرضة والتي كانت سائدة في الأناضول ، وهي من المجموعة الغربية «الكافية» ، ويليها اللغة الأرمنية من المجموعة الشرقية السينية ، وتليها اللغة الاغريقية وهي سينية ، وكلا اللغتين الحثية والارمنية تعكسان زمناً يسبق انقسام اللغات الهند ـ اوربية الى شرقية وغربية ، إن كان هذا الانقسام قد حصل أصلًا . وكلتاهما تعكسان تأثير لغات غير الهند اوربية تشبه اللغات المعروفة في أيامنا هذه في القفقاس[٢] .

كان علماء اللغة قبل قرن من الزمن أقل حذراً مما هم اليوم ، وقد قاموا بزعامة ماكس ملر (Max Müller) برسم اللغة الام الاصلية التي انحدرت منها اللغات الهند أوربية التاريخية ، بل وذهبوا الى أبعـــد من ذلك فاستنتجوا التفاصيل الثقافية المشتركة ، وعينوا مواقـع الشعوب الاصلية التي تكلمت هذه اللغة على الخارطة . وافترضوا وجود حضارة قديمة ذات عصر معدني عرفت نفس المنتجات الزراعية والحيوانات الاليفة التي عرفها الشرق الاوسط . وعلى اساس المظاهر الجغرافية والاسماء المشتركة للاشجار وما شابه ذلك من أسباب ، عين اللغويون موقع هذه الثقافة في جبال هندوكوش (Hindu-Kush) ، وهي جبال نائية يصعب التعمق في دراستها للتأكد من صحة هذه الافتراضات لسنين عديدة مقبلة .

وقد كان بين الشعوب القديمة المتكلمة باللغات الهند اوربيـــة من الكلت حتى الهندوس بضعة أشياء مشتركة ، بينها التعلق بالثور بـدلاً

---

(٢) انني مدين للاستاذ Henry Hoenigswald من جامعة Pennsylvania لما قدمه لي من مساعدة في سبيل توضيح هذه المشكلة ، وخصوصاً لاعارته لي بحثاً وضعه ، ولكن لم ينشره ، حول موقع اللغة الارمنية .

من الاغنام ، ولبس السراويل في الرجلين والاكمام في الايدي ، بدلاً من الالبسة المرسلة التي كانت تلبسها الشعوب القديمة في الشرق الاوسط والبحر المتوسط . ومنها وجود نظام اجتماعي مبني على ثلاث طبقات ، الارستقراطيين والعامـــة والعبيد ، مضافاً اليهم الكهنة ، ثم الاعتبار العظيم للحصان على انه وسيلة للحركة في الحروب ، واحتقار السمك ، طعاماً للانسان ، واحراق الموتى وربما ايضاً تقديم الاضاحي الانسانية ، ووجود مجموعة من الآلهة التي ترمز الى أجزاء من الكون والى مصادر الهموم والمتاعب للبشر ، سواء أكانت خارجية كالحرب والرعد والعواصف ، او داخلية كالمرض والحب ، وليس عندها سوى اله واحد يرمز الى حرفة من الحرف – وهو رب الحِدَادة .

ومع ان الكثير من هذه الخصائص ينطبق على النمط في الشرق الاوسط ، خصوصاً إذا حاولنا ان نعيد بناء عصر البطولات السابق لنشوء حضارة المدن ، فان بعضها يختلف عن ذلك النمط ، فالثور والسراويل وإحراق الأجساد تنقلنا الى بلاد أبرد وأرطب[٣] ، ولا نخطىء كثيراً اذا عينا موضع أقدم الشعوب تكلماً باللغات الهند اوربية قبل ان تنقسم او تتباعد في مكان ما في السهول الواقعة بين مستنقعات بريبت (Pripet) ، وجبال الطاي (Altai) وجنوباً حتى جبال القفقاس والبرز وهندوكوش . وقد تكون هذه الحضارة في مثل قدم حضارة الشرق الاوسط او لا تكون . وكل ما نعلمه اليوم هو ان الحضارتين نمتا جنباً الى جنب ، واستعارت كل منهما من الاخرى ؛ بينما تقدمت حضارة الشرق الاوسط بسرعة أعظم ، ووصلت الى مرحلة المدن ، ونقابات الحرفيين ، والكتابة .

ولسبب ما زال مجهولاً تباعدت الشعوب المتكلمة باللغات الهند –

---

(٣) أرطب بسبب الحاجة الى الخشب للوقود ، وأبرد لان الارض تتجمد في الشتاء فتمنع الدفن .

أوربية ثقافياً وسياسياً أيضاً . فكان للايليريين (Ilyrians) أيام شهدت عظمتهم وتوسعهم . وكان للاغريــق والرومانيين والكلت والشعوب الجرمانية ايامهم ، وجـــاء دور السلافيين في هـــذه الايام ليجددوا المحاولة ذاتها . وما حصل في الغرب حصل أيضاً في الشرق ، إذ اننا نعلم أن اجداد الفرس والافغانيين والهندوس هبطوا شرقي ايران وغربي افغانستان عند منتصف الالف الثانية قبل الميلاد وفي نصفها الثاني . وغزا المتكلمون باللغات الهند اوربية بلاد الاناضول وعمروها ، وربما دخلوها من أكثر من جهة واحدة . وفي منطقة الشرق الاوسط جـاء انتشار الامبراطورية الفارسية مقابلاً لتوسع روما .

ولم تبق آثار للعصر البرونزي لهذه الحركات الهند اوربية القديمة ، ولم يبق أحياء يمثلون هذه التحركات القديمـة للشعوب الهند اوربية على شاكلة شعوب الجوانش التي تسكن جزر الكناري . فالذي نعلمه أنه لم يعد في العالم كله من أثر للعصر البرونزي . إلا أنه إذا ما تجاهـل القارىء بعض الادوات الحديدية ففي استطاعتنا ان نقدم له وصفاً مختصراً لشعب محافظ غاية المحافظة ، قديم في حضارته عابـــد للأصنام ، من الشعوب الهند اوربية التي تعيش في الشرق الاوسط وذلك هو شعب كافرستان الذي يسكن جبـال هندوكوش[٤] ، الذي أرغم على اعتناق الاسلام سنة ١٨٩٦ على يد الامير الافغاني عبد الرحمن خان ، بعدما اعترفت حكومة الهند بحقوقه في تلك المنطقة .

تتكون كافرستان من عدد من الوديان السحيقة المرتفعـة في جبال هندوكوش . وتصرف هذه الوديان مياه الثلوج الى نهر كابـل . وفي

---

(٤) لقد عادت مؤخراً بعثة دانياركية قامت بدراسة هذا الشعب خلال فترة ثلاث سنوات . اما الوصف الذي أوردته فهو مبني على مراجع أقدم ، وبالاخص على دراسة روبرتسون (G. Robertson) وقد يظهر انه وصف بال خاطىء من حيث التفاصيل .

أعاليها مروج غنية بالاشجار ، تكثر فيها غابات الصنوبر الكثيفة ، وفي السفوح تنمو أشجار الزيتون والرمان وغيرها من اشجار البحر المتوسط بشكل بريٍّ . وتمد أشجار الجوز ظلالها الوارفة . والوديان سحيقة بحيث لا تبلغ إلا مشياً على الاقدام . ولذلك يسهل الدفـــاع عنها ، وهذا ما مكن شعب كافرستان من المحافظة على استقلاله لمدة طويلة . ومع ان الامطار لا تنزل في معظم أيام السنة فان الجداول الدائمة توفر المياه الكثيرة للري . وبفضل هذه المياه يزرع اهالي كافرستان ربعاناً ضيقة تحيطها الحواجز في الجبال ، بعد حراثتها بالثيران الصغيرة . وأهم محاصيلهم العلف الذي يقدمونـه لدوابهم في الشتاء وأهم أرزاقهم الابقار والماعز وبعض الاغنام . وهم يبيعون الاغنام والجلود والصوف والسمن على الحدود الباكستانية ، ويشترون بدلاً منها البضائع القطنية والمجوهرات وغيرها من السلع المصنوعة . ويبيعون بعض المنتجات في جوار كابل . وكان يسمح لبعض المتسوقين الهنود من غير المسلمين ان يدخلوا بلادهم .

ويعيش سكان كل وادٍ من هذه الوديان في عدد من القرى الكبيرة المزدحمـــة . وهم يبنون بيوتهم على الصخور ، للاقتصاد في الاراضي الزراعية وللأسباب الدفاعية . ويعتمد تنظيم أبنية القرية على طبيعة الموقع . وفي بعض هـذه القرى أكثر من خمسمائة بيت ، مبنية من الخشب ، ومكونة في العادة من ثلاثة طوابـق ، ومنسقة حول فناء مكشوف ، كلما كان ذلك ممكناً . فالطابق الاول يستعمل اصطبلاً شتوياً ومستودعاً للسماد ومرحاضاً . أما الطابق الثاني فيستعمل مستودعاً ، بينما يتخذ السكان الطابق الثالث سكناً لهم . وفي وسط هذا الطابـق موقد مكشوف يملأ المكان بدخان يتسرب بعضه الى الخارج من ثقب في السقف . وتختلف عنه البيوت الاسلامية في أنها حقاً أكثر نظافة . يضاف إلى ذلك ان الغرفة مليئة بالاسرة الخشبية والطاولات والكراسي ،

وذلك لان أبناء شعب كافرستن كالاوروبين ، يرتفعون عن الارض في جلوسهم ونومهم . ويرى المرء في داخل البيت آوعية كثيرة بعضها من الخشب المنقوش ، وبعضها من جلد الماعز . وبين هذه الاوعية دنان من النبيـــذ المنوع الالوان ، وأوانٍ من مربيات العنب المُسْكِرَة .
وعندما تجلس عائلة الكافرستاني إلى مائدة الطعام وأفرادها يلبسون جلود الماعز أو الصوف الاسود ، فانها تبدأ طعامها بالصلاة ، ثم تغسل بالنبيذ خبزها وجبنها ، واللحم الذي لا تطبخه الا نادراً . وهذا الذي يبدو غريباً بل معيباً عند المسلم ، يملأ قلب المشاهد المسيحي القادم من اوربا او امريكا بالحنين الى الوطن .

ويلاحظ الزائر لدى اقترابه من مشارف القرية عـــدداً من الابنية الخشبية الصغيرة التي تبعد عن مساكن القرية ذاتها . وهذه البيوت هي البيوت التي تعتزل فيها النساء أثناء الحيض والولادة . فان أهل كافرستان يشبهون كثيراً من الشعوب البدائية في أنهم يعتبرون الظواهر الجنسية عند النساء نوعاً من النجس . وتفسير ذلك مــا يأتي : ان الحيض والولادة كلاهما اضطراب يسبب انقطاعاً بين المرأة وزوجها ، وأفضل ما يعالج بـه هذا الاضطراب إقلال التعامل والاعتزال . وعندما يولد الطفل يقام احتفال عظيم ، يتخلله الابتهاج والسرور ، ويشترك فيـه الاقارب والجيران ، وكأنما يستعد المجتمع فيه لاستقبال مواطن جديد .

فاذا وصل الزائر القرية فانه قد يكتشف انه يسير بين دكاكين الصناع . وبعض هؤلاء ينقشون الخشب ، وبعضهم يخيطون الاحـــذية ، بينما يطرق بعضهم الحديد المتوهج بالمطارق . وقـد تصل مسامعه موسيقى آلات وترية مندفعة من وراء الابواب المغلقة ، وهذا نذير بأنه دخل حيّ العبيد . والمفروض ان هؤلاء العبيد هم أحفاد السكان الاصليين ، والاسرى من أبناء القبائل الاخرى التي تقطن السهول المنخفضة . وهم يشكلون القوة الصناعية لكافرستان ويقومون بجميع الاشياء التي تتطلب

المهارة . وهم يصنعون لسادتهم الكساء والادوات واثاث المنزل وآنيته . وهناك عبيد آخرون ، ليس من السهل تمييزهم ، يقومون بالخدمة في بيوت السادة الاحرار . وجميع هؤلاء العبيد يعيشون في هذا الحي البعيد ، ويحرم عليهم الاقتراب من الاماكن المقدسة التي يشاهدها الزائر عندما يدنو من مركز القرية .

وهنا يقابله فناء مكشوف . ويبدو هذا الفناء للوهلة الاولى مثل ملعب التنس أو غيره من ملاعب الرياضة . ولكنه ليس سوى ساحة مكشوفة للرقص . وعلى مقربة منها بناء خشبي كبير في وسطه مذبح ، وهذا هو ساحة الرقص الشتوية . وفي هذه الدارة عدد من الابنية الصغيرة ذات الابواب المفتوحة . فأحدها معبد لاله الحرب جيش (Gish) وانك لتتبين في داخل المعبد صنماً خشبياً ، قد ركبت له عينان من الحجارة البيضاء . وهناك مبنى ثان لعدد من الآلهة تتبين أصنامها المطلة من الشبابيك . وبعض النصب الاخرى المثبتة في الارض كالخوازيق ، تمثل جدوداً أقوياء . ولقد استطاع عظام الرجال ان يخلدوا أنفسهم بهذا الشكل قبل الموت ، ولكن الالوهية لا تكتمل الا بعد الموت ، فلا بد من ان تمضي سنه ، ثم فترة أخرى يوضع أثناءها النصب في مكان أقل قداسة ليتطهر ، الى أن تتحقق الالوهية .

إن الوحدة الاساسية في حياة المجتمع بكافرستان هي العائلة الواسعة التي تتكون من خمسين شخصاً أو ستين ، يعيشون في بيت واحد او في مجموعة من البيوت ويحكمهم مجموعة من اكبر الاخوة سناً . وهذه العائلة وحدة اقتصادية ، وخاصة فيما يتعلق بملكية الاغنام والماعز والابقار والعناية بها . وكلما كان عددها أكبر ، كان مقامها أعظم لان القوة في العدد . فاذا كان أفرادها قليلين في عددهم فربما عمدوا الى تأجير أنفسهم لعائلة أكبر ، واختاروا رعي مواشيها . وهناك ثلاثة أنواع من العمل تعتبر من أعمال الرجال ، وكلها محفوفة بالمخاطر ، وهي

محاربة أعداء القبيلة ، وحماية قطعان الحيوانات ، والسفر في الرحلات التجارية . والنوع الثاني من هذه الاعمال ينال معظم وقت الرجال وجهدهم . فالمراعي تقع في السفوح العالية للوديان . وفي الصيف يذهب معظم الرجال للمحافظة على حيواناتهم . أما الزراعة فمن أعمال النساء ، ولعل سبب ذلك تطابقها في الزمن مع الرعي . ويتخذ العلف الذي تزرعه النساء طعاماً للحيوانات في فصل الشتاء عندما تكون قابعة في حظائرها .

اما النظام السياسي فمنبثق عن عزلة الحياة . فالسير على الاقدام وسيلة التجوال الوحيدة ، فاذا قطعت اشجار قليلة وألقيت في طرق المشاة ، او قطعت بعض الجسور المصنوعة من الحبال ، انقطع الاتصال . وفي بعض الاحيان نرى الوادي الواحد يشكل وحدتين مستقلتين او ثلاث وحدات . وفي أحيان أخرى تكون الاعالي المتجاورة لواديين قريبين اكثر اتحاداً من قسمين من اقسام الوادي الواحد . فالقبيلة اذن تتكون من سكان عدة قرى متصلة فيما بينها اتصالاً معقولاً . ونرى هذه التجزئة منعكسة في تعدد اللغات بين شعب كافرستان ، إذ انهم يتكلمون أربع لغات هي كَتِي (Kati) ووَيْجلِي (Waigeli) وأشْكُن (Ashkun) ، وبرسن جلي (Prasun)(٥) ، ويكاد انتشار اللغات يكون متطابقاً مع القبائل . وتعتبر قبيلة برسُن (Prasun) القبيلة الاصلية القديمة بين القبائل كلها ، ويقال انها تختلف في بعض المظاهر الجسمية عن غيرها ، فأبناؤها اشد سمرة ، واعرض وجوهاً ، واجبن في الحروب . ويقال بأن العبيد الاصليين في نسبهم هم من ابناء قبيلة برسن ، ولكن قبيلة برسن ذاتها تمتلك عبيداً . وهذا امر يحتاج الى مزيد من الدراسة والبحث .

---

(٥) George Morgenstierne, Report on a Linguistic Mission to Afghanistan, Inst. fur Sammenlignend Kulturforskning (Olso, 1926), Serie C-I-2, Vol. 1.

ولحكومة القبيلة دائرتان تختص احداهما بالشؤون الخارجية وتختص الأخرى بالشؤون المحلية . وبما ان الحرب قائمة دائماً تقريباً ، وبما انها ايضاً اكثر أهمية وابعد خطراً من الاحداث المحلية ، فان الدائرة الخارجية أقوى الدائرتين . والرجل الثري او القوي الشخصية القادر على جمع الاموال من اقاربه واتباعه ، يقيم سلسلة من الولائم مدى عامين . ويرافق هذه الولائم طقوس كثيرة ، وهي تشبه ولائم الشتاء التي كان الهنود الحمر من سكان الساحل الشمالي الغربي في اميركا يقيمونها ، ويرفقون معها توزيع الهدايا على المدعوين ، وتشبه ايضاً الولائم التي يقيمها سكان جزائر سليمان (Solomon Islands) ، من أجل الارتقاء في المقام الاجتماعي[٦]. وفي نهاية هذه الاحتفالات يعطى المحتفي رتبة رسمية هي رتبة جاست (Jast) او شيخ ، ويصبح عضواً في مجلسٍ من نظرائه . وهذا المجلس يدير الشؤون الخارجية للقبيلة . والعادة ان يكون بين اعضاء المجلس شخص او شخصان اكثر سطوة وشكيمة من غيرهم ، فيكون بيدهم امر الحل والعقد . وعلى رأس الشيوخ رئيس القبيلة او اميرها ويدعى مير (Mir) ، ولا يصل الى مركزه الا بعد ولائم أحفل وأضخم . امـا رجال القبيلة الاحرار ، فمع انهم يتركون معظم الشؤون الخارجية في أيدي الامير والشيوخ ، فانهم يجتمعون لبحث الشؤون البالغة الخطورة ، كالحرب والسلام ، ويتناقشون فيها طويلاً . وتزدهر الخطابة في هذه المجالات ، وينال الخطباء تقديراً رفيعاً . فاذا قرروا الحرب ، فانهم يعلنونها بشرف ، وذلك بأن يرسلوا الى عدوهم صندوقاً من الرصاص او من رؤوس السهام وينتظرون الجواب .

---

(٦) F. Boas, The Social Organization and the secret Societies of the Kwakiutl Indians, Report of the Smithsonian Institute (Washington, D. C. 1895). Douglas Oliver, Humans Relations and Language in a Papuan-speaking Tribe of the Southern Bougainville, Solomon Islands, Peabody Museum papers (Cambridge, Massachusetts, 1939), XXX, No. 2, 13—38,

اما الدائرة الداخلية فيصرف أمورها قاض ينتخب كل سنة يساعده اثنا عشر من المساعدين . وينظر هؤلاء في الخصومات القائمة حول مياه الري ، ويشرفون على صيانة الاقنية ويراقبون قيام الناس بزرع المحاصيل وحصدها في الاوقات الصحيحة . ويشرفون ايضاً على احتفالات الرقص الاسبوعية التي تهيء لمجتمع القرية فرصة الترفيه والعمل المشترك. ويفرضون الغرامات على المذنبين من المواطنين ، واذا كان الذنب عظيماً أمروا بنفي المذنب واحراق بيته ، ويساعدهم في ذلك السكان جميعاً . ويضيف القاضي نزلاء القبيلة ويكرم وفادتهم وينفق لهذا الغرض من الاموال العامة .

وهناك مجموعة ثالثة من المسؤولين ، تهتم بالنواحي العاطفية من حياة شعب كافرستان . فقد كنت تجد في كل قرية ثلاثة انواع من الكهنة :
ا – كاهن او اكثر لتقديم الاضاحي ، يتوارثون مناصبهم الدينية هذه، وهم يشابهون البرهميين (Brahmins) عند الهنود والماجي (Migi) عند الفرس الميديين ، والجود (Godes) عند الانكلوسكسون وأبناء الشمال.
ب – ومداح يجيد الغناء[٧] ولعله يشبه الدروديين شعراء ويلز القدماء (Druid) . ج – وكاهن ثالث يجمع بين التهريج والنبوءة ، ولعل وظيفته تخفيف التوتر كلما غلت العواطف واقتربت من أعتاب السلطة القائمة . ويغيب هذا الكاهن في نشوة عميقة يتصل اثناءها بالارواح وينقل للناس رغباتها .

وكان الاله الاعظم هو الاله امرا (Imra) ، الخالق ، وهو اله متعال. اما موني (Moni) فهو الوسيط بينه وبين عباده المتشفع لهم عنده . وأما الاله المحبوب اكثر من غيره فهو جيش (Gish) ممثل الحرب ، وهو رمز للاستقلال المضطرب الذي كان شعب الكافرستان يعيش في ظله ورمز

---

(٧) Sir G. S. Robertson, « Kafiristan », Encyclopedia Britannica (13 th ed.. ; 1926), XV, 630 — 634.

لكرههم للمسلمين . وكان له في كل قرية معبد خاص بينما كثيراً ما كانت الآلهة الاخرى تشترك في معبد واحد . وتقدم لامرا الأضاحي من الابقار ، اما جيش فيقدم له الثيران والماعز ، بينما تكتفي الآلهة الاخرى بتضحية الخراف ، وبالاخص اله الثروة ، اذ ان الثروة في الغالب تتمثل في الاغنام .

وفي اثناء الاحتفالات بالاضاحي يذبح الكاهن الحيوان الضحية بعد ان يرشه بالماء ، ويرش هدايا الطعام الاخرى ايضاً بالماء(٨) . فاذا ذبح الحيوان ، يجمع الكاهن دمه ويمزجه بالطحين والنبيذ والسمن ، وهي ترمز الى انواع الغذاء الرئيسية المعروفة عند شعب الكافرستان ، ويلطخ بهذا المزيج الصنم الذي يكون قد جلل قبل ذلك بستار . وعندئذ يتقدس اللحم والخبز والنبيذ ويبدأ الاحتفال . ويستطيع المرء ان يتصور مدى تقزز المسلمين الاتقياء القاطنين في السهول من هذا الاحتفال : مثلما تقزز كورتيز ايضاً لدى مشاهدته أضاحي قبائل مونتيزوما على مذبح هيكل الشمس في المكسيك . ولم تقو سهام ابناء الكافرستان وبنادقهم العتيقة على مقاومة عبدالرحمن ومدافعه المستجلبة من الخارج ، مثلما عجزت قبائل الازتيك عن ان تقاوم بسيوفها بنادق الفرسان الاسبان ورماحهم . وما زال ابناء كافرستان في موطنهم ، غير أن ديانتهم التي تعود الى العصر البرونزي قد طواها التاريخ .

تشكل اللغات الايرانية فرعين كبيرين ، الفارسية والبشتو (Pushtu). أما الفرس ، وهم اكثر الشعوب الهند ـ اوربية في الشرق الاوسط عدداً ، فلهم حضارة قديمة يحق لهم أن يفخروا بها . وان مآثرهم في الرسم والبناء والشعر ونظرية الحكم وفنون الحياة المتمدنة مشهورة لا

---

(٨) كان الفنلنديون الوثنيون ايضاً يرشون الماء على الضحية لكي ترتجف وتعتبر قشعريرتها اشارة بأن الله قبلها . اما اذا لم ترتجف فكان يأتون بضحية أخرى عوضاً عنها .

تحتاج الى وصف . واللغـــة الفارسية هي لغة البلاط ولغة السوق في افغانستان منذ زمن بعيد . وكانت حتى عهد قريب لغة التخاطب الاجتماعي المهذب في بغداد . وفي الهند التي وصفها كبلنج (Kipling) . كان الضباط البريطانيون – من أمثال هـ. سان جون فيلبي[٩] (H. St. John Philby) يزوون ما بين أعينهم حين يطلب اليهم تعلم الفارسية ، فقد كانت هذه اللغة هي لغة الهند الرسمية قبل ان تحل الانكليزية محلها .

ومع أن أجداد الفرس والاوروبيين ربما كان لهم في العصر البرونزي أسلوب في الحياة شبيه باسلوب أهالي كافرستان ، فان الفرس في ايران كانوا شعباً متحضراً منذ ثلاثة آلاف سنة على الاقل .

ويتألف المجتمع الفارسي من صنفين من الناس : القرويين وسكان المدن . ففي اجزاء النجد الايراني التي لا تقطنها شعوب تتكلم اللغـة الفارسية ، يرى المرء قرية حيثما وجد نبع ماء طبيعي ، او حيثما امكن جر الماء من الجبال بالانفاق . وتشكل هذه القرى حلقة حول الصحراء وتجاور الجبال . اما سكانها فانهم بسطاء متواضعون ، وهم من المزارعين المدهشين ، وكثيراً ما تجدهم مهرة في الصناعات اليدوية البسيطـــة . ويعيش البعض منهم في البلاد السوفييتية ويدعون هناك التاجيك (Tajik) . ومن التاجيك أقوام تعيش في أفغانستان . وفي بلوجستان يدعى سكان القرى المماثلة الدهوارية او الدهاقين[١٠] . وأينما عاشوا . وأياً كان الاسم الذي يطلقه الآخرون عليهم ، فهم شعب واحد – هو الشعب الفارسي . ولسنا نعرف اعدادهم لان التعدادات المتيسرة لا تميزهم عن غيرهم من العناصر العرقية .

---

(٩) Arabian Days (London 1948) pp. 32 ff.

(١٠) Lieutenant Henry Pottinger, Travels in Beloochistan and Sinde (London, 1816), pp. 79-81.

اما باقي الفرس فهم سكان المدن كبيرها وصغيرها . ونلحظ في المدن تمييزاً عاماً بين الطبقات العاملة والارستقراطيين . فالعمال يهبطون من القرى ويتجمعون من أنحاء شتى من البلاد حسب أنواع اختصاصهم. وللارستقراطي ارتباط وثيق بالقرى لانه في العادة من ملاك الاراضي ، والفلاحون هم الذين يقدمون له الدخل . فالمالك العاقل يزور أرضه من وقت لآخر ويؤسس علاقات طيبة مع مزارعيه ويهتم بحاجاتهم البسيطة . أما المالك الاحمق فيترك هذه الامور كلها لوكيله المدعو « كتخذا » ، ولا يهمه شيء سوى مقدار ما يناله من الدخل . وكثيراً ما يتغير مالكو القرى ، بل قد تتم الصفقات على موائد القمار ، وتتداول القرى كما تتداول اوراق النقد او اسهم الشركات . ومالكو الاراضي هؤلاء ، العاقلون منهم والحمقى ، يشكلون بمجموعهم الطبقات المتعلمة ، ومنهم موظفو الحكومة وضباط الجيش ورجال الدين والاساتذة وبعض كبار التجار . وهم يشكلون أكثرية البرلمان ، حيث يقاوم بعضهم كل إصلاح خوف أن يقل دخلهم .

وبين ايدينا مصادر اربعة عن تاريخ الفرس القديم هي الطلول والآثار ، والفوكلور الشعبي (Folklore) وما دوّن عن الفرس في اللغات والاداب الاخرى والوثائق الفارسية المعاصرة . وفي أراضي فارس آلاف من التلال منثورة هنا وهنالك . ويظهر العدد القليل الذي نبش منها أن الفلاحين شرعوا في حراثة الارض ورعي قطعان الحيوانات وبناء البيوت منذ العصر الحجري المتأخر او منذ مطلع العصر المعدني . ولا بد ان هؤلاء الفلاحين جاؤوا من مكان أخصب ، لأن من الواضح ان النجد الايراني القاحل المعرّض للرياح ، النزر المياه ، الشديد البرد في الشتاء ، لا يمكن أن يسكنه سوى مزارعين سبق لهم تعلم الزراعة في مكان

غيره[11] . وفي الشمال على مبعدة من النجد يكون الشتاء ادفا والمطر أغزر . وتشير الدلائل المعروفة في الوقت الحاضر ، إشارة غير حاسمة ، إلى انّ شعوب النجد الإيراني هبطت اليه من الشمال . وليس من يعرف اللغة التي كانوا يتكلمونها عند مجيئهم . أمـــا اليوم فانهم يتكلمون اللغة الفارسية .

ويعتقد اللغويون والمؤرخون اليوم بأن شعوباً تتكلم لغة من الفرع السيني للغات الهند ــ اوربية ، غزت النجد الايراني آتية من تركستان . وربما كان طريقها الرئيسي عبر نهر سيحون (Oxus) الى افغانستان ، وربما حصل هذا الغزو حول سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد بعد انشاء القرى بوقت طويل . واتجه الجناح الشرقي لهذا الغزو صوب الهند حيث وصلها في فترة ١٥٠٠ ــ ١٤٠٠ قبل الميلاد ، فأدخل اليها اللغة السنسكريتية (Sanskrit)، وأخضع حضارة وادي السند (Indus Valley) ، واقـــام نظام الطبقات المستقلة ، الذي استمرّ حتى يومنا هذا . اما الجناح الغربي فقد عبر النجد الايراني واجتاز الصحارى حتى استقر في المناطق الغربية الخصبة ، وربما ذهب البعض من اقوامه الى هلمند وبلاد سجستان والى خراسان ، واجتاز الآخرون المناطق الضيقة المزروعة الواقعة جنوبي جبال البرز الى سهول آذربيجان وبحيرة اورمية .

اجتازت طلائع هؤلاء الاقوام جبال زاجروس بعيــد سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، فنشروا اسماء الآلهة الهند ــ اوربية والارقام بين الشعوب الاصلية . وبعد ذلك بألف سنة جاء لهؤلاء الوافدين مدد جديد من

---

(١١) يزرع القمح في ولاية بنسلفانيا كما يزرع في ولايتي داكوتا . واننا لنعده محصولاً من محصولات المناطق العشبية لان النباتات الغذائية التي تحتاج مياهاً غزيرة تعطي ربحاً أوفر في بلاد الغابات .

جماعات من الهند اوربيين الذين ربما عبروا القفقاس . واستوطن بعضهم البلاد الجديدة ودعوها « فارسوة » (Pasrsua)[١٢] .

وقد ظلت اللغة القديمة طاغية بعض الوقت ، كما طغت اللغة الانكليزية على الفرنسية النورمانية في انكلترا . وربما بقيت بعض شعوب زاجروس تتكلم لغات محلية قديمة حتى وقت متأخر من القرن السابع قبل الميلاد . وفي عصر اكزنوفون (Xenophon) (٤٠١ قبل الميلاد) كان شعب الكردوكوي او الاكراد على ما يعتقد ، يتكلم لغة هند اوربيـة كشأنه اليوم وذلك بعد موجة هند اوربية يعتقد بوقوعها . الا ان التركيب الاجتماعي للاكراد ، وشيوع زواج ابناء الاخوة بينهم ، وغناءوهم الحلقي ، كلها لا تذكر بمظاهر هند ـ اوربية . إن الجبال معاذ يتحرز فيه الناس ، ولذا فان أصول سكانها في العادة تكون معقدة .

وقد قسم هيرودوت شعوب النجد الغربي الى فئتين ، الميديـين والفرس . فالميديون كانوا يقطنون البلاد الواقعة بين طهران وهمذان ، وكانوا موزعين في ستة قبائل تشغل كل منها عدداً من القرى . وفي سنة ٧٢٨ ق م انتخب احد حكماء القضاة ، ويدعى ديوقيس (Deioces) ليكون ملكاً عليهم[١٣] . فبنى مدينة اقبطاناً ، وهي مدينة همذان الحديثة ، وقد أظهرت الصور المأخوذة من الجو حدود العاصمة الميدية في داخلها . وما زالت هذه العاصمة غيباً لم يستكشف بعد . وكان بين الميديين قبيلة تدعى قبيلة الماجي (Magi) ، تخصصت في الطقوس والعبادة كما فعل اللاويون في إسرائيل .

---

(١٢) لقد كتب الدكتور (George Cameron) هاتين الجملتين في هذه الفقره .
انظر كتابه : Persepolis Treasury Tablets, Vol. LXV, 17 ff. especialy p. 18, n. 116.

(١٣) Herodotus, Historia, Bk. I, 11. 95-101, trans. by George Rawlinson (London, Everyman's Library, 1910), pp. 51-54.

وفي سنة ٨١٥ ق. م. تحرك الفرس جنوباً من فارسوة (منطقة اورمية) إلى مقاطعة فارس الحالية ، التي اعتبرها أحفادهم موطن المدنية الفارسية . وهي تضم في أيامنا الحاضرة مدينـة أصفهان جوهرة الفن المعماري التي بقيت زمناً طويلاً عاصمة الامبراطورية الفارسية ، وكذلك تضمّ مدينة شيراز الجميلة . وكان الميديون أول من أنشأ مملكة ، ولكن الفرس استلموا الزمام منهم ، بزعامة كورش الثاني (الكبير) ووسعوا المملكة حتى غدت امبراطورية . وقد اشتهر كورش ودارا واحشويرش بعظمة غزواتهم وبنائهم . واختلفوا عن الآشوريـين في أنهم تركوا الشعوب المغلوبة تعيش في سلام ، وأعطوهـا قسطاً من الحكم الذاتي ومنحوها الحرية الدينية ، بل إنهم اعادوا الاصنام والآنية المقدسة التي كانت آشور قد ابتزتها من الشعوب المغلوبة .

وقد بنى دارا وأحشويرش قصوراً وخزانات عظيمة في سوسة (susa) الواقعـة في سهول عيلام (Elam) وفي برسيبوليس [اصطخر] (Persepolis) الواقعة في فارس . وتظهر الالواح التي اكتشفتها بعثة شيكاغو التنقيبية[١٤] في خزانة برسيبوليس أشياء طريفة عن هذه الاعمال البنائية . وقد كتبت هذه الالواح بين سنوات ٤٩٢ و ٤٦٠ ق. م. عندما كانت الامبراطورية الفارسية في أوج عظمتها . ونعلم من النقش البهستوني بأن اللغة الفارسية القديمة كانت في ذلك الحين لغة مكتوبة . ولكن اللوحات كلها – ما عدا واحدة منها – مكتوبة باللغة العيلامية ، وسبب ذلك ان دارا واحشويرش استجلبا الكتبة العيلاميين من السهول المنخفضة ، ليسجلوا الحسابات ، مثلما ان بعض الكتبة اليوم ، هنالك ، من الآشوريين والارمن .

وكثير من الالواح إنما هي جداول أجور ورواتب . وهي تظهر

---

(١٤) Cameron, The Persepolis Treasury Tablets, Vol. LXV.

ان ما لا يقل عن أربع وعشرين حرفة كانت من الحرف المعروفة : بينها النجارون ، والمختصون ببناء الابهاء ذات السواري ، وحافرو النقوش ، والرافعون والحمالون ، والنافشون على الخشب ، والناقشون على الحجارة ، والصاغة ، والمختصون بالخدمة ، مثل سقاة الخمر وصانعيها ، وكهنة الهوما (Haoma Priests) ، الذين سنذكر المزيد عنهم قريباً ، ورقباء العمال ، والمحاسبون ، ومنتجو الاغذية كالمزارعين والرعاة .

وكان هؤلاء المختصون يأتون من أماكن بعيدة . « ففي سوسة كان البابليون يصنعون حجارة الآجر ، وكان الآشوريون يجلبون خشب الارز الى بابل حيث ينقله القاريون (Carians) والايونيون (Ionians) الى سوسة ، وكان الايونيون والصارديون يقطعون الحجارة ، والميديون والمصريون ينقشون الذهب ويزينون الجدران ، بينما يقوم المصريون والصارديون بالطلاء[15] . وفي برسيبوليس كان المصريون يعملون في النجارة وفي نحت النقوش على الحجارة . وقام القاريون بصياغة الذهب ، بينما عمل السوريون والمصريون والايونيون بأعمال الرفع والحمالة . ولو كانت حرفتهم مجرد حمل اثقال لما احتاجت الى مختصين . ولسنا نعرف هذه الحمالة التي كانوا يقومون بها ولكنها كانت تتطلب المهارة من غير شك . أكانت إذن تعني الرفع والثقب وتثبيت القضبان والسقوف ؟

وتدل لوائح الخزينة هذه على انه كان في ايران في عهد دارا نظام من التخصص في العمل القائم على اساس عرقي . فأما الفرس انفسهم ، ومعظمهم كانوا يسكنون مقاطعة فارس ، فقد شكلوا الطبقة المختارة او النبلاء . وكانت فارس موطنهم ، ولذا لم تفرض عليهم الضرائب . وهناك كان نبلاء الفرس يدربون منذ حداثتهم على استعمال السلاح وعلى الحكم بالعدل بين المتساوين والمتمايزين في المرتبة ، كما اوضح اكزنوفون في كتابه كيروبدايا او « تعليم كورش » (Cyropedaea) .

---

(١٥) Ibid., p. 11.

كانت امبراطورية كورش ودارا الآخيمينية (٦٥٠ - ٣٢٩ ق. م) اول امبراطورية حقيقية في العالم ، بمعنى انها شكلت حكومة من شعوب عديدة مختلفة في ظل حاكم واحد . وبينما وجدت الممالك اثناء العصر البرونزي في مصر ، وبلاد سومر ، وبابل ، والصين وغيرها ، فان الوسائل الفنية للمواصلات والاتصالات السريعة التي تحتاجها الامبراطوريات ، لم تكن قد اخترعت بعد . وقد عرفت هذه في الصين بعد ثلاثمائة سنة من هذا التاريخ بظهور الحديد ، وبوضع مقياس ثابت لعرض العربات في المقاطعات المختلفة ، وبتطور الملاحة في الانهر الداخلية[١٦] . وفي ايران ايضاً نجم عن ادخال الادوات المعدنية مقدرة على الاسراع في الاعمال والصنائع ، بينما أمكن بعد استخدام الجمل نقل الاثقال في مسافات بعيدة . وكذلك فان عادة ركوب الخيل بتشعيب الرجلين كل في جانب ، وهي مقتبسة من السهول الشمالية ، مكنت من تطور الفروسية وايجاد خيل البريد التي كان يمتطيها فرسان مخصوصون ينقلون الرسائل ، من كل صوب ، ويسلمونها الى رأس الدولة في العاصمة . وفي ايران ، كما في الصين ، سهل استخدام النقود المعدنية المسكوكة عملية التجارة تسهيلاً عظيماً .

ويستحق التركيب السياسي للامبراطورية الآخيمينية اهتمامنا ، بقطع النظر عن اهميته التاريخية ، وذلك لانه كان مثالاً احتذاه الآخرون . فلم يكن العرب وحدهم هم الذين اقتبسوا بعض نواحيه ، في الفترة التي تلت وفاة الرسول ، حيث اعتمدوا بالفعل على الموظفين والكتبة من الفرس ، بل ان الامبراطورية العثمانية التي سيطرت على معظم شعوب الشرق الاوسط من القرن الثالث عشر حتى القرن التاسع عشر بل حتى القرن العشرين كانت تحتذى هذا المثال الفارسي .

---

(١٦) اني مدين بهذه المعلومات لزميلي Dr. Schuyler van R. Cammann. وهو الآن في جامعة Pennsylvania .

لقد تعالى الاباطرة الفرس عن رعاياهم بحيث وقع في اذهان الكثيرين من هؤلاء الرعايا ان الامبراطور محاط بهالة من نور .

« هذا الملك ، المستبد المطلق ، يحكم من بعيد ، اما السكان الرعايا فيحافظون على تنظيمهم الخاص وعلى دياناتهم ويحتفظون برؤسائهم . فظل الفينيقيون تحت حكم ملوكهم ، وبقي للمصريين رؤساؤهم ، وحافظ اليهود في هدوء على دولتهم الثيوقراطية . وطالما ظلّت هذه المقاطعات التابعة معترفةً بسلطة الملك وتدفع الضرائب ، فانها تترك في هدوء وسلام . ومع ذلك فان جميع الرعايا بدون استثناء ، حتى اعظم النبلاء والوزراء والقادة ، كانوا يعتبرون عبيداً الملك ...[١٧] » .

والامبراطورية الفارسية الممتدة من برقة الى الهند ، ومن الحبشة الى واحات تركستان كانت تقسم الى مقاطعات ، فاذا ادخلنا فيها مقاطعة فارس ذاتها ، التي كانت مركز الحكومة ، كان عددها عند وفاة دارا واحداً وثلاثين مقاطعة . وكان يحكم كلًا منها ثلاثة ضباط وحاكم او مرزبان ، وكاتم سر وظيفته مراقبة المرزبان وابلاغ البلاط بمخالفاته ، وقائد عسكري . وفي المدن المحصنة كان هناك آمر للقلعة تحت رئاسة القائد . وكان البلاط هو الذي يعين الضباط الثلاثة وهم يتصلون به اتصالاً مستقلا بواسطة السعاة الفرسان . واضافة الى ذلك انشىء جهاز خاص من المفتشين الخاصين كان يسمى « عيون الملك وآذانه » وكان يطوف الامبراطورية كلها بحماية حرس خاص من الجنود . وكان الملك يعزل المرزبان بناءً على توصية من هؤلاء الرقباء او قد يأمر حتى بقتله دون محاكمة .

اما الوظائف للمرزبان فهي : حفظ الامن وجمع الضرائب . وعليه ان

---

(١٧) Clement Huart, La Perse Antique, Vol. XXV, L'Evolution de l'humanité (Paris, 1925), p. 88.

يحافظ على امن الطرق ، بمساعدة الجيش ، فيبعد عنها قطاع الطرق ويؤمن للمزارعين الحماية بحيث يزرعون ارضهم ويرعون حيواناتهم من غير ان يخشوا الاعتداءات والغزوات . وفي بعض المقاطعات كان المرزبانات يحددون أماكن للصيد الملكي ويحرجونها ويربون الحيوانات فيها ويحمونها ، ويسمونها « فراديس » ، ومن هنا جاءت كلمة فردوس Paradise . وكان الملك يفرض على كل مقاطعة مبلغاً ثابتاً من المال الى جانب بعض المنتجات العينية الاخرى . ولذا فقد قسمت كل مقاطعة الى ست مناطق للضرائب ، كان بعضها يقسم على أساس الشعوب القاطنة فيها . وقد فرض على آسيا الصغرى المقسمة الى أربعة مناطق ضريبة سنوية قدرها ١٧٦٠ تالنت ، وعلى مصر وبرقة ٧٠٠ وهكذا حتى بلغ المجموع السنوي ١٦,٠٠٠ تالنت او ما يعادل عشرين مليون دولاراً ذهبياً . فليس عجيباً ان تحتاج الخزانة الملكية الى كتبة وحراس .

ولم تكن حصة الهند تدفع بالفضة بل بتبر الذهب البالغ ٤٦٢٥ تالنت ، مع قطيع من كلاب الصيد للقصر . وفرض على مصر ان تقدم ١٢٠,٠٠٠ كيلاً من القمح الى الجيش الفارسي المقيم فيها ، وفرض على بابل أن تقدم خمسمائة من الخصيان ، وعلى ميديا ان تقدم مئة ألف رأس غنم وأربعة آلاف بغل وثلاثة آلاف حصان من النسل النيصاوي الذي يربى حول همذان . وكان على أرمينيا ان تقدم ثلاثين الف عجل وعلى اليمن ان تقدم مئة قنطار من الطيب والبخور . وكلما مرت ثلاث سنوات قدم الاحباش كنوزاً من الذهب وخشب الصندل والعاج وخمسة أطفال ، وكان على الكولخيين (الكرج) ان يرسلوا مئة جارية . من ثم نرى ان الفرس قد سبقوا العثمانيين الى اقتناء الخصيان الاحباش ، والقفقاسيين الوسيمين ، مثلما سبقوهم الى اعتبار ان كلّ فرد عبدٌ من عبيد الملك .

تلك ضرائب ثابتة لا يلحقها تغيير . اما المرزبان فكان حراً في ان

يفرض ما يشاء ويحتفظ لنفسه بما يتبقى ، شرط ان لا ينجم عن ذلك اضطراب بدفع منافسيه الاثنين للوشاية به او استدعاء « عيون الملك وآذانه » لزيارته . وكان الملك يرسل بين الحين والحين وكلاء آخرين الى المقاطعات لتجديد تقدير الضرائب ، فاذا وجد ان المفروض منها والمبلغ المعقول الذي لا بد للمرزبان ان يناله تشكل عبئاً باهظاً أنقص الضرائب واذا وجد العكس زادها .

اما الملك نفسه فكان حكماً أعلى لشعوبه ولكنه اناب القضاة الذين عينهم للنظر في معظم القضايا . واشتهر العدل الايراني بحق في العالم القديم كله . وقد اكتشف قمبيز مرة ان احـــد القضاة يقبل الرشوة فأمر بقتله وسلخ جلده وتمزيقه إربا إربا ، وغطى بقطع جـلده كرسي العدالة وأمر ابن القاضي القتيل بأن يجلس عليه . وسلخ أرتاكسركزيس الاول (Artaxerxes I) جلد قاض ثان وهو حي للسبب عينه ، وأمر بعين الطريقة في معاملة ابنه . وقد نصت شريعة الميديين والفرس على انه لا يجوز إعـدام المرء لجناية واحدة ، ولا يجوز لسيد ان يؤذي عبداً له إذا أذنب للمرة الاولى . أمـا الخيانة العظمى فجزاءوها القتل او قطع اليد اليمنى . وكانت آذان الثائرين تقطع وأنوفهم تجدع علناً ، ثم يساقون الى الموقع الذي عصوا فيه ويعدمون .

وقد جند حرس ملكي خاص لحماية الامبراطور وتنفيذ أوامره ، كان رجاله من الفرس والميديين وربما وجد بينهم بعض السوسيين من سكان المنخفضات الحارة . وقد نظم هذا الحرس في ثلاثة فيالق . فكان هناك ألفان من الفرسان وألفان من المشاة ، كلهم من النبلاء المسلحين بالرماح المزينة اطرافها بتفاحة من الذهب او الفضة وبالقوس والسهام . امـا الفيلق الثالث فقد كون من عشرة آلاف من الرجال الذين دعوا « الخالدين » وقـــد نظموا في عشرة كتائب ، يحمل افراد الكتيبة الاولى منها الرماح المزينة بالرمان المذهب ، في كعوبها .

كانت هذه الكتائب الثلاث عمادَ الجيش . وقامت فرق أخرى بحراسة الحصون في المقاطعات ، ونظم المرزبانات جيوشاً محلية للمساعدة في اخماد الثورات الصغيرة ، فاذا افلت زمامها حضر الملك بنفسه على رأس حرسه لقمعها . واذا خرج الملك في فتح اخذ معه جميع الجيوش المحلية للمقاطعات ، وقد تدججت وتسلحت وركبت كلٌ حسب طريقتها المتبعة في بلادها ، ومع ان الحرس الملكي كان يقاتل في نظام متماسك ، الا ان هذه الجموع الاخرى كانت تستطيع بكثرتها ان تهزم عدواً اقل تنظيماً وتصميماً ، غير انها تتحطم امام عدو حسن التنظيم قوي التصميم ، كما انهزمت امام كتائب الاسكندر المقدونية حين حطم الاسكندر الامبراطورية الفارسية الاولى .

وظل الفرس ، مدى خمسة قرون ونصف في ظل حكم بدأ اجنبياً . فمع ان امبراطورية الاسكندر انهارت بسرعة إلا ان فرساناً يشبهون الصقيثيين هبطوا من السهول الشمالية فغزوا إيران ، واقتبسوا عادات الفرس ، وانتقلوا الى منخفضات العراق . وكان هؤلاء يدفنون موتاهم في توابيت مطلية باللون الازرق تشبه مغاطس الحمامات الحديثة (ومنقبوا الآثار يستعجلون التخلص من هذه الرواسب « الحديثة » في مصطلحهم ليصلوا الى الآثار التي تقع تحتها والتي تزيد عنها قدماً) . وكان هؤلاء الفرسان المسمون بالبارثيين (Parthians) أمين على جانب من الخشونة . وفي سنة ٢٢٦ ب. م اعيد تأسيس الامبراطورية الفارسية ، وبقيت على هذا الحال حتى مجيء المسلمين العرب سنة ٦٣٦ ب. م. وهذه الفترة التي امتدت اربعة قرون وعرفت بفترة الامبراطورية الساسانيــة هي المهمة بالنسبة لبحثنا ، لان ابناءها ، لا الاخيمانيين ، هم الفرس الذين قابلهم المسلمون وتأثروا بهم .

وفي ايام الساسانيين كان السكان ينقسمون اربع طبقات : الكهنة ، والمحاربين ، والكتبة ، والمزارعين . وكانت الطبقة الاولى تشتمل ايضاً

على القضاة ، لان العدل في نظر الفرس ، كما هو في نظر العرب ، امر مقدس . اما المحاربون فمن النبلاء الذين يفترض انهم ينتسبون الى اصل فارسي نقي ، ويشبهون في ذلك جيش شبان فارس الذي كان يشكل الحرس الملكي ايام كورش . وكان هؤلاء المحاربون يتملكون الاقطاعات ، ويركبون الخيل ، ويشبهون الارستقراطية القائمة على ملكية الارض المعروفة في ايامنا هذه . اما الكتبة فقد اشتملوا ايضاً على الاطباء والمنجمين ، بينما وقف في اسفل طبقتهم جماعة الصناع المهرة والتجار والفلاحون . وكان لكل قرية دهقان يعتبر الوكيل الاول لمالك الارض ، وظيفته جمع إيجار الارض عينا كما يفعل « الكتخدا » في ايامنا هذه (انظر الفصل العاشر) . وامتلكت سبع من العائلات المفضلة اقطاعات واسعة ، وكان يفترض في رئيس كل منها ان يؤدي وظيفة خاصة مقابل هذا الامتياز . فأحدهم كان يضع التاج على رأس الملك ، وثان استلم القيادة العليا للجيش ، وثالث قيادة الفرسان ، ورابع كان رئيساً للديوان ، وخامس عمل مراقباً للأمور المدنية وسادس كان قاضياً حكماً بينما كلف السابع بمهمة جباية الضرائب والاشراف على الخزينة . وبما ان الكفاءات اللازمة لهذه الوظائف ليست وراثية ، فقد كانت كلها وظائف شرفية ، واذا استثنينا اولاها المحتاجة الى يد متزنة فحسب ، كانت كلها قابلة للانابة . اما الموظفون الذين بيدهم سلطة حقيقية غير ارثية فبينهم رئيس الوزراء ، والكاهن الاعظم (الذي كانت تتوارث منصبه قبيلة دون غيرها من القبائل) وحارس النار المقدسة (ووضعه كوضع الكاهن الاعظم) ، وكاتم السر الاول ، وقائد القوات المسلحة . وكانت قبيلة الماجي تسمى الكاهن الاعظم من بين ابنائها وللملك ان يقر هذه التسمية اذا شاء . والكاهن الاعظم يشبه المفتي الاعظم الذي سنقابله فيما بعد وهو الحكم في جميع امور العقيدة والاجراءات والطقوس .

وكما لقيت الدولة تحولاً تدريجياً ، كذلك الدين فانه تطور وتغير

في ايران . ففي ايام الاخيمانيين كان للايرانيين ثلاثة مذاهب او اديان ، احدها للملك ، والثاني للشعب ، والثالث لقبيلة الماجي التي توارثت الكهانة . فالملك عبد إلهاً خالقاً يدعى أهورا ـ مزدا (Ahura - Mazda) الذي أعطاه سلطته وأعانه على هزم العصاة والاعداء . وهذا الاله الذي لا تبصره العين ، رمز اليه بنار تشتعل في مذبح مكشوف تطل الشمس من فوقه . وقد أجلّ الملوك ايضاً الاله مترا (Mithra) وهو اله قديم وظيفته التوسط بين عالم النور العلوي وعالم الظلام السفلي ، وهو الذي يمنح الملوك أمجادهم .

وقد عبد الشعب العناصر الاربعة وهي النور والماء والتراب والهواء ، وقدموا لها اضاحيهم في اماكن العبادة المطهرة في حضور كاهن ماجي ينشد النشيد المقدس . وفي اثناء الاحتفال يذبح المضحي الضحية ويغلي لحمها في الماء ، وله بعد ذلك ان ينقل اللحم ليؤكل اذا شاء . ولقد شاهدت اثناء تطوافي بايران بحثاً عن الكهوف موقعين تقدم فيها مثل هذه الاضاحي ، ولكن بغير حضور الكاهن الماجي .

وقد كان كهنة الماجي يشرفون على احتفالات العبادة للموك والشعب ، وكان لهم في الوقت نفسه مذهبهم الخاص . ومن مظاهر مذهبهم هذا عادة شرب مزيج من الحليب والمسحوق السائل لنبات يدعى هوما (Haoma) ، ولعله النبتة المعروفة علمياً باسم (Aasclepias Acidas) ذات الاثر المخدر . وكان الكهنة الماجيون اذا ما تعاطوا هذا المخدر قادرين على الاتصال بالعالم الروحي . وقد صلوا لهذه النبتة واعتبروها مانحة الصحة وطول العمر والقوة والثروة والنصر المعنوي والمادي . ولقد أكد المنقبون عن الآثار وجود هذا المذهب بما اكتشفوه من مدقات مصنوعة من الحجر الاخضر ذات قبضات حجرية كانت تسحق بها هذه النباتات(١٨) .

(١٨) Cameron, The Presepolis Treasury Tablets, LXV, 5.

وقد نشأت الديانة الزورواسترية من مذهب الماجي . ومع ان زورواستر نفسه ربما عاش في ايام الاخيانيين ، فليس في الفترة المعاصرة له أية إشارة الى مذهبه . وفي عهد الساسانيين اصبح مذهبه دين الدولة في إيران ، كما ان مذهب الشيعـــة هو مذهبها الرسمي اليوم . ومن الجدير بنا ان نلاحظ ان الدين الزورواستري تألق بعد الفترة البارثية ، وكان البارثيون من ابناء السهول الشمالية التي اعتقدت بالازدواجية بين قوى النور والظلام ، والخير والشر عند الصقيثيين (Scythians) ، وكانت هذه الديانة هي العنصر المسيطر بين الاتراك والمغول في الايام السابقة للاسلام .

وتقول تعاليم زورواستر بان اورموزد (Ormuzd) هو مبدأ الخير واهريمان (Ahriman) مبـدأ الشر . ولكل منهما جيش من الارواح المسخرة لارادته . ويقود اهورا ـ مازدا جيش اورموزد ، فهو هنا قائـــد عسكري فحسب . ولكل قوة ستة مستشارين مسؤولين عن النجاح او الاخفاق الذي يصيب الدوائر الستة التالية : الحيوانات الاليفة ، والنار ، والمعادن ، والأرض ، والماء ، والزرع . واهورا مزدا هو خالق الحياة ، بينما أهريمان خالق الموت . وموطن اهريمان في الظلال السفلى الواقعة شمالي جبال البرز ولهذا الموطن مدخل موجود في احد الجبال . وتحت إمرته مجموعة من الوحوش الفاتكة التي تسكن غابات مازندران ومستنقعات جيلان الموبوءة بالملاريا .

والنفس خالدة ، تهيم قليلاً بعد الموت وترتاح في النهاية عند احـد الجسور . وهنا تلتقي بثلاثة من القضاة يحملون موازينهم ، فيضعون اعمال الخير التي ادتها في كفة ، ويضعون الآثام في كفة اخرى . فان رجحت كفة الخير ، اتسع الجسر امامها الى ارض من النور الازلي . وان حصل العكس تقلص الجسر وزلت في الظلال . والقليلون الذين تتوازن مبراتهم وآثامهم يرسلون الى مطهر . وستنتهي الدورات الاثنا

عشرة الاخيرة من دورات الارض بعض ظهور زورواستر بثلاثة آلاف سنة . وقد حسب وست (West) انه في سنة ٢٣٤٠ ب. م. سيظهر بموجب هـــذه العقيدة مسيح ، وسيغطي الارض طوفان من المعدن ويطهرها . وعند ذاك يتقابل اورموزدواهريمان في آخر معركة بينهما ، وينتصر أورموزد وتقوم القيامة .

ومع ان بعض المسلمين يعتبرون الزورواستريين أهل كتاب كالمسيحيين واليهود ، وبالتالي لا يجوز اكراههم على اعتناق الاسلام ما داموا يدفعون الجزية ، الا ان آخرين قد اضطهدوهم . ولم يبق منهم في ايران سوى سبعه آلاف الى عشرة آلاف ، خلافاً لجواليهم في الهند (البارسيون) ، وفي باكو . ويعيش معظمهم في يزد وكرمان حيث يقيمون عبادتهم حتى يومنا هـذا في هياكل للنار ، ويلبس كهنتهم كمامات الجراحين ، لئلا تتنجس النار المقدسة . وقد انتقل بعضهم إلى طهران حيث يعملون في البساتين . وقـد أوجدوا طريقة خاصة للاستغناء عن أجداث الموتى ، لئلا يؤذوا العناصر ، فهم يضعون الجسم الميت في أحد « أبراج الصمت » المشهورة ، وفي إيران خمسة منها . وهنا تتناوش جوارح الطير لحوم الموتى ثم تنقل العظام بعد ذلك الى الكهوف . أما البارسيون الذين سكنوا الهند منذ اكثر من ألف سنة ، فهم تجار ، وبعضهم يمتلكون مؤسسات دولية كبيرة ويحملون ألقاباً انكليزية ، وقد عـــلم أحدهم موضوع الرياضيات في جامعة هارفارد قبل بضع سنوات .

وهناك لغات ثـلاث أخرى وثيقة الارتباط باللغة الفارسية ، وهي الكردية ، والجيلانية ، والبلوجية . ويتكلم كلا منها شعب خاص . فالأكراد الذين يعيشون في وديان جبال زاجروس شمالي كرمان شاه داخل الحدود السياسية للعراق وتركيا وايران ، أوجدوا مـع الوقت لغة خاصة بهم ، بل ولهجات متعددة ايضاً . أما الجيلانيون فهم شعب الغابات الذي يستوطن المنحدرات الجنوبية الغربية لشواطىء بحر قزوين

وله جوال في مقاطعات مازندران وجرجان . ويستغرب المتجول عندما يرى بيوتهم الخشبية مبنية على الاعمدة ومسقوفة بسقوف منحدرة متراصة . ويتجول الرجال أنفسهم وقد ألقوا على ظهورهم صنانير ضخمة ، وهم يجوفون الجذوع الضخمة ليصنعوا منها القوارب ، وينقلون سلعهم على زلاجات صيفية تجرها اعداد كبيرة من الثيران . واذا رأيتهم في بلادهم خلتهم كالصورة التي يتخيلها عالم الآثار لمشهد من مشاهد أوروبا الغربية اثناء العصر الحديدي . ولم تدرس لغتهم دراسة وافية . وقد يضيع تراثهم الحضاري المادي المميز لهم في وقت قريب ، لان بلادهم اكثر مناطق ايران تقدماً في الصناعة . امـا البلوجيون الذين يقطنون بعض أنحاء باكستان ، وأفغانستان وإيران فهم بدو يعيشون على الجمال . (وسنصف طريقة حياتهم في الفصل الحادي عشر) . ولغتهم متفرعة من اللغة الفارسية ، وهي تشبه الكردية من بعض الوجوه .

أمـا البُشتو او البَشتو فتشكل الجزء الشرقي من اللغات الايرانية ويتكلمها الافغانيون شرقي الخط الممتد من كابل الى قندهار وفي مقاطعة الحدود الشمالية الغربية من باكستان . ويعد المتكلمون بها خمسة ملايين ، وهؤلاء عرّفهم الشاعر الانكليزي كبلنج الى المتكلمين باللغة الانكليزية . وهؤلاء هم البطهانية الذين وصفهم الكابتن ديفز (C. C. Davies) « بأنهم أقدر أهل الأرض في حرب العصابات[١٩] » . وقد يكون هذا القول صحيحاً أو لا يكون ، غير أنه لا شك في ان أهل الريف الذين قادهم عبد الكريم ينازعونهم هذه المكانة . وكانوا على مدى اجيال متعاقبة الميدان الذي يختبر فيه البريطانيون ضباطهم ، وقد ورث الباكستانيون هـذا الامتياز الباهظ .

يعيش هؤلاء المحاربون قبائل متلاصقة تسكن الجبال العالية بكافرستان

---

(١٩) C. Collin Davies, The Problem of the Northwest Frontier, 1890 - 1908 (Cambridge, England, 1932), p. 179.

حتى شمالي بلاد البلوجيين في الجنوب ، وتشغل سلسلة من الجبال القاحلة . وقد يشاهد المرء هنا وهناك في الوديان الضيقة ، رقعاً ضيقة من الخضرة ، تشير الى بعض الزراعة ، ويشاهد سقوف البيوت القروية . والبطهانية كالفرس خبراء في الري بواسطة الخنادق والاقنية المكشوفة ، ولكن الامطار تتحول سيولاً عارمة بسبب عرى جبالهم من الأشجار وانجراف تربة بلادهم ، وتجري هذه السيول في سرعة شديدة ويضيع معظمها دون أن يستفاد منه في الزراعة . وهم يزرعون في مزارعهم الصغيرة محصولين ، ويحصدونها في الربيع والخريف . ومحاصيل الشتاء هي الحنطة والشعير والتبغ والبطيخ والقطاني ، ومحاصيل الخريف هي الذرة وقصب السكر والقطن ، والرز في بعض المواقع المحظوظة . واذا توفر لديهم الماء زرعوا اشجار الفاكهة والمكسرات بما فيها المشمش والجوز واللوز . ويعتاشون في الغالب من رعي الاغنام والماعز . وأرضهم فقيرة لا تصلح لتربية الأبقار ولكنهم يربون أعداداً قليلة من الخيل والحمير التي يحتاجونها للنقل .

إن هذه البلاد فقيرة لا تقوى على إعالة سكانها . وقد وجد هؤلاء طرقاً شتى للتخفيف من هذا الوضع . فبعض القبائل تسوق أغنامها إلى المراعي المرتفعة في الصيف ، ويصدق هذا بشكل خاص على الدورانيين ، وهم جماعة مفضلة تنتمي اليها الأسرة الحاكمة في أفغانستان . وينحدر بعضهم عبر ممر خيبر في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) لرعي قطعانهم في الاراضي المنخفضة ، بينما يفتش آخرون منهم عن فرص العمل الزراعي بين السكان المتحضرين ، ويشتغل غيرهم بالتجارة ، ويعودون الى بلادهم في شهر نيسان (ابريل) ، وهذا هو وقت الخطر بالنسبة لسكان السهول الذين تعوزهم الحماية ، لان البطهانية لا يتركون اي رهينة وراءهم . فالغزو وقطع الطرق وسيلتان لجمع الطعام والمال . و « حماية » القوافل وسيلة أخرى تؤدي الغرض ذاته . وكانت الحكومة البريطانية تدفع لهم المساعدات لقاء الهدوء والسكينة . وفي الوقت ذاته فان الغزوات

والثارات تعصف بالذكور وتقلل بالتالي من أعـــداد الناس الذين ينبغي إطعامهم .

ويتبع البطهانية عرفـاً يفرض الكرم لكل ضيف ، والحماية لكل من يهرب خوفاً من الانتقام ، والتنفيذ الدقيـق لشريعة العين بالعين والسن بالسن . ولكل قرية ملا ، هو زعيمها الديني ، وهو يعـلم الاطفال ان يتبعوه . وعندما يتعلم الملا قليـلا من الطب ويكتسب مقدرة العلاج بالايحاء ، فقد يجتذب اليه بعض التلاميذ وينال بعض القوة ، وعندما تزداد قوته لا تعود قوة دينية خالصة ، بل يصبح لها مظهر سياسي ، ومن رجال الدين من لا يزال ذكره مردداً في الصحف اليومية مثل ميرزا علي خان وفقير إيبي ، ويثير هؤلاء القبائل ويقودون الحملات نحو الاراضي الواطئة . وفيما سلف من الايام كان الكثيرون من البطهانية يحلون مشكلة السكان بالتطوع في جيش الهند البريطاني . ولا شك ان في وسعهم ان يكونوا فرقة مدهشة لمنظمة الامم المتحدة في أيامنا الحاضرة .

واكثر شعوب الشرق الأوسط انتشاراً في العالم بعـــد اليهود هم الارمن . وهم أعرق في نصرانيتهم من أيـة أمة أخرى ، كما تقول تواريخهم الدقيقة ، وقد وقعوا ضحية الموقع الجغرافي لبلادهم ، مشابهين بذلك الشعب البولوني .

وتقع بلادهم شمالي المركز الثقافي الواقع في وادي ما بين النهرين ، ولذلك فقد كانت دوما مسرح اصطراع بين كل دولتين كبيرتين في المنطقة : بين الفرس والبيزنطيين وبين الاتراك والروس . ومع ان هذا الوضع لم يترك لهم سوى بعض الفترات المتقطعة من الحرية ، فقد عرضهم في الوقت عينه لكثير من المؤثرات الثقافية التي سرعان مـا استفادوا منها . وهم ، كالبطهانية ، ينجبون من الناس اكثر مما تحتمل بلادهم ،

ولكنهم يختلفون عن البطهانيـة في أن متنفسهم هو الكتاب وسكين السّراج لا الخنجر . وقد صدروا على مدى القرون الرجال المهرة . وانك لتجدهم في ايامنا هذه بين مواطني كل بلد متحضر . فالدكتور فارازتاد قازنجيان ، من أهالي بوسطن ، أبو الجراحة التجميلية . وهاينز جودريان كان من ألمع قادة هتلر ، بينما يقال ان كالوست جولبنكيان أغنى رجل عرفه العالم . وتزيد أهميتهم في الشرق الأوسط كثيراً عن أعدادهم ، لانهم يعملون في التجارة ، والمال والتعليم ، والطب ، وطب الاسنان ، وصناعات المعادن الدقيقة ، والصرافة ، والنقل بالسيارات ، وفي تجارة السجاد طبعاً . واذا استثنينا تركيا وارمينيا السوفياتية نجد أن اكثر مجموعة منهم توجد في الغالب بايران ، حيث لهم مدينة كاملة هي مدينة جولفة الجديدة الواقعـــة في ضواحي أصفهان . وفي مصر اشتروا اراضي وعمارات لاقامـة مركز ثقافي ارمني . وحيثما وجدت أعداد كبـيرة منهم ، كما في طهران أو بوسطن ، فانهم يثابرون على التكلم بلغتهم الخاصة ، وعلى نشر جرائدهم الخاصة . وهم متمسكون بقوميتهم ولذا فان تمثلهم يكوّن مصدر إزعاج لغير واحد من ملوك الشرق ، وما زال السؤال عما سيحل بالارمن من غـــير جواب حتى اليوم .

الفصل السادس

النبيّ والشريعة

قدّمنا ، بشيء يسير من التفصيل ، صورة عن البلاد التي نبحثها ، وعن الشعوب التي سكنتها حتى بداية القرن السابع بعد الميلاد . وبعد هذا التاريخ بقرنين من الزمن كان أبناء هذه الشعوب كلها قد تعلموا المشاركة في حضارة عالمية . وفي ذلك العصر الذهبي الذي استمر ، مع تقطع قليـــل ، حتى القرن التاسع عشر ، كان في مقدور عالم كابن بطوطة أن يتجول وهو أعزل من كل سلاح من طنجة حتى آموي (Amoy) ، ومن سهول روسيا الجنوبية حتى زنجبار وتمبكتو ، وينام ليلة بعد ليلة في خانات تنفق عليها أوقاف عامة ، وفي القصور ، وفي زوايا الطرق الصوفية التي تتنافس فيما بينهـــا على اكرامه والحفاوة به .

ويمكننا القول بصدق بأن الشرق الأوسط الواسع الشاسع ، والمناطق المحيطة به ، كانت تشكل وحدة اقتصادية واحدة . غـير ان الرابطة التي أحكمت وصله لم تكن رابطة اقتصادية . فالتجارة كانت ضرورية ، ولكن الغريب أن التجارة فائقة الحساسية لكل اضطراب . إنما الذي ربط بـين اجزائه هو الثقة المتبادلة بين البشر من سكانه . ولم يعرف التاريخ سوى قوة واحدة تنشىء مثل هذه الثقة بين الشعوب المتباعدة ، وتلك هي قوة الدين .

كان في الشرق الأوسط قبل محمد ديانات كثيرة متعددة ، بعضها محلي ومقتصر على مواقع معينة ، مثل عبادة انليل (Enlil) ومردوك (Marduk) في كل من نيبور (Nippur) ونينوى (Nineveh) . وبعضها كان ملكاً لبعض الشعوب الخاصة مثل يهوه ، اله بني امرائيل في الايام الاولى من تاريخ هذا الشعب . وبعضها كان عاماً شاملاً كالزورواسترية ، والبوذية التي أثرت في أقسام كثيرة من افغانستان ، واليهودية – الاخلاقية المتأخرة ، والمسيحية .

ومها تكن القيم المعنوية والاخلاقية لكل من الديانات الاخرى ، ومها يكن السبب التاريخي ، فليس بينها من نجح نجاحاً كلياً في توحيد هذه المنطقة الواسعة قبل ظهور الاسلام . ولم ينشأ هذا العصر الذهبي إلا عندما اعتقدت اكثرية الشعوب (أو على الاقل الطبقات الحاكمة في كل بلد) بالوحي الالهي الذي هبط على محمد وبرسالته ، وعندما مارست ذات المبادىء الاخلاقية في العلائق الانسانية التي صاحبت تطور هـذا الدين . فالمسيحيون واليهود الذين دعت دياناتهم الى مبادىء مشابهة ، تركوا احراراً في أن يبقوا شعوباً مستقلة داخل المملكة الاسلامية ، ولم يمنعوا الا من أماكن قليلة معدودة كالمدن المقدسة في الحجاز .

وقد بذل المؤرخون واللاهوتيون جهداً عظيماً ووقتاً طويلاً وهم يدرسون الوثائق البالية ، باحثين عن أمثلة سابقة لاحاديث محمد وللشريعة التي دعا اليها هو وخلفاءوه . والاسلام دين من نفس الصنف الذي تنتمي اليه اليهودية والنصرانية ، وهو يرجع في جزء منه الى ذات الاساس الحضاري السامي المشترك ، وفي جزء آخر الى ذينك الدينين السابقين ، من خلال عملية يسميها علماء الانثروبولوجيا « الحافز المتغلغل » . ولبعض شعائر العبادة الاسلامية ، كوضع اليدين أثناء الصلاة ، مشابه في عبادة الشومريين . وكان لا بد للاسلام ككل دين آخر ، من ان

ينمو من أصل ، غير ان أصول كل صفة من صفاته ، مهما كانت طريفة من الناحية التاريخية ، ليست ذات علاقة بصحة نظام العقائد التي يرتكز اليها . فالاسلام صحيح لان محمداً آمن بأنه رسول الله الى الناس ، ولان عدداً كافياً من الناس آمنوا بما آمن به ، وأخذوا ، طوعاً ومن تلقاء ذاتهم ، يسلكون أنفسهم أعضاء في أمة عالمية واحدة ، ويتبعون نفس القانون الاخلاقي .

وما هو هذا القانون الاخلاقي ؟ وما هي العقائد التي ارتكز اليها ، والشعائر التي تحقق وجوده ؟ قبل ان نحاول الاجابة على هذه الاسئلة ، علينا ان نعرف شيئاً عن المجلى العامّ الذي ظهر فيه الرسول ، والملامح العريضة لحياته على هذه الارض . واننا لنستخلص من التفاصيل الكثيرة بأن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ولد في مكة سنة ٥٧٠ ب. م. او حواليها . ولنذكر بأن هذه الفترة كانت فترة شظف اقتصادي وقلق سياسي في شبه الجزيرة العربيـــة ، وفي الشرق الأوسط كله بدرجات متفاوتة . ولنذكر أيضاً بأن طريـق القوافل البري الذي يصل المحيط الهندي بسوريا والبحر المتوسط خلال اليمن والحجاز كان قد اضمحل ، وان ممالك جنوبي شبه جزيرة العرب كانت في حالة تدهور ، وان شيوخ البدو في الحجاز كانوا قد فرضوا الجزية على معظم المدن التجارية وجعلوها تابعة لهم . الا أن مكة ذاتها كانت الاستثناء الرئيسي ، اذ توفرت لها المياه الكافية وضمت بين شعابها الاماكن المقدسة التي كان الحجاج يجلبون اليها دخلاً ثابتاً يعول سكانها ويكفلهم .

ولنذكر ايضاً ان قلة من العرب المعاصرين لمحمد كانوا مزارعين . وكان الكثيرون منهم رعاة من البدو ، ولكن محمداً لم يتجه الى هؤلاء بالدرجة الاولى في رسالته ودعوته . وكان هناك رجال أعمال من التجار والبائعين ورجال القوافل والملاحين ولعلهم كانوا اكثر عدداً من الرعاة . فرجال القوافـل والفلاحون وان اهتموا بالدرجة الاولى بوسائل النقل

والتجوال ، الا انهم ايضاً من التجار . والى رجال الاعمال هؤلاء في المقام الاول ، اتجه محمد برسالته .

كانت التجارة والترحال بالنسبة الى هؤلاء روح الحياة . فقد عودتهم الشظف رحلاتُهم العسيرة الشاقة فوق الصحارى وحجارتها ، وفوق البحار وأمواجها . والسفن والقوافل ، كما سنرى تحتاج الى قادة من الطراز الاول ، وطاعة عاقلة منسقة أعظم تنسيق ، يؤديها رجال متساوون احرار اختاروا قائدهم من بينهم . وقد تعود امثال هؤلاء اخضاع اراداتهم الخاصة ومصالحهم الشخصية لاوامر مثل هذا القائد في أوضاع تتطلب عملاً مشتركاً ومنسقاً لنجاح مهماتهم ، بل ولمجرد البقاء . وأمثال هؤلاء ايضاً لا يستطيعون الاصطبار على الاوامر التحكمية أو على العجز المتخاذل ، ولا شك انهم قادرون على تبديل القائد العاجز ووضع قائد قدير مكانه . ولما كانوا قد تعودوا التفاعل ضمن اطار من النظم الصغيرة ، الذاتية ، القوية ، فانهم لم ينشأ لديهم اهتمام بالتدرج الرئاسي ، ولا مقدرة على خلقه .

وعندما درسنا الفينيقيين ذكرنا أن أولئك التجار والملاحين القدماء كانوا يشعرون بحاجة طاغية للعبادة وإقامة الشعائر بسبب غيابهم الطويل عن منازلهم ، والاخطار المشمولة في طبيعة حياتهم ، والقلق المخيم على صفقاتهم التجارية . ويصدق الشيء نفسه على العرب المعاصرين لمحمد . فقد تعودوا اشباع هذه الحاجة بالتعبد وفق مذاهبهم القديمة ، المتركزة في أصنام رئيسية ثلاثة[1] موضوعة في الكعبة . وفي بداية القرن السابع بعد الميلاد كانت سذاجة المفاهيم والعقائد التي تقوم عليها هذه المذاهب قد بانت لعدد من العرب ، يضاف الى ذلك تسرب الافكار المعقدة الوافدة من مراكز العلم الهيلينستية الواقعة شمال بلادهم ، ومن

---

(١) اللات والعزى ومناة ، وكلها من الاناث .

بعض المفاهيم اللاهوتية المجردة ، من جراء الاحتكاك - خارج الحدود - بالنصرانية واليهودية ، ومن بعض المصادر الاخرى . ويمكننا أن نقول بأن العرب كانوا على وجه التقريب في وضع مختل التوازن بسبب الفقر وصعوبة العيش في زمانهم ، وكان الوضع السياسي الخارجي ملائماً لتغيير سياسي ، وكان العرب يحسون بحاجة عظيمة للعبادة . وربما كان بعضهم قد أخذوا يفقدون إيمانهم بالرموز القديمة . فالمجلى العام كان جد ملائم لظهور نبي ، وقد ولد فيه نبي عندئذ .

ولا شك ان كل عالم نفساني مختص بدراسة أحوال الطفل يوافق بأن تجارب الطفولة التي مرت بمحمد لم تكن لتصنع خيراً مما صنعت في تهيئته للقيام بأمر النبوة حتى ولو كانت قد دبرت لذلك تدبيراً . فجده عبد المطلب كان احد اشراف مكة . ولم يكن عبد المطلب ينتسب فقط الى العائلة الهاشمية المتفرعة من قبيلة قريش الرفيعة المحتد ، بل كان ايضاً قيماً بأمر البيت ، ذلك المركز الديني الذي كان أهل مكة يمارسون فيه عبادتهم ، ويكسبون معيشتهم من ورائه .

اما عبد الله وهو ابن عبد المطلب ، فلم تتح له لسؤ الحظ فرصة الوصول الى مركز رفيع مساو لمركز ابيه ، لانه مات شاباً ، تاركاً وراءه زوجته آمنة حاملاً ، وما لبثت ان وضعت نبي المستقبل . وعندما ولد هذا الصبي فرح به جده كثيراً ودعاه محمداً . ثم سلم الطفل الى جارية موضع ولكنه لم يلبث ان استعيد منها وأرسل الى مضرب بدوي مع مرضعة أخرى تدعى حليمة ، وهي امرأة تنتمي الى بني سعد ذوي النسب الرفيع . وهناك تعلم الكلام والحديث ، ونال الفصاحة والبلاغة اللتين عرف بهما فيما بعد .

وبعد سنتين حصل له حادث صدمه ، ولا نعرف تفاصيل هذا الحادث بشكل واضح ، اذ يقال ان رجلين اقتربا من الطفل والقياه

ارضاً ، وعند ذاك ركض أحد اشقائه من الرضاع الى الخيمة باكياً يقول إن الرجلين شقا بطن محمد . غير ان محمداً كا واقفاً على قدميه عندما فزعوا لانقاذه دون ان يمسّه أذى . وقد ترك الحادث أثراً عميقاً في نفسه . ثم أعادته حليمة الى أمه .

وعندما بلغ محمد السادسة ذهبت به آمنة الى المدينة ، ومرضت في طريق عودتها الى مكة وماتت . وعاش الطفل بعد ذلك في كفالة جده الذي توفي عندما بلغ محمد الثامنة من عمره . وعندها انتقل الى كفالة عمه ابي طالب الذي عاش حتى بعد ان تزوج محمد وهو في الخامسة والعشرين من عمره .

وعندما بلغ طور المراهقة عمل راعياً ، وقد منحه عمله هذا فرصة طويلة للتأمل . ولما بلغ السابعة عشرة ذهب الى سوريا مع عمه واشترك في هذه الفترة في حرب دينية محلية . وفي السنة السابقة لزواجه رحل الى دمشق وحلب في احدى القوافل ، وكيلًا لأرملة غنية ما لبث ان تزوجها بعد ذلك ، وتلك هي خديجة ، التي كانت وقتذاك في الاربعين من عمرها وكان قد سبق لها ان تزوجت مرتين وانجبت من زوجيها السابقين ولدين من الذكور وبنتاً . من ثمّ كانت حياته قبل السادسة والعشرين حياة مضطربة ، واكبها عدد من الوفيات التي وقعت في أحرج الاوقات ، وذهبت بأعز الناس اليه ، ومرت به في طفولته تجربة أحدثت صدمة في نفسه ، وعاش في كثير من العزلة ، وفي شبابه المبكر شهد تدهوراً في مركزه المالي والادبي ، ولكن جسمه وروحه صهرا بالسفر في القوافل وبالمعارك الحربية ، وتسنت له لمحة خاطفة عن العالم الخارجي ، ومعرفة وثيقة بالديانات المحلية والخلافات التي كانت تثور حولها ، ثم ما لبث ان وجد الاستقرار بالزواج من سيدة ناضجة عاقلة ، نزلت في حياته منزلة الزوج والام .

وقد مر محمد في سنوات ٥٧٠ - ٥٩٥ ، وهي السنوات الخمس

والعشرون الاولى بما يمكن ان نسميه المرحلة الاولى من حياته ، وهي مرحلة تتصف بالاضطراب وعدم الاستقرار ، والتمرس بالمحن والصعوبات ، وتوجت هذه المرحلة أخيراً بالنجاح . اما المرحلة الثانية فتبدأ بين سني الخامسة والعشرين والاربعين اي من ٥٩٥ حتى ٦١٠ ب. م. وقد اتصفت هذه بالعيش الهانيء في مكة وفيها اضحى عضواً محترماً في مجتمعه . وهنا اكتسب لقب « الامين » ، من جراء كفاءته في إصدار الاحكام العادلة . فهو الذي سوى الخلاف بين القبائل المتنافسة حول صاحب الحق في رفع الحجر الاسود[٢] الى مكانه الجديد اثناء إعادة بناء الكعبة ، بأن وضعه في رداء وأمر المتنافسين بأن يحمل كل واحد منهم زاوية من الرداء . وفي هذه الفترة أنجبت له خديجة ولدين ماتا في طفولتهما[٣] ، وأربع بنات هن فاطمة وزينب وام كلثوم ورقية . وقد تبنى ولدين بدلاً من اولاده احدهما علي ابن عمه وكافله ابي طالب ، عندما كان علي في السادسة من عمره وكان محمد في الخامسة والثلاثين ، والثاني زيد ، وهو عبد سوري عربي* كان محمد يملكه . وقد رفض زيد افتداء اهله له مفضلاً البقاء مع سيده . فجزاه محمد على وفائه بأن اعتقه وتبناه .

ان القارىء الذي لا يعرف سيرة محمد في شبابه قد يتوهم بأن القصة تنتهي هنا ، وان محمداً سيقضي كهولته وشيخوخته في راحة وسعادة . ولكنه عندما بلغ الاربعين من عمره بدأ يحس بعدم الرضا ، ودخل مرحلة ثالثة من حياته بلغت اثنتي عشرة سنة تكررت فيها اختبارات

---

(٢) وهو أقدس نقطة في الكعبة ، والمعتقد انه حجر نيزكي .

(٣) في سنة ٦٣١ ب. م. انجبت له مارية القبطية ، وهي جارية ، ولده الثالث ابراهيم فمات في الثانية من العمر . ولم تنجب له اي من زوجاته التسع الباقيات اي نسل .

* المشهور انه من بني كلب ، وقع عليه سباء في الجاهلية فبيع عبداً (المراجع) .

شبابه والمحن التي سبق ان مر بها . ولما ازداد عـدم ارتياحه للوضع الديني المحلي ، اخذ يعتزل في فترات مختلفة للعبادة والتأمل في غار يدعى غار حراء ، واقع خارج مدينة مكة . ولم يكن هذا التصرف غريباً لان قريشاً كانت تستعمل هذا الغار منذ وقت طويل للغرض عينه .

وجاء الوحي لمحمد بادىء الامر في صورة رؤى ، ثم جاءه الوحي في يقظته متمثلا في جبريـــل . ويبدو ان محمداً تمنع عن تقبل دوره الجديد مدة من الزمن ، اذ كان بالغ الحرص على ان لا يعد مع الكهنة والمتنبئين الذين يتلبسهم الجن ، ويمدونهم بالمعرفة والنشوة . ولكن اتضح له اكثر فأكثر بأن الله اختاره رسولاً له ، وواسطة لوحيه . وبعد تمنع دام سبع سنوات قبل الرسالة . وكان أول المؤمنين بـــه زوجته خديجة وولداه بالتبني ، علي وزيد . وكان رابع المؤمنين صديقه المخلص ابو بكر وخامسهم عثمان ثم احد احفاد عبد المطلب ، وممن آمن به من ذوي الشأن حمزة وعمر وكلاهما محارب قدير . ثم نقل محمد اتباعه الى بيت يواجه الكعبة ، وقد أثار هذا التصرف قريشاً عليه ، اذ كان تحدياً قوياً لنظامها الديني وقطع القرشيون علاقتهم بأتباع محمد زمناً ما ، وقد بلغ هؤلاء الخمسين وكانوا قـــد سموا أنفسهم المسلمين . وتوفيت خديجة سنة ٦١٩ ب. م. في الخامسة والستين من العمر . وأحس محمد بالحزن لفراقها ، وحاول نسيان آلامه بطرق شتى . فتزوج من أرملة تدعى سَوْدَة وخطب عائشة بنت صديقه ابي بكر وهي في السابعة من عمرها . وأخذ يفتش عن منافذ جديدة لنشاطه ورسالته عله يجد فيها قبولاً . فجرب الطائف التي زارها داعياً للاسلام ولكنه أخفق . ثم اختار يثرب الواحة الغنية الواقعة في الشمال والتي دعيت فيما بعد بالمدينة . وفي هذه الاثناء تزوجت فاطمة من علي ، وتزوجت رقية من عثمان — بعد طلاقها — من زوجها الاول . وماتت رقية وأصبحت ام كلثوم الزوجة التالية لعثمان بعد ان اخفقت في زواج سابق ايضاً . وتزوجت زينب من ابي العاص وهدته الى الاسلام .

وأمر محمد اتباعه بالهجرة الى المدينة ، وبعد ان غادر معظمهم مكة تركها هو نفسه في هدوء في ٢٠ حزيران (يونيه) سنة ٦٢٢ والتحق بهم في المدينة ، ويعرف هذا الحادث بالهجرة ، التي كانت عبارة عن انسحاب محكم التنظيم والتنفيذ . وتشكل الهجرة نقطة التحول من فترة المحنة الثانية الى النجاح والنصر النهائي ، الذي تحقق حينئذ على مقياس اوسع بكثير . وقد ترك الحادث اثراً بالغاً في محمد واتباعه حتى جعلوه بداية التقويم الجديد .

يبدأ التقويم الهجري في ١٩ نيسان (ابريل) سنة ٦٢٢ ب. م. اي في اليوم الاول من ايام الشهر القمري السابق للهجرة . والسنة الاسلامية التي تؤرخ بالهجرة ، هي سنة قمرية ، تقل عن السنة الشمسية بأحد عشر يوماً . وكان العرب قبل محمـــد يستعملون النسيئة لمطابقة السنتين الشمسية والقمرية ، ولكن محمداً اختار الاستغناء عن هذا التصحيح المعقد . ولسنا نعرف السبب الاكيد لذلك ، ولكن يكفي ان نشير بأنه ليس في الحجاز مطر ثابت على اي حـال ، ولذا لا تتعاقب فيه فصول المطر والجفاف . والصيف والشتاء كلاهما حار . وتسير القوافل عادة في الليل ، اجتناباً لحر النهار ، والوقت المفضل لرحلاتها هو ايام اكتمال القمر . فالقمر صديق والشمس عدو . وقـد صور القمر في الاساطير العربية الجنوبية رجلاً وصورت الشمس امراة سبقة ، تلاحق القمر بين الحين والحين حتى يزول بهاءوه . وكان النظام القمري ملائماً للأعمال اليومية في اوقاتها وفي امكنتها .

وتؤرخ الاعياد الاسلامية بالسنة القمرية ، ولذا فانها تقع في اوقات مختلفة من السنة في البلاد التي تحس كثيراً بالتغيرات المناخية . ومجيء فترات العبادة والاعياد في الصيف اولاً ثم انتقالها التدريجي الى الشتاء امر يميز هذه المناسبات الاسلامية التي تجمع بين المسلمين بشكل حاد ، عن الاعياد التي ترمز الى الآلهة ، وتتبع دورة الزراعة والنظام الشمسي .

وقد سهل هذا الامر دخول الناس في الاسلام فيا بعد . فقد استطاع المزارعون في مصر وافريقيا الشمالية ، وسوريا ، والعراق وايران ، وغيرها ان يحافظوا على اعيادهم القديمة التي تعينهم على الفترات الحرجة من السنة اثناء انتقال الفصول ، وان يلتزموا الاعيـاد الاسلامية الى جانبها . فالاعياد القديمـــة ترضي الحاجات المحلية ، والاعياد الاسلامية تربط بينهم وبين الامة الاسلامية .

وبعدما استقر محمد في المدينة تغيرت شخصيته من جديـد . ونمت مقدرته على الزعامة والقيادة وزادت رغبته في العلاقات الانسانية . فقاد جيوشه بنفسه في المعارك ضـد القوات التي ارسلتها قريش من مكة ، وضد المجادلات التي تثيرها القبائـل المعادية ، يهودية كانت او وثنية . وتوافـد الناس على المسجد الكبير الذي بناه في السنة الاولى للهجرة ، ليدخلوا في الدين ، ويصبحوا في عداد المؤمنين . ولم يعش احد من الاولاد الذين انجبتهم زوجاته المتعددات ، ولا استطاعت اي منهن ان تملأ مكان خديجة في نفسه .

وفي السنة الثامنة للهجرة (٦٣٠ ب. م.) حج الى مكة مع الفين من اتباعه بعد ان سبق له عقد صلح مع قريش يعرف بصلح الحديبية . وهناك هدى الى الاسلام رجلين اصبحا فيما بعد من عظام الرجال وهما خالد وعمرو (وقد قام عمرو بعد ذلك بسنوات قليـــلة بغزو مصر وبأول غزو اسلامي لشمال افريقيا) . وأرسل محمد جيشاً الى البلاد المعروفة اليوم بالمملكة الاردنية الهاشمية ، ولكن الجيش هزم على يد جيش مختلط من الروم والعرب ، وقتل في المعركة زيـــد [وجعفر الطيار] احد اخوة علي . وبعد ذلك بشهر واحد قاد عمرو جيشاً آخر الى المنطقة نفسها وأرغم قبائل الحدود السورية على الخضوع . وفي سنة ٦٣٠ ب. م. سار محمد الى مكة ودخلها دون حرب ، وحطم اصنام الكعبة البالغة ثلاثمائة وستين صنماً ، كان احدها في شكل حمامة خشبية ،

فحطمه هو بنفسه . ولكنه ترك الحجر الاسود دون ان يمس . وأخذ عمر يمين البيعة من أهل مكة حين اجتمعوا لتأدية اليمين .

في ثمـــاني سنوات سيطر محمد على المدينة وعلى مكة وعلى أراضي القبائل الشمالية حتى سوريا . وفي السنة التاسعة جاءته وفود من مختلف قبائل شبه الجزيرة العربية وأعلنت خضوعها لحكمه وايمانها بنبوته . كانت هذه هي مرحلة التثبيت والتوطيد ، وقد بنى محمد اثناءها جهازاً حكومياً وأرسل قادته لغزو مناطق جديدة . وعين جباة الضرائب لجمع ربـع العشر من جميع المسلمين . وفي السنة التاسعة مضى علي في القبائل يقرأ سورة براءة التي تعلن ان محمداً لن يسمح للمشركين بالحج الى مكة ، وانه لن يدخل مكة بعـــد اليوم سوى المسلمين . وفرض ايضاً على المشركين ان يدخلوا في دين الله ويدفعوا الزكاة والا كان القتل جزاء وفاقاً لهم ، بينما ترك لاهل الكتاب ، وهم المسيحيون واليهود وربمـا ايضاً الماجيون ان يبقوا على دينهم اذا شاءوا شرط ان يدفعوا الجزية ، وهي ضريبة تفرض على الشعوب التابعة . وفي السنة العاشرة حج حجة الوداع ، ليوضح شعائر الحج على مدى الازمان . وفي السنة الثانيـة عشرة توفي في اليوم الثامن من شهر حزيران (يونيه) سنة ٦٣٢ . ويقول أهل السنة بأن راسه كان عند وفاته موضوعاً على صدر عائشة ، بينما يقول الشيعة بأنه كان على صدر علي .

مات محمد في الثانية والستين من عمره ، وبذلك يكون قد عاش عمراً مديداً قلما تيسر للانبياء . ومات ناجحاً وهذا ايضاً يختلف عن النمط المعهود . ولعل من اسرار نجاحه انه كان رجلاً للرجال . كان راعياً ، وتاجراً ، ومحارباً . وقـد عرف كيف يمارس الزعامة التي تطلبها عرب ايامه وفهموها . ومن اسرار نجاحه ايضاً ان العقيدة التي نادى بها كانت عقيدة واضحة سهلة الفهم . ومع ان القرآن مليء بالاشارات الغامضة التي يصعب على القارىء الحديث ادراك كنهها ، الا ان هذه

الاشارات تتحدث عن امور معاصرة كان جميـع الناس في ذلك الحين يعرفونها . والسر الثالث لنجاحه انه لم يطلب من اتباعه تغييراً كاملاً في نمط حياتهم ، بل طلب منهم ان يغيروا ولاءهم من القبيلة والدم الى الدين . وقـد فهم النمط الثقافي الذي نشأوا فيه ففرض التغيرات التي توجد الوحدة ، ليس غـير . والسر الرابع انه سليل بيت عريق في مركزه الاجتماعي ، والخامس ان رسالته النبوية ابتدأت عندما جاوز الاربعين من عمره ، وهذا امر هام في مجتمع يحترم السن ويقدم الناس حسب اعمارهم .

ولئن وجد دين يلائم الوضع الثقافي لبيئته ، فان الاسلام هو ذلك الدين . وقـد اصبحت شبه جزيرة العرب في السنوات العشر الاخيرة من حياة محمد ارضاً اسلامية . وفي السنوات الاحدى عشرة التالية غزا خلفاءوه مصر وسوريا والعراق وايران . وعلى ذلك فان جميع بـلاد الشرق الأوسط التي يتحدث عنها هذا الكتاب ، فيما عدا شمالي افريقيا ، دخلت في الاسلام في أقل من ربع قرن . وقد تبعتها شمالي افريقيا بعد ذلك بخمسين سنة ، وتبعها معظم اسبانيا والبرتغال . فربع القرن الحاسم الواقع بين سنوات ٦٢٢ و ٦٤٣ ب. م. شهد اتساع الاسلام من مجتمع تجار ورجال قوافل ، الى مجتمع اوسع واكثر تنوعاً وأعظم عدداً يشمل المزارعين وسكان المدن ومتحضريها . وهذا التوسع السريع تطلب مقدرة فائقة من خلفاء محمد ، لايجاد الجهاز الحكومي الملائم لهذا العدد الوافر من الشعوب المختلفـة . فهذه الفترة اذن مهمة من حيث تبلور العبادة والشعائر الاسلامية ، اهمية فترة الرسالة ذاتهـا من حيث بدايتها .

وعند العرب تقليد قديم ينص على انتخاب خليفة الزعيم من بـين ابنائه ، او على الاقل من بين الذكور من ابناء العائلة الرفيعـة التي ينتمي اليها . وكل محاولة لتعيين وريث لمنصب مـا قبل وفاة صاحبه

تلقى المناهضة ، وتحتفظ القبيلة لنفسها بحق انتخاب الخليفة بواسطة مجلس شيوخها او بأية واسطة اخرى . وعلى ذلك لا بد من وقوع فوضى واضطراب عند وفاة الزعيم ، يسيطر بعدها اكفأ المرشحين على الوضع والمنصب .

وقبل ان يلبي الرسول نداء ربه كان قد اناب ابا بكر عنه في امامة الناس بالمسجد الكبير ، وقد قام بهذه الامامة لمدة ايام قليلة هي ايام مرض الرسول . ولم يكن لمحمد ابناء احياء ، وكان حفيداه الحسن والحسين ، ولدا علي وفاطمة ، في السابعة والسادسة من العمر(٥) وبالتالي فقد كانا طفلين لا يصح اعتبارهما بين المرشحين لخلافته . وكان واضحاً ان الامام الجديد ، او زعيم الاسلام ، لا بد ان يكون من قبيلة قريش . وقد كان ابو بكر اهلاً لتولي الامامة ، فقد كان اماماً بالفعل حين وفاة الرسول ، بأمر من الرسول نفسه . وعلى ذلك فان المؤمنين انتخبوا ابا بكر رئيساً للدولة الدينية التي انشأها الرسول .

والامام هو الذي يؤم الصلاة في الاصل . ثم وسع المصطلح فخلع على رئيس الدولة ، واستعمل لهذا المنصب اسم آخر هو امير المؤمنين . وما زال ملك اليمن يدعو نفسه اماماً واميراً للمؤمنين حتى يومنا هذا — سواء بحق او بغير حق . وهناك اسم ثالث للمنصب وهو الخليفة ، وهو الاسم الذي يعرفه غير المسلمين اكثر من غيره ، وهو الرجل الذي يخلف للمنصب او يؤول اليه المنصب .

كان ابو بكر شيخاً كبيراً عندما تسلم منصب الامامة ، وتوفي بعد سنتين من خلافته . ويذكر له المسلمون انه جامع القرآن في مجموعة واحدة . وخلفه عمر وهو رجل قوي ، ذو شخصية مدهشة ، وبزعامته

---

(٥) او لعلها كانا في الثامنة والسابعة .

فتح المسلمون مصر وسوريا وفارس التي كانت في ذلك الحين تضم افغانستان ايضاً . ودخل عمر مدينة القدس على ظهر جمل ويرجح انه بنى فيها المسجد المعروف باسمه . وقد اغتيل سنة ٦٤٤ ، بعد ان شغل الخلافة عشر سنوات ، وخلفه عثمان قريب الرسول وخامس الذين آمنوا به ، وزوج اثنتين من بناته . وحكم عثمان اثنتي عشرة سنة . وقد مات سنة ٦٥٥ ب. م. وعند وفاته كان الاسلام قد بلغ خمساً وثلاثين سنة من العمر . كان الخلفاء الثلاثة الاول من المكيين من ابناء جيل الرسول واترابه في السن . وقد حان الوقت لادخال تغيير .

وعلى اساس المبدأ العام الذي يبقي الخلافة في قريش وفي أقرب الناس الى الرسول ، لم يكن امام المسلمين منطقياً سوى مرشح واحد ، وذلك هو ابن عم الرسول ، وابن العم عند العرب يكاد يداني الاخ في القربى . وكان الرسول قد تبنى علياً ورباه وزوجه ابنته المفضلة عنده ، وهو والد سبطيه الحسن والحسين . وليس ممكناً ان نجد من هو اقرب الى الرسول من علي ، اللهم الا ان يكون ابناً له . وقد اشتهر علي بشجاعته في مناسبات شتى ، ولكن لم يعرف عنه الحسم البات في الامور . وحينئذ بعد ان انتهى دور الجيل القديم فقد اعتبر ان دوره حان ، واعتبر غيره ايضاً ان الدور له .

ولما كان مركز السكان في عالم الاسلام الجديد قد انتقل شمالاً ، ولما كان التنقل ايضاً في غاية الصعوبة ، اصبحت المدينة في موقع غير ملائم لان تكون عاصمة . وكانت هنالك مدينتان افضل موقعاً منها لهذا الغرض وهما مدينة الكوفة في العراق ومدينة دمشق في سوريا ، ويفصل المدينتين بعد واسع من صحراء النفوذ . وبعدما تم اختيار علي للخلافة ، اتخذ الكوفة عاصمة له ، وشق معاوية ، حاكم الشام عصا الطاعة عليه . وقد كان معاوية ابناً لاحد الذين ناوؤوا الرسول منذ

بدء دعوته ، ثم انقلب بعد ذلك الى حليف له واصبح في عداد صحابته[٦] . وفي ٢٤ كانون الثاني (يناير) سنة ٦٦١ ب. م. اقدم خارجي على ضرب علي في رأسه بسيف مسموم فقتله . وبذلك انتهى عهد الخلفاء الراشدين[٧] . وقد حاول بعض الخوارج ايضاً قتل معاوية في السنة ذاتها ولكنهم لم ينجحوا الا في اصابته ببعض الجراح .

وقد خلف الحسن اباه علياً لفترة قصيرة ولكن معاوية ارغمه على التنازل عن الخلافة* . وعاش ثماني سنوات بعد ذلك في المدينة . وحاول الحسين ان يبدأ ثورة في الكوفة بعد ذلك بعشرين سنة (٦٨٠ ب. م.) وبعد وفاة معاوية ، ولكن جيش الكوفة استوقفه فظل يقاتل حتى قتل . وان مأساة مصرع الحسين تشكل مع الاضافات التي زيدت عليها ، اساساً لآلاف من المسرحيات العاطفية التي تمثل منذ ذلك الحين . وقد أسس معاوية سلالة بني أمية في الغالب بالوراثة المباشرة . وفي سنة ٧٥٠ انتقل مركز السلطة من جديد الى العراق بتأسيس الخلافة العباسية في الكوفة ثم بنى العباسيون بغداد وجعلوها عاصمة لهم . وكان هارون الرشيد – بطل أقاصيص الف ليلة وليلة – الخليفة الخامس من السلالة

(٦) لا يوجد اتفاق حول المعنى الدقيق للصحابة . فكل من اعتنق الاسلام ورأى النبي ورافقه في احدى حملاته صحابي من غير شك . ويقال بأنه كان هنالك ١٤٤,٠٠٠ صحابياً عند وفاة الرسول ، وهم يرتبون في ثلاث عشرة طبقة على رأسها علي وأبو بكر وعائشة الخ . . . وآخرها الذين شاهدوا الرسول وهم اطفال (Huges op. Cit. p. 24)

(٧) هذه الواقعة منقولة عن (Hitti, History of the Arabs p. 182) وباقي الفقرة مأخوذة من حديث شخصي مع جب (Gibb) .

* في قوله « ارغمه على التنازل عن الخلافة » مجافاة للمشهور المتعارف من أمر تنازل الحسن ، بمحض اختياره ، وفي تاريخ اليعقوبي ما يدل على ان الحسن غلب على أمره فتنازل ، وان ذلك انما كان عن مكايد دبرها معاوية ، وهذا أمر يحتاج دراسة للروايات (المراجع)

العباسية وحكم من سنة ٧٨٦ حتى سنة ٨٠٩ ب. م. وقد بلغ عـدد الخلفاء العباسيين سبعة وثلاثين وانتهت سلالتهم عندما احتل هولاكو — حفيد جنكيز خان — بغداد سنة ١٢٥٨ .

كان الخلفاء العباسيون من أهل السنة . وعندما هدمت بغداد انسحب عم آخر الخلفاء العباسيين الى مصر حيث مارس السلطات الروحيـة لمنصب الخلافة دون غيرها . وبعد ذلك بأربعين سنة تقريباً ، اي في سنة ١٢٩٩ ب. م. أسس السلطان التركي عثمان الاول السلالة العثمانية التي سميت باسمه . وقد جعل السلطان سليم الاول — السلطان الحادي عشر في هـذه السلالة — استانبول العاصمة الرسمية للسلطة الروحية الاسلامية بعد غزوه مصر سنة ١٥١٧ . وبالتدريج اعترف لخلفائه بالخلافة الاسلامية واعتبر هو اول خليفة من بينهم (ولا حاجة لان نذكر بأن هنالك من انكر حقهم بالخلافة) . وعلى أي حال فقد بقيت خلافتهم حتى خلع السلطان السابع والثلاثون من هذه السلالة ، وهو السلطان عبد الحميد ، وكان ذلك سنة ١٩٠٩ .

وحتى قبل ظهور الاتراك أسست خلافات منافسة للخلافة العباسية ، وشجع على ظهورها الابعاد الشاسعة التي تفصل بين مختلف اجزاء العالم الاسلامي . فالفاطميون الذين لم يكونوا من أهل السنة بل من المنتمين الى الشيعة الاسماعيلية (وسنبحثها فيما بعد) حكموا أقساماً من شمال افريقيا ومصر كلها من سنة ٩١٠ حتى سنة ١١٧١ ب. م. وقـد حكم منهم أربع عشرة خليفة . وفي اسبانيا بقيت خلافة قرطبة ، التي انتقلت فيما بعد الى غرناطة ، والتي كانت خلفاؤها من السلالة الاموية — بقيت من سنة ٧٥٥ حتى سنة ١٠٣٢ ب. م. امـا السلالات التي حكمت اسبانيا بعدها ، والتي لم تدع الخلافة لنفسها فقد ظلت حتى سنة ١٤٩٢ ، وهي السنة التي أخرج فرديناند وايزابيلا فيها آخر المسلمين من شبه جزيرة ايبريا .

لقد بعد الشبه بعداً ساحقاً بين الصحابـة المسلمين الذين اجتمعوا في المسجد الكبير في المدينة لانتخاب أبي بكر إماماً لهم بالاجماع والاتفاق، وبين الاروقة المظللة في غرناطة، او بهاء المقر السلطاني في استانبول. وقد وضعت المبادىء التي كان هؤلاء الخلفاء يستندون اليها في قراراتهم في القرنين الاولين من تاريخ الاسلام، بطريقـة سنحاول إيضاحها، ووضعت كذلك في الفترة ذاتها صورة التنظيم الديني الذي اوجده المسلمون.

ترتكز أسس العقيدة والعبادة والشريعة في الاسلام على سنة الرسول المؤلفة من أقواله وأعماله. وقد اعتمد خلفاؤه مصدرين: القرآن هو ما أوحى لمحمد، وآياته ليست من قول الرسول نفسه، وانما هي من عند الله. وقـــد كتبها اصحاب محمد على الجلود والاكتاف واللخاف وغيرها من المواد، بحروف هجائية لم يكن تطورها قد اكتمل بعد، ولم تكن النقط قد عرفت فيها للتمييز بين الاحرف الصامتة. ولكن الصحابة كانوا يحفظون آيات القرآن في صدورهم حال نزولها.

وعندما جمعت سور القرآن تساءل الناس عن كيفية ترتيبها. فوضع لها ترتيب عرفي. فمن الواضح ان سورة الفاتحة يجب ان تأتي قبـــل غيرها. اما السور الاخرى فقد رتبت حسب طولها، فوضعت أطول السور أولاً وأقصرها آخراً، فيما عدا السور الاخيرة، القصيرة الآيات، الموسيقية الوقع، التي أنزلت في مكة في السنوات الاولى من النبوة، اذ رتبت في تسلسل منطقي. ويشتمل القرآن على مئة واربع عشرة سورة. والسورة الثانية عشرة بعد المائة هي التي يعتقد بعض المسلمين لا كلهم بأنها اول السور تنزيلا وهي سورة الاخلاص: «قل هو الله احد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا احد».

ومن أعظم مزايا القرآن بلاغته. فان تلاوته تـلاوة جيدة شديدة الوقع والتأثير، سواء فهم المرء اللغة العربية أم لم يفهمها. وهو غير

قابل للترجمة ، ويتلوه المسلمون في لغته الاصلية ، مهما كان فهمهم لما يقرءونه ضئيلاً . ويحفظه كثير من المسلمين عن ظهر قلب . ويمكن تلاوته بصوت مرتفع في ليلة واحدة ، وقد يتلى فعلاً على هذا النحو في لحظات الحرج كان يقرأ على قبور الموتى . وهكذا فان القرآن زود الاسلام باداتين اثنتين : مجموعة قواعد تستنبط من نصه ، وآيات تتلى في مختلف الاحوال والغايات :

والمصدر الثاني هو الحديث ، فما كاد الرسول يلبي نداء ربه حتى بدأ علماء المسلمين يجمعون أحاديثه التي لم تأت عن طريق الوحي ويدونونها ، مهما كانت موجزة او مجزأة ، كما اخذوا يدونون وصف اعماله . وقد استمرت هذه العملية اجيالاً عدة بعد عهد الصحابة . وكانت المدينة هي الموطن المفضل لهذه الحركة ، لان اصحابه وابناءهم بقوا فيها ، وكانوا سعداء في نقل ما وصل الى مسامعهم من الحديث . وقد وضع جامعو الحديث مبادىء نقدية شديدة لاختبار صحة الاسناد . وقسم رواة الاحاديث الى ثلاثة اصناف ، ثقاة صادقين ، وجائز تصديقهم ، وضعفاء . وسند الرواة كامل في بعض الاحاديث ، منقطع في بعضها الآخر . ويعتبر الحديث صحيحاً اذ اورد من طرق متعددة متفقة ، ويصبح معتمداً اذا وصل في ثلاث سلاسل مستقلة من الاسناد ، وهكذا نزولاً حتى نصل الى الاحاديث الموضوعة . وهذه صورة نموذجية للسند والمتن في الحديث الاسلامي : « حدثنا ابو كريب نا ابراهيم بن يوسف ابن ابي اسحق عن ابيه عن جده ابي اسحاق عن طلحة بن مصرّف انه قال : سمعت عبد الرحمن بن عوسجة قال سمعت البراء بن عازب يقول سمعت النبي يقول » :

وقد اشتهر اسمان بين جامعي الاحاديث هما البخاري ومسلم . ونتيجة لجهودهما وجهود غيرهما ، تم جمع السنة الاسلامية او العرف الاسلامي كما اصبحت طريقتها في تصحيح الاحاديث هي المنهج المقرر .

وقد كان لكل قبيلة في شبه جزيرة العرب سنتها او شريعتها غير المكتوبة . فوضع اتباع محمد سنة جديدة استمدوها من القرآن والحديث وهي تشبه القانون العام عند الانكليز ، من حيث انها مبنية على تواريخ القضايا والسابقات . وتتقرر صحة كل مبدأ من مبادىء السنة على ضوء حديث نقل عن الرسول ، او على ضوء نهي صدر عنه او فعل قام به ، مرتبط بذلك المبدأ . ويعتقد المسلمون بأن محمداً كان يمتلك الحكمة حتى عندما لا يلقي الى الناس وحياً عن الله ، وقد اضفى هذا الاعتقاد على الحديث قوة ذات سلطة .

وبما ان محمداً نشأ في ظل نظم عربية ذاتية صغيرة ، فانه انكر النظام الكهنوتي الرئاسي وابعد عنه الدين الاسلامي . وما الامام في نظره الا اي شخص يقدمه إخوانه في ظروف معينة ، لكي يؤمهم في الصلاة او يعظهم ، اما فيما خلا ذلك ، فان جميع المسلمين متساوون في تدينهم ، ومتساوون في القرب من الله تعالى . ولم يكن بد مع ذلك من ظهور المختصين بالامور الدينية . فما بزغ القرن الثاني بعد الاسلام حتى ظهر « العلماء » في كل مصر من الامصار ، والى هؤلاء كان الناس يرجعون في امور الافتاء . فكانوا لذلك محكمة عليا يشيرون بالرأي على الولاة المسؤولين . فهم اذن الذين جمعوا مادة التشريع الاسلامي المعروف بالشريعة من القرآن والحديث والسنة .

والشريعة تعني « الطريق » ، ولما كان هناك غير مذهب واحد لاولئك العلماء ، فقد نشأ غير طريق واحد ، اذن فالفرق بين السنة والشريعة هو ان السنة مجموعة من العادات المسجلة المشتركة بين جميع اهل السنة ، بينما الشريعة هي الانظمة القانونية المتعددة المبنية كلها على اساس السنة .

وقد تركز العلماء بالطبع في العواصم المختلفة كبغداد ، ودمشق ، والقاهرة . ومع ان العلماء كانوا ينتقلون من مركز لآخر من مراكز

العلم ، فان هذه المراكز ذاتها كانت متباعدة ، وكانت الحاجات المحلية للبلاد المفتوحة وللسكان الداخلين في الاسلام متنوعة مختلفة ، بحيث نشأت مذاهب متعددة . ومن تلك المذاهب العديدة التي نشأت في القرنين الثاني والثالث بعد الاسلام لم يتبق الا اربعة فقط ، نجحت في وضع التشريعات الكاملة ، وهذه هي المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي ، وما زالت قائمة كلها الى يومنا هذا ، وهي المذاهب الرسمية او المتبعة في البلاد المختلفة . فالمذهب الحنفي متبع في مصر السفلى والهند ومعظم البلاد السنية في آسيا الغربية خارج شبه جزيرة العرب والمذهب المالكي متبع في شمال افريقيا وفي الاقسام الاسلامية من السودان الغربي وفي مصر العليا . والمذهب الشافعي مذهب أهالي حضرموت واندونيسيا ، والحنبلي مذهب المملكة العربية السعودية . واذا استثنينا المذهب الحنبلي فان المذاهب الثلاثة الأخرى تقر بالتساوي فيما بينها ، ولا حرج في ان تقوم جنباً الى جنب في المجتمع الواحد .

وقد توصل علماء كل مذهب الى احكامهم بعد اطلاع دقيق على القرآن والحديث ، وباستعمال القياس كلما واجهوا مشكلة لم يواجهها الرسول ، كتدخين التبغ او شرب القهوة او شرب الخمور المقطرة .

اسس الامام ابو حنيفة المذهب الحنفي في بغداد ليضع نظاماً قانونياً للخلافة العباسية ، ومذهبه اقدم المذاهب واوسعها صدراً . وقد ولد ابو حنيفة في الكوفة سنة ٧٠٠ ب. م. ، وتوفي سنة ٧٦٦ . ولم يستحسن علماء المدينة ما في احكامه من رحابة ، واسسوا مذهبهم الخاص بزعامة أبي عبدالله مالك بن أنس (٧٢٦ – ٧٩٥) وهو من أهالي المدينة وكان قاضياً في مكة . وهذا هو المذهب المالكي الشديد التقيد بالحديث . ومؤسسه يرى لنفسه مركزاً خاصاً لانه عرف آخر صحابي من صحابة رسول الله وهو سهل بن سعد ، ولا بد ان سهلاً هذا كان قد جاوز المئة من عمره في ذلك الحين .

ومالك هو معلم الامام الشافعي (٧٧٢ – ٨٢٦ م) واستاذه ، وقد ولد الشافعي في فلسطين ، من ابوين ينتسبان الى قريش ، واسس مذهبه على اساس من مزج المذهبين الحنفي والمالكي ، ولكنه كان اكثر استعمالا للقياس منهما . اما معاصره احمد ابن حنبل (٧٨٠ – ٨٥٥ م) الذي ولد في بغداد ومات فيها ، فكان اكثر الائمة تشددا وتزمتا . وبقي مذهبه شائعاً بين بعض العناصر في سوريا والعراق حتى اضمحل مع الغزو التركي ، ثم احيي من جديد في شبه جزيرة العرب في القرن الثامن عشر على يد الوهابيين المتشددين الذين يحكم زعيمهم الحالي معظم شبه الجزيرة . والوهابيون لا يسمحون في بلادهم بغير طريقتهم في العبادة ، ولا يقرون لبس الحرير والذهب ، والتعطر والتدخين وما شابهها . وهم الذين يلبسون اللباس العربي في نيويورك فيلفتون الانتباه بينا يتجول غيرهم من المسلمين بالملابس الاوربية ، فلا يعرفون .

وهنا يتساءل المرء بحق : كيف امكن وجود انظمة قانونية مختلفة جنباً الى جنب في مجتمع واحد . والجواب ، ان هذا كان حاصلاً دوماً في الشرق الأوسط . فاليهود مثلاً يحاكمون امام حاخامهم الاكبر في صنعاء ، إلا اذا كانت القضية بين يهودي ومسلم فانها تنظر عندئذ في محكمة الامام . وفي مراكش ما زال الامريكيون يحاكمون امام قناصلهم بموجب المعاهدات القديمة التي لم تلغ حتى الآن . ومذاهب الشريعة الثلاثة التي لا خلاف على تطبيق اي منها ، لا تفترق الا في تفاصيل العبادة ، وقلما اختلفت في امور تثير الصعوبات في مجتمع مختلط . الا ان المذهب الحنبلي يختلف عنها بحيث ان تعايشه معها قد يثير المشاكل ، ولكن حتى هنا اظهر الآخرون استعدادهم لقبول المساواة بينه وبين غيره من المذاهب .

كانت ادارة العدل تجري في شبه جزيرة العرب قبل ايام الرسول ، على مستوى بسيط وغير رسمي . وكان شيوخ القبائل يصدرون الاحكام

في المنازعات بين اتباعهم ، بينما كان رجال الدين المقيمون في عدد من الاماكن المقدسة يرشدون الناس في اصول العبادة . وقد يختار خصمان شخصاً ثالثاً ، سواء أكان رجلاً عدلاً يثقان بـه ، او غريباً مرّ بهما مصادفة ، او كان اول داخل للفناء او الحجرة ، كما حدث عندما كان القرشيون مختلفين حول رفع الحجر الاسود فحكموا بينهم محمداً لانه كان اول داخل . ومثل هذا الحكم كان يدعى قاضياً .

وفي الدولة الاسلامية التي ظهرت بسرعة فائقـــة ، حصلت قضايا واختلافات كثيرة ورافقت حركة التوسع ذاتها ، فدعت الحاجة الى مختصين مميزين للحكم بين الناس ، والفصل في الامور بموجب الشريعة . وهؤلاء هم القضاة الذين كان يعينهم السلاطين والخلفاء والحكام ، في كل بلد ، للحكم بموجب المذاهب المتعددة الشائعة . وقد اوجد عمر محكمة عليا سماها « ديوان المظالم » كانت تجتمع في بيت الخليفة . وكانت هنالك محاكم اخرى تدعى ايضاً بالمظالم ، تجتمع في بعض الامكنة للفصل في بعض الظلامات المدنية الثانوية وكان لبعضها قضاة .

كل هـذا جرى بشكل فردي وبغير نظام ، على اسلوب العرب وتقليدهم . الا ان الاتراك المحبين للنظام ، والدرجـــات المتسلسلة ، ادخـلوا تعقيدات اخرى . فأوجدوا وظيفة المفتي ، والمفتي هو فقيه محترف ، يجمع الفتاوى ، او الاحكام ، كما يفعل استاذ القانون عندما يضع مؤلفاً عن القضايا السابقة وأحكامها . وهذه الفتاوى مفيدة من حيث انها تشكل زيادة تضاف الى ما في المذاهب الاربعة من احكام شرعية ليست جامعة مانعة ، ولا تكفي وحدها احياناً لتكون اساساً في الحكم . وانشأ الاتراك درجات شرعية موازية للدرجات المدنية التي كانت تتكون من السلطان ، والباشوات ، والبيكوات وهكذا ، وجعلوا في رأس هـذا السلم الديني المفتي الاعظم لاستانبول ، ويليه القضاة ، ويليهم في المرتبة المفتون العاديون ، الذين تجوز دعوتهم امام المحاكم

لاعطاء الرأي ، لقاء رسم يدفع لهم . وفي كل جزء من اجزاء العالم الاسلامي الذي كان الاتراك يعتبرونه ولاية مخصوصة بهم ، كانوا يعينون نائباً للمفتي الاعظم . وعندما انحلت السلطة التركية اصبح هؤلاء المفتون مستقلين . وقد بقي نظام شيخ الاسلام او المفتي الاعظم في مصر ، وكان موجوداً في فلسطين حيث كان الحاج امين الحسيني مفتياً اكبر .

ولم يميز العرب تمييزاً واضحاً بين القانون الديني والمدني ، وهم في ذلك يشبهون قدماء بني اسرائيل وغيرهم من الشعوب السامية . فما كان منكراً امام المجتمع ، منكر ايضاً امام الله الذي هو رمز العلاقات المتبادلة بين افراد المجتمع . ولم يترك للحقل المدني سوى المخالفات المدنية ، او المخالفات التي ترتكب ضد الافراد لا ضد المجتمع . وهذه المخالفات لم تزد عن حوادث الخلاف على الضرر اللاحق بالملك ، مثلما يحصل عندما تأكل بقرة زيد ذرة عمرو او عندما يكسر زيد غصناً من شجرة لغيره . وفي المجتمعات العائلية الشديدة القربى والارتباط التي انتظمت بها الشعوب السامية ، قل ان توجد مخالفة فردية دون ان يكون لها مساس بالجماعة كلها .

وقد كانت مثل هذه الخصومات تنشأ قبل الاسلام بوقت طويل بين الشعوب التي غزاها العرب او ادخلوها في دينهم ، وكانت هذه الشعوب قد استكملت وسائلها الخاصة في تسويتها . ولذلك جنحت هذه الشعوب الى التمييز بين خلافات الافراد التي تمتلك وسائل تسويتها ، والخلافات الاخرى المتصلة بالدين الجديد الذي اعتنقته ، وهذه الثانية تقع خارج نطاق اختبارها . وهذا يصدق بشكل خاص على الشعوب التي لم تكن تتكلم باللغات السامية والتي لم تأخذ اللغة العربية الا في العبادة ، فحافظت كل منها على شرائعها القديمة ، المكتوبة وغير المكتوبة ، كالعادات عند الاتراك ، والقانون عند البربر ، والعرف عند الفرس . واتبعت كل منها

نتيجة لذلك نظاماً مزدوجاً في الادارة القانونية ، فكان هنالك القانون القديم والجديد ، القانون المدني والديني .

وفي القرن الاخير نشأ عن الاتصال بالغرب وعن ظهور المشاكل الجديدة ، تطورات تشريعية هامة . فكان نظام الامتيازات هو النظام الاول ، وبموجبه يحاكم الاجنبي في محكمة مختلطة او محكمة قنصلية تابعة لبلاده ، اذا كان مواطناً لاحدى الدول القوية . وبظهور القومية والتغريب ، وانشاء البرلمانات وانتشار بدلات الفراك ، سنت معظم الامم التي نبحثها قوانين مدنية مبنية على احد النماذج الاوروبية المعروفة . ولم يبق دون هذه القوانين الاوروبية سوى ممالك شبه جزيرة العرب ، وهكذا فان الشريعة الاسلامية ما تزال هي القدر الكافي للبلاد التي نشأت فيها .

الفصل السابع

اركان الإسلام الخمسة

لقد قلنا ما فيه الكفاية عن جمع الشريعة التي أقرها الرسول وأتباعه، خلال القرنين الاولين من تاريخ الاسلام، وعن تطبيقها. ولكن مم تتكون هذه الشريعة ؟ انها باختصار تتكون من مجموعة من الافعال التي قد يفكر الناس في فعلها، مع الحكم على شرعية كل فعل ومدى انطباقه على الدين. وبينما تؤكد الانظمة التشريعية في البلاد الغربية ما ينهي المرء عن فعله، فان الشريعة الاسلامية تقسم الافعال الانسانية الى خمسة أصناف (١) الفروض الواجبة على جميع المؤمنين (٢) الافعال المستحبة ولكن من دون ان تكون مفروضة (٣) الافعال الاختيارية التي لا يحكم الشرع عليها سلباً او ايجابا. (٤) الافعال المكروهة التي يستحسن امتناع الناس عنها ولكن تركها ليس فرضا (٥) الافعال المحرمة التي ينهى عنها.

اما في نطاق الفقه وحده، لا في نطاق الشريعة العام، فهناك تشديد على نقيضين لا تخرج الافعال عن احدهما وهما الحلال، وهو فعل طيب يسمح به، والحرام وهو فعل فاسد ينهى عنه[١]. والاحكام

---

(١) ان النهي والتحريم الصادرين على جميع الاشياء التي عدّها القرآن حراما. كلحم الخنزير والخمر، ستبحث بالتفصيل في الفصل الثامن عشر.

التي اطلقها الفقهاء على اساس من حديث الرسول وسنته تكاد تشمل كل نوع من انواع السلوك الانساني التي يمكن تصورها في الوضع الثقافي الذي عاش فيه الرسول . وعلى رأس جميع الفروض الواجبة اركان الاسلام الخمسة المشهورة ، وهي الشهاده ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج .

فأما اول هذه الاركان فهو الاقرار بالشهادتين : شهادة ان لا آله الا الله وان محمداً رسوله ، وتدخل الشهادتان في كل صلاة . ويكفي نطق القسم الاول من الشهادتين في ظرف حرج لكي يعتبر الناطق مسلماً ، وقد حدث قبل احتلال الاسبان لساحل اغادير في الريف سنة ١٩٢٤ ان احد السجناء المسيحيين المحجوزين في جزيرة الهوسيان المقابلة لذلك الساحل ، وهي جزيرة اسبانية قديمة اشتهرت بسجنها منذ القدم ، كان يفر من السجن ويسبح الى الشاطيء . فما يكاد السجين يطأ الشاطيء حتى يجد بعض الريفيين في انتظاره ، وبنادقهم معدة للاطلاق ، فيقف على قدميه المتعبتين ويرفع سبابتيه وينطق قائلًا « اشهد ان لا آله الا الله » ، بناء على ما كان قــد تعلمه من بعض التجار الريفيين الذين يسمح لهم بدخول الجزيرة ، فلا يكاد يفعل حتى يسمح له بالوصول الى الشاطيء مطمئناً ، وقد تعطى له ألبسة وبيت وزوجة وعمل (وقد تحدثت الى نفر من هؤلاء ووجدتهم يرتعدون خوفاً من ان أبلغ السلطات الاسبانية عن حقيقة اصلهم) .

والركن الثاني هو الصلاة ، وتختلف كثيراً بين المذاهب . ولكن المذاهب كلها تعتبر ان الصلاة فرضت خمس مرات في اليوم ، عند الفجر ، والظهر والعصر والمغرب والعشاء . ويجب ان تؤدي الصلاة كلها باللغة العربية ، ويجب ان يكون المصلي طاهراً ومتوضئاً . ويتكون الوضوء من غسل اليدين حتى الكوعين والقدمين حتى الرسغين . ويمكن التيمم بالتراب بدلاً من الماء عند الاقتضاء . وينقضي الوضوء بالنوم او بلمس

ما كان نجساً . وعلى المرء ان يحافظ على الطهارة عند قضاء الحاجة وبعد الجماع ، ويفضل ان يكون التطهر بالغسل .

وفي المدن والقرى الصغيرة التي تحتوي على المساجد ينادي المؤذن المؤمنين للصلاة كلما حان وقتها . وقد يكون المؤذن هو الامام نفسه في الاماكن الصغيرة ، اما في المدن فلكل مسجد مؤذنه الخاص . فاذا كان للمسجد مئذنة صعد المؤذن اليها حتى يسمع صوته في ارجاء بعيدة ، والا تلا اذانه بجانب بيت الجامع . وتختلف كلمات الاذان باختلاف المذاهب . ويتلى على المذهب الحنفي بالشكل التالي : « الله اكـــبر (اربع مرات) اشهد ان لا اله الا الله (مرتين) واشهد ان محمداً رسول الله (مرتـين) ، حي على الصلاة (مرتين) حي على الفلاح (مرتين) .

ومن سمع صوت أذان الفجر محمولاً على النسيم الرطب العاطر منبعثاً من عدد كبير من المآذن يوافق ولا شك بأنه قلّ ان يمر المرء بتجربة مثل هذه التجربة العذبة المنعشة ، عندما يفيق بعد اسابيع من السفر والترحال . ولكن الاذان الذي يتلى في هـــذه الايام من مكبرات الصوت ليس له مثل ذلك الخشوع والجلال . ومما يؤسف له ان يرى المرء في بعض العواصم الاسلامية هذه الاجهزة الميكانيكية وقد اخذت تشوه الاذان .

وللمصلي الحق في ان يصلي وحده ، سواء في مكان مكشوف او في بيته ، او ان يصلي مع جماعة يؤمهم امام في أي فناء او جامع . والجوامع تحتوي على المعدّات اللازمة من اجل الوضوء ، وعلى محراب مواجه للقبلة ، ومنبر يصعده الامام لالقاء خطبة الجمعة . وتتكون الصلاة من الركعات : ركعتين لصلاة الصبح ، وأربع للظهر والعصر والعشاء وثلاث للمغرب . وفي كل ركعة وقوف وركوع وسجود

وجلوس تختلف تفاصيلها باختلاف المذاهب . ولو اخذنا المذاهب السنية الثلاثة المتشابهة لوجدنا هذه أهم الفروقات بينها .

ولنأخذ على سبيل المثال صلاة من ركعتين . يقف المصلي ويداه على جانبيه قائلاً « نويت أصلي ركعتين لله » متجهاً نحو القبلة بقلب خالص » . ثم يضع ابهامه على لحمتي اذنيه ويفتح يديه باتجاه وجهه ويكبر قائـــلاً « الله اكبر » ثم يضع يده اليمنى تحت اليسرى ويجمع اليدين تحت السرة . ثم يقرأ الفاتحة ، ويقرأ بعدها آيتين قصيرتين او آية طويلة على الاقل . ثم يركع بعد ان يثبت رجليه ، ويضع يديه على ركبتيه ويوجه رأسه الى الارض قائلاً « الله اكبر » ، ثم يتبع ذلك بقوله وهو في الوضع ذاته « سبحان ربي العظيم » « سبحان ربي الاعلى » مرتين لكل منها . وبعدها يرفع الامام ظهره ويسوي جسمه ويرخي يديه الى جانبيه قائلاً « سمع الله لمن حمده » ، وتردد الجماعة بصوت خافت غير مسموع « ربنا لك الحمد » . فاذا كان المصلي منفرداً تلا القولين معاً . ثم يسجد المصلي على ركبتيه ويمد يديه الى الامام من الكوع قائلاً « الله اكبر » . فيمس انفه ثم جبينه الارض مردداً ثلاث مرات « سبحان ربي الاعلى » ثم يجلس على قدميه ويداه على فخذيه قائلاً « الله اكبر » . ثم يكرر السجود .

فاذا انتهت الركعة الاولى عاد الى الوقوف ، ومتى وصل نهاية الصلاة يأتي دور الدعاء ، وهنا يضم المصلي يديه امامه وهو راكع جاعلاً الراحتين متجهتين الى جسمه ورافعاً سبابتيه ، مردداً الدعاء المختار للمناسبة . وقد يكون الدعاء في غير اللغة العربية رغم ان هذا مخالف للاصول ، وعلى ذلك فان العنصر الشخصي فيه يزيد عما في أي ناحية أخرى من نواحي الصلاة .

هذه هي اصول الصلاة حسب المذهب الحنفي . ويختلف الآخرون عن الحنفية بالتفاصيل ، ولكن المظاهر العامة تبقى بدون تغيير . والصلاة

مع الجماعة من أفضل الطرق المعروفة لايجاد العلاقات الحسنة بين الافراد الذين ينتمون الى جماعة واحدة . وهذا ينطبق على الاسلام كما ينطبق على غيره . والصلاة التي وصفناها آنفاً هي في الواقــع تمرين رياضي مدهش ، خصوصاً للتجار الذين لا يمشون الا قليلًا اثناء النهار . وعندما يذهبون الى الجامع معاً فانهم يلتقون باخوانهم ، وهـذه فرصة طيبة لاقامة العلاقات فيما بينهم .

ان السائح الحديث الذي زار البلاد الاسلامية – ما عدا البلاد السعودية – ربما قال « لم أر في تجوالي مسلماً وهو يصلي » . ولكن ليتذكر بأن معظم الصلاة تجري بشكل خاص منعزل ، وانه حتى اولئك الذين لا يؤدون كل الفروض قد يذهبون الى الجامع لاداء صلاة الجمعة . وصلاة الجمعة للرجال وحدهم ولا تنعقد الا بأربعين مصلياً او اكثر . ويخطب الامام على المنبر ، وعليه ان يدعو في خطابه للسلطان ، ثم ينزل عن المنبر ويؤم الصلاة .

وقد يقول السائح الآن : « لقـد زرت البلاد الاسلامية في ايام الجمعة ووجدت الحوانيت مفتوحة كما في سائر الايام » . وهـذا قول صحيح الى حد مـــا . فان الاسلام لم يجعل من يوم الجمعة يوم عطلة وراحة ، بل شرع تخصيص جزء منه للصلاة . وللتجار الحرية في فتح حوانيتهم قبل الصلاة وبعدها ، وهذا ما يفعله الكثيرون منهم . وعلى أي حال لا تقام أسواق خاصة في ذلك اليوم . ولا تقف الاعمال ايام الجمعة وبعد ظهر الخميس الا في الاماكن التي اقتبس فيها المسلمون عادة العطلة الاسبوعية عن الانكليز والامريكيين . ويحلو لمنقبي الآثار الذين تعودوا العمل ستة ايام في الاسبوع ان يريحوا عمالهم يوماً ليتسنى لهم جمع اوراقهم وتصنيفها ، ومعظمهم يختارون يوم الجمعة لهذا القصد . وهنا يتساءل العمال ، خصوصاً الجديدون منهم « الا تدفعون لنا اجر يوم الجمعة ؟ اننا مستعدون للعمل فيه كأي يوم آخر من ايام الاسبوع » .

ويفضل العمال كثيراً ان يسمح لهم بالتغيب بعد ظهر الخميس ليذهبوا الى الحمام .

والركن الثالث من أركان الاسلام ، الزكاه ، هو نوع آخر من انواع التطهر . والمبدأ في ذلك ان من اعطى جزءاً من ماله للغير زكى ما تبقى من ماله او طهره ، وهو يساعد على حفظ التوازن في المجتمع عن طريق المشاركة . ومبدأ التصدق قديم قدم الانسان ، وهو من الاشياء التي تميز الانسان عن غيره من المخلوقات . والزكاة ضريبة على المال المنقول المتداول الذي امتلكه المرء مدة تزيد عن سنة اذا كان خالياً من الدين . ولا تفرض الزكاة على الامتعة الشخصية التي تستعمل كل يوم ولا على الادوات المستعملة في التجارة . وعلى ذلك فان بيوت السكن ، والملابس ، والسلاح الخاص ، والعبيد ، والماشية التي تؤمن الطعام ، وكتب العلماء وأدوات الصناع ، تستثنى كلها من هذه الضريبة .

وهناك تسعة أصناف من الممتلكات خاضعة للزكاة : الجمال التي ترعى في الخلاء ، شرط ان يملك المرء خمسة منها على الاقـــل ، والثيران والجواميس عندما يملك المرء ثلاثين منها او اكثر ، والاغنام والماعز شرط ان لا تقل عن الاربعين ، والخيل التي لا تستعمل في الحرب او النقل ، بل تجمع كشكل من اشكال الثروة او للبيع . والنقود الفضية ان لم تقل عن مئتي درهم ، والذهبية ان لم تقـل عن عشرين مثقالاً . والبضائع التي لا تقل قيمتها عن درهم ، والمناجم والكنوز المدفونة (عند اكتشافها) اذا لم توجـــد في مسكن الشخص الذي اكتشفها (فيما عدا الاحجار الثمينة) . والمنتجات الزراعية وهي كل ما تنبته الارض ، الا اذا كان غير صالح للأكل كالخشب والخيزران والقصب والعشب .

فالزكاة اذن ضريبة دخل قصد منها ان تتناول الاغنياء دون الفقراء ، ويتضح لنا هـذا عندما نتذكر ان الحمار ، وهو الحيوان الذي يعتمد

عليه الفقير ، مستثنى من الضريبة . والتمييز بين المال المتداول والمال المستعمل في العمل يشبه التمييز المطبق في عصرنا الحاضر . واذا جاء ذكر الكنوز المدفونة بين الاموال الخاصة للزكاة ، واعتبرت كالمناجم ، فان معنى هذا ان المناجم كانت نادرة في الشرق الأوسط بينما كانت الكنوز كثيرة . لقد كان لحضارة العصر المعدني اربعة آلاف سنة من العمر عندما ولد محمد ، وكانت المواقع الاثرية تفوق الحصر ، كما تظهر لنا الصور الجوية الحديثة لشبه جزيرة العرب . وان اختلاس القبور قديم قدم القبور ذاتها .

ولقـــد كان حساب الضريبة معقداً في ذلك الحين كما هو اليوم . فلكل صنف من الاصناف التسعة نسبته الخاصة . فالضريبة على خمسة جمال الى تسعة هي رأس من الغنم او الماعز ، فاذا كانت الجمال من ١٠ الى ١٤ اصبحت الضريبة رأسين من الغنم او الماعز ، واذا بلغت الجمال ٢٠ الى ٢٤ اصبحت الضريبة ثلاثة رؤوس من الغنم . واذا ارتفع عدد الجمال فأصبح ٢٥ الى ٣٥ اصبحت الضريبة ابن لبون يزيد عمره عن سنة واحدة او بنت مخاض ، فاذا وصل عدد الجمال ٣٦ — ٤٥ كانت الضريبة [بنت لبون] أي ناقة لها من العمر سنتان ، وحينما تبلغ الجمال ٤٦ الى ٦٠ يزكى عنها حقة أي ناقة عمرها ثلاث سنوات ، فاذا اصبحت ٦١ — ٧٥ وجب ان يزكي عنها بجذعـة أي نباقة لها اربع سنوات من العمر . والجمال التي يتراوح عددها بين ٧٥ و ٩٠ تزكى بابنتي لبون عمر كل منهما سنتان ، فاذا بلغ العدد ٩١ الى ١٢٠ وجب تزكيتها بحقتين أي بناقتين عمر كل منهـــا ثلاث سنوات . وعندمـا تتجاوز ١٢٠ يطبق نفس التزايد العام [٢] . اما الخيل فيدفع عن رأسها

(٢) ان ضيق المقام والخوف من ضجر القارىء يمنعان ذكر تفاصيل الضريبة على الابقار والاغنام والماعز . فمن كان مهتماً بها فليراجع (Hughes op. cit. pp. 699 00) [او كتاب الاموال لابي عبيد القاسم بن سلام من : ٣٥٩ وما بعدها] (المراجع) ولقد ادهشني ان تعتبر الاغنام والماعز متساوية في القيمة ، وهذا لا ينطبق اليوم على الحال في معظم البلاد الاسلامية .

والفضة والسلع تساوي اثنين ونصفاً بالمئة ، وهذه الزكاة تدفع على مجموع قيمة الثروة لا على ما زاد منها عن الحد الادنى الذي يعفى من الزكاة . وزكاة المناجم والكنوز المدفونة عشرون بالمائة ، وهي نسبة طيبة ولا شك لان معظم الدول الحديثة تتناول ١٠٠ بالمئة من هذه دينار واحد من الزكاة او خمسة بالمائة من مجموع قيمتها . وزكاة الذهب الاشياء . وتدفـــع المحاصيل الزراعية عشرة بالمئة (العشر) ، فيما عدا الاراضي التي تزرع رياً بواسطة وسائل الرفع التي يعمل عليها الرجال او الحيوانات ، فانها لا تدفع شيئاً .

وهنا لا بد لنا من أن نثني على الرسول لمقدرته في الأمور الحسابية التي تمثل تجاربه الطويلة في ميدان الأعمال . فاذا اضفنا الى ذلك انه كان أمياً يحتاج الى حفظ الأرقام كلها في ذاكرته زادت دهشتنا وزاد تقديرنا . (أذكر أني كنت في احدى المناسبات أريـــد تغيير بعض النقود الأمريكية الى بيزيتا اسبانية في عملية مزدوجة تتضمن تحويلها اولاً الى فرنكات . وكان عليّ ان ادفع النقود الى تاجرين أميين من أهل الريف كنت سأقابلهما في بيت صديق لي بفاس . وأجهدت نفسي في حساب المبالغ المتوجب دفعها بالورقة والقلم ، ولكن قبل ان أكمل حسابي التفتا اليّ وأبلغاني الجواب . وراجعت جوابهما وهما ينظران اليّ باشفاق ، فوجدته صحيحاً . لقد حسبا المبلغ في ذهنيهما .)

ان المبالغ العينية والنقدية المحددة بمثل هذا التدقيق لم تكن تعتبر ضرائب بل تبرعات طوعية . وعلى ذلك أجيز للثرى ان يوزعها بنفسه صدقات على المحتاجين . فـــاذا لم يرغب في توزيعها بنفسه ، او وزع قسماً منها فقط ، فله ان يذهب الى الرئيس الديني في بلده ويحلف امامه عن مبلغ الزكاة المتوجب عليه فيقبل يمينه . وله اذا شاء ان ينتظر زيارة المصدّق* ليقدم له الزكاة .

---

* المصدق : جامع الصدقات .

هنالك نقطتان تجدر الاشارة اليها . كان محمد واسع العلم بطبائع البشر ، فهل كان محقاً في فرض الزكاة بشكل يتطلب مستوى رفيعاً من الاستقامة من اولئك الذين فرضت عليهم ؟ لقد كان الحق بيده ، فالزكاة فرض ديني ، والمؤمنون لا يستهينون بفرائض الدين . والمبالغ التي تجبى انما تخمن بناء على يمين ، واليمين شيء خطير في نظر العرب . أضف الى ذلك ان المجتمعات في الشرق الأوسط متقاربة متراصة ، بحيث يعرف كل انسان كل ما عند غيره .

اما النقطة الثانية فهي السماح للمزكي بأن يوزع الزكاة بنفسه . وهذا أمر يوفر له الاطمئنان بأن زكاته صرفت الى مستحقها ، ويعطيه الفضل في توزيعها ، وينال شكر آخذيها . واني لاذكر صفـا من الرجال العاجزين ، بينهم الشيخ ، والمشوه ، والاعمى ، والمريض ، وقفوا امام حائط أبيض في مراكش في أحد ايام الجمعة قبل سنوات عديدة . وفتح باب أطل منه رجل طويل مهيب يلبس البرنس الأبيض . وجلس الى جانبه غزال أليف ، وجاءه أحد الخدم بوعاء فيه نقود ، أخـذ يوزعها على الحاضرين واحداً اثر واحد . وكان كل من هؤلاء يقول له وهو يأخذ منه المال « بركة الله فيك » . لقد كان هذا الرجل الغني يدفع قسطاً من زكاته . وقد تسمي هذا العمل حب ظهور ، ولكني لا أتفق واياك . فكم من اغنياء العالم الغربي يهمهم ان يروا متقبـلي صدقاتهم وجها لوجه ، (مع انهم يعلنون عن هذه الصدقات دوماً في الصحف) ؟

من هم مستحقو هذه الزكاة ؟ هنا ايضاً جاءت الشريعة دقيقة كمثلها في كل شيء آخر . فهناك سبعة أصناف من المستحقين : الفقراء ، وهم الذين يملكون مالاً ولكنه أقل من المقدار الذي تفرض عليه أية زكاة . والمساكين ، وهم الذين لا يملكون شيئاً ، والعاملون على الزكاة الذين تدفع لهم أجورهم منها ، والمؤلفة قلوبهم ، والغارمون الذين أفرحهم

الدَّيْن ، والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل . وقد نص على غرضين آخرين جاز انفاق اموال الزكاة فيها وهما فدية الاسرى والدعوة الى دين الله[٣] .

ان العناية المباشرة بالفقراء ، والحق في اعطاء الزكاة شخصياً بدلاً من اعطائها بواسطة جابي الزكاة قد شجعا بعض الناس بطبيعة الحال على التسول . وانك لتجد عطفاً على المتسول ، سببه الاعتقاد بأن أي شخص يضع من نفسه الى حد التسول يصبح مستحقاً للصدقة . فاذا أضفت الى ذلك انعدام الوسائل للعناية بالزمنى والعميان ، واعطاء الفرصة لعمل خير محسوس للناس ، اتضح لك السبب في شيوع التسول .

في سنة ١٩٤٩ كنت مسافراً بالباص بين طهران وهمذان ، وعندما وصلنا الى احدى المخاضات توقف السائق عن المسير . وبرزت من بين الحشائش امرأة عمياء ترضع طفلاً واقتربت من الباص . فأدار السائق قبعة على الركاب ، ووضع كل منهم بعض النقود فيها ، ثم أعطى لتلك الفقيرة ما جمع من النقود ، فدعت للمتصدقين عليها بالثواب ، وأجاب الركاب على دعائها بدعاء مثله ، وتابع الباص سيره (اذا زرت بلداً شرقياً فأحاط بك المتسولون من كل جانب وقلت لنفسك « يجب انشاء مؤسسة للعناية بهؤلاء الناس » فتذكر ان المؤسسة موجودة ، وانها قديمة . وتلك هي الزكاة . تصدق باعتدال كما يفعل المسلمون ، واسقط صدقتك من حساب ضريبة الدخل) .

والزكاة ليست الضريبة الوحيدة المفروضة في الدول الاسلامية ، فهنالك ضريبة خاصة تفرض على النصارى واليهود ، وقد فرضت ايضاً بغير حق على البربر الذين دخلوا في الاسلام في اوائل عهد الفتح الاسلامي

---

(٣) القرآن الكريم ٩ : ٦٠

لشمال افريقيا . وهناك ايضاً رسوم جمركية ، وضرائب دخولية ، ورسوم على الاسواق ، وضرائب أخرى عرف معظمها بعد عهد الرسول . اما الزكاة فتختلف عن هذه كلها في ان القصد الاول منها لم يكن تمويل الدولة[٤] ، بل كانت ترمي الى توزيع الدخل بين العناصر المختلفة في المجتمع بحيث لا يوجد جائع ، والى تمويل حركة الدعوة الى الاسلام بين المشركين ، والى تسهيل الترحال بين مختلف أجزاء العالم الاسلامي .

والركن الرابع هو صوم رمضان . ورمضان هو الشهر الذي أنزل فيه القرآن . وقد أنزل القرآن في ليلة القدر التي ربما تقع في الحادي والعشرين ، او الثالث والعشرين او الخامس والعشرين او السابع والعشرين او التاسع والعشرين من شهر رمضان . وليس هنالك من يعرف تاريخها بالضبط . غير ان الشائع انها ليلة السابع والعشرين . وفي ليلة القدر تتفتح ابواب الجنة الثمانية من تلقاء نفسها دفعة واحدة . وقد يتسنى للمؤمن الذي يرتقب هذا الحادث ، والذي حافظ على صيامه ان يرى السماء تتفتح وينظر الى الله . مثل هذا الانسان السعيد يموت حالاً ويدخل الجنة . ومن العسير أن يقدر المرء عدد من لا يزالون يؤمنون بهذا حتى اليوم . ولكن إن كان رمضان في الصيف فان نسبة الوفيات ترتفع فيه حقاً .

وقد جاء فرض الصوم أول مرة في فصل الصيف ، ولكنه يتبع التقويم الهجري ويدور مع السنة . الا ان التغير في طول الأيام بين فصلي الصيف والشتاء لا يكون كبيراً في مكة التي تقع على خط

---

(٤) يجمع عمال الملك في المملكة العربية السعودية الزكاة في الصيف قبل ان يأخذ البدو بالترحال . ويعطيهم الملك الحماية في مقابل الزكاة . ولا يأخذ الزكاة من القبائل الوافدة من الدول الاخرى الا اذا كانت تقضي صيفها هناك .
Colonel H. R. P. Dickson, The Arab of the Desert (London, 1949) p. 440.

عرض ٢١ شمالاً ، بينما هو كبير في تبريز وبخارى حيث تختلف شدة الصوم كثيراً بين الصيف والشتاء .

يبتدىء الصيام منذ فجر اول يوم يلي ظهور هلال رمضان . وفي عهد الرسول كان الأشخاص الموثوقون يخرجون لرؤيـة الهلال ، فاذا ثبتت الرؤية بدأ الصوم . وبعد ذلك اصبحت الرؤيـة من اختصاص العلماء في كل مدينة ، واصبح اثباتهم للهلال مقبولاً في الارياف المحيطة بتلك المدينة . وفي هذه الايام تجد في كل بـــلد اسلامي اعداداً من الناس الذين يخرجون للرؤيـة ويرسلون النبأ بالتلفون او التلغراف الى أطراف البلاد . ويحيا النبأ بطلقات المدافع وقرع الطبول . وفي بعض الأحيان تتعذر الرؤيـة بسبب الغيوم . وبالتالي لا يعرف يوم الصوم بالتأكيد مقدماً ، وهذا مما يزيد في حيوية المناسبة وبهجتها .

وفي سنة ١٩٤٢ بدأ شهر رمضان في شهر ايلول (سبتمبر) وأراد الضباط الاسبان الذين احتلوا حينذاك مدينة طنجـة الدولية وضواحيها بشكل غـير مشروع ان يظهروا امام المسلمين كحماة للاسلام ، مثلما فعل القيصر غليوم وموسوليني قبلًا . وبالتالي فانهم نصبوا في ظلام الليل عدداً من المدافع في مواقع عديدة من المدينة ، ولمـــا بزغ الهلال اطلقوها . وما ان سمع السكان المسيحيون في طنجة صوت هذه المدافع حتى استولى عليهم الخوف ، لانهم كانوا يعيشون في حالة توتر وعصبية وينتظرون الغزو بين ساعـة وساعة ، وخرج المسلمون الى الشوارع يدقون الطبول ، فظن المسيحيون ان ثورة وطنية قد حصلت ، وتنادوا الى سلاحهم . وابتدأ الصوم عند الفجر . ولكن تبين عند الظهيرة ان علماء فاس لم يتبينوا الهلال . لقد خدع أهـل طنجة وابتدأوا صومهم قبل موعده الصحيح .

ومن الناس من أحل لهم الافطار . وهؤلاء هم الاطفال الذين لم يبلغوا ، والمرضى ، والنساء الحوامـل ، والمسافرون ، شرط اعادة

الصوم في وقت آخر للفئات الثلاث الاخيرة . واذا أفطر انسان فعليه اطعام مسكين لمدة سنة . ويبتدىء الصوم عندما يمكن بتبين الخيط الاسود من الخيط الأبيض من الفجر ، ويستمر حتى تغرب الشمس . ومعنى الصيام الامتناع عن الطعام والشراب والتدخين والرفث . ويوصى الصائمون بالعزلة والتأمل اثناء النهار وبأن يؤموا الجوامع . وتستحسن ايضاً قراءة القرآن . وفي المدن يعرف الناس بداية الصوم ونهايته من طلقات المدافع وقرع الطبول .

ولا حاجة لنا بأن نقول بأن من كانت لديه سعة ، أقبل على الا كل بشهية . فعندما يطلق مدفع الافطار يبدأ الصائم طعامه بالحساء . ويصلي الناس صلاة التراويح عشرين ركعة ، ويأكلون وجبة ثانية في الليل ثم ينامون . وقد يستمر النوم حتى الظهر ، اذا كان الصائم في غنى عن العمل المبكر ، اما العامل فلا بد له من ان يشتغل بدون طعام او شراب .

وتحتد الامزجة في رمضان ، ويفترض في الناس ان لا يتعاركوا ، فاذا تعارك زيد مع عمرو واسال دمه فقد أفطر . ويصوم العمال كلهم عادة في شمال افريقيا لان الصيام رمز لمقاومتهم للاوروبيين . وفي البلاد المستقلة التي تعيش بها أقليات كبيرة من النصارى واليهود يجمع الصوم بين أفراد الاكثرية الاسلامية ويؤكد ترابطهم . وللنصارى واليهود مناسباتهم التي تخدم الغرض ذاته .

ويحتفل بانتهاء رمضان بعيد يدعى عيد الفطر او العيد الصغير او البيرم . ويستمر هذا العيد ثلاثة ايام ، وينقطع الناس أثناءه عن أعمالهم مثلما ينقطع الامريكيون في عيد الميلاد . ويلبس كل امرىء لباساً جديداً . ويذهب الرجال الى الجوامع بينما تذهب النساء الى المقابر . ويزار الاقارب وتوزع الصدقات اثناء العيد ، ويرقص الناس (كل من الجنسين وحده) ، ويولمون ويبتهجون وتدق الطبول . ويعمل الفخارون

يجد قبل العيد بأسابيع في صنع الابواق الفخارية للطبول التي يستخدمها الناس بهذه المناسبة .

والركن الخامس هو الحج الى مكة . ويجري الحج في شهر ذي الحجة وهو الشهر الثاني عشر من التقويم الهجري . وقد وجد الحج قبل الاسلام بزمان طويل وكان مصدر دخل رئيسي لقريش . ونظمت شعائره ايضاً في الماضي السحيق ، ولم يجر الاسلام فيها سوى التغييرات التي تناولت الغاء مكان الاصنام المحطمة . وفيما عدا ذلك تركت الشعائر على حالها . وقد كرر عبد العزيز آل سعود ، الملك الوهابي الحنبلي ما سبق لمحمد ان فعله . فعندما فتح الحجاز سنة ١٩٢٤ حطم عدداً من المقامات والقبور التي اعتبرها نوعاً من الازلام ، وفرض على الحج رقابة دقيقة للتأكد من عدم ادخال اي فساد الى شعائره . بل لقد حاول في بادىء الامر منع الحج كله ، ولكنه ما لبث ان اقتنع بأن دخله ضروري للبلاد .

ولو نظرنا الى الحج من الناحية الانتروبولوجية لوجدنا انه واحد من مظاهر كثيرة يبدو انها تشبع الرغبة الانسانية في اقامة اتصالات دورية واسعة النطاق بين شعوب متفرقة متباعدة ، على اساس من الاستمرار الاسطوري – التاريخي للماضي . فشعوب أستراليا الاصلية ، وصيادو العصر الحجري ، يجتمعون مرة في السنة في امكنة مقدسة يعتقدون ان آباءهم ظهروا فيها لاول مرة على ظهر الارض ، او انهم فعلوا هناك بعض اعمال المعجزات . وهنا يمثلون تفاصيل تلك الاساطير ، وينتهزون المناسبة لاقامة الاتصال الاجتماعي مع اشخاص تعددت مواطنهم ، بحيث لا يرونهم الا نادراً . وفي مدينة بلايموث بولاية ماساشوستس الامريكية يجتمع السائحون كل صيف من جميع الولايات الامريكية المتحدة لمشاهدة الصخر الذي وطأته قدما اول امرأة نزلت من المركب مي فلور (Mayflower) ويشتري هؤلاء الزائرون اعلاماً وعصياً تشهد للعالم كله

بانهم زاروا تلك البقعة المقدسة . وتقوم لجنة من سكان مدينة لكسنجتون (Lexington) بولاية ماساشوستس في ١٩ نيسان (ابريل) من كل سنة بتمثيل هجوم بول ريفير (Paul Revere) ومعركة لكسنجتون ، ويلبس الممثلون رداء من الجلد الاصفر والملابس الزرقاء ، شبيهاً بلباس تلك الايام . ولو اختارت احدى الكنائس ان تجعل من زيارة صخرة بلايموث وتمثيل معركة لكسنجتون جزءاً من شعائرها ، لامكننا حينذاك مقارنة هذه الشعائر بالحج .

غير ان المقارنة ناقصة من ناحية ثانية ، فليس في أيامنا هذه من يعرف الدوافع الاصلية للحج ، تلك الدوافع التي يعود تاريخها الى العصر الحجري . وليس هنالك من يعرف معنى هـذه الشعائر . وعندما اقر الاسلام شعائر وجدت من قبل ، فانه استخدمها في دعوته ، واعطاها معنى عقائدياً جديداً . ولكن هذه الشعائر تبرر نفسها في الوظيفة التي تؤديها . وهذه الوظيفة واضحة فيما خص الحج الاسلامي الذي يجمع الرجال والنساء من جميع ارجاء العالم الاسلامي في موقع حر مقدس ، ويوحد بينهم في اللباس والتصرف ، ويخضع اراداتهم وشخصياتهم الى قوه عليا ، ويفرض عليهم شعائر طويلة ومتعبة ، يمارسونها معاً ، فيوجد بينهم تجربة موحدة ويهيء لهم فرصة للتعارف والتآلف ، ويعطيهم القاباً دينية ترفع من مكانتهم الاجتماعية .

ويمر الحجاج اثناء مجيئهم وعودتهم بعدد من البلاد الاخرى ويتاح لهم التعرف على احوالها ، والتحدث بما شاهدوه في محيطهم وموطنهم . وقد اجاز الاسلام الاتجار اثناء الحج بنص صريح ، وهذه الاجازة ، مضافاً اليها عدد كبير من الوسائل التي تتضمن الخير والصدقة ، سهلت للناس الحج وخففت اكلافه عليهم . وقـد يجد الحاج في سفره بقعة يستوطنها ويمارس فيها حرفته او تجارته ، او ربما يقابل شخصاً من بلاد أخرى فيدعوه الى بلاده . فهذا الحج اذن احد الوسائل الرئيسية للتفاعل

في عالم الاسلام ، وهو احد الوسائط الرئيسية التي توحد ذلك العالم . ولو أن محمداً حرّم الحج على الناس .واعتبره مرتبطاً بالدين القديم الذي انكره وحاربه ، لما كان فعله هذا أقرب الى المنطق من تحريم الصلاة بحجة ان ابناء الذين القديم كانوا ايضاً يصلون . وفي هـــذه الايام المضطربة ، عندما اصبح كثير من المسلمين خاضعين لدول مسيحية او معادية لكل دين ، فان الحج يهيىء للناس فرصة الاتصال بأحرار الرجال ومقارنة الأحوال . ولهذا السبب حرمته بعض الحكومات او حظرته الا على أفراد ممن تختارهم .

وعلى كل مسلم ان يحج ولو مرة في حياته . وقد كان الحج هيناً في عهد الرسول ، لان المسلمين لم يكونوا بعد منتشرين بين مراكش وميندناو . وتجوز الانابة بالحج ، وعلى النساء ان يرافقن أزواجهن أو محارمهن كالآباء والاخوة .

ويسافر الحجاج في وقت مبكر ليصلوا في اليوم السادس من شهر ذي الحجة ولينزلوا في أحـد البيوت الستة التي تستقبل الحجاج ، والتي تقع على بعد خمسة اميال او ستة خارج مكة ، على الطرق الستة المؤدية الى المدينة . وفي بيت الضيافة يستحم الحاج ويصلي ركعتين ، ويلبس ملابس الاحرام المكونة من قطعتين من الاقمشة القطنية غير المخيطة ، وتبلغ كل واحـدة منها حجم المنشفة . ولكن لا يطلب من النساء لبس هذه الألبسة التي لا تستر اجسامهن ، بـل تتكون البستهن من خمس قطع : سروال ورداء ولباس أخضر ورداء اسود وحجاب[٥] . وقـد يلبس الحاج خفاً لا حذاءً . ولا يجوز له ان يحلق او يقص اظافره او يطيب شعره او يحك جلده حتى ينتهي الحج .

وبعدئذ يمشي الى مكة مع رفاقه مردداً التلبية . فاذا بلـغ مكة

(٥) Ibid p. 155.

ذهب الى المسجد الكبير ، مسجد الكعبة ، وتوضأ وقبل الحجر الأسود الذي ما زال في موضعه من يوم أن رفع اليه بأمر محمد الأمين . ثم يطوف حول الكعبة سبع مرات في عكس اتجاه عقرب الساعة ، مهرولاً في ثلاث دورات ، وماشياً ببطء في أربع ، وكلما طاف مرة لمس الركن اليماني وقبل الحجر الأسود . ثم يذهب الى موقع يعرف بمقام ابراهيم حيث يقول « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلّى » ثم يصلي ركعتين ويعود الى الكعبة ليقبل الحجر الأسود من جديد . ثم يتجه الى باب الصفا ، وهو جبل في ضواحي مكة ، ويردد « ان الصفا والمروة من شعائر الله » . فاذا صعد الجبل ردد الآية ثلاث مرات ثم هرول من قمة المروة سبع مرات ، مكرراً دعاءه كلما وصل قمة احد الجبلين . ويعود الحاج بعد ذلك الى مكة ، فيطوف حول الكعبة من جديد .

وبعد هذا اليوم المجهد يرتاح ، فما عليه في اليوم السابع من ذي الحجة الا ان يسمع خطبة في مسجد الكعبة عن الحج . وفي اليوم الثامن يسير ورفاقه نحو قرية تدعى « منى » حيث يصلي الجميع وينامون . وفي صباح اليوم التاسع يصلي الحجيج في منى ويتوجهون الى جبل عرفات ، حيث يصلون ايضاً ويستمعون الى موعظة أخرى . ثم يذهبون الى مزدلفة ، في منتصف الطريق بين عرفات ومنى ، ويبلغونها مع صلاة المغرب حيث يصلون وينامون .

وفي اليوم العاشر يبلغ الحج ذروته . فهذا يوم التضحية ، ويسمى يوم النحر ويوم الاضحى والعيد الكبير . يفيق الحاج في وقت مبكر ويصلي ويذهب الى منى حيث توجد اعمدة ثلاثة من أثر قديم ، لكل منها اسمه الخاص . فأولها هو الشيطان الكبير الذي يرجمه الحاج بواحد وعشرين حجراً ، ثم يحصب كلا من العمودين الآخرين بسبع جمرات من بعد خمسة امتار او اكثر ويلقي بالجمرات من يده اليمنى . لقد

ألقى ملايين الحجاج المسلمين خلال الف وثلاثمائة سنة هذه الجمرات مئات ملايين المرات على الاعمدة الثلاثة ذاتها . ولقد فعل العرب مثل ذلك قبل الاسلام على مدى فترة لا يعرفها انسان . ومع ذلك مـا زالت الاعمدة ثابتة في مكانها . وتلك لعمري معجزة من المعجزات .

وفي منى يشتري الحاج ضحية ، ويفضل ان تكون كبشاً . ويحز الضحية من رقبتها وهو يردد « الله اكبر » . ويحلق ذقنه ، ويقص اظافره ، ويخلع ملابس الاحرام ويلبس ملابسه العادية ويستعيد صفة الفرد . وبعد استراحة ثلاثـــة ايام في مكة ، واداء بعض الشعائر والطواف الاخـير ، يصبح حراً في العودة الى بلاده ، وفي ارتداء عمامة خضراء . ويدعوه الناس بعد اليوم « الحاج فلان » وهذا يزيد في مكانته .

ولا حاجة بنا الى القول ان منطق الحج يتطلب تنظيماً كبيراً ، ويتضمن اعمالاً وتجارة واسعة النطاق . فلو تجاوزنا القوافـــل ، التي سنتحدث عنها فيما بعد ، فان سفن الحجيج الحديثة ، والطائرات ، وتفاصيل استقبال مئات الالوف من الحجاج الوافدين من عشرات البلاد الى الحجاز كل سنة ، والاهتمام بصحتهم واطعامهم وايوائهم وتزويدهم بملابس الاحرام ، والعناية بملابسهم العادية في اثناء ذلك (تقوم الحكومة السعودية بتبخـــير تلك الملابس) وبيعهم التذكارات ، ومنعهم من التصرفات المتطرفـة اثناء ارتفاع حماسهم الديني ، وتنظيم عودتهم الى بلادهم ، اعمال تحتاج الى متفرغين كثيرين يؤدونها . وجدة مليئة بالجاويين ، والمراكشيين ، والباكستانيين ، والفرس ، وغيرهم ، ويتصل هؤلاء بأبناء اوطانهم ويؤمنون مطالبهم وحاجاتهم . وقد أسس البريطانيون والهولنديون والفرنسـيون منذ أمد بعيد مفوضيات مليئة بالموظفين ، ولا شك ان للباكستانيين والاندونسيين اليوم مثل هذه المفوضيات . وكانت الحكومة السعودية تتناول رسماً مقداره خمس ليرات انكليزية

ذهبية لقاء السماح بالحج — ولا شك انها كانت تنفق جانباً من هـذا المبلغ في العناية بالحجاج والاماكن المقدسة .

ويحتفل المؤمنون في كل مكان بالعاشر من ذي الحجة ، سواء سبق لهم تأدية شعائر الحج ام لا . وتحرص كل عائلة على ان يكون عندها كبش بهـذه المناسبة [٦] . كما يحرص الغربيون على ان يكون لديهم ديك رومي في بعض المناسبات . ويذبح كل معيل كبشاً يفترض انه يكفي سبعة اشخاص . ويوزع ثلث اللحم على العائـلة ، والثلث على الاقارب ، والثلث الاخير على الفقراء الذين لا يستطيعون ان يضحوا . ومن المسلم به أن توفير العدد اللازم من الكباش يكون مشكلة في كل مكان ، ولكنه أمر صعب في مكة بالذات إذ يقل فيها المرعى ، ولا بد من استجلاب الاغنام من اماكن بعيدة . وهذا هو أهم عيد في الاسلام ، يشبه عيد الغفران — فدية ابراهيم — وهو مأخوذ عنه ، ولذا وجب ان يكون كبش الفداء كبيراً لا عيب فيه .

ويلاحظ السائح في بلاد الاسلام ، اذا دخل مدينة في الايام السابقة لعيد الاضحى ، وجود اعداد كبيرة من الكباش في الشوارع . ويبتهج الناس بالعيد الكبير اليوم كما ابتهجوا به ايام الرسول . وفي وسع المرء ان يقول عن اركان الاسلام الخمسة ، بأنها منتقاة انتقاء حكيماً ، اذ انها صمدت امام اختبار الزمن . فما زال المسلمون مؤمنين بدينهم ، وما زالوا يصلون ويزكون ويصومون ويحجون . ولم تعرقل السيارات والطائرات وحتى الراديو هذه العبادات ، بل سهلتها .

---

(٦) يمكن تضحية معزاة ، او بقرة ، او جمل بدلاً من الكبش .

الفصل الثامن

القوة في التنوّع

اذا استثنينا بعض اشاراتنا العابرة الى الفاطميين المندثرين والى الخوارج وخروجهم عن السنة ، فاننا كنا نتحدث حتى الآن عن المسلمين وكأنهم ينتمون الى مجتمع ديني واحد . والكنيسة المسيحية مكونة من عدد من الفرق الدينية بينما ينقسم المجتمع البوذي الى اتباع العجلتين الكبرى والصغرى . ومن الطبيعي ان توجد مثل هذه الفروق في الاسلام ايضاً .

لقد أبرزنا من امثلة التنوع حتى الآن المذاهب الاربعـــة ، وهي المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي . ويشكل اتباع هذه المذاهب واحداً من الفروع العقائدية الثلاثة ، وهم يسمون أنفسهم اهل السنة . اما الفرعان الآخران فهم الخوارج والشيعة .

كان الخوارج اول الفروع ظهوراً ، وهم أقلها عدداً . وتتفق عقيدتهم على وجه العموم مع الشعائر السنية ، ولكنهم يختلفون عن أهل السنة في أمرين : الخلافـة ، وواجب كل مسلم بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر بادئاً بنفسه ليقتدي به غيره . وقد ابتدأت حركة الخوارج عام ٦٥٧ ب. م. يوم تخلى اثنا عشر ألفاً من جنود علي عنه اثناء معركة صفين عندما أثير شك حول حقه في الخلافة . وقد ذهبت جماعة من الجند الى انه ليس فرضاً ان يكون الخليفة من قريش ، بل لا ضرورة

لوجود خليفة اصلاً . فان لم يكن بد من خليفة فان الله هو الذي يختاره ، ولا بد له من ابلاغ المؤمنين بطريقة مـــا بمن يقع عليه الاختيار .

هـذا القرار قطع علاقاتهم بعلي ، فتركوه وأنشأوا جماعة خاصة في شمالي شبه جزيرة العرب . وفي سنة ٦٥٨ قتـــل معظمهم وتفرقت فلولهم* . وقد تعرضوا للهلكة بسبب المبدأ الثاني من عقيدتهم اي مبدا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى ولو ضحى المرء في سبيل هذا الامر حياته . اما المذاهب الاخرى فتسمح لاتباعها باختيار طريق آخر اذا دعت الضرورة .

وقد بقي في أيامنا هذه عدد قليل من الخوارج يعيشون في عمان وجزيرة زنجبار ، وفي موقعين منعزلين في شمالي أفريقيا هما مدينة مزاب في واحة غرداية وجزيرة جربة ويتكون الخوارج في الموقعين الاخيرين من شعوب بربرية تتكلم اللغـة الزناتية ، ويتخصص هؤلاء في امتلاك المخازن التجارية بالمدن الجزائرية والتونسية ، ويساعدهم خروجهم عن السنة على الاحتفاظ بدورهم الخاص في حياة المنطقة .

إلا ان الفرع الرئيسي عدا السنة هو الشيعة . فبينما انكر الخوارج علياً ، ايده الشيعة . وقد ابتدأ الشيعة كحركة سياسية . فان علياً جعل الكوفة في العراق عاصمة له ، وقد تحمس العرب والمستعربون من أهل مدن تلك المنطقة الى جعل بلادهم عاصمة العالم الاسلامي الجديـد ومركزه . ولكن عداء معاوية والخوارج لعليّ جرّ الى مقتل زعيمهم هذا ومقتل أحد أبنائه ، واصبحت دمشق هي العاصمة .

ووضع عرب الكوفة نظاماً من العقائد نافس النظام السائد ، بـل

---

* يعني معركة النهروان ، بينهم وبين علي (المراجع)

كان لهم في الدولة الدينية وأيهم الخاص . وقد أنكروا حق الخلفاء الثلاثة الاول بالخلافة وادعوا أنها انتقلت من محمد الى علي مباشرة . وحل محل علي في الخلافة سلسلة من الائمة الذين لهم حق تأويل العقيدة الدينية . اما الخليفة فلم يكن له مثل هذا الحق عند السنة بل هو منفذ وحسب . واحتفظ أهل السنة لعلماء المذاهب الاربعة ولشيخ الاسلام بحق محدود في التأويل . وقد قيل ان محمداً كان لديه علم سري افضى به الى علي ، ثم انتقل من علي الى الائمة . وبالتدريج اعتبر الائمة معصومين ، ووسائط للنور الالهي الذي ينقلونه للكون منذ آدم ، بل بين فروع الشيعة من يعتبر ان الاله قد حل في الائمة فعلاً .

ومع ان الشيعة تفرعت الى فروع عديدة ، فانه لم يبق من مذاهبها سوى ثلاثة : الامامية والزيدية والاسماعيلية . والمذهب الاول الذي اصبح دين الدولة الرسمي في ايران منذ سنة ١٤٩٩ هو اكثرها اتباعاً ، واكثرها تحرراً ، وقد ابتدأ في العراق حيث يتبعه معظم العرب القاطنين جنوبي بغداد . وفي ايران يتبعه معظم المسلمين فيما عدا الاكراد الشماليين والتركمان الذين ينتمون الى المذاهب السنية . ومعظم الافغانيين من أهل السنة .

ويعترف الاماميون باثني عشر اماماً هم (١) علي (٢) الحسن (٣) الحسين (٤) علي زين العابدين (٥) محمد الباقر (٦) جعفر الصادق (٧) موسى الكاظم (٨) علي الرضا (٩) محمد التقي (١٠) علي النقي (١١) الحسن العسكري (١٢) محمد المهدي . وكان الامام الرابع من ابناء الحسين وبعده اصبحت الامامة بالوراثة — يورثها الاب لابنه حتى نهاية السلسلة . اما المهدي الذي يقال إنه اختفى في بئر في سامراء ، فانه يقال عنه أيضاً : أنه حي ومستعد للعودة في الوقت الملائم .

وقد انفصل الزيديون بعد الامام الرابع ، فلم يقروا بامامة محمد الباقر ، وبايعوا اخاه زيداً بالامامة مكانه . وقد استمرت سلالتهم حتى

اليوم الحاضر . وهم مسلمو هضبة اليمن ، وعاصمتهم صنعاء . وينتمي الامام يحيى الذي اغتيل سنة ١٩٤٨ الى هـذه السلسلة كما ينتمي اليها ابنه الامام احمد الذي خلفه على الملك والامامة . ولا يخلع الزيديون على ائمتهم أية سلطات خارقة ، وهم قريبون ، على وجه العموم ، من أهل السنة من حيث العقيدة والشعائر .

وقـد اختلف الاسماعليون في من يخلف جعفراً الصادق — الامام السادس . فاعتبروا ان ابنه الاكبر اسماعيل هو صاحب الحق بالامامة ، ولكن اباه جعفراً حرمه منها عندما اكتشف سكره ، ونصب ابنـه الثاني موسى مكانه . وكان لاسماعيل اتباعه الذين أسسوا مذهبهم الخاص . وكان محمد بن اسماعيل الامام الثامن في هـذا الخط ، وهو آخر من شاهده البشر من الائمة . ويعتقد انه قد خلفه منذ ذلك الحين عدد من الائمة « المستورين » . وآغا خان المشهور هو زعيم الاسماعيليين . ومع ان معظم اتباعه الذين يقدمون له بين الحين والحين ما يساوي وزنه من العناصر الثمينة المختلفة ، يعيشون في باكستان ، الا ان بعضهم موجودون في بعض قرى قاين في خراسان ، وقليلون منهم يقطنون جبال سوريا في مكان يقع الى الغرب من منتصف الطريق بين مدينتي حمص وحماه .

وهؤلاء السوريون المسالمون الذين يزرعون الاراضي الجبلية هم بقية احدى الجماعات المخيفة التي تفرعت من الاسماعيلية[١] ، وهي جماعـة الحشاشين الذين شنوا بقيادة زعيمهم حسن الصباح — شيخ الجبل — حمـلة اغتيالات مشهورة وأصبحوا مختصين بالاغتيال . وكان معقلهم

---

(١) يعتقد جب (Gibb) بأن التفرع قد جاء عن طريـق الفاطميين ، H. A. R. Gibb Mohammedanism (London 1949), p. 349. n. 49. Henry Lammens, Islam, Beliefs and Institutions trans. by T. Denison Ross (New York 1929), p. 158. ولست ادري كيف ومتى عاد هذا الفرع الى الاتحاد مع الاصل الاسماعيلي .

الاصلي في ايران ولكن عندما هدمه المغول سنة ١٥٢٦[٢] لم يبق منهم سوى الفرع السوري . وقد أشار ابن بطوطة الى الفرع السوري سنة ١٣٢٦ ، أي بعد هذا التاريخ بسبعين سنة ، وذكر انه كان لا يزال يزاول اختصاصه في الاغتيال :

« ثم سافرت الى حصن بغراس .... ثم سافرت الى مدينة صهيون .... ثم سافرت منها فمررت بحصن القدموس ... ثم بحصن العليقة ... ثم بحصن مصياف ، ثم بحصن الكهف ، وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الاسماعيلية ويقال لهم الفداوية ، ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم ، وهم سهام الملك الناصر ، بهم يصيب من بعد عنه من اعدائه بالعراق وغيرها ، ولهم المرتبات ، واذا اراد السلطان ان يبعث أحدهم الى اغتيال عدو له أعطاه ديته ، فان سلم بعد تأتي ما يراد منه ، فهي له ؛ وان اصيب فهي لولده ، ولهم سكاكين مسمومة يضربون بها من بعثوا الى قتله ، وربما لم تصح حيلهم فقتلوا[٣] » .

غير انه لا يذكر شيئاً عن الجنة الارضية التي انشأها مؤسس المذهب في قلعته بايران ، ووضع فيها البساتين والانهار والفتيات الجميلات ، وجعلها مكاناً يرتاح فيه اتباعه بعد اداء ما يوكل اليهم* . ولم يذكر ايضاً الحشيش الذي قيل إنهم يستعملونه لتقوية عزائمهم . غير ان المهم في نظر العالم الانثروبولوجي هو انهم اسسوا نظاماً تدريجياً يتكون من خمس طبقات . ففي الطبقة السفلى عامة الناس ، وهم المسلمون العاديون . ثم هنالك الشبان الموضوعون تحت التدريب ، وفوقهم اولئك الذين

---

(٢) Brockelmann, History of the Islamic Peoples, p. 250.

(٣) رحلة ابن بطوطة ١ : ١٦٦ — ١٦٧ ط. باريس .

* مثل هذا الوصف قد ذكر في كتب بعض الرحالة الاوروبيين انظر مثلاً Purchas His Pilgrimes vol xi (207 - 9) Glasgow 1905. (المراجع)

اقدموا على الاغتيال فعلاً (بعد ان شاهدوا الجنة وخدروا بالحشيش) اما الرتبتان الثانية والاولى فتتكون من المشرفين الذين كانوا من غير شك ينظرون الى الحياة بواقعية باردة . ونفترض بأنه لم يبق من هذه الطبقات في أيامنا سوى الطبقة الخامسة .

وقد بقي في ذلك الجزء من العالم فرع آخر من فروع الشيعة هو المتاولة[٤] الذين يقطنون مدن صور وصيدا وسهل بعلبك ويعدون مئة وخمسين الفاً .

ولا يحق للمرء ان يحكم على الشيعة من هذه البقايا الغريبة . فالفرع الرئيسي ، وهو الفرع الامامي يعد خمسة وعشرين مليوناً في ايران والعراق وسواحل شبه جزيرة العرب وحدها . وهم يعتبرون انهم هم لا اهل السنة اصحاب العقيدة الصحيحة ، وهم اقل تعصباً من غيرهم . وهم لا يعتقدون بتحريم تصوير الانسان والاشكال الحيوانية ، ويستطيع المرء ان يشتري صورا لعلي والامام الرضا في مقام الرضا بمشهد . وعلينا ان نتذكر ان الرسم فن جميل بايران ومن الصعب ان يتخلى الايرانيون عنه .

وتختلف طريقة الشيعة في الصلاة قليلاً عن طريقة المذاهب السنية ، ولهم قانون لشؤون الارث . وهم يعتبرون الزورواستريين اهل كتاب كاليهود والنصارى ، ويسمحون لهم بمزاولة دينهم دون اكراه ، مختلفين بذلك عن أهل السنة . ويشيع عنهم اعتقاد روجته رباعيات عمر الخيام ، بأنهم اكثر تساهلاً في الخمر من السنة ، ولكن الصحيح ان الخمر وبيعه من امتيازات النصارى واليهود . ويؤكد الشيعة بعض المناسبات التي لا يهتم بها السنة . وأهم مناسباتهم خلافاً للعيد الكبير ، يوم العاشر من

Hitti, History of the Arabs p. 249. n. (٤)

محرم – وهو يوم ذكرى مصرع الحسين في كربلاء سنة ٦٨٠ ب. م. او ٦١ بعد الهجرة .

في هذا اليوم يسير الناس في الطرقات مرددين « يا حسن ، يا حسين » ، ويبكون ويوقعون الاذى بأجسامهم بالسيوف والعصي والسلاسل . وقد يزداد الهياج ببعضهم ويبرح بهم الحزن فيفلقون رؤوسهم بالسيوف والفؤوس . وفي بعض الاحيان يكون قد سبق للحلاق ان فتح بعض الجروح البسيطة التي تنزف دماً بأقل ضرر ، فيسبب السيف او الفأس ، اللذان لا تستعمل اطرافها الحادة بل جوانبها ، إسالة الدماء على تلك الجروح . وقد تكون الجروح صحيحة لا وهمية وهناك من يؤذي نفسه أذىً بالغاً ، وهناك من يموت .

وقد جرت العادة ايضاً بتمثيل مسرحيات دينية عاطفية في مسارح مكشوفة تقام في انحاء مختلفة من المدينة على حساب الاغنياء من السكان . وبعض المسرحيات التي كانت تمثل في طهران في القرن التاسع عشر كانت واقعية للغاية . وفي مشهد المعركة كان بعض الممثلين يدفنون بحيث لا تظهر الا رؤوسهم لتصوير رؤوس القتلى المقطوعة ، بينما كان ممثلون آخرون يخفون رؤوسهم فتبدو الاجسام وكأنها تلك التي قطعت رؤوسها . والحزن هو موضوع هذه المسرحيات ، والعادة ان يبكي المتفرجون . والبكاء جزء من صلاة مساء الخميس عند القرويين من الشيعة ، اذ يضرب هؤلاء صدورهم ويجهشون بالبكاء كلما ذكر اسم علي والشهداء من سلالته . ومن الطريف ان نلاحظ ان احتفالات الشيعة توافق مناسبات موت ابطالهم لا ولادتهم .

ومع ان الشيعة يحجون الى مكة فانهم لا يكتفون بالحج اليها ، بل لهم مقدسات أخرى تكاد تساويها في القداسة ، مثل مقام علي في النجف ومقام الحسين في كربلاء ومقام [علي بن موسى] الرّضا ، الامام الثامن ، في مشهد . ويذهب آلاف الشيعة من العراق كل سنة

الى مشهد للزيارة ، ويأتي الايرانيون الى كربلاء والنجف للغرض ذاته . ويركبون احياناً « باصات » جللت بالسواد ، ويأتي بعضهم بسياراتهم الخاصة . وكثيراً ما يبيعون السجاد والآنية التي يستجلبونها معهم بل ومعاطفهم المصنوعة من فراء الماعز ليحصلوا على المال اللازم للعودة . وزيارة مشهد خطرة للحاج الفقير الذي يتوجه اليها على قدميه لان عليه ان يجتاز صحراء دشتِ ـ كبير اذا جاء من الغرب وصحراء دشتِ ـ لُتْ كبيرة اذا جاء من الجنوب . ومن الأمور العادية ان تشهد في الطريقين جماعات من الحجاج او عائلات تحمل الجرار الفارغة وتطلب الماء . ويعجز بعض هؤلاء عن الوصول الى مقصدهم .

ولا يتطلب حج مشهد أية ملابس خاصة وترى كثيرين من الحجاج هناك باللباس الأوروبي . ولا يتطلب ايضاً اي جهد بدني ويمكن انجازه في بضع ساعات . فاذا اتم الحاج طوافه حق له ان يسمي نفسه « مشهدي » وهو لقب اقل مكانة من لقب « حاجي » ، ولكنه محترم بين الشيعة . بل ان لقب « حاجي » نفسه يحتاج الى بعض التحفظ لأنه يستعمل في بعض الأحيان بين الشيعة ، اسماً لا لقباً ، ويخلع على اولئك الذين يولدون في شهر ذي الحجة ، كما قد يسمى « رمضان » ـ مثلاً ـ طفل ولد في شهر رمضان .

والشيعة الاماميون يحبون التنظيم التدرجي الذي يستغربه عرب الجزيرة ، وهم بذلك يشبهون فرعهم الثانوي ـ الحشاشين ـ ويشبهون الأتراك . وعلماؤهم ينتظمون في مراتب متدرجة ، ارفعها مرتبة المجتهد . والمجتهد يعادل العالم عند اهل السنة . ويجتمع في كربلاء والنجف جماعات من المجتهدين الذين يفتون في امور العقيدة والشريعة . ويرجعون في اجتهادهم الى كتبهم التقليدية الخاصة الموازية لمذاهب السنة الاربعة ، ولكنهم يختلفون عن السنة في اعطائهم مجالاً اوسع لاصدار الحكم الشخصي ، لانهم يشاركون في النور الداخلي الذي يمتلكه الأئمة . ويعين

الشاه في ايران مجتهداً في كل مدينة رئيسية ، اذ ان التشيع هناك دين رسمي . ويقوم هـذا المجتهد بوظيفة السلطة الدينية العليا . فهو يشبه المفتي الأكبر او شيخ الاسلام عند العثمانيين .

وفي استطاعتنا ان نقول ، بعد ان درسنا المذاهب والفروع ، بأن الاسلام دين عالمي يقارن بالمسيحية والبوذية . فما من دين يضم ملايين الاتباع في عشرات البلاد ، ويتعرض للتأثيرات المحلية من اختلاف في المحيط والظروف التاريخية ، يستطيع ان يحافظ على تركيب جامد . وفي تنوعه يكمن مصدر من مصادر قوته .

ومن المصادر الأخرى لقوة الاسلام عنايته الفائقـــة بالمحافظة على التوازن في داخل كل مجتمع ، وعلى العلاقات الطيبة بين المجتمعات ، وذلك عن طريق مساعدة الفقراء والمحتاجين والأهتام براحة أبناء السبيل والضاربين في الأرض . وقد رأينا كيف تقوم الزكاة بقسط من هذه المهمة ، ورأينا مقدار دقة المبادىء المتبعة في حسابها . وتقوم الأوقاف بقسط آخر من المهمة عينها ، وهي منتشرة في البلاد الأسلامية كلها ، وتدعى في شمال افريقيا باسم « الحبوس » . ولكل طائفة اسلامية اوقافها ، وكذلك الطوائف المسيحية في سوريا ولبنان ، فان لها اوقافها ايضاً .

والوقوف او الحبوس مؤسسة خيرية . فقـد ينص تاجر ثرى في وصيته على تخصيص جزء من ثروته الى وقف مـا . وقد ينشىء وقفاً خاصاً اذا أراد . وبعض الأوقاف الغنيـة مخصصة لمقامات الأولياء او للمساجد والمباني الدينية اذ تقدم المال اللازم للعناية بهـا . ومن أمثلة هذه الأوقاف الوقف المخصص للعناية بضريح الامام الرضا في مشهد . وبعضها ينص على توزيع قسم من الريع على أفراد معينين ، يكونون في الغالب من ذرية الواقف . وهذا يصدق بشكل خاص على العائلات التي تنتسب الى الرسول . وبعضها موقوف لأغراض خاصة ، كالوقف

التركي المخصص لاعـادة بعض فراخ الطيور الى اعشاشها(٥) ، والوقف المخصص لاطعام الحمام في فاس ، وذلك لان الحمام يزرق في ساحات الجامعة ، ويجمع الطلبة زرقه ويبيعونها للدباغين ، ولذلك فان الاهتمام بالحمام هو نوع من المساعدة التي تقدم للطلبة بشكل غير مباشر . ويتحدث ابن بطوطة عن وقف في دمشق أقيم لشراء الأواني الصينية تعويضاً لما يكسره الخدم والعبيد من تلك الأواني ، وإنقاذاً لهؤلاء من قِصاص أسيادهم(٦) .

ويعـدد ابن بطوطة ايضاً خمسة أصناف أخرى مهمة من الوقف في تلك المدينة للأغراض التالية : اوقاف على العاجزين عن الحج ، يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته وأوقاف على تجهيز البنات الى أزواجهن وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن ، واوقاف لفكاك الأسرى ، وأوقاف لأبناء السبيل منهـا يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ، وأوقاف على تعديل الطرق ورصفها* . وان تنوع هذه الأمثلة ليدل على المدى الواسع الذي كانت تخصص له هذه الأوقاف .

وقد يكون الملك الموقوف أرضاً زراعية أو عقاراً مستغلا ، كأن يكون عبارة عن صفٍ من المخازن او مدبغة ، ولا يكون نقـداً موظفاً في السندات ، لأن ريع السندات نوع من الربا المحرم في الاسلام (مع انه مسموح به للنصارى واليهود) . ويؤمن نظام الوقف العمل لالآف الاشخاص ، لأن الفقير الذي لا ملك له يستطيع ان يشتغل عند الوقف ، وقـد يكون الوقف مالكاً بالفعل لقسم من قريته او للقرية كلها . وهناك بلد واحد على الأقل تدفـع فيه الأوقاف حصصاً

---

(٥) حديث خاص مع ميرون ب. سمث (Myron B. Smith)

(٦) ابن بطوطة ١ : ٢٣٨ ط. باريس .

* راجع ابن بطوطة ١ : ٢٣٧ وما بعدها .

من الحاصلات الزراعية تزيد عن الحصص التي يدفعها المالكون العاديون ، وكذلك يؤمن الوقف لصاحب المتجر وللصانع شروطاً أفضل ، لانه لا خوف من بيع الوقف للملك واجباره المستأجر على الاخلاء تبعاً لذلك . ولا يجوز بيع املاك الوقف ، مع انه يجوز في احوال خاصة استبدال بعضها بأملاك عينية أخرى بعد كثير من المساومة الشديدة . ويدير الوقف موظف يدعى الناظر ، يرأس لجنة من المتولين ويعتبر مسؤولاً امام الحكومة . فاذا كان الوقف كبيراً أصبحت المسؤولية واسعة تطلب تفرغاً كاملاً من جانب عدد من الموظفين . وكل مسجد يعتبر وقفاً ، لأنه اذا قام رجل بانشاء مسجد من ماله الخاص فانه يفقد ملكيته لذلك المسجد بمجرد الصلاة فيه ، وتنتقل مسؤولية ادارته الى الوقف . والمساجد القروية الصغيرة ، كمساجد المدن الكبيرة ، لها اوقافها التي تستخدم العمال الذين لا أرض لهم ، وتضيف ابناء السبيل والسائحين . واعداد مؤسسات الوقف في البلاد الاسلامية عظيمة تفوق الحصر ، وفوائدها للمجتمع عميمة .

ولكن الوقف ليس بالمؤسسة الوحيدة التي تساعد على حفظ التوازن في المجتمع . فالوقف يخدم في الدرجة الأولى لتقريب الشقة بين الرفيع والوضيع ، والغني والفقير ، والمقيم والغريب ، جاذباً كل طرف في اتجاه الوسط . ولكن المجتمع المعقد الذي يتصف بتقسيم العمل الى أقصى حد ، يحتاج الى وسائل اخرى للتقوية . وطبيعي ان ينقسم الناس في مثل هذا المجتمع الى فئات افقية مصنفة بموجب الثروة ، ومقدار العلم والتمدن ، ومستوى المعيشة . وهذه الفئات – وخصوصاً الأقرب منها الى الوسط – تحتاج الى تنظيم يتم من خلاله التفاعل بين أفراده ، وينتظم .

ولم يهيىء الرسول واتباعه الوسائل لتلبية هذه الحاجة لانهم لم يعيشوا في مثل هذا المجتمع ، ولكن الاسلام وجده بعد ذلك في البلاد المفتوحة شمالاً وشرقاً وغرباً . والنظام الاجتماعي العربي الذي عرفه الاسلام في

صدره والذي غذاه وانماه تكون من مجموعات من الوحدات الوثيقة الترابط عن طريق القرابة . ففي بـــلد كمكة كانت القبائل هي التي تحكم ، ولم تكن العلاقات بين القبائل طيبة دوماً . وقـد اتجه ولاء المرء لاقاربه . وكان شيخ القبيلة هو الحاكم في وحدة القرابة الواحدة . وتساوى أفراد العائلة كلهم ، وعوضت فروقات الثروة بالعون المتبادل .

وفي مدن كالقاهرة ودمشق وبغداد ، وفي الارياف المحيطة بهــذه المدن ، كان الناس يعيشون في أحياء او قرى . ومن بقيت عنده صلات القبيلة لم يلبث أن نسيها وأهملها مكتفياً بالاشارة اليها في معرض الفخار (مثل أنساب الامريكيين المنحدرين من أصل اسكتلندي) . وكانت هنالك حاجة الى شيء آخر ، وهذا الشيء هو عدد من « الجماعات » .

« والجماعة » مؤسسة ينتمي اليها أناس متساوون في المكانة متشابهون في المصالح لايجاد وسيلة يكملون بها الصلات الناجمة عن التفاعل بينهم في داخل الاسرة ، وفي العمل والهيئة الدينية الرسمية ، ولتوسيـع تلك الصلات ايضاً وزيادة امتدادها ، لانها قد لا تكون بحالها ذاك وافية مقنعة . ويجب ان يكون « للجماعة » التي يشترك فيها الناس ، لتصبح اطاراً لتفاعلهم ، نشاط مركزي واحد يشترك فيه الجميع . اما طبيعة هذا النشاط فانها تعكس الاهتمام الاساسي الذي تتعلق به تلك الجماعـة الخاصة . فقد أقام سكان السهول الهندية مثلاً جمعيات من المحاربين ، لان الحرب كانت مدار اهتمامهم الاول . وفي العهد الاسلامي القديم كانت الهيئة الاجتماعية تتجه نحو الدين وبالتالي فانها اتخذت شكلاً دينياً . وقد سهل المسيحيون والبوذيون هذا الاتجاه على المسلمين لانهم كانوا قد سبقوهم الى إيجاد رهبانياتهم وأديرتهم وما شابهها ، وكانت المؤسسة المؤلفة من الرجل التقي ومن حلقة اتباعه السائرين على هديه قديمة أصيلة ترجع الى عهد أنبياء التوراة الاولين .

ولو نظرنا الى الشعائر الاسلامية كما نص عليهـــا القرآن والرسول

وأيدها الصحابة ، نرى تأكيداً على أمرين : شعائر طويلة تستغرق كثيراً من الوقت ، من شأنها ان تحطم حدة الخلافات القبلية ، وتبلور المجتمع الاسلامي بمجموعه وفي اوسع اشكاله ، ثم اهتمام بالغ بحرفية الشريعة يتضمن كثيراً من الدقة في الجدل النظري . وقد جرى هذا الاهتمام الاخير على مستوى فكري عال ومارسه العلماء بالدرجة الاولى ، فلم يتيسر لدى هؤلاء العلماء وقت كاف ليصرفوه في دراسة الحاجات العارضة في حياة أتباعهم . وكان المجتمع الاسلامي خارج شبة الجزيرة العربية مقسماً الى اجزاء ، يحتاج كل منها رموزه الخاصة وتنظيماته وشعائره الخاصة ، لتسند المبنى الكبير كله . فهو مجتمع كالنّول محتاج الى خيوط تلحم وأخرى تسدي ، طولاً وعرضاً ، ومن ثم وجدت « الاخوانيات » او الطرق الدينية لتلبية هذه الحاجة .

وقد انحدرت هذه الطرق من حركة ابتدأت في الكوفة* في القرن الثامن بعد الميلاد ، على يد عدد من الزهاد المسلمين ، يشبهون قدماء الزهاد النصارى ، عرفوا باسم الصوفيين . وكلمة الصوفي مشتقة من الصوف ، اذ كان هؤلاء يلبسون ألبسة من الصوف تعذيباً لاجسادهم . وكانوا يجتمعون في حلقات لتلاوة القرآن . والقصد من هذه التلاوة ايجاد شعور مشترك بين افراد الحلقة يسمى « الحال » ، يستطيع الفرد خلاله ان يبصر الله بل وان يتحد به . واصل هذه الطريقة معروف ، لان الناس في جميع اطراف العالم يستخدمونها ، على كل مستوى حضاري وثقافي مهما يبلغ من التعقيد . وفي بعض انحاء امريكا جماعات لها طريقتها الخاصة في « الحال » ، يقبض افرادها على الافاعي ، ويقفزون في الفضاء ويهوون مفتوحي الافواه محملقي الابصار وقد استولت النشوة عليهم .

---

* قد يصعب تحديد اول مكان بدأت فيه هذه الحركات ، ولم تكن الكوفة سابقة البصرة في هذا المضمار — مثلاً — (المراجع) .

انها من افضل الطرق المعروفة واقلها كلفة ، لاشباع بعض المآرب البدنية والنفسية ، ولارضاء الجهاز العصبي ، وتصريف القلق العاطفي ، مع توحيد الفرد في جماعة متساوية في المكانة متشابهة في الاحوال . وهي افضل للرجل العادي القاطن في مجتمع مزدحم وارخص له من الكحول والزنا . ولما كانت دينية بطبيعتها ، فان المجتمع يتقبلها ، خصوصاً وانها لا تخلق اية اضطرابات .

وقل بين الفيزيولوجيين وعلماء النفس مَنْ درس تفاصيل هذه العادة التي تشبه تمارين اليوجي (Yogi) في التنفس ، وربما كانت مستنبطة منه(٧) . الا ان لدينا وصفاً ممتازاً وضعه الدكتور هاس (Haas) لدراويش الطريقة الرحمانية المعاصرة في الجزائر ، وسنتخذ منه مثالاً لايضاح هذه العادة . ان الشيء الرئيسي الذي يردده افراد هذه الطريقة وغيرها هو اسم الله ضمن بعض النصوص التعبدية . ولكل طريقة حلقات « الذكر » . وتتكون كل حلقة من الاخوان من صنفين : المحترفين وعامة الناس . ومن المحترفين الشيخ ومساعدوه ، وهؤلاء لا يصلون الى الحال ، اذ ان حاجاتهم الروحية تلبي بأشكال اخرى .

وتنقسم الشعائر الى ثلاث مراحل ، مرحلة استعداد وتمهيد ، ثم الذكر نفسه في دورات اربع مزدوجة ، ثم كشف الغطاء .

تبتدىء المرحلة الاولى على الشكل التالي : يجلس العامة من الاخوان متربعين في شكل دائرة ويجلس الامام او الشيخ خارج الدائرة . وبعد

---

(٧) نقلاً عن الدكتور وليام هاس الذي اجرى الدراسة التفصيلية الوحيدة التي استطعت الحصول عليها في هذا الموضوع Haas, « The Zikr of the Rahmaniyah Order, a Psycho - physiological analysis » The Moslem World XXXIII, No. 1 (January 1943), 16 - 28

ومن الجائز ان تكون الصين هي الاصل الذي استمد منه الذكر ، كما يقول زمبلي (Dr. S. van R. Cammann) . ولسنا نعرف التاريخ الدقيق الذي دخلت فيه تمرينات التنفس المنتظمة الى هذه الطقوس .

صمت يستمر بضع دقائق يبدأ الشيخ بتلاوة القسم الاول من الشهادتين ، « لا اله الا الله » ويردده مرة تلو مرة بصوت ايقاعي . ولا يستمر هذا طويلًا ، اذ ينتقل الشيخ الى قراءة بعض السور او الآيات القرآنية وينتهي بدعاء خاص بالطريقة . ويشترك بعض الأفراد من اخوان الحلقة معه مرددين كلماته بين الحين والحين ، كلما حركتهم الروح . وتستمر هذه المرحلة الاولى حوالي ربع ساعة يصبح الاخوان بعدها مستعدين للمرحلة التالية .

وفي المرحلة الثانية يقف أفراد الحلقة وينضم اليهم غيرهم ممن تأخروا في الحضور وكانوا منتظرين خارج الحلقة . ويدخل الشيخ الى الوسط ويشد الاخوان ايدي بعضهم بعضاً ويأمرهم الشيخ بالابتداء . وتستمر الفترة الاولى من هـذه الشعائر ثماني دقائق تقريباً يرددون اثناءها معاً « الله ، الله » ، مرات كثيرة ، ويزفرون مع المقطع الاول ويشهقون مع المقطع الثاني . وتصبح الاصوات مع الوقت وكأنها ها ـ ها ، ثم آ ـ آ ، وأخيراً تصبح مجرد صوتين حلقيين . ويحني الاخ ركبته مع الزفير في المقطع الاول ، ثم يعيدها الى وضع الوقوف مع الشهيق في المقطع الثاني .

ولا يشترك الشيخ في هذا كله ولكنه يراقب كل واحد من الاخوان بدقة . وتراه حيناً يقترب من احد الاخوان ويحدق فيه ، او يترك مكانه في وسط الحلقة ويقف بالقرب من احد افراد الحلقة بمثل اتجاهه ، مؤدياً نفس حركاته ، وكأنه يصحح له اخطاء اوتكبها . بمثل هـــذه العناية بكل فرد يستطيع الشيخ على ما يبدو ان يحفظ الجميع على نفس المستوى من الوعي .

وفجأة يعطي الشيخ امراً فتنتقل الحلقة الى فئة جديدة من الحركات هي عكس الحركات الاولى وأسهل منها . يشهق الاخوان بلطف عند المقطع الاول ويزفرون طويلًا عند المقطع الثاني ، وتثبت الارجل في

مكانها وتنتقل الحركة الى الصدور ، فتدفع الصدور مع الشهيق وترجع مع الزفير . وبينما يبلغ عدد الحركات في الفئة الاولى ستين حركة في الدقيقة ، لا يبلغ في الفئة الثانية سوى خمس وأربعين حركة وتستمر كل فئة لمدة ثماني دقائق . وفي الفئة الثانية يراقب الشيخ جماعته بدقة كما في الاولى . ويذكر الدكتور هاس ان الشيخ اخرج احد الاخوان من الحلقة التي شاهدها ووضع آخر في مكانه .

ويلاحظ الدكتور هاس ان هاتين الفئتين من الحركات تختلفان في الايقاع وفي مدى الجهد المطلوب . ففي الفئة الاولى يقوم افراد من خارج الحلقة – ربمـــا كانوا من مساعدي الشيخ – بالتصفيق بالايدي لتنظيم الايقاع ، لان حركات الفئة كلها ليست طبيعية . وينتقل الشيخ الى الفئة الثانية من الحركات عندما يلاحظ بأن الاخوان بدأوا يفقدون وعيهم . ويعود اليهم الوعي عند الحركات السهلة في الفئة الثانية ، اذ ان قصد الشيخ ان تحصل لهم نشوة لا غيبوبة .

ويجري تبادل الفئتين الاولى والثانية من الحركات بالشكل الذي وصفناه مرتين . وفي المرة الثالثة يتخـــلى الشيخ عن دوره الانفعالي ويسير بين الاخوان مقترباً من كل منهم بدوره . وفجأة يقفز أحدهم خارج الحلقة ويتحرك مستقلاً في حالة من النشوة وهو يردد « الله ، الله » في صوت مستعطف فيه مزيج موحد من الالم والسعادة[8] . وتصدر من الشيخ والاخ كلمات غير مفهومة خارج الذكر ، وعندما يصل الحماس اوجه ويمس جميع الاخوان ، يصيح الشيخ ويلوح بيده اليمنى ويحرك اصبعي السبابة والوسطى بسرعة مدة نصف دقيقة ، ويمـــد يديه نحو الخلف والامام في ايقاع يختلف عن الايقاع السابق ويعود بالحلقة الى الفئة الثانية من الحركات .

---

(٨) Ibid., p. 23

وتسير الفئة الرابعة من الحركات على نمط الثالثة مع اختلاف واحد عند بلوغ الذروة ، فاذا حان دور الرجوع الى الفئة الثانية من الحركات ، هبط أفراد الحلقة على ركبهم وقاموا بحركات الصدر وكعاً ، وفي النهاية يسجدون ويضعون جباههم على الارض ويبقون ساجدين في شكل حلقة تشبه النجم حول الشيخ الذي يبقى راكعاً منتصب الجسم .

لقد دخلوا الآن في « الحال » . ويتركهم الشيخ بضع دقائق على هذه الصورة ويردد بصوت خفيض وترى « الله اكبر » مشدداً على المقطع الاخير . ويحرك رأسه نحو رأس كل اخ مردداً في مواجهته نفس الكلمات ، وبالتدريج يبدأ أفراد الحلقة في الاسترخاء ، فيمدون اطرافهم ويتحركون ويقفون على ارجلهم . ويقوم احد مساعدي الشيخ بمسح العرق عن جباههم ويقبل كلا منهم في رأسه ثم ينفض الجميع بعد ان استمرت الحلقة ساعة ونصف الساعة واتحد افرادها مع الله .

كفانا ما ذكرنا من التفاصيل . ان من السهل علينا ان نرى كيف ان المشاركة في مثل هذه الشعائر تدخـــل الى قلب المؤمن السكينة والاطمئنان . وواضح ايضاً السبب الذي يجعل العلماء الاجلاء ينظرون اليها بترفع . وقد لاحظ جب (Gibb) ان هذا النوع من الصوفية لم يلق اهتماماً من جانب العرب أنفسهم ، بل رحب به الداخلون الجدد في الدين الاسلامي من غير البلاد العربية ، اي اولئك الذين كان العرب يعاملونهم بشيء من الاستعلاء ، وعلى الاخص الاتراك والايرانيون ، والبربر ، الذين ربما كان لكل منهم شعائرهم الخاصة المشابهة لهذه الشعائر .

وينطبق وصف الدكتور هاس على طريقة واحدة فحسب . ولكل طريقة حركاتها التي توصل الى نفس الهدف . وهناك طرق فاسدة كطريقة العيساوة في مراكش التي تستعين على بلوغ الحال بالمخدرات ، وفي مقدمتها الحشيش ، وقد تبالغ في الحركات بحيث يدير افراد الحلقة رؤوسهم

وينحنون الى الارض ويلتقطون النفايات بأسنانهم . اما الحادثة فيقلدون الشيعة (او لعل الشيعة هم الذين يقلدونهم) في طبر الرأس وايلام الجسد . وهذه الطرق موزعة توزيعاً واسعاً لتلائم مختلف المستويات الاجتماعية . امـــا الطرق الفظه التي تستعمل في بعض الاحيان لبلوغ « الحال » فهي تلك التي يستعملها اوضع الناس بطبيعة الامر . ومن المؤكد ان الطرق الرفيعة ، كالطريقة التيجانية التي ينتمي اليها الاغنياء ورجال الحرف والاعمال لا تلجأ الى الحركات التهريجية ابداً ، ومن المفيد ان نعرف وسائلها .

لقد اوضحنا من وصفنا للذكر ان كل طريقة تتطلب نوعين من الفئات : المحترفين والعامة . ولكل طريقة مركز يشمل عادة ضريح مؤسسها . ولمعظمها زوايا موزعة في المدن المختلفة ، وقد توجد في بعض الاحيان في بلاد عديدة . وبيوتها ملك للطريقة ، فهي تشبه الوقف ، وقد يكون للشيخ احياناً سلطة بيع املاك الطريقة . ويمول عامة أفراد الطريقة منظماتها بتبرعاتهم وقد تخصص للطريقة بعض الاوقاف .

وقد ابتدأت كل طريقة في الاصل على يدي شيخ عالم[٩] تلقى العلم على يدي غيره من العلماء في احد المراكز المعروفة ، وأسس طريقته الخاصة ، اي اسلوبه في تفسير فلسفة الاسلام . فاذا جمع حوله بعض الاتباع اقام منظمته الخاصة التي تعرف بالرباط . وكلمة مرابط الشائعة في شمال افريقيا مشتقة من الرباط .

وقد بذل العلماء جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً في دراسة اصول الطرق المختلفة التي تتداخل كثيراً . ووجدوا ان اول طريقة بالمعنى الحديث هي الطريقة القادرية التي اسسها سيدي عبد القادر الجيلاني ، وهو من

---

(٩) ان كلمة « شيخ » تعني في الاصل القائد او الزعيم لا اكثر . وقد تطلق على زعيم قبيلة او زعيم جماعة دينية .

اهالي جيلان الواقعة في ايران على شاطىء بحر قزوين . والرباط الرئيسي لهذه الطريقة في بغداد ، ولها فروع عديدة ممتدة من مراكش الى الهند وقد اخذت عنها آلاف الطرق الأخرى .

ويتحدث ابن بطوطة عن زوايا المتصوفة التي شاهدها في القاهرة سنة ١٣٢٦ فيقول :

« والامراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا ، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء ، واكثرهم الاعاجم ، وهم اهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف ، ولكل زاوية شيخ وحارس . وترتيب امورهم عجيب ؛ ومن عوائدهم في الطعام انه يأتي خديم الزاوية الى الفقراء صباحاً ، فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام ، فاذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسان خبزه ومرقه في إناء على حدة ، لا يشاركه فيه احد ؛ وطعامهم مرتان في اليوم ، ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ، ومرتب شهري من ثلاثين درهماً[10] للواحد في الشهر الى عشر . ولهم الحلاوة من السكر في كل ليلة جمعة ، والصابون لغسل اثوابهم ، والاجرة لدخول الحمام ، والزيت للاستصباح ، وهم اعزاب ؛ وللمتزوجين زوايا على حدة[11] » .

وتشكل هذه الطرق احد الحوافز التي تدفع الافراد الى الانتقال من بلد الى بلد ، ومعظم زواياها مضافات تستقبل المسافرين ، وتنافس الجوامع وبعض الاوقاف في هذا المضمار . وعلى ذلك فقد كان لها اثر عظيم في تناسق الثقافة الاسلامية وجعلها ثقافة عالمية . ورغم ظهور القومية الحديثة وفئة المثقفين بالثقافة الغربية في البلاد الاسلامية ، فان

---

(١٠) الدرهم عملة فضية اسلامية تزن حوالي ١٤ قيراطاً Hughes, Dictionary of Islam p. 85.

(١١) ابن بطوطه المصدر السابق ١ : ٧١ - ٧٢ .

مهمة الطرق لم تنته بعد . فقد كانت الطريقة الدرقاوية في مراكش ، ورباطها الرئيسي في طنجة ، منظمة محكمة التنظيم ذات فروع في افريقيا الشمالية كلها ، حتى ربيع سنة ١٩٥٠ عندما سجن شيخها سيدي احمد بن صادق بتهمة التحريض على الثورة في الجزء الذي كان الاسبانيون يسيطرون عليه من البلاد المراكشية . وهذه القصة لم تنته بعد .

وثمة طريقة اخرى قوية هي الطريقة السنوسية في برقة[١٢] . وبرقة بقعة غنية بالماء ، ذات سهل ساحلي ضيق تربض وراءه الصحراء . كان يقيم في هذه البلاد قبل الغزو الايطالي – ذلك الغزو الذي كان من اوحش ما قامت به امة نصرانية في العهد الحديث – مئة وخمسون الفاً من البدو ، متصلون بالعالم الخارجي بواسطة خمسة وعشرين الفاً من العرب القاطنين بالمدن وثلاثة آلاف او اربعة آلاف من اليهود وانفار من الاوربيين . وقد انتظم البدو في قبائل مستقلة اشتركت في المراعي الموسمية وكانت تقع بينها بعض الاختلافات . ولم يختلف تنظيمهم الاجتماعي والسياسي العام كثيراً عن احوال البدو في عهد الرسول ، وما كانوا مسلمين الا بالاسم . وكان لبعض الطرق الصوفية زواياها ، ولكن هذه لم تتجاوز المدن ، لانها تعالج احوالاً خاصة بالمدن لا وجود لها بين البدو .

وفي سنة ١٧٨٧ او حولها ولد رجل ورع يدعى السيد محمد بن علي السنوسي بالقرب من مستغانم في غربي الجزائر وتلقى العلم في فاس بارشاد الطريقة التيجانية ، ثم رحل الى مكة ، وجمع اتباعاً كثيرين في طريقه . واقام ست سنوات في مكة ثم عاد الى موطنه ، فوجد ان الفرنسيين قد احتلوه ، وعندها قفل راجعاً الى الحجاز ، حيث اقام ثماني سنوات اخرى . وفي هذه الفترة اوثق صلاته بشيخ الطريقة

---

(١٢) وصفها (E. E. Evans Pitchard) وصفاً مدهشاً في كتابة The Sanusi of (Cyrenaica) والمؤلف استاذ علم الانساب (الانثروبولوجيا) في جامعة اوكسفورد .

القادرية في مراكش[١٣] ، وعندما نفي هـــذا الشيخ الى اليمن بتهمة الزندقة ، ذهب السنوسي معه . ومات استاذه في المنفى سنة ١٨٣٧ ، فعاد هو الى مكة حيث أسس طريقته . ولم يؤسسها الا بعد ان جرب عدداً من المذاهب الصوفية والطرق . فوضع نظاماً جليـــلاً كريماً ، محافظاً ، ووجه اهتمامه نحو البدو الذين لم تكن تهمهم الامور الدينية قبلاً .

وفي سنة ١٨٤١ أخرجته السلطات التركية من مكة بالاتفاق مـع الزعماء الدينيين للمدينة ، فذهب الى برقة واقام المركز الرئيسي لطريقته بالقرب من بنغازى سنة ١٨٤٣ . وعاد الى مكة بعد سبع سنوات ، وفي سنة ١٨٥٦ نقل مركزه الى واحة جغبوب التي لم تكن مأهولة من قبل . وهنا لم يؤسس مجرد رباط فحسب ، بل أسس جامعة لا يفوقها سوى جامعة الأزهر بالقاهرة . وقد توفي في جغبوب ودفن بهـا سنة ١٨٥٩ . وتقع جغبوب على ملتقى طرق القوافل الذاهبة الى السودان والقوافل المشرقة والمغربة بين شمال افريقيا ومصر . وهكذا اصبحت مركزاً للمسافرين الذين استضافهم السنوسي واتباعه .

كان لديه فئتان من الاعضاء : الاخوان ، وهؤلاء متعلمون يجيدون القراءة والكتابة ويتلون الذكر ، والمنتسبون ، وكانوا من الأميين وقد دخلوا الطريقة لان شيوخ قبائلهم كانوا اعضاء فيهـا . ولم يطلب منهم اتباع طقوس دينية ، اذا لم يهتموا بتلك الطقوس ، وقد دخل الشيوخ الطريقة لانها هيأت لهم بعض الامتيازات . فكان لهم ان ينزلوا ضيوفاً في زوايا الطريقة الواقعة على طرق القوافل ، التي استطاعت بما خصص لها من أوقاف ان تؤدي واجبات الضيافة . والى جانب ذلك اخـــذ السنوسيون يقومون بالدور الذي كان أتقياء الرجال يقومون به قبلاً ، ولكن بشكل غير منتظم ، وذلك هو التحكيم في الخلافات بين القبائل والعمل على حفظ السلام .

(١٣) اسس الطريقة الاصلية مولاي او سيدي عبد القادر الجيلاني .

وقـــد نظمت الطريقة على الشكل التالي – كان على رأسها شيخ الطريقة . وهنالك « الخواص » الذين يقدمون له المشورة ، وهم حلقة صغرى من ابناء مؤسس الطريقة وأحفاده مضافاً اليهم واحد او اثنان من علماء الاخوان من غير الأقرباء . وعلى المستوى التالي كان شيوخ الزوايا المتفرقـة الذين أعطيت لهم صلاحية رسم الاخوان وادخالهم ، فاذا اصبح الفرد من الاخوان سمح له بالعمل على ادخال العامـــة في الطريقة .

وبانتشار التجار العرب والقادة السياسيين في فزان وكفرة بالسودان وفي اواسط السودان ، انتشر السنوسيون الى جانبهم وانشأوا زواياهم . وقد اصبحت هذه الزوايا مراكز اجتماعية للمسافرين والداخلين حديثاً في الدين وعندما احتـل الفرنسيون هذا الجزء من افريقيا ، قتلوا شيوخ الزوايا وفعل مثلهم الايطاليون في برقـة . وهنا اتجه شيخ السنوسية اتجاهاً عدائياً عنيفاً ، وانقلبت طريقة الدراويش المسالمة الى جيش محارب .

ليس كتابنا هذا كتاباً عن التاريخ الحديث – وهنالك كتب سجلت أعمال السنوسيين في برقة ومصر – ويكفي ان نذكر ان الشيخ الحالي للطريقة أعلن ملكاً على الولايات الثلاث التي تتكون منها ليبيا . ولكن اين الملك الدنيويّ من الحلقة الصغيرة التي كانت تضم رجالاً يلبسـون ألبسة الصوف ، ويسبحون في نشوة فائقة باسم الله ؟ !

وهناك بون شاسع ايضاً بـــين السنوسيين وبين الدراويش الرفاعية الجوالين الذين كانت بقاياهم تشاهد الى ما قبل سنوات قليلة في أسواق مراكش وهم يعضون رؤوس الأفاعي السامة ، وكان احد رجال طريقتهم يشتغل في سرك « رنجلنج براذرز بارنوم » (Ringling Brothers-Barnum) ، وفي سيرك بيلي (Bailey Circus) حيث يلعق الحديـد المحمى بلسـانه ، ومثلهم بقايا الحواة في ايران الذين يتخذون من أعمالهم وسيلة للتسـول ، ولكن دون ان ينتموا الى اية طريقة منظمة . ان حرفة الحواة التي

تقف على حافة عالم الدراويش وعند نهايتها قد أخذت تتلاشى . وكانت قبل مئة سنة قوة لا يستهان بها في العالم الاسلامي كله وبقيت كذلك الى ما بعد ذلك التاريخ بكثير في بلدان اسلامية عديدة . وكان من عادة الدراويش في ايران ان ينصبوا مخيماً لهم في مواجهة بيت احد الاغنياء ويزعجوه ازعاجاً عظيماً ، فيضطر الى دفع المال لهم ليرتحلوا من جواره . وفي بعض انحاء ايران الجنوبية وبلوجستان ، تجد من يدعون انفسهم دراويش ولكن من الجائز ان يكون بعضهم من سلالات بعض الجماعات العرقية المنحطة الشبيهة بالزط ، ممن اقتبسوا النواحي غير العقلية من حياة الصوفي المتسول ، وانتهجوا هذه الحياة طمعاً في الكسب وجرياً وراء الرزق .

وتشترك المنظمات الصوفية في اداء وظيفة واحدة مشتركة وذلك بالرغم من تنوعها واتجاه بعضها الى التشابك مع مؤسسات متباينة مختلفة . ووظيفتها هذه هي انها اجهزة لتنظيم الجماعات المتشابهة وتثبيتها في ظل الحكومات العادية ، وفي ظل الأنظمة السياسية الاسلامية المألوفة . وهي تزيد في أعداد قطع الفسيفساء التي تحدثنا عنها وفي تنوعها . ومهما تكن عقائدها وشعائرها غريبة وبعيدة عن السنّة فانها تقع داخل إطار المفاهيم الاسلامية .

وهناك مجموعة ثانية من المنظمات التي حققت أغراضاً مشابهة ، وأقامت نظماً تدرجية تختلف درجة المساهمة فيها ، وأعطت المؤمن الشعور الصوفي الذي ابتدأت منه جميع الطرق الصوفية . وشعور الاتحاد مع الله . وتلك هي المذاهب الزنديقية ، المبنية على اجزاء مقتبسة من الاسلام والنصرانية وغيرها من العقائد ، والتي نمت وما زالت تعيش في مناطق الحدود بين الثقافة الاسلامية والبيزنطية ، في الفترة الواقعة بين هجرة الرسول وسقوط القسطنطينية اي بين سنوات ٦٢٢ و ١٤٥٣ ميلادية . وهذه الحدود تسير محاذية لجبال لبنان وسوريا شمالاً وشرقاً حتى كردستان .

وتلك الجبال عالية تثبط السنيين عن اللحاق بهذه الجماعات من الزنادقة ، وهي بعيدة عن المراكز الثقافية بحيث تمكنت جماعات كثـــيرة من الزنادقة من ان تعيش فيها وتطور عقائدها وتبلورها .

ولسنا نُعني هنا بالفروع المسيحية ، مهما تكن عتيقة ومنحرفة ، ولا بالمذاهب الاسلامية المماثلة مثل الحشاشين والمتاولة ، بـل بأنظمة دينية تتبعها جماعات صغيرة محصورة في وديان جبلية في المنحدرات السحيقة . وتعتبر هذه الأنظمة أدياناً مستقلة . وهناك اربعة منها هي الدروز ، والنصيرية ، واليزيديون ، والعلي ـ الاهليون .

يبلغ عدد الدروز مائة وأربعة وعشرين الفاً ما زال الكثيرون منهم يسكنون جبل لبنان ــ موطنهم الاقدم . وفي سنة ١٨٦٠ قام الفرنسيون الذين كانوا دائماً اعداء للدروز ، بطرد اعداد كبيرة منهم . ويقطن معظم هؤلاء اليوم في هضبة حوران التي اصبحت تعرف باسم جبـــل الدروز . وقد هاجر كثيرون منهم ، ولهم جاليات في فلنت بولاية متشيجان وفي دانبري بولاية كونتكت بأمريكا ، وفي مناطق اخرى من امريكا . وهم يعملون في موطنهم في فلاحة الارض ورعي الاغنام ويملكون اراضي يشتغل بها قرويون مسيحيون . ويحكمهم عشر عائلات كبيرة ، لكل منها امير وقصر . وكثيراً مـا تتنازع هذه العائلات وتتحارب ايام السلم ، فاذا وقعت الحرب ، اتحدت ضد العـــدو ، فالدروز محاربون أشداء .

وهم يصنفون انفسهم في طبقات ثلاث ، أعلاهـــا تتكون من اولئك القلائـل الذين يعرفون جميع اسرار الدين وشعائره . ويلي هؤلاء طبقة « العقّال » الذين يدرسون تلك الأسرار ، ويرتقي بعضهم حتى يصل الطبقة العليا . وهؤلاء يلبسون البسة خاصة ويحافظون على بعض الالتزامات الخاصة فلا يدخنون ولا يشربون القهوة ولا الكحول . اما الباقون الذين يشكلون خمسة وثمانين بالمئة من الناس فهم العامـــة او

« الجهّال » الذين لا يعرفون شيئاً من الأسرار بل يطيعون الاوامر ويقيمون الشعائر حسبما يؤمرون .

ويعتقد الدروز بالتقية[١٤] . ومعنى هـذا انه يجوز عندهم التظاهر بالانتماء الى دين آخر اذا لزم الامر للمحافظة على سلامتهم . ومع انهم لا يتحدثون عن ديانتهم فانها معروفة بعض الشيء .

وقد ابتدأت ديانتهم مع المذهب الاسماعيلي الذين نشره الفاطميون ، مثلها مثل كثير غيرها من الديانات المنحرفة . فقد كان الخليفة الفاطمي السادس ، الحاكم بأمر الله (٩٦٦ – ١٠٢٠ ب. م.) شاباً منفراً غريب الاطوار أمر رعاياه بأن يعملوا في الليـل وينامو في النهار ، وأرغم النصارى على ان يحملوا صلباناً خشبية ثقيلة في الشوارع ، بينما فرض على اليهود ان يجروا صنماً كبيراً يمثل العجل البرونزي المذكور في التوراة وفي القرآن . ودعا فتيان القاهرة الى مأدبة ثم سجنهم في أحد المساجد وبنى حولهم الحيطان وتركهم يموتون جوعاً . ولم يأسف احد عندما خرج الحاكم ذات يوم الى الصحراء راكباً حماراً أبيض ، واختفى دون ان يظهر له أي أثر .

غير ان حياته أثارت كثيراً من التأويل ، خصوصاً بـين أولئك الذين لم يعرفوه ، ومن هؤلاء رجل فارسي يدعى اسماعيل الدرزي ، فبنى من اسطورة اختفاء الحاكم ، وارتقاب ظهوره مذهباً عرف باسمه . وبعد ذلك جاء فارسي آخر يدعى حمزة ويلقب بالهادي ، وكتب عدداً من الكتب المقدسة التي يقال إنها تشكل اساس الديانة الدرزية . وهذه الكتب معروفة لدى العلماء الذين يهمهم بحث تاريخ الدروز وعقائدهم ، وهي تؤكد وحدة الله وتزعم بأن الله قـد تجسد في شكل انساني

---

(١٤) التقية موجودة عند الشيعة على وجه العموم ، ولهـا مثيل في الاديان الاخرى ، وقد مارستها جماعات المسيحيين الاول . « حديث خاص » .(Dr. Calvalry)

سبعين مرة ، وتقول بالتقمص وحلول الأرواح . وبالرغم من معرفتنا لكتب الهادي فاننا لا نعرف كل اسرار الدروز ، لان الشعائر الرئيسية تؤخذ تلقيناً او تقليداً .

ويعيش بين الاسكندرونة واللاذقية في جبال سوريا الشمالية التي تشكل امتداداً لجبل لبنان ، عدد مساو من أفراد مذهب آخر من المذاهب المنحرفة ، هم النصيريون . وهم من المزارعين والرعاة الذين يعيشون في عزلة كبيرة . وهم باطنيون ايضاً ، يتكيفون حسب الظرف كلما هبطوا المدن ، وكلما دعت الحاجة . ولهم ايضاً كتابهم المقدس ، وهم يقسمون انفسهم الى ثلاث طبقات حسب مرحلة التعمق في الدين . ويعتقدون بثالوث يعتبر ان علياً هو الله ، ومحمداً ، الذي خلقه علي هو الاسم ، وسلمان الفارسي هو الباب . وهم ينقسمون الى مذاهب أربعة ، ثلاثة منها تجعل الثالوث المتقدم متطابقاً مع ثالوث الشمس والقمر والأسد ، اما المذهب الرابع فيعبد الهواء على اعتبار ان الله خاف عن العين .

ويتكلم الدروز والنصيريون اللغة العربية . اما الفرقتان الباقيتان وهم اليزيديون والعلي الاهيون فهم من الاكراد . واليزيديون جماعة من المزارعين الذين يعيشون في جبل سنجار في أقصى الشمال الشرقي لسوريا ، ويعيش غيرهم في بعض القرى العراقية وفي أرمينيا السوفييتية . وهم ينقسمون الى عامة وكهنة . والعامة عندهم – كما هو الحال عند الاكراد عموماً – تشمل النبلاء والدهماء ، اذ ان التمييز بين الصنفين مطاط مرن . (وسنوضح هذا الامر فيما بعد) . والكهنة ست طبقات ، ارفعها طبقة الشيوخ ، وجميعهم ينتسبون الى مؤسس الفرقة الشيخ عادي ويرأسهم الشيخ الأكبر . ويلبس هؤلاء الشيوخ الألبسة البيضاء . ويليهم الكهنة المسمون بير (وهذه الكلمة تعني العجوز ، باللغة الفارسية وبالتالي فانها تعني الرجل المقدس) وقد يكونون من الشيوخ والعجائز الذين

زهدوا في هذا العالم الفاني* . ويلي هؤلاء طبقة « القوّالين » وهم على نفس مرتبة الفقراء** . وهؤلاء هم المنفذون لاوامر الشيوخ ومهمتهم جباية الضرائب والهدايا من القرويين والحكم بين الاتباع . فاذا كانت اسباب الخصومة خارج نطاق صلاحياتهم أحالوها الى الشيوخ وأبلغوا المتخاصمين حكم الشيوخ فيها . والطبقة الخامسة من حيث العدد ، والرابعة من حيث المرتبة هي طبقة الاخان او الكهنة العاديين ، والسادسة طبقة « خدم موقد الشيخ عادي » ويقومون بدور المساعدين والخدم في الهياكل .

وبمعزل عن الدرجات الدينية ، ينتظم اليزيديون في قبائل كسائر الاكراد ، ويحكمون على نفس الاسلوب . ومع ان نظامهم الديني اكثر تعقيداً وتفصيلاً ، الا انه يوازي التنظيم الاسلامي المعروف عند غيرهم من الاكراد . وقد عاملت الحكومة العثمانية اليزيديين بنفس التسامح الذي أبدته لغيرهم من الاقليات المغلقة المستقلة التي يصعب اخضاعها ، فضلاً عن ان اخضاعها لا يستحق ما يبذل فيه . ولئن كونت هذه الجماعات الزنديقية مرتباتها الخاصة الواسعة التفاصيل فان لذلك سبباً من غير شك . فهي جماعات موحدة من الناحية العرقية وتعيش كوحدة واحدة بالانعزال عن غيرها . والتدرج الكهنوتي فيها بديل عن النظام الفسيفسائي عند غيرها او العكس .

---

* يتميز البير عن الشيخ في انه يلبس الملابس السوداء (المراجع)

** الفقراء طبقة متميزة عندهم ويسمونهم ايضاً « قره باش » او ذوو الرؤوس السود ويمثل الفقراء طبقة اختيارية تتألف ممن يحب ان يضم اليها من الشيوخ والبيران . وهم يعيشون على الصدقات اما القوالون او المنشدون فهم طبقة دنيا من الكهنة ، ويبيعون للناس تراباً من قبر الشيخ « عادي » ، ويلبسون ملابس بيضاء وعمائم سوداً . قلت لعلها : الاوخان او « الاوان » وهم يكونون ادنى طبقات الكهنة مع « غلامِ وجاقِ شيخ عادي » (المراجع) . التي عدها المؤلف سادسة (المراجع) .

ومركز الشيخ عند اليزيدية مركز وراثي ، ولكنه يؤول الى الاولاد الذين يجتهدون في تحصيل المعرفة الدينية . والظاهر ان هناك أموراً تتطلب المعرفة من بينها تبجيل موقد الشيخ عاد وهو قدس الأقداس عندهم . ويعتقدون ايضاً بازدواجية بين قوى الخير والشر وبين الله والشيطان على الاسلوب الزورواستري ، ويبجلون العناصر الاربعة ، التراب ، والماء ، والهواء ، والنار ، ويقيمون الشعائر لتحية الشمس عند الفجر . وللشيطان المقام الأعلى في هيكلهم ، ويليه الملائكة السبعة المعروفة عند الساميين . ويليهم المسيح الذي ارتفع الى السماء وسيعود يوماً الى الارض . ولديهم أعداد كبيرة من الآلهة الأخرى ، وبعض هذه الآلهة محدود الوظيفة .

وتحتوي العقيدة اليزيدية على اعتقاد بالله ، وبمحبته اللامتناهية وبعبادة انبيائه ورسله وبمحبة الابوين ، ومحبة الجار ، ومساعدة الغير ، والصدقة للفقراء ، ومساواة الناس جميعاً امام الله . وتحرم لحم الخنزير والملابس الزرقاء وتقيد العلاقات مع المسلمين . ويعتقد اليزيديون بخلود النفس ، وبنفع التضحية للأجداد على قبورهم ، وبقدرة الأجداد على الشفاعة لهم عند الله . ويلحظ المرء في هذه العقائد لا مجرد العناصر الايرانية القديمة والعناصر المأخوذة من الاسلام والنصرانية ، بل يلمح ايضاً ظلا من بقايا الشعائر التي تذكرنا بشعائر الشعوب الوثنية التي تقطن جبال القفقاس ، وهي تخرج عن نطاق بحثنا .

وأخيراً وآخراً سنشير الى فرقة « العلي إلاهية » او « اهل الحق » ، وهي أقل هذه الفرق شهرة . وتسمى هذه الفرقة نفسها فيما بينها على ما يقال « أهل الله[١٥] » . ويروى اثنان من المبشرين البروتستانت

---

(١٥) Mrs. Isabella (Bird) Bishop, Journeys in Persia and Kurdistan (London, 1891), p. 85. S. G. Wilson, Persian Life and Customs (New York 1895) pp. 234 - 242

المشيخيين الذين قاموا بمهمة تبشيرية بينهم ، بأنهم يعيشون في عدد من قرى الجبال الواقعة شمالي كرمانشاه ، وانهم من الاكراد . وتقول السيدة بيشوب والسيد ويلسون اللذان دونت ملاحظاتها قبل ستين سنة بأن العلي ـ الاهيين موجودون في لورس (Lurs) ايضاً ، ويزعم ويلسون بأنهم يعدون بضع مئات من الالوف وينقسمون الى سبعة مذاهب*.

وبما انهم باطنيون يمارسون التقية فمن الصعب معرفة الكثير عنهم . وهم كالزوورواستريين يعتبرون النور مقدساً ، ويطابقون بينه وبين علي . ويعتقدون بالتقمص وبالفناء المطلق في اللامحدود . ولهم في بعض قراهم معبدان ، واحد للرجال وآخر للنساء . ويعتبر زعيم القرية رجلًا مقدساً ، يشفي الناس باللمس . ووظيفته وراثية . وهم يخاطبون علياً في صلواتهم ويستعطفونه ، ويقبلون الخبز ، ويأكلون ، ثم يدور الرجال ويهتزون حتى يصلوا الى حال من النشوة . ومع انهم ليسوا من الصوفية ، الا ان لهم ذكراً يرددون اثناءه قولهم « يا هو » .

ولهم في جنوبي كردستان جد يبجلونه وهو مرتبط بشكل من الاشكال بالملك سليمان ، ويزورون مقامه الواقع في احد الوديان ، ويقدمون له الاضاحي ، ويأكلون لحم الخنزير . وقد ابلغت السيدة بيشوب بأنهم كانوا من اليهود في يوم من الايام ، ويعتقد بعض المبشرين العاملين في هذه المنطقة بأنهم يحتفظون من غير شك ببعض العناصر المسيحية في عقائدهم وطقوسهم . على ان تبجيلهم للضوء يعود الى اصول فارسية قديمة . وبينهم قوم اعتنقوا المسيحية ودخلوا الكنيسة المشيخية في كرمانشاه .

وربما توهم القارىء من بحثنا هذا عن الانظمة الدينية الهامشية ،

---

* او ثمانية (راجع مادة علي الاهي في دائرة المعارف الاسلامية) .

والغامضة ، بل والسرية ان الوثنية موجودة بأشكال منحلة في بعض المناطق النائية دون غيرها . ولكن هـــذا ليس صحيحاً . ففي العالم الاسلامي كله ، كما في العديد من البلاد النصرانية ، ما زالت الطقوس القديمة والمحلية تشكل قسماً من شعائر الشعوب الامية ـ في الصحراء ، وفي الجبال ، وفي القرى وفي شوارع المدن . والاولياء يشفون المرضى من الاطفال بالبصق في افواههم ، وتقضي النساء ليالي تعيسة بين القبور أملًا في ان يحملن وينجبن البنين ، والخرزة الزرقاء تحمي الطفل والحصان من العين ، ورسم يد فاطمة على باب بيت ما يحمي أهله . وهـذه الوسائل كالصوفية ، تعتبر من بين الاجهزة اللازمة لحفظ التوازن في مجتمع أفقي . ويستنكرها الكثير من علماء المسلمين وفقهائهم ، ولكنها ما زالت باقية ، وما زالت تظهر بين الحين والحين ، كما ظهرت سيدة قرية فاطمة في البرتغال التي كانت يوماً ما من بلاد الاسلام .

الفصل التاسع

شعوب اخرى

الاتراك والمغول

كان الدين الاسلامي قد تأسس وانتشر من مراكش حتى الهند ، قبل ان يظهر على المسرح المحلي في الشرق الأوسط آخر شعب من شعوبه العظيمة وهو الشعب التركي ، الذي جاء أصلاً من السهول الواسعة الواقعة شمالاً ، اي من حيث جاء جدود الفرس والافغانيين والهندوس في أزمنة أقدم عهداً . ولا بد لنا من اجل فهم ثقافة الاتراك ومساهمتهم في حضارة الشرق الأوسط من العودة الى دراسة ما حصل في السهول المكشوفة التي كانوا يستوطنونها اثناء العصر البرونزي (انظر الفصل الخامس) . في تلك الازمنة لم يكن الاتراك قد عرفوا بعد ، ولكن أساتذتهم كانوا قد ظهروا .

وهؤلاء الاساتذة هم الشعوب المتكلمة باللغات الهند – اوربية ، وكانوا يتبعون أسلوباً في الحياة ، هو الاصل الذي اقتبست منه بعض العناصر البسيطة في الثقافة الغربية ايضاً ، ويمكن إعادة بنائه ورسمه بالرجوع الى مصادر متعددة ، منها ملحمة هوميروس الخالدة فهي مصدر من اقدم المصادر ، يصور لنا مجتمعاً مؤلفاً من ثلاث طبقات ، يعتاش من رعي الابقار والزراعة ، دون ان يكون عنده من الفنيين سوى

الحداد والنجار وطبقة الكهنة التي ترتزق من العناية بالمذابح المكشوفة المخصصة لعبادة اعداد كبيرة من الآلهة . وكانت الممالك صغيرة والمواصلات صعبة ، اذ اعتمد النقل ، باستثناء النقل البحري ، على عربات متعبة من غير مقصات او رفاصات ، تجرها الثيران او البغال ، فاذا اعدت لزيارة ملكيـة او للحرب جرّتها الخيول . وكان المحاربون في ملحمة هوميروس يغيرون على العدو طِراداً ، ويقفزون عن خيولهم ويحاربون ثم يركبون خيولهم كرة اخرى ويعودون .

وفي وقت ما بين سنة ١٠٠٠ ق. م. وعصر هيرودوتس (المولود سنة ٤٨٤ ق. م.) تعلمت الشعوب المتكلمة باللغات الهند - اوربية ان تركب الخيل بتشعيب الرجلين ، وان تطلق السهام من فوق ظهور الخيل عن اقواس قصيرة . وكان هذا الاكتشاف الذي مهد لاحـــد مؤسسي الامبراطوريات في الجنوب ، اكتشافاً ثورياً ، له مثل الاثر الكاسح الذي حققته الدبابات في الحرب العالمية الاولى . فهو يمكن القائد المحنك من تنظيم قوة متحركة من رمـاة السهام الفرسان ، ويكتسح هؤلاء السهول ويبنون امبراطورية قصيرة العمر ، ويجتازون سلاسل الجبال نحو البلاد المتحضرة في الشرق الأوسط . وهناك يغنم المحاربون الذهب والثياب الفاخرة وغيرها من وسائل الترف التي يشغف بها ابناء السهول ، ومن بينها ترف السلطة .

وفي الربيع يرسل هؤلاء السهليون قطعانهم الى المراعي وينقلون مضاربهم الى حيث يكثر الكلأ . فاذا جاء الخريف عادوا الى منازلهم الشتوية الواقعة في ثنيات الجبال وعند قواعدها ، حيث يزرعون الكلأ على المياه المتدفقة من الجبال ، ويشترون القمح من الفلاحين . وكان بعضهم يذهب الى ضفاف الانهر ، بدلاً من مواطنهم الجبلية ، حيث تستمد القرى ماءها عن طريق الريّ وتزرع القمح والكلأ . ونجم عن هذه الرحلات السنوية وحدتان اجتماعيتان : فكانت مضارب الشتاء تتكون

من عشرة بيوت الى مئة بيت ، بينما تتكون مضارب الصيف من بيتين او ثلاثة من الاقارب ومن معهم من الخدم والعبيد . وظهرت الحاجة الى الخدم والعبيد للقيام بأعباء الرعي لان الرجال كانوا من المحاربين ، اذ انحصر عملهم في الغزو وفي الدفاع عن انفسهم من غزوات غيرهم . وكان الغزاة يعودون معهم العبيد وبعضهم من النساء . وكان الصقيثيون يحتفظون بحريم من النساء اللواتي ينقلن في عربات اسدلت عليها الستائر دفعاً لعيون الفضوليين .

وكان شيخ المضرب الشتوي سيداً مطلقاً ، اذ لا بد من يد قوية لتنظيم الرحلات والغزوات ، وللاقتصاص من الغزاة المعتدين على ديرتهم . ويدين هذا الشيخ بالولاء لسيد أرفع منه ، وهذا السيد الارفع يدين بولائه للملك . وكان للملك جيش من الشبان النبلاء فاذا مات دفن تحت تل كبير في منطقة خاصة . وكان ينزل معه الى القبر كثير من الذهب الذي نقشه وزينه الاغريق من سكان شبه جزيرة القرم ، وينزل معه ايضاً عدد من النساء والحيوانات التي تذبح لترافقه في العالم الآخر . وحول التل يجلس حراس نبلاء مسمرين ، وعلى ظهور خيولهم المسمّرة ، ذلك لان الحراب التي اخترقت النبلاء والخيل ، قد وتدتهم بالتل الذي دفن فيه الملك .

ولقد قاد دارا الكبير حملة ضد السهول الشمالية لينقذ حدوده الشمالية من هذا الخطر . وأخذ الصقيثيون يظهرون من بعيد ليستدرجوا الغزاة ، ثم يختفون وراء الافق ، وقد أحرقوا وراءهم كل زرع ولوثوا كل ماء . واخيراً عندما التقى الجمعان ، ارسل دارا الى ملك الصقيثيين تراباً وماء ، يعني انه يطلب منه التسليم . ورد الصقيثيون على الرسالة بأن ارسلوا بدورهم طيراً ، وفأراً ، وضفدعة ، وخمسة سهام . ولم يفقه الفرس في بادىء الامر معنى هذه الرموز ، ولكن ما لبث احدهم ، ويدعى جبرياس ان فسرها بقوله :

« ما لم تستطيعوا ايها الفرس ان تتحولوا الى طيور وتطيروا في الفضاء ، او الى فيران وتختفوا في الارض ، او الى ضفادع وتسبحوا في المستنقعات ، فلن يكون في مقدوركم ان تنجوا من هذه الارض ، بل ستموتون فيها وقد اخترقت اجسادكم سهامنا[١] .

ولما عجز الفرس عن ان يتحولوا الى أي من هذه الاشياء فقد انتصر الصقيثيون عليهم . لقد أفرط دارا في تطويل خط مواصلاته مثلما فعل نابليون بعده بألفي عام ، وعجز عن اطعام جنوده ودوابه من الارض التي احرقها اعداءوه .

وغزا الصقيثيون آسيا الصغرى ، وسوريا وايران والعراق . وفعل مثلهم اقرباءوهم البارثيون بعد ذلك ، كما سبق ان ذكرنا[٢] . ووسعت شعوب تشبه الصقيثيين ممتلكاتها شرقاً عبر جبال الطاى الى مقاطعة تركستان الصينية والى حدود المقاطعات المسكونة في الصين العظمى ، حيث سجلت غزوتهم كتابة وفي صور نقشت بالطين والفخار . وهنا جابه المهاجمون الملتحون الذين يشبهون ابناء شمال اوربا الملتحين — جابهوا سكاناً قدماء من الشعوب المغولية الذين سرعان ما تعلموا اعتلاء السرج واستعمال القوس القصير القوي . واصبحت سهول منغوليا نقطة انطلاق ، كما كانت البلاد الواقعة بين البحر الاسود وبحر قزوين قبلا ، وظهرت أمم جديدة من الفرسان من رماة السهام .

وأول من اشتهر من هذه الامم هم الهون . فأزعجوا الصينيين الذين هزموهم وتغلبوا عليهم . واتجهوا غرباً هرباً من الصينيين ، فاجتازوا السهل الاوراسيوي ووصلوا حتى فرنسا ، حيث هزموا في معركة شالون سنة ٤٥١ ب. م. هؤلاء الهون كانوا من الناحية العرقية من المغول .

---

(١) Herodotus Historia, 1, BK. IV 338 132

(٢) انظر الفصل الخامس .

وانا لنعلم ذلك من الاوصاف المعاصرة لهم ومن جماجمهم التي اكتشفت في قبور ملكية تشبه قبور الصقيثيين في هنغاريا . امـــا اتباعهم فقد اخذوا من كل بلد يقع بين الصين وفرنسا وكانوا خليطاً من الشعوب ، وكانت لغة الهون شكلا من الاشكال القديمة للغة التركية .

واللغة التركية فرع من مجموعة لغات الاورال – الطاى التي تنقسم الى فرعين رئيسيين هما فرع اللغات الفنلندية والمجرية وعدد من اللغات السيبيرية ، واللغات الالطاوية كاللغة التركية والمغوليـــة والتونجسية (Tungus) والصمويدية (Samoyedis) . فاللغات الاوراليـة تتكلمها شعوب كانت اوربية من حيث العرق عندما عرفت اول مرة ، اما اللغات الالطاوية فتتكلمها شعوب كانت مغولية من حيث العرق عندما ظهرت اول مرة على مسرح التاريخ ، وينتمي بعض هذه الشعوب اليوم عرقياً الى الجنس الابيض ، كالأتراك العثمانيين .

وفي القرن السابع بعد الميلاد بدأت القبائل التركية تتغلغل في السهول الشمالية ، وفي حدود الصحارى الواقعة شرقي بحر قزوين ، وفي القرن العاشر كانت قد تملكت السهول في بلاد التركمان الحالية . وقد اعتنق الاتراك حينئذ الدين الاسلامي على مذهب السنة بتأثير المسلمين في مدن تركستان العظيمة ، وبقوا متمسكين بدينهم هـذا منذ ذلك الحين . وغزت بعض هذه القبائل المسلمة آسيا الصغرى ، وهذه هي قبائل الغزّ ، واسست فيها سلطنة سلاجقة الروم . ولم يكن بين رعايا هذه المملكة سوى قليل من الغز لان كثيراً من المسيحيين والاكراد كانوا قـــد استوطنوا اراضيها ، وبين اولئك المسيحيين يونان وارمن وسوريون . ولا بد ان عملية التمثل التي جعلت بر الاناضول تركياً في اللغة والحكم ابتدأت منذ ذلك الحين .

وفي القرن الثالث عشر احتل مغول جنكيز خان خوارزم ، وهي بلاد الواحات والمدن التي تدعى تركستان الروسية في ايامنا الحالية ثم

اتجهوا غرباً الى سرخس وجنديسابور الواقعتين في ايران الحديثة ، ثم احتلوا البلاد التي تدعي الآن اذربيجان ، وتم لهم بعدها فتح أرمينيا وكرجيا . وانطلق المغول من هنا بمساعدة الارمن والخيالة الكرج ففتحوا بغداد سنة ١٢٥٨ ، واسقطوا الخلافة العباسية . وكانت جيوش المغول شبيهة في تنظيمها بجيوش كورش ، وداريوس القديمة ، اذ تكونت من حرس من نبلاء شعب الحاكم ، ومن وحدات مختلفة مجندة من الشعوب التي تم تغلبهم عليها . وكان في عداد هذه الوحدات الاجنبية كثير من الاتراك ، بل ان الاتراك فاقوا المغول عدداً بمقدار كبير .

وبعد فتح بغداد جعل المغول تبريز عاصمة إدارية لهم في الشرق الأوسط وكبرت هذه المدينة حتى اصبحت اكبر مركز تجاري بين الشرق والغرب في ذلك الزمان ، وحلت محل بغداد في الاهمية ، واصبحت باباً تدخل منه السلع والتأثيرات الثقافية الصينية . اما لغتها فكانت التركية الآذربيجانية ، وهي تشبه التركية العثمانية من حيث اشتمالها على كثير من الكلمات العربية والفارسية . وأصبحت اللغة التركية لغة التخاطب بين المزارعين من القفقاس الى ما دون همذان . ومن الجائز ان يكون بعض هؤلاء المزارعين من الاتراك ، لان المغول واتباعهم الاتراك حرثوا الارض وراءهم ولم يتركوا فيها زرعاً ولا بشراً ، وقتلوا الناس بالالوف . وما زال الناس في العراق وايران حتى يومنا هذا يرتعدون لذكر هولاكو بن تولي حفيد جنكيز خان ومدمر بغداد ، رغم مضي ثمانية قرون على تلك الاحداث .

واستمر حكم السلالة المغولية في ايران والعراق حتى سنة ١٤٩٩ ب. م. ومع انه لم يبق منه في ايامنا سوى ذكراه القبيحة المفجعة ، فانه ترك آثاراً باقية . فما زال بضع مئات الالوف من المنحدرين من اصل مغولي يعيشون في القرى الواقعة شرقي ايران واواسط غربي افغانستان ، ويعرفون في ايران باسم البرابرة ، وفي افغانستان باسم

الحضارة . وهم اليوم شعب مسالم ، من المسلمين الشيعة ، يتكلمون اللغة الفارسية ، ويشتغلون عمالاً وخدماً في المدن .

ولكن النتيجة الاعظم هي تأسيس السلطنة العثمانية بعد سقوط مملكة سلاجقة الروم على ايدي المغول . وقد بدأت قبيلة من اتراك الاناضول بزعامة اميرها عثمان ، في امتلاك السلطة بالتدريج ، ولم تمض قرون قليلة حتى آلت اليها خلافة الاسلام ، وآل اليها الحكم الزمني لجميع بلاد العرب . ومن النتائج الثانوية لغزو المغول ازدياد التجارة وتبادل الاشخاص بين الصين والشرق الأوسط واستيطان بعض الصناع الصينيين في تبريز فعلاً . اما آثار ذلك في فن القاشاني ، وصناعة النسيج ، وتطور البناء والريازة وفن الرسم ، فمن الامور التي درست دراسة وافية ولا لزوم لتكرارها هنا .

ان اكبر مأثرة للأتراك والمغول على حضارة الشرق الأوسط الاسلامية تتصل بمجال الحكم ، ولكن لا بد لنا من ان نضع الموضوع في إطار الحضارة العامة لهذه الشعوب ، ليمكننا فهم دورهم هذا على وجه صحيح . ولا بـــد لنا هنا من ان ننقل بعض كتابات المؤلفين الذين عاصروا ظهورهم . فان الاتراك والمغول عندمـا ظهروا اول مرة اوقعوا في نفوس الناس الخوف والكره . وقد ذكر احد قدماء الكتاب الارمن(٣) ان المغول الاوائل :

كان لهم منظر يخيف المشاهد ، ويعجز المرء عن وصفه . فرؤوسهم كبيرة كرؤوس الثيران ، وأعينهم صغيرة كاعين فراخ الطير ، وانوفهم فطساء كأنوف القطط ، ولهم افواه بارزة كفم الكلب ، وجـذوع

---

(٣) Robert p. Blake and Richard N. Frye, « History of the Nation of the Archers, by Grigor of Akane, » Harvard Journal of Asiatic Studies, XII. Nos. 3, 4 (1949), 269-399 (1-131).

ضيقة كجذوع النمل ، وارجل قصيرة كأرجل الخنزير ، وهم مرد بطبيعتهم لا تنبت لهم اللحى . ولهم مثل قوة الاسود ، ومثل اصوات النسور . ويظهرون حيث لا يتوقع ظهورهم .

(اما رأي المغول في شكل الارمن فان احداً لم يسجله)

ان هذا الاستطراد الى الانثربولوجيا الجسدية يفسر لنا أحد الاسرار في نجاح الاتراك والمغول . فالشكل المغولي كان جديداً على الفرس والعرب والارمن فقذف في قلوبهم الرعب . ولم يستطيعوا ان ينسبوهم الى احـــد ابناء آدم حام وسام ويافث الذين ذكرتهم التوراة ، فاعتبروهم شيئاً دون الانسان وفوقه في آن واحد .

ولم يكن الطورانيون يغتسلون قبل ان يصبحوا مسلمين ، ويذكر ابن فضلان في وصفه للغز في القرن العاشر[٤] ان المسلمين المتجولين بينهم كانوا يغتسلون في الخفاء خوفاً من ان يظن الاتراك انهم يسحرونهم بالماء . وأبدى اعجابه لتحريمهم الزنا ، وبطريقة قصاصهم للزناة تقطيعاً وقد أدهشه ما عند نساءهم غير المحجبات من قلة الحياء ، مع أن هذا لم يؤثر في دقة وصفه لحياتهم كما يتضح لنا من الفقرة التالية :

ونزلنا في أحد الايام عند رجل منهم وجلسنا معه . وكانت زوجته حاضرة . وبينما كنت نتحدث كشفت الزوجة عن فرجها وحكته ورأيناه ، ثم غطينا وجهنا وقلنا « استغر الله » . فضحك زوجها وقال للمترجم قل له بأننا نظهره في حضورك لكي تراه وتستحي ، ولكنه لا ينال .. وهذا أفضل من ان يكون مستوراً وقريب المنال[٥] .

وبعد ذلك بثلاثة قرون كان معظم الاتراك قد دخلوا في الاسلام ،

---

(٤) R. P. Blake and R. N. Frye « Notes on the Risala of Ibn-Fadlan, » Byzantine Metabyzantina I, pt. 2 (1949), 7-37.

(٥) Ibid p. 14 (MS p. 21).

وكان المسلمون على وجه العموم راضين عنهم — حتى ابن فضلان ذاته — لو رآهم لرضي عنهم أيضاً . ولكن المغول ارتكبوا مخزيات عظيمة بالغة الخطورة . ويذكر جريجور آكانك (Grigor Akanc) الذي وصف فتح بغداد ان هولاكو خان « كان طيباً جداً يحب النصارى ، والكنيسة ، والكهنة[٦] » ويصف في مكان آخر كيف ان هولاكو أمر بالقاء الخليفة في السجن بدون طعام او ماء لمدة ثلاثة ايام . وبعد هذا الصيام القاسي استدعاه للمثول امامه . وطلب الخليفة في غضب طعاماً وشراباً ، فأمر هولاكو بأن يوضع امامه صحن من الذهب وقال للخليفة أنه لو أرسل الذهب قبلاً لما احتاج ان يأكله الآن[٧] .

وبعد ان ألقي بالخليفة بين الجند المغول ليقتلوه فكر في اهانة جديدة . ويذكر جريجور ما يلي :

كان هولاكو يحب النصارى حباً عظيماً حتى انه اخذ جزية أرمينيا خنازير في سنة من السنين ، بلغ عددها مئة ألف خنزير ، وأرسل الفين منها الى كل مدينة عربية ، وامر بأن يعين لها رعاة من العرب لغسلها كل يوم سبت بالصابون ، ولتقديم العلف لها كل صباح ، ولاطعامها باللوز والتمر في المساء ، وكل عربي ابى أكل لحم الخنزير - كبيراً كان ام صغيراً — كان يمزق ويقطع . وعلى هذا النحو كان اكرامه للعرب[٨] .

وهناك نقطة اخرى يرددها جريجور كثيراً وهي ان الخيالة الارمن والكرج هم الذين فتحوا بغداد المغول . فلو صح هذا فانه لا يساعد على ايجاد المودة والصفاء بين المسلمين وجيرانهم النصارى الشماليين ، الذين كان

---

(٦) Blake and Frye, « History of the nation of the Archers, » p. 341 (73).

(٧) Ibid pp. 333-334 (65-67).

(٨) Ibid p. 343 (75).

بمجرد اشتراكهم في هذه الحملة أمراً اليماً . وابلغ ضرراً من تدمير بغداد ، ومن اشتراك نصارى الشمال في هـــذا الغزو ، ذلك الضرر العظيم الذي انزله المغول بنظام الاقنية القديم في وادي دجلة والفرات ، فتحولت المزارع اليانعة بعده الى صحارى قاحلة . ولم يفق العراق من هذا الدمار حتى اليوم .

نستنتج من هذه المقتطفات أمرين : اولاً ان الاتراك والمغول كانوا يختلفون اختلافاً عميقاً عن المسلمين في المظاهر الرئيسية للحياة اليومية ، وانهم كانوا اوثق تنظيماً ، فالعرب فرديون الى حد الفوضى تقريباً ، ولم يكونوا حتى القرن الثالث عشر قد انشأوا لهم نظاماً رئاسياً متدرجاً او نظماً معقدة . فكان الكتبة عنـد العباسيين من الفرس والنصارى المتكلمين باللغة الآرامية ، وكان الحراس يجندون من الاتراك القاطنين في شمالي العراق وبر الاناضول . وعندما دمرت بغداد اصبحت الممالك المتباعدة في سوريا ومصر وشمال افريقيا والاندلس مضطرة الى الالتجاء الى مواردها وحدها . لقد حان الوقت لامبراطورية جديدة ، وأصبح جد مناسب لها . وكان الاتراك العثمانيون مسلمين من اهـل السنة ، تعلموا الوضوء والصلاة ، ولم تكن وجوههم تخيف قلوب المؤمنين لكثرة ما امتزجوا بغيرهم من الشعوب . وكانوا مستعدين لتحقيق تلك المهمة .

كانوا مستعدين لها لانهم احتفظوا بالتنظيم الاساسي الذي جلبه اجدادهم من بلاد السهول ، وبعد ان تعلموه من الاخوان الشرقيين للصقيثيين . وكانت اصغر وحدات مجتمعهم العائلة ، كما هو الحال عند غيرهم من الشعوب ، ولكن عائلاتهم كانت اكبر عدداً واكثر تنوعاً . وقـــد يكون لاحد الرعاة الاغنياء عدد كبير من الزوجات وربما سبي بعضهن في الحروب . فاذا مات ورث ابنه البكر الحريم ، فيما عدا امه . ولم تنشأ عندهم مشكلة على وراثة السيادة ووراثة المال أصلاً . فكل شيء يذهب الى الابن الاكبر ، فتبقى الاملاك والمناصب على وحدتها من

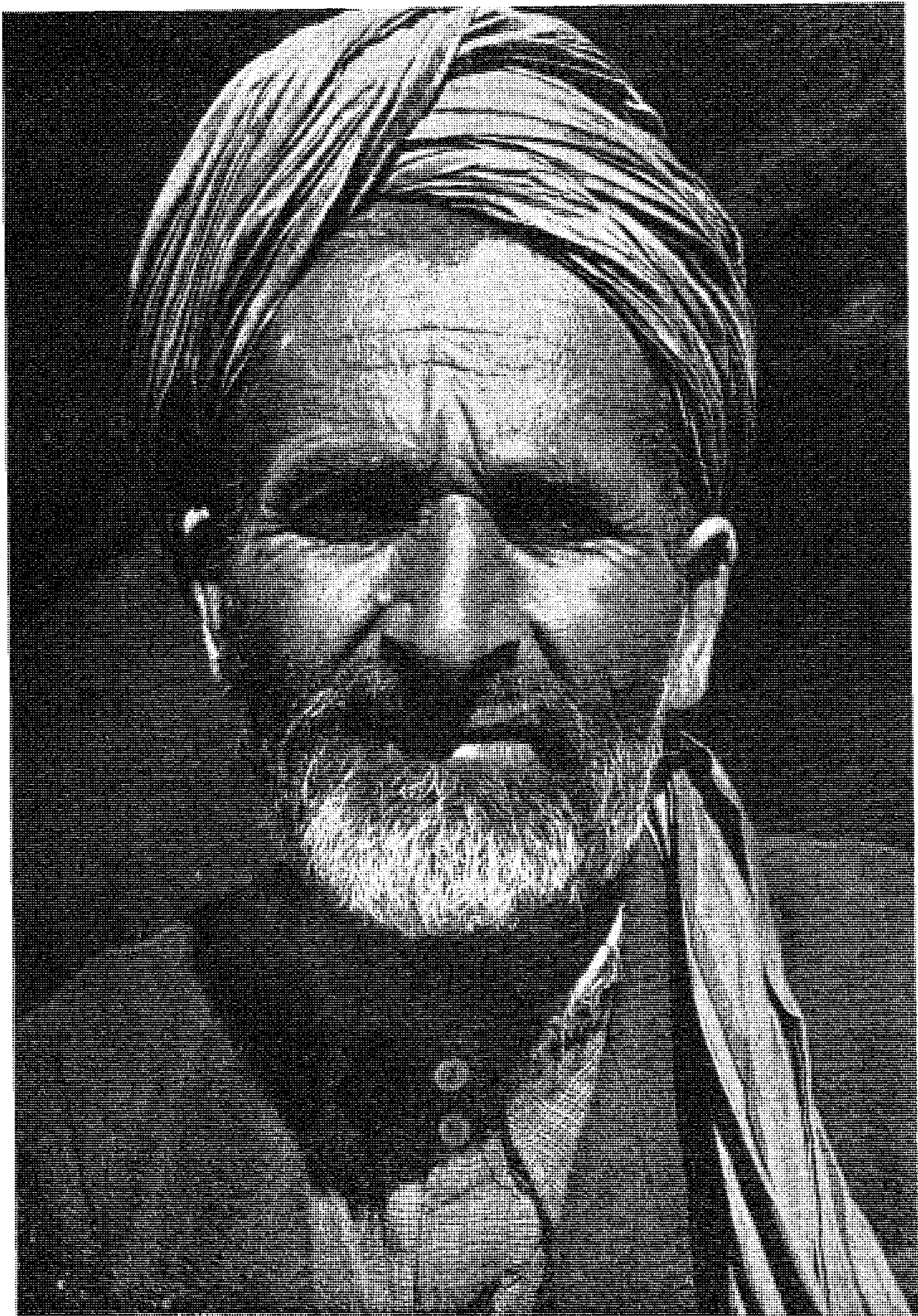
غير تجزئة ، كما هو الحال عند البريطانيين وغيرهم من الارستوقراطيين الاوروبيين . وهذا يختلف عن النظام العربي الذي يساوي بين الاخوة في الميراث ، ويورث البنات — للذكر مثل حظ الانثيين — ويجعل ارتقاء المناصب بالانتخاب والتنازع على السلطان .

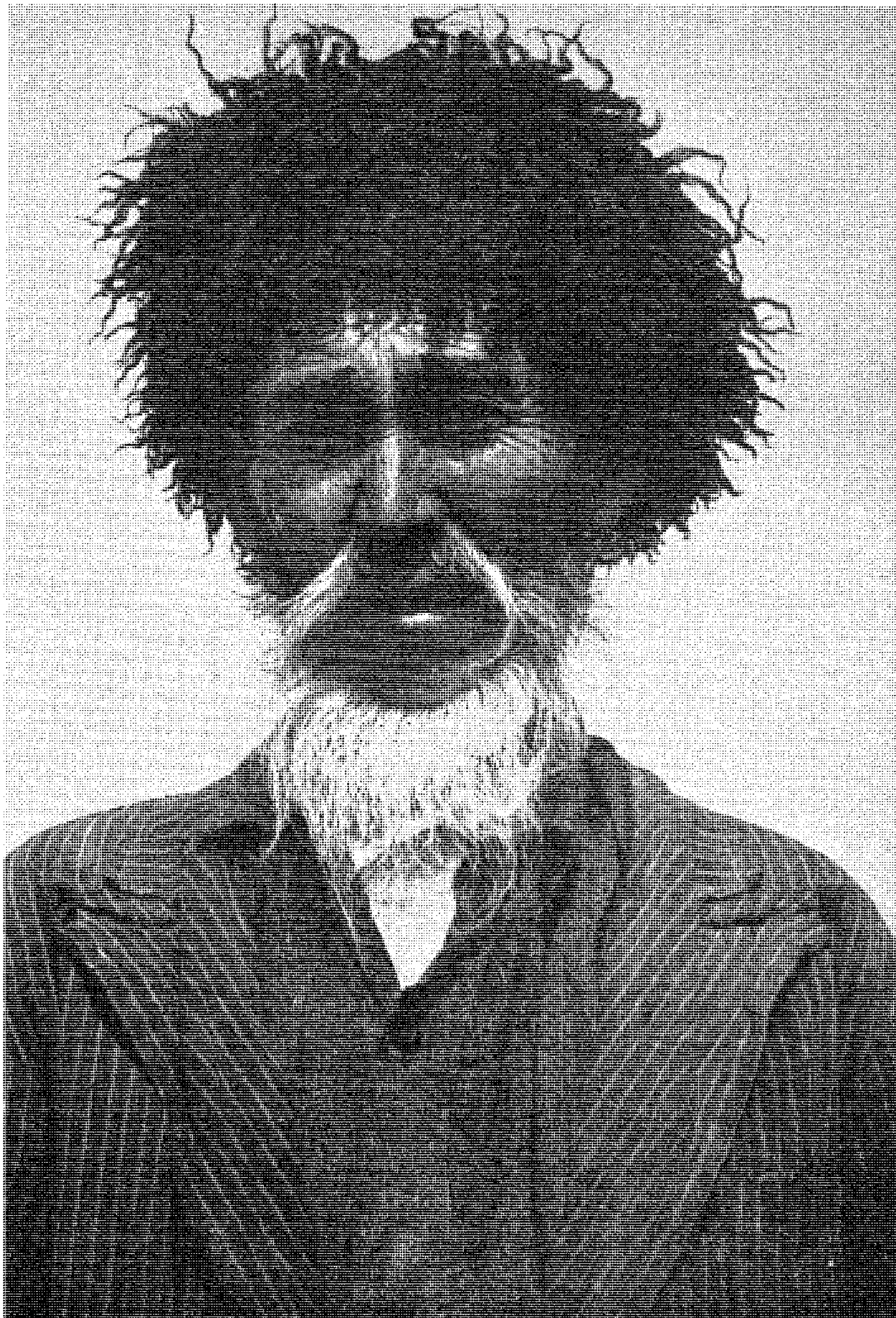
ويلي العائلة عندهم « الأولو » (Ulu) وهي جماعة من الذين يشتون معاً في الاصل . وبازدياد السكان تتجزأ جماعات الاولو فرعاً اثر فرع ويصبح لكل فرع شيخ . وترتب وحدات الاولو ايضاً على اساس القدم ، كما هو الحال بالنسبة الى الابناء في العائلة ، ويصبح رئيس أقدم وحدات الاولو في القبيلة الواحدة ، « بك » القبيلة كلها . وهؤلاء البكوات ينتمون الى العائلات النبيلة ، وبناتهم من الاشراف يركبن الخيل ، ويخرجن للصيد مع الرجال ، ويدرن امور ازواجهن إذا مـا ترملن . ويفرض النبلاء الجزية على العامة ، ويمتلك النبلاء والعامة عبيداً لهم . وبين العامة صناع ، وأشرف الصناعات عندهم صناعة الحداد ، المرتبطة بالنجارة ، وهي أقدم الحرف التي عرفها الهند — اوروبيون .

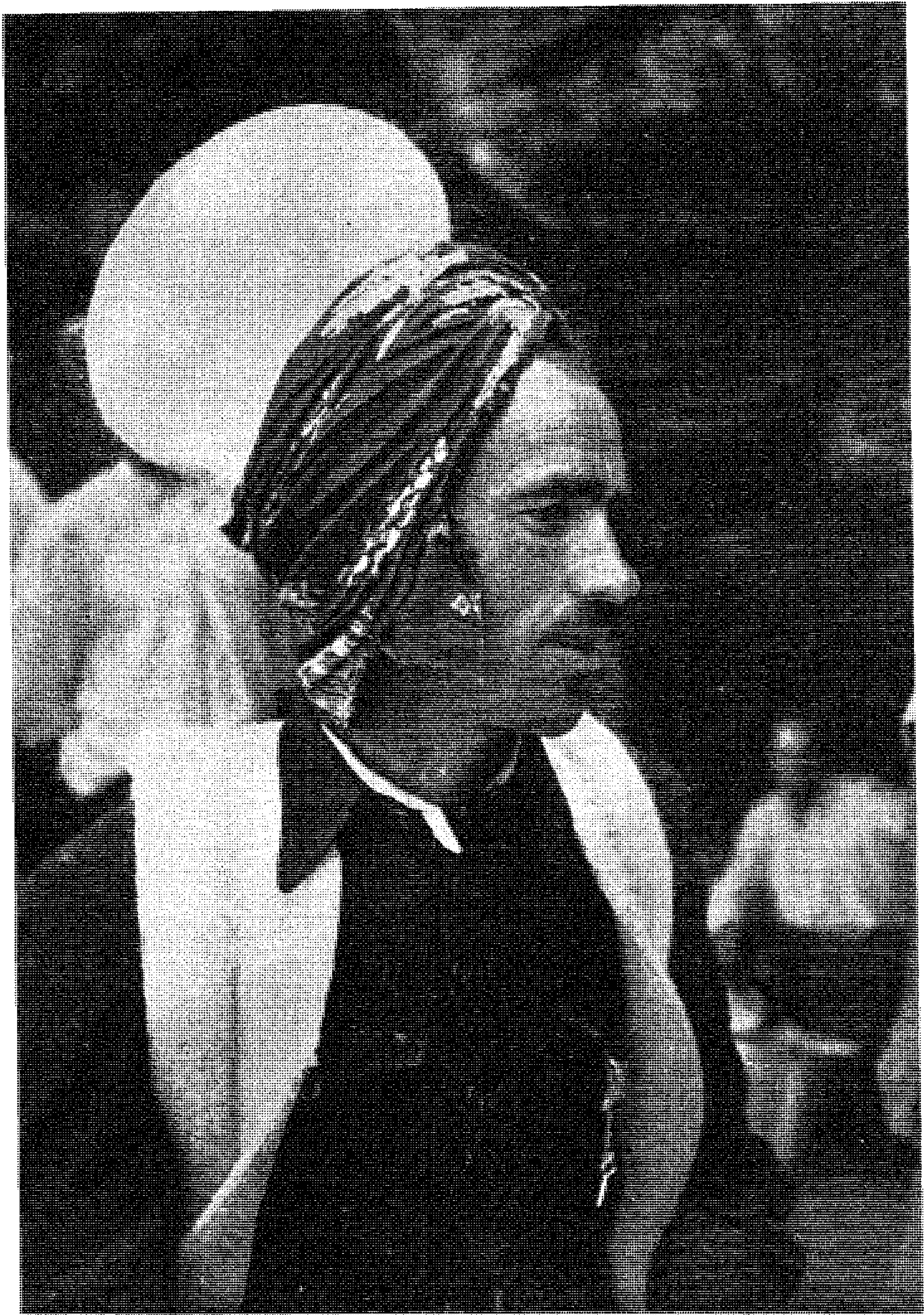
ومع ان كلمة شيخ القبيلة مطلقة وأحكامه بالقصاص مبتكرة تبعث على المهابة ، الا انه لا يحكم بشكل تعسفي . وعندما تثور قضايا مهمة يدعو مجلساً من الرجال الاحرار ، ويحق لكل فرد منهم ان يتكلم في هذا المجلس . وبعد النقاش الطويل والاعراب عن جميع اوجه النظر ، يتخذ الرئيس قراره . فاذا اتخذ القرار اصبح من واجب الجميع ان يتبعوا الرئيس حتى الموت .

فاذا كانت الاحداث على جانب اعظم من الاهمية فقد يدعى مجلس القبائل الى الاجتماع ، فالنظام مرن مطاط . وكما انه يمكن ان يتفرع اولو عن اولو آخر ، كذلك يمكن ان تتكون قبائل كبيرة من قبائل صغيرة ، ويمكن ان تتكون الامبراطوريات من القبائل الكبيرة ،

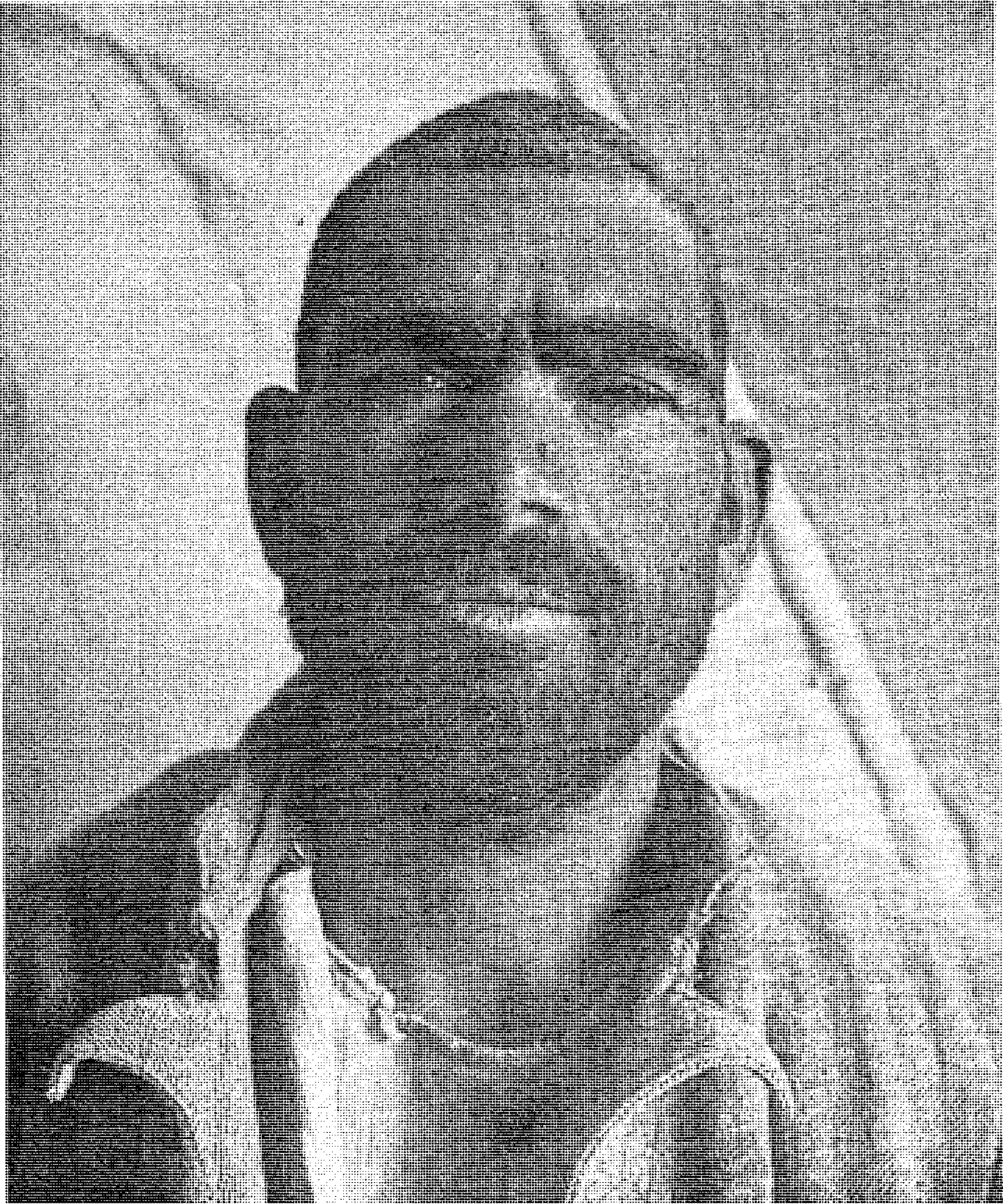
دليل الصور

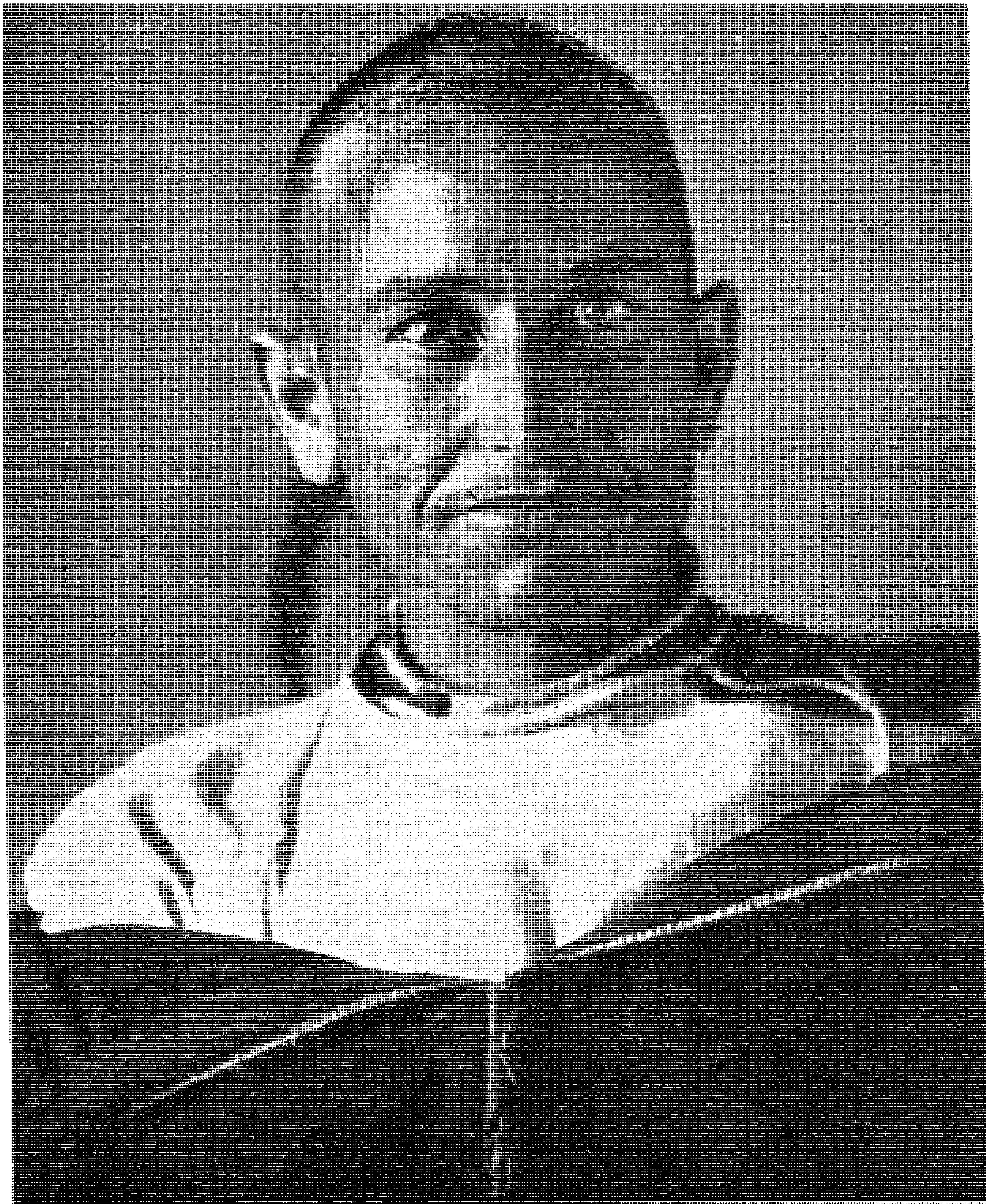




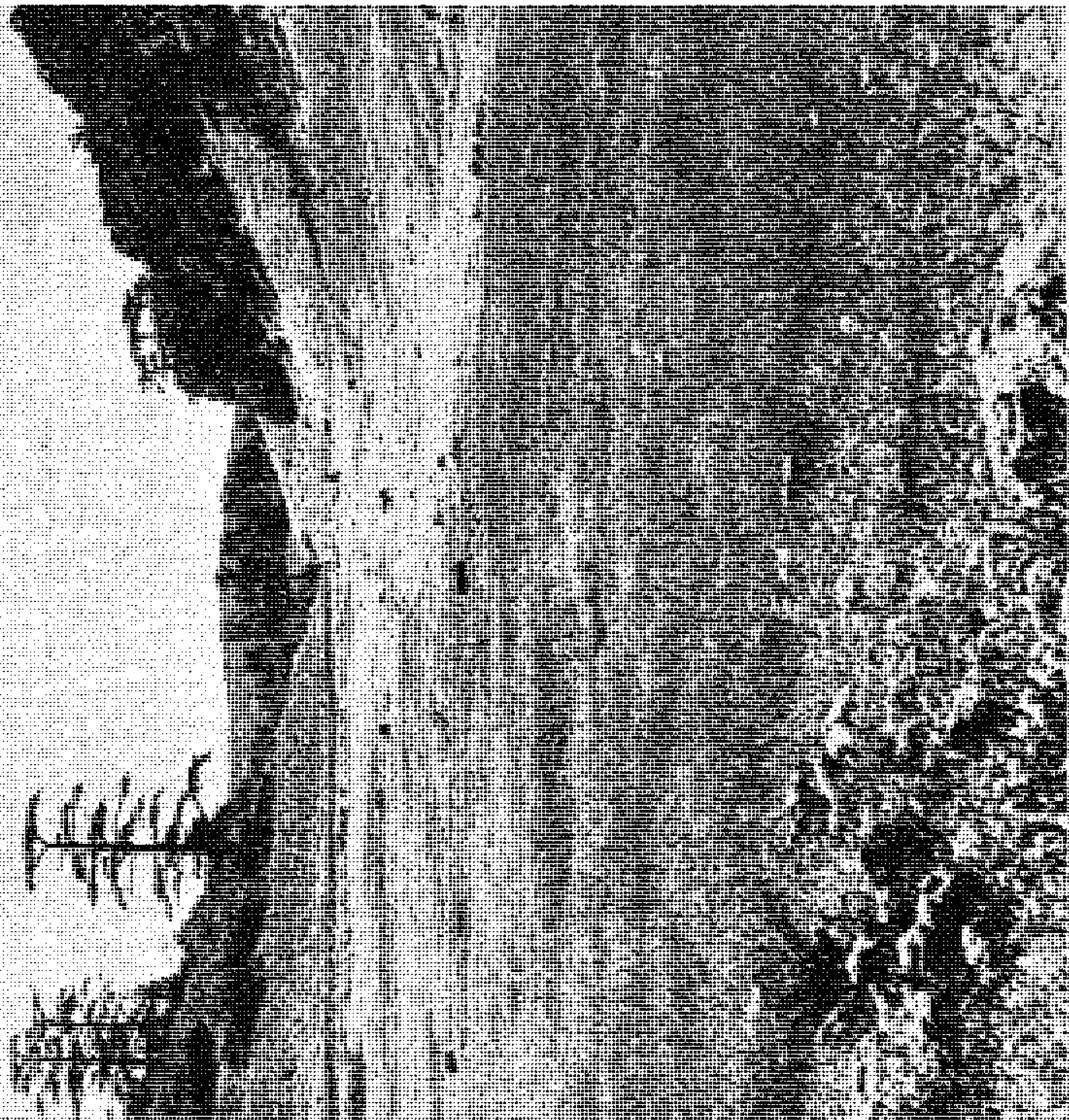




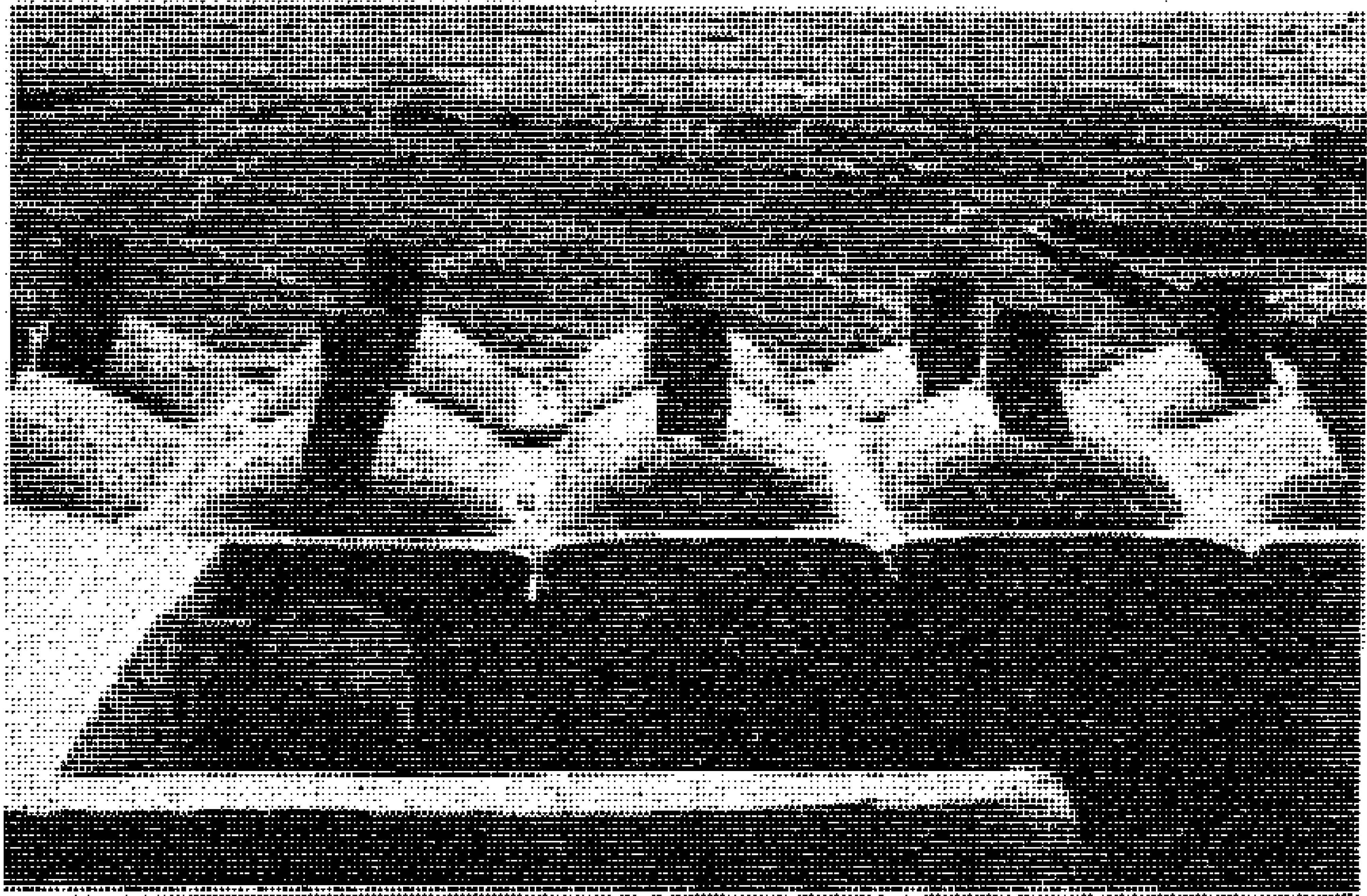


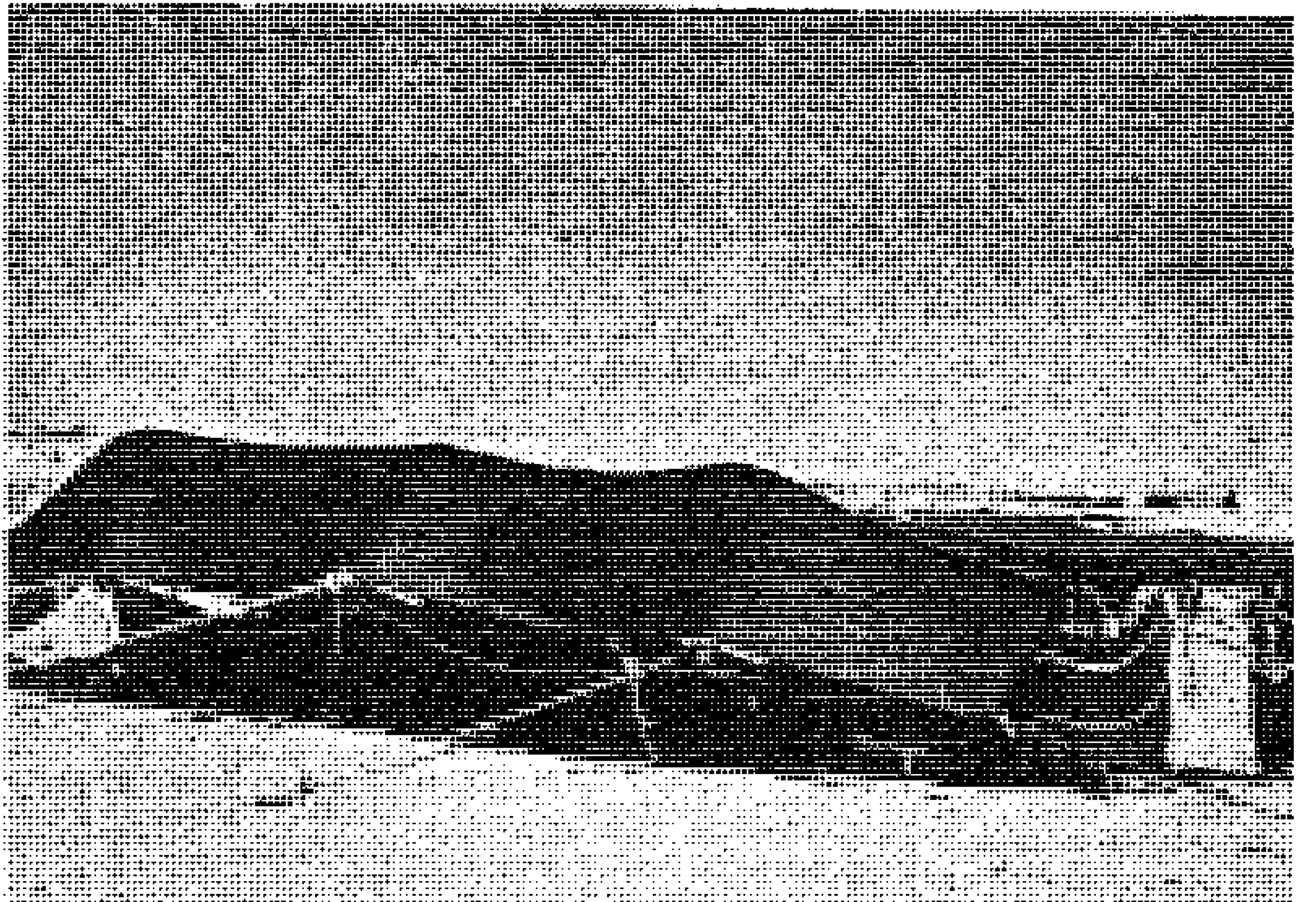


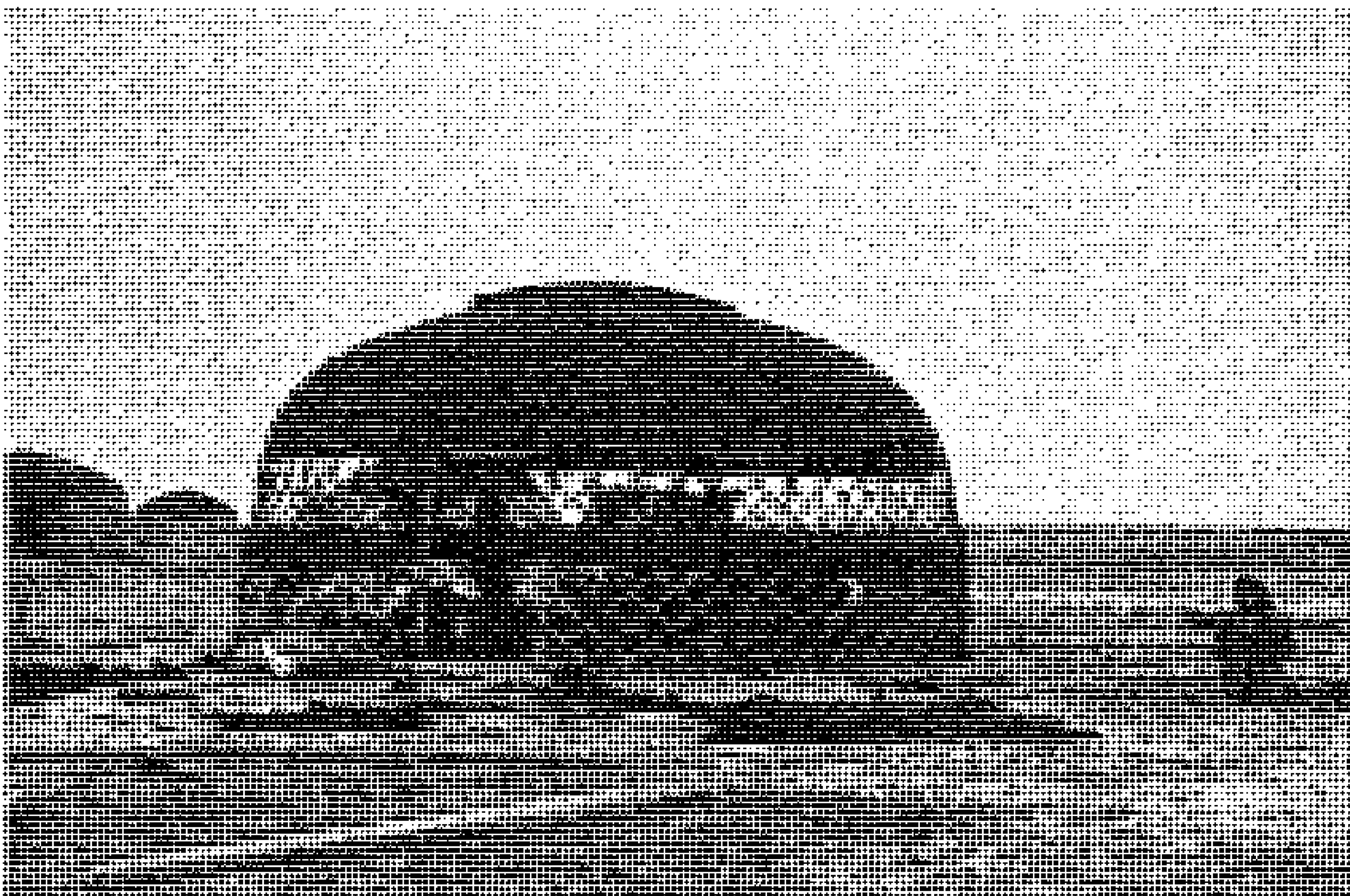




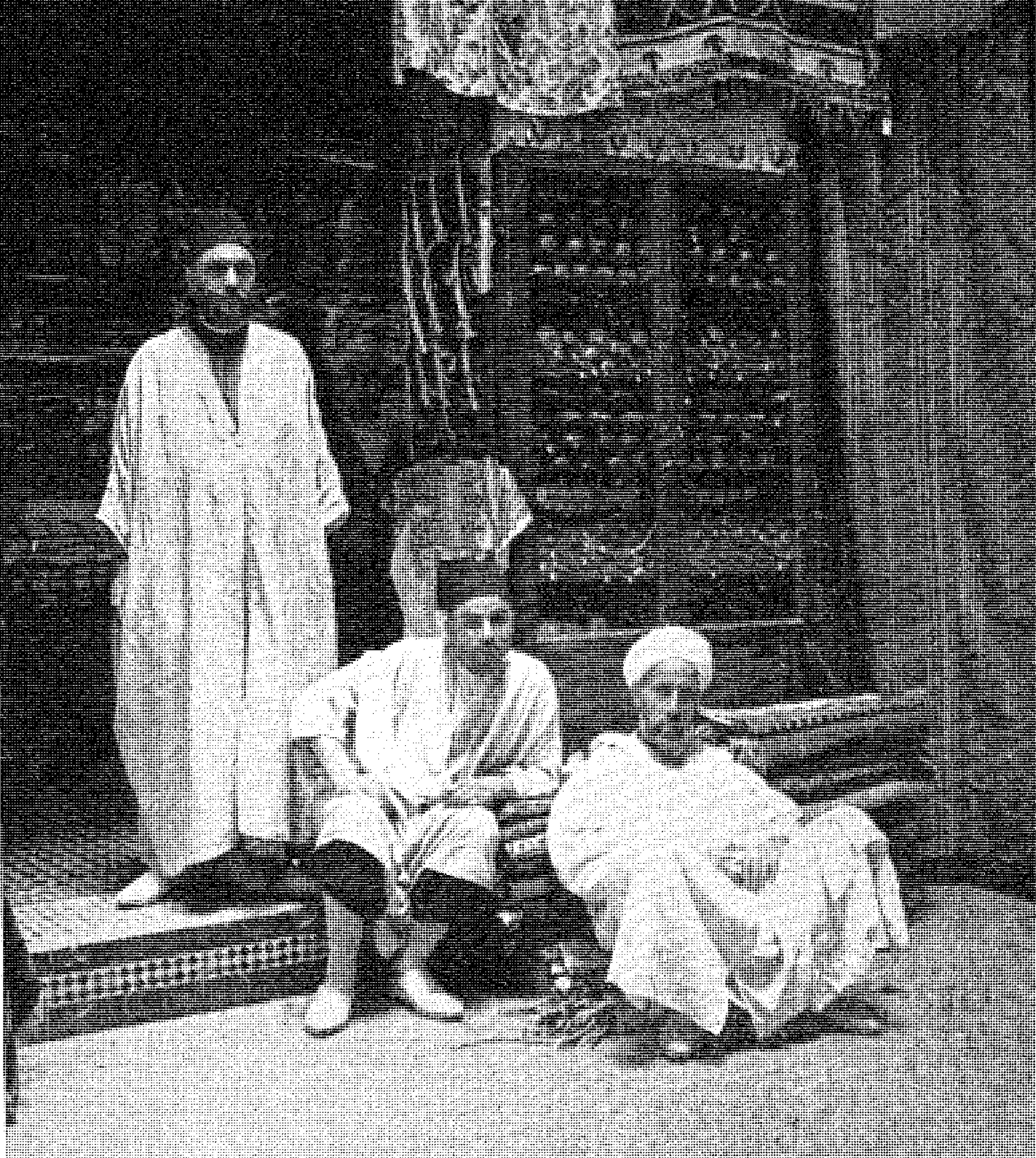













وقد ينجم عن اجتماع البكوات منافسات ومنازعات ، ومن ثم تجتمع في الولاء حول خان . وهذا الخان يحكم امبراطوريته الواسعة بنفس الطرق العامة التي اتبعها قدماء الفرس وهي طرق مبنية على نظام من المراقبة ومن مراقبة المراقبين أنفسهم ، مع تسهيل هذه العملية بانشاء جهاز من السعاة الخيالة . وقد تنهار هذه الامبراطورية بمثل سرعة نشوئها عندما تزول الازمة التي أدت الى قيامها وعندما تؤول قيادتها الى أيد ضعيفة . اما القبائل فتبقى على حالها ، لان الازمة التي تحفظ كيانها أزمة دائمة ، وموسمية واقتصادية — وهي الحاجة الى النظام اثناء التفتيش عن المرعى .

وكان الاتراك والمغول عند الغزو قساة فاتكين ، كما ذكرت المصادر القديمة . امـــا الاتراك فكانوا على الاقل اذا دمروا منطقة وقتلوا من قتلوا من أبنائها ، يسمحون باعادة بناء المدن والقرى ويعيدون اليها من بقي من السكان على قيد الحياة ، ويقطعونها للمستحقين من قادتهم . وقد فرض على ابناء هؤلاء القادة أن يلبوا نداء الخدمة العسكرية كلما دعوا اليها وان يحضروا معهم عدداً معيناً من الرجال لقاء حقهم في نصف محصول الارض . وهكذا نشأت في أثر الغزو التركي المغولي ارستقراطية جديدة هي أرستقراطية مالكي الارض . وكانت هـذه الارستقراطية جديدة في تكوينها . حتى لقد بدا هذا النظام بدعة في بعض البلاد التي فتحها الاتراك . اما في الاراضي الفـــارسية فقد كان قديماً قِدَمَ الارستقراطية الفارسية التي قامت على نفس الاسس .

ومع ان الاتراك اصبحوا من غلاة السنة ، فان تدينهم لم يمنعهم من الاحتفاظ بأجزاء من نظامهم التشريعي القديم غير المدون ، وكان هذا النظام في الواقع ضرورياً للمحافظة على تقسيمهم الى طبقات وعلى مفاهيمهم السياسية . وكان اول ما تخلوا عنه بالطبع الشعائر الظاهرية لديانتهم القديمة . وهذه الديانة شديدة الشبه بالزورواسترية اذ قالت بوجود قوتين

روحيتين متعارضتين ، احداهما قوة الخير والنور والدفء ، والاخرى قوة الشر والظلام والبرد ، والقوتان تمثلان الصيف والشتاء في السهول الشمالية . ويسكن إله النور في الشرق الذي تبزغ منه الشمس والذي جاء منه الاتراك . اما إله الظلام فيسكن في الغرب . ولكل إله ضد من الارواح المجنحة ، تعين البشر او توقع بهم الامراض . ومن الرموز التي كانوا يستعملونها تمائم من الصوف يحملونها في عرباتهم او يعلقونها في اجنحة الرجـــال والنساء من مسكنهم المسمى يورت او عند العتبة قرب الباب .

اما محترفو الدين فكانوا من الدجالين الماهرين في التمثيل وخفة اليد واصدار الاصوات الباطنية او البعيدة ، والرقص التمثيلي . وكانوا يبلغون النشوة بالرقص والاهتزاز ، فيتصلون بروح النور اذا كانوا من الكهنة البيض او بأرواح الظلام اذا كانوا من الكهنة السود . وكان كهنة الطريقة البيضاء يقدمون اضاحي من الخيل في الربيع الى إله الشرق وفي الخريف يقدم كهنة الطريقة السوداء مثل هذه الاضاحي الى إله الغرب . وعندما اعتنق الاتراك الاسلام تسربت هذه الشعائر في مسارب متعددة اهمها الطرق الصوفية ، التي كانت في ذلك الحين اكثر شعبية وأوسع انتشاراً في الاناضول منهـــا في أي مكان آخر . وهنا نشأ الدراويش الراقصون وطريقة البكتاشية ، وبقيت عنـــاصر خفة اليد واصدار الاصوات بين جماعات الممثلين المتجولين ، الذين كانوا يتنقلون من قرية الى اخرى ويجتذبون الجموع في الساحات الواقعة خارج ابواب المدن المسورة . وزالت العادة التركية القديمة ـ عادة انشاء تلال عالية على الطريقة الصقيثية فوق قبور رؤسائهم ، وزالت معهـــا عادة تضحية الخيل ، مع ان بعض التركمانيين مـــا زالوا الى اليوم يدفنون موتاهم بالقرب من التلال القديمة (وبذلك يعيقون التنقيب عن الآثار) ويذبحون الخيل بين الحين والحين .

ولا ننسَ ان ظهور الاتراك حصل في أوج الحروب الصليبية ، وفي ذلك الوقت وجدت فرص سانحة لتبادل ثقافي واسع ، بعيداً عن نطاق المعارك . فالاتراك ، والفرس ، والاكراد ، كان لديهم جميعاً نظام جامد يشكل الفرسان فيه الطبقة المختارة . وكان عند العرب تقليد مماثل ولو انه أقل شكلية من غيره . فمفهوم الفروسية لم يكن غريباً على المسلمين ، وتبادل الاحترام المشهور بين ريكاردوس قلب الاسد ، وصلاح الدين ، الامير الكردي ، يوضح لنا ان واجبات الفروسية ومراسيمها كانت معروفة لدى الطرفين . ولعل الاصول المتوازية والنمو المتبادل من أسباب هذا التشابه .

ثم اتخذت الفروسية عند اتراك الاناضول مظهراً آخر بنمو منظمات للرجال داخل المدن تدعى « اهل الفتوة »[٩] ولم يكن اعضاء منظمات الاخوان [أو الاخيّة] هذه (كما يدعون انفسهم) من النبلاء ، بل من فتيان الصناع والتجار العازبين ، الذين كانوا يوحدون مواردهم ويعيشون معاً . فكانوا يشتغلون اثناء النهار في حرفهم المختلفة ، ويقدم كل واحد منهم دخله الى الرئيس . وكانت نزلهم مؤثثة أفضل تأثيث ، وكانت بعض الجماعات المتنافسة تتزاحم احياناً في المدينة الواحدة لاجتذاب الضيوف . وقد نزل ابن بطوطة في ضيافتهم ووصف كرمهم . وذكر ان من عوائد تلك البلاد « انه ما كان منها ليس به سلطان فالاخي هو الحاكم به وهو يركب الوارد ويكسوه ويحسن اليه على قدره ، وترتيبه في أمره ونهيه وركوبه ترتيب الملوك . »[١٠]

كان افراد منظمات الفتيان هذه يؤمنون بقواعد «الرجولة أو الفتوة

---

(٩) H. A. R. Gibb and Harold Bowen, Islamic Society and the West: Islamic Society in the Eighteenth Century (London, 1950), I, Pt. I, 59, 286.

(١٠) ابن بطوطه ٢ : ٢٨٩

فيمتنعون عن الاذى ، ويجودون دون شح ، ولا يبدون تذمراً[١١] وقد لبسوا شعارات خاصة من السراويل المزركشة ، وكانت علامة قبول الواحد منهم في نظام الفتوة أن يلبس هذه السراويل . ولم يكن هؤلاء الاخوان نقابات ولا طرقاً صوفية ، بل يشبهون منظمات سرايا البنادق المعروفة في واحدة على الاقل من المدن الاسلامية الحديثة (كما سنوضح في الفصل الرابع عشر) وكذلك يشبهون « الزورخانة » عند الفرس . ومهما يكن اصلهم ، وعلاقاتهم ، ومصيرهم ، فقد أدوا مهمتهم في النظام الاجتماعي في المدن الاسلامية في الامبراطورية التركية القديمة وكانوا مرتبطين بنظام كامل من الفروسية اشترك فيه الصليبيون واعداؤهم المسلمون . وهم يشكلون من الناحية التاريخية نقطة انطلاق نحو انواع أخرى من المؤسسات التي أحكمت ربط المجتمع الاسلامي ، ويمثل دورهم هذا احدى المآثر التركية على الصورة الكلية للنظم في ذلك المجتمع (الا اذا وجد العلماء عكس ما نقول) . ومهما يقل المرء عن الاتراك القدماء ، فلن ينكر احد بأنهم أدخلوا هواء نقياً الى نظام كان قد وصل أوجه ، وثارت امامه شكوك حول مستقبله ، كما انهم أوجدوا صلة بين هذا النظام والمناطق اليانعة في اوربا والشرق الاقصى .

---

(١١) المصدر نفسه .

الفصل العاشر

الاختلافات

الموروث منها والمكتسب

ان الثقافة الغربية الحديثة ، كما هي مطبقة في اميركا ، تضغط على الناس ضغطاً كبيراً لكي يظهروا ، ويعملوا ، ويفكروا ، بشكل متشابه . وأياً كانت اصول اجدادنا ، او الاعراق التي انحدروا منها ، فاننا جميعاً نلبس زياً موحداً ، ونسرح شعورنا بنفس النمط ، وعندما نتحدث نتجنب أية اشارة الى امور العرق والدين والاصل بالتخصيص . وكثير من الجرائد مثلاً تتقيد بمبادىء محددة من تجنب الاشارة الى عرق المتهمين بالجرائم او دينهم ، سواء بالصور او بالكلمات . ويعمل نظامنا الثقافي بيسر على هذا الاساس . (وقد وصلت المبالغة بهذا الاتجاه بحيث اصبح صعباً نشر كتاب علمي موضوعي عن الاعراق ، او نشر مراجعة لمثل هذا الكتاب ، بينما توجد في الوقت ذاته كتب كثيرة تستنكر كل بحث عرقي وتنادي بأن العرق حديث «خرافة») .

اما حضارة الشرق الاوسط القديمة فقد كان يسودها وضع مناقض لهذا الوضع تماماً . فالمثل الاعلى هناك لم يكن في تطلب التشابه بين رعايا البلد الواحد عموماً ، بل في تطلب التشابه داخل كل جزء ، وايجاد أعظم جانب من التباين بين الاجزاء . ويشعر اعضاء كل وحدة عنصرية

بالحاجة الى ان يميزوا أنفسهم برموز ذات معنى واتجاه خاصين بهم . فاذا كانت لهم خصائص عنصرية منحدرة من تاريخهم ، فانهم يؤكدون الحفاظ على هذه الخصائص ، بأن يسرحوا شعرهم بطريقة خاصة ، وبما شابه ذلك من طرق ووسائل . وعلى أي حال فانهم يلبسون ملابس مميزة ويتصرفون بشكل مميز . فاذا سرت في سوق من الاسواق ، لم يصعب عليك ان تميز كل فرد من الافراد الذين تقابلهم اذا كنت ملماً برموزهم . لان هؤلاء الناس يعمدون الى تمييز انفسهم ، حتى اذا عرفت من هم فانك تعرف بالضبط مـــا يمكنك ان تنتظره منهم ، وكيف تعاملهم ، فتتم العلاقـــات الانسانية في الامكنة المزدحمة بيسر ومن غير احتكاك .

واضح ان النظام الفسيفسائي يلائم مدنية تتطلب فيها الصنائع اكبر قدر ممكن من المهـارة ، التي يعلمها الآباء لابنائهم ، وتتطلب أقل قدر ممكن من التعقيد التنظيمي . وأن نظام الغرب الموحد ضروري في مدنية تتجه فيها معظم انواع المهـارة الى صنع الآلات للانتاج ، والى سياسة الافراد وإدارتهم في مؤسسة اقتصادية كبيرة معقدة . فالمهارة العليا في مثل هذه المدنية يجب ان تكون من نصيب المخطط ، وصانع الآلة ، والمنفذ ، لا من نصيب العامل الفرد . غير ان العمال يؤخذون من مجموعات عنصرية ودينية متعددة ، ومن شعوب كثيرة ، فمثلنا الاعلى إذن هو كيف نسلكهم جميعاً في عمل سلمي منسجم . اما المثل الاعلى لبنى الشرق الاوسط فهو وجود سوق مليئة بالمخازن الصغيرة المستقلة ، يعمل في كل واحد منهـــا جماعة مؤلفة من ثلاثة او اربعة من مهرة الصناع ، وكلهم من الاقرباء ، وكلهم ناشئون على تقليد واحد ، وكلهم يصنعون الشيء ذاته في نفس الوقت . ثم ان التشديد في الحقل السياسي على الفروقات يرمز الى نوع من الامية ويقوي الحاجة اليها ، وهي امية لا ترضاها القومية الحديثة .

ولهذا الفصل غرضان ، أولهما : اظهار السبب في كون شعوب الشرق الاوسط تشدد على الفروقات المرئية بين الجماعات ، وتستمر الجماعات فيه تتحدث بلغاتها الخاصة وتعبد الله بأشكال متعددة . والثاني : تبيين ان المواقف التي يقفها الناس حيال الاختلافات العرقية والثقافية وحيال مقدار الوحدة ، هي في حد ذاتها خاضعة للظروف الثقافية . فان اتجاه الغرب العنيف نحو الوحدة منبثق عن نمطه الثقافي الخاص ، فقيمته اذن هي قيمة نسبية لا مطلقة . وكل موقف «صحيح» في ظروفه . وهنالك موقف ثالث يعتبر «صحيحاً» في كل ظرف ، مهما نفر الناس منه ، وذلك هو الدراسة الموضوعية للاعراق ، لان الحرية والعدالة اللتين ينشدهما البشر جميعاً ، لا يمكن تحقيقها الا من خلال الحقيقة .

ان الفروق الجسمية التي يحب ابنـــاء الشرق الاوسط ان يشددوا عليها ، بعضها موروث ، وبعضها مكتسب . ويعرف علماء الاجنة بأننا لا نرث ملامح محددة ، بل نرث قابليـات تؤهلنا للعمل والنمو ، وان هذه القابليات تدفع وتحد بعضها بعضاً بشكل منتظم ، أثناء حياة الفرد . ويعتمد مقدار تحقق القـــابليات على التغذية ، والتدريب ، وغيرهما من القوى المستمدة من الثقافة السائدة . ففي امريكا حيث يتساوى الناس في التغذية والتدريب على وجه العموم ، وتتوفر العنـاية الطبية للجميع ، تتساوى بعض الصفات وتستقيم . فان ابن زوجين صقليين قصيرين قد يكون طويلاً كجاره الذي جـاء ابواه الطويلان من ايرلندة . ويصبح لابن الالباني ذي الرأس المسطح رأس مستدير يشبه الرؤوس البـارزة لابنـاء الانكليز . اما في الشرق الاوسط فان فروق التغذية ما زالت تسبب فروقاً في الحجم ، وكذلك تولد الفروق في طريقة نوم الطفل في مهده عند ولادته ، اختلافات في شكل الرأس .

فاذا تجاوزنا موقتاً هذه المبـالغات الجسمية المنحدرة من الاكتساب الثقافي ، فاننـا نجد اولاً بأن شعوب الشرق الاوسط تختلف من ناحية

العرق . وان منطقتنا الممتدة من مراكش الى افغانستان هي موطن عرق البحر الابيض المتوسط ومهـــده . ويوجد المتوسطيون ايضاً في اسبانيا ، والبرتغـال ، وفي معظم ايطاليا ، وفي اليونان ، وجزر البحر المتوسط ، وهم يشكلون الجماعة الوراثية الكبرى في كل هذه الامكنة ، بما في ذلك الشرق الاوسط . ويشكلون عنصر الاكثرية بين السكان في باكستان وشمالي الهند ، مع اختلاف في لون السحنة فانه يميل الى السمرة الشديدة ، وفي العظام فانها تصبح أرق .

كان الشومريون من شعوب البحر المتوسط من حيث هياكل أجسامهم ، وكذلك كان قدماء المصريين ، والبـــابليون وبنو اسرائيل ، وعرب الفتوحات الاسلامية الاولى الذين قاس المؤلف هيـاكلهم في نيبور . وانسان المتوسط انسان ابيض مع تفاوت في القـــامة – فهو كمعظم البيض يتراوح بين القصر والتوسط في الطول ، وعظامه خفيفة ولكنها وثيقة التلاحم بالوصلات العضلية ، اذا نميت تلك العضلات بالاستعمال . ورجلاه طويلتان بالنسبة الى جذعه ، ويداه وقدماه صغيرتان ، نوعاً ما . وصدره منبسط نسبياً ، ورقبته متوسطة الطول ، ورأسه متوسط الحجم ، طويل بيضاوي من حيث الشكل ، مع عـارضين متوازيين . ووجهه صغير دقيق ، وليس فيه سوى نتوء عظمي صغير عند العينين . والقسم الاعلى من وجهه كبير بالنسبة الى القسم الاسفل ، فـاذا هرم بدا أنفه كبيراً بالنسبة الى فكيه . يمتاز انسان المتوسط من بين جميع الآدميين بأن جهاز المضغ لديه أبعدها شبهاً عن جهـــاز المضغ عند الحيوانات واعظمها تطوراً . فأسنانه صغيرة ، وكذلك العضلات التي تحرك فكه . ووجهه ضيق ، وبالتالي كثيراً ما يكون انفه بارزاً اذا قورن بالانوف ذات العرش المنخفض او المنبسط ، وهي انوف شعوب أعرض او أطول فكاً ، في أوربا وبعض أجزاء افريقيا وآسيا . وانسان المتوسط كثيف الشعر على وجه العموم ، فرأســـه مغطى بشعر كثيف مسترسل ، او

متموج ، او جعدي ، وهو شعر ناعم عادة في تكوينه . وقلما يصبح المتوسطي الاصيل اصلع . وحاجباه كثيفان ، وكثيراً مـا يكونان اقرنين . وتغزر لحيته كلما كبر ، ومع انها ليست أكثف اللحى المعروفة عند البشر ، فانها من اكثفها . ويزداد شعر جسمه ايضاً بتقدم العمر ، ويختلف كثيراً من حيث الكثافة بين فرد وآخر .

وبشرته على العموم بيضاء غير ناصعة البياض بل تتراوح بين اللون الوردي ، ولون الخوخ و«الكريم» ، وبين اللون الحنطي الخفيف . وتميز حقيقة لون البشرة دائماً من الاجزاء المغطـاة من الجسم ، وهذا امر ميسور بين شعوب الشرق الاوسط لانهم يغطون من الجسم بمقدار ما يتطلبه عملهم . وقد يكون لون البشرة المكشوفة حنطياً شديداً ، بينما تكون بشرة العضد أخف كثيراً لانها مغطاة . (فوهج الشمس قوي في الشرق الاوسط) . وقـد ترى أفراداً شقر البشرة ، غير ان هؤلاء هم الذين يعيشون في الغـالب بالاسواق المغطاة ودوائر الحكومة ، وقلما يبرزون منها الى نور النهار المتوهج .

وشعر انسان البحر الابيض المتوسط اسود او بني داكن بالغالب ، وقد ترى في شاربيه بضع شعرات حمراء او شقراء . وقد ترى الشعر الاشقر ولكنه نادر . ولا حـاجة من اجل تفسيره الى افتراض غزو قوطي او صقيثي أو اختلاط مع الصليبيين . فان من صفات عرق البحر الابيض المتوسط وجود اتجاه أقلي نحو الشقرة . ويبدو هذا بالاكثر في العيون ، لان الشعر الاشقر الذي يظهر عند الاطفال يدكن عادة كلما تخشن الشعر مع تقدم العمر .

وتجد بين شعوب البحر المتوسط كل لون من ألوان العيون . ولكن العيون السوداء الفـاحمة نادرة ، وأكثر ألوان العيون شيوعاً هو اللون الحنطي الداكن او المتوسط ، ولو أخذت أية عينة من الناس لوجدت ربع العيون فيها عيوناً زرقاء او رمادية او خضراء ممتزجة عند البؤبؤ

بعنصر حنطي . ولا تدكن العيون بتقدم السن وهـذا يفسر شيوع الالوان الخفيفة في العيون بدلاً من الالوان الشقراء في الشعر بين الكبار . والعيون الزرقاء كالبشرة الوردية والشعر الاشقر توجد في الاكثر بين الناس الذين يعملون داخل الجدران او الذين تقتضي حالتهم الاجتماعية ان يبقوا داخل البيوت . وعلى ذلك فان أحفاد الرسول ورجالات البلاط وأغنياء التجار اكثر شقرة من الفلاحين وسائقي الجمال . وهذا لا يعني في اعتقادي ان الشقر يفضلون السمر بأي شكل من الاشكال سواء في الشرق الاوسط او في غيره . بل هو يوضح ان الشقر لا يلبثون ان يلوّحوا بالشمس عندما يخرجون في العراء في بلاد حارة شديدة الضوء ، فمن استطاع اختار العمل في أمكنة ظليلة ، وهذا يحفظ عليه شقرته ويكفل توفرها في نسله ، ولن يذهب بهذه الشقرة أو يقلل منها تعرضه للعوامل الطبيعية بين حين وآخر ، في الحقل والصحراء . وعلى ذلك فمن الجائز ان تكون حضارة المدن في الشرق الاوسط قد خلقت بيئة مظللة ، تقوم الظلال فيها مقام الضباب الذي يسود مناطق بحر البلطيق حيث انبثقت الشعوب الشمالية الشقراء .

من هم اذن شعوب البحر المتوسط ؟ جميع العرب تقريباً ، وجميع اليهود الشرقيين ، ومعظم سكان مصر أياً كانت دياناتهم ، ومعظم البربر ، ومعظم الفرس الاصليين ، وكثير من الاكراد ، ومعظم البلوشيين وقسم كبير من الافغانيين ، وكثير من أتراك بر الاناضول وأذربيجان . وان ما يقارب الثمانين بالمئة من الافراد القاطنين في الشرق الاوسط والمساهمين في مدنيته (فيما عدا الأوربيين) هم من احد فروع شعوب البحر الابيض المتوسط . واما العشرون بالمئة الباقون فان نصفهم على الاقل مختلط وراثياً بهذه الشعوب . فعرق البحر الابيض المتوسط اذاً هو العرق الاصلي والعنصر الرئيسي فيه . ونجد اعظم تركيز لنموذج البحر المتوسط في اكثر اشكاله تطوراً ، عند شعبين من أقدم الشعوب

المتكلمة باللغـات السامية وهما العرب واليهود (ومع ان الطرفين قد يتضايقان من هذا القول ، فهو قول صحيح) .

ويقف ابنـاء البحر الابيض المتوسط في منتصف هذا المسرح . ويزداد تركزهم منه في أقدم المناطق مدنية وحضارة . وهذا أمر متوقع ، لانهم هم الذين أوجدوا هذه الحضارة ، ويمكننا القول ايضاً بأن هذه الحضارة هي التي أوجدتهم . وانك لتجد في المناطق البعيدة غير الميسورة من الشرق الاوسط ، كالجبال العـالية ، والاطراف النائية للصحارى الواسعة ، والمستنقعات ، أنواعاً اخرى من الرجل الابيض ، وتشكل هذه الانواع عناصر من السكان المحليين . وهم في بعض الاحوال لا في كلها بقايا شعوب قديمة وجدت قبل العصر الزراعي . واستمرار وجودها راجع الى اسباب جغرافية .

في سنة ١٩٢٢ تعرف العالم الغربي على جمعة من هؤلاء البقايا تقطن في آخر الطرف الغربي للشرق الاوسط ، بمـا أبدته من شجاعة فائقة ومقدرة حربية عظيمة ، وتلك هي قبائل الريف المراكشية التي ثارت اولاً ضد اسبانيا ثم ضد فرنسا بقيادة سيدي محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي يقيم اليوم في القاهرة . وكان من حسن حظ المؤلف ان زار مراكش اربع مرات بين سنوات ١٩٢٤ - ١٩٢٨ لدراسة الخصائص العرقية لرجال عبد الكريم ، وقد تم هذا العمل بنجاح مكنه من رسم تقدير صحيح لوضعهم العرقي . الريفيون كسائر البربر يضمون نمـاذج متوسطية بين أفراد قبـائلهم . وتوجد عناصر الشعر الأشقر والعيون الزرقاء بين هؤلاء المتوسطيين بنسبة تزيد عن نسبة الـ٢٥ بالمئة المعتادة . واني اعتقد ان هذه الزيادة الطفيفة تعود الى عوامل كثيرة كالعزلة في مناطق جبلية غـائمة باردة ، والاختلاط بعنصر أقدم . والعنصر الاقدم يتركز بين القبـائل المعزولة في اواسط الريف ويتصف بأفراد ضخام الجسم كبيري الرؤوس ، عريضي الوجوه ، منخفضي الرؤوس ، كبيري

الاسنان ، عريضي الانوف ، ومع ان ألوان افراده متعددة الا انهم يشبهون الايرلنديين ، ولهم شعور حمراء وعيون خضراء ، وشامات . ولا يمكننا تفسير وجودهم بأي غزو لشمال افريقيا سواء أكان هذا الغزو حقيقياً او مفترضاً ، وقد وجدت عظام اجدادهم الذين عاشوا قبل العصر الزراعي في بلاد شمالي افريقيا بكميات كثيرة تثبت انهم شعب محلي أصلي قديم . وقد تجد بين السكان الريفيين والبربر الآخرين خصائص وصفات منحدرة من هذا المزيج العرقي ، كالرأس العريض ، والوجه الواسع ، والانف الأفطس ، والشامات وغيرها . وتكثر العيون الخضراء مثلاً بين سكان جبال الأطلس الوسطى . وتوجد الشعور الشقراء بين رجال «القبيليين» في الجزائر ولكن الدراسات الاحصائية تظهر ان هؤلاء جميعاً هم من شعوب البحر الابيض المتوسط ، ولكن مع زيادة طفيفة في نسبة الشقرة . والمكان الثاني الذي نقف عنده في طريقنا نحو الشرق هو جبال لبنان وسوريا ، فاللبنانيون والدروز لهم مظهر يختلف عن العرب الذين يتكلمون لغتهم ، وكثير من اللبنانيين والدروز لا كلهم ، ضخام الجسم طوال الجذع ، قصار الارجل ، مستديرو الصدور ، قصار الرقاب ، عراض الرؤوس والوجوه . ولهم أيد وأقدام كبيرة عريضة بشكل خاص ، وهم بذلك يناقضون البدو الذين يشكلون الطرف الانساني الآخر . ويكثر عندهم الشعر الحنطي الداكن ، والعيون الحنطية الخفيفة . وكثيراً ما يكونون ذوي شعور كثيفة ثم يميلون الى الصلع في سن مبكرة ، كحال معظم الرجال الكثيفي الشعر . وهم أكثر شبهاً بالبافاريين والايطاليين الأبروزيين منهم بالعرب . وهم ليسوا من ابناء البحر الابيض المتوسط بل من الألبيين . والسكان الذين تجد بينهم هذا النموذج المتطرف يتكونون من عناصر ألبية ومتوسطية امتزجت بنسب متفاوتة . وقد يجد المرء بينهم أفراداً من النموذج المتوسطي ، ولكن معظم السكان يملكون خصائص متمازجة منحدرة من الطرفين . وقد هاجر آلاف من هؤلاء الناس الى امريكا ودرست خصائصهم فيها وفي

بلادهم ، ومنهم نبغ عدد من الانثروبولوجيين والمؤرخين[1] .

والنقطة التالية التي سنقف عندها شرقاً تقع في شمالي زاجروس وفي الامتداد الشمالي لهذه الجبال في هضاب ارمينيا . ان اكبر مجموعة بين سكان زاجروس وأكثرها وأصدقها تمثيلًا لسكان المنطقة هي المجموعة الكردية . والأكراد يعتبرون من الناحية العرقية والثقافية أشباهاً شرقيين للريفيين . وهم كالريفيين يقطنون الوديان العالية ولا يختلطون الا قليلًا بالاجانب . ويشبهون الريفيين في ان اكثريتهم متوسطية ولكن تركيبهم العظمي أثقل من تركيب معظم سكان السهول والمدن . ونسبة الشقرة عندهم تزيد عما ينتظر ، ونجد بينهم الفك العميق والاسنان الكبيرة التي تعتبر من خصائص بعض الاوروبيين الشماليين ، وتلحظ بين الحين والآخر افراداً تمكن مقارنتهم بالريفيين العراض الوجوه ، وهم ليسوا طوالاً بل عراض متينو البنية ، وترى أحدهم قصير الرقبة غليظها ، كبير الرأس بغير استدارة ، عريض الوجه ، ثقيل الفك ، طويل الشفة العليا . مثل هذا الرجل لا يختلف من حيث اللون عن الآخرين وليس له شعر كثيف بشكل خاص . وهو بقية من شعوب قديمة احتمت في جباله وساعدتها الظروف الجغرافية على البقاء ، ولا شك ان عظامه الثقيلة ، وفكه بشكل خاص ، قد تركت آثارها في غيره من الاكراد الذين تغلب عليهم الخصائص المتوسطية . وقد درست اربعة وثلاثين من الكرد الشكاك سنة ١٩١٩ ووجدت ان عيونهم جميعاً ما عدا اثنين منهم خضراء متشابهة اللون . اما الاثنان الشاذان فكانت عيون احدهما زرقاء ، والثاني حنطية داكنة ، وكان الكردي ذو العيون الحنطية من خارج المنطقة . وهذا أفضل مثال على امتزاج السكان هنا . وهنالك مجموعتان أخريان

---

(١) أشير بشكل خاص الى الدكتور عفيف طنوس الذي أدى خدمات جلى لحكومة الولايات المتحدة ، والى الاستاذ فيليب حتي الاستاذ بجامعة برنستون والى الاستاذ نبيه فارس الاستاذ بجامعة بيروت الاميركية .

من السكان نلحظ بينهـــا ايضاً الرؤوس العريضة والبنية الثقيلة ، وهما الآثوريون والارمن . فالآثوريون أدكن بشرة ، وسبب ذالك راجع الى أصلهم الجنوبي . وشعورهم وعيونهم داكنة على وجه العموم ، ولهم وجوه عريضة وأنوف فطس ، وهم مزيج من المتوسطيين ومن عرق آخر يعتقد بأنه العرق الألبي .

اما الارمن فـــانهم شديدو التعقيد عرقياً ويختلفون بين منطقة وأخرى . وقد يجد المرء بينهم شقراً يشبهون الشماليين ، وآخرين يشبهون المغول . الا ان اكثريتهم من الافراد الخنطيين البيض الذين يتراوحون بين أصل ألبي ، وبين عنصرين على الاقل من عناصر المتوسط ، أحدهما يتصف بالصغر ودقة العظام ويشبه العنصر العربي ، والثاني ثقيل العظام داكن البشرة يشبه الافغانيين . والارمن كثيفو الشعر ، ومن خصائصهم كثرة الانوف الكبيرة البـارزة بينهم ، وبعض الارمن الذين يسوقون اللوريات على طريق تبريز ضخام الاجسام ، وهم أكبر وأثقل من معظم الشعوب التي يعيشون بينها . فاذا تقدمنا شرقاً نصل الى ملجأ رابع هو المستنقعات الواقعة عند مصب نهر هلمند حيث يقطن «الصيادون» الذين يعيشون على صيد السمك والطيور بشباكهم في فصول الصيد . ومع ان كثيرين من هؤلاء الصيـادين يتكونون من خليط لا شك فيه ، ومع ان بينهم عناصر متوسطية عادية ، فان بينهم ايضاً دماء من عنصر أقدم تشاهد بوضوح في أفراد قلائل . وهؤلاء الافراد لا يكادون يشبهون شيئاً في العـــالم سوى النموذج «المرّائي» من سكان استراليا الاصليين وشعب الآينو الكثيف الشعر الذي يقطن في شمالي اليابان . وهم عراض ضخام ، لهم عضلات كبيرة ، ووجوه عريضة كثيفة الشعر ، وحواجب كثيفة ، فاذا وقف أحدهم امامك هادئاً خلته شبحاً من أشباح الماضي . وقد قال لي سائقي – وهو مواطن ايراني من اصل آثوري مختلط – عندما قابلنا واحداً منهم لأول مرة في زابول «استاذ ، ان هؤلاء هم الرجال الذين كنت تنقب عنهم في الكهوف» وما كان قوله شديد الخطأ .

وكثيرون من فرس خراسان وكثيرون من الافغانيين والبطهانيين القاطنين عـــبر الحدود شديدو الضخامة ، متجسدو العظام ، واسعو الوجوه ، بحيث لا يمكن ان نصفهم بأنهم النموذج المتوسطي العادي ، مع ان لونهم وشعرهم منطبقان على هـذا النموذج . وهم في اعتقادي يمثلون خليطاً بـين نموذج الصيادين والنموذج المتوسط ، او مرحلة في التطور والتقدم من الصياد الى المتوسطي ، او كلا الاثنين معاً .

وهذا العنصر القديم ظاهر أيضاً بين البراهويين . وتبقى مجموعـــة بيضاء أخرى تستحق الدرس هي شعب كافرستان ، ولكن قياساتهم لم تؤخذ بشكل صحيح حتى الآن ، والظاهر ان عندهم كثيراً من الشقرة وبعض الملامح القديمة ولكن هذه من الامور التي ستعرف في المستقبل . ونجـد في جنوبي شبه جزيرة العرب وبالأخص في حضرموت وظفار ، عنصراً جعدي الشعر شديد السمرة يشبه صيادي هلمند ، ويشبه عناصر من السكان موجودة في جنوبي الهند وما وراءها ، قـد يجوز تصنيفها بين الشعوب البيضاء القديمة . ولكن هذا أمر يحتاج الى مزيـــد من الدرس .

كفانا ما تقدم عن العناصر البيضاء اللامتوسطية في الشرق الأوسط . وهذه العناصر متميزة في مظهرها وهي تعيش في مواقع جغرافية التجأت اليها في وقت ما ، وتعبر بوضوح عن خصائص عدد من الشعوب الخاصة التي انتقلت من ملجأها الى المدن الصغيرة والكبيرة لتتخذ لنفسها صنائع وحرفاً خاصة . ويهاجر أفرادها الى بلاد ما وراء البحار بنسبة تفوق نسبة هجرة الاكثرية التي يعيشون بينها ، وهي الاكثرية المكونة من شعوب البحر الأبيض المتوسط .

ان عالم الاسلام يضم أقساماً واسعة من أفريقيا تقع خارج نطاق الشرق الأوسط الذي وصفناه ، ويشمل كثيراً من آسيا والجزر القريبة منها . وكثيرون من الزنوج والمغول القاطنون خارج منطقتنا هم من

المسلمين . وأفضل مكان لدراسة هؤلاء هو جـدة ميناء الحج العظيم . اذ يستطيع الانثروبولوجي المقيم في جدة ان يحصل على قياسات وافرة لشعوب تعيش في بـــلاد بعيدة يصعب الوصول اليها . ومن الافضل بالطبع ان يقوم بهذا العمل انثروبولوجي مسلم . وقد أصبح بين المسلمين بالفعل عدد من الانثروبولوجيين .

على انه يعيش في داخل حدود المنطقة التي يبحثها هذا الكتاب أناس من السود والمغول ، وهم غريبون عن المنطقة ويشكلون أقليات فيها ، ويمكن في جميع الاحوال تفسير وجودهم وارجاعه الى اسبابه التاريخية .

وقد جاء الزنوج الى الشرق الأوسط بطرق ثلاث : من السودان الغربي الى شمالي افريقيا عبر الصحراء الكبرى ، وعن طريق النيل الى مصر ، وعبر المحيط الهندي والبحر الاحمر بالمراكب . وقد جاء معظمهم بعـــد انتشار الاسلام في السودان وفي افريقيا الشرقية بجهود التجار العرب . ومعظمهم ان لم نقل كلهم جاءوا عبيداً في الاصل ، وقد قاموا بأعمال شتى اهمها الاعمال التي سنصفها فيما يلي :

يقوم الافريقيون السود بالاعمال الزراعية في واحات الصحراء الكبرى ، وفي تهامه اليمن ، وفي وادي حضرموت الكئيب بـدلاً من العرب البيض والبربر ، لانه كان صعباً على هؤلاء ان يقوموا بهذه الاعمال في ظروف من الحر الشديد والرطوبة . وخدم الزنوج جنوداً في عواصم مراكش وانخرطوا في حرس السلاطين المستبدين الذين لم يكونوا يثقون بغيرهم من البشر . وسهر الحراس الزنوج المستأجرون على حماية القوافل السائرة في الصحراء الكبرى من غزوات البـــدو . ورافقت النساء الزنجيات ذوات البشرة الباردة الناعمة المشتهاة السادة الطوارق في غزواتهم ، وكن اول مفترش للمراهقين من ابناء الاثرياء في مراكش . وفي شبه جزيرة العرب رافق العبيد الزنوج الاوفياء سادتهم في كل مكان ، وأسدوا لابنائهم المشورة وحاربوا باخـلاص الى جانبهم ، وكان هؤلاء بدورهم

يقدمون لهم ولأبنائهم الطعام والكساء . وخدم الزنوج طهاة في مراكب التمور المبحرة من البصرة والكويت ، وأوكلت للخصيان السود مسؤولية السهر على عفة الزوجات والجواري في كل حريم ، من مراكش الى استنبول وسمرقند . وأعطى سلاطين الاتراك لبعض هؤلاء الخصيان السود مراكز عالية في الحكم وعين بعضهم ولاة في المناطق . ويختص العبيد المحررون وابناؤهم المختلطون في جميع البلاد من مراكش حتى العراق بعدد من الحرف في مقدمتها حرفة الحدادة .

ويعتقد الناس في امريكا بأن المسلمين وبالاخص المسلمين العرب ، لا يميزون بين الالوان بمقدار ما يميز الامريكيون ، ولكن هذا الاعتقاد ليس صحيحاً . فالعرب يعجبون بعبيدهم ويثقون بهم وكثيراً ما يحررونهم . والمسلمون المنتمون الى اصل زنجي لهم مثل ما لغيرهم من الحرية في الارتزاق ، ويعطي القانون لاشخاصهم واملاكهم نفس الحماية التي يعطيها لغيرهم . ولكن لا تفتح امامهم جميع انواع العمل في جميع البلاد الاسلامية . اما في امور الزواج فالعربي لا يفترق عن كولونيل الجنوب الامريكي . وليس أكثر من العرب افتخاراً بأنسابهم بل يستطيع العربي « في العراق على الاقل » ان ينال حكماً ضد شخص يتهمه كذباً بأنه من اصل زنجي .

لقد ألغي الرق رسمياً في تواريخ مختلفة في جميع الشرق الأوسط ما عدا الدول المستقله في شبه جزيرة العرب . وفي بعض البلاد الاخرى مضى وقت بين الغاء الرق وتحرير الارقاء . وفي مراكش يحرر العبد بمجرد الظهور امام محكمة حكومية . ولكن كان هنالك حتى الحرب العالمية الثانية عبيد لم يطلبوا التحرر ، او رهبوا الطلب ، وكانت هنالك حركة صغيرة للاتجار بالعبيد . وفي شبه جزيرة العرب يتضاءل الرق حتى بالرغم من عدم تحرير العبيد في بعض الاحيان ، وذلك لقلة ما يصل من العبيد نتيجة للمراقبة الدقيقة التي يقوم بها الاسطول البريطاني .

وكما ان حركة الاتجار بالزنوج العبيد لم تحصل الا بعد انتشار المبشرين والتجار المسلمين في افريقيا السوداء ، كذلك لم تدخل الشعوب المغولية الى الشرق الأوسط الا بعد ظهور الاتراك في القرن العاشر ، وفي اثناء حكم جنكيزخان . فالتحركات التركية القديمة وصلت الى اطراف هذه المنطقة وجلبت معها التركمانيين الذين استوطنوا سهل جرجان وانشأوا عدداً من الجيوب المعزولة في شمالي العراق في منطقة كركوك وفي سوريا . اما في الاناضول ذاته فان الاتراك اصبحوا العنصر المسيطر بين السكان ولكنهم لم يصبحوا العنصر الاكثر عدداً الا بعد قرون طويلة وبعد ان اعتنقوا الاسلام وذابوا فيه .

كانت الامبراطورية العثمانية القديمة مؤسسة حول نظرية فسيفسائية . فبقيت في الاناضول جاليات من الاغريق والارمن والاكراد وغيرهم من الشعوب القاطنة بجوار المناطق التركية . ولم تتغير هذه الصورة الا بعد سقوط الامبراطورية العثمانية « وتحديث » تركيا عقب الحرب العالمية الاولى . فالقومية تعني التماثل والوحدة ، وتتطلب ان تكون تركيا للأتراك ، ولذلك جرى ترحيل مئات الالوف من اليونانيين وتبادلهم مع الاتراك المقيمين في اليونان ، اما الارمن الذين لم يقتلوا ، فقد تركو البلاد بمئات الالوف ، واما الاكراد فقد واجهوا مصيراً مشابهاً من سوء الحظ . ولم يكن لهذا الامر تأثير كبير من الناحية العرقية ، اذ ان الاتراك لم يكونوا مغوليين الا بنسبة جزئية عندما قدموا الى الاناضول ، ثم اختلطوا مع الشعوب التي سبقتهم على نطاق واسع جداً ، واختلطوا مع النصارى البلقانيين ومع القفقاسيين بحيث يصعب في هذه الايام وجود تركي اناضولي تظهر فيه الملامح المغولية . فالاتراك متوسطيون وفيهم عنصر ألبي ، وهم بذلك يشبهون جيرانهم على الجانبين .

وعند التركمان دم مغولي قديم ما زال ظاهراً الى اليوم . وبالرغم من الامتزاج الحاصل على مدى الاجيال ، ما زالت العائلات التي تعتبر

نفسها عائلات نبيلة تفاخر بنقائها المغولي الذي يتميز في عرض الوجه ، ونتوء عظام الخدين ، وشكل العين الخارجي . وبينهم ايضاً نسبة عالية من الشقرة التي تشير الى اختلاط كبير بالدم الشمالي النوردي . والمتكلمون باللغة التركية في اذربيجان (مركز السلطة المغولية في ايران) يقعون بين الاتراك العثمانيين غرباً ، والتركمانيين شرقاً ، ومعظمهم متوسطيون في مظهرهم ، مع رأس أعرض وفك أكبر ، ويشيع عندهم نموذج مغولي جزئياً من حيث مشق العين . ويصدق الشيء ذاته على القشقاي في زاجروس الجنوبي .

ونجد الى الشرق نماذج مغولية أبرز . ففي ضواحي جرجان ترى اليوم قرية من المغوليين الخلّص وهم من القرغز الذين هربوا من الاتحاد السوفيتي قبل خمس وعشرين سنة . وتراهم يعملون على العربات ، وقد أصبحوا في هذه الفترة القصيرة شعباً متميزاً . والتجأ غيرهم من القرغز الى افغانستان . ومن المغوليين الخلص ايضاً جماعة البرابرة ، وهم من الفلاحين الشيعة المتكلمين باللغة الفارسية والقاطنين بين هرات ومشهد ، ويقال بأنهم من بقايا جماعات جنكيز خان . وهؤلاء ايضاً اتخذوا لانفسهم اعمالاً خاصة اذ يشتغلون خدماً وطهاة في البيوت . ويقع الازبك وسطاً بين التركمان والقرغز من حيث العراقة في المغولية ، وهم شعب تركستاني ، يسكن بعض افراده الضفة الجنوبية من نهر جيحون في افغانستان ، ويشكلون العنصر الرئيسي في سكان منطقة بلخ .

وقد يدهش السائح – على قلة السائحين – في وادي حضرموت الواقع في جنوب شبه جزيرة العرب عندما يرى ، على غير توقع ، مدناً تحتوي عدداً كبيراً من المغوليين الصغار الحجم ، الدقيقي العظام الى جانب النماذج العربية والافريقية . وهؤلاء هم ابناء التجار الحضرميين من زوجاتهم الجاويات والملايويات اللواتي جاءوا بهن من جزر الهند الشرقية .

إن شعوب الشرق الأوسط اليوم هي اكثر ثباتاً في مواقعها مما

كانت عليه قبل قرون عديدة ، يوم كانت القوافـل تنقل السلع من الصين الى ايران ، ومن مراكش الى مصر ، ومن ايران الى سوريا ومصر . فكان الفرس حينذاك يذهبون الى اسبانيا ، (ومنهم اخذ الاسبانيون كلمة استاذ كما يعتقد البعض) ؛ وكان الاندلسيون يذهبون الى الهند ، ولم يكن هنالك مـــا يعيق انتقال السكان من جوازات سفر وكوتات ، فتوزعت انسال ابناء الشرق الأوسط وانواع المهارة في جميع ارجاء المنطقة . حتى الاقليات المسيحية تسربت دماءها في الاكثرية الاسلامية ، من خلال باب الحريم ، واشترك أثرياء اليهود في هـذا التمازج الدموي عن طريق دخولهم بالاسلام . وربمـا كان السبب في وجود كثير من التناسق والوحدة لدى عرق البحر الابيض المتوسط هو الاستمرار في تقوية ذلك التشابه الاساسي عن طريـــق التلاقي في الدماء .

وكأن العرق لا يكفي وحده لتمييز الاجناس فيعمد افراد عدد من الاقليات الى ان يؤكدوا خصائصهم المميزة بالوسائل المصطنعة ، فيدخلون بعض التغييرات على المظهر الانساني سواء بقصد او بغـير قصد . فاذا نظرت الى الجانب الخلفي من رأس لبناني من الفلاحـين - ويساعدك على ذلك انه في الغالب اصلع - لرأيت انه منبسط وذو اتجاه عمودي ، وهذا الانبساط يجعل أعلى الرأس يبدو في شكل قمـة ، ويغير اتجاه الاذنين بحيث يتجهان داخلياً نحو الجمجمتين . فاذا القيت عليـه نظرة جانبية وجدت ان المسافة بـين فتحة الاذن ومؤخرة الرأس قصيرة ، بينما المسافة بين فتحة الاذن والانف عادية . امـا نتؤ الانف فيبدو وكأنه مسبب جزئياً عن ضغط من الخلف .

ان هـذا النموذج من شكل الرأس يحصل من طريقة نوم الطفل اثناء الفترة الاولى التي تعقب ولادته ، اذ ان الام تضع الطفل في مهد بحيث تهوي كتفاه الى اسفل ، ومـع ان الرأس حر في الحركة ضمن

هذه الحدود ، فمن الطبيعي ان يستقر خلفاً لا جانباً . والمخدة قاسية . وتستطيع الام ان تحمل هذا المهد على ظهرها وتترك يديها حرتين لغزل الصوف وهي سائرة . وفي استطاعتها ان تترك هذا المهد على الارض في الحقل او ان تعلقه على غصن شجرة وتطمئن الى سلامة طفلها اثناء عملها ، وهكذا تحل مشكلة الجلوس بجانب الطفل اتقاء إعطائه رأساً منبسطاً . وتعتبر الرؤوس المنبسطة من هذا النوع جميلة ، كذلك تعبث النساء ايضاً برأس الطفل بأصابعهن فيضغطن الجبين ويبرزن الانف .

وينتج عن ذلك نموذج الرأس والوجه المسمى بالنموذج الارمني او الديناري الذي كان الانثروبولوجيون ، لاجيال كثيرة ، يعتبرونه من خصائص عرق معين . ولكن اللبنانيين والسوريين والدروز والارمن والآثوريين وبعض الاكراد والجيلك والتركمان والقرغز وغيرهم يفعلون مثل ذلك ايضاً ، ويؤكدون بالتالي الاختلافات الجسمية بين أنفسهم وبين غيرهم من شعوب الشرق الأوسط .

واقل من هذا الاسلوب ثباتاً ومثله أثراً ، الطريقة التي يسرح بها الشعر واللحية . فالمسلم العادي المحافظ الذي لا ينتمي الى اقلية خاصة او طريقة خاصة ، يحلق رأسه بأوقات منتظمة ويحلق لحيته بالموسى سواء أكان سنياً ام شيعياً . واذا لم يكن متقدماً بالسن فان لحيته تكون قصيرة . غير ان هناك اختلافات تعكس اختلاف الاوضاع والاحوال . فالبدوي في الجزيرة العربية يحتفظ بشعر طويل خصوصاً اذا كان شاباً ويجدله في اربع ضفائر ، وقد يطيل فلاحو اليمن شعورهم ويرخونها من غير تسريح ، ويضفر بربر الجبال شعورهم في جديلة واحدة تسدل تارة على اليمين وطوراً على الشمال وحيناً في الوسط ، ويدل موقعها على الاختلافات في الانساب . والطريقة الفارسية القديمة في الحلاقة تقصر الشعر في أعلى الرأس وتجعده فوق الاذنين ، ويحلق اليهود مؤخرة

الرأس تاركين شعراً متوسط الطول فوق الجبين وجديلة طويلة تتدلى فوق الصدغين امام كل اذن .

واللحى المرسلة هي الشائعة بين الرجال الاتقياء من كل دين . ويحلق رجال الطريقة الدرقاوية في شمال افريقيا الشاربين تاركين السبلة من الذقن مشعثة ، ويفعل الحضرميون مثل ذلك (يقسم صديقي فريديرك وولس بأنه عندما كان ينقب في تورنج تيبي سنة ١٩٣٢ شاهد شيخاً تركمانياً ذا لحية مضفورة في جديلتين جمعتا تحت الذقن في جديلة واحدة وضعت كلها في جيب القميص) .

ويربي افراد طريقة جوناباد الصوفية في خراسان شاربين طويلين غير مقصوصين . وكانت مثل هذه الشوارب شائعة عند الاتراك والارمن ولكنها لم تبق الآن الا في اطراف بعض المناطق المجاورة للمنطقة التركية في البانيا ومونتينيغرو . ويحتفظ الارمن والآثوريون بشاربين صغيرين تحت الانف يسمونها الشارب السويسري .

وقد يضيف المرء الى هذه التفاصيل في شئون الحلق والتقصير ، عادة صبغ الشعر ، فتزداد المظاهر المميزة . فاللحية المصبوغة بالحناء ترمز عند العرب الى ان الرجل من نسل الرسول ، او انه على الاقل في غاية الورع . وفي ايران تخضب الرجال شعرهم بالحناء اخفاء للشيب وتشبثاً بالشباب . ويصبغ النساء شعورهن الشقراء باللون الاسود ، وشعورهن البيضاء باللون الاحمر ، ويطلين ايديهن وأرجلهن بالحناء في اشكال متعددة ترمز الى الحالة الزوجية او الى أزمة من أزمات الحياة . والمومسات يرسمن أحياناً بالحناء على أيدي زبائنهن على وجه العبث ، ليمنعنهم من العودة الى البيت قبل زوال تلك الرسوم .

وتستعمل نساء البربر والعرب الوشم ويجعلنه رسوماً تميز بين القبائل . ويوضع الوشم على الاذرع والايدي والوجه والرقبة والجسم والارجل

وتضع بعض قبائل جبال الاطلس الوسطى البربرية في مراكش وشماً من صليب يرسم عند ارنبة الانف . ونتف الحواجب شائع وكذلك استعمال الكحل في العيون للتداوي ولابداء العين واسعة نجلاء وهو ما تعلمته اميركا واوربا حديثاً . وتستعمل النساء في شبه جزيرة العرب مسحوقاً أخضر «ملخيت» يوضع تحت العيون لتظليلها ، وفي كل الاقاليم تستعمل النساء نوعاً من أحمر الشفاه .

ويتميز الناس أيضاً باللباس ، فللباس الرأس عند المسلمين أهمية دينية ، اذ يجب ان يغطي الرأس عندهم في جميع المناسبات الرسمية . والعمامة أرفع ألبسة الرأس وأكثرها محافظة . ويجب ان تكون في أفضل اشكالها كبيرة بحيث اذا نشرت غطت جسم صاحبها . وللمرء ان يلبس تحت العمامة طاقية لا حوافي لها ، تصنع من الصوف او القماش وتكون بسيطة او مستديرة . فاذا كان الشخص من الاتقياء فانه لا يحفظ في عمامته ذهباً ولا حريراً . ولحجم العمامة وطريقة لونها معان خاصة ، بعضها دقيق يرمز الى المحافظة أو الابتهاج ، أو الى بعض الخصائص الشخصية والمكانة الاجتماعية ، بشكل عام . وتختص العمامة الخضراء بمن حجوا الى مكة وبسلالة الرسول المنحدرين من بناته رقية وزينب وام كلثوم . واما المنحدرون من علي وفاطمة فيلبسون عمامة زرقاء[٢] . ويلبس أهل منطقة الريف عمامات صفراء من نوع خاص يصنع في ليون بفرنسا ، بينما يلبس الافغانيون والبطهانيون والبلوشيون عمامات كبيرة بيضاء ذات عذبة تسدل على الاكتاف .

ويلبس محافظو اليهود الشرقيين طاقية صغيرة سوداء من الصوف ، يغطون بها العشم المحلوق من مؤخرة الرأس ، ويجوز في يوم السبت

---

(٢) تختلف العادات حول لون العمامة بين مكان وآخر ، وما صدق على مكان ربما لم يصدق على غيره .

لبس طاقية حمراء بدلاً منها . وكان المسيحيون في الامبراطورية العثمانية (بما في ذلك لبنان وسوريا وأرمينيا) يلبسون في الايام القديمة وقبل اقتباسهم الزي الاوربي لبدة صوفية بطاق من القماش ، وكانت طاقيات الارمن واللبنانيين مخروطات مبتورة الرؤوس حمراء تناسب اشكال رؤوسهم تماماً ، اما طاقيات الاثوريين فكانت بيضاء في بعض الاحيان . وكان الزورواستريون في يزد وكرمان يلبسون عمامة صفراء مسترخية ويمنعون من شدها لكيلا تبدو كعمائم الفرس المسلمين .

وعندما كنت في اليمن سنة ١٩٣٣ كان مفروضاً على المسيحيين ان يلبسوا قلبقاً اسود من جلد الاغنام كالذي يلبسه أهالي آسيا الوسطى . وما زال التركمانيون من أهالي جرجان يلبسون غطاء رأس من هذا النوع ، وهو يبدو كالعجلة فوق الرأس التركي العريض ، ويلبس الافغانيون على رؤوسهم القلابق الصغيرة ذات الالوان المتعددة . وكان العثمانيون يلبسون الطربوش المغربي المشهور الذي يقال إنه مأخوذ عن البيزنطيين . وقد أدخلوه الى مصر وشمال افريقيا واختصت مدينة فاس بصناعته . ومع انه ممنوع في تركيا اليوم فهو لا يزال لباساً رسمياً للرأس بمصر . وهذا الطربوش المغربي يلبس في شمال غربي افريقيا الى جانب غيره من اغطية الرأس . ويلف بعض أثرياء المراكشيين حوله عمامة بيضاء تاركين أعلاه ظاهراً ، ويلبس المخزنيون وهم الشرطة الرسمية للحكومة الوطنية في مراكش طرابيش مخروطية لها «أزرار»* زرقاء . وكانت الشرطة الفارسية تلبس مثلها في سالف الايام . ويلبس الاقباط طاقيات بنية اللون . وكان الفارسيون قبل أيام رضا بهلوي يلبسون قبعات عالية غير محددة ، تشبه مخروط السكر بنية اللون او سوداء ، ويلبس أهالي لورستان قبعات كبيرة منها . ولم يتخل الاكراد

* زر الطربوش ، كما يقولون في مصر ، أو «شرّابة» الطربوش كما يقولون في ديار الشام .

عن أغطية الرأس الخاصة بهم ، ويختلف لبـــاسهم بين قبيلة وأخرى ، وأشهر أغطية الرأس عندهم تلك التي يلبسها افراد قبيلة الشقاقي* ، وهي كبيرة تشبه الفُطْر في شكلها ، ومصنوعة من الصوف وتثبت بشريط اسود أو كحلي اللون . وقد اهتم كل من مصطفى كمال التركي ورضا شاه بهلوي الايراني بغطاء الرأس واعتبراه رمزاً للرجعية او للتقدم ، وأمرا شعبيهما بلبس القبعة الغربية . غير انه لم يصدر من حاكم عربي مثل هذا الامر . ولبـــاس الراس التقليدي في الصحراء هو الكوفية والعقال ، وهو لباس جد عملي في العواصف الرملية يعتز العرب به كثيراً .

وللألبسة الاخرى ايضاً أهمية رمزية ، فجبـــاب اليهود سوداء والزورواستريين صفراء ، والأقباط حنطية وأهل السوس زرقاء . ويلبس العرب من سكان المدن الألبسة البيضاء فيما عدا تجـار العبيد الذين قد تكون ألبستهم الخارجية حمراء قبيحة . واذا لبس العرب سراويل فانها لا تظهر . ويلبس التركمان والأكراد والمسيحيون سراويل داخلية واسعة على وجه العموم لأن ذلك أدعى الى الراحة .

فاذا أضفت الى هذه الاختلافات العرقية الاساسية المسبحة والعصا ، عند اتقياء الشيوخ ، والصليب عند كهنة النصارى ، والاختلافات المادية الاخرى التي تميز الثروة او المكانة ، وكنت من الملاحظين العـارفين ، استطعت ان تعرف كل ما تريد عن الفرد في لمحة واحدة . فأنت تعرف لغته ودينه وحرفته ومقدار ثروته . وقبل ان تقترب منه تعرف بالضبط كيف يجب ان تتصرف معه وأي سلوك تتوقعه منه . وهذه المبالغة في الرموز المميزة تسهل التعامل التجاري والاجتماعي في مجتمع مجزأ . فهي توفر على الناس الاسئلة المحرجة والصمت والغضب والعنف . وهي جزء

---

* الشقاقي أو الشقاق او الشكاكي ، انظر نبذة عنها في عشائر العراق ٢=١٣٥ لعباس العزاوي (ط=١٩٣٧) [المراجع] .

جوهري من الآلية التي يحتاجها النظام الفسيفسائي ليؤدي عمله في يسر . أما أولئك الحكام من أمثـــال حكام مصر والعراق وايران ، الذين يتركون قضية اقتباس الزي الاوربي لتقدير الافراد واختيـارهم ، فانهم حكماء في موقفهم هذا . لان الزي الاوربي هو الزي السائد في المدن الكبيرة من دولهم ، اما في المقاطعات الريفية والجبـال فان الاحتفاظ بالملابس القديمة يلازم عزلة الحياة .

وفي بعض اقسام شمال افريقيا التي لا تزال السلطة السياسية فيها بيد الاوربيين تجد انـ الذين يلبسون الزي الاوربي هم الفقراء الذين لا يستطيعون شراء لباس غيره ، اما الأثرياء والمرفهون فلا يأبهون له ، بل يحافظون على طرابيشهم وجلابياتهم ، مع انهم قد يلبسون تحتها المصنوعات والاقمشة والمعـاطف الاوربية الرفيعة . فالطربوش والجلابية يرمزان الى وحدتهم في المطالبة بالحرية كشعوب مسلمة ، وعندما يلبسونها يؤكدون التقليد القديم الذي يميز كل جماعة بلباسها المفصح عن التقاليد والمثل العليا التي ينتمي اليها الفرد .

***

ولكن مـاذا نقول عن الانسان نفسه . هذا الانسان الذي يلبس الازياء المميزة ويقص لحيته بمختلف الاشكال او يحلقها ؟ ماذا نقول عن الدماغ داخل الجمجمة التي تبسطها المهـاد ، أو تبقى مستديرة كما ارادتها الطبيعة ان تكون ، وماذا عن عقل الرجل النـاضج الموجود في هذه المجموعة من الخلايا البيضاء والرمادية ؟ اي نوع من الشخصية يفصح عنه في السلوك اليومي هذا الرجل ، السائر بهدى عقل متنوع التدريب ، الخاضع لحالته الصحية العامة ، ولعدد من الغدد ؟ هل يسلك ابناء منطقة الريف بشكل يخالف سلوك العرب ابنـاء المدن ؟ هل تصرفات اليهود في حيهم «الملاح» على نحو مخالف ؟ هل صحيح انك تستطيع التنبؤ بما سيفعله أرمني في ظرف أو وضعٍ معينٍ ؟

يعتقد رجل الشارع في الشرق الاوسط اعتقاداً راسخاً بأن لكل جماعة عنصرية نمطاً من السلوك المقبول . ولا حاجة لي بأن أوجز هذه الانماط هنا ، اذ لا بد ان تكون قد اتضحت لنا بما قلناه في الفصول السابقة . والشيء الذي نحتاجه هو وضع تقدير صحيح للشخصية الثقافية وانطباقهـــا على شعوب الشرق الاوسط . ويجب ان يكون البحث موضوعياً ، لأن الموضوع شائك خطر . فـان نجح حركة « تغريب » الشرق الاوسط او فشلها ، يعتمدان الى حد كبير على الانتقال التدريجي في العلاقات المتبادلة بين الجماعـات العنصرية في فسيفساء كل دولة ذات سيادة . امــــا نحن الذين نشاهد هذه العملية من بعد ، فاننـــا نراها بوضوح أعظم .

يختلف الانثروبولوجيون كثيراً حول هذا الموضوع ، وهـــذا أمر منتظر . ويتخذ اختلافهم شكلين . فأولاً يعتقد البعض بوجود اختلافات عميقة في الانواع العادية القياسية من الشخصية ما بين الجماعات العنصرية في مختلف انحاء العـالم ، وينكر البعض ان يكون للثقافات شخصياتها الخاصة . وبين الذين يقرون بوجود الفروق نجد اختلافاً في الرأي بين الذين يؤكدون اثر البيئة والذين يؤكدون اثر الوراثة . فالجناح الايسر من البيئيين يرجعون الشخصية الثقـافية الى عادات الرضاع والى اوضاع الاطفـــال في المهد وتعليم التبريز . ولا يعلق أفراد هذا الجناح كبير أهمية على ما يحصل للطفل عندما يبدأ في أكل الطعام العــــادي وفي الجلوس في حقول القمح مع أقرانه . اما الجناح الايمن من هؤلاء فانهم يربطون الشخصية بالجسد ، اي انهم يربطونهـــا بالبنيان الجسدي ، ويعتقدون بأن الانماط الجسدية وراثية . وبما ان البنية الجسدية تختلف باختلاف السكان فان الشخصية المميزة في هذا الشعب أو ذاك تتنوع تبعاً لهذا الاختلاف .

واني اعتقد ان الجماعات العنصرية تمتلك بالفعل نمـــاذج فارقة من

الشخصية ، وهذا القول ينطبق على الشرق الاوسط على الاقل . فانا أعلم انني اذا اسأت الادب لتركي فسيبدو عليه الغضب وقد يضربني ، اما الفارسي فانه يتخذ في نفس الوضع جانب البرود المهذب . ويمكن لنا ضمن حدود معينة ، مع الاقرار باحتمال الوقوع في الخطأ ، ان نتنبأ بما يفعله أفراد من جماعات عنصرية مختلفة في اوضاع مفترضة ، يشترك فيها أجانب عنهم ، ولا استغرب ان يكون لكل من البيئة والوراثة أثر في ذلك ، بحيث يفيد كل منهما الآخر .

ولا شك في ان ابناء قبائل الجبال يكتسبون شيئاً من شراستهم من كثرة تذكيرهم ، اثناء الطفولة والمراهقة ، بالعار الذي لحق العائلة من جراء موت « العم علي » في نزاع حصل قبل عشرين سنة . ولا يستطيع المرء ان ينكر بسهولة عوامل التغذية والتعليم ، ووجود هواء الجبل او عدم وجوده ، وتختلف هذه العوامل كلها ايضاً بتأثير الوراثة ، فيغدو بعض الناس جسدياً اكثر عنفواناً من غيره . هذا وان النطق ، والنار ، والمقدرة على الاعتقاد بقوى غيبية ، هي الامور التي تميز الانسان عن الاشكال السفلى من الحيوان . ومـا يسمعه الانسان ، ويأكله ، ويفعله ، ويحمل على الاعتقاد به ، منذ اليوم الذي يبدأ فيه بتعلم الكلام حتى اليوم الذي يتسلم فيه مسؤوليات الرجال ، لا بد وان يؤثر في شخصيته عندما يكبر .

ان معظم الدراسات التي تمت حتى الآن عن الشخصية والثقافة ، أجريت على شعوب متجانسة منسجمة نسبياً ، تشترك في حال من العزلة . اما في الشرق الاوسط فالوضع عكس ذلك إذ نجد فيه عشرات الجماعات العنصرية التي تعيش على اتصال يومي فيما بينها . وتحتفظ كل جماعة بشخصيتها العنصرية بينما يقوّي التعامل اليومي بينها من حدة هذه الاختلافات ، لأنها جزء من نظام تقسيم العمل القائم على الاختلاف العنصري ، وهذا النظام هو مفتاح النظام الاجتماعي كله . وبكلمة

أخرى فانه يتوجب على الفرد عندما يتعامل مع أفراد الجماعات العنصرية الأخرى ان يتصرف بالشكل المنتظر منه . وعليه ان يتلبس نمط الشخصية العنصرية الذي ربي عليه ، سواء أكان هذا النمط ملائماً لقابلياته واتجاهاته ام لا . فان هذا هو النمط الذي يتوجب عليه ان يعرضه امام الناس .

اما شخصيته داخل جماعته العنصرية فشيء آخر . ففي المجتمع الغربي يتحتم على البائع ان يبتسم بتهذيب لكل زبون مهما كان مزعجاً ، ولكن ليس ثمة ما يمنعه من ان يصل أعلى المراتب في المحفل الماسوني الذي ينتمي اليه خارج عمله ، بحيث يأمر رفاقه بأن يقتربوا منه زحفاً على ركبهم وهم راكعون ، بينا هو جالس على العرش . كذلك اليهودي الذي ينسى نفسه طول النهار وراء كومة من البضائع في السوق الشرقي ، يستطيع ان ينال مركزاً محترماً هاماً عند المساء في حيّه ، بعد ان يغتسل ويرتدي الملابس المريحة النظيفة . والفلاح الذي ينحني امام صاحب الارض في الصباح ، قد يتصرف بكثير من العجرفة بعد ساعات امام فلاح أفقر منه جاء يستعير منه ثوره .

ولا خوف من القول بأنك واجد بين كل جماعة من الجماعات التي تعيش معاً في وحدة عنصرية واحدة بالشرق الاوسط ، جميع الأنواع العادية من الشخصية الانسانية . فبينهم القادة والاتباع ، والحكماء والبسطاء ، والمشاكسون والصامتون ، والذين يحكون انوفهم متفكرين . ومن اراد التأكد من قولنا هذا فليعش بلطف في مثل هذا المجتمع مدة تكفي لكي تجعل أفراد المجتمع ينسون ان بينهم غريباً ، وليلاحظ بتدقيق كل ما يقع تحت ناظريه . وسيتفق معنا هذا الملاحظ بأنه شاهد نوعين من الشخصية : شخصية الفرد وهو يتعامل مع العالم الخارجي ، وشخصيته المعروفة بين جماعته .

وحين تتهدم الحواجز بين الجماعات العنصرية ، وتخف الفروقات في

فرص التعليم والتغذية والعمـــل ، لا بد ان يتقلص النوع الأول من الشخصية وينمو النوع الثـــاني . وحين تتسع جماعة الفرد بحيث تشمل أمته ثم تشمل العـــالم الذي ينتمي اليه ، لا بد ان تؤكد الشخصية الحقيقية الموروثة ذاتها تأكيداً متزايداً . وذلك مثل أعلى يتلمسه جميع الذين يحبون الحرية . وعلينا ان نقر من هذه الناحية ، بأن ابن الشرق الاوسط كان دائماً حراً خارج عمله . اما الفرد المنضوي في الجماعية ، الذي يعيش في مجتمع مفروض عليه التجانس ، فليس بالفرد الحر . فكيف يمكن تحقيق الوحدة الثقافية دون ضياع الشخصية الفردية — تلك لعمري من كبريات المشاكل .

الفصل الحادي عشر

القرية

لقد دارت أبحاث هذا الكتاب ، حتى هذا الحد ، حول موضوع رئيسي واحد يمكن تلخيصه بما يلي : الشرق الأوسط جزء جاف نسبياً من سطح الكرة الارضية ، وهو اقل في الثروة الطبيعية من البلاد الرطبة التي تقع على جانبيه . ومزيته الرئيسية ، ان لم نقل مزيته الوحيدة[1] هي موقعه الاستراتيجي الملائم بين اوربا ، وافريقيا السوداء ، ومنطقة آسيا الوسطى ، والهند ، والصين . وقد اشتغل ابناءوه منذ بدء التاريخ وسطاء ، وبما انهم يقطنون مفترق الطرق ، فقد كانوا قادةً في فنون المدنية على الآف السنين .

ولعل أعظم ما حققوه هو نجاحهم في وضع اسلوب ، معقد نوعاً ، في الحياة ، يتألف من اعتبار الاقسام المختلفة من الاقاليم اجزاء في كل متناسق ، بدلاً من اعتبارها ممالك اقتصادية منفصلة . ولتحقيق هذا الامر ، انشأوا نظاماً مفصلًا من توزيع العمل على مراتب عديدة متميزة . فالمرتبة الاولى هي المستوى العنصري الذي بحثناه ، والمرتبة الثانية هي تقسيم المجتمع الى ثلاثة أنواع من الجموع ، القرية والمضرب البدوي ، والمدينة ، ويعتمد كل واحد من هذه على الآخر ، فتقدم القرية ،

---

(١) ما عدا الزيت فان البحث فيه غير داخل في نطاق هذا الكتاب .

الخضار والمواد الغذائية ، وتقدم البادية حيوانات النقل ، وتقدم المدينة السلع المصنوعة بما فيها الادوات . ثم ان القرية ومضرب البدو يزودان المدينة باللحوم والالبان والجلود والصوف . وكل واحد من هـــذه الثلاثة معتمد على الاثنين الآخرين لصيانة اسلوبه في الحياة ، وكل منها متخصص في عمله . والقرية اشد الثلاثة محافظة ، وأثبتها ، وأقلها تغيراً في السكان ، لانها اقلها تعرضاً لامزجة الملوك والتجارة والطقس ، ولانها تستطيع ان تطعم نفسها مدة غير محدودة اذا قطعت عن منافذها التجارية ومصادر تموينها .

ويحتاج ابناء المدينة والبدو مواد الاكل النباتية وفي مقدمتها القمح . ومع ان في المدن مختصين (الى جانب غيرهم من المختصين) بالزراعة ، يحرثون الاراضي المجاورة لاسوار المدينة مباشرة ، واثرياء يغرسون بساتين الفاكهة ، فان هـــذه الجهود لا تنتج عشر الاكل الذي تحتاجه المدن .

وينصرف القرويون الى زراعة الحبوب ، والحبوب تحتاج المياه . فاذا هطل في الشتاء مطر كاف ، امكنت زراعة القمح والشعير بوسائل الزراعة الجافة ، بينما تزرع الذرة بدون ري في المناطق المحظوظة القليلة التي تنزل عليها امطار صيفية . والذرة ، اذا ما زرعت اصلاً ، فانها تزرع في معظم القرى في اكعاب الجبال ليمكن ريهـــا . ولها عند المزارعين قيمة كبيرة لا لمجرد ان ابناء الشرق يحبون طعمها ، بل لانها وافية المحصول ، ولان قصبها واوراقها تصلح علفاً للدواب . وهناك نوع واحـد من الارز يزرع في الشرق الأوسط ، وهو يحتاج الري دوماً ، ويفوق جميع المحاصيل في قيمته ، لان الناس يحبونه طعاماً ، ولانه ينتج عشرة اضعاف القمح او الشعير .

ويعتمد موقع القرية اذن على الماء . وضروري ان توجـد امطار تكفي لزراعة الحبوب الشتوية وهي عادة القمح والشعير – والشوفان

في بعض المناطق الجبلية القليلة . ويجب ان تتوفر مقادير كافية من المياه للشرب ولسقي الحيوانات والطهي والاغتسال بين الحين والحين ، ولادارة طاحونة مائية ان امكن ، وان تكون هذه المياه كافية لري قطع صغيرة ثمينة من الربعان المحددة لزراعة بعض القطاني الغنية بالبروتينات ، وبعض البصل لاعطاء نكهة للطعام ، وبعض الذرة وربما ايضاً بعض الارز . فاذا كانت التربة ملائمة استعملت معظم الارض لانتاج محاصيل نقدية مثل الزعفران والفوه[٢] والافيون والتبغ .

ويجب توفر طعام الحيوانات ايضاً ، لان الاقتصاد هنا اقتصاد مختلط تعتبر فيه المنتجات الحيوانية ، وفي مقدمتها الحليب والصوف ، من المنتاجات المهمة . ويمكن للماعز والاغنام ان ترعى خارج نطاق الاراضي المحروثة في فترة نمو المحاصيل ، فاذا تم الحصاد رعت عصفَ القمح الحصيد . وقد تحتاج التبن في الشتاء ، اما الحمير المستعملة في النقل فتحتاج القش مثلما تحتاج الشعير والحشائش القليلة التي تنمو على مقربة من الجداول . وابقار الحليب وثيران الجر اللازمة للحرث يكلف اطعامها كثيراً ، لانها ثقيلة العظام ، محبة للماء ، فوجب ان توفر لها الحشائش ، والذرة ، والشعير في بعض الاحيان . وهي تقدم في مقابل ذلك الحليب والجر والروث الذي يستعمل وقوداً . وقلما ترى الخيل والجمال في القرى ، الا عندما يركبها الغرباء او اذا كانت القرية مركز شيخ محلي .

والتوازن بين الزراعة وتربية الحيوانات دقيق للغاية ، ويحسبه القرويون حتى آخر معزاة . فاذا زاد عدد الحيوانات عن طاقة الزراعة بيع قسم منها او ذبح بين الفترة والفترة لاعادة التوازن ، واذا كانت قليلة استبقاها القرويون وحافظوا عليها .

---

(٢) يجد القارىء وصفاً مفصلاً للطرق المعقدة في زراعة الفوه في كتاب :
Pottinger, Travels in Beloochistan and Sinde pp. 324-325.

ولا حاجة لزراعة الاشجار للخشب في بعض انحاء الشرق الأوسط التي تتوفر لها احراش كافية على ابعاد معقولة من مصادر المياه. اما في الهضبة الايرانية حيث قطعت منذ زمن بعيد الاشجار التي كانت نامية هناك في وقت ما، فان الفلاحين يخصصون قسماً من اراضيهم القريبة من الماء لزراعة الحور. والحور ينمو متلاصقاً بحيث يكاد يشكل جداراً من الجذوع، ويستعمله النجارون في بناء البيوت وتأثيثها، وفي صناعة المحاريث «والمدمّات» وغيرها من الادوات.

فاذا كثر الماء، زرع القرويون الفاكهة واشجار البندق والاشجار المؤتلفة مع المناخ، كذلك يتخذون التين المجفف، والمشمش، واللوز والجوز والزبيب مصادر للطاقة الانسانية السريعة في فصل الربيع عندما يكون مخزون الحبوب قد شح، وتكون حيوانات الحليب قد انقطع درّها. وتغلى الفواكه المجففة ايضاً فيصنع منها شراب ممتاز يغني عن السكر. ويباع البرتقال والرمان وغيرها من الفواكه الناضجة بالنقد في اسواق المدينة اذا امكن ايصالها اليها وهي نضرة. وكذلك البيض الذي يعتبر في كل مكان ملكاً للنساء.

واذا وجد مصدر كبير دائم للماء امكن بناء القرى حيث ينعدم المطر او يشح، وامكن زرع المحاصيل كلها رياً. وهذا هو الوضع السائد في وديان الانهر وفي الواحات. ولكن على العمال في هذه الاماكن ان يشتغلوا باستمرار ليوصلوا المياه الى حقولهم وليبعدوا الصحراء عنهم.

فاذا لم يحرث وادي النيل الضيق حتى آخر شبر منه سنة بعد سنة عادت اليه المستنقعات ونبتت فيه غابات من الاعشاب التي لا يمكن اختراقها. وفي العراق اصلح القليل من الاقنية المحفورة بين النهرين التي خربتها جموع هولاكو، وهذه ايضاً يغمرها الطمي باستمرار. وتقع الاطلال الضخمة المتبقية من مدينة نيبور العظيمة على قطعة من الاراضي

الرملية السفيّة الناعمـــة التي تسفها الرياح على الاخاديد المجدبة ، وينام ذئب في بيت بعثة التنقيب القديم فوق البرج . وواحة جغبوب التي لم تكن مأهولة قبلا ، احتاجت الى ان يبذل فيها اتباع الطريقة السنوسية مجهوداً ضخماً قبل ان امكن استغلالها لاطعام قسم من سكانها الجدد . وعندمـا انهار سد مأرب عادت اراضٍ كثيرة الى نطاق الصحراء ، وربما بلغت مساحتها ربع مساحة الاراضي الزراعية في اليمن .

وبالرغم من الجهد العظيم الذي لا بد منه لزراعة وديان الانهر ، ما زالت هذه الوديان تحتوي اكثر السكان في الشرق الأوسط ، وتتلاصق قراهـا تلاصقاً شديداً . وفي الواحات الكبيرة ايضاً تقترب القرية من القرية – ولدينا في واحـة تفيللت الواقعة جنوب شرقي مراكش مثل طيب . واحدى مدن هذه الواحة مدينة سلجماسة – التي كانت ذات يوم محطة شهيرة للقوافل . وتتباعد القرى في المناطق التي لا تصلها المياه الدائمة من الجبال الا بكميات محدودة ، او التي تمكن فيهـا ممارسة الزراعة الجافة . وهذا يسمح بوجود مدىً بين هيئة اجتماعية واخرى ، وبتخصيص قطعة من الارض لرعي الماعز وجمع الاحطاب والاعشاب الجافة .

حتى المزارعون الذين يعتمدون جزئيـاً على الامطار يبذلون جهداً شاقاً لضبط المياه الدائمة التي تصلهم ، ولاستعمالها على افضل وجه ، وهم يجرون معظم هذه المياه خارج مجاريها الطبيعية ، بواسطة قنيٍّ تشق في السفوح ، وتنصب المياه من هذه السفوح في قطاع اثر قطاع من الربعان الجبلية ، وهكذا يكون ارواء المهاد الجافة بدفقات سريعة من الماء . ويشاهد الزائر في الوديان الضيقة نظاماً من جذوع الاشجار المجوفة التي صفت كالقناة المصهرجة فوق الشعاب بل وفوق مجرى النهر نفسه .

وفي الاحواض الواسعة التي لا تظللها الاشجار في ايران ، وعمان وتركستان ، تتبخر المياه بسرعة ان تركت تجري في خنادق مكشوفة . ولذا فان اهل تلك البلاد يبنون اقنيتهم تحت الارض . وهذه الاقنية

تحتاج مجهوداً عظيم لئلا يطمرها الغرين . ويحتاج الزحف في انفاق تحت الارض يبلغ غورها خمسين قدماً ، وليس لها الا منافذ قليلة في جدران خشنة ضيقة — الى الشجاعة والمهارة . لذلك فان كثيراً من الناس سحقوا او اختنقوا فيها . وتزيد الاقنية في المساحة المزروعة من منحدرات الجبال حتى حدود الصحراء ، اذ لولاها لذهب قسم كبير من الماء هدراً . وهذه القرى التي تعتمد على هذا النوع من مصادر المياه تشبه الواحات وقرى ضفاف الانهر ، في انها معرضة للدمار اذا اهملت مصادر مائها .

والماء يعين مواقع القرى ، شرط ان تكون الحرارة ملائمة . فاذا كان حر الصيف او برد الشتاء عظيماً جداً ، فالموقع لا يصلح للسكن . ويحتمل الفرس ، والاتراك والبربر شتاء قد يصل برده بين الحين والحين الى درجة ١٥ تحت الصفر ، شرط ان لا يكثر الثلج . فاذا أضيف الى البرد الشديد ثلوج منتظمة الهطول ، يتراوح عمقها بين ثلاثة اقدام وأربعة ، وتستمر اشهراً طوالاً ، لم يمكنهم احتمالها لانها تقتل حيواناتهم . ولذلك فان المروج الغزيرة الكلاء في اعالي الاطلس ، وزاجروس ، وهندوكوش ، تؤم في الصيف للرعي وتهجر في الشتاء .

والماء يقرر الحجم الادنى للقرية ايضاً . فيجب ان تتوفر منه كميات تزيد عن حاجات عائلة واحدة مكونة من رجل وزوجته وابنائه غير المتزوجين ، لان مثل هـــذه العائلة تعجز عن تأدية جميع الواجبات المطلوبة في الاقتصاد الزراعي في الاوقات الضرورية . اذ مع ان الرجل الواحد قادر على استعمال المحراث ، فقلما يستطيع اقتناء الثورين اللازمين لجره ، وبالتالي فانه يشترك هو وجاره ، في ثورين . ومع ان مجموع ايدي العائلة يكفي لحصاد القمح اللازم لاطعامها ، فان الوقت اللازم لدرسه طويل ، وقـد يقتطع كثيراً من وقت اب العائلة فيعجز عن العناية بالمحاصيل التي تحتاج ارواءً . ولا بد من ان يصرف احد الاولاد

كامل وقته مع الاغنام والماعز خلال هذا الفصل ، لان هذه الحيوانات يجب ان ترعى بعيداً عن الزرع ، حتى تجمع المحاصيل . فاذا تكونت القرية من عشرين عائلة او ثلاثين امكن لهذا الصبي ان يعتني بقطعان القرية كلها ، وبهذا يستطيع ثلاثون صبياً او اربعون على الاقل ، ان ينصرفوا لمساعدة آبائهم .

وقد لا يكون رب العائلة الواحدة ماهراً في النجارة او في بناء الحجارة او حفر الآبار . وليس ثمة قابلة لتوليد زوجته ، كما ان زوجته قد تموت اثناء الولاده . وقد يمرض هو نفسه فلا يوجد من يأخذ مكانه ويعتني بأرملته واطفاله . اذن فالهيئة المكونة من عائلة واحدة لا تغنى شيئاً . وابناء الشرق الأوسط يعيشون على اساس المشاركة في الواجبات وعلى التخصص معاً ، حتى في القرى ، ولذلك فلا بد من ان تضم القرية عدداً من العائلات ، ونجاراً وقابلة وإماماً للصلاة .

وأقل عدد تستطيع به القرية ان تعمل وتحفظ وجودها هو اثنتا عشرة عائلة . وقد يختص بعض سكانها ببعض الامور جزئياً او كلياً ، ولكن الباقين يتضافرون معاً للقيام ببعض الاعمال الثقيلة التي يجب انجازها بسرعة في فصل الراحة ، مثل بناء البيوت . ولو كان رب العائلة افضل نجار — بناء في المنطقة ، فلن يجد الوقت الكافي لبناء بيته وبيوت غيره بمفرده .

فاذا كان هذا هو الحد الأدنى للقرية ، فما هو الحد الاعلى ؟ اذا وجدت كميات كافية من الماء ، فان القرى تتتابع على طول مجرى الماء أو على ضفافه . واذا كان الماء جدولاً جبلياً يجري بين ضفتين عميقتين ضيقتين ، وكان الحرث عبارة عن العمل في صفين من الربعان في كل حف قطاعان او ثلاثة متباعدة في الجبل ، فقد تتباعد بيوت القرية عن بعضها البعض وتمتد مسافة ميل او اكثر ، ولكن هذا الوضع غير مألوف . فالعادة ان تبنى بيوت القرية جداراً لصق جدار ، على أرض

غير منبتة نسبياً ، قريبة من الماء ، تحيط بها حقولها وعدد من الاشجار الظليلة ، واشجار الجوز والتين والحور المزروعة في مكان قريب يصلح للراحة . وتقع البيادر امام القرية .

ويغادر رجال القرية بيوتهم في الصباح الى الحقول ويعودون قرب المساء ليأكلوا وجبتهم الرئيسية . وكلما بعد الحقل زادت مسافة السير اليومي . وبما ان كثيراً من العمل يتطلب الثيران والحمير ، فانهم يسيرون بسرعة حركة هذه الحيوانات ولا تزيد هذه عن ميلين في الساعة الا نادراً . فاذا قضى القروي أربع ساعات في غدوه ورواحه من العمل فان أقصى مـا ينفقه من الوقت في العمل المنتج نفسه لا يزيد عن أربع ساعات يومياً ، وهذا يعني ان محيط الحقول المزروعة يجب ان لا يزيد عن اربعة اميال من موقع القرية . أضف الى هذا ميلاً أو ميلين من المراعي تجد أن القرى لا تتباعد فيما بينها اكثر من عشرة اميال ، شرط ان تكون جميع الاراضي الواقعة ضمن ذلك قابلة للزراعة .

والعــادة أن تكون اقرب من ذلك كثيراً ، لأن مسافات السير ليست العامل الوحيد . فالحقول التي تبعد ساعتين ، تصعب حمايتها من الحيوانات واللصوص . وقد يكون ضرورياً وجود الرجال ضمن النطاق الذي يصل اليه الصوت الانساني ، في فترات الاضطراب السياسي . وأهم من هذا ان القرية مجتمع من أفراد متوثقين ، يعرف كل منهم الآخرين ، وتعتمد علاقاتهم المتبادلة على التكيف الرفيع القريب المبني على المساعدة المتبادلة ، وعلى الأخذ والعطاء بشكل غير رسمي . وتسلم زعامة القرية ، في معظم القرى ، الى رجل او اكثر من الشيوخ الذين شاهدوا ابناء القرية وهم صغار ، والذين يعرفون كيف يعاملون كل فرد على اساس ما لاحظوه من عاداته واخلاقه . فاذا توسعت القرية خارج هذا النطاق القائم على حكومة غير رسمية ، مما لا يتطلب مختصين سياسيين متفرغين ،

ولا يُلهي احداً عن واجباته الزراعية ، فانها لا تنجح . والحد الأقصى للقرية على هذا الاساس هو خمسون عائلة او ستون .

فاذا اتسع النطاق عن هذا الحد ، اصبح البديل الوحيد عن وجود مختص او جماعة من المختصين بالسياسة المتفرغين لها هو قيام الاختلافات والمنازعات باستمرار ، والتنافس على الزعامة والتحزب لهذا الجانب او ذاك . والواقع انه اذا كبرت القرية كثيراً وتجاوزت النطاق الذي يكفل الامن الانساني ، فانها تتجزأ من جديد ويهاجر احد الاحزاب منها . فاذا وجدوا أرضاً خلاء في مكان آخر ، أنشأوا قرية جديدة ، والا ، انتقل المنشقون الى احدى المدن وذابوا في سكانها المجزئين .

وثمة جهاز آخر يكفل للسكان بقاء التوازن وهو الهجرة المستمرة او المؤقتة . فاذا تخصص القرويون في عمل ما فانهم يعتاشون من دخل الاختصاص الذي يمارسونه في الأرياف كلها . فاذا عادوا بعد ذلك الى موطنهم بعد ان يعتزلوا العمل ، فقد تكفي الاموال التي يأتون بها لتمكين ابنائهم الشبان من القيام بجولاتهم مزودين بآلات وأجهزة أفضل ، وقد تؤمن للقرية بعض رفاهيات المدينة .

وعندما تقع القرية على طريق تجارية مطروقة كثيراً ، ويكون موقعها ملائماً لقضاء الليل او للراحة في النهار ، فقد يقيم بعض القرويين اكواخاً بجانب الطريق ، يبيعون فيها البطيخ والخبز والشاي للمسافرين . بل قد تبنى الخانات ، وذلك لا بد من أن يؤثر في حجم المجموعة ومكانتها . واذا كثر الماء وحسنت التربة ، فقد تصبح احدى القرى مركزاً تجارياً لما حولها وينشأ فيها عدد من المخازن ، ولا تعود في عداد القرى . ويصبح تنظيمها اكثر تعقيداً ، ويحل محل اختصاصها القديم الأوحد — وهو الزراعة — اختصاصات جديدة متعددة .

ان المدن التي تنشأ على هذه الشاكلة لتغري الخارجين على القانون ،

وتجتذب انظارهم اكثر من القرى . ذلك لان القرية ليس فيهـــا إلا القمح والاغنام التي قد يأخذها المجرمون اذا وجدوها وإلا افراد قلائل يمكن بيعهم عبيداً ، غير انهـا لا تحوي صناديق ذهب ، ولا خيولاً ، ولا مخازن من الاقمشة الحريرية والقطنية الفاخرة ، ولا اسلحة نارية ولا براميل من ملح البارود . ولذلك فان المدن تحتاج الى الحاميات ، والحاميات تأكل طعاماً وتكلف مالا . ومن ثمّ قد يكون من الخير للجماعة من وجوه عدة ان تبقى قروية . فـاذا كان الموقع ملائماً جداً للتجارة ، وتوفرت الميـاه في وقت واحد ، امكن للقرية ان تنمو الى مرتبة المدن تحت شرط واحد من اثنين : فأما ان يكون موقعهـــا الجغرافي قريباً من العاصمة بحيث ان جنود الحكومة المركزية يستطيعون ان يصلوا اليها وأن يحموها في أي وقت من اوقات السنة ، في الظروف السياسية العادية ، او تكون بعيدة بحيث لا يستطيع جنود الحكومة المركزية ان يصلوا اليهـا اصلاً ، فتصبح مقاطعة ذات استقلال ذاتي ، وتصبح الحاضرة الجديدة عاصمة لهـا . والامر الثاني يقتضي تدهوراً في سلطة الحكومة المركزية وظهور زعيم موهوب ، او احتلال شعب قوي لذلك الموقع . وتقلبات التاريخ كثيراً ما غيرت مركز الهيئات الاجتماعية من قريـة الى مدينة ثم ردتهم الى مستوى القرية من جديد . وكثير من القرى اليوم يقوم فوق اطلال مدن كبيرة .

ان احدى الوســـائل التجارية عند المزارع أن يذهب الى المدينة لبيع محصوله فيهـا ، وقد تكون هذه هي الطريقة الوحيدة في بعض المناطق الجافة نسبياً . وفي غير هذه الاماكن توجد طريقتان أخريان : ففي وديان الانهر قد لا يزيد بعد القرية عن الاخرى سوى ميل او أقل ، فتنقل القوارب الاحمال الثقيلة من المنتوج كما تحمل الناس . وقد تنشأ اسواق ثابتة على ضفـــاف الانهر فيستطيع المزارع بيع محصوله وشراء معظم حاجاته في أي وقت ، دون الابتعاد كثيراً عن موطنه .

وذكر ابن بطوطة مندهشاً أول ما زار مصر «ان الاسواق متصلة من مدينة الاسكندرية الى مصر ، ومن مصر الى مدينة أسوان من الصعيد»[٣].

ويوجد النظام نفسه في الواحات الكبرى . فهناك تقترب القرى ايضاً من بعضها ويؤدي الجمل دور القارب في حمل الاثقال . والواحة كلها سوق واحدة . وفي عمان يخرج سكان قرى ومدن بأجمعها الى بساتين النخيل في فصل القطاف ، ويأتي التجار ايضاً وينصبون مخازنهم .

اما الطريقة الثانية فهي ايجاد سلسلة من الاسواق المتنقلة الاسبوعية . وهذا النظام معروف في القرى التي تقارب بعضها ، ولكن لا في خط مستقيم كقرى وديان الانهر والقرى القائمة على الاقنية الارضية للواحات ، بل التي تتقارب بشكل دائري في بلاد مكشوفة وفي الوديان المجاورة حيث المطر هو المصدر الرئيسي لمياه الزراعة ، فيحمل المزارع منتجاته الى سوق اسبوعي بدلا من ان يذهب بها الى المدينة . ويتاجر هنا مع تجار المدينة . ويعقد سوق من هذا النوع على مسافة قريبة من كل قرية كل يوم في الاسبوع ما عدا ايام الجمعة . وتعقد اكبر الاسواق ايام الخميس . ويدير السوق دلالون محترفون ، ووزانون ، وجزارون وكلهم يحافظون على النظام ويمنعون الغش والمنازعات ويقيمون ستة اسواق كل اسبوع .

ولهذه الاسواق مزايا عديدة . فهي تمكن المزارع من ممارسة التجارة ستة أيام في الاسبوع اذا شاء ، ولكنه يستطيع الحضور والانصراف في اليوم نفسه بينما قد تقتضي زيارة المدينة ان يقضي ليلته فيها . ويستطيع ملاقاة اصدقائه الوافدين من القرى الاخرى في اي يوم يشاء ، بينما تستمتع زوجته بلغو الحديث مع غيرها من النساء اثناء

---

(٣) Gibb and Bowen, Islamic Society and the West I, Pt. I, 50. [ورحلة ابن بطوطة ١ : ٦٧] .

بيعها البيض . وهذا كله خير له من الذهاب الى المدينة لانه ليس من السهل عليه أن يعرف متى يحضر القرويون الآخرون الى المدينة ، ثم بدلا من الاتجار مع حاضرة يقل التنوع في بضاعتها وتنخفض جودتها لانها تصنع محلياً في الحاضرة ذاتها ، فانه يتجر من خلال الوسطاء مع المدينة الكبيرة . وسرعان ما يتعلم التاجر المحترف ما يحبه زبائنه الدائمون في القرى فيزودهم بما يريدون . وهذا النوع من السوق ليس مفيداً فحسب ، بل هو ضروري في المناطق التي يكثر فيها المجرمون ، ولا توجد فيها المدن ، غير ان السياسة ليست العامل المحدد الاوحد ، بل يجب ان يكفي المطر لان تكون القرى التي تستعمل هذه الاسواق قريبة قرباً معقولا من بعضها بعضاً . ومن الجهة الاخرى ، لا تكون هنالك حاجة لاسواق اسبوعية منفصلة عندما تكون القرى شديدة القرب ، كحالها في الواحات او على ضفاف النيل . ولا تتوفر الاحوال الملائمة للاسواق الاسبوعية الا في منطقتين من الشرق الاوسط هما شمال افريقيا ، وشواطىء قزوين الايرانية — وهاتان هما المنطقتان اللتان توجد فيها هذه الاسواق .

وواضح ان بذور هذا النظام كامنة في الشرق الاوسط كله . ففي كل مدينة يعرف المتسوق انه لا يجد بعض السلع المعينة الا في ايام معينة من الاسبوع ، اذا كانت تلك السلع لا تنتج في السوق نفسه بل في القرى المجاورة . فالقبعات المصنوعة من القش ترد في صباح كل يوم اثنين . ويوم الثلاثاء هو يوم المزاودة على البغال ، وتباع الجمال ايام الخميس ، وهكذا دواليك . ويعرف الناس في المدن والقرى هذا المنهاج ، ويجلب كل بضائعه بموجبه . وعندما تتخصص بعض القرى في انتاج بعض البضائع فقد يجزيها ان تقضي اياماً في طريق الوصول الى سوقها .

ويمكننا القول الى حد ما بأن القرى متشابهة من طرف هذا الاقليم الى طرفه الآخر ، ولكن الشبه لا يتجاوز هذا الحد . فهناك عاملان

يؤديان الى نشوء الفروقات . وهذان هما : من الذي يملك الارض ؟ وهل الارض واقعة في منطقة حكومية او منطقة قبلية حرة ؟ فاذا وقعت في منطقة قبلية فهناك سبب آخر للفروقات وهو : هل المزارعون انفسهم هم ابناء القبيلة او يخدمون سادة من القبائل فحسب ؟ ان هذه الاسئلة تقع في نطاق الفصلين الخامس عشر والسادس عشر ولكن لا بد لنا هنا من بحث بعض نواحيها ، وسنضرب الامثال بعد الآن .

***

تقع قرية خونيك باي جودار في خراسان على بعد عشرة اميال من قاين ، وعلى مقربة من الحدود الافغانية . وتتألف القرية من قرابة خمسين منزلا بنيت متلاصقة الحيطان ، وتبلغ سقوفها ثلاثمائة قبة او اربعمائة (كما يظهر لنا الرسم رقم ٨) — وهي مبنية على سفح جبل قريب من احد الممرات الجبلية . وعلى بعد اميال قليلة شرقيها يقع الخط الفاصل بين حوض مياه اواسط ايران ، الذي تنصرف مياهه في صحراء دشت ـ لت ، وبين حوض هلمند . وتجتذب هذه الجبال للقرية امطاراً مستمدة من الرياح الغربية تكفي عادة لاعالة مئتي شخص مع حيواناتهم ، وقد لا يقع المطر في بعض السنين . وفي مثل هذه السنين يشد السكان أحزمتهم ويمارسون حياة التقشف ، ولا بد لبعضهم من الذهاب للمدن بحثاً عن عمل . وكان عام ١٩٤٩ هو العام السابع من قحط استمر سبع سنوات متواليات ، وقد ساءت احوال السكان كثيراً ، ولكنهم كانوا في معنويات حسنة . ومعظمهم أسياد من أحفاد الرسول ، وهم يملكون اراضيهم . ولكن الأمل لم يزايلهم بان المطر لا بد من أن ينزل ، ولا بد للحياة من أن تعود سيرتها الاولى .

هذه البيوت الخمسون تسكنها اربعون عائلة . وتتكون معظم البيوت

من طابق واحد ، الا حيثما يمكن بناء غرفة سفلية بسبب انحدار الجبل . والبيوت مبنية من الآجر المجفف بالشمس وتبنى القباب بمهارة فائقة توفيراً للخشب . وللبيوت ارضيات ممدودة بالسمنت الطبيعي وحوائط نظيفة بيضاء علقت عليها الملابس والزينات ، وبين المعلقات حجب مصنوعة من بذور بعض الاعشاب البرية . وفي بعض الغرف مواقد للنيران رغم قلة الوقود لاشعالها . ويلاحظ المرء تحت القرية ابواب غارين حفرتها يد السكان يسعان اغنام العائلات كلهـــا وماعزها في فصل الشتاء ، وفوق الغارين ، الى الشرق منها ، اصطبلان كبيران مبنيان بالحجارة تلوذ اليهما النساء أثناء قيامهن بحلب الاغنام .

وفي السفح الغربي تشاهد عدداً من البيادر في ظل شجرة جوز مهيبة . والبيادر منتدى القرية ، فيها يجتمع اهلها وفي ارجائها يرتاح المارون ، واليها يفد العابرون الفقراء طلباً للصدقة . وفي الشرق يترقرق جدول صغير تخرج مياهه من فم قناة حفرت من اعلى الجبل . هـذا الجدول ونبع القرية هما مصدرا الماء في القرية . ولاي امرىء ان يأخذ حاجته من ماء الشرب والطبخ والغسيل ، اما مياه الري فتقاس بساعـة المياه القديمة ، وتتكون الوحدة الواحدة من جريان ست دقائق . ومعظم هـــذه الوحدات مخصصة للحقول المجاورة ، ولكن بعضها يذهب الى الحمام ، وهو مبني منخفض ملاصق لحافة الجدول .

ويزرع رجال الحونيك الربعان الجميلة المحيطة بالقرية وهم لا يحتاجون دروساً من انسان في طرق الزراعة . ويبذرون القمح في بعض الربعان لانتاج طعام عائلاتهم ، ويزرعون قليلاً من الخضار . ويزرعون الزعفران فيما تبقى من الارض . والزعفران نبتة دائمة تنبت من بصيلة ، وتحتاج الى الاحوال الملائمة من تربـــة وشمس ورطوبة ، ولا تنبت الا في اماكن قليلة في العالم . ويتكون الزعفران نفسه من مدقـات الزهرة وسداتها ، واقتطاف هذه يحتاج الى انامل خفيفة رخيصة . ويتكون

رطل (باوند) الزعفران من ربع مليون زهرة ، ويباع بالمفرق في نيويورك بثمانية واربعين دولاراً . اما الخونيك فيبيعه بما يعادل خمسة عشر دولاراً . وهذا هو المحصول النقدي لهؤلاء القرويين . وهم اذ يعيشون في منطقة هامشية بالنسبة للزراعة ، استطاعوا ان يجدوا المحصول المناسب الذي يدر عليهم أعظم الدخل .

وتزودهم حقولهم بالمواد الغذائية الخضراء ، وتزودهم قطعانهم بالحليب واليسير الذي يأكلونه من اللحم . وتقدم القطعان الصوف ايضاً ، ويغزله الرجال عندما لا يكون بيدهم عمل يؤدونه . وتنسج النساء بعضاً منه قماشاً حنطياً ويأخذ الرجال هذا القماش الى قاين حيث يفصله الخياطون ملابس شتوية لهم . ويزرع القطن في بعض القرى الاخرى ، ويشتريه الخونيك قطناً خـــاماً ويغزله نساؤهم مستعملات المغزل اليدوي . ثم ينسجون الخيوط ويصبغونها بالحور الذي يشترونه ايضاً . وملابس القطن الزرقـاء هي الملابس اليومية للجنسين . ومن الصناعات البيتية الاخرى طحن القمح وعصر البذور للزيت . ولما كانوا يفتقرون الى القوة المائية والرياح القوية ، فـانهم يطحنون معظم قمحهم بالرحى اليدوية ، ولكن احدهم بنى في السنوات الاخيرة مطحنة يجرها حمار ولها حزام صنع من دواليب السيارات المهترئة .

لقد تكلمنا حتى الآن عن ضروب المهارة التي يشترك فيها جميع القرويين تقريباً . ولكن هنالك اثنين من المختصين المتفرغين احدهما نجار القرية ، وهو يشتري الادوات والخشب من قاين ، ويستطيع ان يصنع الابواب واطارات الابواب والمحـــاريث والمداري . وتدخل في حقل اختصاصه معظم حاجات القرويين من المصنوعات الخشبية . والثـاني هو الحمامي ، وهو يجر الماء الى الحمام ويوقده (ويجمع اولاده الاحطاب من التلال) ويحلق لزبائنه وغيرهم من القرويين . والحمام ملك للقرية ، ويتقاضى الحمامي بضعة ريالات في الشهر من كل مستحم .

وهنالك اربعة افراد متفرغون جزئياً : اختان قابلتان ربما تفرغتا كلياً لو كانت الولادات في القرية متعددة تعدداً كافياً ، ونجار ثان وجزار ، وهذا ايضاً ربما تفرغ كلياً لو زاد الذبح ؛ وهذا هو كل ما هنالك . ومن الحقائق الطريفة التي تربط بين هؤلاء الناس ان المتفرغين تماماً هما من الغرباء ، وكذلك القابلتان والجزار . وليس من اهل القرية ذاتها احد من المتخصصين سوى النجار المتفرغ جزئياً . وبين السكان غرباء ثلاثة آخرون ، اثنان منهما فقراء يعملون في اراضي الآخرين لقاء حصة ، وأصم أبكم وفد القرية قبل سنوات عديدة طالباً صدقة ، ولم يغادرها منذ ذاك الحين . ويتصدق القرويون عليه بالطعام والكساء . وكان يراقبنا كل يوم ونحن نحفر وننقب قرب القرية ، طوال شهر كامل ، لم يطلب اثناءه أية صدقة .

وبالرغم من وجود جامع صغير في خونيك ، فان القرويين يفضلون اجراء عبادات امسيات الخميس في احد البيوت ذات الغرف الواسعة . وليس في القرية عالم مقيم . فاذا لم يزرهم امام من القرى المجاورة قام احدهم بامامة الصلاة . وليس في خونيك حكومة رسمية ، ولكن الجميع يقرون ضمناً لحاجي عباس بالزعامة ، وهو شيخ وسيم يمتلك اكثر مما يمتلكه أي فرد سواه من اراضي القرية . فاذا اراد القرويون ان يغنوا ويرقصوا في المساء طلبوا اذنه . وكان يقدم لنا البطيخ ونحن ننقب ، وهو الذي رتب لنا الغرف التي نزلنا فيها .

ويأتي جابي الضرائب في شهر شباط (فبراير) من كل سنة ، ويعطيه القرويون جزءاً من خمسة عشر جزءاً من محصولهم من القمح او الزعفران او الافيون او النقود . ومع انهم يزرعون الافيون فانهم لا يدخنونه . ويدفعون عشر المحصول زكاة الى امام جامع قاين ، وتخصص هذه الاموال لضريح قم . ويدفعون الخمس لوقف عائلتهم في قاين ، ويحتفظون

بثلاثة الاخماس البـاقية او ما يقاربها . ويشترون من هذه حاجتهم من القطن الخام ، وأغطية الرأس الصوفية ، والاواني المعدنية ، والجرار ، والجور ، والاحذية ، والقناديل ، والكيروسين ، والفحم ، والشاي ، والسكر ، والبهارات ، والبسط ، والخزف المطلي ، والصناديق الخشبية المزخرفة ، والعمائم التي تدل على انهم من الاسياد . ويجدون معظم هذه السلع في قاين ، ولكن بعضها ، كأحذية النساء ، تستجلب من برجان ، وربما وصلوا مشهدوهم يفتشون عن الصناديق المزخرفة والعمائم الخضراء . وفي سنة ١٩٤٩ لم يكن في القرية سوى ثلاث عمائم خضراء كان حاجي عباس يلبس احداها . اما باقي الرجال فيتعممون بعمائم زرقاء تصبغها نساؤهم .

وقد نسهب في الحديث لو شئنا عن خونيك[٤] ، فهي قرية نموذجية ، سكانها فضلاء ، مجدون ، لطفاء ، سعيدون . وهم لا يكادون يشتركون في أمور الحكومة خارج منطقتهم ، ولا تتدخل الحكومة الا قليلاً في شؤونهم . واذا ارتكبت جريمة ، يفترض في حاجي عبـــاس ان يبلغ كتخدا القرية المجاورة ، وهذا يبلغ الامر بدوره الى شرطة قاين . ولحسن الحظ لا تقترف الجرائم في خونيك ، ولذا فـــان هذا التنظيم نظري محض . ولا يذهب القرويون الى قـــاين الا لتسجيل المواليد والوفيات ، وذلك فيما عدا الاشغال الخاصة .

والقرى الفارسية الشبيهة بخونيك موجودة لا في ايران وحدها ، بل وفي افغانستان ، وبلوجستان الباكستانية وبعض اجزاء الاتحاد السوفييتي . وفي خونيك يدفع الناس الضرائب للحكومة . وفي المناطق التي تسيطر عليها القبائل البدوية يدفع القرويون «الخوة» الى الشيوخ ، ومقابل ذلك يحاول هؤلاء كالحكومة ، ان يحموهم من كل اعتداء . والخوة اكبر

---

(٤) يقوم واحد من تلاميذي واسمه (Paul Schumacher) بهذه الدراسة .

من الضريبة بدون شك . ولكن حتى في المنـاطق الحكومية قل ان تكون القرى محظوظة مثل خونيك لان معظم اراضيها ملك القرويين انفسهم . (يحـاول الشاه اصلاح الوضـع) . وقد أعطيت بعض الاراضي في الماضي اقطاعات لنبلاء المحـاربين ولموظفي الحكومة مكافأة لهم على خدماتهم العامة . ولما كانت الاراضي ملكاً لكبار المالكين (ويسمونهم بالفارسية أربوب) فان المزارعين القاطنين على الارض او المستجلبين اليها يشتغلون للمالك . وبعض المالكين بدأوا حياتهم مزارعين مجدين وارتقوا واشتروا املاك جيرانهم . ولكن هذا نادر الحدوث .

وننتقل الى قرية يملكهـا احد كبار المالكين بالقرب من طهران ، ونرمز اليها باسم علي أباد(٥) . يعيش في هذه القرية مئة وعشرة من البشر وتتصف حياتهم بالعمل الشديد ، وقلة الطعام ، ورتابة الحياة . والبيوت نظيفة كحالها في خونيك ، ولكنها غير مصبوغة باللون الابيض ، وفيها قليل من النوافذ . يجتمع الرجال جماعات تتكون كل منها من اربعة اشخاص ومع كل جماعة محراثان يجرها اربع ثيران (ثور لكل رجل) . وهذه الجماعـات هي الوحدات التي تحرث أرض القرية . وتشتغل كل جماعة اربعين فداناً من الارض . وفي علي اباد ست جماعـات . ويأخذ كل واحد من افراد الجمـاعة حصته من محصول عشرة افدنة ، وينتج الفدان مقداراً يتراوح بين ثمانية عشر بوشل وعشرين . والمحصول الذي يتراوح بين مائة وثمـانين بوشل ومائتين يقسم خمسة اجزاء متساوية ، احدها للمالك ، وثانيها للماء ، وثالثها للبذار ، ورابعها لمالك الثيران ، وخامسها للمزارع الذي قام بالعمل .

ويمتلك المـــالك الارض والماء ، ويقدم البذار فتبلغ حصته ثلاثة

---

(٥) L. J. Hayden, «Living Standanrds in Rural Iran» The Middle East Journal III, No. 2 (1949), 140-150.

اخماس المحصول . ويملك الثيران أفراد قلائل في القرية ، فـــاذا ملك احدهم عشرة ثيران بلغ دخله ما يعادل دخل خمسة اشخاص ، وفي هذه الحالة لا حـاجة به لان يعمل . ومعظم المزارعين الذين لا يملكون الثيران ، ينـالون خمس ما ينتجون ، ولا يزيد هذا الخمس عن اربعين بوشل . ولا يكاد هذا يكفي لاعالة المزارع وعائلته ، ناهيك عن حاجته من اللباس . وقد تجمع زوجته خمسة بوشلات من اللقـاط بعد الحصاد فيتجمع لديهم من القمح ما يكفيهم اربعمائة يوم .

وقلما يقيم المالك في مثل هذه القرية ، بل العادة ان يعيش في مدينة كبيرة يفضل ان تكون عاصمة البلاد ، وقد تكون له فيهـــا وظيفة حكومية ، او قد يزاول المحاماة او الطب . وقد يكون للقرية الواحدة عدد من المالكين الذين يمتلك الواحد منهم حصصاً فيهـــا ، ويتغير المالكون كثيراً ، اذ يبيعون اراضيهم سداداً لدين لحقهم على مـــائدة القمار . ويأتي بعض المالكين الى القرية في الصيف او في مطلع الخريف ، وبينهم من يكثر من زيارة القرية ويقدم لاهلهـا العناية الطبية وغيرها من الخدمات ، ولكن هؤلاء قلة نادرة . وعلى أي حال يحتاج المالك الى وكـيل او وسيط ، ويجب ان يكون هذا الوسيط قوياً وقادراً على العيش بين نارين وعلى الصمود امام غضب المزارعين النـــاقمين على طالعهم . وهذا هو الكتخدا . وقد يصبح غنياً ولكنه لا يكون سعيداً (لقد بدا على كل كتخدا ممن رأيتهم منظر الاسى الشديد) .

وقد تكون البيوت ملكاً للمالك ايضاً ، وهنا يجري التنازع حول ترميمها . وقد تقرض الادوات للمزارعين ، وتراهم حينذاك يتركونها في الحقول لتصدأ ، او يستعملونها بدون اكتراث او عنـاية . والرجال الذين استخدمتهم في التنقيب كانوا يبدأون العمل بتكسير ما لدي من ادوات ، مثلما يكسرون ادوات مالك ارضهم وينتحلون لذلك الاعذار ، وقصدهم الحقيقي التهرب من العمل . وكان بعضهم في غـاية الفقر حتى

لقد كنت اضطر لدفع أجورهم كل مساء ، وبعضهم كان يطالب بالاجرة في منتصف النهار ايضاً . ولكن هذه المواقف لا تدوم طويلاً . فاذا كانت الاجور ثابتة ، وقدمت بعض المنافع ، كالخدمة الصحية اثناء العمل ، والأدوية المجانية ، فانهم سرعان ما يتعلمون العمل بمهارة واهتمام . وهم مادة انسانية ممتازة ، ويستحقون كل جهد يبذل لتحسين احوالهم . وقد سمعنا الكثير مؤخراً عن هؤلاء المزارعين في ايران . ويعيش غيرهم من المزارعين على نفس النمط في البلاد الاخرى . وتحـــاول الحكومة في ايران ان تحسن احوالهم ، وهذا هو سبب سماعنا أخبارهم .

* * *

وتقع اراضي الفلاحين المتكلمين باللغة العربية غربي جبال زاجروس ، وشرقي البحر الابيض المتوسط وشمالي شبه جزيرة العرب ، ويشكلون في هذه المنطقة سبعين بالمائة من مجموع السكان[٦] ، ويحرثون عشرين بالمائة من اراضيها . امـــا باقي الاراضي فجبال او صحارى . وهؤلاء السبعة ملايين ونصف مليون يعيشون كأشباههم الايرانيين البالغين عشرة ملايين ، في قرى تمر بنفس الدورات الزراعية على وجه العموم . وهناك اختلافات في المحاصيل تعود الى اسباب جغرافية . فمثلاً يعتبر زيت الزيتون المادة الدهنية الزراعية الأولى بالقرب من شواطىء البحر المتوسط في فلسطين ، ولبنان ، وسوريا . وينمو الزيتون في مواقع قليلة ملائمة شرقي هذه المنطقة ، ولكن يحل السمسم محله هنـــاك في توفير الزيت المطلوب . وينتج العراق كميات كبيرة من التمور ، وتنمو الحمضيات في اقليم البحر الابيض المتوسط ، ويزرع الموز على الساحل اللبناني . ويجري تبادل هذه الفواكه اليوم بفضـــل المواصلات السريعة وبرغم الحواجز الجمركية .

---

(٦) محسوبة على اســـاس عدد السكان قبل هجرة اليهود الى فلسطين . انظر Elizabeth Monroe, The Middle East, Royal Institute of International Affairs (London & New York), 1950) p. 475.

ويشتري المرء الموز اللبناني في بغداد ، وتمور البصرة في بيروت (اذا كان لديه نقود) .

غير ان اختلاف المحاصيل لا يؤثر كثيراً على تركيب القرية ، لأن مشاكل الزراعة متشابهة . فالقوى التي تعين حجم القرية قوى ثابتة ، وعلاقة القرية بالحاضرة والمدينة الكبيرة تؤدي الى تخفيض عدد المختصين بالقرية الى الحد الأدنى . وتقسم القرية الى عدد من العائلات الواسعة ، المكونة من ثلاثة اجيال وتطغي هذه العائلة على الوحدة العائلية البيولوجية المؤلفة من أب وأم وابناء ، وينطبق هذا القول على القرى الاسلامية والمسيحية سواء بسواء . وتضم العائلة الواسعة ما بين عشرة افراد وثلاثين ، يعيشون في حي واحد ، ويمتلكون ارضهم او يستأجرونها مجتمعين ، ويزرعونها معاً ، ويشتركون بالتساوي في حصة المحصول التي ينالونها[٧] . وعندما يموت الجد ، الذي يربط هذه المجموعة في اثناء حياته ، فانها تتجزأ الى عناصر متعددة ، وتبدأ الدورة من جديد . ولما كانت هذه العملية تجري باستمرار ، ولما كان الناس يهتمون بالقرابة ويقدرونها ، فان القرية نفسها تتكون من عدد كبير من المجموعات التي تدعي الانتساب الى جد واحد ربما كان هو مؤسس القرية أو ربما وفد اليها بعيد تأسيسها .

ويعيش افراد العائلة الواسعة معاً . فاذا لم يستطع الجميع ان يعيشوا في بيت واحد بنيت منازل أخرى بحيطان مشتركة . وكلما زاد الاقارب توسعت هذه الجماعات ويصبح للقرية احياء . وفي وسط القرية فناء مكشوف يجتمع الناس فيه ووراءه المبنى الديني ، جامعاً كان او كنيسة ،

---

(٧) بنيت هذا البحث على عدة مقالات للدكتور عفيف طنوس ، وفي مقدمتها :
«The Arab Village Community in the Middle East» Smithsonian Report for 1943, Pub. 3760 (Washington D.C. 1944) pp. 523-544; and «Land Tenure in the Middle East», Foreign Agriculture, Office of Agricultural Relations, VII, No. 8 (Washington, D.C. August, 1943),170-177.

وهو المركز المكاني للمجتمع . فاذا انقسم القرويون ديناً ، وجد في القرية ميدانان ومركزان دينيـــان ، وتصبح القرية - على حد قول عفيف طنوس - قائمة على عـامودين . وفي العقود الاخيرة نشأ مركز جديد في بعض القرى ، وأخصها القرى المسيحية في لبنان ، وذلك مركز البريد . هنا يجتمع اقارب المهاجرين الى اميركا وغيرها من البلاد الاجنبية عندما يصل البريد ، ليعرفوا اخبار اقربائهم ويتسلموا ما يرسلونه لهم من أموال[٨] . (وقد يكون بين الاخبـــار تعليمات عن زواج رجل من ديترويت بفتاة لم يرها في حياته ، وتكون الاموال المرسلة وسيلة لاتمام مثل هذا الزواج) .

وبسبب عادة استلام المال من الخارج ، وبسبب بعض الظروف ومن بينها تعليم النساء ، فان القرى المسيحية في لبنان وسوريا تملك من الاراضي التي تحرثها نسبة تفوق مثيلتها عند القرى الاسلامية المجاورة . وقد قوت العزلة هذا الوضع . وملكية الاراضي في الشرق الاوسط مسألة معقدة . فقد يملك المرء شجرة فاكهة مزروعة في أرض غيره او قد يملك حصة في تلك الشجرة . ومن اسباب ذلك القوانين العربية في الميراث ، وهي تقسم الاملاك العقارية أو حقوق العمل في عقارات الغير ، بين الاولاد كلهم ، بحيث يتساوى الذكور ويعطى الذكر مثل حظ الانثيين . وهذا يولد تجزئة معقدة . وربما كان قدر منه مفيداً لانه الواسطة التي تعطي كل مزارع حقاً باستعمال انواع متعددة من الارض ، بعضهـــا مروي وبعضها بعلي ، وبعضها قـاعي وبعضها سفحي ، وبعضها كروم وبعضها بساتين . ولكن المبالغة فيه تبطيء العمل بما يضيع من الوقت في قطع المسافة بين قطعة وأخرى ، وبالتوقف هنـا والسير هنـاك ، وفي زرع القطاعات الصغيرة المتلاصقة بمزروعات متباينة لتباين أصحابها . وبعد ضياع

---

(٨) Afif I. Tannous, «Emigration, a Force of Social Change in an Arab Village» Rural Sociology, VII (1942), 62-74.

بعض الوقت والجهد ، لا بد من عمل شيء مـا . اما نوع هذا العمل فمعتمد على نوع الارض وعلى اساس ملكيتها .

ويميز طنوس بين أنواع اربعة من الاراضي على هذا الاســـاس . فأبسطها الملك وهو الحق الفردي المطلق في الارض ، ويعطي صاحبه ، بعد دفع الضرائب عيناً ، حقوق التصرف في ارضه كيف شاء . وكانت بعض الاراضي الملكية املاكاً خاصة قبل الغزو الاسلامي ، فلم تؤخذ من اصحابهـا ، بينما منح غيرها لشيوخ القبـائل او للجند ايام الفتح او بعدها . وربما أعطي قسم منها للرؤساء الاقوياء مقـابل تكفلهم بشئون الحماية . ويستطيـع صاحب الارض الملك ان يستغلها بنفسه او يؤجرها .

غير ان معظم الاراضي الزراعية من فئة ثانيـــة من الارض هي الاراضي الميرى (اي الاميرية) او اراضي الدولة التي تؤجر تأجـــيراً موقتاً ، او دائماً لمن يستأجرها ضمن شروط اربعة : (١) اذا لم تستغل ثلاث سنوات متتابعة او (٢) اذا لم يكن لصاحبها ورثة — عـــادت للدولة (٣) لا يستطيـع صاحبها ان يوصي بها لانها لا تورث الا بموجب القانون و (٤) لا يستطيـع صاحبها ان يوقفها .

وهذا الشرط الاخير ينقلنا الى فئة ثالثة من الاراضي ، وهي اراضي الاوقاف الاسلامية والمسيحية . ففيما يخص القرى ذاتها قد تكون املاك الوقف عقـارات او حقولاً او بساتين ، او اشجاراً مفردة او ينابيع عامة . وتوقف الاملاك غير المنقولة مهما كان نوعها . ومع ان الاراضي الميري لا توقف ، الا ان من الجائز وقف محصولها . وهذا النوع الثاني من الامـــلاك الوقفية يسمى وقفاً غير صحيح ، تمييزاً له عن الوقف الصحيح الذي يملكه الوقف ولا يجوز بيعه . وليست الاوقاف كلهـا مخصصة للجوامع والكنائس كما سبق لنا ان رأينـا ، بل يخصص بعضها لأعمـال الخير المعينة ، بينما يوفر بعضها الآخر الدخل لذرية الواقف . اما الوقف الذي يحتوي سبيل ماء فينتفع منه الناس كلهم .

اما النوع الرابع من الارض فيعرف بالمشاع ، وتملكه القرية مشاعاً كما يدل اسمه . ولكل مزارع او عائلة اسهم فيه ، ويعاد توزيع اراضيه بين الفترة والفترة ، كأن يجري التوزيع كل خمس سنوات مثلاً ، ويقوم به شيوخ القرية ، وبهذا تزول التجزئة الناجمة عن وفاة المالك الاصلي عند وفاته وانتقال الارض الى ورثته . وتعتبر اراضي المراعي غير المزروعة الواقعة عند اطراف القرية ملكاً للقرية كلها ولا تقسم بين الافراد . ويسمح للقطعان المشتركة بالرعي فيها كلما ظهر فيها الكلاء . والطرق والممرات والبيادر تعتبر كلها ملكاً مشتركاً . وهذا النوع من الاراضي التي يشترك فيها الجميع دون تخصيص يسمى الاراضي المتروكة .

فتخصيص الارض بالتناوب اذن يحل مشكلة التجزئة في ارض المشاع ، ولا مشكلة اصلاً بالنسبة للاراضي التي توفر اللحوم والصوف والجلود والحليب . وبما ان القرويين (في لبنان على الاقل) يأكلون من الالبان بمقدار ما يأكلون من الحبوب — رطلاً لرطل — فهذا امر في غاية الاهمية . وهناك اجهزة اخرى لتنظيم الفئات الباقية من الارض . فالاراضي المخصصة للأوقاف لها مالك واحد هو الوقف ، وبالتالي لا تمكن تجزئتها . وبما ان الاراضي الاميرية تعود الى الدولة اذا اهملت زراعتها او اذا انعدم الورثة ، فانه يحدث بعض التجميع للاراضي بنتيجة هذا كله . اما الاراضي الملك ، فحتى في حالة وجود مالكين متعددين لها قد يرغب المالكون في ايجارها لمزارع واحد . ولا تبدو المشكلة حادة الا بالنسبة لاراضي الملك التي يزرعها مالكوها ، والحل الوحيد هنا هو البيع والشراء تجميعاً للارض (وفي لبنان تتناول كثير من المراسلات القائمة بين الاهل واقاربهم في امريكا اموراً من هذا النوع ، كما ذكر طنوس) .

ويسمع المرء الشيء الكثير عن اصلاح الاراضي في الشرق الأوسط . ويجب ان يكون واضحاً ان الحاجة تدعو الى اصلاح لا في مساحة

الاراضي التي يملكها المزارع الفرد فحسب ، بل في طريقة الملكية ايضاً . ولكن لكل هذه التعقيدات وظيفتها في مجتمع سابق للصناعة . فالاملاك التي لا يديرها أصحابها تكفل العيش لطبقة عليا من المتعلمين الحاذقين الذين يعيشون في المدن ، بينما تعمل الاوقاف ، والمشاع ، والمراعي المشتركة ، والعادات التي تسمح للفقراء بجمع مـا يتركه الحاصد في الحقول ، وبأخذ الثمار التي تسقطها الرياح – تعمل هذه كلها للمحافظة على مستوى معيشي بين المزارعين لا يهبط الى ما دون الكفاف .

وبعض القرى الواقعة في اطراف الصحراء العربية في العراق وسوريا والاردن منظمة في شكل اقطاعي دقيق ، ولها شيخ يحتفظ بالسلطة المطلقة فوق اتباعه من القرويين الذين يكونون جميعـاً في العادة من اقاربه . ومهما كانت ملكية الاوض ، فان الشيخ يوزع الاعمال ، واذا وجدت في الجوار مؤسسة غريبـة (كبعثة تنقيب عن الآثار مثلاً) فهو الذي يقرر من سيعمل بها ومن لا يعمل . ويأخذ حصة من كل من الاجور كحق وراثي له . ولهذا الشيخ محكمة علنية تعقد في مكان معين قد يكون خيمة ، وقد يكون ديواناً من القصب كما في جنوبي العراق . وهنا يجلس في صبر واناة ، يوماً بعـد يوم ، فيقدم القهوة لكل وافد ، ويقدم اللحوم المطبوخة في بعض المناسبات ويستمع الى شكاوى جماعته . وهو يقدم الولاء بدوره الى شيخ أعلى منه وهكذا يتدرج الولاء حتى يبلغ الشيخ الاعلى للقبيلة .

والتفسير الذي يقدم لهذه الظاهرة في سوريا والعراق هو ان هؤلاء هم من البدو والذين تحضروا حديثاً واصبحوا مزارعين مـع الاحتفاظ بنظامهم القبلي . ولكن المرء يشاهـد الظاهرة عينها في افريقيا الشمالية كلها حيث تعمل القبائل في الزراعة منذ قرون عديدة . امـا التفسير الوظيفي ، خلافـاً للتفسير التاريخي ، فهو ان المزارعين ينتظمون أو يستمرون في الانتظام بهذا الاسلوب عندما تصبح الحكومة المركزية

عاجزة عن ارسال الجنود لحمايتهم من البدو . والمزارعون المنظمون على هذا الشكل يستطيعون ، اذا توفرت لديهم الشجاعة ان يردوا مهاجميهم ويجتنبوا النهب ودفع « الخوّة » .

وبما ان التنظيم القبلي هو الشائع في شمال افريقيا ، وجب تأخير البحث في بنيان القرية في ذلك القسم من الشرق الأوسط الى ما بعد بحث موضوع القبائل في الفصول التالية . وللسبب نفسه وجب تأخير بحث الاقسام الزراعية من شبه جزيرة العرب . ولا بد لنا من ذكر اشياء قليلة عن حياة القرية في مصر ، حيث يزدحم السكان المتحضرون منذ ازمان طويلة ، وحيث يعود كثير من العادات والاساليب الى العصور السابقة للاسلام .

فأولاً كانت القرى المصرية اكبر من معظم القرى الاخرى . وسبب ذلك انعدام الصقيع ، وكون الارض منبتة لمحصولين او ثلاثة محاصيل بالسنة ، ولان محاصيل الغذاء الرئيسية كانت الرز والذرة . ويطعم محصول وحدة الارض من الرز والذرة اناساً اكثر عدداً مما تطعمه محاصيل القمح والشعير[٩] . وهكذا فان القرية المصرية كانت اقرب شبهاً بقرى الهند والصين منها بمعظم قرى الجموع الزراعية في الشرق الأوسط . ولم تنبت ضفاف النيل كلاء كثيراً ، ولذا فان ما يمتلكه الفرد من الاغنام والماعز اقل مما يمتلكه الفرد في معظم أنحاء الشرق الأوسط . والوضع افضل بالنسبة للابقار والجواميس اللازمة للحليب والجر . وكانت قلة الاغنام تعني قلة الصوف ، ولكن الطقس دافىء لا حاجة معه الى الاقمشة الصوفية ، ويكفي ان يكون اللباس من القطن او الكتان المنتج محلياً . ويقدم القطن ايضاً زيتاً للأكل هو زيت بذر القطن .

---

(٩) E. R. Leach, Social and Economic Organization of the Rowanduz Kurds, London School of Economics and Political Science Monographs on Social Anthropology, No. 3 (London, 1940).

ولما كانت القرية المصرية اوسع حجماً فقد اتسعت لاعداد اكبر من المختصين . وفيها عادة بائعان وخزاف او خزافان ونجـــار او نجاران وحلاق ، وربما وجد فيها حداد . ويقضي اثنا عشر رجلًا او ما يقاربهم اوقاتهم في حراسة سدود المياه ومخازن القمح . ولمسجـد القرية امام وفيها مدرسة دينية . ويتوسط بين الفلاحين ومالكي الاراضي ثلاثـة موظفين على الاقل . وللمالكين دوما اهميتهم . وكان يملك القرية رأسماليون يعرفون بالملتزمين – او جباة الضرائب ، وكانت وظيفتهم في الاصل اثناء الحكم العثماني جبايـة الضرائب ، ولكن لم يحتاجوا تاريخياً سوى خطوتين سهلتين لينتقلوا من جباة ضرائب الى مالكي ارض . فالفلاح في مصر مرتبط بالارض . ومع ان الشريعة حررته ، فقد بقيت العادات القديمة ، وكان الملتزم في العهد العثماني قادراً على اعادة المزارع الهارب . وكان احد الاقباط يخدم الملتزم « خازناً » وقد دعي بالصراف ، ويعمل « شيخ البلد » منفذاً اول له ، ويراقب « الشاهد » او محامي القرية مصالحه بين الفلاحين .

ولم تكن القرى كلها ملكاً للملتزمين . فاذا قسمت الاملاك مثل كل مالك شيخ مستقل . واصبح احد الشيوخ مسؤولاً عن الامن والنظام . وقد سهل مهمته قليلًا وجود جهاز من المبادىء المتعارفة . ومن هذه المبادىء عـدم فرض الضرائب على التمر ، فاستطاع الفلاحون ان يحتفظوا بكل منتوجهم منه . ومن المبادىء ايضاً تقسيم القرية فئتين : « الوصية » او اراضي السيد وتشكل عشر الارض ، واراضي الفلاحين وتشكل تسعة الاعشار الباقية . وكانت الاراضي الاولى تخصص لنفع الملتزم الذي افترض فيه ان يقدم ضرائب الاراضي الباقية الى الحكومة . ومنع القانون الملتزم من بيع الاراضي الاولى وحدها . وقسمت القرية كلها الى اربـع وعشرين وحدة ، كانت تسعة اعشار كل منها اراضي

فلاحين ، والعشر اراضي الوصية . وللملتزم ان يبيع ما شاء من هذه الوحدات ، ولكن ليس له ان يجزئها[١٠] .

ان التعميات والصور المتقدمة لا توفي موضوع القريـة في مجتمع الشرق الأوسط بأي شكل من الاشكال . ولكنها مجرد بداية فجة . ولا بد من بحث طويل في كل بلد من بلاد الشرق الأوسط قبل ان نستطيع الوقوف على صخرة ثابتة من الحقائق . وعلينا ان نذكر بأننا لم نشر الى تنظيم القرية خارج النطاق الحكومي الا بصورة جد عابرة . والبحث فيها الآن استباق لما سنبحثه فيما بعد .

وثمة نقطة أخيرة ، وهذه تختص بمستوى آخر من مستويات تقسيم العمل ، وهو التقسيم بين القرى التي تمتلك مزايا جغرافية خاصة والتي لا تمتلك مثل هـذه المزايا . ففي مراكش مثلاً لدى قرية مديونة الواقعة جنوب (راس سبارطل) على الساحـل الاطلسي ، اراض تكفي فحسب لاطعام سكانها . ولكنها لا تنتج فائضاً يتبادل مع سلع اخرى ومرفهات صغيرة . وقد وجدت الطرق لاستكمال هذا النقص اذ يشتغل معظم الرجال بين الحين والحين في مقاطع الحجر الواقعة قرب كهوف هرقل ، على مسيرة نصف ساعة . فيقتطع « المعلمون » هذه الحجارة وينقلونها بعد ذلك على البغال لتباع في طنجة ومنها في سائر انحاء مراكش[١١] .

ومثال آخر يتعلق بقبيلة تغزوت الشهيرة في صنهاجة سرير الواقعة شمالي فاس مباشرة . فهنا يشتغل سكان عدد من قرى الغابات الباردة

---

(١٠) هذه المعلومات عن القرى المصرية مأخوذة من كتاب (Gibb and Bowen) السابق (I, pt. I, 261-263) . وقـد قال جب في حديث خاص : « ان وصف القرية المصرية الوارد في كتابنا يعود الى القرن الثامن عشر . وقد ازال محمد علي جميع هذه الاعراف ، واوجد محلها احتكاراً حكومياً للارض ، ثم تأسس في حكم خلفائه نظام الملكية الفردية غير المقيدة للارض » .

(١١) لقد انهى (William D. Schorger) دراسته هـذه القرية وسيقدمها اطروحة لشهادة الدكتوراه من جامعة هارفارد .

بدبغ الجلود وصنع الحقائب الجلدية المشهورة في ارجاء مراكش كلها . ويمكننا سرد امثلة اخرى . وان من نتائج هـذا التخصص في العمل زيادة السكان القرويين عن طريق اعطاء سكان المناطق غير الخصبة وسيلة لشراء الطعام المكمل لانتاجهم القليل . امـا اذا تدنت الخصوبة عن ذلك ، فلن يستطيع البشر العيش ما لم ينتقلوا من مكان لمكان ومن فصل لفصل كما سنرى في الفصل التالي .

الفصل الثاني عشر

مَضاربُ الصحراء

لقد رأينا مقدار اهمية العوامل الجغرافية في تقرير مواقع القرى ، وتباعدها ، وطرق متاجرة سكانها مع المدن . وفي وسعنا ان نوسع الموضوع ، فنقسم الشرق الاوسط كله الى ثلاثة اجزاء جغرافية على أساس ملائمة كل جزء لعمل من الاعمال . فالجزء الاول هو الاراضي الملائمة للقرى المتحضرة ولحياة المدن ، والجزء الثاني هو الذي لا يلائم أي نوع من انواع العمل الانساني ، والجزء الثالث وسط بينهما بحيث لا تمكن الحياة الانسانية فيه الا اذا كان السكان مجهزين بوسائل التنقل الفصلي ، او اذا نزل المطر ، او اذا توفرت وسائل التنقل والمطر معاً .

وهذه الاراضي المتوسطة تصنف الى فئات ثلاث : الاقسام المسكونة من الصحارى ، والمراعي الجبلية ، والنجاد . ويجري الانتقال من الاراضي القروية الى المراعي في كل فئة بشكل تدريجي ، وبالتالي يمر المرء بانظمة اقتصادية انتقالية . وتتوفر للبدو عين الحيوانات في هذه الانواع الثلاثة من الاراضي وهي الجمال ، والخيل ، والحمير ، والثيران ، والجواميس المائية ، والاغنام ، والماعز . وهذه هي نفس الحيوانات المتوفرة للفلاحين ، واذا استثنينا منها الجمل والجاموس ، فهي معروفة في الشرق الاوسط منذ أقدم الازمان .

وقد وجد بدو كل فئة من هذه الفئات الثلاث المنقسمة حسب نوع الارض مجموعة خاصة يختارونهـا من هذه الحيوانات السبعة ، من حيث وجدوها تلائم غـاياتهم اعظم ملاءمة . وبنوا تجاربهم على تفاعل عدد من اعتبارات أخرى – عـــدا نظرتهم الى قيمة الحيوان وكونه مصدراً للصوف او مصدراً للشعر واللبن واللحم . اما تلك الاعتبارات فهي ما يتطلبه الحيوان لطعامه ، ومدى مقاومته للعطش ، ومقاومته للبرد ، وسرعته ، ومقدرته على اجتياز الاراضي الوعرة ، ومقدار مـا يستطيع ان يحمله . وعلى ذلك فان الجمل هو الحيوان النموذجي للصحراء الفضاء ، والحصان حيوان نموذجي للنجاد . والاغنام التي يقتنيها الفلاحون ، ملائمة ايضاً للبدو البطيئين المقيمين في اطراف الاراضي الزراعية في الصحراء والنجاد ، ومناسبة لرعاة الجبال الذين لا ينتقلون الا مرتين في السنة بين المروج الباردة العالية ، والسهول الدافئة .

وتنقسم صحاری الشرق الاوسط صنفين . فالصحراء الافريقية والصحراء العربية من فئة الصحارى المنبسطة والرملية ، بينما الصحارى الايرانية من النوع الجبلي والبلسني . وفي الصحارى الاولى يتكون المشهد من منبسطات متنوعة الارتفاع ، فيها بعض الجبال ، وكثير من الوديان الجافة الجاردة التربة . وتغطي الحجارة الكبيرة قسماً من الصحراء ، وتغطي الرمـال قسماً آخر ، الا ان معظمها مغطى بالحصى . وينزل المطر اثناء الشتاء على الصحراء بكميات متفاوتة ، وباختلافات عظيمة بين فصل وفصل . وتهطل على المنبسطات العالية والجبال امطار اغزر من تلك الهـاطلة على الاراضي الواطئة ، اذا تساوت الظروف الاخرى ، ولكن المطر يبلغ حداً بالغ الضآلة في بعض اقسام الصحراء الواقعة بين مهاب الرياح الغربية ومجاري العواصف الموسمية ، مهما بلغ ارتفاعها . والصحراء الليبية والربع الخالي هي أجف المناطق كلها . وتوزع العواصف في غيرها من الامكنة بعض الرطوبة بشكل غير منتظم ، وتطغى الوديان الجـــافة بالسيول المفاجئة . وقد يكون مستوى الماء الجوفي عالياً في قاع الوديان فتصله

جذور اشجار النخيل . وتزود الآبار الجمال بالماء وتوفر مياهاً لبعض البقع التي يمكن ريها . وتنبت اقسام واسعة من الصحراء الافريقية والصحارى العربية في بعض الاحيان كميات من الكلاء تكفي لاعاشة حيوانات البدو .

والصحارى الجبلية والبلسنية اكثر قساوة من غيرهـــا . ويتشكل المنبسط الايراني الذي يشمل معظم ايران وافغـــانستان من حلقة من الجبال المحيطة بعدد من الاحواض المائية . وفي المركز الاجوف لكل حوض تقع واحدة من الصحارى التالية : دشتِ ـ كبير ودشتِ ـ لت ودشتِ ـ مارجو . ولا يهطل على هذه التجويفات اي مطر أصلاً ، اذ تترسب المياه التي تحملها الرياح الغربية على قمم الجبال المجاورة . والمياه التي تنزل على السفوح الخارجية تجري في جداول قصيرة الى المحيطات والبحار ، اما الميـاه الهاطلة على السفوح الداخلية فتتصرف في تجويفات الصحراء ، وهنـا تصبح مالحة قلوية غير صالحة للشرب – حتى لشرب الجمال . وعلى ذلك فالاراضي المنـاسبة للبدو نادرة ومحدودة في الاقسام الجنوبية الشرقية من الحلقة الخارجية للمنبسط (واذا استثنينـــا ثغرة السند ، فان هذه البلاد متصلة بصحراء ثار في باكستان ، وهي من فئة الصحارى المنبسطة والرملية) ، وهي الاراضي التي لا يكفي المطر فيها للزراعة ، وأراضي البلاد المحيطة بمصب هلمند .

ونجد في الاقسام المنفصلة الثلاثة من الشرق الاوسط الصالحة للبدو ، ثلاث مجموعات من بدو الجمال : البلوشيين وبعض البراهويين في بلوشستان ، وبدو شبه جزيرة العرب والطوارق المتكلمين باللغة البربرية وبعض البدو العرب في الصحراء الافريقية[1] .

---

(١) وبين ســكان الصحراء الافريقية بعض البجة وفروعهم من البشاريين ، والهدندوة ، وهم يتكلمون لهجات كوشية ، ويعيشون بين اعالي النيل ، وجنوبي أسوان والبحر الاحمر . ولما كانت روابطهم الثقافية سودانية وحبشية فانهم يخرجون عن نطاق هذا الكتاب .

ولهؤلاء جميعاً بعض الخصائص المشتركة ، وهذا امر منتظر . وتميزهم هذه الخصائص تمييزاً حاداً عن معظم القرويين .

فللقرية حد اعلى من الحجم يبقى ثابتاً من فصل لفصل ومن سنة لسنة . اما مضرب البدو فليس له حجم أمثل واحد ، بل هناك أحجام مثلى متعددة ، تختلف كثيراً باختلاف الفصول ، وقد تختلف في الفصل الواحد في سنوات متعددة . ويعيش القروي والبدوي حياة قاسية ، صحية ، في العراء ، ولكن الاعمال القروية أعمال مكرورة دورية ، بينما اعمال البدو مضطربة غير منتظمة . ويعرف القروي ما سيحصل في كل فصل ، وفي كل يوم ، وفي كل ساعة ، لانه اعد تقويمه ابتداءً منذ مئات السنين . اما البدوي فليس لديه مثل هذا الترتيب ، وهذا امر يتطلب منه مزيداً من اليقظة .

ثم إنَّ القروي لا يحب ان يحارب الا اذا كان يسكن منطقة جبلية منيعة وينتمي الى عصبية قبلية . وهو يدافع عن موطنه بمرارة اذا اضطر الى ذلك حتى لوكان يعيش في السهل وفي المناطق المكشوفة ، ولكنه يجد من الاسهل عليه ان يدفع الضريبة او الجزية بدلاً من ان يعرض محصوله واغنامه للخسارة اذ انه فريسة سهلة للغاية . اما البدو فان تقلبات الطقس تجعلهم يتنافسون فيما بينهم تنافساً حاداً وبقاؤهم يعتمد على الحرب . فالبدوي اذن محارب ولديه جميع صفات الحرب من كبرياء وصلف وعنجهية .

وللقرية تنظيم بسيط . وقد حددت العادات والعرف منذ زمن بعيد مجالات الاختلاف . والزعامة في القرية رخوة وغير رسمية . أما المضرب البدوي فله نظام أعقد لانه يضم عدة اصناف من الناس ، ويحتاج زعامة قوية حازمة لان البقاء يعتمد على هذه الزعامة . ويفتخر المحاربون بأنسابهم خصوصاً اذا انتموا الى العائلات الكبيرة ، بينما لا تهم القروي نسبياً هذه الامور .

ويختلف مقدار المعلومات العنصرية المتوفرة لدينا عن البدو في هذه المناطق الثلاث اختلافاً كبيراً . فلدينا معلومات عن البدو العرب أوفر منهـــا عن اي شعب آخر في الشرق الاوسط . وعندنا اربعة ابحاث ممتازة عن الطوارق ولكن معلوماتنا عن البدو البلوشيين والبراهويين قليلة جداً . هذا امر مؤسف للغاية لاننا نرجح ان هذه الشعوب الاخيرة هي اول الشعوب التي استعملت الجمال في الصحراء . ومعلوماتنا عنهـا تعود الى ما قبل مئة سنة وأكثر ، عندما ارسل البريطانيون بعض الضباط لدراسة احوالها .

ويمكننا اعتبار البراهويين والبلوشيين شعوباً متشابهة لان كلّا منهـا حافظ على استقلاله السياسي حتى حوالي القرن الاخير ، ولان كلّا منها يتكون من عدد من القبـائل المصنفة الى مراتب حسب كثرة الشرف أو قلته على أساسٍ من الولادة والانساب . وترفض العائلات الرفيعة في كل منها تزويج ابنائهـــا الى الغرباء وتقسم العائلات الى « أقوام » او مضارب لكل قوم شيخهم المحلي ، وقـد يكون للقوم مركز ثابت في مكان حصين مزود بالماء الثابت اولاً يكون .

ولكل قوم منطقته المعينة ومضاربه الفصلية التي يرعى فيها ابنـاؤه حيواناتهم . ويعيشون في خيام سوداء ويقال انها تغطى باللبود[٢] مع ان الخيام التي رأيناها كانت مصنوعة من شعر الماعز كخيام البدو العرب . وليس ثمة بيننا من يفكر في صنع خيـام سوداء لاستعمالها في عروض شمالية لان اللون الاسود يجتذب الحرارة . ولكن بدو الشرق الاوسط كلهم يستعملون الخيـام السوداء ، فما سبب ذلك ؟ الجواب : هو انهم يتنقلون كثيراً في الليل ويحبون ان يناموا او يجلسوا في الظل اثنـاء النهـــار . ويضربون خيامهم بحيث تنال اكبر قدر من الهواء . ومهما

---

(٢) Pottinger, Travels in Beloochistan and Sinde p. 61.

تكن الصحراء فان فيها نسمة لطيفة . ويسمح شعر الماعز بمرور الهواء لانه غير محكم النسج ، ويشتد اذا ابتل فيمنع نفاذ الماء . وحركة الهواء داخل الخيمة تزيل أثر الحرارة التي تمتصها الخيمة . الا ان وصول الضوء مشكلة وبالاخص وصول الاشعة الفوق البنفسجية . فنسيج الخيمة السميك الاسود يمنع كل ضوء ويستطيع البدوي أن يرتاح هو وزوجاته وأطفاله في ظلال الخيمة لانها ابرد من القلاة ، بل وأبرد من داخل الخيمة المغلقة التي يخترقها الضوء والتي تباع لهواة المخيمات والتخييم .

وما زال هؤلاء البلوجيون بدوا (لقد تحضر الكثيرون منهم في وادي السند بالهند واصبحوا مــلاك أراضي ووكلاء للمالكين وجنوداً مرتزقة) . وهم يرحــلون رحلتين في السنة ، احداهما : رحلة الصيف ويتجهون فيها الى المناطق الداخلية المرتفعة ، والثانية : رحلة الشتاء ، ويذهبون فيهــا الى المناطق الساحلية المنخفضة . ويذبحون في أواخر الخريف عدداً من اغنامهم ويحفظون لحومها بتجفيفها بالشمس او بتدخينها فوق نيران من الخشب الاخضر . ويصنعون الجبنة والسمنة من الحليب ، ويحتفظون بها للفصول العجاف ، وتصنع نساؤهم البسط والبطانيــات والسجاد من فائض الصوف ويعرضون هذه السلع للبيع .

وكان يرأس كل قبيلة بلوجية امير يتسلم السلطة التنفيذية في احوال الحرب ويعمل حكماً في مجلس القبيلة الذي يحق لكل حرٍّ أن يشترك فيه . ولكل مضرب من المضارب التي تنقسم اليها القبيلة للرعي سردار او زعيم يقرر زمان الرحيل ومكانه ويقرر الغزوات ويقودها . وكان للسردار خيمة للضيوف يكرم فيها ضيوف القبيلة على حساب القبيلة كلها .

وكان البلوجيون يقومون بعملين آخرين غير تربية الاغنام ، وهما حماية القرى التي يقطنها فلاحون من الفرس والتي أخذوا على انفسهم مسؤولية حمايتها ، وغزو القرى التي لا مسؤولية لهم نحوها . وكانوا يرشدون التجار المارين في مناطقهم ويقدمون لهم الأدلاء والحرس ، لقاء

رسم يدفعونه لهم ويؤمنون الحماية للقوافل . اما غزواتهم فقد وصلت الى يزد غرباً ، والى السند شرقاً ، والى هلمند شمالاً . واسلحتهم المفضلة هي البندقية والسيف . وكان أمراؤهم الى ما قبل مئة سنة يرسلون المبعوثين الى استانبول لشراء السيوف وبنادق الدك ، بينما تصنع الاسلحة الجيدة من هذه الانواع عندهم محلياً . ويلبس المحارب منهم درعاً من جلد وحيد القرن ، وقد يحمل قوساً وكنانة من السهام التي يستعملها في صيد الطيور . ويقضي المحاربون وقتهم بين الغزوة والغزوة في ممارسة الألعاب العسكرية وفي الصيد . ومن ألعابهم ان يشك الخيال برمحه عصاً مثبتة في الارض ، وهو مندفع على حصانه بأقصى سرعته ، ويرفعها معه . وكانوا ايضاً يرسلون الكلاب السلوقية لصيد الغزلان ، وللكلاب السلوقية قيمة كبيرة عندهم ، اذ يباع الكلب المدرب منها بثلاثة جمال او اكثر . ومن ألعابهم ايضاً الصيد بالصقور .

ويقضي محاربو المضرب وقتاً طويلاً في إحكام الخطط لغزوة من الغزوات ، فلا يتركون شاردة ولا واردة الا ويستعدون لها ، ويتحركون بقيادة شيخهم ، فيركبون الجمال ويسوقون جمال المتاع والافراس الاناث حتى تكون مستعدة للهجوم الاخير ، اما الاحصنة فيتركونها وراءهم لئلا يدل صهيلها عليهم . ويأخذون معهم أكلاً من التمور والجبنة والخبز ويملأون قربهم الجلدية بالماء ، فاذا وصلوا الى مقربة من القرية التي ستقع ضحية لهم توقفوا في غابة او وادٍ مهجور لاراحة جمالهم ، فاذا نام أهل القرية اندفعوا هاجمين اليها ، محرقين ومدمرين كل ما يقع تحت أيديهم . ويستمرون على هذا الشكل متنقلين من قرية الى قرية قاطعين ثمانين ميلاً او تسعين في اليوم ، حتى تثقل أحمال جمال الامتعة ، ويكتمل للفرد منهم أحمال عشرة جمال او اثني عشر ، ثم يعودون الى بلادهم من طريق آخر .

هذا عمل خطر ، وكان بعضهم يقتل ، وبعضهم يؤسر وغيرهم يزرق ،

ويموت آخرون من شدة التعب . وقد يفقدون بعض جمالهم ، وقد يموت بعضها الآخر من الارهاق ، وقد ينتبه المهاجمون الى وجودهم فيترصدونهم . ولكنهم كانوا ينجحون بين الحين والحين وينال الواحد منهم بضعة آلاف من الروبيات وعدداً من العبيد .

اما هؤلاء العبيد فكانوا من الجنسين . فاذا أسروهم عصبوا أعينهم وربطوهم على الجمال حتى لا يعرفوا الى أين يؤخذون . ثم يقوم الغزاة بحلق شعور النساء ولحى الرجال ويفركون جلدة الرأس وجلد اللحية بدواء يقتل البصيلات ، لتنعدم عند العبيد الرغبة في العودة الى وطنهم . ثم يبيعون كثيراً من هؤلاء العبيد في الشمال والشرق ، ويحتفظون ببعضهم عمالاً في مضاربهم ، وهذا مكن البلوجيين من ان ينصرفوا الى التدريب العسكري والى الصيد .

ونجد الآن بين البلوجيين تقسيماً مزدوجاً للعمل ، فهناك التقسيم بين رجال القبائل واتباعهم القرويين الذين يقدمون لهم مواد الاكل النباتية مقابل الحماية ، والتقسيم بين المحاربين وعبيدهم الذين يقومون بالاعمال العادية ، وثمة تقسيم ثالث بين المحاربين وقوافل التجار التي يحمونها لقاء المال ، وتقسيم رابع بين البلوجيين وغيرهم من الاختصاصيين الذين يعتبرونهم أحط قدراً منهم ، فلا ينالونهم بأذى ، وهؤلاء هم التجار الهندوسيون الذين يجلبون السلع للمدن ، و«اللوريس» او «الدمس» وهم شعب يشبه الغجر ويخدم أفراده في المضارب حدادين او «سمكرية» أو عازفين على الآلات الموسيقية وتعمل بناتهم في الخدمة المنزلية . ولما كانت لنسائهم حرية الدخول الى اجنحة النساء في المضارب فقد عملن وسيطات في امور الخطبة والزواج لابناء أسيادهم .

والترتيب الخامس يختص بالدراويش ، الذين يؤسسون مواطن خاصة لهم ، ويتنقلون بين المضارب ليقوموا بشعائر الجنازات او ليكتبوا الاحجبة لمحتاجيها . ويدعي الكثيرون من هؤلاء الانتساب الى الرسول

لأنهم من نسل علي وفاطمة ، منتحلين لانفسهم لقب السادة . فاذا مات شيخ مشهود له بالولاية بنى اتباعه له ضريحاً وسموه «پير» أي شيخاً . وتتسع مع الزمن شهرته ، فاذا كان ضريحه قريباً من نبع ماء ساد الاعتقاد بأنه هو الذي أوجد ذلك النبع عندما ضرب بعصاه الحجر . ويذهب المتخاصمون الى ضريحه ليحلفوا فوقه الايمان ، ويخافون من قصاصه اذا كذبوا . فاذا أقسم احدهم يميناً كان هذا دليلاً قاطعاً على صدقه .

هذا نظام اجتماعي معقد وهو أفضل مثال لاظهار الفسيفساء العنصرية في الشرق الاوسط . ولما كان البلوجيون يقطنون بين مراكز كبيرة سكانها متنوعو العناصر ، فقد استمدوا كثيراً مما حولهم . اما البدو العرب فقد أوجدوا لانفسهم نظاماً على مثل هذا التعقيد ، ولكن في اطار عنصريّ أصغر . وهذا يثبت لنا ان التعقيد لا يعود الى المصادفة بل الى الضرورة .

ويشغل البدو معظم شبه جزيرة العرب فيما عدا الربع الخالي وامتداده الشمالي المعروف بالنفود ، وفيما عدا الاراضي الزراعية في اليمن والعسير ، وحضرموت ، ومدن الحجاز ، وبساتين النخيل والموانىء في الكويت والاحساء . والبدو الذين نتحدث عنهم هنا هم اولئك القاطنون شمالي الربع الخالي وغربيه ، اما القاطنون بين حضرموت والبحر وفي تلال قاره فهم شعب مختلف ولهم ثقافتهم الخاصة . وتمتد البلاد التي يشغلها البدو في شبه جزيرة العرب شمالاً عبر أنابيب البترول وملتقى حدود الاردن والعراق ، ثم تدخل البلاد السورية . وتقع دمشق وبغداد وما بينهما من المدن على شكل نصف دائرة في أطراف الاراضي البدوية . وللبدو بعض الفضل في نشاط هذه المدن وازدهارها .

وقد يحصل البدو على ماء دائم من ضفاف الانهر وخاصة نهر الفرات ومن الآبار . وتقع بعض هذه الآبار في الصحراء المكشوفة ، وتنشأ عند بعضها الواحات . ويقع فصل الشتاء بين شهري تشرين الأول (اكتوبر)

وآذار (مارس) وقد تقع فيه بعض الامطار وتكون بركاً تبقى اسبوعاً او اسبوعين . ويمكن في بعض الاحيان الوصول الى الماء في قاعات الوديان على مدى أشهر عديدة من السنة وذلك بحفر حفر ضحلة .

وفي فصل الصيف الذي يقع بين أول حزيران (يونيه) وآخر ايلول (سبتمبر) يضطر كل قاطن في الصحراء الى ان يضرب بالقرب من مصدر ثابت للمياه ، اذ لا بد من سقي الجمال كل يوم في هذا الفصل ، بسبب جفاف الاعشاب التي ترعاها وتأخذ منها ما تحتاجه من الرطوبة ، وبسبب الحر الشديد . فاذا نزلت الامطار نبتت الاعشاب بسرعة وعبق جو الصحراء كله بأريج الزهور . ولا تحتاج الجمال للمياه الا مرة كل خمسة ايام في فصل الخريف وأقل من ذلك في فصل الربيع . وحينذاك يستطيع البدوي ان يتنقل بمضربه وان يبتعد عن الآبار ، لأن كل ما يحتاجه هو ماؤه اليومي للشرب وقد يرسل الرجال مسيرة ايام عديدة لجلب الماء .

والرياح التي تجلب الامطار لا توزعها بالعدل ، ويسمع البدوي الرعد ويرى ومضات البرق البعيد فيرسل الرواد لتعيين الموقع ، وينطلق مسرعاً اليه . فاذا لم يكن في المضرب سوى الجمال والخيول تم وصوله اليه بسرعة . اما اذا وجدت عنده الاغنام فقد تعيقه عن سرعة الوصول . وفي استطاعته أن يحتفظ بالأغنام اذا رضي بالبقاء في أطراف الصحراء او في مواقع قليلة محظوظة تسقط الامطار دوماً فوقها . وراعي الاغنام كالفلاح الفارسي في المناطق البلوجية فريسة سهلة للبدو .

وهذه الاعتبارات البيئية تكوّن أحد الاسس التي يعتمدها عربي الصحراء في تصنيفه المعقد لمن حوله . وهو يصنف هؤلاء الى فئتين كبيرتين الحضر والبدو . والحضر في عرفه هم المزارعون المتفرغون والتجار الذين يسكنون الواحات وضفاف الانهر ، وكذلك أنصاف الحضر . وأنصاف الحضر هم اولئك الذين يملكون ارضاً او يستأجرونها

ولهم بيوت ثابتة ، فيزرعون محاصيل الحبوب عندما تهطل الامطار ، ويظعنون بأغنامهم في البوادي في فصل الشتاء ، ويعودون في نيسان (ابريل) او أيار (مايو) الى أرضهم ليحصدوا زرعهم ، وليرعوا اغنامهم على عصفها .

ويصنف البدوي سائر البدو في ثلاث فئات ، البدو او العرب ، وعرب الدار ، والشاوية . فالبدوي او الاعرابيّ هو الذي يربي الجمال . ولما كانت الاغنام تعيق سيره فانه لا يهتم بها . وهو يقضي صيفه ضارباً قرب الآبار او ضفاف الانهار ، ويقضي ما تبقى من السنة في الصحراء . وهذا هو البدوي الذي كتبت عنه الكتب العديدة . أما عربي الدار فهو الذي يملك الاغنام الى جانب الجمال ، فاذا جاء الخريف ظَعَنَ بقطعانه الى الصحراء مثلما يفعل أنصاف الحضر . وهو لا يختلف عن أنصاف الحضر الا بكونه لا يمارس الزراعة[٣] . ويقع مضربه بالقرب من احدى المدن الصغيرة او الكبيرة التي يرتوي من مائها الدائم ، وقد يكون له في المدينة بيت يسكنه خلال الصيف ويزوره في الاوقات الاخرى .

والشاوية هم قبائل الرعاة وهم منقطعون لحرفة الرعي ويضمون قبائل الشرارات في الشمال الغربي . وقد ميز الكولونيل ديكسون ثلاث مجموعات منهم في الشمال الشرقي منضوية تحت لواء قبيلة

---

(٣) هناك بعض التناقض فيما يقوله موسل Musil وديكسون Dickson في تصنيف رعاة الاغنام . فيستعمل موسل لقب «الشاوية» بنفس المعنى الذي يستعمل به ديكسون لقب عرب الدار ، ويعتبر قبائل الرعاة من امثال الشرارات أقل قدراً من غيرهم . انظر : Musil, Manners and Customs of the Rwala Bedouins, Monographs of the American Geographical Society No. 6 (New York, 1928 pp. 603-605 وانظر ايضاً : Dickson, The Arab of the Desert, pp. 108-113. ويمكن تفسير بعض هذه المشكلة ان لم نقل كلها بأن موسل كان يكتب عن بدو الشمال الغربي ، بينما كتب ديكسون عن بدو الشمال الشرقي .

المنتفك(٤) . وهؤلاء الرعاة يقضون الصيف قرب نبع دائم ويأخذون أغنامهم في الشتاء الى الاماكن المعتادة ، راكبين الحمير في الغالب . وهم قديرون في عملهم ، ويخدمون غيرهم من القبائل وسكان المدن بطريقتين : بأن يأخذوا اغنام غيرهم بناء على عقود متفق عليها ، وبأن يعملوا رعاة عند غيرهم من القبائل مثل عرب الدار .

والمبدأ الثاني الذي يعتمده البدوي في نظامه التصنيفي هو القرابة ، وهو يقسم جميع بـدو الصحراء الى فئتين : الاصليين وهم الصحيحو النسب ، المنتمون الى قحطان واسماعيل وغيرهما من الجدود . وهؤلاء بدورهم يقسمون الى فرعين العرب العاربه(٥) وهم ينتمون الى يعرب بن قحطان الذي عاش قبل ابراهيم ، والعرب المستعربة ، وهم ينتمون الى اسماعيل بن ابراهيم وامه هـاجر بنت ملك الحجاز . وتضم العرب المستعربة قبيلة قريش واليها ينتسب الرسول . وتضم هذه الدائرة المغلقة من الاصليين ثماني عشرة من القبائل او احلاف القبائل ، بينهـا العنيزة وفرعهـا القديم الروله ، وشمر ، والمره ، التي تعيش على أطراف الربع الخالي وبنو خالد .

ويدل اعتبار قريش بين القبائل الاصلية على ان الاقامة في الصحراء والاكتفاء بتربية الجمال ليست شروطاً ضرورية للاصالة . غير ان معظم الاصليين من بدو الصحراء ، اذ تسهل المحافظة على الانساب خارج المدن . ومفهوم النسب الاصيل ضروري لطريقتهم في الحيـاة فقد ينجح ابن المدينة بدون ان يكون له نسب أصيل ، او قد يستأجر من يزوّر له نسباً من الانساب . وفي الشرق الاوسط مئـات الالوف من المسلمين المتكلمين باللغة العربية الذين لا يعتبرون عرباً بهذا المعنى .

---

(٤) هؤلاء هم قبائل البوصلاح ، والاجواد ، وبني مالك Dickson op. cit. p. 545.

(٥) ويعرفون ايضاً بعرب العربه وعرب العُرْبية .

ويتزوج العربي ابنة عمه أو امرأة تساويها في المركز . ومع ان البدوي يتزوج ويطلق نساء عديدات امـــا جملة او فرادى او جملة وفرادى ، ومع ان كل امرأة تتزوج عدة رجال ، فان الازواج جميعاً ينتمون الى هذه الحلقة المغلقة .

ولا يستثنى عرب الدار منها اذا كانوا ينتمون الى قبائل أصيلة . وفي الكويت ، وربما ايضاً في غيرها يستقبل الاثرياء من هذه الفئة اقرباءهم البدو في بيوتهم ويصطحبونهم في الاسواق ويقدمونهم الى وجهـــاء المدينة . ولبعض سكان المدن من العرب الذين يخدمون في وظـــائف الحكومة العالية نسب أصيل ، وكذلك معظم ملوك العرب او كلهم ، وهؤلاء جميعاً فخورون بأنسابهم . وكثيراً ما كنت أدعى اثناء اقامتي في المدن الى ابداء الرأي في الملامح البدوية لمضيفي ورفقـــائي لاني انثروبولوجي .

الا ان العرب الخارجين عن هذه الحلقة والذين لا يستطيعون التزاوج مع افرادها الارستقراطيين ، اكثر عدداً من هؤلاء بكثير ، وتجد بينهم من لا يأبه للانساب ومن يهتم بها كثيراً ، مثلهم في ذلك كمثل الامريكيين الذين تجد بينهم من يهتم بكون اجداده بين أول الوافدين على المركب «مي فلور» (May Flower) مثـــلاً ، وبينهم من لا يهتم لذلك . وهؤلاء اللاأرستقراطيون ليسوا شعباً متناسقاً ، وبينهم كل فئة من الفئات المختصة بمختلف انواع الاعمال التي ذكرناها ، من رعاة الجمال ، الى رعاة الاغنام ، وعرب الدار ، وأنصاف الحضر ، وفلاحي الواحات ، والتجار . ويضمون ايضاً ثلاث فئات من الناس يرفضون التزاوج معهـــا بدورهم ، وهم الصُّلَبَا[٦] والصناع والعبيد .

---

(٦) ويسمون ايضاً الصلبّة والصّليب [قلت : انظر بحثاً عن هؤلاء في دائرة المعارف الاسلامية ، مادة «صليب» — بيـــاء لينة — وفي عشائر العراق : الجزء الاول ؛ لعباس العزّاوي] (المراجع) .

فالصلبة ينتمون الى جمـــاعة عنصرية صغيرة تعيش جماعات متناثرة تتكون كل منها من عائلة او عائلتين في مضرب يقوم بتربية الجمال. وهم يركبون الحمير ويضربون خياماً صغيرة في أطراف المضارب البدوية. ويشتغلون أدلاء في الصحراء، ويحسنون الصيد، وهم أيضاً نحاسون، يصلحون أواني البدو، ويجيدون اشغال الخشب والسروج والاشغال الجلدية، وترقص نساؤهم امام العامة ويحترفن الدعارة. (هنالك قول يزعم بأنه حينما يتجمع البدو بالصيف بالقرب من الآبار وضفاف المياه، يضرب الصلايبة في الصحراء المكشوفة حيث يرتوون من آبار وينـابيع سرية لا يعرفهـا سواهم ويسرحون ويمرحون، غير اني لم اتأكد من صحة هذا القول). ويعتقد كثير من العرب بأن هؤلاء من بقـــايا الصليبين لأن بعضهم شقر فيما يزعم. غير ان الانثربولوجي لا يجد فرقاً بينهم وبين أقدم سكان الصحراء.

والصناع جماعة من الحدادين، ولهم جماعتهم واقرباؤهم، وفيهم دم زنجي، غير انه لا يظهر دائماً. وتقيم عائلة من الصناع مع كل وجيه من وجهـــاء القبيلة، وتسمي نفسها «صناع المطير»، مثلما فعل بعض «سمكرية» النور في انجلترا اذ انتحلوا لانفسهم لقب حاميهم واسمه. وهؤلاء الصناع يشتغلون بيـاطرة، وقبوناً، ومصلحي بنادق، وحداة خيل، ويهتمون بالخيـام وعمدها، فيوفرون بذلك على مضيفيهم الحاجة الى الذهاب للمدينة ويمكنونهم من متابعة الحرب في اللحظات الحرجة. والحداد ضروري للبدوي اثناء الحرب.

والعبيد هم الزنوج وابناء الزنوج المستجلبين من افريقيا. وعند كل أمير وكل شيخ عدد منهم، وهم يلبسون أفخر الثياب ويأكلون احسن الطعام حتى عندما يجوع سادتهم. ويحاربون بشجاعة ذوداً عن سادتهم. ويساهمون في تربية ابناء سادتهم، ويستقبلون الضيوف في الخيمة المخصصة

للضيوف ، وخير للغرباء ان يقيموا مع العبيد . وقد يحرر السيد عبده فيتزوج من بنت حرة في المدينة او يتزوج من بنت الحداد .

ويدور عـــالم البدوي على محور ثالث : وهو ما اذا كان الرجل وجماعته من المحاربين ام لا . فقبائل الاصليين كلهـا من الفئة المحاربة ، فاذا دفعوا الجزية الى من كانوا من قبل مساوين لهم في المقام[٧] ، فلن يغني عنهم أصلهم شيئاً ، بل قد يتفق أن تهجن أنسابهم وتنكر أصالتها على نحو او آخر .

وبعض القبائل البدوية من غير الاصليين هي ايضاً من القبـــائل المحـاربة ، مثل الرشايدة - وهم الحرس التقليديون لشيوخ الكويت ، ومن الخصوم الألداء للعــــائلة السعودية . وقد كانت الحروب بين آل رشيد وآل سعود دموية للغاية ، لأن مبادىء الفروسية المتبعة في الحروب بين جماعتين ارستقراطيتين لا تطبق عندما تكون احدى الجمـاعتين او كلتاهما خارج المستوى المعين في الانساب .

اما رعاة الجمال الذين لا ينتمون الى أصول عريقة ، والذين يدفعون الجزية بدلاً من الالتجاء للحرب ، فانهم يؤدون خدمة خاصة في اقتصاد الصحراء المعقد . فهم يؤجرون انفسهم للمحاربين رعاة لجمالهم ، فيأخذونها للمرعي ، ويعودون بهـا ، ويحلبون النوق ، ويفتشون عن الماء . ولما كانوا من غير المحاربين فانهم لا يمسون بأي أذى ، وقد ينفر سادتهم وعبيد سادتهم لحراسة الجمال اذا حلت الأخطار ، ولحراسة الحيوانات التي ترسل الى الماء ، والمضارب ، وللبحث عن المراعي الجديدة والاحتياط من الاعداء .

(٧) لقد دفعوا جميعاً ، او دفع معظمهم الضرائب بين وقت واخر للحكومات . ولكن الظاهر ان دفع الضريبة الى الحكومة لا يؤثر . ويسمي ابن السعود ضريبته الزكاة ، فيحفظ كرامة القبـــائل الواقعة تحت سيطرته بهذه التسمية ، اذ لا تعتبر الضريبة جزية .

وعلى ذلك فان البدوي من طراز رفيع أقرب الى الجندي او الشرطي منه الى راعي الجمـــال . ولديه مسؤوليتان أخريان من هذا القبيل : احداهما حماية اللاجئين من القبائل الاخرى - اي اولئك الذين يدخلون في جواره ، بالطريقة التي سنّها العرف أو الذين يريدون ملجأ أميناً حتى يبلغوا مأمنهم خارج الصحراء ، او حتى يؤدوا بمعونته عوضاً عمـا ارتكبوه من ذنب لتتيسر لهم العودة الى مواطنهم . والمسؤولية الثانية هي حماية المسافرين في « ديرة » القبيلة ، منذ دخولهم اليهـا حتى خروجهم منها . وترتبط كلا هاتين المسئوليتين بوجه الرجل . فوجه الرجل هو شرفه ، فان كان شرفه نقياً لا شوب فيه فوجهه أبيض ، واذا مس أحد كرامته فقد سوّد وجهه ، وعليه ان يسعى ليسترد له بياضه وكلما علت قيمة الرجل الحرّ المحارب كان عظيم الوجه . أمـــا ضعفاء الافراد او الغرباء ، وهم الاقوياء في مواطنهم ، الضعفاء اذا اغـــتربوا عنها ، فلهم الحق اذا ما ابتعدوا عن مواطنهم ، ان يلوذوا بوجه رجل عظيم ، فاذا رفض حمايتهم ، فقد اسود وجهه ولو أبدى للرفض اسباباً وجيهة . وعلى المسافر ان يستأذن ان شاء ان يجتاز « ديرة » القبيلة . فـاذا اذن له الشيخ ، عين له رفيق يسمى « الاخ » ، ويسير معه من اول الديرة الى آخرها . فاذا نكث احد حق الحماية كان عقابه الموت لان الضيف مقدس . وهـــذا المفهوم بالغ الاهمية في طرق القوافل والتجارة ، وبدونه لا يمكن اجتياز الصحراء أصلاً .

وبين رعاة الاغنام جماعات من القبائل المحاربة وغير المحاربة . فالذين يذهبون بأغنامهم الى الكويت والبلاد السعودية في الخريف ، آتين بها من مواطنهم في العراق ، يشترون الحماية من الغزاة العـاديين . ولكن اذا وقعت الحرب وضعفت قوة حماتهم ، فانهم يعودون بقطعانهم في غير الموسم ، شرط ان يعلموا سلفاً بما حصل . اما اذا لم يعلموا ، أو تأخر علمهم ، فانهم يحاربون بشراسة ، وهم مسلحون بالبنادق الجيدة . ويحاول رعـاة الاغنام من عرب الدار ايضاً تجنب المشاكل ، ولكنهم يحاربون

دفاعاً عن املاكهم وأملاك سادتهم شيوخ المدن التي يعيشون بها في الصيف .

وليس جميع السكان المستقرين من المخلدين للسكينة . وبعضهم فئات من قبائل بدوية توطنت الارض ، وهم ما يزالون يحتفظون بتنظيمهم القبليّ ويطيعون شيوخهم ومع ذلك يستنكف رعاة الجمال من ان يصهروا اليهم . فاذا غزتهم قبائل الصحراء فانهم يحاربون وكثيراً ما ينتصرون . وبينهم بعض أصحاب الانساب الرفيعة ، كآل الشعلان – مشايخ الرولة . فاذا توطنوا في واحة صغيرة فلا أمل لهم بالمقاومة ، ويصبحون بالتالي اتباعاً لشيخ من رعاة الجمال . فاذا كانت الواحة أكبر فقد يقيم الشيخ بلاطه بها ، فاذا غزا القبائل الاخرى فانه يعلن نفسه ملكاً على المنطقة .

ولنذكر ان المستقرين يضمون التجار والمزارعين . وقد سبق لنا ان لاحظنا ان التجار في عمان يذهبون الى حوائط النخيل في موسم القطاف ليبيعوا سلعهم للقاطفين . ويهتم التجار على هذا النحو نفسه برعاة الجمال . اذ ان البدو لا يتركون مضاربهم في وسط الموسم بغية الذهاب الى المدينة لشراء بعض الاغراض ، ولا يستطيعون شراء حاجات الموسم كلها عندما يزورون المدينة في فصل الصيف ، أو ربما يجدونها كلها في الخيام القليلة التي ينصبها قربهم بعض التجار الحاذقين . ويدفع هؤلاء التجار ضريبة لقاء نصبهم لهذه الخيام .

وهناك طبقة من التجار يذهب افرادها حتى الى المضارب الشتوية ، وهؤلاء هم القبيسات المسمّون باسم مدينة «القبيس» على نهر الفرات ، وقد ينتمون الى هذه المدينة فعلاً ، او لا يكونون من اهلها . ويأتي القبيسي بقليل من الجمال المحملة بالبضائع الى احد المضارب الشتوية البعيدة في الصحراء ، وينصب خيمة مستديرة بيضاء تميز بسهولة عن خيام

المضرب السوداء . ويقدم هدية للشيخ لقاء سماحه له بالبيع في مضربه ، وقد تكون الهدية مجموعة كاملة من اللباس . ويبيع بعض السلع الصغيرة — كالقماش ، والاشرطة والشموع ، والسكر ، والأواني ، ويقرض البدوي لقاء فائدة متواضعة لا تتجاوز خمساً وعشرين بالمئة . ويراقب الشيخ تسديد المدينين لديونهم ، وله بذلك مصلحة لانه لا يريد ان يخسر هذا المخزن النافع الذي ينصب عنده في الصحراء .

وهناك تاجر أقدر من القبيسي بكثير وهو العقيلي ، الذي يعمل وكيلاً لأحد البيوت التجارية ذات المكاتب في بغداد ، والبصرة ، ودمشق ، والقاهرة وغيرها ، التي تشتري الجمال سلفاً . ويسمى العقيلي لأنه ينتسب عادة الى قبيلة عقيل ، ويأتي من مدينة القاسم . ويخرج هو ايضاً الى الصحراء ، ومعه الجمال المحملة بالبضائع ، ويحمل معه المال النقدي والبنادق في عداد سلعه ، ويعود بعقود السلم لشراء الجمال . وينال الحماية ايضاً من الشيخ الذي يتناول رسماً عن كل جمل يشتريه . ويدفع العقيلي رسماً لشخص آخر من القبيلة يسميه « الأخ » . وهذا الاخ مسؤول عن العناية بالجمال التي يشتريها العقيل ، وعن تسليمها في مطلع الصيف . ويدمغ العقيلي كل جمل يشتريه بوسم البيت التجاري الذي أوكله ، ثم ينتقل الى المضرب التالي .

والقبيسيون والعقيليون ينتمون الى قبائل غير اصيلة ، وكلاهما من غير المحاربين . ويصدق القول ذاته على اصحاب بيوت التصدير والاستيراد التي يعمل العقيليون في خدمتها ، ولهؤلاء ثروة واسعة يستطيعون بواسطتها شراء عدد من الشيوخ مرات ومرات ، وهم يرسلون ابناءهم للتعلم في جامعة بيروت الاميركية او جامعة اكسفورد . فهناك فئات خمس غير محاربة بين الفئات التي قد تجدها في المضرب البدوي ، وهذه هي رعاة الجمال ، والقبيسيون ، والعقيليون ، والصليب ، والحدادون . فاذا قامت جماعة معادية بغزو المضرب البدوي في فجر أحد الايام ،

فلا خطر الا على الشيخ واقربائه الذكور وعبيده ، لأنهم هم وحدهم المحاربون. ولا تمس النساء ولا الاطفال . ويضرب الحداد مطرقته بأعلى صوت ، ليتأكد من ان الغزاة لن يخطئوا هويته . ويأتي الصلابة من الأطراف ليقدموا الطاعة والخضوع وليعرضوا خدماتهم على السادة الجدد . ويعد القبيسي خيمته للضرب التالي ، واذا صادف ان وجد عقيلي فانه يختار أخاً جديداً بين الجماعة الغازية ليمثل بيته التجاري ، حتى يتأكد من ان الجمال الموسومة بعلامة جماعته ستسلم بموجب العقد ، وانها لن تضيع مع الجمال المنهوبة .

وهكذا تمضي الحياة ، ويسير البدوي الحر ، الذي يقوم باشرف الحرف – رعي الجمال – والذي ينتسب الى أرفع انساب الكون ، والذي يتوج شرفه باستعداده للحرب مع نظرائه ، من أجل المراعي والجمال – يسير في حياته الحافلة المثيرة ، القصيرة الاجل في كثير من الاحيان . وقد تبدو حياته سهلة ، بل هي كذلك من احدى النواحي ، ولكنها الركائز في قنطرة معقدة ، قد يكون كل حجر من حجارتها بسيطاً كل البساطة .

وحيثما جعلت الطبيعة الحياة صعبة ، والسفر خطراً فان مراتب القيم السائدة التي تقاس بها المهارات ، والكفاءات ، والاختصاصات الانسانية ، تعكس هذه الاخطار . وأثمن الاشياء في مثل هذه الظروف هو اقتناء أفضل وسائل التنقل – الجمل والفرس المدللة ، والمقدرة على انتاج المزيد منها ، والشجاعة في محاربة الخصوم ، وحماية المسافرين وأصحاب الحرف الجوهرية . ولا يستطيع انسان ان يكون صانعاً وتاجراً ومحارباً في الوقت نفسه ، والا فقد حصانته وحياته ، وفقد البدوي خدماته ومنتجاته . والبدوي مستعد للمخاطرة بحياة الآخرين الذين بدونهم تصبح حياته هو في الصحراء مستحيلة . وهذا التوازن الدقيق بين طبقات الناس من سكان الصحراء ، وهذا النظام المبني على المخاطرات المحسوبة وعلى التسيب ،

والذي يعطي المجد للشجاع ، والسلامة للمتواضع ، هو مفتـــاح البنيان الاجتماعي في الشرق الاوسط بمجموعه ، وهو يعكسه على مقياس صغير .

***

ان المنطقة الصحراوية الثـــالثة والكبرى الملائمة لبداوة الجمال هي الصحراء الافريقية الكبرى ، ومثالنا الثالث عن المجتمع البدوي يتحدث عن الطوارق – الشعب المتحجب . كان هؤلاء يحرسون الامن في الصحراء حتى سنة ١٩٢٠[٨] ، عندمـــا اخذ الفرنسيون هذه المسؤولية منهم . وهم يربون الجمال ويبيعونهـا لرجال القوافل ، ويقدمون الادلة للسير في الصحراء ، ويمنعون الجماعات المنـافسة من الغزو ، ويحرسون القوافل التي تدفع لهم رسوم الحمـاية ، ويؤمنون العلف لجمال التجار ، وقد تمكنوا بذلك كله من انشاء الصلة التجارية بين السودان وشمالي افريقيا[٩] . وقد ابتدعوا مجموعة معقدة من مؤسسات الخدمة ليحافظوا على أنفسهم بصفتهم ايضاً من اصحاب الاختصاص . وحـافظوا على هذه المؤسسات بعدد من المواقف الاجتماعية الثابتة التي تقرر علاقاتهم المتبادلة ، كما هو الحال عند البدو .

وتضم الصحراء الكبرى اربعة نجـــاد رئيسية غربي التيبستي (التي يسكنها شعب من نوع آخر) ، وهذه النجاد هي التالية من الشرق الى الغرب : أزجر Azjer ، أهجّار Ahaggar ، أدرار أهنت* adrar Ahnet ،

---

(٨) Henri Lhote, Les Touareges du Hoggar (Paris, 1944) p. 377.

(٩) E. W. Bovill, Caravans of the Old Sahara (London, 1933) p. 25

* كلمة « أدرار » في لغة الطوارق تعني « جبل » وقد تلفظ أحيـــاناً « أدغاغ » وهم يستعملون أيضاً لفظة « جبل » العربية و« جبيل» على التصغير ، ويطلقون على المناطق المرتفعة من أهنت : « باطن أهنت » أي سلاسل أهنت (المراجع) .

وآير Air في الجنوب . ولكل من هذه النجاد مصادر ميـــاه ثابتة . وأشدها جفافاً : أدرار أهنت وفيها ثلاثة وثلاثون نبعاً . وفي كل من النجاد الثلاثة الباقية بقع من الارض قـــابلة للزراعة بينما تزود واحة بلاسه المجـاورة شعب الادرار بالحبوب . والقمح والشعير والذره هي المحاصيل الرئيسية التي تنتج في هذه المناطق المنبتة رغم صغر مساحتها . وينتج فيها ايضاً البصل والقرع والبطيخ وقليل من التين والعنب . وفي كل من هذه المناطق الجغرافية واحة غير مأهولة او اكثر ، يذهب اليها الطوارق في المواسم لقطاف التمر .

وأهم الحيوانات الأليفة في هذه المنطقة الجمال ، والحمير ، والاغنام ، والماعز ، وبعض الابقـار الطويلة القرون في أهنت Ahnet ، وقليل من الخيل . والظاهر ان الطوارق أحذق في ركوب الجمال من البدو ، وقد أوجدوا نوعاً خـــاصاً من جمال الركوب ، وهم يركبون هجنها بمهارة فائقة ويستطيعون الطراد على ظهورها بالحراب . وبينما اعتاد العربي ان يقفز من الجمل الى الفرس ويحارب بالسيف وهو يمتط ظهر جواده ، فان اسلوب الطوارق الخاص بالحرب يتكون من القفز الى الارض والمبارزة وقوفاً . ويلبس محاربوهم الدروع ويذبون عن انفسهم بتروس مستطيلة ضخمة مصنوعة من جـلد الثور ، ويستعملون سيفاً طويلاً مستقيماً ذا مقبضين وحدين ، من النوع الصليبي . ويتدرب المحـاربون على الطعان دوماً . وتساعدهم اجسامهم النحيلة وأيديهم وأرجلهم الطويلة على السرعة وخفة الحركة والمهارة .

ويعيش في كل واحد من هذه الاقاليم الاربعة الطبيعية حلف من قبائل الطوارق . والحلف مجموعة من القبائل الرفيعة وأتباعها ومحاسيبها . ولكل قبيلة حكومتها الخاصة ، وتتبع هذه الحكومات الاسلوب البربري وهو يتألف من مجلس يحكمه شيخ يدعى أمغـار Amghar . والشيخ

الاعلى للحلف يعرف بلقب « آمنوكل »* Amenokel . ولا تمنع سلطته القبائل الواقعة تحت لوائه من غزو بعضها بعضاً اذا لم يوجد خطر يهددها جميعاً . وأمنوكل كأمير البدو يجب ان ينحدر من عائلة معينة ويكون رفيع النسب .

ويفصل بلاد الطوارق عن المناطق الخصبة في شمال افريقيا جبال تقع شمالي اقليمهم ، وأقسام مجدبة نسبياً من الصحراء . وجبال الاطلس حادة وجافة في سفوحها الجنوبية الشرقية . ولذلك فان العوامل الجغرافية تمنع اتصالهم بالبربر والعرب المتحضرين ، ويقتصر اتصالهم على سكان الواحات مثل واحة غرداية وتوات (Tuat) وتدكلت (Tidikelt) ، وهي واحات كبيرة جداً يصعب غزوها ، فضلاً عن ان نهبها يشبه قتل الاوزة التي تبيض البيض الذهبي . وتتحول الصحراء تدريجياً في الجنوب الى مراع ، وتتحول المراعي الى أراض تتناثر فيها الاشجار ، ثم لا تلبث ان تصبح غابات .

وهنا نصل الى السودان . والسودان غني بالقمح والابقار والسكان . ومعظم السكان من زنوج الهَوْسة وبعضهم من المسلمين وبعضهم من عابدي الاوثان . وفي بلادهم مدن عديدة يسكنها العرب ايضاً ، وينتظم الزنوج في عدد من الممالك . ويفرض حكام هذه الممالك الضرائب على رعاياهم ويغيرون على القبائل البعيدة قنصاً للبضائع والعبيد . وهنا تنظم القوافل الكبيرة العابرة للصحراء ، والى هنا يأتي الطوارق للتجارة . وهم يأتون ايضاً للاغارة على القرى المكشوفة الواقعة بين المدن ، او هكذا كانوا يفعلون عندما كانوا يؤدون وظيفتهم حتى القسم الاخير من القرن التاسع عشر .

---

* كلمة « أمنوكل » في اللغة البربرية مرادفة للفظة « سلطان » وهي مؤلفة من « أمَ » ومعناها مالك و« أكَل » ومعناها المدن ؛ والنون للاضافة . (المراجع)

وعلى ذلك فقد اتجه الطوارق بأبصارهم صوب الجنوب الغني المكشوف وأداروا ظهورهم لأقرب النـــاس اليهم وهم بربر الصنهاجة في الاطلس الاوسط . ولما كان الطوارق من المحاربين فانهم لم يأبهوا للصنائع . وكانوا يحصلون على حاجاتهم كلها من منتجات السودان – الملابس الزرقاء التي يلبسونهـــا ، والحجب السوداء التي حاكتها أيد ماهرة ، وهي شبيهة بكوفية العرب من حيث انهـا تلبس لحفظ الرئتين من ذرات الرمال الدقيقة ، وجميع الاشغال المعدنية والجلدية ، بما فيها الحراب والسيوف ، والخناجر والتروس ، والسروج والخروج ، والصناديق الخشبية ، والحبوب بمـا فيها الذرة والارز ، والقمح ثم الملح والجبن المجفف . اما الواحات الشمالية فلا يشترون منها في الغالب سوى التمور ، والتبغ ، والسكر وبعض الاسلحة الجيدة بين الحين والحين – وتشتري الاسلحة النـارية طبعاً من الشمال .

ويعطي الطوارق مقـابل هذه السلع الاغنام والسمن وبعض السلع التي يشترونهـا من الطرف الشمالي للصحراء وبينها البضائع التي يأخذونها ثمناً لخدماتهم ، والنقد . ومع ان الطوارق استعمـــلوا العبيد ، وباعوا اعداداً قليلة منهم فلم تكن تجارة العبيد عملهم الرئيسي . وتجـــارتهم بالبشر وغيرهم من السلع كانت تستهدف في الغالب حاجاتهم الاستهلاكية ، ولم ينافسوا التجار الذين كانوا هم حماة لقوافلهم .

وينقسم الطوارق انفسهم الى طبقتين وراثيتين : إهجّارن (Ihaggaren) ، او النبلاء ، و[امراد] (Imghad)* ، او الاتبـاع . وهذا التقسيم قديم قدم تراث البداوة الجملي عند الطوارق انفسهم . وينتسب الاهجّارن النبلاء الى امرأة تدعى تن هنـان (Tin Hinan) جاءت من تفيلالت ودفنت عند

---

* كلمة مفردها « إمريد » بنطق بين الراء والغين أما الاهجارن فهم الذين يسميهم العرب « هجّار » (المراجع) .

ملتقى وادي تفيفت بوادي اباللسة في (أهجّار Ahaggar)[١٠] ، وينتسب الامراد التبع الى تكهات خادمة تن هنان التي جاءت في الاصل معها ودفنت الى جانبها . وكلتاهما كانتا من الطوارق ، وكلتاهما من البربر البيض . ويعتز الاهجّارن بأنسابهم ويحفظونها ويتلونها كما يفعل اصحاب الانساب الرفيعة من العرب . وتتسلسل انسابهم عن الامهات لان مجتمعهم مجتمع أموي . وليس لنساء الطوارق واجبات منزلية كثيرة يقمن بها ، لكثرة الخدم عندهن ، ولذلك فانهن يسلين أنفسهن بالغناء وتلاوة الشعر ، ويكتب الطوارق اشعارهم بأحرف التفينغ (Tifinagh) ، وهي أحرف قديمة غريبة من بقايا الخط الليبي القديم الستاري الشكل . وتهتم هؤلاء السيدات النبيلات بتربية ابنائهن وتهذيبهم ، وبتعليمهم – وخصوصاً البنات – الموسيقى والقراءة والكتابة .

اما العلاقة بين القبيلة الرفيعة واتباعها فلا تشبه مثيلتها القائمة في شبه جزيرة العرب بين المحاربين والقبائل التابعة لهم ، وليست متطابقة عند جميع الطوارق . فيشجع الامراد الذين يفوقون سادتهم كثيراً من حيث العدد ، على رعي جمالهم في أحسن الاراضي . ويريد لهم سادتهم ان يغتنوا . وفي قبائل حلف الأهجّار تجد لكل نبيل اتباعه الخاصين من ضمن امراد قبيلته ، وتدفع الجزية من شخص لشخص .

والظاهر ان السبب في هذا الاختلاف هو ان الاهجّان لا يلتقون بامرادهم عن كثب الا مرتين في السنة . اذ يذهب النبلاء في الشتاء الى مراكزهم الواقعة على طرق القوافل . ويعيشون في الصيف بالنجاد العالية ليطعموا مزارعيهم . ويخيمون في الخريف والربيع بين امرادهم ويأكلون منتجات قطعانهم ويستبدلون جمال الأحمال والركوب بجمال جديدة غيرها .

---

(١٠) لقد نقبت هذا الضريح بعثة «أثرية» في العقد الثالث من هذا القرن ، وأزالت منه عظام تن هنان .

وفي قبائل منطقة أدرار أهنت يقوم شيخ القبيلة الرفيعة بجمع الجزية من قبيلة الامراد بمجملها وهذه هي الطريقة المألوفة . وتدفع كل خيمة من الامراد وحدة من التمر سنوياً الى النبلاء مجتمعين ، فاذا لم يستطيعوا ارسال قافلتهم السنوية الى الواحة في تلك السنة لجني التمر ، فان قبيلتهم بمجموعها تدفع اثني عشر جملاً او عشرة من العبيد الزنوج بدلاً عن الجزية .

ولا يبدأ الامراد الحروب عادة من تلقاء أنفسهم ، ولكنهم يغزون اذا وجدوا في وضع يغري على الغزو . ووظيفتهم الرئيسية هي وظيفة النقل والتموين ، وعندهم عبيد يؤدون كثيراً من اعمـــالهم . ويأخذ الاهجّارن أتباعهم الامراد معهم للحرب في الحملات الكبرى ويفرض على النبلاء حماية اتباعهم حتى الموت . ولكن الامراد لا يقفون من الحرب متفرجين ، بل يعرفون كيف يدافعون عن انفسهم .

وهنالك فئة أخرى تحتاج الحماية وهي فئة الاتبـاع الزراعيين الذين يقدمون مواد الغذاء النباتية الى سادتهم وللأمراد . وهؤلاء من الزنوج المعروفين بالحراثين ، وهم يشكلون قسماً من سكان الواحات في الصحراء ، وقد جلبهم الى النجاد مالكو الارض من الطوارق واسكنوهم في بيوت من الطين غير المجفف وأكواخ من القش على شاكلة خـــلايا النحل . وينـالون مثل حصة المزارعين المستأجرين بين بربر الشمال – أي خمس المحصول . وبعضهم حـــاذقون في حفر الآبار ، ويستخدمهم الطوارق للمحافظة على توفير المياه الثابتة .

وفي بلاد أهنت يزداد الوضع تعقداً بسبب وجود قبيلتين عربيتين صغيرتين متخصصتين بأعمال القوافل . وتدفع هاتان القبيلتان للنبلاء رسماً صغيراً من التمر والقماش . ويسمح لافرادهما لقاء ذلك ان يضربوا خيامهم مع الأهنت الذين يدافعون عنهم ، وتتوفر لهم بذلك الحماية الكاملة في طرق القوافل التي تحرسها قبائل هذا الحلف البربري . وتجد في مناطق

الاحلاف الشرقية اختصاصيين آخرين تحميهم القبائل كلها ، ولا يتعرضون لأي أذى من أحد ، وهؤلاء هم عائلات المرابطين ، او الدراويش الذين نال اجدادهم البركة عن طريق الكرامة ، وأصبحوا يتوارثونها اباً عن جد . ويقرأ المرابطون ويكتبون باللغة العربية ويتلون القرآن . ويجمعون حولهم جماعات قليلة من صغار المرابطين الذين يرتحلون معهم ، ويتلقون على يديهم ما عندهم من علوم العرب في القرون الوسطى . وينتقل هؤلاء الرجال من مضرب الى مضرب ، يعلمون الاطفال المعارف الابتدائية التي تدرس في الكتاتيب ، ويكتبون الأحجبة ، ويعالجون المرضى ، ويؤمون الناس في شعائر الدين . ولا يرفع احد يداً على هؤلاء الاتقياء ، وعندما تثور المشاكل بين الاحلاف يتوافدون على خيام الزعماء والمجالس ليقدموا النصح ويعرضوا الوساطة (وقد قيل لنا بأن جهودهم تكلل بالنجاح في بعض الاحيان) .

لقد تحدثنا حتى الآن عن الاهجّارن والامراد[11] ، والاتباع الزراعيين ، والقبائل العربية والدراويش . ويبقى علينا ان نتحدث عن فئتين أخريين هما العبيد والحدادون . فللطوارق موقع ممتاز يمكنهم من انتقاء افضل العبيد الذين يمرون بأرضهم . ولكل امرأة نبيلة جارية او جاريتان من العبيد تقومان بأعمال الطبخ والتنظيف وجلب المياه والعناية بالأطفال وجمع اعشاب الاكل البرية ، وتخدمان ربة البيت خدمة شاملة متفانية . ويعتني العبيد الذكور بقطعان النبلاء والامراد على حد سواء ، ويخدمون حرساً في المضارب . ولكل نبيل عبد مقرب يضع فيه كامل ثقته ، ويبعثه رسولاً ، ويسلحه ، ويرافقه في المعركة . مثل هؤلاء العبيد يردون الجميل وفاء وشجاعة في الحرب[12] .

---

(١١) وجدت بعض القبائل الصغيرة من الإرجناتن Irajenaten ، المتوسطة بين النسب الرفيع والاصل الامرادي ، وهي معفاة من الضرائب ولكن لا قول لها في شؤون الحكم . وانما اشرنا اليهم عرضاً لانهم ليسوا ضروريين للنظام ، بل لا حاجة اليهم أصلاً .

(١٢) يستعمل الفرنسيون الذين حلوا محل الطوارق ، جنودهم السنغاليين للغرض نفسه .

ويختار شبان النبلاء من بين أناث العبيد فتاة بادية الملاحة ، قوية ، حسنة الطباع ، ويتخذ واحدهم مثل هذه الفتاة جارية له ، ترافقه اينما ذهب في رحلاته البعيدة المتعبة ، وتقدم له متعة جسدها الاسود «البارد» . ولا بد له عاجلا او آجلا من ان يتزوج امرأة من طبقته ، وان ينجب منها الاطفال الذين يخلدونه . ولكن الزواج باهظ التكاليف فلا بأس من تأجيله حتى يبلغ النبيل آخر العقد الثالث او الرابع من عمره ، عندما يتمكن من قضاء وقت أطول في مخيمه بموطنه . اما ابناء جاريته فيعتبرون عبيداً ، لأن «الرحم يقرر الاطفال» حسبما يقول الطوارق . وقد يحررهم غير انهم لا يرقون الى مرتبته .

وللحدادين عند الطوارق مثل مالهم من مركز عند العرب . وهم يقيمون مطارقهم وأكيارهم المتنقلة في مضارب النبلاء او الامراد ويجمعون اجورهم ، وقد ينتقلون تفتيشاً عن زبائن آخرين . وفيهم دم زنجي غير انهم ليسوا سوداً كالعبيد . وهم يتزوجون من شاكلتهم وليس من غير فئتهم من يطلب الزواج من بناتهم . ويرى المرء في تمانغاست مقبرة كبيرة من القبور القديمة ، ويقال أنها مقبرة قبيلة من الحدادين فنيت ، ذبحاً او جوعاً .

ونظام الطوارق على مثل تعقيد نظام البلوخيين والبدو ، ولكنه يختلف عن النظامين ، كما ان النظامين الاولين يختلفان من حيث التفاصيل والتشديد . ولكننا نلحظ في الانظمة الثلاثة كلها وجود جماعة من النبلاء الحربيين ، يقضي افرادها اوقاتهم في الالعاب العسكرية وفي الطراد والحرب ، فيحمون مصادر طعامهم واحتياجاتهم ، ويغزون بعضهم بعضاً ، ويحملون العبيد والخدم عبء العناية بأمور المعيشة المادية ، ويحرسون الطرق . ويحافظ كل بطريقته على بقاء فرعه المغلق ، البالغ التخصص ،

من فروع عرق البحر الابيض المتوسط . غير ان بينهـــا شبهاً غير عارض . وهو ان لصانع الاسلحة والادوات التي تعتمد عليهـا ثقافتهم المادية كلها حق الحرية في التنقل دون ان يمسه أذىً . فهو منحط القدر بحيث لا يمسه أحد ، وكفاف العيش هو كل نصيبه من مهنته . ولكنه يؤدي وظيفته ، في وضعه الحضاويّ الخاص ، كما يؤديهـا سادة الفولاذ في المجتمع الغربي ، وهم الذين يتصدرون المائدة في مجتمعهم .

الفصل الثالث عشر

المراعي اليانعة

ان النوع الثاني من الاراضي الذي يمكن ان توجد فيه حياة البداوة هو مزيج من المروج الجبلية العالية والمنخفضات ، التي توفر أولاها كلاء الصيف وثانيتهـا مرعى الشتاء . فاذا سقطت الثلوج الغزيرة اثناء الشتاء اصبحت مراعي الصيف غير قابلة للسكن ، بينما تنمو على ميـاه الثلوج الذائبة اعشاب كثيرة قبل فصل الخريف . وفصل الصيف هو موسم الرعي الرئيسي وفيه تلد الاغنام وتحلب وتسمّن ، وفيه تنمو أصوافها . والشتاء فترة من الهدوء النسبي ، يزداد فيها الاعتماد على المنتجات الزراعية . وفي الشرق الاوسط ثلاث سلاسل من الجبال تتوفر فيهـا الاحوال الضرورية لهذا النوع من البداوة ، وهي جبال الاطلس وجبال زاجروس وجبال السليمانية .

وهناك قبيلتان ترتادان مراعي الاطلس الصيفية وهما إيت أتّا* ،

* تتصدر لفظة « ايت » اسماء عدد كبير جداً من أسماء البربر ومعنـاها « ابن » ، كما تقول في العربية : بنو فلان أو اولاد فلان (المراجع) .

(Ait Atta) وجيرانهم إيت يفلمن (Ait Yafelman) الذين يقضون شتاءهم في الصحراء ويجتـــازون ممرات جبل الاطلس الكبير – متجهين شمالاً في فصل الربيـع ، ويعودون في فصل الخريف . وكذلك قبـــائل زَيّن وزمور وبني مجلد وغيرهم من القبائل التي تقضي صيفها في جبال الاطلس الوسطى وشتاءهـا في السـفوح الشمالية بالقرب من مكناس وكانت قبيلة ايت أتا (Ait Atta) آخر من خضع لفرنسا من قبائل شمالي افريقيا ولم يتم خضوعها الا عام ١٩٣٦ بعد مقاومة ضارية يائسة[1] . وهي تتكون من حلف من خمس مجموعات من القبائل تدعى الأخماس . ويتكون كل خمس من عدد من القبـائل المنفصلة ، وتتكون كل قبيلة من عدد من الافخاذ التي تدعى في البربرية اخسان (أي العظام في لغتهم) وموطن هذه القبائل هو جبل صغرو (Saghro) وهو سلسلة من الجبال التي يصل ارتفاعها الى ثلاثة آلاف قدم ، وهي منجرفة السطوح مليئة بالشعاب ، يحيط بها نجد . وهذا النجد بدوره محدودة جوانبه كلها بالمجاري المائية الموسمية التي تقع فيها الواحات الكثيرة .

والسكان الزراعيون الذين يقطنون هذه الواحات ينقسمون طبقتين : الحرار (الاحرار) وهم من العرب والبربر ، والحراثين وهم من الاتباع الزنوج . ويسمى هؤلاء المزارعون « اخميسين » لانهم يعطون معظم محاصيلهم الى اصحاب الاراضي ويحتفظون لانفسهم بخمس المحصول فقط . ويعيش في واحة تيزارين وهي احدى واحات هذه المنطقة عـائلة من المرابطين تنتسب الى الرسول ويلقب أفرادها بالاشراف . ويملك افرادها الارض ولا يعتدي احداً عليهم ابداً . وفي مواطن قبيـــلة إيت أتا الشتوية ثماني عشرة موقعاً آخر تسكنها جماعات من الدراويش ، وبينها ست طرق صوفية ينتمي اليهـا الحضر من أبناء المنطقة . اما البدو فلا

---

(١) استندت بالدرجة الاولى على كتاب : Captain Spillman, Les Ait Atta du Sahara, (Rabat 1936).

يدخلون في هذه الطرق . وتسكن المواقع الباقية فروع من عائلة مولاي عبدالله بن حسين الذي توفي سنة ١٥٦٨ وأسس هذه العائلة ، وهي من عائلات المرابطين .

وتقر قبيلة إيت أتا لهؤلاء المرابطين بثلاث وظائف تنــــال الحماية المستمرة ، وهي ابقـــاء القبيلة بعيدة عن سلطة الحكومة المراكشية المركزية ، وتنظيفها من داء الزهري ، وحمايتها من هجمات جيرانهــــا ومنافسيها عندما يجتازون بمر تيزي مقرن في طريقهم الى مراعيهم الصيفية وأثناء عودتهم من تلك المراعي . ويعمل المرابطون ايضاً محكمين في الخصومات ويأخذون رسماً سنوياً من جميع القبـــائل . وكانت قبيلة إيت أتا في مراكش فيما مضى من الازمـــان تقر بسلطة روحية أعلى وتلك هي سلطة شريف (جملوت) في منطقة مراكش وراء الاطلس . وكانوا يرسلون اليه في كل سنة هدية فيبعث بدوره قسماً منهـــا الى السلطان ، ويجيب السلطان على هذه الهدية بمنحة نقدية لقبيـــلة إيت أتا اعترافاً بوظيفتها في حراسة الطرق الصحراوية . وكانت هذه هي العلاقة الرسمية الوحيدة بين السلطان وهذا الحلف .

والى جانب هاتين الطبقتين من مزارعي الواحات والسادة الاشراف نجد جماعة عنصرية متحضرة أخرى وهي الجالية اليهودية الساكنة في (امزورة) بالقرب من (زاغورة Zagora) . ويختص هؤلاء اليهود في الاعمال المعدنية الدقيقة ومن بينها الصياغة وصنع الخناجر ، ولا يوجد الحدادون والدباغون والطحانون الا في الواحات الكبيرة ، وينتمي هؤلاء الى عنصري الحرار والحراثين على السواء . وبما ان الواحات لا تستوعب سوى عدد محدود من السكان فقد جرت عادة الشبان من ابنائها ان يهاجروا شمالاً الى فاس وغيرها من المدن حيث يشكلون قسماً من الفسيفساء العنصرية .

وقد استقرت اعداد قليلة من ابناء إيت أتا على الارض . وينتمي هؤلاء الى أقدم قبيلتين في الحلف وهما قبيلتا (عيط وهِلن) و (عيط يزّه) الذين يسكنون قرية قصار الحصينة في (اغرم امزدر) . وهذا المعقل الحصين هو القلب الروحي للحلف . ويحتفظون فيه برايتهم الحمراء التي كانت قبيلة عيط يزّه صاحبة الحق المتوارث في حملها اثناء المعركة . ويختص سكان هذه القرية بالقانون التقليدي ولذلك فانهم المحكمة العليا[٢] . فاذا ثارت مشكلة يعجز الشيوخ ومجالس القبيلة عن حلها او اذا أعطى مرابط تزاوين حكماً جائراً ، يعرض المتخاصمون قضيتهم في اغرن امزدر (Ighern Amazder) وينظر عدد من رجال القبيلتين القديمتين في القضية ويصدرون حكمهم فيها .

ومع ان كثيراً من القبائل والافخاذ تمتلك الاراضي وتخيم بالقرب منها في قسم من فصل الشتاء ، او طول الشتاء ، ومع ان بعض الشيوخ والوجهاء وعائلاتهم يبقون هناك طول السنة ، فانهم يعيشون عادة بالخيام خارج القرى . وتمتلك كل عائلة حصناً . وهذه الحصون مرتفعة ، ولها أبراج من الطين والحجارة ، وقد تتكون من ثلاثة أدوار او اربعة وتقام في مواقع يسهل الدفاع عنها في مواطن الاشتاء . ومهمتها الرئيسية تخزين المحصولات ، ولكنها تنفع للدفاع ايضاً في أحوال الحرب ، ولا يحب أفراد إيت أتا المعيشة داخل الحصون ويفضلون الحياة الطلقة في خيامهم المنصوبة بالقرب منها او في أفنيتها .

وترعى القبائل أغنامها وماعزها في الشتاء في النجد الواقع حول جبل صغرو وفي هذا الجبل نفسه عندما لا يكون البرد شديداً . وفي الربيع ترسل كل قبيلة ممثليها الى مجلس قبائل الحلف . وينتخب الممثلون رئيساً سنوياً للحلف يدعى شيخ العام . ويقوم شريف تزاوين برسمه في هذه

(٢) لا يتبع البربر قانون الشريعة الاسلامية .

الوظيفة بأن يضع حفنة من الحشائش تحت عمامته وفوق جبينه . (والمعنى الرمزي لهذا واضح) ، ثم تتجمع العائلات التي تنوي قضاء صيفها في المراعي العالية ، وقد تكون هذه العائلات هي ذاتها التي تذهب كل سنة او قد تختار على أساس الدور . والظاهر ان معظم الشبان يذهبون مع زوجاتهم وأطفالهم ويعين شيخ العام لكل جماعة الاماكن التي ترعى فيها في المروج العالية وذلك بعد ان تجتاز ممر تيزي مقرن ، ويحافظ على النظام بين أفرادها ، ويزور المضرب تلو المضرب ، فاذا انتهى الصيف عاد بهم الى موطنهم . ولا يجوز انتخاب شيخ العام من نفس القبيلة سنتين متتاليتين بل يجب ان يعطى الدور الى قبيلة أخرى . ويأتي الدور لبعض القبائل اكثر من غيرها وبعضها لا دور لها ابداً . والطريقة المتبعة معقدة وهي مبنية على أساس الحوادث التاريخية .

ولشيخ العام نائب في كل قبيلة يعمل رسولاً بينه وبينهم وينفذ اوامره . وينتخب رجل قانوني الى جانب شيخ العام ليقوم بالنظر في جميع الامور التي تتضمن قضايا تشريعية وقد يذهب الى (اغرم امغدر) اذا اقتضت الضرورة . وشيخ العام نفسه مسؤول عن حل الخصومات الداخلية وتعيين المراعي لكل قبيلة والقيام بالمفاوضات مع الجيران والسهر على الدفاع وتأمين المواصلات ووسائل الاتصال بين قوات القبائل وبين ابنائها الذين يرعون اغنامهم في المرتفعات .

وينقل أفراد قبيلة آيت أتا السلع التجارية عبر جبال الاطلس فيأخذون التمور والحناء والطيب والجلود من الواحات الى الاسواق الواقعة شمالي الجبال ، ويعودون بأحمال من الحبوب والسلع المصنوعة ، ولهم في مناطقهم سوقان يقامان في أيام الاربعاء ، اما خارج مناطقهم فانهم يشتركون في أسواق كثيرة بينها الاسواق التي تقام وراء الجبال . وتغنيهم هذه الاسواق عن الذهاب الى المدن . وتقع بعض الاسواق في

المناطق التي تسيطر عليها الحكومة ولكن رجال القبائل الذين يؤمونها للتجارة لا يتعرضون لاي أذى .

وحياتهم أقل تعقيداً من حياة بدو الجمال . فان آيت أتا لا يرتحلون سوى مرتين في السنة ، وبينهم من لا يرتحـــل اصلاً . وهم كالطوارق يحصلون على حاجتهم من حاصلات الغذاء الزراعية من المزارعين والتوابع في الواحات . ولكن نظامهم الاجتماعي أبسط . وهم لا يصنفون البدو الى مراتب ، ولا يفد الى مخيماتهم صناع من الشعوب الغريبة لانهم لا يحتاجون هؤلاء بسبب قربهم الدائم من الاسواق . وأخطر ما في حياتهم هو الاظعان بالأغنـــام وحمايتها اثناء انتقالها المزدوج ، وحفظ النظام في المراعي الصيفية البعيدة عن سلطة الاشراف والقضاة المتحضرين وشيوخ القبيلة القابعين حول حصونهم ، وهم يواجهون هذا الوضع بانتخاب رجل قوي كل سنة وتزويده بالنواب الذين يحتاجهم لتوزيع سلطته .

والقبائل التي تعيش باستمرار في الجانب الشمالي الغربي من الاطلس تصنع السجاد الجميل ذا الرسوم الهندسية ، الذي يحب الاميركيون ان يشتروه من اسواق فـــاس ومراكش ، لتلاؤمه الشديد مع البيوت والاثاث الحديثين . ويعرف هذا السجاد بأسماء القبائل التي تقوم نساؤها بصنعه ، وهي بنو مجلد وزيَن وبنو مطير . ويتوفر لدى هذه القبائل فـائض من الصوف ، فاذا صنعوه سجاداً در عليهم دخلاً أعظم مما لو باعوه صوفاً خاماً . وفي كل خيمة من خيامهم نول أفقي مثبت بالاعمدة التي ترتكز عليها الخيمة .

وتعيش هذه القبائل في مرحلة وسطى بين الرعي والزراعة[٣] . ولكل واحدة منها مركز في جبل صغرو مقر آيت أتا . وتترك كل قبيلة بعض

Bourilly, Elements de l'ethnographie Marocaine (Paris, 1932), (٣) pp. 154-172.

ابنائها في مواطنها اثناء فصل رعي الاغنام في المناطق الخارجية كما تفعل أيت أتا . ولكنها تختلف عن آيت أتا في ان ابناءها يزرعون الارض بأنفسهم . ويعيش البعض منهم في الجبال العالية ويرسلون قطعانهم في الاتجاهين ، فاذا كان الوقت صيفاً ارسلوها الى الجبال واذا كان الوقت شتاء هبطوا بها الى المنخفضات ، ويتاح بذلك للرعاة أن يقوموا ببعض أعمال الزراعة في الربيع والخريف . والانظمة الاجتماعية عند هذه القبائل أقل تعقيداً من غيرها اذ ليس لها أتباع ، ولا مزارعون ، ولا صناع ثابتون ، ولا تجار . وتقيم اسواقاً اسبوعية وقد يذهب افرادها الى المدن في بعض الاحيان . وفي بعض القبائل يذهب معظم الافراد مع الاغنام . وهنالك قبائل أخرى لا ترسل سوى أعداد قليلة من الرعاة الذين يعتنون بالقطيع المشترك ، كما يفعل أهالي القرى التي سبق لنا بحثها . ويتراوح الآخرون بين هذين الطرفين ويختلف مقدار ما تحتاج اليه الرحلات والرعي من سلطة واشراف تبعاً لخلاف الطريقة المتبعة .

ان الانتقال من حياة القرية الى البداوة القائمة على رعي الاغنام هو انتقال تدريجي معتمد اعتماداً كلياً على الاختلافات الدقيقة في المحيط ، حينما لا تتدخل العوامل السياسية . وهنالك قبائل تعيش على مختلف مراحل هذا الانتقال في المناطق الممتدة من شمالي افريقيا حتى غربي آسيا ، حيثما وجدت مراعٍ جميلة يمكن الوصول اليها في بعض المواسم . وأكبر منطقة من مناطق الرعي في الوديان العالية والجبال بالشرق الاوسط هي منطقة سلسلة جبال زاجروس الواقعة في ايران وتركيا والعراق وبالأخص في ايران . ويقوم بالرعي فيها أربع جماعات من الجبليين الأشداء ، وهم الأكراد ، واللورستانيون ، والبختياري ، والكاشقاي .

والأكراد كالبربر يشكلون شعباً كاملاً ، بمعنى انهم يضمون بينهم

مزارعين وسكان مدن وبدو ، ويقومون بأعمـــال متعددة متنوعة . وموطنهم سلسلة زاجروس شمالي كرمـــانشاه حتى الحدود السوفييتية ووراءها . ويحيط بالجبال في جانبيها صف من المدن الكردية ، أهمهـا السليمانية وراوندوز في الجانب العراقي ، وساننداج ، وسقيز ومها اباد في الجـانب الايراني . ومعظم سكان كوكوك مركز النفط من الاكراد . ويعيش كثير من الاكراد في كرمانشاه امـا المدن المحيطة بزاجروس شمالي مهـــا اباد ، مثل رضايه وشاهبور ، فمعظم سكانها من الاتراك الأذربيجـانيين ، والآثوريين ، والارمن ، ولكنهـــا اسواق يفد اليها الاكراد .

ومعظم الاكراد مزارعون . فالذين يعيشون في سفوح الجبال يرسلون قطعانهم عادة الى أعالي الجبال في الصيف ، ويوكلون بعض فتيانهم بالعناية بهـا . فاذا جاء الشتاء وتراكمت الثلوج زربوها في الكهوف . وتعرف هذه الكهوف بعدد الاغنام التي يمكن ايواؤها فيهـا . فمثلاً كان كهف غتامه الواقع في بلاد الشقاقي والذي نقبت فيه عام ١٩٤٩ يتسع لاربعمئة من الاغنام ، وهناك كهف آخر في الجبال الواقعة جنوبي رضاية يتسع لثلاثة آلاف . امـــا كهف هزار مرد الشهير الواقع في لواء السليمانية بالعراق ، والذي نقبته دروثي جـارود ، فمشهور بعدد الرجال الذين يستوعبهم والبالغون ألفاً .

وبعض الاكراد لا يمتلكون قرى في السفوح ، فتصيف القبيـــلة بأمرهـا في المرتفعات ، ثم تهاجر بكامل أفرادهـا في الخريف . ويرى المسافر على طريق كرمـــانشاه ـ بغداد في الاسبوع الاول من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) منظراً أخاذاً للغـــاية ، على طول الطريق من كرمانشاه حتى الحدود . وقد أحصينا في الثالث من نوفمبر سنة ١٩٤٩ ثلاثة آلاف شخص من الرجال والنساء والاطفال ، المشاة والراكبين على ظهور الخيل ، والراكبين على الابقار ، والمعلقين على ظهور الامهات ،

وقد وضعت الاحمال على ظهور جميع الحيوانات القادرة على احتمالها . وكانت الطريق مغطاة بالاغنام التي خلفت الارض وراءها مغطاة بنصف انش من السماد ، فتحولت أرض الطريق بسببه الى متزحلق خطر ، بعد ان داسته السيارات والعجلات .

وكنا نشاهد كل ميلين او ثلاثة ، جماعة من الرجال يتراوح عددهم بين اثنين وخمسة يحملون البنادق ويركبون الخيل ويتطلعون الى زوايا الصخور الواقعة في جوار الوادي ، وهم متيقظون لكل احتمال . وهؤلاء هم زعيم القبيلة ورجاله الذين يحرسون الهجرة ، ويتأكدون انه لن يترك وراء الجمع انسان او حيوان . فاذا حل العصر اختار رواد الحرس مكاناً يخيمون به وألقوا أحمال حيواناتهم ووضعوها في مجموعات نصف دائرية ، وأشعلوا النيران . وعندما يخيم الظلام يكون معظم المرتحلين قد وصلوا ، ويحتمل الرجال والحيوانات مشاق هذه الرحلة واعياءها فيما عدا الكلاب ، اذ ما يكاد النهار ينتصف عليها حتى تلهث اعياء او تمد ألسنتها فيردفونها على الحيوانات الاخرى .

ويقضي هؤلاء الاكراد شتاءهم على عصف حقول الاراضي الواقعة على حدود وادي دجلة ، وعلى الحشائش التي تنبت في أطراف الصحراء بتأثير الامطار الشتوية . ويتفاهمون مع مزارعي هذه الاراضي الذين قد يكونون عرباً او آثوريين او اكراداً مثلهم ، ويتفاهمون ايضاً مع القرويين الذين يخيمون بالقرب من منازلهم في طريقهم الى الجبال وفي طريق عودتهم منها . وهم لا يملكون مراعيهم الشتوية عادة بل يستأجرونها ولكنهم يملكون أراضي الرعي الصيفي ويعتبرونها موطنهم .

وهم من الناحية الاقتصادية ينتجون فائضاً من الصوف والجلود والحليب واللحوم . ويستطيع بعضهم زراعة القليل من الحبوب اثناء موسم الصيف القصير ، وجني بعض الفاكهة والفستق الحلبي الذي يستعملونه ايضاً في تجارتهم . وتقرب مواقع المدن من المراعي الجبلية بحيث ان

الكردي الذي يبغي البيع او الشراء اثناء فصل الصيف يستطيع الوصول الى سوق يبعد مسيرة ست ساعات او سبع . ويبدأ سيره عند الفجر او قبله وقد يعود في نفس المساء . ويشتري الشاي والسكر والاقمشة المطرزة المزركشة والخناجر والفؤوس وكل ما يحتاجه من المدينة ، ويعرف من أين يشتري الاسلحة النارية ولو كان بيعها ممنوعاً .

غير انه قد لا يضطر الى مغادرة مرعاه المرتفع أصلاً ، لأن البائعين المتجولين يحملون السلع وينتقلون بها من مضرب الى آخر . وبعض هؤلاء البائعين من الاكراد ، او من غير القبائل ، او من جماعات بعيدة . وهم يبيعون السكر والشاي والشموع والكبريت والتبغ والابر والخيوط — وتلك هي نفس السلع التي يحملها الباعة المتجولون في كل مكان . وبعضهم من المتجولين المغول الوافدين من مدن تركستان الروسية والصينية ، والمتخصصين في تصليح الاواني الفخارية المكسورة بالاسلاك . ويأتي الاتراك والاكراد فرادى ، غير ان هناك جماعة ثالثة تأتي الى مضاربهم بكامل عائلاتها وتلك هي القراش او الغجر ، الذين يأتون على ظهور البغال والحمير ويسوقون امامهم الابقار وقد يسوقون الاغنام احياناً .

وينظر الناس الى هؤلاء الغجر بالحذر والشك ، كما ينظرون الى الغجر في كل مكان . وتتنبىء نساؤهم اللواتي يلبسن الملابس الزاهية بالحظوظ ، كما يفعلن في هنغاريا واسبانيا ، ويبعن الاحجار النفيسة التي تجمع المحبين ، ويشفين النساء من العقم . ويبيع رجالهم بعض السلع الصغيرة ويسنون الامواس والمناجل ويصلحون الاواني والاحذية . ويجلبون معهم بعض وسائل التسلية كالالعاب البهلوانية على الحبال ، ويرقصون الحمير على دقات الطبول .

ويحتاج الاكراد الى شيء واحد من الناحية السياسية ، وهو السلطة

القوية التي توزع المراعي وتحرس الهجرات في ايام الارتحال الثلاثة او الاربعة ، وتتعامل مع اصحاب الاراضي الدافئة التي تقضي القبائل فيها فصل الشتاء . وتتوفر هـذه السلطة عن طريق الجهاز القبلي العادي ، القائم على تقسيم القبيلة الى نبلاء واعوان وشيوخ وحواش ، وهو التقسيم الذي يحتاجه جميع الاكراد القاطنين في الجبال سواء اكانوا من المزارعين او الرعاة او كليهما . وهو موجود عندهم جميعاً . وسنبحثه فيما بعد .

والى الجنوب الشرقي تقع بلاد لورستان وتقسم الى لورِ ـ بُزُرْكْ ، ولورِ ـ كجك اي اللور الكبير واللور الصغير . وينقسم اهل لورستان الى عدد كبير من القبائل التي لا توحدها سلطة شاملة ، فكأنها مجموعة من الفئات المختلفة العاملة في الرعي وفي الزراعة . ولم أجد مصدراً موثوقاً عن حياتهم الاقتصادية او تنظيمهم الاجتماعي .

وتليهم بلاد البختياري(٤) . وقد وصفها وصورها تصويراً رائعاً فيلم « الكلأ » Grass الذي أعده (Cooper and Schaedsach) . ويعيش أفراد البختياري في الصيف في وديان القارون الاعلى وروافده ومنابعه في آبِ ـ ديز . وهنا تشكل جبال زاجروس سلسلتين ، سلسلة داخلية واخرى خارجية ، تفصل بينها وديان حادة يتراوح ارتفاعها بين سبعة آلاف قدم وثمانية آلاف . وتخترق السلسلة الخارجية وديان حادة تمر بها الروافد الصاخبة المتجهة الى القارون الاسفل الذي يجتاز سهل أهواز ، بلاد عيلام القديمة ، ليتصل بشط العرب . والوديان وجوارها مغطاة بأحراش السنديان والدر ، والطرفاء ، والصفصاف والتفاح والكمثرى

---

(٤) Mrs. Isabella Bishop, Journeys in Persia and Kurdistan. Sir A. H. Layard, Early Adventures in Persia, Susiana, and Babylonia, 2nd vol. M. C. Cooper and E. B. Schoedsack, Grass (New York 1925), also their film of the same name.

See also a novel by Yonel Mirza, Stripling (New York, 1940). The tribe in which this story is set is not named

والكرز ، والخوخ واللوز ومعظم الفواكه الاخرى التي تنبت في المناطق المعتدلة ، وغيرها من الاشجار والاعشاب التي تزرع في الاماكن الاخرى . ويكثر ثمر البلوط الحلو الذي يأكله السكان فجاً ويصنعون منه الطحين . وينقسم البختياريون الذين يقطنون هذا الفردوس الصيفي الى فرعين ، هفت لانج وجهار لانج ، اي الاربع قبائل ، والسبع قبائل ، على اساس الانساب التقليدية التي توجع الى اخوين انجب احدهما سبعة من الذكور وانجب الثاني اربعة منهم . وتنقسم كل قبيلة الى افخاذ او مضارب ، ويتكون كل فخذ من عدد من العائلات المتقاربة التي تهاجر دائماً معاً . وعلى رأس كل فخذ « كتخدا » ينتخب انتخاباً ، وقد يحاول البعض جعل وظيفة الكتخدا وراثية . والكتخدا مسؤول عن جماعته في رحلتهم الطويلة الشاقة ، عليه ان يتأكد انهم قد اتخذوا مكانهم في المخيم الكبير عندما تتجمع القبائل وان يمنع اغنامه من الرعي خارج المراعي المخصصة له .

وعلى رأس كل قبيلة خان وظيفته وراثية تماماً ، وفوقه الايلخاني — الرئيس الاعظم للبختياري ونائبه إيلبك . وهذان الاخيران ينتخبان انتخاباً من بين عدد من افراد العائلات الرفيعة ، شرط ان يوافق عليهما الشاه . ويصبح الايلخاني ممثلًا للشاه عند البختياري . ومركزه كمراكز حكام المقاطعات معرض للتغيير كل سنة . وقد كان فرع هفت لانج ، وما زال ، مستولياً على هاتين الوظيفتين طوال التاريخ المعروف للقبيلة ، ولكن جهار لانج كانت لهم ايامهم ايضاً . وتعلم العائلات الحاكمة ابناءها في طهران وغيرها . والامبراطورة ثريا احدى بنات هذه القبيلة .

وللايلخاني عاصمة في شالمازار[٥] ، وهي قرية يبلغ سكانها ١٤٠٠ نسمة ، ولها سوق . ويعمل سكانها في الزراعة وحياكة السجاد . ويملك

---

(٥) توجد صورة لقصر قديم في .Layard, op. cit., I, 364

الايلخاني بالقرب منها بستاناً تجريبياً . ومن القرى الاخرى الواقعة في اراضي مراعيه الصيفية قرى جهار محل ، او الاقضية الاربعة[٦] . ومعظم سكانها من الارمن والكرج المسلمين المفرسين . ويعقد في الصيف محكمة في شالامازار ، ولكنها ليست محكمته الوحيدة ، اذ له اثنتان غيرها في اردال واوراغون . ولاوراغون مهابة القدم وجلاله ، وفيها حَجر مقدس تركت اجناب الملوك آثارها عليه . ويجلس الايلخاني على هذا الحجر عندما يستمع الى الشكاوي ويحكم بالعدل .

وبينما يقوم اهالي لورستان القاطنون في اللور الكبير والصغير بهجرات كثيرة منفصلة ، مما ادى الى قيام حكومات قبلية متعددة عندهم ، فان البختياريين المنتمين الى القبائل الاحدى عشرة يهاجرون مرتين في السنة كوحدة واحدة ، اذ ليس امامهم سوى طريق عملية واحدة توصلهم الى مراعيهم الشتوية والصيفية ، وليس امامهم سوى فصل قصير واحد يستطيعون فيه اجتياز هذه الطريق بشكل مفيد . فالسفوح الحادة المكسوة بالثلوج ، ومياه قارون المتدفقة ، التي يجتازونها على عبّارات « معدّيات » من الجلود المنفوخة ، تشكل عقبات لاي مرتحل . فما لم يوجد لديهم التنظيم الكفؤ والسيطرة الحازمة ، فان هجرتهم وحيواناتهم باعداد عظيمة في هذه الطريقة ، قد تصبح مثل فوضى الهزيمة .

ويحصل البختياريون على طعامهم من قطعانهم ، ومن النشاط الزراعي الذي يبذله القرويون العائشون تحت سيطرتهم ، لا في شاها محل وحدها ، بل وفي مراعيهم الشتوية (في كرم ـ سير) . ويزرعون في مراعي الصيف (سرد ـ سير) قليلاً من القمح ويجمعون الفاكهة البرية . وتهيء القرى القريبة منهم في الصيف فرصاً للبيع والشراء ، ويؤمنون المدن في الشتاء للغرض ذاته . ويستفيد المجاورون من هذه الفرص كثيراً .

---

(٦) Lar, Khya, Mizak, and Gandaman. Bishop, op. cit., p. 31.

وتقطن قبائل الكاشقاي شرقي البختياري على طول سلسلة جبال زاجروس، وتتكلم بلغة تركية. وهي ايضاً منظمة في شكل وحدات لانها بدورها مضطرة الى ان ترحل مرتين في السنة. وليس شتاؤهم ملاصقاً لمصيفهم، وهم يضطرون، كالاكراد، الى اجتياز بلاد شعوب أخرى. وتحكمهم عائلة مكونة من عدد من الاخوة، يقيم واحد منهم في شيراز وثان في طهران. وهذان الاخوان مثقفان ثقافة غربية. وتنظيمهم شديد وحازم، وهم قوة عسكرية ذات بأس.

تكفي هذه الامثلة لايضاح جوهر النوع الثاني من البداوة، بداوة المروج المرتفعة والاغنام. وهي تحتاج الى تنظيم حازم لجميع المهاجرين في كتلة واحدة، ويقل فيها نسبياً عدد الاشخاص المتنوعي الاشغال الذين يحتاجون خدمات بعضهم البعض. ويرى المرء بين الرعي والزراعة مراحل تدريجية كثيرة، وكأنه يشاهد حيواناً ذا اربعة قوائم وهو يتعلم المشي. اما بداوة الجمال فهي انتقال كامل كلي، يشبه الطفل الانساني عندما يترك التعلق بأصابع امه ليخطو خطوته الاولى.

* * *

ونمط البداوة الثالث الذي سنبحثه هو نمط هامشي بالنسبة للشرق الاوسط، وهو مقصور على سهل البرز المساوي لسطح البحر ارتفاعاً والواقع في شمال شرقي ايران وشمال غربي افغانستان. وهذا السهل قسم من اراضي الحشائش الشاسعة الواقعة في اواسط آسيا، والممتدة من نهر الدون عبر قزوين الى الصين. وتتخلل هذه الاراضي وتقطعها بعض الصحارى والجبال التي تتوفر بها المياه. وهي موطن حضارة الخيل القديمة، المدهشة على بربريتها، والتي ازدهرت عند الصقيثيين الذين روى اخبارهم هيرودوت. وهذه هي الحضارة التي انجبت اتيلا وجموع الهون، وجنكيز خان وحفيده هولاكو الذي قدم لخليفة بغداد ذهباً يأكله،

والذي ما زال اسمه يثير الرعب ونظرات الاستهجان ، كلما مر ذكره في بعض بلاد الشرق الاوسط .

ويقوم اسلوب الحياة هذا على امتلاك الحيوانات الأليفة العادية في سهل شاسع تنبت فيه الحشائش الكثيفة . فالخيل التي يطعمها الناس بأيديهم في الصحاري ، ترعى في هذه السهول حيثما ارادت . والابقار التي تحتاج تبن الحقول المزروعة في البلاد الاكثر جفافاً ، ترعى مع الخيل ؛ والاغنام التي تستطيع العيش حيثما استطاعه اي من الحيوانات الاخرى (ما عدا الجمال) تنتشر هي الاخرى في السهول ، حيث يقودها الماعز – ابن عمها الأدهى منها والاذكى . وتربى الجمال ايضاً في الحقول المعشوشبة ، ولكنها جمال أثقل عظاماً ، وأسمك غطاء ، ويشاهدها المرء على طول الطريق من منغوليا الى الصين . اما الحمار ، حيوان الحمل الرئيسي للمسافات القصيرة في معظم انحاء الشرق الاوسط ، فلا ترى له أثراً في هذه السهول لانه لا يحتمل بردها ، فان حوافره الصغيرة تغوص عميقاً في الثلوج ، فتبرد اعضاؤه الرئيسية التي لا يكاد يسترها غطاء .

والحصان هو الحيوان الرئيسي في هذا المركب البدوي المعقد . وهو ينال عند الشعوب التركية – المغولية معاملة تختلف عن الدلال الذي يلقاه عند عرب الصحراء . فالحصان عند العرب حيوان مترف لا يمتطي الا في الهجمة الاخيرة من هجمات المعركة ، وفي المواكب . وهو لا يحلب ، ولا يسلخ ، ولا يؤكل ، ولا يجر الى عربة ، بل يعتبر رمزاً لمكانة صاحبه بين الناس ، ووسيلة للمحافظة على تلك المكانة عندما تكون القضية قضية حيات او موت .

اما رجل السهول فيعتبر الحصان احد الخيول التي تجمع قطعاناً وترعى . وقد يملك الفرد حصة لا في حصان واحد ، بل في خيول عدة ، دون ان يكون شيخاً . وهو لا يركب الحصان في المعركة

وحدها ، بل اكثر ما يركبه في اعماله اليومية . وتحلب زوجته إناث الخيل ، وتخمر الحليب لبناً يحبه ويشغف بـه . وهو ايضاً يحب فرسه المفضلة ويحنو عليهـا حنواً عظيماً . فاذا مات ، ولم يكن اهله من المسلمين المتزمتين ، قتلوا فرسه المحببة ودفنوها معه تحت تل من الرمال ، حتى لا يحتاج ان يمشي على قدميه في مراعي العالم الآخر الخضراء .

ومع ان ثقافة الخيل الموجودة في بلاد السهول المعشوشبة ليست خاصة بعرق او مجموعة لغوية خاصة ، فلا يمتلكها سوى شعب واحد فقط من شعوب الشرق الاوسط (كما عرفهـا هذا الكتاب) ، وذلك هو الشعب التركماني . والتركمان الذين يعيشون في الاتحـاد السوفيتي يزيدون عن اولئك الذين يقطنون ايران وافغانستان . وهم سادة واحة مرو ، وسكان خيوة القائمة على احد فروع نهر آمو داريا (جيحون) . ولنلاحظ ان بلادهم لا تتكون من مناطق مأهولة متلاصقة ، بل هي في الشمال عبارة عن واحة وواد نهري ، وفي الجنوب واد ترويه السيول المنحدرة من جبال البرز . وبين القسمين صحراء لا يمكن اجتيازها الا بواسطة القوافل .

والتركمان الذين يهمنا امرهم هنا هم اولئك القاطنون في السفوح والسهول الشمالية لجبال البرز ، بين الشاطىء الشرقي لبحر قزوين والنقطة التي يدخل فيهـا نهر آمو داريا (جيحون) الاراضي السوفييتية . وحتى هؤلاء يعيشون في مواقع منفصلة . ويقسم التركمان انفسهم الى خمسة احلاف ، او مجموعات من القبائل : سالو في منطقة سرخس[٧] ، وساروك في مرو وتكة في بلاد أشق آباد ، وجوكلان غربيهم ، ويموت في سهل جرجان ، الى الشرق من بحر قزوين . وتعيش معظم قبيلة يموت في

(٧) Baron C.A. de Bode, «Onthe Yamud and Gokland Tribes of Turkomania», Journal of the Ethnological Society of London, I (Edinburgh, 1848), 60-78.

الاراضي الايرانية ، مع أنها ترعى حيواناتها على جانبي الحدود التي يفصلها نهر أترك . او بالاحرى كانوا يفعلون ذلك حتى أغلق الروس الحدود ومنعوا اجتيازها .

وبلاد اليموت مليئة بالتلال ، وبعض هذه التلال منسقة بشكل الكؤوس ، وقد يبلغ ارتفاع بعضها ثمانين قدماً - واعلاها تل تورنج - تيبه ، الذي وجد فيها منقبو الكنوز في القرن التاسع عشر ، اثنين وعشرين وعاء من الآنية الذهبية . وتطمر بعض التلال اطلال قرى قديمة ، ولكن بينها قبور ملوك ورؤساء ينتمون لشعب مجهول من شعوب العصر البرونزي ، او لعلهم ينتمون الى سلسلة متعاقبة من هذه الشعوب ، وهي شبيهة بقبور الصقيثيين الملكية في منطقة نيقوبول الروسية ، عند منحنى الفولجا الاسفل . وكان هؤلاء المحاربون القدماء يدفنون موتاهم المهمين في المواطن الشتوية ، ويستعمل التركمان نفس التلال مقابر لدفن امواتهم .

وتعد قبيلة اليموت اربعين الف عائلة او خمسين الفاً ، وتنقسم الى خمس عشائر ، تقسم كل منها الى عشرة افخاذ او وحدات من المضارب . ويقال بأن هذه القبائل تنتسب الى خمسة اخوة ، وكان ابوهم يمود مؤسس القبيلة . ويصنفون ايضاً الى صنفين على اساس طريقة الارتزاق ، وهذان الصنفان هما شومور وشورفا ، وتجد افراداً من الصنفين في كل قبيلة .

ويعيش الشومور كلهم في ايران بين نهر جرجان وجدول يدعى قره صو حتى تورنج تيبه . ومع انهم يمتلكون الحيوانات ويرعونها ، الا ان الزراعة حرفتهم الرئيسية ، وهم يزرعون القمح والبطيخ والخضار وبعض الارز في المواقع الملائمة . ويعيش بعضهم في البيوت ولكن معظمهم يسكنون اليورت .

ولا بد لنا ان نصف اليورت الذي يعيشون فيه • فله بالنسبة لسكان السهول مثل أهمية الخيمة السوداء لبدو الصحراء والمراعي الجبلية . وجميع الشعوب التركية والمغولية الممتدة من سهل كلموك جنوبي روسيا حتى منشوريا ، تستعمل اليورت . ويتكون اليورت من هيكل متنقل وأغطية . ويتكون الهيكل من ثلاثة اقسام : الباب ، والحوائط الجانبية ، والسقف . ويشتمل الباب على هيكل لعتبة وعلى قضيب أفقي وجوانب ، كلهـــا غير قابلة للتفكيك ، خلافاً للباب نفسه . اما الحوائط الجانبية فمصنوعة من قطع خشبية رقيقة توضع في طبقتين بشكل موروب وتشد الى بعضها بعضاً ، فيمكن والحالة هذه توسيع الهيكل وتصغيره وفك اجزائه . فاذا ثبت في هيكل الباب عند طرفيه اوجد حائطاً دائرياً . ويبدو الحائط كشباك فيه فتحات ماسية الشكل ، وقد يبلغ قطره اثني عشر قدماً . ويتألف السقف من قطعتين : عجلة ثابتة لقمته وقضبان تصل العجلة بأعلى الحوائط الجانبية . وتشد كلها بحبال أفقية ، ثم يوضع فوقها الصوف الاسود ويثبت . وتغطي الحوائط بنفس هذا الصوف في الشتاء ، اما في الصيف فيوضع بدلاً منها خيزران مشبك بالخيطان .

وهذه البيوت المتنقلة تفضل الخيام في محيطها الخاص لانها ادفأ منها في الشتاء . وهي أثقل وأصعب في النقل ، ولكن للتركمان عربات يحملونها عليهـا . ويقسم الجوف الدائري في الداخل الى اقسام تقليدية ، احدها للعبادة ، وآخر للرجل وزوجته ، وثالث للأولاد والضيوف وهكذا . وللاثاث ظهور منقوشة ، وكل ما في اليورت نظيف ومرتب . وينتظم كثير من تصرفات العـــائلة التركمانية على اساس هذا المنزل المستدير وتقسيماته الداخلية ، بحيث يفضل التركمان ان يعيشوا فيه حتى ولو كانوا حضراً مستقرين .

اما الشورفا الذين يقطنون ضفاف نهر آرتك فليسوا مزارعين . وهم يهـاجرون شمالاً في الصيف الى جبال البلخان غربي كراسنوفورسك ،

وشمالي سكة الحديد القفقاسية في روسيا . ويبلغ الارتفاع هنا خمسة آلاف قدم ، فيجتذب الرطوبة وبعض الامطار الصيفية التي تنبت الاعشاب والحشائش . ويعودون في الخريف الى نهر آترك (او هكذا كانت رحلاتهم قبل الاحتلال الروسي واغلاق الحدود) . اما الآن فيرى المرء مضارب هؤلاء الشورفا في الضفة الشمالية لنهر جرجان .

والشومور على علاقة طيبة بالحكومة الايرانية . وهم يذهبون بانتظام الى سوق جرجان حيث يبيعون بسطهم الصوفية ، وسجاد «بخارى» ، والقمح والشعير ، والزبدة ، والاغنام والخيول ، ويبتاعون السلع المصنوعة وبينها ادوات المائدة والقماش . وبين قرى الشومور قرية بالقرب من تل تورنج تيبه تدعى جاميش - لي ، او قرية الجماسين ، الذين يختصون بتربية الجاموس . وفي سنة ١٩٤٩ اطلق مزارع من قرية تورنج تيبه النار خطأ على جاموس تملكه ارملة من اهالي جاميش - لي ، فأدى ذلك الى هرج ومرج عظيمين . ومع انه اعترف في بادىء الامر بأنه توهم بأن الجاموس غزال فقتله خطأ ، الا ان القضية تغيرت بعد اربع وعشرين ساعة ، فأصبح الجاموس خطراً على المحاصيل فلا مناص من التخلص منه . مثل هذا الحادث يخلق المشاكل في مناطق الحدود ، ولكنها مشاكل يستطيع النظام القائم مواجهتها وحلها .

اما الشورفا فقلما يخلدون الى السكينه . وهم يغزون بعضهم بعضاً ويغزون القرى الفارسية ويتوغلون داخل المناطق المتحضرة . وقد سمعنا في خونيك الواقعة بأطراف خراسان الجنوبية ان غارات التركمان كانت تقع حتى مطلع القرن العشرين . وكان الغزاة ينهبون الحيوانات وغيرها من الاموال المنقوله ويسرقون البشر عبيداً . اذ ان طلب خانات التركستان للعبيد الفرس كان كبيراً حتى احتل الروس بلادهم . وكان الفتى يباع قبل قرن بما يعادل مائة وخمسين دولاراً ، والفتاة بثلاثمائة . وعندما احتل الروس خيوة سنة ١٨٦٤ حرروا اربعين الفاً من العبيد ،

كان معظمهم من الفرس[٨] ومعنى ذلك ان القيمة التي دفعت ثمناً لاولئك العبيد بلغت عشرة ملايين دولار . وكان الغزو لقنص العبيد تجارة واسعة .

ولا يصل العبيد كلهم للاسواق – كما هو الحال عند الطوارق . فبعض الجميلات كن يستبقين في يورتان آسريهم زوجات او جواري لهم . وكما حصل عند الطوارق ، نشأ هنا ايضاً تمييز طبقي بين ابناء النساء التركمانيات وابناء الجواري ، واقتصرت رفعة النسب على الاولين وحدهم .

وفي بلاد التركمان عائلات امتازت بطريقة أخرى ، وهي العائلات التركمانية التي تزعم لنفسها نسباً عربياً . وقد لا تنتسب هذه العائلات الى الرسول بل الى الخلفاء الراشدين الاربعة ، ابي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وابناء هذه الحمائل دراويش وأتقياء ، يشبهون مرابطي شمال افريقيا والصحراء . ولا يؤذيهم أحد ، وقد اصبحوا بفضل هذه الحصانة رجال قوافل وتجاراً متجولين . وهم الذين يقودون القوافل عبر الصحراء الواقعة بين سفوح البرز والواحات ، ويوصلون السلع الى مضارب الشورفا القريبة .

والحدادة صناعة شريفة عند الاتراك كلهم ، كشأنها عند الاوربيين . وبين التركمان مختصون بالحدادة ، ويجد المرء بسهولة آنية النحاس في اسواق جرجان ، وسرخس ، ومدن الواحات ، ويقوم بالاعمال المعدنية صناع من الفرس او اتراك تعلموا الصنعة عند الفرس .

وهكذا فان اول ما نجده في نظام البداوة هذا هو التمييز بين الحضر والبدو . وليس هذا التمييز حاداً ، لأن البدوي يستقر على الزراعة اذا خسر قطعانه ، وقد يشتري المزارع الغني قطعاناً ويسوقها على طريقة البدو مع بعض اقاربه الذين يعيشون عيشة البداوة . وكان

W. Jochelson, Peoples of Asiatic Russia (New York, 1928), p. 95. (٨)

الشوروفا فيما مضى من الايام يغتنون بالغزو . وربمــا ساعدهم اقرباؤهم الشومور على الاختفاء ، ولكنهم لا يجرأون على الاشتراك في غزواتهم . ويحصل الشوفرا من الشومور على محاصيلهم الغذائية النباتية . والامر الثاني الذي نلحظه هو التمييز بين النبلاء والعامة ، ويقوم على الدم ، وهو مهم لأن القرابة ركن المؤسسات السياسية . والامر الثالث هو التمييز بين التركمان والعائلات الدينية ، ويساعد هذا التمييز على المحافظة على خطوط النقل والمواصلات في الصحراء المكشوفة . فهنا نظام متوسط التعقيد ومتلائم مع حاجاته .

ذكرنا في بدء هذا الفصل بأن تغير المحيط الملائم للرعي يؤدي الى تفضيل بعض الحيوانات على غيرها في ذلك المحيط . وقد درسا حتى الآن الجمال والأغنام ، والخيول . غير ان هناك حيواناً طريفاً مررنا عليه بشكل عــابر وذلك هو الجاموس . فحيثما توفرت الرطوبة ووجدت الانهار والبرك شوهد هذا الحيوان . ويشرف عليه دوماً صغار الأطفال الذين تنقاد لهم هذه الحيوانات الضخمة الشرسة .

وتشكل هذه الحيوانات جزءاً من مجموعة الحيوانات عند اكراد المنخفضات الجبلية الواقعة غربي بحيرة اورمية واتراك اذربيجان والآثوريين . ويسوقها الاطفال في الصيف للرعي والسباحة . وقد وجد بين التركمان بالطبع شعب مختص بالجاموس يعيش من ألبـانه ولحومه . وفي جنوبي العراق مضارب لمربي الجواميس الذين يستأجرون المراعي من المزارعين ، والذين ينقلون خيـامهم المصنوعة من القش نصف ميل او اكثر عندما تفلح الاراضي التي كانوا يشغلونها للزراعة . وبما ان الجماسين ، اياً كانت شعوبهم ، يعيشون دوماً في بلاد حضرية وعلى مقربـة من الاسواق ، فان حياتهم تجري وفقاً للاسلوب القروي البسيط في العيش .

الفصل الرابع عشر

الحاضرة والمدينة

ان القرية والمضرب البدوي هما اصغر وحدات الحيـــاة الاجتماعية المعروفة في الشرق الاوسط وأكثرها ترابطاً . وكل منهما في حاجة الى الآخر ، اذ لا بد للبدو من الحصول على الحضر ، ولا بد للقرويين من الحصول على مواد مصنوعة من الخارج ، تنقل على ظهور حيوانات يربيها البدو . ولكن قلما يكون هذا التبادل مباشراً . فالقرويون والبدو يتقايضون المنتجات بوساطة تجـار المدن والحواضر . ويعتمد كلاهما على الحاضرة والمدينة للتزود بالسلع المصنوعة ، و«الكماليات» الضرورية اجتماعياً ، كالسكر والشاي والقهوة .

والحاضرة مجتمع من التجار والصناع نما حول احد الاسواق الضاربة ، او ربمـا نجمت الحاضرة عن نمو قرية ذات موقع ملائم للتجارة . وقد تنجم ايضاً عن تضاؤل احدى المدن وانحلالها . والفرق بين الحاضرة والقرية ، هو ان القرية بالرغم من احتوائها على عدد قليل من المختصين ، كالنجار ، والقـــابلة ، والحمامي ، فان مختصيها هؤلاء لا يخدمون سوى حاجات سكان قريتهم دون غيرهم ، اما الحاضرة فان مختصيها لا يخدمون

ابناء الحاضرة وحدها ، بل يخدمون ايضاً ابناء المضاوب والقرى المجاورة . فالحاضرة تشبه موسطة خلية تحيط بها جميع القرى المعتمدة عليها . وما لم يكن لها اختصاص محلي ، فانها تتعاطى تجارة السلع الثانوية ، كالشموع ، والكبريت ، والابر ، والخيوط ، والاقمشة التجارية ، والادوات الحديدية والمواد الغذائية .

ومن أمثلة هذه الحواضر حاضره عفك في جنوب العراق الاوسط (ويلفظ اسمها محلياً عفج) . وهي تقع بالقرب من الآثار الضخمة لمدينة نيبور القديمة ، ويقطنها قرابة ثلاثة آلاف شخص . وتمر بحاضرة عفك قناة تصل دجلة بالفرات ، كانت يوم كانت صالحة للملاحة قبل ايام سيارات الشحن هي أداة المواصلات الرئيسية بين الحاضرة وسائر انحاء البلاد ، كما كانت المصدر الرئيسي للماء . وعليها جسر واحد . وفي ضفتها الغربية عدد من المباني المتباعدة الكبيرة نسبياً . وهذه هي مباني الحكومة المركزية ، وفيها مسكن القائمقام ومكاتب دائرته . أما القائمقام فهو نائب المتصرف ـ حاكم اللواء ـ ومقره في الديوانية .

ويعقد القاضي محكمته في الحاضرة . وتحتوي الحضرة ايضاً على دائرة ومعسكرات للشرطة ، وفيها ضابط للتجنيد . وتؤمن مدرستها التابعة لوزارة المعارف التعليم الابتدائي لأطفال القرية . كما ان احد اطباء بغداد أنشأ فيها مستشفى صغيراً وعيادة له ، وفيها ايضاً مركز لموظف مسئول عن شئون الريّ . وأصغر تلك المباني هو « النادي » وفيه يجتمع الموظفون القاطنون بالضفة الغربية للاستماع الى الراديو وقراءة المجلات ولعب الطاولة .

فالضفة الغربية من القناة اذن مخصصة لنشاط موظفي الحكومة . وتقع على هؤلاء الموظفين واجبات ادارة القضاء كله ، ولم يكن بينهم في عام ١٩٤٨ موظف واحد من ابناء القضاء . وكان القائمقام والقاضي

مسلمين شيعيين من ابناء المدن الكبيرة . اما ضابط البوليس فمسلم سني من ابنـاء الشمال ، وضابط التجنيد عربي مسيحي ، والطبيب ومأمور الري كلاهمـا من اليهود (لست متأكداً من ديانات معلمي المدرسة وهم كثيرون) ، وكان هؤلاء السادة المنتمون الى ديانات مختلفة يتعاونون فيما بينهم تعاوناً طيباً ، ويتبادلون الدعوات ويكرموننا[1] ويحتفون بنا ، في انسجام كامل .

وتقع الحاضرة ذاتها على الضفة الشرقية للقناة . وتتجه طريق الديوانية مباشرة الى القسم الحكومي من المدينة حتى تصل الجسر ، فاذا اجتازته الى ضفة القناة المقابلة اصبحت السوق الرئيسي لعفك . وتصبح الطريق هنا شارعاً مسقوفاً (ساباط) يبلغ عرضه عشرين قدماً ، وتقع الدكاكين على جانبيه . ويقطعه بعد خمسين ياردة شارع آخر مواز للقنـاة ، ومن تقاطع هذين الشارعين يتكوّن الاساس لمخطط المدينة ، اذ تجد جنوبي التقـــاطع ثلاثة شوارع متباعدة موازية للسوق الرئيسي ، وتجد شماليه خمسة شوارع أخرى وزقاقين غير نافذين . وثمة ممر آخر غير نافذ هو عبارة عن سوق قصير مسقوف يقع على مقربة من التقاطع ، في مجموعة الابنية الواقعة شمالي السوق الرئيسي .

وبعد الشارع الشمالي الخامس تقع المنطقة التي تلقى بهـا قاذورات المدينة ، وتعيث فيها الكلاب الصفراء وطيور العقعق السوداء والبيضاء ، التي سرعان ما تلتهم اسوأ الاقذار الملقاة فيها . وتلحظ في اقصى زاوية مجموعة الابنية الثالثة في جانب القناة ، وانت متجه نحو الجنوب ، أقمشة مزركشة تتماوج مع النسيم . وتلك مناشف نشرت لتجف ، وهي تدل على موقع الحمام ، وبعد الحمـام بقليل ساحة مسورة تستعمل في الصيف سوقاً للقرويين ، الذين يفضلون عليها في الشتاء الاسواق المسقوفة لانها

(١) اعضاء بعثة نيبور ــ وهي بعثة مشتركة من جـــامعتي بنسلفانيا وشيكاغو برئاسة الدكتور دونالد ماك كون «Donald Mc Cown» .

تقيهم برد الشتاء ومطره . ووراء السوق الصيفي مسلخ الحاضرة ، وتنتشر حوله الكلاب والغربان المفتشة عن الجيف والقاذورات . وفيه يذبح الجزاورن كل صباح ذبائحهم بعيداً عن مساكن الناس . ووراء ذلك قبة صغيرة هادئة متناسقة ، قائمة وسط فناء مسور ، ومزينة بالاقمشة المزركشة وبعقد من الخرز الأزرق . وهي مقام ، أنشيء حيث غسل جسد أحد الأسياد قبل دفنه في كربلاء . وفي داخل القبة محراب لونته نفس الأيدي التي نقشت باب المقام بالحناء .

والحاضرة مقسمة الى اربعة احياء من تقاطع الشارعين الرئيسين . ولكل حي مختار يعينه القائمقام ويوافق على اختياره سكان الحي . ومن واجباته ان يكون إماماً لجامع الحي . فان في كل حي اماماً واحداً وجميعهم من الشيعة الامامية . وفوق المخاتير الاربعة في المنصب يجيء رئيس البلدية وهو يعين ويصدق على تعيينه بنفس الطريقة . ووظيفته ادارة الشؤون التي تهم الاحياء كلها والاشراف على الاسواق وعلى الاشغال العامة ، كاضاءة الطرق وتنظيم الاضاءة .

وبين سكان الحاضرة مزارعون يخرجون الى حقولهم اثناء النهار ، وبينهم صناع وتجار ومختصون بالنقل ، وجزاورون ونساجون ، وتجار حبوب وأقمشة ، وبقالون ، وبائعو خضار ، وحدادون ، و«سمكرية» ، وتجار الآنية والأدوات الصلبة ، وبائعو التبغ ، والخياطون والسكافون ، والحلاقون ، والحمامون ، وبائعو البنزين والكيروسين ، ومصلحو السيارات ، وسائقو سيارات الاجرة وسيارات الشحن ، وحمارون وجمالون وملاحون . تلك لائحة لأعمال السكان ، شاملة بقدر ما امكننا التوصل اليه — انا والدكتور محمود الامين — فيما تسنى لنا من وقت . وعلينا ان نضيف اليها أصحاب المقاهي وعمالها ، وفي الحاضرة مقهيان ، الى جانب مطعم صغير مختص بأكلة الشيش كباب اللذيذة الطيبة .

والظاهر ان معظم الصناع وأصحاب المخازن من أبناء الحاضرة ،

ولكن المختصين بالنقل لم يكونوا من ابنائها . فجميع سائقي سيارات الشحن من الغرباء ، وكذلك سائقو سيارات التاكسي ، مع ان بعض الشبان من ابنـــاء الحاضرة كانوا قد ابتدأوا بالاهتمام بسوق السيارات وتصليحها . وكان بين الحمارين عدد من ابنـاء الحاضرة ، ولكن معظم هؤلاء كانوا ينتمون الى جماعة خاصة من الحمارين القاطنين في قرية تقع خارج حاضرتهم ، وتختص ببيع الفحم وبالنقل . اما الجمالون فمن البدو . وأما الملاحون ، فقد شحت اعمالهم بسبب منافسة سواقي سيارات الشحن لهم ، وبسبب طغيان الاتربة على القناة . وهم يقطنون الحاضرة ذاتها مع عـائلاتهم ، وترسو بلمهم ، او قواربهم ذات النمط السومري ، في القناة خارج الحاضرة . وكانوا فيما مضى يعملون بنقل الاشخاص والبضائع حتى الحـلة شمالاً ، والبدير جنوباً . وكانت قواربهم أداة النقل الرئيسية من عفك واليهـا ، اثنـاء حملة التنقيب الاولى عن نيبور في عقد ١٨٨٠ ، وبواسطتها كانت تنقل المؤن والادوات .

وكنا اذا ما سرنا في السوق المسقوف [الساباط] قابلنا رئيس البلدية بالتحية ، ورافقنا الى الحوانيت وأشرف على ما نشتريه ، ونحّى الجمهور عنا . وكان الوقت حينئذ شتاء ، وقد جلس القرويون بالقرب من التقاطع الرئيسي ، يعرضون بضاعتهم على حصر من القصب . وتعتبر بعض الايام انسب لشراء بعض السلع المعينة ، فصباح الخميس مثلًا أنسب الاوقـات لشراء الحصر . وبعض السلع تعرض للبيع كل يوم ، وبين هذه السلع قشدة ابن الجاموس [القيمر]* التي كانت نساء الجمـــاسين يحملنها على رؤوسهن في الوقت المنـاسب قبيل الفطور . فاذا أشرف المرء ببصره نحو خارج المدينة رأى من أين يأتي هؤلاء القرويون . ففي الطريق الى المقـام يمر المرء بقرية زراعية ، وبمضرب للجماسين ، وبمضرب بدوي ،

* هذا هو الاسم المحلي لها في العراق [المراجع] .

وبقرى أخرى متعددة ، ومطحنة تدار بالآلات . ولكل من هـذه الجماعات دوره في اقتصاد المدينة وأثره في بيئة تتوسطها تلك الحاضرة .

وهذا يقودنا الى أن نتساءل : ما الفرق بين الحاضرة والمدينة ؟ المدينة اكبر من الحاضرة . وهي مركز لموظف حكومي اعلى رتبة ، وتتعامل بمقدار اكبر من التجارة . تلك هي الفروق الكمية بينهما ، ولكننا نبحث الآن عن الفروق الكيفية ، التي يبدو انها تنجم في العادة عن مجموعة من تغيرات ذات صبغة كمية . وأهم ما يفرق المدينة عن الحاضرة هو ان صناع المدينة ماهرون بشكل فائق ، وانهم يصنعون سلعة ، أو سلعاً ، فاخرة ذات شهرة وطنية ان لم تقل شهرة عالمية احياناً .

وسبب ذلك ان في الاقليم بطبيعته وفراً عظيماً من بعض المواد الأولية الخاصة ، كما أن عدد الصناع فيه كبير بحيث يتبادلون الافكار ، ويحفزون بعضهم بعضاً الى بذل مقدار اعظم من الجهود ، والى تحسين نوع سلعهم باستمرار . (وهذا يشبه حال دائرة كبيرة في احدى الجامعات . فالأساتذة والباحثون يتبادلون الافكار ويتعاونون في صهرها لينجم عنها شيء جديد سليم ، لكن اذا كانت الدائرة مكونة من رجل واحد ، فانه يجد صعوبة حتى في متابعة ما يكتب في حقله) .

وقد حدث الشيء ذاته في الشرق الاوسط . فأحرزت فاس شهرة فائقة في صنع الجلود كما سنرى فيما بعد . وعرفت نابلس بشراب التمر هندي ، وهو الشراب العربي السائد قبل مشروبات الكولا . وصنع سكان سرمين الواقعة بالقرب من حمص قوالب الصابون المكعبة ، المطيب منها وغير المطيب ، والاصفر منها والاحمر . وتنتج مدينة نصيبين في شمالي العراق الماورد ، بينما تصنع مالقة الخزف المذهب . ويحاك الصوف الرفيع في فزان ، ويختص صناع بعلبك بالصحون والملاعق الخشبية الرفيعة ، ويصنعونها في مجموعات تتكون احداها من عشرة صحون

يوضع كل منها داخل الآخر ، ومن عشرة ملاعق اقتطعت لتملأ الفراغ الاوسط ، وتوضع المجموعة كلها في حقيبة جلدية[٢] . وكانت هذه السلع تنقل من طرف لآخر من أطراف الشرق الاوسط ، بل الى ما وراءه :

والعاملون في التجارة من ابناء المدينة مثل زملائهم في الحاضرة ، صنفان : التجار ، وهم بائعو الجملة الذين يمارسون التصدير والاستيراد ، والبقالون وهم بائعو المفرق . ويتعامل تجار المدينة بعدد متنوع من السلع ، بينما ينحصر اهتمامهم في حاضرة كعفك بالتعامل بالأقمشة والحبوب . وينتمي معظم سكان الحاضرة الى ديانة واحدة ، فيما عدا موظفي الحكومة ، اما في المدينة فان المرء يقابل افراداً ينتمون الى عدة مذاهب إسلامية ، كما يقابل النصارى واليهود . ولكن هذا لا يحدث دائماً .

تلك هي الفروق الحقيقية ، ولكنها ليست محددة بشكل يجعلهـــا اساساً لتعريف واصدار حكم . فكما ان القرية تصبح حاضرة في بعض الظروف ، فهناك ايضاً مرقاة ترفع المدينة عن الحاضرة ، وهذه المرقاة في اعتقادي هي وجود النقابات او انعدامها . ففي الحاضرة يهتم «المخاتير» [العُمَد] او من كان في مقامهم بالتنظيم المحلي للمواطنين ، باعتبارهم سكان احياء معينة ، بينما يشرف رئيس البلدية عليهم باعتبارهم صناعاً وتجاراً . وعندما تنمو الحاضرة ، ويزيد عدد الافراد العـاملين في كل حرفة او تجارة بحيث يتجاوز نقطة معينة ، يعجز شيخ السوق وأعوانه عن معالجة القضايا التي تنشأ بين أفراد الحرفة الواحدة أو بين الحرف المختلفة . وعند ذاك ينتظم افراد كل حرفة في مؤسسة خاصة بهم ، ويصبح لكل جماعة رئيس تحت اشراف شيخ السوق . وحينئذ تصبح الحاضرة مدينة .

وتجد في الشرق الاوسط كله (كما حددناه في الفصل الاول) ما لا

---

(٢) انظر ما قاله ابن بطوطة عن نابلس وسرمين وتصيبين ومالقة وبعلبك .

يقل عن خمسين الف قرية وبضعة آلاف من الحواضر . اما المدن فلا تعد الا بالمئات . وهناك ثلاثون او اربعون مدينة من بين هذه المدن ، تخطر فوراً على البال ، وهي : مراكش ومكناس ، وطنجة ، وفاس ، وتلمسان ، والجزائر ، وقسنطينة ، والقيروان ، وتونس ، وطرابلس ، والاسكندرية ، والقاهرة ، والاقصر ، وعدن ، وصنعاء ، ومكة ، والمدينة ، ومسقط ، والكويت ، والبصره ، وبغداد ، والقدس ، وبيروت ، ودمشق ، وحمص ، وحماه ، وحلب ، والموصل ، وتبريز ، وهمذان ، وأصفهان ، وشيراز ، والاهواز ، وطهران ، ومشهد ، وهرات ، وكابل . ولم نذكر بينها الدار البيضاء ووهران اللتين كانتا مينائين صغيرين قبل الغزو الفرنسي ، ولا الظهران وعبادان اللتين لم تكونا شيئاً مذكوراً قبل أيام الزيت .

وبين هذه المدن الثلاثين او الاربعين تسعة مدن مهمة تاريخياً وجغرافياً ، وبين هذه المدن المهمة ميناءان لمدينتين أخريين . وهذه المدن الرئيسية في عالم الشرق الاوسط الاسلامي القديم هي في اعتقادي مدن فاس ، وتونس ، والقاهرة ومعها الاسكندرية ، ودمشق ، وبغداد ومعها البصرة ، ومشهد[٣] . فمجموعتا القاهرة والاسكندرية ، وبغداد والبصرة ، هما مركزا حوضي النهرين العظيمين . وفاس ملتقى الطرق بين طريق القوافل الشمالية المتجهة من طنجة نحو الجنوب أي من أوروبة الى السودان ، وبين الطريق السلطانية الشرقية — الغربية ، التي تربط سهل مراكش الخصب على ساحل الاطلس بسائر اجزاء العالم الاسلامي . اما تونس التي تقع على بعد بضعة اميال من قرطاجة القديمة ، فهي الميناء والمركز الطبيعي للوديان الغنية بالقمح ، الواقعة بين الجبال عند الطرف الشرقي لسلاسل جبال الاطلس . وتقع دمشق على ملتقى آخر للطرق ، فعندها تتلاقى طرق القوافل الوافدة من اليمن والطريق الشرقي — الذي

(٣) لم اذكر طهران في هذه القائمة لان عظمتها محدثة .

يغرّب مطيفاً بالصحراء ، فوادي النهر الكبير ، الى البحر الابيض المتوسط . وأما تبريز فقد أصبحت المركز التجاري الرئيسي للعراق وايران ، بعد ان ضرب المغول بغداد . وهي منفذ الى آسيا الوسطى والصين . وأما مشهد فهي مركز خراسان الغنية ، ونقطة انطلاق القوافل التي تتجه شرقاً على الطريق الضيقة بين جبال البرز ودشت ـ كبير الى خانات آسيا الوسطى والى الهند خلال أفغانستان .

وتشكل كل من هذه المدن مركزاً لمنطقة زراعية غنية ، وهذا امر ضروري لاطعام سكانها الذين بلغوا مئات الآلاف حتى في الايام القديمة ، بينما زادوا في مدينة او مدينتين ، كالقاهرة ، عن المليون* . وقد عدد ابن بطوطة في القرن الثالث عشر في القاهرة اثني عشر الف سقاء يعملون على الجمال ، وثلاثين الفاً من مكارية البغال والحمير ، وستة وثلاثين ألفاً من المراكب النيلية(٤) . فاذا قام مئات الآلاف من سكان المدينة بانتاج كميات وافرة من السلع المصنوعة ، فانهم يحتاجون عدداً كبيراً مماثلاً من سكان الارياف ليزودوا سكان المدينة بالمواد الغذائية وليشتروا منهم السلع المصنوعة . ولكن قلما وجد الشرق الاوسط مثل هذه الاعداد الكبيرة من السكان الريفيين . ويحتاج سكان المدينة الكثيرون ايضاً الى المياه للشرب والغسيل ، ولعدد من الاعمال الصناعية كطحن القمح ودباغة الجلود وغسل الصوف . فحاجتهم الى الماء تزيد كثيراً عن حاجة القرى والحواضر ، ولذا يجب ان يكون مصدر الماء مستديماً وثابتاً . وقل بين بلاد الشرق الاوسط من تتوفر لديه هذه الحاجات . فاذا توفر كل ذلك ، وكان موقع المدينة ملائماً للتجارة ، نشأت المدينة التي تهمنا في هذه الدراسة .

---

* لعلهم حسب آخر تعداد قد تجاوزوا هذا بكثير .

(٤) ابن بطوطة ١ : ٦٩

وتستمد المدن التسع التي ذكرناها مياهها من مصدرين : الأنهر والجداول الجبلية . فالقاهرة والاسكندرية وبغداد والبصرة ، تستمد مياهها من الانهر ، وهي مياه وافرة غزيرة ، ولكنها متعكرة بالطين . ومع ان بعض السكان يشربونها على حالها الطبيعي ، فان معظمهم يفضلون ترشيحها . وكانت «الازيار» الفخارية الضخمة تستعمل لغرض الترشيح هذا قبل انشاء مصافي الترشح التي زودت بها هذه المدن في الوقت الحاضر . (ان مذاق ماء بغداد يشبه تماماً مذاق ماء فيلادلفيا) . وتستمد تونس ، وتبريز ، ومشهد مياهها من الجداول الوافدة من الجبال القريبة . وأما دمشق فهي محظوظة بنهر نقي بارد الماء ينبع من نفق في التلال الكلسية الواقعة غربي المدينة على مسافة عشرين ميلاً . اما فاس ، المبنية في لحف هضبة كلسية ، فان لها مصدراً مماثلاً من الماء ينبع على مقربة من الطرف العلوي للمدينة .

واذا كانت الحاضرة نواة لخلية من القرى ، فان المدينة مركز لما هو أكبر من ذلك اذ يتجمع حولها عدد من الخلايا القليلة الكثافة . وتنتظم هذه الخلايا الكبرى ، او مجموعات الخلايا في عالم الشرق الاوسط في مواقعها بحيث تقوم بينها علاقات متبادلة بشكل واضح . واذا ما تمادينا في استعمال تشبيه الخلية هذا فاننا نستطيع القول بان للمدينة ذاتها تركيباً يشبه تركيب خلية ، ذات نواة خاصة ، وأجهزة خاصة لتقاوم الصدمات الداخلية والخارجية ، وطرائق الخاصة في استيعاب العناصر الدخيلة واطراح ما يطرح منها .

وكثيرون هم الذين يعرفون تركيب كثير من مدن الشرق الاوسط ، ولكن قلّ فيهم من سجل هذه المعرفة بشكل منتظم . أضف الى ذلك ان المدن واجهت اقوى آثار المدنية الحديثة ، فاذا كان من الميسور ان تعثر على قرية «خام» ، او تجد حتى حاضرة من هذا القبيل ، فان وجود مثل هذه المدينة أمر نادر . وقد تكون مدينة حماة من هذا

النوع . ومن المحقق ان صنعاء كانت كذلك قبل ان غادرها اليهود في الآونة الاخيرة ، إلا ان كلًا من هاتين المدينتين لم تلق دراسة وعناية . وليس في المدن واحدة درست وحققت وثائقها بدقـــة سوى مدينة هامة وتلك هي مدينة فاس . فقد قام بعض علماء الاجتماع والجغرافيين من الفرنسيين الذين نشأوا على مذهب دوركهايم (Durkheim) العملي ، والمستشرقون الذين يتزعمهم ليفي بروفنسال (Levi Provencal) ، فوصفوا باستقصاء كل ما يتعلق بهذه المدينة أشد استقصاء . وتعد دراستهم هذه نصراً للمنهجية والتنظيم الدقيق .

ولما دخل الجنرال مونييه (Monier) الفرنسي مدينة فـاس على رأس طابور من الجنود سنة ١٩١١ وجدها على ما وجدها الزائرون لها قبلًا : مدينة من مدن القرون الوسطى تمـاماً ، لم تمسها يد التغير . ولم يكن تجار فاس يجهلون العـالم الحديث ، اذ كان لبريطانيا وفرنسا قنصليات فيهـــا ، كما كانت قد انشئت فيها مدارس أوربية[٥] . وعاشت بعض الجاليات من الفاسيين في مانشستر ومرسيليا ، وكان لأحد تجارها زوجة انكليزية . وكان أهل فاس قد استطاعوا ان يجعلوا التجارة الخارجية جزءاً من حياتهم ، دون ان يؤثر ذلك على المظهر الطبيعي لمدينتهم او على التركيب الاجتماعي لسكانها . وقد أخذ المارشال ليوتي بجمالها الابيض اللطيف فأمر بأن لا يدخل عليها أي تغيير . ووضع مخططاً لبناء مدينة جديدة على مشارف الممر الواقع على مسافة ثلاثة اميال غربي المدينة . وقد تلت من بعد أيام عصيبة ، ولم تعد شوارع فـــاس مزدحمة مثلما كانت سنة ١٩١١ ، إلا ان المدينة القديمة ما زالت قائمة ، يستطيع اي سائح ان يشاهدها ، بل لقد شاهدها فعلًا سائحون كثيرون .

وتقع فـاس في الطرف الغربي من منطقة الشرق الاوسط ، بعيدة

---

(٥) R. Le Tourneau, La Ville de Fes avant le Protectorat (Casablanca, 1949), p. 471.

عن موسطته ، وهي مدينة صغيرة لا يكاد سكانها يبلغون مئة ألف ، مع انهم لا بد بلغوا مئتي الف في أوج ازدهارها . غير انها نموذج لمدن الشرق الاوسط ، وهي العاصمة الثقافية بين بلدان تلك المنطقة لبلادها ، بمقدار ما تعتبر القاهرة وبغداد ودمشق عواصم ثقافية . وهي في موضعها أشبه شيء بموضع مدينة بوسطن من امريكا . وما يصدق على فـــاس يصدق بشكل عام على كل مدينة إسلامية ، وبوسعنا أن نطبق المعارف التي حصلنا عليهـــا من الدراسات القيمة لمدينة فاس تطبيقاً واسعاً على الاماكن الاخرى .

وأول الامور الجوهرية عن فاس هو ماؤها ؛ إذ يتخللها وادٍ يسمى باسمها شقت منه قنوات كثيرة معظمها مطمور تحت الارض ، وهذه القنوات تزود ـ على وجه التقريب ـ كل بيت كبير في الحي الرئيسي من المدينة بما يحتاجه من ماء ، وفي الشوارع سبل ماء عامة يستمد ماءها من لم يبلغ تلك الحظوة . ولذلك فمجال العمل للسقـائين الذين يحملون الكؤوس والزقاق المصنوعة من جلد الماعز أقل بمـا هو عليه في معظم المدن الاخرى . الا ان السقائين يقدمون المـاء للعطشى في السوق ، وتلتزم بعض المؤسسات الاســـلامية بتكاليف هذه العملية . وتختلف مدينة فـاس عن كثير من المدن الشرقية التي تتخذ مجرى الماء مشرباً ومنعباً ، بان لها نظاماً خاصاً من المجاري الصحية التي تنصرف فيهـــا اقذار المراحيض . وتستمر هذه المجاري حتى نهاية المدينة حيث تفرغ في مجرى النهر . ويقـــال بأن أحد شذاذ الافرنسيين هو الذي بنى هذه المجاري في سنة ١٧٨٠ أو بعيدها .

وتجري هذه الميـــاه على منسوب واحد طول السنة . وهي توفر مئتين وستة وثمانين جالوناً من الماء يومياً للشخص الواحد (مقابل ثمانين جالوناً فقط للشخص في نيويورك) . ولذا يستطيع الفاسيون ان يرشوا الشوارع والاسواق بالمـــاء في الايام الحارة . ويستطيع الاغنياء من

اصحاب البيوت ان يرطبوا حدائقهم بنوافير ترسل الماء على علو خمس أقدام او اكثر، وذلك بسبب انحدار مجرى الماء بمقدار مئتين وخمسين قدماً في أقل من ميل واحد. وهذا الانحدار يؤمن ايضاً القوة اللازمة لمطاحن القمح ولمعامل الصباغ، ولمولدات الكهرباء التي تدار بالقوة المائية وقد انشئت سنة ١٩٢٠، وهي توفر النور لكل بيت في المدينة تقريباً، وتوفر القوة لعدد من المصانع خارجها.

أما المدينة ذاتها فقد أسست ٨٠٨ ميلادية، على يد مولاي ادريس الثاني وهو من الاشراف (أي من سلالة النبي)، وجد جميع الادارسة الاشراف الذين يقطنون المدينة اليوم. وكان يقيم على أرض المدينة قبل ذلك عدد صغير من النصارى واليهود «وعبدة النار»، الذين كانوا في الغالب يستعملونها سوقاً تجارية للقبائل المحيطة بها. ثم استقر عدد من لاجئي قرطبة على الضفة الجنوبية وانشأوا عدوة الاندلسيين. واستقر على الضفة الشمالية عدد من تجار القيروان في تونس، وانشأوا عدوة القرويين، التي اشتملت على قسم يهودي يسمى فندق اليهودي. وكان كل واحد من هذين الحيين مدينة قائمة بذاتها في بادىء الامر، ولكن يوسف بن تاشفين — مؤسس مراكش — هدم الاسوار التي تفصل الحيين سنة ١٠٧٠م وانشأ الى الغرب، عكس مسار التيار، حياً ثالثاً هو عدوة اللمتيين. ثمّ اتجه نمو مدينة فاس عكس مسار النهر، كما هو الحال في مدن ايران الحديثة. وفي سنة ١٢٧٤ انشأ السلطان ابو يوسف يعقوب قسماً جديداً كاملاً يدعى فاس الجديدة، مبعداً في الاتجاه عكس مسار التيار. وقد اشتمل هذا القسم على القصر الملكي وحدائقه، وعلى حي من المسلمين الذين لا ينحدرون من أصل محلي، وعلى ملاّح او حي لليهود ليسكنه اليهود الذين ارتضوا مغادرة فندق اليهودي، وعلى قصبة او قلعة للسيطرة على المدينة. ومع ان عمر فاس الجديدة ثمانمائة سنة تقريباً فانها ما زالت المدينة الجديدة وما زال يسكنها موظفو الحكومة، واليهود، ومحدثو النعمة والغرباء. وقد رفض بعض اليهود ترك بيوتهم

في فندق اليهودي ، وفضلوا الدخول في الاسـلام ، ومن نسلهم بعض العائلات الاسلامية الثرية المشهورة في فاس .

وقد امتدت الفترة الذهبية لفـاس من القرن الحدي عشر حتى ما بعد القرن الخامس عشر ، ولكنها بلغت أوجها في القرن الرابع عشر . فكانت العاصمة السياسية للمغرب ، والمركز الصناعي ، ومركز التجارة الخارجية والتعليم . واشتهرت جامعاتها بشكل خاص ، ووفد اليها الطلاب حتى من اوربا لدراسة الفلك ، والرياضيات ، والجغرافيا ، والكيمياء ، والطب . واهتم المتدينون بدراسة التـاريخ والفقه والكلام . وفي عام ١٦١٣م كان في مكتبات جامعتها اكثر من اثنين وثلاثين الف مجلد يصعب ان تجدها اليوم .

وفي الوقت الذي بدأ فيه استيطـان اميركا وتأليف شركات الهند العظيمة عند الامم النصرانية الشمالية ، بدأت فاس ترتد الى وضع من التأخر الوقور لاسباب سنبحثها فيما بعد . وبما انها منقطعة عن باقي العالم الاسلامي ، بسبب البعد والصحراء ، فقد بقيت تعيش في فراغ نسبي ما زال مستمراً حتى اليوم .

ما الذي جعل فاس مدينة عظيمة ؟ ان احد اسباب ذلك يرجع الى الرجال العظام ، فان مولاي ادريس واتباعه لم يكونوا بدواً أغلاظاً ، بل كانوا من ابنـاء مدن الحجاز واليمن ، الراسخين في العقيدة ، وفي الاخلاق والمبادىء ، وفي العلم . وعندما تزاوجوا مع قبـــائل البربر المحيطين بهم ، والشماليين منهم بشكل أخص ، دخل الى حيـاة المدينة عنصر صلب ، بينما أدى استغراق قسم من المستوطنين اليهود الاوائل الى اضافة عنـــاصر متمرسة في حياة التجمع ، والصناعة ، والتجارة ، والقانون . وأدخل الاندلسيون انواعاً من المهارة الرفيعة ، وجاء القرويون بتجاربهم في التجارة . ومن امتزاج هذه العناصر نشأ الفاسيون وهم نوع

خاص من الرجال لهم تنشئتهم الخاصة . وقد يفد الى مدينتهم فاس في النهار مسلمون من منـــاطق أخرى ليعملوا في مدابغها وفي مشاريعها الصناعية الاخرى فيفدها اليهود لفتح مخازنهم . اما في الليل فان هؤلاء الغرباء الذين لا ينفكون يفدون اليها ، يغادرونهـــا عائدين ، وتغلق وراءهم ابوابها .

وسبب آخر هو الموارد الطبيعية . فالى وفرة المياه النظيفة السريعة الجريان وجود حجر كلسي ممتاز عند اطراف المدينة ، وهو يقتطع من الازمنة القديمة للبنـــاء . وعلى مسيرة ساعات قليلة يوجد الجبس الصالح لقشرة البناء ، وفي مكان أقرب منه طين صالح للخزف . وحول المدينة آلاف من اشجار الزيتون التي تنتج كميات من الزيت للتصدير والطعام وللانارة وصنع الصابون . وينقل القرط للدباغة على ظهور الحمير من غابات السنديان الواقعة في التلال الريفية في جبال الاطلس الوسطى بينما يوفر شجر السدر الاخشاب للنجارين وصانعي الخزائن . وتنقل من الغـابات أحمال الفحم .

وباب فاس الرئيسي هو باب بو جلود الواقع غربي المدينة وفي أعلى نقطة منها ، فاذا دخلت من هذا الباب فانك تسير نزولاً بجانب مجرى وادي فاس المغطى معظمه . اما الشارع نفسه فمظلل بسقف من الشعريات . والى الشمال يقع باب جيزة وهو باب طنجة وباب الريفيين ، وتشاهد بعض هؤلاء بعمائمهم الصفراء وجلابياتهم الحنطية وقد جلسوا يستريحون في ظله . وفي الجنوب باب فتوح وهو باب تفيلالت ، وفي الشرق باب الخوخ المؤدي الى حي من المساكن المترفة التي تتوسطها الحدائق . وهنا يقضي سراة المجتمع الفاسي صيفهم .

ويقع قلب المدينة عند ملتقى الشارع المنحدر من باب بو جـــلود والشارعين المتفرعين من باب جـــيزة وباب فتوح . وفي القلب تقوم

القيسارية ، وهو الحي التجاري وفيه الفنادق الرئيسية التي تجري بها المزاودات ، وفيه الجامعات الرئيسية ، وجامع القرويين . وفي وسط الجميع اعظم الابنية القائمة وهو زاوية مولاي ادريس . وليس هذا القسم قلب فاس فحسب ، بل هو ايضاً قلب حي القرويين . ولعدوة الاندلسيين مركزها الخاص . وفيها جامع كبير وسوق ، وذلك لان هذا الجانب كان في وقت من الاوقات مدينة منفصلة ، ولكن الجامع والسوق تضاءل شأنها . ويقدر سكان عدوة القرويين باثنين وخمسين الفاً مقابل ستة وعشرين الفاً وخمسمائة من السكان في عدوة الاندلسيين . وفيه اثنا عشر حياً مقابل ستة في الاندلسيين ، وسبعة عشر حماماً مقابل ستة ، واثنين وتسعين كتاباً ابتدائياً لتعليم القرآن ، مقابل أربعة وعشرين[٦] .

وتقسم منطقة البيع الى اسواق ، ولكل سلعة سوق . فاما بضائع الترف ، كالحرير والاقمشة القطنية الملونة وأخفاف الارجل ، فتوجد معاً في القيسارية ، ومداخل القيسارية مغلقة دون الحيوانات ، بأعمدة جيدة الصقل ، لا بد للمار من ان يجتازها . أما اسواق البضائع العادية فمنتشرة حول هذه المراكز . ولبعضها فنادقها الخاصة ، وهذه الفنادق بنايات كبيرة مؤلفة من طوابق عدة مقامة حول فناء يفضي اليه باب كبير . وكل فندق منها مركز احدى الصنائع ، ونقابة تلك الصناعة ، كفندق النجارين مثلاً[٧] . وقد توجد في بعض الفنادق مئة غرفة يتم فيها تداول الاعمال ، ويشرب الناس فيها الشاي . وهي عبارة عن بورصات للسلع . وتبسط البضائع في الفناء وتقام الموازين ، ويجلس الكتبة عند الابواب لتسجيل المعاملات .

وتقع المدابغ ومطاحن القمح على جانب النهر لحاجتها الى الماء . اما

---

(٦) Ibid p. 136.

(٧) والفنادق الاخرى تستعمل لنزول الناس وبها اصطبلات للدواب .

مؤسسات الصناعة متفرقة وتوجد حيثما تنخفض الايجارات . وكثيراً ما يشترك النساجون والسكافون في مكان واحد ، لان ليس لصناعتهم اي ضجيج . وأما المساكن فانها بعيدة عن مركز المدينة ، وبين المساكن تقع الافران ودكاكين البقالة لتوفر الخبز والبضائع الصغيرة التي يجدها المرء في القرية .

وقد عدد بروسبر ريكارد (Prosper Ricard) في كتابه المنشور عام ١٩٣٤(٨) مئة وخمسة انواع من المهارات اليدوية المرتبطة بالصناعة وحدها ، ولكل منها جماعة من المختصين . ويضيف الى هؤلاء واحداً وعشرين نوعاً من المختصين في الخدمات الخاصة ، فيكون المجموع مئة وستة وعشرين . ويمكننا ان نميز عشرين نوعاً من انواع الصناعة والتجارة على الاقل وعشرة اصناف من الموظفين السياسيين ، وخمسة اصناف من رجال الدين ، وثلاثة من رجال التعليم عدا معلمي الدين . وبهذا يكون المجموع العام مئة وأربعة وستين ، وهو في الغالب أقل من الحقيقة . وهذا لعمري تقسيم عظيم للعمل .

وقد عددت انا والدكتور الامين عشرين اختصاصاً في حاضرة عفك مقابل المئة والستين صنفاً من أصحاب الاعمال في فاس ، هذا عدا المختصين بالسيارات وأشباههم الذين لم يدخلوا في قائمة اصحاب الاختصاص في فاس ايضاً . وفي فاس تجارة او حرفة واحدة مقابل كل ستمائة وسبعين شخصاً من السكان . فاذا اسقطنا الموظفين ، ورجال الدين ، وربات البيوت ، والاطفال ، والعبيد ، والخدم ، والشيوخ ، وجدنا ان واحداً من كل اربعة من الناس يشتغل في حرفة ما وان الفرد العامل في احدى الحرف يخدم بالمتوسط مئة وستين شخصاً . وهذا يستدعي وجود التنظيم . وهذا الرقم نفسه ربما كان ازيد من مجموع اصحاب

---

(٨) «Les Metiers manuals à Fès,» Hesperis, IV (1924), 205-224.

الاختصاص والحرف جميعاً في عقلك ، وهو وحـــده يوضح الفرق بين الحاضرة والمدينة .

ولا يتسع المقام لسرد قائمة ريكارد . الا ان القارىء قد يرغب في دراسة بعض الاقسام بالتفصيل ليأخذ فكرة عن مدى التعقيد السائد . فتحت مادة « حبوب » نجد ريكارد يعدد : ١) المزاوعين الذين ينطلقون خـارج المدينة للعمل في اراض تخص المواطنين الاغنياء ، ٢) وسائقي البغـال الذين يحملون القمح ويخزن معظمه في مطامير تقع داخل باب جيزة ، ٣) المطاحن التي تدار بالتربينـــات ويبلغ عددهـــا مائتين ، ٤) والطحانين الذين يطحنون للناس القمح مقابل حصة مئوية ، وعددهم غـير مذكور ، ٥) والنسـاء اللواتي يعملن في تحضير الكسكسى ، وذلك بترطيب السميد في سلال وفتله براحة اليد ، ٦) والعجانين الذين يعجنون مئة ألف رغيف يومياً ، ٧) والخبازين ، ٨) وصانعي السفنج - وهو نوع من الفطائر التي تقلى بالدهن الخالص ، ٩) وصانعي الحلوى المختصين بصنع « قرن الغزال » ، ١٠) والنساء اللواتي يصنعن البقلاوة .

وعندما يرغب احد الناس في بناء بيت ، بعد أن يفرغ من المعاملات المعقدة لاثبات ملكية الارض ، وحقوق الهواء فوق قسم من الطريق ، وحق استعمال الحائط الملاصق وما شاكل ذلك ، فانه يستدعي معلم بناء ومعلم نجـارة ومعلم تبليط . ويدرس هؤلاء المشروع معاً ويأخذون المقاييس ويتفقون على تقسيم العمل . ويشتري المالك المواد اللازمة وينقد الاموال المعلمين الثلاثة ومستخدميهم . وبين الذين يستأجرهم معلم البناء خمسة اصناف من الحجـــارين ، وخمسة من العمال المختصين بالكلس[٩] ، وأربعة من المزوّقين . ويتعامل معلم التبليط مع اربعة انواع من المختصين

---

(٩) هنا تكرار للحجارين الذين يقطعون الحجارة للبناء وأولئك الذين يقتطعونها لتحرق ويصنع منها الكلس .

ويتعـامل النجار مع ستة . ومجموع هؤلاء ثلاثة وعشرون فيهم واحد يتكرر مرتين[١٠] .

فلا يستغرب المرء اذن وجود مستوى عال من الاتقان الفني ازاء مثل هذا التقسيم الدقيق للعمل ، وازاء قيام كل مختص بتعلم حرفته منذ الطفولة . واني لاذكر مشاهدتي «لزوّاق» شيخ من فاس ، حرفته صنع الزخارف المطبوعة في الملاط ، وكان يعمل مع مساعديه في حـــائط بالقصر الذي بنـاه في طنجة ماكسويل بلايك (Maxwell Blake) فكان الصانع الشيخ يرسم بالقلم رسوماً مثمنة ونبـاتية على ملاط ناعم سمكه بوصتان ، ويقوم مـساعدوه بعد ذلك بحفرها بالازميل ، ثم يعود عليهـ الشيخ لاعطائها المظهر الختامي . فتصبح بالنتيجة زخرفاً بالغ الروعة ، وعملاً من اعمال الفن .

وصناعات فاس كلها صناعة يدوية ، فيما عدا صناعة الطحن . وكلها ، بما فيها الطحن يمكن ادارتها بواسطة مجموعة من الاشخاص تتكون من معلم واحـد ومساعدين او ثلاثة ، وعدد مساو من المتدربين ، وهذا أقصى مـا تحتاج اليه . وعلى ذلك فان كل حرفة تتكون من عدد من مثل هذه المجموعات المتوازية التي تنتظم في نقابة . ولعل الدراسة التي أجريت حول صناعة الدباغة هي اصلحها مثلاً[١١] ، لان الدباغة اكبر صناعة مفردة في فاس ، ومنتوجها اشهر منتجات المدينة واكثرها تبادلاً في التجارة . ويعود تاريخ نقابة الدباغين الى تاريخ تأسيس المدينة ، فقد اجتمع معلمو الدباغة في هذه المدينة الوافرة الماء ، والجلود ، والاصباغ ، وجاءوا اليها من قرطبة وقيروان وايران . وكانت جلود فاس تصدر في

---

(١٠) انظر الملاحظة (٩) المتقدمة .

(١١) R. Le Tourneau, L. Paye, and R. Guyot, «La Corporation des Tanneurs et L'industrie de la tannerie à Fès,» Hesperis, XXI (1935), 167-240, fasc. i-ii.

يوم من الايام الى امكنة بعيدة مثل بغداد ، وظلت أحذيتها تصدر الى مصر حتى القرن الحالي . وتحمل كثير من سيدات اميركا اليوم حقائب يدوية من صنع فاسي ، وقد لا يعرفن ذلك . وذلك هو الجلد المراكشي المشهور ، وهو اسم تجاري في صناعة تجليد الكتب . وكان الدباغون يدبغون اربعمائة وثمانين الفاً من الجلود سنوياً في أوج ازدهار الصناعة .

وفي وسعنا تقسيم موضوع الدباغة الى أربع نواح رئيسية : الاجهزة المستعملة ، والاشخاص العاملون ، والاعمال التي يقوم بها هؤلاء الاشخاص بالاجهزة وفيما بينهم ، والمؤسسات التي تخلقها هذه الاعمال والتفاعلات . اما الاجهزة فتشتمل على المباني وبعض التجهيزات الخاصة المقامة عليها ، وعلى الاجهزة المتنقلة التي تستهلك ، وعلى المواد المستهلكة . وفي فاس اربع مدابغ يعمل فيها مئة وواحد وستون معلماً مع مساعديهم والمتدربين عندهم ، وهناك مؤسسة خاصة بها ستة وستون معلماً لازالة الصوف عن جلود الاغنام . ويمكن بيع هذا الصوف الى مصنع النسيج . اما الحيوانات الاخرى فلا تكون مشكلة من هذه الناحية ، لان جلودها تذهب رأساً الى المدابغ الاربع . وتقوم اكثر من اثنتي عشرة مؤسسة بتقديم المواد للدباغين ، وتشتمل هذه المؤسسات على اربعة فنادق تشتري فيها جلود الماعز والابقار الخام ، وجلود أغنام قد ازيل صوفها ، وعلى ثلاثة أسواق لشراء حجر الشب ، ومواد الصباغة ، وقشور الرمان ، والملح ، وأربع مؤسسات صباغية لقشر البقم والعفص ، وعدد من مطاحن القمح التي تقدم النخالة .

ويصلي الدباغون في اربعة جوامع ، ثلاثة منها خاصة بهم ، مثل مسجد سيدي يعقوب الدباغي ، اما الرابع فهو زاوية مولاي ادريس الواقعة في قلب المدينة ، والتي يصلي فيها جميع الناس من مختلف الحرف . وهناك خمس زوايا لخمس من الطرق الصوفية ، يؤدون فيها اورادهم

واحزابهم ، فاذا انتهوا من المدابغ وأوعيتهـــا فامامهم نوادي الرماية الثلاثة يذهبون اليها ، او الحمامات ، والمقاهي ومنازلهم الخاصة .

ويشاهد المرء في المدابغ ذاتهـــا مخازن مسقوفة ، وحفراً للجير ، ومصاطب ، ومغاطس مستديرة ، وخنادق للدباغة ، واجراناً مثبتة لسحق قشر الرمان ، وقضباناً أفقية تعلق عليهـا الجلود ، وسقوفاً للتجفيف ، وحوائط وأقنية مكشوفة ، وفي الزوايا امكنة خاصة للصلاة والعبادة . وفي كل من فنادق الدباغين مصاطب ، وفناء مرصوف ، ومقهى لشرب الشاي ، وتشاهد المصاطب في الاسواق ، وحجارة الرحى في المطاحن . وتلك كلها اجهزة ثابتة في البناء أعدت لاغراض خاصة .

والقضبان المائلة التي يجفف عليها الدباغون جلودهم تعتبر من الادوات المنقولة غير المستهلكة . ومثلها مطارق الاجران الثابتة ، والمواسي النصف الهلالية ، والمواسي المنحنية المستعملة للوسم ولتقطيع الهلالي ، والتي يضغطها الدباغون بصدورهم ، وقطع الاخشاب ، وأدوات الطحن الحديدية والحبال . وفي المطاحن سلال ومطارق .

اما المواد المستهلكة فتقسم الى مواد رئيسية وأخرى ثانوية . فالموارد الرئيسية هي جلود الماعز ، والاغنام ، والابقـــار ، والجمال التي تنتظر الدبغ ، والمواد الثانوية هي المواد المستعملة في عملية الدباغة وهي الماء ، والملح ، والجير ، وزرق الحمـام ، وقشر البقم ، والطرفاء ، والعفص ، والشبة ، وقشر الرمان ، وحامض الطرطير ، ومواد الصباغ . وفي بعض أنواع الدباغة المرهفة يستعمل عصير التين .

والعمال الرئيسيون هم الصناع المتفرغون الذين يمكن تصنيفهم حسب اختصاصات أربعة ، المختصون بالدباغة نفسها ، والمختصون باعداد جلود الاغنام ، وطحن قشر البقم ، وقطع عفص الطرفاء . وللدباغين والمختصين بجلود الاغنام مساعدوهم والمتدربون عندهم . والاشخاص الآخرون الذين

لهم بحرفة الدباغة نوع من انواع الارتبـــاط هم بائعو الجلود ، وبائعو المواد ، ومماسرة العفص ، والدلالون ، ومشترو الجـــلود ، ومشترو الصوف ، وتجار الســوق ، والطلبة الذين يجمعون زرق الحمام ، ويهتم احد الأوقاف (الحبوس) بامور الحمـــام ليبقى زرقه مورداً للطلبة . وهذه القائمة تشمل مالكي المدابغ والفنادق ، وهم من رجال الاعمال ، وجماعة من الدراويش ، وموظفي الشركات الاخرى ، ووكلاء المالكين . وتشمل ايضاً عشرين ضابطاً سياسياً وثلاثة عشر كاتباً او كاتب عدل يسجلون المعاملات ، وأميناً او رئيساً لكل واحد من نقـابات الدباغين الثلاث والمختصين بجلود الاغنام ، ومحتسباً او مراقباً للسوق ، وصاحب المحتسب ، او مساعد المراقب ، وباشـا المدينة . وقد يضيف المرء بعض الموظفين الدينيين ، كموظفي كل جامع من الجوامع التي يصلي فيهـا الدباغون ، وكذلك اماكن الصلاة الخاصة في مواقع العمل ، وشيوخ الطرق الصوفية وهكذا . ولكل شخص بالمدينة علاقة مـا بصناعة الدباغة ، ولكثيرين خارجها مثل هذه العلاقة ، مع ان الدباغة تعتبر في نظر معظم النـاس مسألة لبس احذية لا اكثر .

لقد انتهينا من وصف المكان والعمال والمواد والناس ويبقى ان نتساءل عن الاعمال ، فمن الذي يقوم بهذه الاعمـال وعاذا ، ولحساب من تعمل ؟ يمكننا تصنيف الاعمـــال الى اصناف اربعة : الحصول على المواد ، والتصنيع ، والتخلص من الاجهزة والمواد ، والمحـــافظة على التوازن بين العاملين . فان افراد الدباغين يحصلون على امكنة عملهم بالاستئجار ويدفعون ايجاراً الى مالكيها لقاء استعمالها . وهؤلاء المالكون متعددون ومتنوعون . فهناك مؤسسة تمتلكها اوقاف (حبوس) ثلاثة . وثمة مؤسسة أخرى يمتلكها عدد من الافراد ، وقد يطالب بعضهم بحصته من الايجـار بالاستقلال عن الآخرين ، وقد يعين آخرون وكلاء لهم لجمع الايجار نيـابة عنهم مجتمعين . وفي عام ١٩٢٤ كان الايجار يكلف معلم الدباغة مبلغاً يتراوح بين سبعة فرنكات وسبعة ونصفاً في الشهر ،

وكان عدد الدباغين في المدبغة الواحدة يتراوح بين ستة وثمانين وسبعة وثمانين .

والتجهيزات الثابتة مثل المستودعات ، والمغاطس ، والاجران الثابتة ، والقضبان قد يكون لها مالكون مختلفون عن مالكي العقار . وتسمى هذه الملكية ملكية الزينة ويدفع الدباغ ايجاراً الى مالك الزينة لقاء استعمال اجهزته ، ويدفع مالك الزينة بدوره ايجاراً الى مالك العقار لقاء سماحه له بوضع هذه التجهيزات في العقار وايجارها الى الدباغين . الا ان معلمي الدباغة يملكون تجهيزاتهم المنقولة التي يشترونها مباشرة من صانعيها النجارين والحدادين . ويشتري المعلمون ايضاً موادهم الاولية من الصنفين اللذين ذكرناهما بأموالهم الخاصة . وينقل الحمارون الجير الى المدابغ ، ويحمل الطلبة زرق الحمام . ولكن على الدباغ ان يذهب الى مكان الدلالة والى الاسواق والمطاحن ليحصل على المواد الاخرى . ويقتطع هذا جزءاً من وقته وهذا يمنع الاجهاد الزائد له ولمساعديه الشبان الذين يلهون في غيابه بالقفز في الحفر الباردة المزلجة .

ويحصل المعلم على خدمات المتدربين عنده على الشكل التالي : يأخذ مبتدئاً الى مدة غير محددة ، تعتمد على مدى سرعته في التعلم ، وتستمر الفترة عادة بين سنتين وخمس سنوات . ولا بد ان يقدم المعلم الى المتدرب بعض الهدايا القليلة عوضاً عن الاجر ، ثم يدفع له ثلاثة فرنكات او اربعة في الاسبوع ، ثم فرنكين او ثلاثة في اليوم . وعندما يقرر المعلم ان الصبي قد تعلم الحرفة يقرضه مالاً يكفي لشراء ستة جلود ويسمح له بأن يدبغها مع الآخرين ويحتفظ لنفسه بالربح . لقد اصبح الفتى الآن مساعداً .

ويعمل ثلاثة مساعدين او اربعة مع كل معلم . وقد تستأجر خدماتهم على اساس يومي ، او قد يتم اتفاق شفهي على ان يبقوا ما دام سلوكهم حسناً وما وجد لهم عمل . والماء بارد والجهد المطلوب

كبير ، ولذا فان المساعد العاقل يرتاح يومين او ثلاثة ايام في الاسبوع للمحافظة على قوته ، ويكسب مبلغاً يتراوح بين خمسة وعشرين فرنكاً وخمسة واربعين ، على اساس سعر الفرنك عـــام ١٩٣٥[١٢] . وأجره قليل ، وهو عادة أمي وعمله مجهد . وهذا يفسر لنا لماذا يحترف اكثر من نصف ابنائه حرفاً أخرى .

اما المعلم فيكسب اكثر من ذلك بكثير ، ولكن لا يصبح معلماً سوى دباغ واحد من بين كل اربعة دباغين او خمسة . وعلى المعلم ان يكون ماهراً في الشراء وماهراً في البيع وفي الادخـار . وتجد معلماً بين كل عشرة معلمين ، مضطراً الى الاستقراض من شريك « مُدَاين » ليستطيع المضي في عمله . وقد يكون الشريك دباغاً أغنى من المعلم ، او تاجراً من تجـار المدينة ، او يهودياً . ويدفع المعلم لشريكه حصته من الربح بدلاً من ان يدفع له الفائدة . فاذا اصبح قادراً على سداد الدين فـانه يسارع الى سداده . وفي سنة ١٩٣٥ كان المعلم الحالي من الديون يكسب الفي فرنك في السنة او ما يعادل ثمانين دولاراً ، وهذا مبلغ لا يزيد عمـا يكسبه بعض المساعدين ، ولكنه يزيد عن معدل كسب هؤلاء . ولا بد ان كسبه كان اعظم في الايام السالفة عندما كانت جلود فاس تباع في القاهرة باعتبارها اصلح للأحذية الجيدة .

ولا بـــد للمعلم ان يدفع الاجور الى الذين يجفون الصوف ، والصباغين ، ومهيء الجلود ، والى المساعدين والمتدربين . يضاف الى ذلك ان جانباً من دخله يذهب الى مالكي الفنادق الذين يجمعون العمولات عن كل جلد يبـاع الى المزاودين ، والى كتبة الحكومة الذين يجلسون على ابواب الفنـادق ويجمعون ضريبة الدخول مع ضريبة البيـع ، على

(١٢) أي ما يتراوح بين دولار واحد ودولار وثمانين سنتاً . الا ان القوة الشرائية لهذا المبلغ في مراكش تفوق ما هي عليه بالولايات المتحدة ، اذ تبلغ ما يعادل ١٥ الى ٢٥ دولاراً في الاسبوع على اساس مستوى سنة ١٩٥٠ .

الجلود الخام والمدبوغة دون تفريق . وقد فرضت ضريبة اضافية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، هي ضريبة المكس او ضريبة السوق . ولم يكن لهذه الضريبة اساس في الشريعة وكان الدباغون يكرهونها بشكل خاص ، وفي سنة ١٨٣٧ الغاها السلطان الجديد ، مولاي الحسن ولكن جابيه استمر في جبايتها على أمل ان تنتهي الجباية في نهاية فترته المالية . وحينذاك ثار الدباغون واستولوا على القصبة[١٣] . ومع ان ثورتهم أخمدت ، الا ان مجرد كونهم جرءوا على تحدي الحكومة يدل على مدى قيمتهم المحلية وأهميتهم .

ويحتاج تصنيع الجلود (اذا ما حذفنا عمليات المختصين بجلود الاغنام) الى عشرين عملية متتالية . وتحتاج هذه العمليات المتتالية شهرين بالنسبة الى الجلود الكبيرة ، وستة اسابيع بالنسبة الى الجلود الصغيرة ، في فصل الصيف . اما في الشتاء فتبلغ أقصر مدة تحتاجها العمليات لأي حجم من احجام الجلود ثلاثة اشهر . ويقوم المعلم ومساعدوه والمتدربون عنده بثلاث عشرة عملية من هذه العمليات . وبينها سبع عمليات تحتاج الى مختصين فرعيين ، وهي التالية : ازالة الشعر من الجلد بجفه فوق قضيب موارب في وقت ما من العمليات المتتابعة ، وهذا يحتاج رجالاً مختصين أقوياء العضلات ، وكذلك صباغة جلود الابقار وجلود الجمال وجلود الماعز — اذ ان الدباغين العاديين يصبغون جلود الاغنام وحدها ، ثم انجاز الجلود ، او اتمام العمليات الخمس الختامية . وهذه العمليات من اختصاص المنجزين ، وهي تتكون من الشد ، والحف ، والصقل ، والحك بالخشب ، والحك بالحديد . اما الاعمال الرئيسية من اطفاء ، وتمليح ، ودبغ ، وقطع وتطرية ، فيقوم بها الدباغون العاديون . ويقوم مختصون فرعيون بأشق عملية من عمليات الدباغة (وهي حف الشعر) وبأدق عملية منها (وهي صباغة الجلود الثقيلة وانجازها) . ومعظم هذه العمليات تحتاج

---

(١٣) Le Tourneau, La Ville de Fès avant le Protectorat, p. 89.

الى رجل واحد فقط ، وبعضها يحتاج الى رجلين يمسكان بالجلد وثالث يصنعه ، وامساك الجلد من اعمال المتدربين . ويدوس الجلود في المغاطس اشخاص عديدون معاً ، بشكل جماعي ايقاعي . اما مزيلو الشعر ، والصباغون والمنجزون فيعملون مستقلين .

أما احد الفنادق الاربعة التي تبيع الجلود الخام الى الدباغين فتسلم فيه الجلود الجاهزة لبيعها . وهذا هو فندق السبتريين . ويجري بيع جلود الماعز الخام فيه بين الساعة التاسعة والحادية عشرة صباحاً ، ويبيع الدلالون جلود الاغنام الجاهزة بين الساعة الثانية والثالثة بعد الظهر ، ويبيعون جلود الابقـــار بين الثالثة والرابعة وجلود الماعز بين الرابعة والسادسة . وهذا سوق البورصة العادي . ويجتمع البائعون والمشترون في المقهى الواقع في الطابق الثاني لشرب الشاي والقهوة اثناء المساومة على الصفقات . وفي الوقت ذاته يتجول الدلالون بينهم ويعرضون الجلود وينادون على آخر الاسعار المعروضة . وفي بعض الاحيان يغادرون الفندق ويتجولون في السوق على أمل ان يجدوا بائعاً عارضاً او ماراً يرفع السعر . فاذا وصل السعر الى مستوى معقول ، عاد الدلال وسأل الدباغ عما اذا كان هذا السعر الاخير مقبولاً عنده او اذا كان يريد منه الاستمرار في الدلالة . ويبيع المعلمون الشعر المحفوف عن الجلود الى اثنين من السماسرة ، وهذان يبيعان جانباً منه « بالقطاعى » الى نساء البربر ، اللواتي يصنعن منه الحبال ، ويصدران الباقي الى اوربا . ويبيع دباغو الاغنام في سوق خاص صوفها القصير الذي يحصلون عليه أثناء عملية اعداد الجلود .

ومن الواضح ان هنالك مجـــالاً واسعاً للمشاكل ازاء وجود سبعة وثمانين مجموعة من مجموعات الدباغين العاملين في نفس العقارات وبذات الاجهزة الثـــابتة ، والذين يشترون موادهم من فنادق اربعة وأسواق عدة ، ويبيعون منتجاتهم بوساطة عدد من الدلالين . ويدفعون عدة

انواع من الضرائب . وبما ان المؤسسة الاقتصادية الرئيسية المكونة من معلم ومساعديه والمتدربين عنده مؤسسة صغيرة ، فان مشاكل العمال بالمعنى الغربي قليلة ، ولكن معظم المشاكل تقع بين أفراد متساوين وقليلين . وبالتالي فان وسائل المحافظة على النظام والطمأنينة في صناعة الدباغة والاختصاصات المتفرعة عنها تتخذ اشكالاً خاصة .

ففي داخل الصناعة اذا تصادم رجلان مشتركان في مدبغة واحدة او تخاصما ، فانهما يرجعان الى الامين ، اذا لم يكن هذا الاخير قد سمع بالخصام قبل ذلك وتدخل في أمره فعلاً . فاذا كانت القضية بالغة الخطورة ، او كانت قضية خلاف بين المدابغ المختلفة ، او بين الدباغين وأصحاب الفنادق ، او بين الدباغين والتجار ، عاد الفرقاء الى محكمة صاحب المحتسب . وتستأنف احكامه الى المحتسب نفسه وبعده الى باشا المدينة .

هذه هي الوسائل القانونية لحل المشاكل . غير ان عدة اعمال اجرائية تساعد على تخفيف التوتر العصبي ، وتوحد الدباغين روحياً وتقلل وقوع المشكلات . احدها ذهاب الدباغين جميعاً الى مسجد المدبغة للصلاة . وثانيها الاحتفال بارتقاء صبي من متدرب الى مساعد ، وهو احتفال عظيم يشترك فيه جميع رفاق الصبي . وثالثها عيادة المرضى من الزملاء الدباغين والتبرع بالمال لمساعدتهم . وقد يتبع ذلك في كثير من الاحيان الاشتراك في جنازاتهم . ورابعها قيام الدباغين مجتمعين بزيارة ضريح مولاي ادريس مرة كل سنة ، حيث يقدمون أضحية خاصة تقوي رابطتهم كحرفة قوية محترمة .

ومن طرق الابتعاد عن المشاكل ان يقضي كل واحد قسماً من وقت فراغه برفقة اشخاص آخرين من طبقته ومستواه ولكن من غير الدباغين . فان تغيير المناظر والزملاء يخفف حدة التوتر . فاذا كان الدباغ من الرماة امكنه الاشتراك في احد منتديات الرماية والذهاب

الى الجبال القريبة في رحلة صيد سنوية . فاذا عاد دبغ صيده اذا ما كان موفقاً في الصيد . واذا كان ذا مزاج فلسفي دخل في احدى الطرق واشترك في رياضتها واتحد باللامحدود في حالة من النشوة العظمى . وهذا يستنزف فائض نشاطه العصبي ويبعده عن الخصومات والمشاكل .

هذه الاعمال المتنوعة تخلق المؤسسات التالية وتغذيها : مئتين وسبعا وعشرين مؤسسة اقتصادية صغيرة تتكون الواحدة منها ١) من دباغ او صانع جلد الاغنام ، ومساعديه وأجرائه ، ٢) وثلاث نقابات[١٤] الدباغين ، لكل مدبغة نقابة ، فيما عدا اصغر المدابغ التي ينضم اعضاؤها الى نقابة المدبغة الكبرى ، ٣) ونقابة لصانعي جلود الاغنام الذين يعملون في عقار واحد ، ٤) ونقابة الدلالين ، ٥) وثلاث منتديات للرماية منظمة على أساس الاحياء ، ينتمي اليها الجزارون والصباغون والسكافون ، وغيرهم ، ٦) وخمس طرق صوفية ، ٧) وخمسة جوامع مفتوحة للجميع ، وأماكن خاصة للصلاة داخل كل مدبغة . ان تنظيمات هذه المؤسسات كلها بسيطة للغاية . كل واحدة منها صغيرة بحيث يعرف افرادها بعضهم بعضاً ، وهناك وسطاء بين الرئيس وأتباعه . وهكذا يبدو لنا ان تنظيم المدينة يتكون من عدد كبير من المؤسسات البسيطة المتشابكة .

وما ينطبق على الدباغين ينطبق على غيرهم من الصناع ايضاً . فلكل صناعة أمين او عدد من الامناء ، ولها مساجدها ، وانتسابها الى الطرق . ولكنها لا تتساوى جميعاً في الثروة والمكانة الاجتماعية . وتنظم المراتب الاجتماعية بشكل غير رسمي ، فتشبه بذلك المجتمع الاميركي اكثر مما تشبه المجتمع الاوربي الذي تحدد فيه المراتب بشكل رسمي . وتوجد هذه المراتب لدى القسم الاعظم من السكان ، اي بين المسلمين الذين يكسبون معيشتهم من التجارة والصناعة . واننا لنتبين اربع مراتب .

---

(١٤) المؤلفون الفرنسيون يدعونها الشركات أما جب وبوون فيدعوانها ايضاً شركات الصناعة ويستعملان ايضاً كلمة «نقابة» Gibb and Bowen (Islamic Society and the West, I, Pt. I, 281)

ففي أعلى القمة طبقة التجار المكونة من كبار التجار العـاملين في التصدير والاستيراد . ويشتغل هؤلاء في تجـــارة الحبوب والاصواف وغيرها من المواد الاولية والمصدرة ، وفي الملابس ، والشاي ، والسكر ، وماكينات الخياطة ، وغيرهـــا من المواد الصلبة . وينتمي هؤلاء الى عشرين عائلة او ثلاثين من العـائلات القديمة مثل عائلات الفـــاسي ، والقـــانوني ، والتازى ، والبارادى ، والقسوس ، والعمراني ، والسبسي وغيرها . ويتزاوج هؤلاء فيما بينهم ، ويعتبرون التجارة الخارجية أشرف الصناعات . وقد جمع اجدادهم في الازمنة السالفة ثروات عظيمة ، جمدت في عقارات ثابتة ، ولذا فان بعضهم يعيشون على ريع املاكهم . وكثير من هذه الاموال وظفت في عقـارات صغيرة يسكنها الفقراء ، ويقوم وكلاؤهم بجمع ايجاراتهـــا . ومن ابنـاء هؤلاء تتكون طبقة موظفي الحكومة والعلماء .

ومكتب التاجر غرفة صغيرة في احد فنادق المدينة . وهو لا يضع يافطة قبيحة على بابهـا ، بل يعرف كل انسان مكانها . ويتكون اثاث مكتبه من طـاولة صغيرة وصندوق قوى وتلفون . وقد يرن جرس التلفون بين حين وآخر وتجري محادثة قصيرة في مقـاطع مختصرة . ويدخل بعض الافراد المتواضعين فيسلمون التـاجر الاوراق ويأخذون الاجوبة او ينتظرون التوقيع ويخرجون في هدوء . ويأتيه خدم المقهى القريب بأقداح الشاي المعطر بالنعناع ، فيمسك بهـــا بحذر من عقبها وحافتها معاً . وقد يقف على قدميه ، ويزيل الغبار عن جلابيته بالفرشاة ، ويأخذ مصلاه القرمزي ، فهو اذن ذاهب الى الجـــامع او الى مقر طريقته ، ويصلي صلاة صحيحة بايمان ، وقد يتلو دعاء طريقته ، ولكنه لا يقفز ولا يتراقص . ويصلي مع من يساوونه في المقام ، ثم يتعامل معهم فيما بعد . ويعود الى بيته عند الظهر فيأكل غداء شهياً ، ويعود الى المكتب بعد ان ينام قليلاً .

ويعيش التاجر في بيت كبير حوله بستان مخضر بأشجار البرتقال معطر بأريج زهر الياسمين حين ترشه قطرات الماء المندفعة من النافورة . وفي وسط مؤخرة الطابق السفلي تقع غرفة منفردة طويلة ضيقة موازية لاتجاه الشارع الخارجي ، وتلك هي غرفة الضيوف . وحائطها الخلفي حائط مزدوج ، ويبلغ ارتفاع سقفها ضعف عرضها على الاقل ، وفي مقدمتها قوس مدبب ، فارسي النمط . وهذا القوس مغطى بستارة ، وقد يغلق في ايام الطقس السيء باب له كبير مزدوج مزخرف . والارض مغطاة بسجاد من صنع آلات مانشستر ، فهذا التاجر يبيع بسط البربر حقاً ، ولكنه يعتبرها فجة لا تصلح له . وفي الغرفة ايضاً سرير نحاسي كبير عليه وسائد كثيرة ، وتدق عدة ساعات قديمة .

ويقيم التاجر مأدبة بين الحين والحين ، فيستدعي احد الطهاة المحترفين مع مساعديه لصنع المآكل الطيبة على مقياس اكبر مما تسمح به الامكانيات البيتية . ويستأجر الموسيقيين ، وعدداً من النساء المرفهات اللواتي يعرفن بالشيخات ، ويشبهن نساء الجيشا اليابانيات . وهن مغنيات وقوالات ويعرفن كيف يفتن قلوب مستمعيهن بالالحان الاندلسية القديمة والكلمات المعدة لتلك المناسبة . ويتسابق الضيوف في لصق الدراهم على جبين الشيخات ووضع الاوراق المطوية تحت خمرهن .

وتلبس الشيخات أحدث الثياب . ويعرضن النماذج الحديثة من البروكاد وغيره من المنسوجات ، كما تفعل فتيات المانيكان في باريس ونيويورك . اما سيدات البيت فانهن يسترقن النظر من الشرفات والزوايا ، ويبصرن هذه الالبسة الاخاذة ، ثم يدعون الشيخات بعد ذلك الى بيوتهن منتحلات شتى الاعذار . فاذا نجح موديل ما هجمت السيدات على القيسارية ، فاغنين تجاراً وأفقرن غيرهم ، واخذت مصانع لانكشير وليون تعمل في الليل والنهار لتلبية الطلبات المتزايدة .

ولا تقتصر مثل هذه المآدب على فاس . ففي القاهرة وبغداد ، وفي طهران بل وفي صنعاء ، وفي كل ناحية من انحاء الشرق الاوسط يرفه الاغنياء عن انفسهم . وينسون بين الحين والحين مـا قاله القرآن عن ابنة العنقود ، ويعتريهم الخمار في الصباح التالي ، كما يحصل لمن يقضي مساءه في ملهى ليلي من ملاهي نيويورك او لندن او باريس . ومـا هم إلا من ابناء آدم كغيرهم من البشر .

وقبل ان نترك التاجر لا بد لنا ان نلاحظ بأنه ما لم يكن التاجر مختصاً بالتجـارة الخارجية (كالعمراني ، والاخوان سبسي) فقد يصعب عليه استقراض كميات كبيرة من المال بسبب تحريم الدين الاسلامي للربا ، وما نجم عن ذلك من قلة المصارف . ومعظم رأس مال التاجر موظف بالعقار ، وهو يجمع العقار في دفعات صغيرة . ويصدق الشيء نفسه على بضاعته . فقد يوجد مئة من التجار المدينين له بالمـال ، فيرسل وكلاءه ليجوبوا القيسارية ويجمعوا الديون ، ولكنه اذا كان مستعجلاً رجع الى اليهود الذين لا يستنكر دينهم أعمال الصرافة .

وهنا مصدر من مصادر عدم التناسق في المجتمع الاسلامي لان الدين لم يترك منفذاً للربا .

وقد قامت في البلاد الاسلامية المستقلة ، كمصر ، والعراق ، وايران ، مصارف يملكها المسلمون ويديرونها ، ولكنها اثر من آثار المدنية الغربية وكثير من كتبة المصارف من الارمن .

والطبقة الثانية بين الطبقات الاربع تتكون ، في فاس كما في غيرها من بلاد العالم من بائعي القطاعي . وهؤلاء متعلمون كالتجار ، وكثير منهم ينتمي الى العائلات الكبيرة . وبعضهم من ابنـــاء التجار الذين يتدربون على اعمـال التجارة في بيع المفرق قبل الاستقرار في التجارة الواسعة . وهم في حياتهم العامة قليلو الحركة ، يدخلون مخازنهم في الصباح

ويجلسون في مكان ضيق بحيث يستطيعون الوصول الى أية سلعة دون قيام ، ويخرجون مرتين في اليوم عائدين الى منازلهم . والظاهر انهم أقل الناس ترياضاً وتمريناً ، وأقلهم تعرضاً للشمس .

وهذه المظاهر من عدم الحركة ليست صحيحة كلها . فان أرفع الناس من بين أفراد بائعي المفرق من ابناء الطبقات الوسطى الفاسية يصلون بانتظام ، والصلاة في حد ذاتها نوع من التمرين كما أوضحنا في الفصل الثامن . وهم ينتمون عادة الى احدى الطرق التي تتكون شعائرها من حركات اقرب الى الرياضة من الطرق التي ينتمي اليها التجار ، ولكنها أقل من تلك التي يدخلها الدباغون ، وأقل غالباً من شعائر الطريقة الرحمانية التي وصفناها في الفصل التاسع . فاذا قفزنا من فاس الى ايران فان المثيل العجمي لبائع المفرق في فاس قد يشترك في الزورخانه التي يلتقي افرادها ليلاً ويتمايلون على موسيقى الشاهنامة ، ويتلوون ويتدربون بالترس الثقيل والاقواس . وعلى أي حال يسهل على الغريب السائر في السوق ان يميز بين البائع اللين ، والابيض الوجه ، القصير النظر ، ذي الاصابع الدقيقة ، وبين البدوي او الجبلي الخطي ، بمشيته الثابتة ونظرته البعيدة التي تحدق في وهج لا وجود له . والشرق الاوسط يخلق هذه الاختلافات ويزيد فيها الى حد غير معروف في الغرب .

والطبقة الثالثة في فاس هي طبقة معلمي الصنائع ، مثل الدباغين ، والسكافين والبنائين وغيرهم . وينتظم هؤلاء كالتجار في نقابات . وتتكون الطبقة الرابعة من المساعدين الفقراء والعمال غير المهرة ، كأولئك الجالسين في صف على باب نقابة النجارين ، وهم يحملون السلال ، ويعرضون خدماتهم في نقل السلع المشتراة من المخازن . ومن افراد هذه الطبقة الرابعة الحمارون ، والزبالون ، والمعزلون وأمثالهم . ويعيش أفراد الطبقة الرابعة عادة في فاس الجديدة ولا يعتبرون فاسيين ابداً بل غرباء مقيمين .

وتبدو هذه الطبقات للوهلة الاولى قائمة على الثروة ، وهذا صحيح الى حد ما . غير ان التعليم عنصر هام . فتجار الطبقتين الاولى والثانية متعلمون يقرأون القرآن والمؤلفـــات المكتوبة بعربية كلاسيكية . ويقرأون الجرائد التي تكتب في عربية يعتبرونها مصطنعة . ويتخاطبون فيما بينهم بلهجة عرفت بمحافظتهـا وتهذيبها وفصاحتها ، ولكنهم يعرفون اللهجة المشوهة التي يتكلم بها غيرهم ايضاً . وبعضهم يقرأ ويفهم اللغات الاوربية وأخصها الفرنسية . اما الطبقة الثالثة من مهرة الصناع فأبناؤها أميون تقريباً . وقد درس كثير من معلمي الحرفيين في المكتب ، وهم يعرفون الحروف الهجائية ، ولكنهم يقرأون السور القرآنية وحدها ، اما الصحف فلا يقدرون عليهـــا . ويعرفون قليلًا من الحساب الذي يحتاجونه في اعمالهم . اما الطبقة الرابعة فان افرادها أميون تماماً .

الا ان الثروة والتعليم لا ينبئان بالخبر كله . فان فسيفساء الانساب وأماكن الولادة موجودة هنا كما توجد في أي مكان آخر . فطبقة التجار تكاد تكون طبقة مغلقة . وقد يدخل وافد خارجي ألمعي بين الحين والحين الى الحلقة المسحورة من العائلات القديمة . وترى ان مثل هذا الشخص يكتشف عـــادة جداً عظيماً بين اجداده ، ويتخذ لنفسه اسماً عائلياً مناسباً ليثبت مركزه الجديد . والطبقة الثانية هي القـاعدة العرقية التي تقف فوق طبقة التجار ، بمـــا فيها صغار التجار والافراد الفقراء من ابناء العـائلات القديمة ، وقليلون غيرهم ممن لهم شرف القدم والرفعة ، ولكنهم لم يصلوا القمة في وقت من الاوقات .

اما الطبقة الثالثة فمختلفة ، لانها لا تغذي الطبقة الثانية الا نادراً . وبعض الصناع غرباء منذ عهد بعيد ، مثل صناع جلد الاغنام وهم من اهالي مراكش ، وصناع جلود الابقار وهم من اهالي تغزوت في صنهاجة سرير الواقعة شمالاً . غير ان معظم الصناع المعلمين هم حفدة صنـــاع جاءوا من اسبانيا وتونس وحتى من ايران ، ولذلك فهم يشكلون جماعة

منفصلة . وقد وجد ان خمسة واربعين بالمئة من ابنـاء الدباغين يتبعون حرفة آبائهم . وبما انه ينتظر ان يكون للأب الواحد ولدان فهذه النسبة عالية بحيث تكفي لتأمين وصول ابناء الفاسيين وحدهم الى رتبة المعلمين بعد مرورهم برتب الاجراء والمساعدين . اما المساعدون الثابتون فهم من ابناء المدن الاخرى .

وهذه الطبقة الثـالثة هي اكثر الطبقات عدداً بين الطبقات الاربع وتشكل اكثر من نصف سكان المدينة ، ولديها ، ولدى نقاباتها روح جماعية قوية ، وقد لوحظ هذا الشيء ذاته في جميع مدن الشرق الاوسط . اما الطبقة الرابعة فتشكل كلهـا من الغرباء الذين يعيشون في فاس الجديدة ، فاذا اسعدهم الحظ عـادوا الى قراهم وواحـاتهم ومضاربهم ليقضوا نهاية اعمارهم فيها .

ويزداد نمط الفسيفساء اتضاحاً عندمـا يدرس المرء بعض الجماعات الخاصة المبنية على العرق ، والدين ، او غيرهما من عوارض الولادة . وأول ما يلفت النظر بشكل خاص دور الزنوج . اذ كان لفاس قبل الغزو الفرنسي سوق علني للعبيد ، يباع فيه البشر الذين بقوا على قيد الحياة بعد ان نقلتهم قوافل الصحراء ، ولم يكونوا قد بيعوا في طريق القوافل . وكان مزاد العبيد يجري يومياً في سوق الصوف ، قبيـل الغروب . وكان عدد الزنوج وافراً قبل القضاء على القوافل (اي حتى سنة ١٨٨٠ او ١٨٩٠) . وكان في استطاعة الغني الذي يشعر بالحياء من المزاودة على العبيد في السوق ، ان يستجلب العبيد الى بيته للمشاهدة والمساومة . وتضاءل السوق بين سنوات ١٨٨٠ و١٩١٢ وانتقـل من الزنوج الى بنات البربر اللواتي كن يؤخذن من آبائهن في أقصى الجنوب . واستمرت التجارة بعد عام ١٩١٢ في الخفاء . ولا أعلم كم عبداً استجلب عام ١٩٥٠ ـ اذا كان ثمة عبيد يستجلبون (مثلما اجهل عدد مبارزات

الديوك الممنوعة التي وقعت في دائرة يبعد محيطها بمقدار عشرة اميال عن بيتي) .

وكان لكل غني عبد للبغل ، يمسك رسنه اثناء ركوبه له ، ويسير امامه صائحاً « بالك » ليشق امامه الطريق ، ثم يأخذ البغل الى الفندق بينما يعمل سيده في مكتبه . ويقوم زنجي آخر بحراسة الباب ومراقبة الداخلين والخارجين . وقد يقوم تاجر مترف بشراء فتاة زنجية لابنه المراهق ، تقاسمه الفراش وتبعده عن المشاكل الى ان يرتب له زواج مناسب . ولهذا النوع من التدليل الابوي شبيه في عالمنا الغربي . وتهدى للفتيات الاحرار ايضاً جواري خاصات بهن ، يدخلنهن الى بيت الزوجية ، ويعملن كاتمات اسرار ، ومساعدات ، ومخبرات . وفي البيت جوار أخر يعملن طاهيات وخادمات . وبينما يستطيع العبدان المخصصان للبغل والباب ان يتزوجا من بنات جنسهما ، فان باقي النساء من العبيد يوضعن تحت تصرف الذكور من ابناء البيت ، وخصوصاً الابناء الذين يتكامل نموهم .

ويعيش نساء العبيد عيشة هانئة على وجه العموم ، وبينهن من يتعلمن الموسيقى ، ويأكلن كلهن اكلا طيباً ويلبسن لباساً حسناً ، ويخرجن من البيوت اكثر من سيداتهن ويذهبن من بيت لبيت رسولات ووسيطات . وحياتهن اكثر حرية ، وفرص التعامل عندهن كثيرة . فان كن ذكيات ، وكثير منهن كذلك ، فانهن سرعان ما يتوصلن الى مكانة تصبح لهن فيها السيطرة على الاحداث في المنزل .

وربما ادرك القارىء الآن ان هذا البيت مقياس للمنزل الشرقي . فهو موجود ، أو كان موجوداً في مصر القديمة ، وبابل ، ووصفه العهد القديم . فهو مكون من عائلة ابوية النسب ، للأب فيها الهيمنة ، وفي داخله زوجات عديدات ، وجوار ، وخدم ، وعبيد ، وهو مؤسسة

اقتصادية كاملة فضلاً عن كونه وحدة عائلية . ومع ان العبيد لا يوجودون علناً الا في شبه الجزيرة العربية ، ومع ان تعدد الزوجات قد ألغي رسمياً في تركيا ، وأصبح صعباً في ايران ، فما زال هذا المنزل - بشكل او بآخر - هو المنزل الاساسي في معظم مدن الشرق الاوسط . ولسوف يستمر كذلك حتى تحل الآلة الحديثة المسيرة بالطاقة محل العمل اليدوي ، لا في الصناعة وحدها ، بل وفي البيت ايضاً . اذ لا بد من وجود طهاة وخدم - وغسالات ، وخولية ، وسوافين . ولا يستطيع الناس ان يضيعوا أوقاتهم كلها حول مناقل الفحم ، ومواقد البريموس ، او في ضخ مياه الشرب وغليها ، وفي ايصال الرسائل ، وقضاء الساعات لشراء الحاجيات كل يوم قبل موعد الطعام ، وان يقوموا بالحفريات اللازمة لهم ايضاً .

والجماعة الوحيدة المبنية على ديانة خاصة هي بالطبع ، الجالية اليهودية . ومع ان اليهود عاشوا في فاس اكثر مما عاش العرب ، فقد كانت اعدادهم تزيد من حين لآخر بالهجرات الجديدة ، وخاصة بالهجرة الواسعة من اسبانيا بعد احداث عام ١٤٩٢ . وكان افراد الحيّ اليهوديّ في فاس يتكلمون اللغة الاسبانية الى ما قبل خمسين سنة ، وما زالوا يتكلمونها في طنجة الى اليوم . فاذا دخلت حي الملاح في فاس بعد صعود مجهد من البلدة القديمة ، فقد تقف لا لتسترد النفس فحسب ، ولكن لانك تشعر بأن جسمك قد خرج من مراكش وهبط في احد احياء لشبونه القديمة . فالشوارع ضيقة مزدحمة مليئة بالضجيج والنساء السافرات اللواتي يلبسن ملابس زاهية الالوان يجلسن على الكراسي وعلى السلالم والمصاطب الضيقة المقامة امام الابواب ، متحدثات مع الجيران ، بينما يقفز الاطفال بين ارجل الناس . وتنتشر اصداء موسيقى القيثار من الشبابيك ، مع رائحة السمك المقلي في قلايات الزيت المضمخ بالطيب والمسك والبهارات .

وفي الصباح يغـادر الصناع والتجار اليهود حي الملاح ويذهبون الى اعمـالهم في المدينة القديمة او المدينة الجديدة . فاذا شعروا بالتعب عند المساء استأجروا احدى العربات الرثة المتبقية من عهد الملكة فكتوريا لايصالهم الى بيوتهم . ويختص هؤلاء اليهود في اعمال الحدادة والسكافة والصياغة والصرافة ، وكلها تحتاج الى مواد مستوردة او ارتباطات مع الخارج ، فهم النوافذ التي يطل منها الناس على العالم الخارجي . ولهم فيما بينهم مراتبهم الاجتماعية الخــاصة ، الموازية لمراتب جيرانهم المسلمين . ولديهم ايضاً عـائلاتهم العريقة ، ولبعض هذه العائلات اسماء اسبانية . وبعضهم يولدون في الطبقة المغلقة من اثرياء التجار . ولهم مقبرتهم الخاصة ، وقبور أحبارهم ، وبعض هذه القبور موجودة في المدينة ، وهي سابقة لانتقالهم من فندق اليهودي الى حي الملاّح . ويعيش كثيرون منهم اليوم في الشارع الجديد ويقرأون الجرائد الفرنسية مع القهوة في الصباح . وقد هاجر غير هؤلاء الى الدار البيضاء وباريس ولندن ، حيث يصعب تمييز ابنائهم حـال خروجهم من الفسيفساء ، عن غيرهم من المنتمين الى أصول متوسطية .

واليهود هم الجالية اللا ـ اسلامية الوحيدة التي بقيت بعد ثلاثة عشر قرناً من الحكم الاسلامي . فقد اختفى « عبدة النـــار » الذين كانوا يقطنون وادي فاس في قديم الزمان ولم يبق لهم أي أثر . ولا وجود لجالية مسيحية مستديمة ، بالرغم من وجود المسيحيين دوماً في المدينة ، عبيداً ، او هـاربين ، او سفراء . ولهؤلاء المسيحيين أهمية في الصنائع والتجارة ، وفي الريازة المدنية ــ وخاصة بناء الاسوار الكبيرة والابواب ــ وفي خدمة الحكومة . وقد سبق ان ذكرنا ان فرنسياً بنى نظام المياه . وما زال الناس يذكرون معلماً عسكرياً حافظ على نصرانيته ، وما زالت عائلته تعيش في طنجه ، وهذا هو القائد ماكلين (Mc Lean) الذي كان يلبس الطربوش الاحمر والجلابية الطويلة المصنوعة من المربعـــات الخضراء ذات الطراز السكتلندي .

وثمة جالية ثالثة مدينة بوجودها وبطريقتها في الحيـــاة الى النسب الممزوج بالدين، وتلك هي عائلة الادريسي المكونة من ثلاثمئة من الاشراف. وفي مراكش، كما في غيرها من البلاد البعيدة عن مكة، يكثر احفاد الرسول، ونجدهم في كل مستوى من مستويات المجتمع والثروة. وفي فاس عائلات كثيرة تنتمي الى هذا الاصل، غير ان لواحدة منها فقط مكانة ملحوظة، وهي عائلة تنتسب الى النبي والى مولاي ادريس الثاني مؤسس المدينة. ولا يشتغل افراد العائلة شيئاً، ولا يدفعون الضرائب. ولكنهم موعودون بالجنة. وعندما لا يكون عند الشريف ما يشغله، فانه يجلس خارج بيته ويستقبل الوافدين عليه طلباً للاستشارة والعون. ويشترك في الاجراءات التي يعرفها علماء الانتروبوجيا والتي تعمل لازالة ازمات الحياة وصعوباتها، كالولادة، والزواج، والوفاة، وما بين هذه الامور من مراحل كالختان[١٥]. وهو الذي يتمم الاتفاق بين ابوي شاب وفتاة من اجل الزواج، بعد ان تقوم الجواري والشيخات بالزيارات الاستكشافية، وتتبعهن الام بالمشاهدة، وتنتهي معظم المساومات عن طريق الوسطاء من الرجال.

ويقوم أشراف الأدارسة بالمهمة التي يؤديهـــا البيران (Pirs) عند البلوشيين، والمرابطون عند الطوارق، وأفراد الدراويش الاتقياء عند ايت أتا. وهم يشبهون طبقة الكهنة العليـا في مأرب القديمة باليمن، وتتشابه اعمالهم في أمور كثيرة مع اعمـــال البراهميين في الهند. وهم مقدسون لا يجوز مسهم بالعنف، ولذا فهم لا يحاربون ولا يحاربون. ووجودهم يوفر الطمأنينة، والاذن المقدس، والسلام.

وهذه الجماعة التي لها مثل هذه الاهمية في المحافظة على التوازن بالمدينة، ولها مثل هذا الاختصاص العـالي، لا بد ان يكون لها مورد معيشة

---

(١٥) ان المراهقة تعالج في مجتمعهم مثل الوقار الذي تعالج فيه بمجتمعنا.

يؤمن لها العيش في كرامة ، ان لم نقل في ترف كترف اغنى التجار . ومركزها ، وهو زاوية مولاي ادريس ، يشبه زجورة نيبور في انه يشكل النواة المقدسة والرمز لجميع العلاقات المتبادلة ، وانواع النشاط الوافرة للناس الذين يملأون مباني المدينة وشوارعها . ويفتح متولو الأوقاف التي تعيل الاشراف صندوق الاعانة الكبير مرة في الشهر داخل الزاوية . وهذا الصندوق موضوع تحت ثقب في الحائط موشى بالفضه ، وقد ألقيت فيه منذ القدم تبرعات الاتقياء وعارفي الفضل . وتوزع هذه الاموال على الذكور من ابناء الاشراف بحسب عدد اولادهم .

ومع ان عيد مولاي ادريس عيد محلي فهو أبهى شعائر السنة . فاذا حل سار افراد كل نقابة صفوفاً في المدينة الى حيث الضريح ، حاملين الهدايا يرافقهم ايقاع الصناجات ودقات الطبول . ويحمل تجار الحرير غطاء حريرياً جديداً أعد للضريح ، كما يحصل في مواكبنا . ويزيل الاشراف غطاء السنة الماضية ويقطعونه قطعاً صغيرة يوزعونها بين اصدقائهم الاغنياء الذين يمنحونهم في مقابل هذه البركة هدايا ثمينة . وتأتي النقابات الاخرى بالحيوانات للتضحية ، ويسوق الدباغون امامهم ثوراً سميناً للتضحية — وبعد التضحية يقطع اللحم الى قطع يوزعها الاشراف بين الناس للبركة في مقابل الهدايا .

ولحبوس العائلات عقارات مؤجرة ، وحصص في المدابغ ، عدا صندوق التبرعات والهدايا السنوية . وقد يكسب الشريف صهراً غنياً اذا ما تزوج ابنة احد التجار . اما بناته فقلما يطلبن للزواج ، اذ لا ثروة لهن ، وتقطع عنهن الارزاق حالما يخرجن من العائلة . فاذا لم يتزوجن من افراد العائلة بقين عانسات ، وهذا حظ الكثيرات منهن . غير ان العائلة تعتني بهؤلاء ، اذ يعيش مئتان منهن في حرمة مولاي ادريس في دار

تعرف باسم دار قيطون* ، لأنها تقف في الموقع الذي وضع فيه جدهم خيمته عندما أسس المدينة . وتأخذ كل سيدة رغيفاً من الخبز في اليوم الواحد ، فضلًا عن الهدايا الاخرى . واليهن يلتجيء النساء الهاربات من ازواجهن ، اذ أن دار قيطون ملجأ مقدس . وتهرع الشيخات العوالم اليه من اجل البركة ويتطرن السيدات التقيات بالهدايا مقابل البركات . وتأتي البائعات الى الدار لمعرفة طلبات زبائنهن .

واذا تجاهلنا لحظة ان سكان فاس مسلمون من اتباع المذهب المالكي تحكمهم الشريعة ، ويثابرون على تأدية الاركان الخمسة للاسلام بأمانة ، وتفحصنا عقائدهم الاجرائية ، وشعائرهم من زاوية علم الاجتماع ، وجدنا ملاءمة كاملة بين الرأس وغطائه ، وبين الرمز والمؤسسة التي يتجسد فيها . فلكل نقابة ولي يرعاها . فسيدي علي ابو غالب مثلًا هو الولي الراعي للحلاقين والجراحين . فاذا صدقت القصة التي يرويها لك القصاصون الجالسون عند باب جيزة ، فانك واجد ان هذا الولي يحلق رؤوس المرابطين الموتى كل يوم في السماء ، فاذا انتهى من عمله هذا هبط الى الفناء المكشوف الواقع امام نقابة النجارين ، وأخذ يتحدث مع روح مولاي ادريس نفسه في جو الاريج الذي يسطع من قطع خشب الارز ، ويمتزج فيه رائحة البهارات المنبعثة من سوق العطارين . وهذه الاسطورة ، التي لا يزيد اعتقاد متعلمي فاس بها عن اعتقاد القاريء ، توضح النقطة التي أوردناها . فللحلاقين رمزهم ، ويرتبط هذا الرمز بشكل من الاشكال برمز المدينة من حيث هي مجموعة واحدة . ويصدق الشيء نفسه على النقابات الاخرى . وليس من اختلاف الا فيما يتعلق بالأدارسة الاشراف ، فلهؤلاء راع واحد فحسب هو مولاي ادريس نفسه ، وهم

---

* يريد ان يقول أن كلمة قيطون تعني الخيمة . وفي اللسان : القيطون : المخدع ، وقيل بلغة اهل مصر والبربر ، قال ابن بري : القيطون : بيت في بيت . (المراجع)

مرتبطون به برابطة النسب ، ولهم كرامات أقل من كراماته ، بما يمنحونه من البركة .

* * *

يقع المركز الروحي والمادي في المنطقة المحيطة بمسجد مولاي ادريس ، ويشتمل على مساجد الاندلسيين والقرويين وعلى القيسارية . وتحتاج المساجد الى موظفين يخدمونها ، ويحتاج الاشراف الى موظفين يتولون اوقاف عائلاتهم ، ويحتاج التجار الى التعليم ، وتحتاج الحكومة المراكشية الى الشبان الاكفاء الأذكياء لتدبير المدينة ، والى العلماء المحترمين الراسخين لتثبيت انتخاب السلطان ولاسداء النصح لعظمته ، ولرؤية الهلال عند ابتداء رمضان . ولذا فان مركز المدينة يحتوي على مؤسسة أخرى مركزها جامع القرويين - وتلك هي الجامعة .

وفي العالم الاسلامي بمجموعه جامعات كثيرة مشهورة اشهرها في ايامنا جامعة الازهر في القاهرة التي كانت تنافسها جامعة بخارى قبل العصر الشيوعي . وقد خصص المسلمون الاوقاف للجامعات وقت ان كانت اوكسفورد ما تزال سوقاً . ودرست جامعاتهم مؤلفات ارسطو عندما كانت العلوم الكلاسيكية مختفية شمالي البحر الابيض المتوسط ، وأعادوا اضاءة الشعلة في بدء عصر النهضة . وبينما لم يكن في روما رغم كل عظمتها جامعة واحدة ، اعطانا المسلمون النموذج الذي بنيت عليه جامعات اوربا والغرب .

ومع ان الازهر قد تطور مع الزمن الى الحد الممكن بالنسبة الى مؤسسة لاهوتية في جوهرها ، فان جامعة فاس المقطوعة عن باقي العالم الاسلامي ، بقيت بنت القرون الوسطى حتى بداية القرن الحالي . وكان برنامجها دينياً في اساسه ، فكانت موضوعات الدراسة تشتمل على التوحيد ،

والحديث ، ومصـــادر الفقه ، والقضاء ، والمنطق ، والنحو ، والانشاء النثري ، والشعر ، والادب ، والرياضيــات . وقد اعتبر الدين والفقه موضوعين رئيسيين ، بينما اعتبرت اللغة والآداب والعلوم مواضيع ثانوية . وفي الايام القديمة كانت تدرس في الجامعة دروس الفلك ، والجغرافيا ، والطب ، والخط ، وفقه اللغة ، والميتافزيقا ، والصوفية وربما التاريخ ايضاً . اما الكيمياء فكانت تعتبر كفراً ولذا يقال بأنها تركت لليهود .

وكان منهاج التدريس ينظم باشراف قاضي فاس . وقد أعطيت للقاضي صلاحية ترشيح الاساتذة الذين يعينهم السلطان ، وكان مسؤولاً عن تقيدهم بشعائر الدين ، مع ترك الحرية الاكاديمية التامة لهم . وبما ان القاضي رأس جميع الاوقاف الدينية في فاس ، فقد استطاع ان يؤثر على حبوس جامع القرويين التي مولت هذا التعليم العالي ، وكان يراقب ميزانية التدريس .

وكان الدارس يصبح استاذاً بالشكل التالي : اذا انهى فترة كافية من الدرس على يدي استاذ معروف نال اجازة ، او شهادة . وقد يوقع الاجازة اساتذة عديدون . وهذه الوثيقة تعطيه حق التدريس ، فيتخذ لنفسه زاوية خالية من جامع القرويين ، ويجتذب حوله عدداً من الطلاب ، ويسألهم عما يريدون ان يتعلموه . والعادة ان يبدأ في احد الموضوعات الثانوية ويتدرج منها الى الموضوع الرئيسي وهو الفقه . وهو يعلم بدون أجر بينما يكسب عيشه من الاعمال الخارجية .

فاذا صار له اتباع ونال بعض النجاح ، كتب عريضة الى السلطان وأرسل معها يميناً مكتوبة شهد عليها بعض العلماء . فاذا كان له صديق بالبلاط فان عظمة السلطان ينظر في طلبه خلال فترة معقولة . والا أرسل الطلب الى احد الوزراء مع قصيدة مدح . فاذا وافق السلطان على تعيينه اصدر ظهيراً (مرسوماً) بذلك الى القاضي ، يأمره بأن يخصص

للاستاذ راتباً . والاساتذة على خمس درجات ، يقف المبتدىء عـــادة في اولها .

ولم يكن الراتب كبيراً عام ١٩٠٠ ، لأن الرواتب لم تتغير لتتلاءم مع انخفاض قيمة العملة . فكان استاذ الدرجة الدنيا ينال ما يعادل ١٠ سنتات بالشهر ، بينما يبلغ أعلى راتب الدرجات القصوى ١٤,٢٠ دولاراً في الشهر . الا ان كل استاذ كان يعطي بجانب ذلك مـــا بين عشرة وستين مداً من القمح في السنة ، وجرتين من زيت الزيتون ، وبعض السمن ، وثوراً يصنع من لحمه «الخلي» او اللحم البقري المحفوظ . وكان السلطان يعطي الاستاذ في كل عيد من الاعياد الدينية الثلاثة منحة نقدية يتراوح مقدارهـا بين دولار وأربعة . وكانت الحبوس تقدم له مالاً يستأجر به منزلا لسكنه ، اذا لم يكن لديها منزل تقدمه اليه ، وتعطي له الالبسة ثلاث مرات في العـــام . ويستطيع الاستاذ ان يحصل على رسوم مقدارها مئة دولار من عملائه لقاء الاستشارات القانونية ، وان يكسب دخلاً من الوعظ وامامة المصلين في المسجد . وبما ان اساتذة الدرجات العليا هم دائماً من أفراد العائلات العريقة في فاس ، فلا بد انهم يملكون بعض العقارات التي يزيد ريعها من دخلهم .

ويفترض في الاساتذة ان يعيشوا في فاس ، مع ان هذا ليس شرطاً مكتوباً ، كما يفترض في الواحد منهم اعطـاء درس واحد في اليوم . وله ان يدرس الموضوع الذي يختاره شرط موافقة التلاميذ عليه . وفي سنة ١٩٠٤ كان هنالك سبعة عشر من العلماء الكبار او اساتذة المرتبة الاولى . بينما بلغ مجموع الاساتذة حوالي واحد واربعين . ولكل منهم من الناحية النظرية كرسي ، مع انه لم يكن في المكان فعلاً سوى تسعة كراسي ، فان الكراسي المستعملة لم تزد عن ستة ، لأن العلماء الثلاثة الذين كان لهم الحق في الكراسي الاخرى اعتبروا انفسهم غير جديرين بها . واستعمال الكرسي يتضمن الجلوس الفعلي به اثناء التدريس ، وكان

لهذا الجلوس أهمية رمزية عظيمة . اما باقي الاساتذة فيجلسون على البسط او الحصر . وليس للاساتذة نقـابة ولا منظمة رسمية ، وهم يشبهون اساتذة الجامعـات الاخرى في انهم يؤلفون شيعاً واحزاباً قد تتنـافر وتتباغض . ولا يظهرون مجتمعين الا عندما يجتمعون لتثبيت اختيار السلطان الجديد ، او عندما يستدعيهم السلطان لاتخـاذ قرار في احدى المسائل الشرعية الخطيرة . وينـال العلماء الكبار احتراماً عظيماً لانهم يعتبرون من حكماء الرجال وقادة الاخلاق ، اذ انهم المؤولون للمعرفة التي أنزلها الله على رسوله .

وليس ثمة سنة مدرسية . ويأتي كثير من الطلبة في فصل الخريف إثر الحصاد ، ولكن يسمح لهم الدخول في أي وقت . ولا تؤخذ منهم الاقساط ، ولا تدرس موضوعات ثابتة . وينال الطالب اجازته عندما يعتقد الاستاذ بأنه نال معرفة كافية في موضوعه . ويحتفي الطلبة احياناً بانتهاء الاستاذ من تدريس كتاب معين ، ويحملون الاستاذ على اكتافهم الى حيث يسكنون ويكرمونه . وفي رمضان تقوم قراءة الحديث مقـام الدروس المعتـــادة . وفي شهري صفر وربيع الاول تخصص احدى ساعات التدريس لقاضي فـاس الذي يقوم بشرح قصيدة الهمزية ، وهي قصيدة تمجد شجاعة الفـارس المجاهد حمزة عم الرسول . ويأخذ الطلبة والاساتذة عطلة تمتد ثلاثة اسابيع عند حلول كل من الاعيـاد القمرية الثلاثة ، وهي عيد المولد والعيد الكبير والعيد الصغير ، ولهم عطـــل قصيرة أخرى تقع احداها في احد ايام التقويم اليولياني وهو يوم الرابع والعشرين من شهر حزيران (يونيه) المسمى يوم العنصرة . ولا تعطى الدروس في ايام الخميس وبعد ظهر الجمعة ، سوى دروس الاوزان الشعرية . وللطلبة عطلة في الربيع تبلغ شهراً واحداً يقيمون اثنـاءها احتفالا كبيراً . وتعطى ستة دروس في اليوم الواحد ، تبدأ مع شروق الشمس وتنتهي عند صـــلاة العصر . ويعتمد طول فترة الدرس على فصول السنة .

وقد بلغ عدد الطلاب سنة ١٩٠٠ اربعمائة ، وهو عدد يقل كثيراً عما كان عليه في السابق عندما وصل الى حوالي الف طالب . ويمكن تصنيف هؤلاء الطلاب الى صنفين : الفاسيين انفسهم الذين يقيمون في بيوتهم ، والغرباء الذين يقيمون في «المدارس» اي الكليات[١٦] وجميع الطلبة الفاسيين ينتمون الى الطبقات العليا ، باستثناء بعض ابناء الصناع او صغار التجار الذين يعتبرون في غاية الذكاء فيعطون الفرصة لتحسين مركزهم . ومعظم الغرباء من فقراء الشبان الذين يسعون للحصول على الشهادات ليعود الواحد منهم الى قرينه ويصبح فقيهاً . والفقيه مزيج من امام للمسجد المحلي ، ومعلم ، وكاتب – وهو ايضاً كاتم سر القاضي او القائد . اما الاثرياء من ابناء الغرباء فكانوا يستأجرون لانفسهم مساكن خاصة ويقلدون الفاسيين . وكان نزلاء كل مدرسة من المدارس الست يتراوحون بين الستين والمئة والخمسين . وجرت العادة على ان ينزل ابناء مدينة طنجة وغيرها من المدن الشمالية في مدرسة العطارين ، وهي أرقى المدارس ، اما الريفيون والجزائريون وابناء تفيلت فينزلون في الشراطين وهكذا . وكانت احدى هذه المدارس تقع في فاس الجديدة ، وتعتبر مدرسة اعدادية لتحضير التلاميذ المحتاجين الى مزيد من الدرس قبل دخولهم الى القرويين .

يتكون بناء كل مدرسة من هذه المدارس من طابقين او ثلاثة مع شرفات مطلة على الفناء . ووراء الشرفات غرف الطلبة ، والمفروض ان تخصص غرفة لكل طالب ، ولكن الواقع انه كان يقطن الغرفة الواحدة طالبان او ثلاثة . ويحضر الطالب عند مجيئه حمولة بغل من الطعام ، بينه الكسكس المجفف ، واللحم المحفوظ ، والمشمش المجفف ، وما شابه ذلك . فاذا وصل الى المدرسة وجد موظفاً يسمى المقدم ، وهو يجمع

---

(١٦) تترجم كلمة مدرسة احياناً بمعنى جامعة ولكن مثل هذه الترجمة لا تنطبق على مفهوم الكلمة في فاس .

بين المراقب والحمال والبواب ، ويقيم في غرفة قريبة من الباب . ولا بـــد لهذا المقدم ان يكون اعزب . ويدفع له مرتب صغير يخصصه مكتب القاضي . ويعطيه الطلبة ايضاً الهدايا لقـــاء تنبيههم عندما يحين وقت الصلاة . ويحصل الطالب على مفتاح غرفته من سلفه الذي تركها ، وتختلف اسعار هذه المفاتيح باختلاف قيمة المدرسة ، فتتراوح بين عشرين دولاراً ومئتين . فلا عجب اذن ان لا يستطيع الاحتفـــاظ بالغرف المفردة سوى القليلين ، حتى ولو فضل الآخرون مثـل هذه الغرف . ويوزع المقدم مـاء الشرب ، ويعطي لكل طالب رغيفاً في اليوم على حساب الحبوس . ويطبخ الطلبة ويدرسون وينامون ويتحادثون في غرفهم . وقد يقوم بعضهم بزيارة البيوت الغنية ، ليأكلوا مما تقدمه من الطعام المجاني في افنيتها ، بينما يكسب آخرون المال من نسخ كتب المكتبة وجمع زرق الحمام للدباغين ، بل ومن التسول ايضاً . وفي الايام السالفة قبل عام ١٩٠٠ ، كان بعض الاساتذة يرتحلون مع طلبتهم سيراً على الاقدام ضاربين في البلاد اثناء الصيف ، تجنباً للحر ، ويعيشون خـارج القرى حيث يقضون في المكان الواحد اياماً قليلة ، ثم ينتقلون منه لئلا يتكلف الفلاحون عليهم كثيراً . وكان هؤلاء الفلاحون بدورهم ينتفعون من هذه الزيارات فيقدمون للنسخ وثائقهم القانونية ، وتكتب لهم الاحجبة والتعاويذ .

ويقيم الطلبة في ربيع كل سنة احتفـالا عظيماً هو احتفال سلطان الطلبة . فمنذ منتصف شهر نيسان (ابريل) يبدأ الطلبة غير المقيمين في جمع الاموال ، ويكتبون ايصالات مزورة باسم السلطان . ويجمعون ادوات التخييم ويقيمون قرية من الخيم خارج المدينة . ثم ينتخبون لهم سلطـاناً ، وهذا يعين بدوره بلاطاً كاملاً مطابقاً للبلاط الحكومي . ويرسل السلطان الحقيقي الى السلطان المزيف آلة الملك كلهـا ، وبينها مظلة ، وصولجان ، وحرس من الجنود . وفي يوم الجمعة المعين للاحتفال يسير الطلبة في المدينة ومعهم الآلات الموسيقية ويتجهون الى قبر الولي

راعي الطلبة ثم يخرجون الى مخيمهم . ويرسل اليهم السلطـان هدية من المال والاغنـــام وترسل اليهم الجالية اليهودية هدية هزلية من القطط والفئران الموضوعة في اقفاص . وفي اليوم السادس يحضر السلطان ويتواجه البلاطان . ويسخر رجال البلاط المكون من الطلبة من أشباههم في البلاط الحقيقي ، وعلى هؤلاء ان يوسعوا صدورهم . ثم يطلب السلطان المزيف معروفاً من السلطان الحقيقي فيستجيب السلطان الحقيقي له . وقد يكون طلبه هذا الافراج عن سجين سياسي اودع السجن . وفي الليلة الاخيرة يخرج السلطان المزيف بهدوء اذا استطاع ليعود الى مسكنه ، فـــاذا اكتشف امره تجمع الطلبة حوله وتفننوا في معاقبته .

وواضح ان حيـــاة الطالب كانت حياة ميسورة ، ولذا فقد كره الكثيرون تركها . وبما ان الطالب لا يأخذ شهادة شاملة ، وبما انه لا يدفع رسماً لقـــاء دراسته ، فقد استطاب الكثيرون تمديد دراساتهم ، وأصبح بعض هؤلاء طلبة مزمنين يرتحلون من فاس الى القيروان وتونس ثم القـــاهرة وبغداد ومكة وحتى بخاري ، او يهبطون اليمن . وان القارىء ليذكر ان مؤسسي الطرق الصوفية كانوا في العادة رحالين درسوا على كثير من العلمـاء ، ومن هؤلاء السيد محمد بن علي السنوسي . ومن الواضح ان هذا النظام التعليمي المثالي ساعد كثيراً على توحيد عـــالم الاسلام .

***

لا بد لنا ، قبل ان نبحث في حكومة المدينة ان نلقي نظرة على المؤسسات الاخرى ، لنرى الى اي حـــد تؤمن التراص والاستقرار لمجموعة المواطنين . فالعائلة عبارة عن منزل ابوي كبير ، فيه كثير من المنفذين المنزليين ، ولديه المقدرة على تلبية معظم حاجـــات افراده من حيث تحضير الطعام والكساء وتنشئة الاطفـــال . وتهتم افران الخبز

المجاورة وحمامات البخار ، ودكاكين البقالة بالحاجات الاخرى . والمنزل نفسه كبير ، ينفصل فيه افراد الجنسين انفصالاً كافياً ، بحيث يتخذ شكل مؤسسة رسمية ، تقوم المراتب فيها على اساس السن ، ويظهر الابن احتراماً كبيراً للاب . ويساعد على هذا التباعد تعدد الزوجات ، وما يجر اليه من وجود ابناء متعددين ، وليس ثمة تنظيم قبلي ، مع ان القرابة تعتبر من الامور الثمينة لانها تزيد في المكانة . والفقراء لا يتزوجون غير زوجة واحدة ، وتنشأ رابطة قوية بين الاولاد واعمامهم ، خاصة اذا جاءت العائلة من مكان آخر .

والمؤسسات الاقتصادية ليست اكبر من العائلة ولا اكثر تعقيداً منها . والاسباب التقنية التي تجعل العائلة كبيرة نسبياً ، هي ذاتها التي تجعل المؤسسة الاقتصادية صغيرة . والمؤسسات الدينية ايضاً بسيطة . فالمسجد له مقدم واحد ومساعدان او ثلاثة مساعدين . والى جانب هذه البساطة الموحدة ، وهذا التعدد في المؤسسات ، نجد مجتمع فاس مقسماً تقسيماً افقياً الى اربع طبقات ، وعمودياً الى ثلاثة اجزاء وثمانية عشر حياً . والشيء الذي يربط الاجزاء كلها معاً هو تكاثر التجميعات المتكاثرة ، ووجود مقدار كبير من الاجراءات والشعائر المرافقة . وهذه التجميعات على نوعين ، اولها يشمل النقابات ، والطرق الصوفية ، ومنتديات الرماية المنظمة على اساس الاحياء ، ومعظم المؤسسات الدينية . وهذه هي العناصر التي تلحم اجزاء السكان وتجمعهم معاً في طبقات وفي احياء وتشغلهم ، وتدفع ظلاماتهم ، وتهتم بالمرضى والفقراء منهم ، وتلبي حاجة الانسان المتوسط في الانتماء الى جماعة . وهذا هو نوع التجميع الذي يهتم بكل جزء من اجزاء السكان . ويتكون النوع الثاني من التجميع من العلماء ، وحبوس مولاي ادريس وما يرتبط بذلك من وجود اشخاص اتقياء ، يؤمن جميع المسلمين لهم المعيشة ، ويقومون بانجاز جميع الصفقات الخطيرة ، ويؤمنون السلامة والاستقامة في العلاقات

القانونية بين الناس . وهؤلاء هم الكهنة بالمعنى القديم بكل آلتهم من ضريح وحُرْم . وهم يحتمون بكل الطبقات وكل الصنائع .

ومجتمع المدينة هذا منظم افضل تنظيم ، ويحتوي في داخله على اجهزة كثيرة غير سياسية تعمل لصيانة التوازن بحيث لا يحتاج سوى مقدار قليل من الحكم والحكومة . ويؤدي مهمة الحكم ثلاثة موظفين رئيسيين ومساعدوهم . وهؤلاء هم الباشا والقاضي والمحتسب . والسلطان هو الذي يعين الباشا[١٧] وهو في العادة من غير اهل فاس . ويقيم هو ومساعده — الخليفة — محكمة في المدينة للنظر في القضايا الجزائية . وبين موظفيه عدد من الشرطة على رأسهم « شاويش » ، وموظفون للسجن والمستشفى وجاب للضرائب . والقاضي[١٨] مسؤول عن تطبيق احكام الشريعة وعن الاوقاف والجامعة . وكان في العهد القديم ايضاً «قاضي القضاة» [قاضي القيوض] وهو القاضي الاول في المملكة كلها ، ويشرف على تعيين جميع القضاة الآخرين في الاراضي التابعة للحكومة المركزية . ودونه حوالي ثلاثمائة من « العدول » او كتاب العدل . والمحتسب هو مراقب السوق حسبما سبق ان ذكرنا . والى جانب المهــام الادارية لهؤلاء الموظفين الثلاثة علينا أن نتذكر أنه كان لرؤساء الاحياء ايضاً دوريات ليلية تجوب الشوارع بعد اغلاق ابواب السور وكان لليهود ادارة خاصة ، وكان القائد المقيم يهتم بحاجات اهل الريف وغيرهم من ابناء القبائل التي لم يتم اخضاعها عندما يهبطون المدينة .

---

(١٧) كان حاكم فاس فيما مضى يسمى العامل. غير ان لقب باشا التركي دخل الى مراكش من الجزائر وجاء مع الحكم الفرنسي، انظر : Le Tourneau, La Ville de Fés avant le Protectorat p. 211

(١٨) كان لفاس حاكم واحد حتى عام ١٩٥٠ عندما أضيف حاكم ثان (المصدر نفسه ص : ٢١٤) .

اما مدن الشرق الاوسط التي تقف في منتصف الطريق بين فاس وباريس ، فتعج بها حافلات تجوب احد احيائها ، بينما تسير النساء محجبات في حي آخر ، ولهذه المدن مشكلات ادارية لا يمكن حلها الا بمعرفة النمطين الحضاريين اللذين تستمد منهما . ولنضف الى هذه المعرفة ايضاً ، معرفة بمشاكل سكان القرى ، والفلاحين ، وسكان الخيام واليورت ، الذين يفدون المدينة للشراء والتفرج ، والذين ما زالوا يقفزون عند سماع منبهات سيارات التاكسي .

الفصل الخامس عشر

الشامات والسلاطين

لا بد لنا الآن من تفحص جملة من الحقائق القديمة الواضحة — بل هي بالغة القدم والوضوح الى حد ان السياسيين والجمهور يتجاهلونها — وتلك هي : ان العرق واللغة ليسا شيئاً واحداً ، وانه لا اللغة وحدها ، ولا العرق وحده ، ولا أي مزيج منهما تتطابق بالضرورة مع الجنسية . فكل أمة مهما كان حجمها ومهما كانت أهميتها في العالم ، تضم بين مواطنيها افراداً ينتمون الى اعراق متعددة ، او الى فروع متنوعة من العرق الواحد ، ويتكلمون اكثر من لغة واحدة . والسبب الواضح لذلك هو ان القوى التـــاريخية التي تقرر توريث العرق ، واللغة ، والجنسية ، ليست متطابقة .

واننا لنعلم ان الذي يكسب المرء عرقه هو حافز اللذة عند ابويه ، معبراً عن نفسه بواسطة اربعـــة وعشرين زوجاً من الاشرطة المسماة بالكروموسومات . ويكتسب المرء لغته من اقرانه في المدرسة واللعب ومن مربياته (ولهذا اعتبر محمد نفسه حسن الخط لانه نشأ في الصحراء

عند بني سعد المعروفين بفصاحتهم) . ويكتسب المرء جنسيته بأكثر من طريقة واحدة ، كأن يولد في مكان معين ، او ان تتوسع حدود أمة ما بحيث تشمله ، او بانتقاله الطوعي او الكرهي من دولة سياسية الى دولة أخرى .

وتعتبر الجنسية في مجتمعنا قضية موقع جغرافي وامتلاك لبعض الحقوق ، كحق التصويت ، ودفع الضرائب ، وحق المحاكمة بواسطة محلفين مساوين للمرء في المكانة ، وحق الحصول على جواز سفر . ولكن هذه الاشياء لا تصدق على جميع المجتمعات ، ولم تكن منطبقة دوماً على مجتمعنا . فما زال الرق موجوداً في بعض بلاد العالم ، وتمنع الاقليات الحرة في بلاد أخرى من حق الانتخاب . ومن البلاد من لم يسمع بالانتخاب . والانتخابات المزيفة التي يرغم كل فرد فيها على ان يصوت بالموافقة على لائحة مرشحي الحزب ، ان هي الا مظهر عصري لاستمرار وجود صاحب الجلالة الشيطانية ، المعروف بين ابناء الشرق الاوسط باسم ابليس .

ومفهوم الجنسية القديم في الشرق الاوسط يختلف تماماً عن مفهومنا ، وهو اكثر بعداً عن المفهوم الشيوعي . فهناك نوعان معترف بهما من الجنسية ، وهما عضوية المرء في شعبه وعضويته في حكومته . وقد اشرنا الى هذا الامر في الفصلين الاول والسادس ، ومن المستحسن ان نبلور هذا المفهوم الآن .

فالافراد الذين ينتمون الى أقليات غير اسلامية ، كاليهود ، والارمن ، والآثوريين ، والزوروواستريين ، واليونان ، والاقباط (وكذلك الاميركيون والاوربيون الغربيون الذين قطنوا الشرق الاوسط على مدى جيلين او ثلاثة اجيال) ، لا يعتبرون انفسهم مصريين ، ولبنانيين ، وعراقيين ، وايرانيين ، بل يهودا وأرمن ، وآثوريين ، وزوروواستريين الخ... وولاؤهم الاول «للأمة» التي ينتمون اليها ، بالشكل الذي يفهمون فيه الامة . لقد سمعت بعض الآثوريين يتساءلون « لماذا لا ينقل الرئيس

ترومان الامة الآثورية الى اميركا ، ويُقطعها وادياً في كاليفورنيا ؟ فنحن الآثوريين شعب طيب » . ومن الصعب ان نفهم بأن الرئيس ليس شاهاً من النمط الايراني السابق للعهد البولماني ، ولا قوة له في نقل الامم ، وان عملية انشاء أمم داخل أمم لا يقدر لها النجاح في دولة عصرية صناعية موحدة .

ويتلطف المفهوم الثـــاني للجنسية ـ اي الانتماء الى دولة معينة ـ بالمفهوم الاول ، وذلك لان «الامم» بموجب المفهوم الاول أمم عالمية . ويلطفه ايضاً وجود اكثرية دينية عـــامة ـ هي اكثرية الاسلام ـ والاشتراك العـــام في لغة هذا الدين ـ اللغة العربية ـ ويلطفه مرور الحجاج من بلد الى بلد ، وشبكات الطرق الصوفية التي تتجاوز الحدود السياسية ، وعالمية الطلبة حتى قبل وجود مؤسسات كمؤسسة فولبرايت (Fulbright) وكذلك المفهوم الديني للخلافة الذي كان عاملاً ملطفاً بين الحين والحين . وعندما كان ابن بطوطة يتجول من طنجة الى الصين لا بد انـه كان يجيب الغريب السائل عنه بأنه « مسلم » ولم يكن يجيب بأنه « مراكشي » او « طنجي » .

ويقول المعتقدون بحتمية العوامـل الجغرافية إن حدود الدول انما تقررها المظاهر الجغرافية والحاجات الاقتصادية مجتمعة . فمصر هي وادي النيل ، واليمن هي الهضبة الزراعية الواقعة في جنوبي شبه جزيرة العرب وساحل تلك الهضبة . ولكن الجغرافيا وحدها لا تفسر لنـــا وجود افغانستان ولا تفسر لنا لماذا تقع اقسام من ولايات ديلاوير (Delaware) وماريلاند (Maryland) وفرجينيا (Virginia) في شبه جزيرة واحدة ، ولماذا تظهر فرجينيا الغربية (West Virginia) وكأنها غواصة اصابها لغم . والعنصر الاساسي المفقود هنا هو التاريخ الذي يسجل ايضاً اثر الشعوب والامم الخارجية في هذه الناحية .

وللدولة بوجه العموم نوع من الوحدة الجغرافية . غير ان للزمن اسلوبه في تثليم الزوايا وإزالة الاجزاء التي لم تتمثلهـــا الدولة . وهذه الوحدة الجغرافية تنطوي على التنوع ايضاً ، ومن صور التنوع العلاقات المتبـــادلة بين المدن ، والحواضر ، والقرى ، والمضارب البدوية ، التي يحتاج كل منها غيرها ، والتي تقطن فيما بينها أراضي متنوعة . أما العنصر الثـــاني الذي يؤثر في شكل الدولة وحجمها فهو النسبة بين الابعاد ووسائل النقل المتيسرة ، لأن هنالك حدا لوحدة الزمان والمكان التي تستطيع أية دولة التصرف ضمنها ، مهما تكن قدرتها وكفاءتها . فاتساع اميركا يبلغ ثلاثة آلاف ميل واتساع الجمهوريات السوفيتية ستة آلاف ميل . فاذا قلنـا جدلا بأن وسائل النقل الجوي والحديدي في امريكا اكفأ من مثيلاتها في روسيا بمقدار خمسة اضعاف ، كانت المسافة بين لنينغراد ، وفلاديفستوك مساوية لعشرة اضعـــاف المسافة بين بوسطن وسان فرنسيسكو . وكانت بوسطن وسان فرنسيسكو قبل قرن من الزمن ابعد مما هما الآن بعشرين ضعفاً على الاقل . ولولا الخط الحديدي العابر للولايات المتحدة عرضاً ، لجاز ان تكون كاليفورنيا قد اصبحت أمة مستقلة . وكانت تبريز ومشهد تبعـــدان عن بعضها البعض مسافة اسابيع قبل ايام الباص ، وسيارة الشحن والطائرة . وكانت بغداد ابعد عن القاهرة بمـــا هي اليوم عن شيكاغو . وان تقسيم اراضي الشرق الاوسط الى الوحدات السياسية التي وجدت فيها في العصور الوسطى ، كانت له أسباب معقولة .

وحتى ضمن هذه الوحدات ، كان لا بد من مرور وقت طويل لتوجيه الجيش من طرف الى طرف آخر من البلاد مشياً او على ظهور الخيل . أضف الى ذلك انه لا بد للرجال والخيل ان يأكلوا ، وما لم تمر الحملة في بلاد مأهولة اضطرت لان تحمل مؤنها معها – وهذا يحتاج الى حيوانات أخرى للحمل . ويحتاج الناس والحيوانات الى الماء ، والماء

عزيز في الشرق الاوسط . وتجد الجيوش نفسها في الصحراء على مركب وعر ، وقد اكتشف الرومان ذلك حينما حـاولوا غزو شبه جزيرة العرب* . والجيوش المجندة من ابناء السهول لا تجيد الحرب في الجبال ، خصوصاً عندما يقطن تلك الجبال شعوب وطنية محـاربة ، كما جرت العادة . وقد اكتشف اكزنوفون هذه الحقيقة ، وأصاب في سحب قسم من جيشه المؤلف من عشرة آلاف اغريقي الى ساحل البحر الاسود عن طريق مضائق جبال كردستان ، ولا يستطيع التغلب على هذه الصعوبات وتحقيق النجاح بالرغم منها سوى عبقري عسكري كالاسكندر المقدوني . وما زالت اسماء مثل هؤلاء الغزاة على شفاه النـاس ، تزينها اوصاف ألصقت بها مثل «ذي القرنين» وتروى عنها الاعمال الخارقة المعجزة .

والقرية نواة الحقول والمراعي التي تطعمها ، والحاضرة نواة قراها ، والمدينة نواة منطقتهـا . ومن المألوف ان المدن العديدة التي تكون مراكز للمناطق المتلاصقة او المترابطة تصبح ، مجتمعة ، مركز الحياة لامتها . وفي هذه الحالة تصبح احدى المدن عاصمة وتنمو فوق المدن الاخرى ، او تنتقـل الحكومة بشكل فصلي من مدينة الى مدينة ويصبح لها عواصم عدة .

ويجد المرء عادة ان مناطق الحدود الفاصلة بين عواصم أمتين ومناطقها الزراعية المتحضرة ، صعبة وعرة . وهذا وضع يشبه تماماً وضع الاراضي غير المسكونة الواقعة بين قريتين ، اذ يخرج افراد القريتين اليهـا لجمع الاحطـاب وللصيد . ولكن لا بد ان يكون للدولة حدود . وقد تكون هذه الحدود كثيرة العمق . فمثـلاً اذا دخل المرء العراق من الاردن على الطريق الملاصقة لأنابيب البترول ، فـانه يبرز جواز سفره

---

* يشير الى حملة إيليوس غـالوس على بلاد العرب سنة ٢٤ق‌م. وقد وضحها استرابون جيداً ، غير انه نسب الاخفاق فيها الى تغرير الدليل النبطي بها . (المراجع)

عند نقطة الحدود تمـــاماً ، ثم يؤشر جوازه وتفتش امتعته عند آبار الرطبة ، ثم تفتش امتعته عند الرمادي او تختم هناك لتفتش في مركز جمرك مطار بغداد . غير أن الحدود طويلة يمكن للعابر ان يتجنب مخافرها .

يضاف الى ذلك ان تحركات البدو الموسمية تستدعي انتقالهم عبر الحدود السياسية من أجل الوصول الى مراعيهم . ويتنقل الجمالون والرعاة بين العراق والمملكة العربية السعودية والكويت . أما الاكراد الذين يصيفون في ايران ، فقد يقضون الشتاء في العراق . ويصعب في هـذه الحالة ان تراقب الجوازات والامتعة مراقبة كلية . ولذلك فان حكومات الشرق الاوسط القديمة كانت مستعدة لهذه التحركات التي تعتبر في مفهومنا للجنسية ، تحركات خارجة عن الاصول ، وكانت تأذن بمرورهـا خلال شبكة من مخـــافر الحدود على مدى وسيع . فاذا اراد البدوي ان يتجاوز مرعاه الشتوي ويزور المدينة ، فله الحرية في دخول الاسواق ، مهما كان المركز السياسي لقبيلته ، ما لم يكن مسلحاً . فـاذا استحضر معه بضاعة يتجر بها ، كما جرت عادته ، فانه يعرضها على مركز الجمرك القـائم خارج المدينة ، بدلاً من ان يعرضها على حدود الدولة ، اذ لا يمكن عند الحدود التمييز بـين السلع المعدة للبيع والمؤن المعـــدة للاستهلاك ، كما يصعب على موظفي الحكومة ايصال مـا يحصلونه من الاموال الى المدينة .

وهكذا يتضح لنا السبب في كون معظم بلاد الشرق الاوسط القديمة مقسمة الى مناطق تتفاوت فيها درجات السلطة المفروضة عليهـا . ففي المدن والمنخفضات والقرى السهلية ، تحكم الحكومة . امـا في الصحارى وفي اعالي الجبال ، فان السلطة بيد القبائل نفسها . ونشأ في بعض البلاد جهاز سياسي يربط القبيلة بالحكومة ، مثل قيـام الشاه الايراني بانتخاب ايلخـــاني قبيلة البختياري مرة كل سنة . وفي الاحوال الاخرى يمتلك

السلطان الهيبة ، وله خيط من السلطة بسبب مركزه الديني الرئيسي ، ومثال ذلك مركز سلطان مراكش عند قبيلة ايت اتا مثلاً .

ولهاتين المنطقتين في مراكش اسمان متمايزان ، اما الاولى التي تحكم حكماً وثيقاً فتسمى بلاد المخزن وأما الثانية التي تحكم حكماً متراخيا فتسمى بلاد «الصباع»[1] ، وهـــذا يعني حرفياً ان الاولى التي تتبع الحكومة المركزية هي «مناطق الحكومة» والثانية التي ترتخي فيها قبضة الحكومة المركزية هي «مناطق الصلف» . وهذا الصلف بالطبع انما هو في عرف الحكومة المركزية التي تعتبر منطقتها «منطقة القانون» . ويمكننا مشاهدة هذه المنـــاطق بشكل واضح في مراكش وايران ، وافغانستان . اما في مصر فلم توجد منطقتان مثلها ابداً منذ ان وحد مينا الذي تتحدث عنه الاســـاطير مملكتي وادي النيل . وسبب ذلك ظاهر ، وهو انه ليس في مصر جبـــال ، ولا صحارى مأهولة ، ولا قبائل . وكل ميل من الارض دون أسوان ؛ تنبسط عليه يد فرعون القوية ، او يد الخديوي او الملك . امـا توسع الحكومة المصرية نحو السودان في القرن التاسع عشر ، فقد كان حملة غزو على النمط الاوربي ، استعملت فيهـــا الزوارق النهرية الاوربية ، والاسلحة الاوربية ، بل والرجال الاوربيون الى حد ما .

وعلينا ان نتذكر نقـاطاً ثلاثاً فيما يتعلق بميزان القوى بين «بلاد المخزن» و«بلاد الصباع» ، وقد تحققت هذه النقاط الثلاث كلها بين حين وآخر . ففي أحد الطرفين نجد القبـائل عاصية ثائرة ، تهبط من جبالها او من صحاريهـا ، لتنهب القرى ، وتقطع الطرق ، وتوقف القوافل ،

---

(١) ان جذر هذه الكلمة غير مقطوع به . ويمكن اعادتهـــا الى احد جذور ثلاثة — السيابة — اي الحرة ، والصعبة اي الوعرة والثائرة . اما المعنى الثالث فأخوذ من الصبع أي الاشارة بالاصبع مع الاحتقار (اي الصلف) . واعتقد ان الجذر الثالث هو اطرفها ترجمة .

بل وتقتحم المدن . وقد تتوصل الى تسلم السلطة وتأسيس السلالات التي تتعرض بدورهـا للاضمحلال والسقوط . وعلى الطرق الاخرى نرى حكومة بيد رجل قوي يحكم البلاد بيد حديدية ، فيستطيع الفرد ان يترك ساعته الذهبية وسط الشارع في أية مدينة من المدن ويعود بعد ساعة ليجدها مكانهـا . وتلحظ في الشارع نفسه عدداً من المتسولين المقطوعي الايدي ، وقد قطعت ايديهم لانها امتدت الى السرقة (فاذا تعودت اذنك على سماع الهمسات ، سمعت بعض التذمرات الخافتة ، واذا تعودت عيناك على النظر الجانبي ، لاحظت النظرات المختلفة) .

غير ان هذين الضدين لا يظهران المؤسسة السياسية وهي في وضع متوازن . وقد ندر وجود هـذا الطرف او ذاك ، لحسن الحظ . وحكومة الشرق الاوسط القديمة مبنية في أفضل اشكالها على نفس المبدأ الذي يقوم عليه بنيان القرية والمدن ، ولكن على مقياس اوسع . فهي تتألف من عدد من الوحدات الفردية ، ولكل من هـذه الوحدات حياتها وتوازنها الداخلي الخاص ، ويربطها فيما بينهـا حاجة مشتركة الى التجارة والدفاع المشترك ، في نظام متراخ من العطاء والاخذ . وتساعد أجهزة لا سياسية كثيرة في المحـافظة على هذا البنيان بحيث لا تحتاج الحكومة الى عرض عضلاتها الا في أوقات الشدة التي لا غنى فيها عن قيادة عليا . ففي مثل هذه الاحوال ، كما في حال اعلان السلطان الجهاد ، او الحرب المقدسة ، يهبط رجال الجبال والصحراء الى المدن من اجل التطوع . وفي فترات التوازن يدخل الجبليون والبدو المدن بحرية تامة ، وتترك لهم معـاقلهم ، بينما يسمحون بدورهم بمرور قوافل المسافرين ، والتجار ، والحجاج فوق مناطق الصلف ، دون اعـاقة ودون ازعاج ، سوى مشاق السفر العادية .

وفي ايامنا هذه تتقاسم اراضي الشرق الاوسط التي حددناها في هذا البحث ، ثلاث عشرة حكومة مستقلة ، وخمس محميات ، ومستعمرات أو

دومنيونات ، لدول اوربية . وقد قامت حكومات أخرى كثيرة قبل الفتح الاسلامي الذي تم في القرن الثامن الميلادي والقرون التي تلته ، بينها دول امبراطورية مثل دول آشور ، والفرس ، واغريق الاسكندر ، والرومان ، والبيزنطيون . وقد واجه العرب في البلاد التي فتحوها شعوباً تعودت أنظمة معقدة من الحكم . وسهل الحصول على الموظفين والكتبة ، والمستشارين الاكفاء ، من بين افراد السكان . ولذا كان تأسيس الدولة الجديدة القائمة على الاوامر الالهية ومقتضيات السنة ، عملية سريعة ، وخالية من المتاعب نسبياً .

ولم يكن لعرب الحجاز قبل الاسلام خبرة في وحدات الحكم التي تتجاوز المدينة الصغيرة او المتوسطة . اما اليمنيون فقد كانت لديهم دول ذات تنظيم شكلي ، تتكون كل منها من اربع طبقات تتوجها طبقة من الكهنة الوراثية ، ويكاد هذا التنظيم ان يكون النموذج المسبق الدقيق لبنيان مدينة فاس . فلا يستغرب والحالة هذه ان نسمع الاسماء اليمنية تتردد كثيراً في تواريخ تأسيس الدول الجديدة خارج شبه جزيرة العرب . الا ان اليمنيين انفسهم لم يحكموا ممالك واسعة . وكانت بلادهم خلال معظم الفترة السابقة للاسلام ، مقسمة بين اربع حكومات متمركزة حول محطات الطريق الشمالية للقوافل . ولم يتحدوا في حكم المملكة السبأية الا مدة قرون قليلة .

الا ان اليمنيين ، رغم كونهم أعظم أهلية من الحجازيين لتأسيس الممالك ، كانوا مفتقرين الى الخبرة اللازمة في حكم الامبراطوريات التي وقفت تنتظرهم في الخارج ، في بلاد أخصب واكثر تنوعاً واتساعاً من المناطق الطبيعية في شبه جزيرة العرب . أضف الى ذلك ان موقفهم الاجتماعي كله وبالاخص فراستهم المدهشة في ابناء البشر ومعرفتهم بوسائل التعامل معهم ، على اساس انهم افراد لا ارقام مجهولة — هذا الموقف اعاق الادارة . فالملك العربي ينصب محكمته في كل ساعة من ساعات

النهـار . وقد أبدى الامام يحيي امام اليمن ، والملك عبد العزيز آل سعود ، صبراً عظيماً ، وقوة جسدية فائقة ، في الظهور امام رعاياهم ، وفي اظهار الحكمة في أتفه الامور وأخطرها . وقد أعطوا حياتهم كلها لرعـاياهم . ومن الواضح ان هنـالك حداً لعدد السكان الذي لا يمكن بعده تطبيق هذه الطريقة . وعندمـا خرج العرب من شبه جزيرتهم ، فانهم تجاوزوا هذا الحد كثيراً . ولا توجد الحكومات العربية الخالصة الا في شبه جزيرة العرب .

والحكومات التي انشأها الاوائل من خلفـــاء محمد في البلاد الغنية الواقعة خارج شبه الجزيرة ، بدأت دولا دينية محكوماً عليها منذ البدء بأن تتجزأ وتتصبغ بالدنيوية . لقد حكم عليها بأن تتجزأ ، لان البلاد التي فتحهـا اوائل المسلمين كانت متباعدة عن بعضها البعض ، ولم تكن قد اخترعت بعد أية وسائل جديدة للمواصلات منذ ان عرف الجمل ، ولا كانت مثل هذه الوسائل قريبة المتناول . وحكم عليها بأن تتصبغ بالدنيوية للسبب الجغرافي المضاد ، اذ بينما كانت الابعاد شاسعة لا تسمح ببقـاء حكومة واحدة ، كانت في الوقت ذاتـه صغيرة بحيث تسمح بالمنافسات التجارية ، والاصطدامات الاقليمية ، والحرب . وتنوعت كثيراً من حيث طبيعة الارض ، بحيث اصبح لكل منهـا ، الا في احوال قليلة ، اراضي الصلف الخاصة به ، ووجود مثل هذه الاراضي يعني الحرب في سنوات الجفاف .

والحرب تحتاج حكومة دنيوية . ذلك لان الكاهن يتعامل بالرموز ، اما المحارب فيتعامل بالسيوف . ومن اشهر الامثلة وأوضحها عن الحكومات الدينية حكومتا تبت المعـاصرة وبيرو في عهد الانكاي . وكلتا هاتين الحكومتين وجدتا في ظروف من العزلة الجغرافية . وفي فترات حكمهما ، كانت الطبيعة هي التي تهزم اعداءهما من البشر قبل الوصول الى بلادهما ، يوم كان هؤلاء الاعـداء مجهزين بأجهزة تقل عن مستوى تقني معين . ولم

تنشأ لديهم حاجة الى وزارة خارجية او الى جيش يزيد عن متطلبات الامن الداخلي . ولم تكن الازمات التي تعرضت لها هذه الشعوب كلها ، صادرة عن الانسان بل عن الطبيعة .

وفي استطاعة الملك الاله في التبت او بيرو او غيرهما ان ينظم الاحداث بين شعبه ، بحيث يوحدهم للبقاء في وجه العواصف وفصول الشتاء ، وفي استطاعته ان يخبرهم بالوحي الالهي الذي هبط عليه ويبلغه عن مواعيد الحرث والبذار . فاذا فشل موسم الزراعة ، استطاع الملك الالهي ان يختار الذين سيأكلون والذين سيموتون جوعاً ، لئلا يستهلك الطعام كله فوراً ويهلك الجميع قبل الحصاد التالي . وفي ميكرونيسيا (Micronesia) حيث يسبب المد والعواصف نقصاً في المؤن الى حد خطير ، يستطيع الرؤساء الالهيون ان يتغلبوا على هذه المحنة[٢] ، اذ انهم يستعملون الرموز والاشارات الملكية التي يستجيب لها الناس بالطاعة والنظام بشكل يفوق كل ما يمكن تحقيقه بأي تشريع . هذا وان الملك الكاهن قادر على ان يوقف شعبه حيث يشاء لانهم يثقون به ، ولكنه غير قادر على ان يوقف الاعداء الذين يعبدون إلهاً آخر او يكفرون بالله (كما اكتشف الدلاى لاما عندما دخل الصينيون الشيوعيون وكرد القارس) .

كانت الدولة الاسلامية الاولى دولة دينية ، مبنية جزئياً على النمط اليمني . واليمن هضبة شبيهة بالتبت . ويظهر انه لم يخطر ببال الخلفاء الاوائل مفهوم العلاقات الخارجية التي تقيمها أمة مسالمة أثناء تعاملها التجاري مع الامم المساوية لها . فقسم العالم الى دار الاسلام ودار

---

(٢) اني مدين لزميلي الدكتور وارد جودناف (Dr. Ward Goodenough) في هذا التحليل والتفسير .

الحرب . اما دار الاسلام فهي دولة العرب ، وأما دار الحرب فهي العالم الخارجي ، المصنف الى نوعين من البلاد : بلاد يسكنها اهل الكتاب ، واخرى يسكنها المشركون . فأما اهل الكتاب فلا بد أن تفتح بلادهم ويحملوا على دفع الجزية . واما المشركون فليس أمامهم سوى الاسلام او السيف .

ومن الواضح ان هـذا المفهوم لم يكن واقعياً ، ولكن التوسع الاسلامي الاول كان مستمراً بحيث لم يقو اي اصطدام مع الدول الاجنبية على تعديله . وجاء الانقسام في داخل المجتمع الاسلامي نفسه ، عندما تجزأت دار الاسلام الى دور كثيرة . ولم تكن الحروب بين هذه الاجزاء مهمة اذا قورنت بالحروب الحديثة . وأهم من هذه التجزئة تقسيم البلاد الى دار السلام ودار الصلف . فرجال القبائل ، رغم دخولهم في الاسلام ، كثيراً ما خلقوا داخل المملكة متاعب تزيد عن المتاعب التي يخلقها عالم المشركين الخارجي التابع لدار الحرب . وهكذا نشأ وضع خاص ، اذ اصبحت السلطة العسكرية حاجة مستمرة . ومع ذلك بقي للمفهوم الديني أهميته ، اذ انه مكن الخليفة او السلطان من تهدئة القبائل من حين لآخر ، واستخدم لهذا الغرض رجال الدين الذين خُلِع عليهم جزء من قداسة الخليفة . واتخذت الحكومات الاسلامية شكل المصالحة . فاعترف حكامها بالصفة الدولية لدار السلام كمجموع واحد ، وسمحوا للتجار والحجاج ، والاخوان الصوفيين ، والعلماء ، ان يتجولوا فيها بحرية تامة . وتسلم هؤلاء الحكام انفسهم قيادة الجيوش في احوال الحرب ، اما ضد الكفار والزنادقة الذين لم يعتبروا في وقت من الاوقات في حـالة صلح معهم ، او ضد الثائرين من رعـاياهم ، آملين ان تفتر مقاومتهم الى حد ما ، بسبب ما للحكام من سلطة مقدسة .

ولم يبق من أثر لهذا النظام الشاذ في الحكم الا في اطراف العـالم الاسلامي . اما في المركز الثقافي والجغرافي فقد انبثقت اشياء أخرى .

ويتفق علماء المسلمين ، ان لم نقل جميع المسلمين ، بأن الخلافة الصحيحة التي تمثل الوحدة الاسلامية انتهت بوفاة عثمان ، ثالث الخلفاء الراشدين المنتمين الى جيل النبي محمد . ومع ان الخلافة العباسية التي قامت في بغداد كانت في نظر الاكثرية ، صاحبة الحق في الخلافة ، الا ان رئيسها لم يكن امير المؤمنين كلهم . وبعد ان انتهى عهد هذه السلالة (على قهقهات هولاكو) ، نشأت حاجة الى شيء جديد . ولحسن الحظ كان هذا الشيء قريب المنال ، فقد نشأت الامبراطورية العثمانية الفتية ونمت في الشمال الغربي وفي اقسام بر الاناضول التي تتوفر فيها المياه . وكانت هذه الحكومة الجديدة التي ضمت بالتدريج الدول الاسلامية من ألبانيا الى حدود ايران ، مزيجاً من عناصر متنوعة الاصول . فقد أسهم اليونان البيزنطيون ، والفرس ، والعرب ، كلٌ بنصيبه لتكبير النواة التركية . وان محاولة تحديد ما قدمته هذه الامة او تلك ، لمن المسائل العلمية التي تخرج عن نطاق هذا الكتاب . ويكفي ان نظهر هنا كيف اديرت هذه الامبراطورية وما كان بالامكان تقديم هذه الصورة ، لولا نشر المجلد الاول من دراسة عظيمة(٣) ، نوصي القارىء بقراءتها لمعرفة التفاصيل الوافية . وقد اخذنا منهـا جميع الامور التي سنوردها في الصفحات الاثنتي عشرة التالية .

لقد مرت الحكومة العثمانية الامبراطورية بتغيرات كثيرة في الحجم والقوة والشكل على مدى ستة قرون ونصف قرن من حياتها . ولن نستطيع

(٣) Gibb and Bowen, Islamic Society and the West, Vol. I, pt. I, and Volume to follow.

تتبع كل مؤسسة من المؤسسات التي كونتها حتى نهاية دورتهـــا ، بل سنحاول ان نصف الصورة الاجماعية للامبراطورية في الفترة الواقعة بين احتلال الضفاف الغربية للبوسفور سنة ١٤٥٣ب.م. ونهـاية الفترة التي يصفها جب وبوين (Gibb and Bowen) بأنها الفترة الفضلى سنة ١٧٦٧ب.م. وسنلقي بعض النظرات العـابرة التي تتجاوز النطاق الزمني المحدد على هذا الشكل . وهذه الفترة هي فترة اكتشاف واستعمار حققتها الدول الاوربية الغربية في اجزاء أخرى من العـالم ، وهي المدة الزمانية التي تفصل القرون الوسطى العربية عن بزوغ الثورة الصناعية التي واجهت الشرق الاوسط عندما تهاوت الامبراطورية العثمانية .

وبعد ان وضعنا حدوداً زمانية واسعة وغامضة ، علينا ان نكون اكثر تحديداً من النـاحية الجغرافية . فان مركز الامبراطورية العثمانية يقع على البوسفور . وأغنى اقسامها واكثرها سكاناً هما الروملي والاناضول ، اي بلاد البلقان التي ضمت في وقت من الاوقات بلاد المجر ايضاً ، وآسيا الصغرى . وأمطار هذه المناطق تزيد كثيراً عن امطار المناطق التي يبحثها هذا الكتاب ، فضلاً عن انها اكثف سكاناً منها . وكان سكانهـــا وما زالوا ، اصنافاً متنوعة من النصارى ، بينهم الارمن ، واليونانيون ، والالبانيون ، والبلغاريون ، والرومانيون ، والصرب ، والكرواتيون ، والمجر ، وأصناف أخرى متعددة من المسلمين ، منهم الاتراك والاكراد والنصارى الذين دخلوا في الاسلام . ومعظم النصارى من الروم الارثوذكس ، ومركزهم الديني في استانبول ــ العاصمة العثمانية . امـــا المسلمون فكلهم تقريباً من السنة ، وأصبح مركزهم ايضاً في استانبول ، بعد ان اتخذ السلطان لنفسه لقب الخليفة . وكان الكاثوليك الرومـانيون ، والشيعة يعتبرون من الغرباء دينياً وسياسياً ، ويعيشون في أطراف الامبراطورية . وقـد كان وجودهم على الحدود سبباً في ايجاد حسن الوحدة النسبية بين اليونان والمسلمين .

بدأ الاتراك تاريخهم وثنيين شامانيين ، وخيروا بين الاسلام والنصرانية . وقد مروا في طريقهم التـــاريخية من أواسط آسيا حتى بر الاناضول والروملي ببلاد اسلامية ، وتعرضوا تعرضاً قوياً للحضارة الاسلامية . الا ان ثقافتهم نمت في المركز الخصيب من ملكهم - وهو النواة البلقانية - الاناضولية - على اساس حكم ارستقراطية تركية مالكة للأراضي ، لسكان متحضرين ينتمون الى ديانتين ، وكان المسيحيون في بادىء الامر يشكلون كثرة السكان . وعندمـا وسع الاتراك حكمهم في البلاد المتكلمة باللغة العربية ، لطفوا ممـــارستهم للامتيازات الارستقراطية ، وأظهروا كرماً خاصاً ازاء الشعوب التي تتكلم لغة القرآن ، والتي انحدر منها الرسول . وفي الوقت نفسه انشأوا اشكالاً من الحـــكم لم يكن الرسول العربي ليتوقعها ، وقد بقيت هذه الاشكال بصور معدلة ، الى يومنا الحاضر .

اما الاشخاص الذين استعان بهم السلطان لحكم امبراطورية تمتد من الجزائر حتى العراق ، ومن شبه جزيرة القرم الى اليمن فكانوا جمـاعة مختارة من المسلمين والنصارى ، قل وجود العرب بينهم ، الا في الفروع الدينية . وكان هؤلاء الاشخاص مقسمين تقسيماً جـــامداً الى مراتب محددة تحديداً واضحاً ، لكل منهـا شاراته ، وألقابه وامتيازاته . وقد جـاء الاتراك معهم برمزين عسكريين من آسيا الوسطى هما راية ذنب الياك ، والطبل . وربما كانت ندرة الياك (نوع من البقر) سبباً في اتخاذ ذنب الحصان بدلا منه . وكانت هذه الذيول تعرف باسم طوغ . وقد رتب الموظفون على اساس الطوغ ، فأعلاهم له خمسة طوغات وأقلهم له طوغ واحد . اما السلطان نفسه فتتكون رايته من سبعة طوغات او تسعة مثبتة في سارية تعلوها كرة ذهبية . وقد وسع الطبل فأصبح فرقة موسيقية عسكرية ، تعزف في بيت الموظف مرتين في النهـــار ، في

اوقات صلاة العصر والمغرب ، وكان عدد الآلات في الفرقـــة رمزاً للرتبة ، وهذا يشبه عدد عازفي القرب الذين يسمح بسيرهم امام رئيس القبيلة السكوتلندية او الايرلندية ، ويشبه عادة شعوب الكلت بأن يخصص للموظفين حرس مزخرفة ألبستهم ، ويختلف عـــددهم باختلاف مرتبة الموظف .

وقد اختار الاتراك من بين الالقاب الشائعة في اللغات التي تعرفوا اليها ، ألقاب الوزير والباشا ، والبك (اولها عربي وثانيها فارسي وثالثهـا تركي) واعتبروهـا محددة للرتبة . وخصص لكبير الوزراء خمسة اطواغ ولسائر الوزراء ثلاثة . اما الباشوات فقد صنفوا على درجتين لاحداهما ثلاثة طوغات وللثانية طوغان ، وخصص طوغ واحد للبكوات . وتنوعت الموسيقى والحرس بنفس الطريقة . ومع ان الامبراطورية العثمانية دخلت في التاريخ قبل ان يولد معظم قرائنا ، فما زالت هذه الالقاب تظهر في الصحافة اليومية اذ يقرأ المرء ان احد الباشوات اصبح رئيساً لوزراء مصر ، او ان ناجي بك الاصيل المدير العام للآثار في العراق أعلن من مقر عمله في بغداد عن اكتشاف أثري جديد . وان استبقاء هذه الالقاب ليذكرنا بأثر الامبراطورية العثمانية في تأسيس الحكومات الحديثة في البلاد العربية التي كانت في وقت من الاوقـــات تابعة الى تلك الامبراطورية .

واستطاع الاتراك العثمانيون ان يسيروا جنباً الى جنب في السباق مع الامم الاوربية النصرانية لانهم انشأوا نظاماً من تقسيم العمل قادراً على ان يتوسع الى بيروقراطية معقدة ، ولانهم استخدموا اعداداً كبيرة من الاوربيين ، ولانهم شابهوا الاوربيين في استعمال الخيالة ، والاسلحة النارية ، وانشاء الاسطول . وتمكنوا كالاوربيين من فتح أرض غير ملاصقة لهم من البحر . ولم يكن تداعي الامبراطورية العثمانية ونمو الامم المسيحية ناجماً في الغـالب عن المنافسة بينها ، بل عن الانحلال

الداخلي في الامبراطورية ذاتها . وهذا الانحلال بدوره ناجم عن عدم مرونة النظام ، وهو مثال عن المبدأ القائل بأن السلطة المطلقة تورث الفساد . ولا بد لنا ان ندرس شكل هذا النظام لنستطيع تفهم اسباب انحلاله .

يفترق النظام العثماني عن نظام العرب في مفهومين رئيسيين : المفهوم الاول يتعلق بموقف الخليفة وواجباته ، والمفهوم الثاني يدور حول الرق . فالشيخ العربي حاكم قضائي ، ووظيفته الفصل في الاختلافات بين افراد شعبه أنفسهم وبينهم وبين غيرهم . وهو لا يضع القوانين بل حتى لا يستطيع ان يكون قائداً حربياً . وقد اتخذ محمد سلطة تشريعية ، بل أوجد في الواقع نظاماً قانونياً كاملاً هو الشريعة الاسلامية . وأصبح منفذاً ايضاً . وبقي على اتصال بشعبه حتى عندما ارتفع عدد صحابته الى عشرات الالوف .

ومع ان السلطان التركي اتبع الشريعة التي جاء بها محمد ، فقد أوكل ادارتها الى جماعة من رجال الدين هم العلماء . وتنازل ايضاً عن الامور القضائية المدنية ، وسلمها الى نظام من المحاكم المدنية ، وركز جهوده في الاعمال التنفيذية المختصة بمركزه . واتخذ جانب العزلة المتزايدة في اعماله التنفيذية ، حتى لم يعد شعبه يراه الا نادراً . واخذ يحكم عن طريق الوسطاء بواسطة مراسيم عرفت باسم « القانون » .

ولم يكن لدى العرب في أي وقت من الاوقات أعداد كبيرة من العبيد . وكان معظم هؤلاء العبيد خدم منازل منحدرين من أصل افريقي ، لا يتزاوج الحر معهم او مع انسالهم . اما الاتراك فقد اختلفوا عن ذلك بأنهم اعتبروا جميع الكفار المفتوحة بلادهم وجميع النصارى الذين قاوموهم ، عبيداً . ولم يكن العبد في نظرهم مجرد خادم ، بل هو قادر على اكتساب العلم ، والتهذيب ، وتحمل المسؤولية ، فاذا كان امرأة

فلا ضير في ان تكون ام البنين ، وقد يكون العبد رجلاً مخلصاً يثق به المرء ازاء اخوته والحاسدين له . مثل هذا العبد كان مرشحاً منطقياً للمناصب العالية ، بكل ما يرافقها من الرتبة والموسيقى وذيول الخيل . بل كانت الوظيفة التالية للعرش نفسه من الوظائف التي يستطيع ابناء العبيد ان يشغلوها ، وكانوا عادة يشغلونها فعلاً . وأصبحت الحكومة التركية حكومة عبيد ، لان السلطان كان في حريمه محاطاً بالجواري ، وبينهن امه ، وكان يحرسه خصيان العبيد ، ويخدمه فتيان وخدم من العبيد ، الذين ينقلون اليه الرسائل المرسلة من الموظفين العبيد . واذا كان المرء عبداً فهذا لا يحط من مقامه الاجتماعي ، ولا يعتبر ارفع منه الا السلطان نفسه .

من اين جاء جميع هؤلاء العبيد ؟ جاء معظمهم من بلاد جنوب شرق اوربا واواسطها ، وهي البلاد التي اتسعت على حسابهـــا الامبراطورية العثمانية . وكان للسلطان الحق في خمس الغنائم بوصفه اميراً للمؤمنين ، وكان كثير من هذه الغنائم من البشر . وأخذ موظفوه يختارون المئات من الفتيان الاقوياء الوسيمين ، النبهاء وهم من الصغر بحيث يمكن تلقينهم العقائد تلقيناً كاملاً ، ويرسلونهم الى العاصمة ليلتحقوا مع عبيد الباب . وعندما وصل الاتراك غاية الفتح ، استمروا في استجلاب هؤلاء الفتيان عن طريق الجباية . ولكن ما ان أزف القرن الثامن عشر حتى وجد النصارى طرقاً لافتداء ابنائهم ، بينما وجد الاتراك طرقاً لايصال ابنائهم الى المدارس التي تدرب عبيد الباب ، والتي كانت مفتاح المناصب العالية . وهنا تدهور النظام كله ، فتراخى انضباطه ، وانهارت كفاءته .

وعندما كان الفتيان يصلون الى استانبول ، كان اساتذتهم يدرسونهم بعناية ، ويصنفونهم الى فئتين : الخدم (ايش اوغلان) والاجانب (عجمي اوغلان) . وكانت الفئة الاولى تختار على اساس الكفاءة الذهنية ، وتختار الثانية على اساس اللياقة البدنية والنشاط . وتدرب كل فئة على حدة

تدريباً خشناً ، فيذهب الخدم الى القصر القديم حيث يتعلمون اللغـــة العربية ، والفارسية ، والشريعة ، ورمي السهام ، والرماية والفروسية ، والرماحة ، والعلوم العسكرية ، والموسيقى ، وكان المعلمون من الخبراء وبينهم بعض الخصيان البيض والمختصين بأمور الدين . ولم يتيسر لاحد تعليم أفضل من هذا التعليم ، باستثناء واحد هو ابناء العائلات الاسلامية الرفيعة الذين كانوا يتلقون العلم في الجامعات ليصبحوا من «العلماء» ، ولم يكونوا يدرسون العلوم العسكرية . فاذا تخرج الخدم استلموا الوظائف من اول مراتبها ، من الخدمة المنزلية في القصر الى المراكز التي تمكنهم من خدمة السلطان شخصياً ، ثم يصلون بالكفاءة والمحسوبية الى وظائف الحكومة العالية بما فيها ولاية المقاطعات ، ومركز الصدر الاعظم .

اما الفتيان الاجانب فيرسلون الى الثكنات ثم يقسمون الى فئتين : الذين يتكلمون اللغة التركية والذين لا يتكلمونها . فيؤجر الذين لا يعرفون اللغة الى الاقطاعيين من ملاك الاراضي حتى يتعلموا اللغة ، ثم يدرسون من جديد ويوزعون الى ستة «اوجاق» او مجموعات . وكان معظمهم يذهبون الى مجموعات الخولية ، والحطابين ، وصانعي السلاح ، وبحارة الاسطول ، والمشاة . وكانت المجموعة الاخيرة تدعى الانكشارية ، وهي اشهر المجموعات وأوفرها عدداً . اما الفتيان الذين يغلب عليهم الغباء او الشراسة ، او كلاهما ، فيوضعون في مجموعات من العمال الذين يؤجرون لقاء العمل .

ولعبت ثلاث فئات أخرى من العبيد ادواراً خاصة . فالذكور من ابنـاء النصارى الذين كانوا يؤسرون بعد ان يتم نضجهم ، لا يصلحون للتدريب ، لكبرهم ، ولا للثقة ، لمـــا في نفوسهم من مرارة . فكانوا يرسلون الى الاسطول ليجذفوا جنباً الى جنب مع المجرمين . وأناث النصارى اللواتي يؤسرن او يشرين في صباهن يدخلن الى الحريم ، فيعلمن الامور النسائية كلها بما فيها الموسيقى والخياطة . وكان بضع مئات من

ذكور العبيد الذين يؤسرون قبـــل سن المراهقة يخصون . وهؤلاء الخصيان على نوعين بيض وسود ، فالبيض مستجلبون غالباً من القفقاس والسود زنوج سودانيون يرسلهم حكام مصر . وكان الاقباط هم الذين يخصون هؤلاء ، لان الشريعة الاسلامية تحرم على المسلم الاقـدام على هذا التشويه .

هذا الاعتماد على العبيد في ملء مراكز الحكم ، لم يأت به الاتراك بهذا الشكل من اواسط آسيا ، مع ان بذوره ظاهرة في انظمتهم السياسية البدوية السابقة . بل جاء به توسع الامبراطورية العثمانية السريع ، وقد طبقت فيه حرفية نصوص الشريعة ان لم نقل روحها . فالاتراك الذين ابتدأوا هذه الفتوحات كانوا قليلي العدد ، وكلهم من المحـاربين . ومع ان النظام الجديد لم يحفظ لهم المراكز العالية ، الا ان مكافأتهم حفظت لهم ، فمنحهم السلاطين البلاد المفتوحة ليسكنوها ، رعاة ، ومزارعين في الاراضي الجديدة او الاراضي التي انخفضت اعداد سكانها . وأصبح بعضهم سادة اقطاعيين فوق الفلاحين الاصليين . وكان ينتظر من هاتين الفئتين تقديم الجنود المسلحين ، وتقديم انفسهم في اثناء الحرب ، ولكنهم تركوا احراراً للقيام بواجباتهم الزراعية في أوقات السلم . وهذه المكافأة ذاتها جعلتهم في موقف اقل امتيازاً اذا ما قورنوا بالعبيد . فلقد انزلقوا الى الغيرة والحسد ، فلم يعودوا يؤتمنون على الوظائف السياسية ، وزاد في الوقت نفسه تعلقهم بأرضهم ، فلم يعد بالامكان تعبئتهم كحرس دائم .

وكان التحاسد مشكلة داخل القصر ذاته . فان السلطان محمد الثاني ، فاتح القسطنطينية (١٤٥١ – ١٤٨١ب.م.) اراد استبعاد الاضطرابات التي قد تنشأ في لحظة انتقال الملك ، فأصدر قانوناً بأن على ابن السلطان المتوفى الذي يؤول اليه الملك ، ان يقتل جميع اخوته . ونستطيع ان نتفهم هذا القلق من جانب محمد ، لان السلاطين استغنوا عن الزواج ، وخلفوا عشرات من الابنـاء ، وكانت أم اي منهن تعتبر سعيدة جداً

اذا اصبحت ام السلطان . وعلى أي حال جـــاء وقت استطاع فيه المرشحون للقتل ان يلغوا هذه القاعدة . وبدلاً من ذلك جمع ابنـــاء السلطان الحاكم في اجنحة خاصة بهم في القصر وجعل لكل منهم حريمه وخدمه وخصيانه . وكان ابناؤه يقتلون حال ولادتهم . فاذا حان موعد انتقـال العرش ، خرج احد هؤلاء الاسرى المدللين من القصر ، ليرى العالم الخارجي لاول مرة في حياته واصبح هو السلطان الجديد . وقد استعملنا تعبير « احد الاسرى » لأن قاعدة الوراثة بدورها نالها التغيير . وعندما مات احمد الاول سنة١٦١٧ب.م. كان ابناؤه كلهم صغاراً ، ولذا اختير اخوه المجنون مصطفى الاول للعرش . وأخذت ولاية العهد تنتقل بعد ذلك بموجب القانون ، للاخوة ، والاعمام والاقرباء قبل الابناء . وبما ان هؤلاء الاقرباء الاباعد كانوا يحيون حياة محدودة جداً ، فان تعليمهم وتجاربهم لم تؤهلهم للحكم ، وزاد في قلة كفاءتهم لوثة جنون وراثية . ولو ان نظام عبيد الباب استمر في شكله الاصلي ، لما كان شخص السلطان مهماً ، ولكن هذا النظام ايضاً كان قد تداعى وانبثقت من هذا المزيج بذور الانحلال .

وكانت الحكومة التي يرأسها هؤلاء السلاطين شكلية الى اقصى حد ، ومجزأة غاية التجزئة ، وما لبثت ان فقدت مرونتها . وكان على رأسها المقر السلطاني ، وتحته فرعان رئيسيان كان موظفوهما يعرفون برجـال القلم ورجال السيف . فأما رجال القلم فهم المسلمون الاحرار ، ويشملون «العلماء» والقضاة ، والشيوخ ، والاطباء ، وطلبة الحرف العلمية والشريعة المقدسة . وعلى رأسهم جميعاً شيخ الاسلام وله رتبة وزير . ويمثله القضاة العـــاملون في كل ولاية من ولايات الامبراطورية . وتعين تنظيماتهم وواجباتهم بموجب النمط الاسلامي الاعتيادي الذي سبق وصفه .

الا ان المقر السلطاني ورجال السيف كانوا عبارة عن مؤسسات بالغة التعقيد ، تتضمن تقسيماً للعمل ، ولا بد لنا اذا اردنا وصفه بشكل غير فني ان ننظر اليه على اساس من التعميم الكبير . فالاتراك يختلفون عن

العرب في انهم أوجدوا مؤسسة سياسية لها من التعقيد والمرتبية مثل ما لاية مؤسسة أوروبية معاصرة لهم، مع اختلاف في النمط .

فالمقر السلطـاني يتكون من سكان القصر الملكي في استانبول ، وكذلك من سكان القصر القديم الذي خصص معظمه للاشخاص الطريدين . وكان هذا المقر نموذجاً لمنـازل كبار الموظفين الذين يقلدونه على نطاق أصغر ، واستعمل في الوقت ذاتـه مدرسة لتدريب موظفي الادارة . وقد بلغ عـدد سكانه بضعة آلاف من البشر المختلفي الرتب ، بينهم الذكور والاناث والخصيان الذين ينتقلون بمقادير متنوعة من الحرية في اقسام القصر الثـلاثة المعروفة باسم الحريم ، والبلاط الداخلي ، والبلاط الخارجي . فاما مصطلح الحريم فلا يحتـاج الى ايضاح . ويتألف البلاط الداخلي من غرف السلطان ، بينما يتألف البلاط الخارجي من المنطقة التي تجري فيها اعماله الخاصة مع العالم الخارجي . وكان بين البلاط الداخلي والحريم قسم يدعى « المابين » ، يسمح فيه بدخول الخدم والحلاقين . وبين البلاطين الداخلي والخارجي قاعة العرش التي يستقبل السلطان فيها النـاس . وهكذا كان السلطان في مركز مناسب بين نسائه ، ورعاياه الذكور .

ويتألف سكان الحريم من النساء ، واطفالهم ، ومن الخصيان ، فضلاً عن أقرباء السـلطان الامرى المقيمين في اجنحتهم ، وبما ان السلاطين لم يعودوا يتزوجون بعد محمد الفـاتح ، فقد اعتبرت جميع النسـاء من المحظيـات . وكانت المحظيات يرتبن في مراتب اربعة . فأعلى الرتب هي رتبة قادن ولا يزيد عدد صاحباتها عن اربع يرتبن ايضاً اولى فثانية حتى الرابعة . وكان لهؤلاء السيدات اجنحتهن الخاصة ، وحماماتهن ، وخصيانهن . وبعدها تأتي مجموعة المحظيات المفضلات جديـك لي ، ومنهن تختار مجموعة القادن . والمجموعة الثالثة هي مجموعة شاكرد ، المؤلفة من الفتيات اللواتي يتعلمن الموسيقى والرقص والحياطة ، والتطريز

والقراءة والكتابة . وهن في طريقهن الى ان يصبحن في عداد المحظيات المفضلات . فهذه الرتب الثلاث تقوم اذن على اساس السن الى حد ما . وبعدها تأتي سائر النساء اللواتي لا يمكثن العمر في الحريم ، وهن من عامة الخدم .

وقبل محمد الفاتح ، كان السلاطين يتزوجون الاميرات المسلمات والمسيحيات ، ولكن اصبح نساء الحريم بعده جميعاً من الجواري والاجانب – وكان معظمهن يستجلبن من اوربا حتى القرن السابع عشر عندما قل العرض ، فأصبحن بعد ذلك يستجلبن من القفقاس . وكان هؤلاء النساء يأتين معهن الى البلاط بمقدار عظيم من التأثير الثقافي الاوربي ، رغم حداثة سنهن وقت دخول الحريم . وقد لعبن دوراً في نشر هذه الثقافة خارج البلاط ايضاً ، لأن معظم النساء اللواتي دخلن الحريم كن في النتيجة يحررن ، ويمنحن الى الموظفين الطموحين المتشوقين الى دخول المقر السلطاني عن طريق زوجاتهم اللواتي يحتفظ لهن بحق الزيارة . ولكن سيدتين من رتبة جيدكلي كانتا تستبقيان في الحريم بشكل ثابت ، وتعتبران موظفتين فيه ، وهن الناظرة والخازنة . ويقيم السلطان في الحريم حيث يتم صلواته ويستقبل قريباته من النساء . وكان يلبس خفاً من الفضة يرن وقعه على الأرض المصقولة فتتفرق النساء ويختبئن حتى يمر ، او حتى يدعوهن للحضور .

وكانت الدعوة اليهن توجه عن طريق خصيانه البالغين مئتين عدداً . وكان خصيان الحريم حتى سنة ١٦٠٠ب.م. من البيض ، ثم خلفهم الخصيان السود في ذلك ، وأخرجوا الخصيان البيض المغلوبين على أمرهم الى البلاط الداخلي . وسمي رئيس الخصيان السود « دار السعادة آغاسي » ، وكان له المقام الثالث بين رعايا السلطان بعد الصدر الاعظم وشيخ الاسلام ، وله رتبة وزير ، وله الحق في راية مؤلفة من ثلاثة اذناب . وله الامتياز الرفيع في نقل الاوراق بين الصدر الاعظم والسلطان ، وصلاحية ادارة

الاوقاف المقدسة للحرمين الشريفين في مكة والمدينة . ويليه هو وزملاؤه في المرتبة خازن الحريم ، اما باقي الخصية السود فيقسمون الى درجات اربع يمكن الوصول اليها بالأقدمية العادية .

ويقطن البلاط الداخلي افراد الخدمة الداخلية . ويتألف هؤلاء من الخصية البيض والخدم . ويرتب الخصية البيض ايضاً على درجات ويرأسهم ضابط يسمى « السعادة آغاسي » ، لأن وظيفته المباشرة هي حماية الباب الواقع بين البلاط الداخلي والحريم ، بواسطة ثلاثة فصائل او اربع من الخدم الذكور ، يرأس كل فصيل منها خصي أبيض . والخصية البيض اعضاء دائمون في هذه القوة . ومن اعضائها ايضاً بعض البكم والاقزام . ومزية البكم انهم يصلحون سعاة لأنهم لا يستطيعون وصف المناظر الخاصة التي يشاهدونها ، ولا اعادة الاحاديث التي يسمعونها . اما الخدم فيؤخذون من بين الفتيان النبهاء الذين يجلبون الى باب العبيد ، ويلحق هؤلاء بالخدمة الداخلية لاتمام تعليمهم . وكان النابهون منهم يسلمون المناصب الحكومية في أماكن اخرى بعد سن الخامسة والعشرين . وقد فرض عليهم ان يؤخروا زواجهم الى ما بعد انهاء واجباتهم ، كما فرض على غيرهم من عبيد الباب .

وفي الخدمة الداخلية اربع دوائر : الغرفة الكبرى ، والصغرى ، والمخزن ، والخزينة ، والغرفة الخاصة . وكان الخدم يدربون أولاً في « غلاطة سراي » ، ثم يرسلون الى الغرفة الكبرى والصغرى من اجل الدراسة العليا . ويعلمهم اساتذة من الخصية البيض (خوجا) ، وشيوخ من شاكلتهم . ثم يوزعون بين الدوائر الثلاث . والمخزن مسؤول عن طعام السلطان ، والخزينة عن امواله الخاصة ، والغرفة الخاصة عن زينته وألبسته وراحته العامة . وعلينا ان نلاحظ نقطتين اولاهما انه كان هنالك تميز بين اموال السلطان الخاصة ، وخزينة الدولة ، وفي هذا عودة الى العادة التي اتبعها اوائل الخلفاء المسلمين ، ثم أهملت من بعدهم .

والثانية ان واجبات الحلاقة للسلطان ، واطعامه ، ومساعدته على ارتداء اللباس ، اعتبرت بالغة الاهمية ، لانهـــا اعطت للشبان المحظوظين الذين كانوا يؤدونهـــا فرصة استجلاب اهتمام جلالته . وكان هؤلاء الفتيان يخلفون بعضهم بعضاً على اساس دوري ، كلما رقي ســـابقوهم الى المناصب المهمة .

والخدمة الخارجية ، كما نعلم من اسمها ، كانت تؤمن تفاصيل علاقات السلطان المباشرة مع العـــالم خارج القصر ، باستثناء الحكومة الداخلية والعلاقات الخارجية . فتضمنت لذلك انواعاً من الدوائر لكل منهـــا ضباطها ورجالها المختصون . وكان الضباط يسمون أغوات الركاب «أغاياني ركابي همايون» ويعدون سبعة عشر بينهم تسعة يحملون رتبة فريق . وقد ظلت اربع من وظائفهم ثابتة طول العهد العثماني ، وهي : حامل الراية «مير علم» الذي كان مسؤولاً عن راية السلطان ولها ستة او اكثر من اذناب الخيل . وكان ايضاً يوزع الرايات المختلفة الرتب على الموظفين المرفعين . ومن وظائفه ادارة الفرقة الموسيقية السلطانية والاشراف على مجموعة خاصة من السعاة . ثم سيد الحصان الاعظم «بيك مير أخرلر» المسؤول عن اصطبلات السلطان ومراعي خيله . وسيد الحصان الاصغر «كجك امير أخرلر» المسؤول عن دواب النقل والعربات التي تسير بالعجلات ، وملاحظ البوابين «قبيجي لر كخياسي» المسؤول عن الابواب الخـــارجية الموصلة الى بلاط الحريم الاوسط ، فضلاً عن كونه مدير التشريفات في الديوان الشاهاني . والى جانب هؤلاء الاربعة من اغوات الركاب كان هنالك آغـا خامس هو رئيس الحولية وتحت امرته آلفان من الفتيان المنتقين من بين الفتيان الاجانب ، يسمى أحدهم «بستان جي» وقل بينهم من كان يقوم بأعمال البستنه . وكان من بين صلاحياتهم ان يعملوا حرساً خاصاً في بعض الاحيـــان ، ويحرسوا اراضي الاملاك السلطانية ، ويراقبوا الموانىء والملاحة ، ويجذفوا قـــارب السلطان ،

ويهتموا بالممثلين والهزليين الذين يستجلبون الى القصر لتسلية السلطان ، ويعذبون الموظفين ويعدمونهم ، مهما علت رتبهم ، اذا صدرت اوامر السلطان بذلك .

ويلي اغوات الركاب خمسة مفوضين يسمى كل منهم الامين . وكان اربعة منهم مسؤولين عن المدينة ، وصك النقود ، والمطبخ السلطاني ، والاصطبلات الشاهانية ، وبالتالي تناولت مسؤوليتهم تأمين القمح للمدينة . والخامس سكرتير مالي لامين المطبخ السلطاني . وتحت امرة الامناء عدد من الفصائل الخاصة ، بينهـــا فصيل الحطابين واربع فصائل من الحرس . وكان للحطابين واجبات بعيدة عن التحطيب ، مثل مساعدة رئيس الخصيان على ادارة الاوقاف ، وحراسة اقسام من القصور القديمة والجديدة . وقد خصصت لفصائل صغيرة أخرى مسؤولية تأمين الاغنام التي تضحى احتفالا بعيد الاضحى « قربان بيرمي » وأعمـــال الخياطة والسكافة في القصر .

اما تنظيمات الحرس فقد تكونت من رماة النبال وهم اربع سرايا تتألف كل منها من مئة شخص ، ومن الحرس الداخلي ويعد مئة وخمسين رجلا ، ومن خمس عشرة سرية تتألف كل منهـــا من اثنين واربعين جاووش ، يخدمون مرشدين في القصر ، ومن الحرس الشريف المسمى المتفرقة ، ويتألف من مئتي رجل أحسن اختيارهم ، يلبسون بدلات فائقة الابهة ويركبون خيولا بالغة الروعة . وهذا الحرس الذي يبقى الى جانب السلطان في معاركه ، يتألف من ابناء البارزين من عبيد الباب السابقين ، ومن أفضل الخدم ، وبعض ابناء الحكام التابعين .

(والى القــارىء هذه النبذة عن الجاووش . اذا اقتربت من باب القنصلية الاميركية العـــامة في طنجة قام اثنان او ثلاثة من الريفيين الوقورين المرتدين ألبسة فاخرة عن الوسائد المنتفخة التي يجلسون عليها ، ووقفوا وقفة عسكرية . ويأخذ احدهم بطاقتك باحترام ، ويختفي ، ثم

يعود بعد لحظات ويقول برزانة «نعم يا سيدي ان السيد فلاناً مستعد لاستقبـالك ، اتبعني يا سيدي» . ويسمى هؤلاء الاشخاص في طنجه جاووشين . الى هذا المكان البعيد وصل ذرع الثقافة العثمانية .)

ومقر القصر في استانبول ، وهو يبعد عن البلاد التي يتنـاولها هذا الكتاب . ومع ذلك كان تنظيمه نموذجاً لغيره من القصور في امكنة اخرى ، وخاصة في مصر . وكانت خدمته الداخلية بشكل خاص مدرسة لتعليم الموظفين الذين حكموا بلاد العـالم العربي فترات متنوعة بلغت خمسمائة عـام . وكان الحاكمون فيه هم رجال السيف ، يساعدهم رجال القلم الذين وجدت وظائفهم قبل ذلك على يد النبي واتبـاعه . وكانت الرتب العليا من رجال القلم تخرج من القصر بواسطة الجيش ، والاسطول، والحكومة المركزية ، وحكومات الولايات .

ويقسم الجيش الى فئتين : القوات التي يقدمهـا اصحاب اقطاعات الاراضي . والقوات التي يقدمها اولئك الذين لا يملكون أرضاً فيخدمون في الجيش بأنفسهم بدلا من ذلك . والفئة الاولى فئة الرؤساء الاقطاعيين ، اما الثانية فهي فئة العبيد . ولا بد لنا قبل بحثنا الفئة الاولى ، ان نلم بنظـام منح الاراضي المتعلق بتلك الاراضي التي تسمى الاراضي الميرية بالدرجة الاولى . (انظر الفصل ١١) . عندما كان الاتراك يفتحون بلاداً زراعية كانوا يقسمون الاراضي الى اقطاعات من ثلاثة احجام تسمى «التيمَر» ، والزعامة ، والخاص . فاقطاع التيمَر يؤدي أقل من عشرين ألف قطعة من الفضة ، واقطاع الزعامة يؤدي مبلغاً يتراوح بين عشرين ألف قطعة ومئة ألف ، والخـاص يؤدي مئة ألف فأكثر . وكانت اقطاعات الخاص تعطى اما الى الاميرات او الى نساء الحريم ، او يحتفظ بها مصادر ايراد لكبار الموظفين في الولايات المختصة . وبما ان الموظفين يتغيرون بقيت الاراضي ملكاً للوظيفة . اما اقطاعات التيمَر والزعامة فكانت تمنح الى الافراد مكافأة لهم على خدماتهم العسكرية او غيرهـا

من الخدمات . وهي اقطاعات وراثية ما دام الورثة موجودين وقائمين بواجبات هذه الرتبة ، والا أعيد منحها الى غيرهم .

ويسمى مالك التيمَرْ او الزعامة سباهي (ومنها جاءت كلمة Spahi الفرنسية المأخوذة من الجزائر ، وكلمة Sepoy الانكليزية المأخوذة عن الهند) . وكان هؤلاء السباهي مرتبين في طبقتين ، على أساس عدد الجنود الذين يستطيع كل منهم سوقه وقت الحرب ، وعلى اساس كمية السلاح ونوعه . ويعتبر الوالي القائد الرسمي للسباهي في كل ولاية ، ولكن لما كان عرضة للتغيير فقد انتخب هؤلاء ضابطاً يدعى آلاى - بك ، يحمل وثيقة الزعامة ، وله راية وطبل . وهو قائد كتيبة ، ويليه عدد من الضباط المسمين شرى باصي ، وهؤلاء يخدمون في أوقات السلم ضباط شرطة بامرة القاضي ضمن حدود الولاية . ثم يليهم عدد من الضباط الذين يقودون السباهي ويضبطونهم في ساحة القتال . وتراوح عدد السباهي بين مئة وأربعين الفاً ومئتي ألف (بموجب حسابات مختلفة) .

وقد شكلت القبائل التركية المستوطنة في بر الاناضول والروملي وحدات أخرى من الحرس العسكري . وكانت هذه الوحدات تضم بعض البدو التركمانيين الموسميين ، وتنظم في فئات تتكون احداها من اربعة رجال ، يتقدمها واحد منهم ويساعده الثلاثة الآخرين . او ربما نظمت في فصائل تتألف احداها من ثلاثين شخصاً يخرج كل خمسة منهم معاً . وقد قدم البلغاريون ، والنصارى ، والمسلمون سواء ، وحدتين خاصتين من سائسي الخيل ومربي الصقور الذين يربون الخيول والصقور للبلاط . وكانت تتقدم الجيش اثناء الهجوم فرقة مكونة من عشرين الى خمسين الفاً من كشافي الروملي ، لتعمل في البلاد المغزوة سلباً ونهباً . وهي تشبه الفرقة الاجنبية الفرنسية . وتقوم افواج ثلاثة أخرى من هوج الفدائيين ، بنشر الرعب في كل مكان ، وتسمى هذه الافواج العزّاب ، وتجار النفوس « قان بازان » والمجانين «ديوانغـان» . وكانت

خدمات رجال القبائل التركية مفيدة غاية الفـــائدة في الايام الاولى للامبراطورية ، ولكن قل الاحتياج اليها عندما زاد عبيد البـــاب ، وأصبحت خدماتها قـائمة على تقديم العمل . وعندما فتحت شبه جزيرة القرم انتقلت فرقة الكشافة الى التتار القرميين .

وكانت هنـالك عدا الحرس العسكري قوات نظامية دائمة اكبرها وأشهرها فرقة الانكشارية ، وهي اوجاق او فيلق يتألف من مئة وست وتسعين اورطة او سرية تألفت احداهــا في الايام الاولى من خمسين رجلا ثم زيـد العدد الى مئة رجل . ويقود كل اورطة شوربه جي له ستة نواب وعـــدد من الضباط المساعدين الذين يشبهون الضباط غير المفوضين في الجيوش الاوربية . وكان للسرية ايضاً كاتبها وامامها . وكان الجنود ينظمون في ثلاث مراتب ، احداهـا تتكون من الشيوخ الذين تقدمت بهم السن والمتزوجين المتقاعدين . اما المرتبتان الاخريان فان افرادهما من الجنود العاملين . وتتدرج الرواتب والمؤن على نفس الطريقة .

وقد نظم الانكشارية في بادىء الامر حرساً للسلطان ، ثم قسموا ووزعوا بين العـاصمة والولايات . وأفردت لكل سرية ثكناتها وخيمة الحرب الكبيرة المخصصة لها ، والمزينة برموزها الطوطمية الخاصة . والحق بكل سرية عدد من الصناع ، كالسكافين والخياطين . وقد ألحق باحدى السرايا الخاصة ثمانية من دراويش البكتاشية لهم صفة رسمية . وكان هؤلاء الدراويش يتقدمون قـائد الانكشارية في العرض العسكري ، ويلبسون زياً اخضر ويصيحون بشكل ايقاعي « كريم الله » فيرد عليهم الانكشاريون بقولهم « هو » .

وقسم الانكشاريون الى ثلاث مجموعات فرعية ، يقود آغا الانكشاريين او قائدهم واحدة منها مباشرة . اما قادة المجموعتين الاخريين فمن ضباط الرتب الثـــانية . وكان بعض ضباط السرايا الذين نيطت بهم وظائف

وكنية خاصة ، والسكرتير ، والضابط الرئيسي للفتيان الاجـانب في استـانبول الذين ينتقي الانكشاريون من بين صفوفهم - كان هؤلاء ضباطاً من الرتب الثالثة . ويؤلف أفراد ضباط الرتب الثلاث ديوان القيلق او مجلسه . اما ضباط الرتب الرابعة فهم قادة السرايا النظامية . ويعمل آغا الانكشارية رئيساً للشرطة اثنـاء وجوده في استانبول ، وتحت امرته فصيلان من المخبرين . ويحضر ديوان السلطان ، ويتقدم على جميع الوزراء الذين لا يحملون لقب وزير .

وفي مطلع القرن الخامس عشر أدخلت الاسلحة النارية الى الامبراطورية العثمانية . وكان المدفع اول القطع التي استخدمت فيها هذه الاسلحة ، كما حصل في اوربا . الا ان الانكشاريين الذين دربوا على تقليد قديم قائم على رمي السهام وعـائد الى ايام الصقيثيين لم يألفوا هذا السلاح الجديد الكثير الضجيج . فأنشئت للمدفعية ثلاثة فيالق جديدة ، أختير افرادها من بين صغار الفتيان الاجانب ، وهم يتألفون من المدفعيين ، وسائقي عربات المدافع ، وصناع السلاح ، وقد بلغ عددهم اربعة آلاف واربعمائة رجل . فخصص لصناعة المدافع وذخيرتهـا وتصليحها وصيانتها سبعمائة رجل ، وخصص ثلاثة آلاف رجل لجر العربات الى ساحة القتال ، وخصص سبعمائة مدفعي لاطلاق المدافع . وأشرف رؤساء المدفعيين ايضاً على دور الصناعة ، ومستودعات البارود ، وكان في عداد موظفي كل منها مفتش حكومي مستقل .

وتألف باقي الجيش النظامي من الخيالة المنظمين في ست فرق . وقد عبئت اثنتان من هذه الفرق من الخدم والانكشارية ، واثنتان من المسلمين خارج الامبراطورية ، واثنتان من السباهي . والظاهر ان هؤلاء كانوا في الخدمة الدائمة او لعلهم تنـاوبوا الخدمة . وكانت توضع ثلاث فرق منهـا على يمين السلطان ، تمثل الطبقات الثلاث من الخيالة ، وتوضع الفرق الثلاث الاخرى على يساره . وفرض على كل رجل ، حر او عبد ،

ان يأخذ معه عبدين مسلحين راكبين على حسابه . وكان راتبه يمكنه من تأدية هذا الواجب . ولبس الخيـالة الملابس الزاهية وأعطيت لهم الامتيازات الخاصة المتناسبة مع هذه الصفوة المختارة . ولم تكن المدينة مركزهم ، بل وزعت مراكزهم في القرى الواقعة خارجها ، ليتمكنوا من رعي خيولهم . وكان قائد كل فرقة عضواً في الخدمة الخارجية للمقر الشاهاني ، وتحت امرته اربعة ضباط برتبة فريق .

ومع انـه كان لدى الاتراك تقليد عسكري طويل ، الا انهم لم يكونوا معتادين على الاعمال البحرية . ولكنهم احتاجوا اسطولاً يهزمون به الصليبيين والبندقيين ، ويحتلون بواسطته جزر بحر ايجة ، والبحر الابيض المتوسط الشرقي ، والبحر الادرياتي ، ويبحرون الى مصر بحريـة ، ويسيطرون على الساحل البربري . فبنوا اسطولاً بالاستعانة بالجنويين الذين سمحوا لهم بالاقـامة في غلاطة ، واستخدموا الضباط الجنويين والبحارة اليونان والالبـانيين والدلماشيين . وكانت هذه السفن كسفن اعدائهم المستعملة في الحروب البحرية في البحر الابيض المتوسط ، عبارة عن قوادس كبيرة تحتاج الى اعداد كبيرة من المجذفين ، وأعداد كبيرة من الجند المسلمين ، ولكنها لا تحتاج سوى بحارة قلائل نسبياً . فالمجذفون كانوا من شبان العبيد والمجرمين ، والجند كانوا يؤخـذون من مختلف فروع الجيش .

وبدأت الحروب البحرية التركية بواسطة القناصات الخاصة ، وظلت القوارب الخاصة القانصة تعمل في شرقي البحر الابيض المتوسط الى جانب القطع البحرية النظـامية حتى ظهرت البوارج البخارية . وسجل الاتراك اول انتصاراتهم البحرية في البحر الاسود الذي نظفوه من اعدائهم ، ثم أخرجوا فرسان القديس يوحنا من جزيرة رودس . وفي مطلع القرن السادس عشر ظهر بطل بحري يدعى خير الدين اشتهر (بين الاوروبيين) باسم بربروسا ، وفتح الجزائر ، وأصبح حاكماً لها ، وفتح تونس ايضاً .

وبعد ذلك رقي الى رتبة امير البحر «قبطان باشا» في البلاط . وهو الذي حالف بين الاتراك وفرنسا ، وانشأ الامتيازات الاجنبية التي اوجدت الجهاز الشكلي للعلاقات بين الغربيين والمسلمين في الشرق الاوسط . ورفع بربروسا وخلفاؤه ثلاثة من أذناب الخيل ، وعينوا حكاماً بحريين للبلاد ، ومعنى ذلك قيامهم بجولة صيفية سنوية لجمع الضرائب من الجزر العاجزة عن الدفاع عن نفسها .

ولم يكن الاتراك ماهرين في الملاحة ، بل اعتمدوا على الاجانب حتى النهاية . وكانت القيادة البحرية عبارة عن ثمرة شهية جاءت من نصيب محاسيب البلاط الذين لا يعرفون عن الملاحة الا أيسر اليسير . اذ ان الشواطىء العثمانية لا تقع على محيط واسع ، ولذلك لم يشعر العثمانيون بحافز لبناء انواع المراكب التي استخدمها البرتغاليون ، والاسبان ، والهولنديون ، والانكليز في الابحار الى القارتين الاميركيتين والى جزر الهند الشرقية والغربية . وما انهيار الاسطول العثماني سوى مظهر من مظاهر الفساد الذي رافق الدولة فيما بعد .

وقد انصب اهتمام الجيش والاسطول على الشؤون الخارجية ذات الطابع العدائي ، وكانت الشؤون الخارجية التي من هذا القبيل أهم كثيراً من الشؤون الخارجية ذات الطابع السلمي ، حتى ان العثمانيين لم ينشئوا وزارة خارجية الا في وقت متأخر . اذ ان معظم المسلمين السنة كانوا من رعايا السلطان ، بينما كان الجيران المسيحيون تابعين لدار الحرب ، فأصبحوا بالتالي غنيمة حقاً لهم . ولذا ترك التعامل مع السفراء الى مجموعة من التراجمة ، التابعين للامين العام للعدلية (التي سنتكلم عنها بعد قليل) وكان هؤلاء في الغالب من النصارى الداخلين في الاسلام .

ووضع الحكم الداخلي في الامبراطورية بيد الوزير الاعظم مباشرة . [ألو وزير = وزير – أعظم] . والوزير الاعظم موظف يحمل أعلى رتبة

في الدولة ، ترفع لها خمسة من اذناب الخيل . وكان يرأس رجال السيف ، لأنه نائب للسلطان ، مثلما كان مقابله شيخ الاسلام يرأس رجال القلم باشراف اثنين من القضاة الكبار . وكان اعضاء هاتين الخدمتين يتوازيان جنباً الى جنب دون الوزير الاعظم وشيخ الاسلام ، وكان افرادهما يتوازنون في كل رتبة من رتب الدولة . وقد جرى العرف العام على ان يدعى قادة المؤسسات الفرعية في فرع السيف بلقب الآغا ، ويدعى قادة مؤسسات فرع القلم بلقب الافندي . وذانك هما اللقبان العامان اللذان لا يرمزان الى رتبة معينة ولا الى عدد من اذناب الخيل . وتذيع كلمة آغا اليوم في الاراضي العثمانية السابقة ووراءها بمعنى «سيد» اما «الافندي» فقد اصبحت تطلق على طبقة المتغربين من ذوي الاعمال المكتبية .

وكان السلطان في بادىء الامر يظهر امام الشعب ، ويقود جيوشه في الحرب ، وله رأي مسموع فيما يجري من الامور والاحداث . وكان الوزير الاعظم حينذاك ، اقرب الى مساعد ، او رئيس المراسيم والتشريفات ، ولكن ما ان تقدم الزمن ، واعتزل السلاطين في بلاط الحريم ، حتى زادت سلطة الوزير الاعظم ، وأخذ يتصل بالسلطان بواسطة رئيس الخصية السود بالدرجة الاولى . وكان من يشغلون منصب الوزراء في بادىء الامر من اشراف الاتراك ، ولكن لم يمض وقت كثير حتى أصبح المنصب أعلى الثمرات التي يطمح اليها الخدم . وكلما انسحب السلاطين ، وسيطر العبيد ، اصبحت الوظيفة مضطربة . فقد يعدم وزير أعظم ويؤتى بمن يأخذ مكانه لمجرد نزوة من نزوات احدى المحظيات ، اوقدها شخص خارجي واستعمل زوجته اداة لذلك .

ولنبدأ بالخدمة الخارجية ، فقد نقل مكتب الوزير الاعظم سنة ١٦٥٤ الى بناية خاصة سميت الباب العالي . وهنا كان الوزير يعيش ويعمل . ولا بد من تحديد موعد لمقابلته ، فيما عدا الفترة المخصصة للجمهور مرة

في كل شهر . وعلى كل من يقترب منه ان يقبل حاشية ازاره ، لا يستثنى من ذلك سوى شيخ الاسلام . وكان الوزير الاعظم يحكم باسم السلطان وبموافقته بواسطة اصدار القوانين ، وهي المراسيم التي تصبح نافذة بمجرد اصدارها . وهو يحكم الجميع فيما عدا افراد المقر السلطاني ورجال القلم .

وكان يدعو بين الحين والحين الى مجلس يجتمع في القصر ، ويسمى الديوان السلطاني . وجميع اعضاء الديوان من رتبة وزير ، وبينهم رؤساء الدوائر الرئيسية ، والولاة الزائرون المنتمون الى أعلى الرتب ، والقادة العسكريون من ذوي الرتب العالية . ومراسيم الاجتماعات جامدة ، والشكليات فيها زائدة ، فلا يوضع في القاعة سوى كرسي واحد يجلس عليه الرئيس ، بينما يجلس اعضاء الرتبة الاولى في المركز ، ويقف اعضاء الرتبة الثانية وراءهم . والامور المبحوثة هنا هي من اختصاص السيف – اي أمور الحرب ، والادارة الداخلية لولايتي الاناضول والروملي الوطنيتين ، وللولايات الاخرى البعيدة .

والادارة منظمة في شعب محكمة الاغلاق للغاية ، معقدة أعظم التعقيد . وتقع ادارة الجيش والاسطول في نطاق اختصاص الوزير الاعظم ، وكذلك الادارة المدنية . ويلي الوزير مباشرة موظف يعمل نائباً له ويسمى كخيا بك ، وهو يشرف على الامين العام ورئيس التشريفات . وهؤلاء الموظفون الثلاثة الذين كانوا بالاصل في خدمة الوزير الاعظم ، كانوا يأكلون على مائدة خاصة ، ولا يدعون للأكل على المائدة العليا (لما كان الكخيا بك ذا علاقة وثيقة بتعيين الولاة الجدد فان جانباً كبيراً من دخله كان من العمولات التي يتقاضاها لقاء هذا التعيين) .

ويلي هؤلاء في الرتبة بين الموظفين الباشا – دفتردار ، او رئيس الخزينة ، والنيشانجي او مصدر القوانين . ورئيس الخزينة المسؤول عن

الاموال العامة ، وله بنايته الخاصة التي تحتوي على اربع شعب رئيسية وعلى اثنين وثلاثين دائرة ، مرتبة كلها درجات بعضها فوق بعض ، وحتى كتبتها لهم فيها رتبهم ودرجاتهم . وهؤلاء الكتبة مختصون اعظم الاختصاص ، وبينهم مثلاً مسؤولون عن القرطاسية ، ووازنون للنقود . وكان لرئيس الخزينة امتياز يعطيه حق تقديم العرائض شخصياً الى السلطان ، وله حق استعمال الختم الملكي لتكون وثائقه الملكية صحيحة. وللنيشانجي ايضاً حق استعمال الطغرة على القوانين . وكان له الحق في ابدال كلمات القانون قبل اصداره [تصحيح فرماني] لانه هو الذي يعد النصوص في شكلها النهائي . وهذا اعطاه سلطة كبيرة ، وربما كان من أثره منع التسرع في اصدار المراسيم غير اللائقة . ولكن سلطة النيشانجي كانت محدودة ، اذ لا يمكن اصدار قانون قبل ان يطلع عليه المفتي الاعظم ، رئيس رجال القلم ، ليتأكد من مطابقته للشرع الشريف . وبما ان النيشانجي نفسه كان من العلماء ، فقد اصبح معتمداً نوعاً ما على المفتي الاعظم الذي يعلوه في الرتبة . وهكذا عمل هذا النظام القائم على الضبط والمراقبة في المحافظة على توازن القوى بين الدوائر .

ويلي الباش دفتردار والنيشانجي في الرتبة امين العدل ، ورئيس السجل ، ورئيس الشاووشين . فأول هؤلاء يحفظ سجلاً بكل القوانين ، والاوامر ، والتقاعدات ، وقد تطلبت تأدية هذه الواجبات الثلاثة استخدام مئة وخمسين كاتباً منظمين في ثلاث رتب . وأمين العدل كاتب مستتر ، فهو الذي يكتب جميع الرسائل التي يوجهها الوزير الاعظم الى السلطان . وباشرافه تدار الشؤون الخارجية ، عن طريق تراجمته . ويحفظ رئيس السجل سجلاً بحقوق الاراضي والاقطاعيين ، واراضي الدولة واراضي الافراد وما يحصل فيها من تغيرات ، وتتألف دائرته من ثلاث شعب فيها مئة كاتب . وسجله يشمل الامبراطورية كلها . اما رئيس الشاووشين فكان في بادىء الامر مرشداً يجلس في المحكمة القضائية التي يرأسها الوزير الاعظم ثم تسلم عدداً من الواجبات من بينها وضع الاسباب

والحجج التي تدعم قرار الوزير الاعظم . ومن واجبـــاته ايضاً تنفيذ الاحكام الجنائية التي يصدرها الصدر الاعظم او العلماء ، في محاكمها الخاصة .

وأقصى ما وصله عدد المقاطعات في العهد العثماني ست وثلاثون ، لكل مقاطعة حكومتها الخاصة التي يرأسها نائب عن السلطان . وكانت المقاطعات ترتب على اساس المساحة ومقدار الضرائب ، ويرتب حكامها على الاساس ذاته ، فتتراوح رتبهم من ذنب الى ثلاثة . ويعطي الوالي الذي ترفع له ثلاثة اذناب رتبة وزير ، وتسمى مقاطعته ايالة ، ويليه بالرتبة البيلر بك ، ويرفع له ذنبان (والاسم العربي للبيلر بك هو الوالي ، وتسمى مقاطعته ولاية) . ويليه السنجق - بك ومقاطعته تسمى السنجق وهي باللغة التركية تعني المقاطعة عموماً ويقابلها في العربية اللواء (والسنجق بك يدعى باللغة العربية المتصرف) وهناك رتبتان من المتصرفين تبعاً لمقدار ربع الضرائب .

وكان الحكام يعينون في بادىء الامر مدى الحيـــاة ، او ما دام سلوكهم حسناً . ثم خفضت مدة التعيين الى ثلاث سنوات ، وأصبحت في النهـاية سنة واحدة . ويرأس الحـاكم ثمانية موظفين ، معبىء الجنود الاقطاعيين ، وقائد الحامية ، وثلاثة مسجلين للسباهي ، وخازن ، ورئيس محلي للجاووش . اما الانكشارية فكانوا شرطة المقاطعة . وكان لهم خازن ورؤساء لتنظيماتهم في العاصمة ، ولهم ولاءان ، وبالتالي كانوا وسيلة للضبط المزدوج . ويقسم السنجق نفسه الى اقسام بعدد القضاة ، تسمى اقضية . ويدير كل قضاء قاض يختار من بين رجـــال القلم ، وله منفذ يسمى الشوباشي ويختار من رجـال السيف . وقد ترك سكان القرى والقبائل على حالهم في الغالب ، يفدون المدن التي يديرها القاضي كلما احتاجوا الى المتاجرة ، او كلما ثار خلاف بين القرى لا يقدرون على حله بأنفسهم ، ولا يقدر مالكو الاراضي وممثلوهم على حله .

ونجد في ايامنـا الحالية كثيراً من الاحاديث التي ترددها الصحافة ، عن مالكي الاراضي في الامبراطورية العثمانية القديمة وفي ايران . ولنذكر

ان هؤلاء الاثرياء كانوا في أوج السطوة العثمانية خـاضعين الى قيود وضوابط تفرضها الحكومة المركزية ، ولم يصبح المالكون مستقلين استقلالاً ذاتياً واقعياً الا في القرن التاسع عشر عندما دب الانحلال الى الدولة ، وأخذوا بعد ذلك يكتسبون السلطة المحلية التي تغيظ مصلحي القرن العشرين .

ولنذكر ان الاتراك اظهروا احتراماً كبيراً لمعلميهم في الدين ، سكان المقـاطعات العربية ، وأعطوهم حرية واسعة ، ولكنهم فرضوا بالفعل نظاماً طبقياً جـامداً يستهجنه التقليد السامي . فالعسكر ، او الجند ، هم الحكام . ويستطيع هؤلاء ان يمتطوا الخيول ويحمـلوا السيوف . ويحصلون على دخلهم من الاملاك المزروعة . والفلاحون هم الذين يزرعون الاراضي ويعيلون العسكريين والحكومة . وانكب سكان المدن على حرفهم وتجارتهم ، وحكموا انفسهم داخل نقاباتهم . ولم تجد الحركة والمرونة اي تشجيع . اذ ان النظام الفسيفسائي للشرق الاوسط ، بلغ في ظل الحكم التركي اعقد اشكاله ، واكثرها تبلوراً .

ولم يفرض على سكان شبه جزيرة العرب مالكون من أصل غير عربي . ونجت من المالكين غير العرب أقسام من العراق ، بينها بعض أقضية بغداد والبصرة . ونجت كذلك سواحل افريقية التي غزاهـا بربروسا . الا ان النظام المصري كان مختلفاً ، وهذا من الامور المنتظرة .

فأولاً وجد العثمانيون في مصر عند احتلالها طبقة من الجند المحترفين ، وهم المماليك ، احفاد العبيد الذين يشبهون الانكشارية ، والذين جاء بهم السلطان صلاح الدين عندما اعـاد فتح وادي النيل للخلافة العباسية سنة ١١٧١ . وقد نجح المماليك مرتين في السيطرة على الحكم في مصر ، احداهما سنة ١٢٥٧ ، ولم ينته حكمهم الاول هـذا الا سنة ١٥١٧ عندما احتل العثمانيون مصر ، والمرة الثـانية سنة ١٧٠٧ عندما استلموا

السلطة من باشاوات الباب العالي ، وتم القضاء على حكمهم هذا للمرة الثانية والاخيرة على أيدي الافرنسيين بقيادة نابليون سنة ١٨٠٢ .

وثانياً فان جميع الاراضي الصالحة للزراعة والتي لم تكن تابعة لاحد الاوقاف الدينية قسمت بين افراد الاوجاق الفاتحين ، الذين منحت لهم الحقوق بزعم انهم ملتزمون او جباة ضرائب . وفي القرن السابع عشر أصبحت للملتزمين حقوق وراثية ، وفي القرن الثامن عشر اصبح الملتزمون يملكون الارض بشكل مباشر ، فأصبحوا الآن مالكين ، وما زالوا كذلك (كما ذكرنا في الفصل الحادي عشر) .

وعندما كانت مصر تدار بواسطة احد الباشاوات ، كانت سلطة هذا الباشا محدودة بشكل لا مثيل له في المقاطعات الاخرى . فله ديوان يجتمع اربع مرات في الاسبوع ، لاتخاذ القرارات الادارية . ورئيس الديوان هو الكخيا ، واعضاؤه الآخرون موظفو الرتب العالية من رجال السيف ورجال القلم . اما الباشا فلم يكن عضواً ، ولم يكن يدعى لحضور اجتماعات الديوان ، بل هو المأمور التنفيذي للديوان . ولما كان الباشا مقيداً الى هذا الحد ، فليس مستغرباً ان تنفصل مصر عن سلطة استانبول اكثر من مرة واحدة .

وأياً كان مسؤولا عن السلطة فان الادارة بقيت ثابتة ، وللموظفين الاقباط ، واليهود ، والمسلمين فيها وظائف خاصة . فكان للفلاحين شيوخهم الذين يتعاملون مع الحكومة ، وكان للصناع رؤساء نقاباتهم . وقضى معظم الناس حياتهم في فقر ، وفي محاولة مستمرة للحصول على الطعام والكساء . ولم يكن ثمة فرق في نظرهم بين ان تذهب اموال الضرائب الى الباشوات او المماليك ، ولا فرق عندهم لما يحصل في القصور . فالذي كانوا يريدونه هو الاستقرار . وقد ذكر احد الكتاب

المسلمين المعاصرين بأنه بلغ من تعود النـــاس على الظلم ، ان اصبحوا يخافون اللين لئلا يكون مظهراً من مظاهر الضعف .

***

ولنكتف الآن بهذا القدر عن الحكومة التركية وامتدادها في البلاد العربية . الا ان هنـاك بلداً عربياً واحداً نجا من الحكم التركي ، هو مراكش . ولنذكر بأن مراكش ايضاً كان لها تاريخها الطويل المتنوع ، الذي رافقته تغيرات كثيرة في السلالات الحاكمة وبعض التغيرات في انظمة الحكم[٤] . وفيه كثير من التعقيد الذي لا نستطيع تفصيله هنا . والفقرات القليلة القادمة ستصف بايجاز الحكومة الشريفية – اي حكومة مراكش – قبل ان ابتدأت الحمـاية الفرنسية التي انتهت سنة ١٩٥٦ . وهذا الوصف ينطبق على بلاد المخزن او بلاد الحكومة وحدها ، امـا بلاد الصباع او بلاد الصلف ، فسنبحثها في الفصل القادم .

بالرغم من ان مراكش دولة عربية ، فهي ايضاً امبراطورية بربرية . ويعيش العرب والبربر فيهـا جنباً الى جنب . والبربر هم الاكثرية . ويشترك الشعبان في الحكم . والعائلة المالكة الحالية وهي عـائلة الفلالي تتبع المذهب المالكي ، وهو مذهب أضيق من المذهب الحنفي ، وأوسع من المذهب الحنبلي السائد في المملكة السعودية . وينتمي السلاطين الى الرسول عن طريق علي وفاطمة ، ولذلك فانهم يحملون لقب الاشراف العلويين . وهم احدث عهداً من الادارسة ، ويقرون لهؤلاء بالسيطرة على فاس ، ويؤيدون مركزهم فيها . ولهم الامامة في شمال افريقيا ، ولذا فان لهم سلطة دينية تتجاوز حدودهم السياسية ، ومن سلطاتهم الحق في دعوة جميع المسلمين حتى تونس ، الى الجهاد . (وقد ترددت أحاديث

---

(٤) انظر : Henri Terrasse, Histoire du Maroc (Casablanca 1949-50), 2 vols

في الآونة الاخيرة عن بعث الخلافة الاسلامية واعلان السلطان الحالي سيدي محمد بن يوسف[٥] خليفة للمسلمين . وهو من غير شك لا يقل صلاحاً للخلافة عن اي شخص آخر في العالم الاسلامي) .

لقد سبق لنا ان بحثنا التركيب الاجتماعي والسياسي لمدينة فاس في شيء من التفصيل ، ورأينا كيف ان العائلات الرفيعة نشرت العلم بوساطة الجامعات ، ووفرت للادارة المدنية حاجتها من الموظفين من بين متخرجي هذه الجامعات . وقد عاش السلاطين في أبهة عظيمة ، ولهم قصور ثلاثة في فاس ، ومكناس ، ومراكش ، وهم يزورونها بشكل دوري . وقد كانت فاس ومراكش المدينتين المفضلتين ، بل الواقع ان علماء هاتين المدينتين هم اصحاب الحق بتثبيت السلطان الجديد او رفضه .

وقد اختلف سلاطين مراكش عن سلاطين الاتراك في انهم استمروا في اعتبـــار خزينة الدولة ملكاً لهم ، دون ان يميزوا بين الرساميل والمداخيل التي تعود الى الدولة والتي تعود الى اشخاصهم . واختلفوا ايضاً عن الاتراك في انهم استبقوا كبير وزرائهم (المسمى في مراكش الوزير الكبير او الفقيه الكبير) في القصر بوصفه جزءاً من الحاشية . والوصول الى السلطان المراكشي ايسر من الوصول الى السلطان التركي ، ولكنه اصعب من الوصول الى الملك عبد العزيز آل سعود او امـام اليمن . واكتفى السلطان في زواجه بالحد الشرعي من الزوجات فاتخذ لنفسه اربع زوجات من المسلمات الاحرار ، عدا جواريه . وجمع بين ثلاث وظائف : القائد الروحي ، والقائد العسكري ، والحاكم المدني . ولم يعط موظفيه رتباً ثابتة ولا شارات من اذناب الخيل . امـا لقب الباشا فلا يعني اكثر من مجرد رئيس بلدية . وأهم من ذلك ان نظام منح الاراضي الى الاقطـاعيين ، وانشاء طبقة من مالكي الاراضي ، لم

(٥) يلقب سلطان مراكش « مولاي » ما لم يكن اسمه محمد ، فيلقب حينئذ « سيدي » منعاً لاي التباس بينه وبين الرسول .

يكن معروفاً في مراكش ، رغم وجود بعض القبائل التي كانت تسمى الجيش ، والتي أقطعت بعض اراضي الدولة ، وأعفيت من الضرائب لقاء موافقتها على تقديم عدد معين من الجنود الخيالة في كل وقت . وهي تشبه بذلك المسلّمين عند الاتراك .

ويشتمل المقر السلطاني على الحريم والخصيان السود المستجلبين من الحبشة ، والجواري المستجلبات من استانبول ، وبعض النساء الاوربيات . وتشرف بعض المدربات الخاصات على اعداد الجواري الجدد لمتعة سيدهن ، وكان هذا يستعرضهن في بعض الاحيان في حديقة الحريم لينتقي من بينهن المحظية التي سيقضي معها نهاية الاسبوع . اما الخدمة الداخلية فكانت بيد فتيان الخدم من الزنوج . ويعلم ابناء السلطان وبناته في اجنحة خاصة ، ولكل امير رفيق زنجي من جيله يلقبه اخاً له ، ويخدمه مدى الحياة . وكان السلطان ينظم زواج ابنائه وبناته البالغين سن الزواج مرة كل عام ، فتتزوج بناته من ابناء الاثرياء ، وبعضهم من الموظفين . وينفح بعض المقربين جواري من حريمه . ويعين السلطان واحداً من ابنائه الكثيرين ولياً للعهد ، شرط موافقة علماء فاس ومراكش ، وقبول اخوته . ويرسل هذا الابن المفضل الى المقاطعات حاكماً او قائداً ، ليتدرب على المسؤوليات التي تنتظره .

ويختلف سلاطين مراكش عن سلاطين بني عثمان ايضاً في انهم كانوا دائمي التجوال . وكانوا يظهرون امام الناس مرة في الاسبوع على الاقل عندما يذهبون الى الجامع لصلاة الجمعة . ويضاف الى ذلك انتقالهم ثلاث مرات بالسنة بين عواصمهم ، وحملاتهم السنوية تقريباً ضد العصاة . وهذه الحملات كانت تتطلب خروجهم من قصورهم مدة طويلة ، وتقربهم كثيراً من معظم رعاياهم بحيث يستطيع الرعايا ان يقابلوهم ، ويتوجهوا اليهم بالطلبات . ويرافق السلطان دوماً حرس خاص من اربعة وعشرين رجلاً ، بينهم حامل المظلة الملكية ، الذي يظلل رأس مليكه من الشمس ،

وحامل المذبة الذي يبعد الهوام عن السلطان ، ومدير للمراسم له صوت جهوري وحامل رمح ، وحامل بندقية ، وجلاد ، وضارب اعناق ، وناصب خيام ، ورئيس لسائسي الخيل ، وصانع شاي ، وحامل راية ، وحامل خف وما شاكل ذلك .

وكان الجيش كله مؤلفاً من الخيالة حتى القرن التاسع عشر ، عندما استخدم عدد من المدربين الاوروبيين في تنظيمه . وأهم فرقة الحرس الاسود المسمون بالبخاريين نسبة الى الامام البخاري ، لأنهم كانوا يحملون امامهم نسخة من صحيح البخاري في المعارك تيمناً . وكان هؤلاء العبيد ينزلون خارج القصور ، وتصرف لهم البدلات العسكرية ، والخيول ، والاسلحة . اما التجهيزات الاخرى فيحضرونها بأنفسهم . وكان البخاريون يختلطون بالنساء البيض فأصبح لونهم بالتدريج أقل دكنة ، واصبحت ملامحهم أقل زنجية ، الا حين تضاف اليهم اعداد جديدة من العبيد . وكان بعض الموظفين الحكوميين يؤخذون من بينهم . وصدر سنة ١٦٩٧ مرسوم يسمح لهم بالتملك .

وهناك جماعة خاصة أخرى هي الجيش الذي سبق ذكره . وتألفت جماعة ثالثة من قبيلة العدية ، وهي قبيلة بدوية من أصل عربي ، وضعها السلاطين خارج مدينة فاس ، ازعاجاً لسكانها . وكانت واجبات القبيلة تتألف من قيامها بمنع الثورة داخل المدينة وحمايتها من القبائل البربرية القريبة . وقامت محاولة ينقصها الجد لانشاء خدمة مدفعية على الاسلوب التركي ، ولكنها لم تنجح . وكانت المدافع توجه في المعسكرات نحو القبلة ، ليستدل الناس بواسطتها على وجهه الصلاة ، وكانت تعتبر ملجأ حراماً ، ولذا جرت عادة الملتجئين ان يركضوا نحو المدافع ويتشبثوا بها . وفي احدى المرات أكل المدفعيون شحنة زيت أرسلت من طنجة لتنظيف المدافع . واستعملت المدافع بالدرجة الاولى لاعلان الافطار في رمضان .

وكان الوزراء يحضرون باستمرار الى البلاط . ولا بد ان ألقـابهم وتقسيات دوائرهم قد تغيرت من وقت لآخر ، لأن عدداً من المؤلفين الثقات يعددونهـــا بأشكال مختلفة[٦] . ولكن كان هنالك دوماً وزير كبير ، وقاض كبير ، ومتول للأوقاف الدينية (الحبوس) ومدير للاملاك السلطانية بمـا فيها الاراضي والعقار . والى جانب هؤلاء رؤساء الجيش والاسطول ، وحكام المقـاطعات وقادة القبائل . ويعين هؤلاء الموظفين بشكل خال تماماً من الرسميات . وقد ذكر توماس بيلو (Thomas Pellow) من أهالي بلدة بنرين ، الذي كان هو نفسه قائداً عند مولاي اسماعيل (١٦٧٢ – ١٧٢٧م) ان الحكام لا يأخذون اي تفويض ، بل ينالون سلطاتهم من قول السلطان لأحدهم «اذهب الى المقاطعة الفلانية واحكمها مع قائد الجيش او الاسطول[٧]» . وقد دهش بدجيت ميكين (Budgett Meakin) ، وهو ملاحظ ثاقب النظر كتب في عقد ١٨٩٠ ، لانعـدام الرسميات في اجتماعات البلاط ، وذكر انه مثل امام وزراء كانوا يجلسون في العراء خارج القصر على البسط[٨] .

ولم تعط الشؤون الخارجية عناية تذكر . فقد وجد لها وزير مختص في بعض الأحيـــان ، ولكن الشؤون الخارجية الاخرى كان يديرها الوزير الكبير ، او الاسطول نفسه . فالدولة الاسلامية لم تدرك مفهوم الامة المسالمة المحاطة بأمم مساوية لها والمتعاملة مع هذه الامم تعـاملاً دولياً سلمياً . اما الاسطول فكان في الغالب مؤلفاً من ملاحة ساليين – وهم قناصة خصوصيون يرسون مراكبهم وراء الباب البحري في ساله ، وكانوا يصلون بغزواتهم حتى بريطانيا ويأخذون الآلاف من النصارى عبيداً

---

(٦) ان افضل دراسة نقدية حديثة هي دراسة : H. Terrasse, op. cit. Vol. II وفيها يصف الحكومة المراكشية في فترات مختلفة .

(٧) Thomas Pellow, The Adventures of Thomas Pellow of Penrhyn, Mariner, ed. by Dr. Robert Brown (London 1890), pp. 137-138.

(٨) Budgett Meakin, The Moorish Empire (London, 1899), p. 207.

يبيعونهم في اسواق النخاسة . حتى انهم باعوا في تلك الاسواق بعض رعـايا الملك فيليب الوامبانوجيين الذين أخذوا من مقاطعة بلايموث وجزيرة رود .

ويذكر ميكن ان الخـازن كان يحفظ امواله في ثلاثة أبنية في مراكش ، وفاس ، ومكناس . ولا تفتح الخزائن الا « بالاتفاق بين المدير المحلي ، وحـاكم القصر ، وخصي مؤتمن ، والمرأة المسؤولة عن الحريم »[9] . وكان السلطان يحكم باصدار مراسيم تدعى الظـاهر ، وهي تشبه القوانين عند العثمانيين . ووجدت مجموعات من الكتبة الذين يدونون التعليمات ، ويعدون الوثائق ، ويختمونها بالخاتم الملكي . وتوزع نسخ من هذه الوثائق بواسطة السعاة الخيالة ، على مدن الامبراطورية ، حيث تقرأ في الجوامع على هدير قنابل المدافع . وكان السعاة الذين يحملونها اعضاء في فصيل خاص يسمى «المسخرين» ، وهم يقضون اوقـاتهم في الارشاد داخل القصر ، حينما لا يكونون على ظهور الخيل لايصـال الوثائق . وكانت هذه الوظيفة مربحة للغـاية ، لأنهم لا يؤمنون المواعيد المطلوبة الا لقاء عمولات .

وتقسم ادارة العدل بين محكمة الباشا او القائد التي تنظر في جرائم العنف واخلال الأمن ، وبين محكمة القاضي ، التي تنظر في الاختلافات التي تطبق حسب الشريعة . وتسمى شرطة البـاشا «المخزنية» ، وتتألف من رجال مختارين من قبائل الجيش ، يلبسون الطرابيش المدببه . اما موظفو القاضي فلم تكن لديهم ملابس تميزهم . امـا القضايا التي تتضمن الاعدام ، فتمر على السلطان ، والباشا ، والقاضي ، اذ يرسل الباشا الحكم الى السلطان طالباً التصديق عليه ، فيحيله السلطان الى القـاضي طالبا موافقته ، فيعيده هذا الى الباشا لتنفيذه . والضرائب متعددة الانواع .

---

(٩) Ibid. p. 206.

فالى جانب الزكاة التي تعتبر الركن الثالث من اركان الاسلام ، فرضت الحكومة ضريبة دخولية ، وضريبة اسواق ، ورسوماً جمركية ، وكانت تطبق وسائل مختلفة لابتزاز الاغنياء الذين يعوزهم النفوذ . وفرضت على اليهود ضريبة الجزية التي تفرض على أهـل الكتاب . وتركت لهم حكومتهم الدينية الخاصة ، برئاسة الحاخام الكبير الذي كان يعمل تحت ادارة القاضي الاكبر .

وأقل الاقطار العربية التي حكمها العثمانيون تأثراً بالحكم العثماني هي البلاد الواقعة في شبه جزيرة العرب . والمملكة العربية السعودية في شكلها الحالي حديثة العهد ، نشأت بعد الحرب العالمية الاولى وبعد غزو الملك عبد العزيز بن سعود الحجاز . ويعود الفضل في مركزها المهم الحالي الى حكمة ملكها والى شخصيته القوية ، والى المشورة التي قدمها اليه الشيخ عبدالله (المعروف عند العالم الخارجي باسم المقدم هـ. سن جون فيلبي) . وتتألف مواردها المالية من مؤسستين من اكثر المؤسسات في العالم ربحاً ، وهما الحج السنوي الى مكة ، وشركة النفط العربية الاميركية . وقد اوجد عبد العزيز آل سعود في دولته الاسلامية الخالصة نظـاماً يبدو للوهلة الاولى وكأنه نظام قديم ، الا انه في الواقع شيء جديد .

أما اليمن فان وضعها عكس ذلك تماماً . وتقع هذه المملكة المنعزلة على هضبة باردة ، تبدو منعزلة مثل عزلة التيبت ، وهي في الغالب اقل شهرة منهـا . وكان الاتراك يحكمونها بواسطة بك ، وآخر هؤلاء الحكام – القـاضي راغب – مـا زال مقيماً فيها . وكان هذا السيد الشيخ الموهوب في يوم من الايام موظفاً بالسفارة التركية في سان بطرسبرج ، وهو الآن رئيس الوزراء في صنعاء ولم يغادرها منذ نهاية الحرب العـالمية الاولى . وعندما انسحب الاتراك انتقل ببساطة من منصب الحاكم الى منصب رئيس الوزراء ، بينما انتقل الامـام يحيى الى

القصر . وكان اجداد الامام يحكمون اليمن قبل ان سمع بها الاتراك ، فأضاف الى وظائفه الروحية مسؤوليات الادارة .

في سنة ١٩٣٣ ، حصلت لي ولوالدو فوربس (Waldo Forbes) فرصة نادرة وهي زيارة الامام يحيي في غرفة استقباله بالقصر . ومررنا قبل الوصول اليه بعدد من الكتبة الجالسين في القاعات الخارجية ، وبعد تجاوزهم وجدنا كل شيء هادئاً بسيطاً . ورغم وجود عرش في الطرف الأبعد من الغرفة ، فقد جلس الامام على وسادة مسندة على الحائط الطويل ، وعلى جانبيه كتبته ، ووضع امامه كرسيان بسيطان لنجلس عليهما لقلة تعودنا على التربع . وهذا تصرف في غاية المجاملة ، لانه يجعل رأسينا اعلى من رأسه . وقد ترجم القاضي راغب بيننا ، بينما انهمك عدد من الكتبة في كتاباتهم .

وأظهر الامام اهتماماً كبيراً بالعالم الخارجي ، وسأل اسئلة ثاقبة كثيرة . ودارت احاديثنا بالطبع عن امكانيات التنقيب عن الآثار في مملكته . وقد قال لنا إنه لا يعارض الدراسات العلمية ، ولكن يصعب عليه ان يميز الخبيث من الطيب من الاجانب ، وقال انه لن يحصل ضرر من جراء ترك بعض الكنوز في الارض لينقب عنها علماء المستقبل الذين سيكونون أفضل تجهيزاً من علماء اليوم . ومع ان رأيه يخالف لمصلحتي العاجلة ، فقد وجدتني مضطراً لأن أوافق على رأيه . وفي نهاية مقابلتنا قدم اليه احد الكتبة وثيقة لأخذ موافقته عليها ، فصب عليها بعض المسحوق الحبري من علبة في مجموعة ادواته الكتابية وختمها بخاتمه . ونفخ الكاتب المسحوق عن الورقة التي اصبحت عندئذ مستكملة الاجراءات القانونية .

وكان من حسن حظي في مناسبة أخرى ان اعمل كاتماً خاصاً له ، لمساعدته على دفع قسط بوليصة التأمين على حياته . وقد اغتيل هذا

الشيخ الطيب الدمث عام ١٩٤٨ على يد جماعة من الاشقياء بينهم واحد من اولاده . ويتربع على العرش الآن ابنه الاكبر الامام احمد ، بعد ان قتل بعض اخوته المنافسين له على العرش .

وبينما تحتاج الحكومات الاخرى الى الوزراء فليس في اليمن سوى وزيرين اثنين ، هما القاضي عبدالله العمري ، الذي مات وهو يدافع عن سيده والقاضي راغب بك . ومما يدل على الصفة الدينية لحكومة اليمن ان كلا من هذين الوزيرين يحمل لقب قاضي . وكان القاضي عبدالله (وله ابن يمثل الآن بلاده في منظمة الامم المتحدة) مسؤولاً عن الشؤون الداخلية والحربية ، والقاضي راغب مسؤولاً عن الشؤون الخارجية . ولكل منهما مجلس من الوجهاء الملقبين بالمستشارين يساعده في تصريف الاعمال ، ولكن جميع القرارات تمر على الامام بشكل مباشر .

وتقسم اليمن خارج العاصمة الى مقاطعات لكل منها متصرف يعينه الامام مباشرة . ويدير المتصرف عاصمة المقاطعة ، ويجمع الجند والضرائب من مقاطعته . ولديه كاتب مختص بجمع الضرائب يسمى امين الصندوق . والى جانبه حاكم مستقل عنه ، هو قاضي المقاطعة . والامام هو الذي يعين الحاكم مباشرة ليكون ممثله الروحي - اذ ان الامام كبير قضاة مملكته - ويجعله مستقلاً عن المتصرف . وهناك عدد من القضاة أقل رتبة ، يقيمون بين القبائل . ويختار هؤلاء القضاة عادة من بين الاسياد المنتمين الى الرسول وهذا يزيد في مكانتهم عند الناس . وزعماء القبائل هم الشيوخ الذين يتبعون المتصرف من الناحية السياسية . وتحت شيوخ القبائل شيوخ آخرون دونهم في الاهمية ، وظيفتهم ادارة القرى . وهذان الصنفان من الشيوخ مسؤولان عن الامن والضرائب وعن تجنيد الناس في احوال الحرب ، وكثيرون منهم يقودون هؤلاء الرجال في الحرب . واليهود جالية منفصلة ، كما هم في مراكش ، وعلى رأسهم حاخامهم الاكبر

الذي يتبع البلاط . وان بساطة النظام السياسي اليمني وبعدها عن الشكلية راجعان الى صغر حجم اليمن وعزلتها ، ويذكراننا بالبساطة الاساسية والطابع الشخصي اللذين اتصفت بهما الدولة الاسلامية القديمة .

* * *

وايران أبرز الامم الاسلامية الباقية . ولقد عرف الفرس جهاز الحكم مدة اطول مما عرفه العرب ، والبربر ، والاتراك ، وظلوا خارج الامبراطورية العثمانية . ولكن يصعب علينا ان نختار فترة ملائمة بالنسبة الى دراستنا هذه ، لان تاريخ ايران سجل للسلالات المتعاقبة المنحدرة من اصول محلية او اجنبية . وقد أثر العصر الحديث في الحكومة الايرانية مدة طويلة على نحو متدرج . وقد بحثنا قبلًا في النظام القديم في الفصل الخامس . وهنا لا بد لنا ان نظهر كيف قاوم هذا النظام ضربات الزمان ، والتعديلات التي أدخلت عليه بعد اعتناق الاسلام ، وخاصة بعد اعتبار المذهب الشيعي الامامي ديناً للدولة .

في عام ١٩٠٦ انتهت الفترة السابقة للدستور في ايران ، وأدخلت الاصلاحات ومنها انشاء البرلمان . وبدأ « التحديث » بشكل جدي سنة ١٩٢١ عندما سيطر رضا شاه بهلوي واعتلى العرش . وكانت الحكومة قبل سنة ١٩٢٦ شبيهة بحكومة فارس القديمة في كثير من التفاصيل . ويمكننا فهم السبب في ذلك ، لان البلاد لم تتغير ، اللهم الا من حيث اقتطاع غاباتها ، ولم تتحسن الاساليب الزراعية ، ولم تختلف وسائل النقل كثيراً . وكان الشاه ملكاً مطلقاً يصعب الاقتراب منه ، وهو يحكم بمساعدة مجلس للدولة مؤلف من سبعة وعشرين وزيراً يرأسون الدوائر ، ومن عدد قليل من موظفي البلاط غير المسؤولين عن دوائر معينة .

ويدير المقاطعات حكام يعينون لفترات قصيرة ، ويساعد كل حاكم وزير . ويحكم ولي العهد آذربيجان ، اغنى المقاطعات وأخطرها . ويقوم سعاة من الخيالة بنقل الرسائل بين المقاطعات والعاصمة .

ويشبه البلاط الفارسي البلاط العثماني في كثير من التفاصيل ، وكثير من الشبه راجع الى تبادل الاخذ والعطاء بين البلاطين . ولكن النموذج الاصلي هو النموذج الفارسي . وقد اختلف البلاطان اختلافاً عميقاً حول علاقة المؤسسة الدينية بالدولة . فبينما اعتبر السلطان التركي نفسه خليفة ، وأناب المفتي الاكبر عنه في المحافظة على الشريعة ، ابتعد الشاه الفارسي عن الرتب الدينية ، مثلما فعل سابقوه الآخيمانيون ، وتركها الى المجتهدين ، الذين استمدوا سلطتهم من شيوخهم الكبار في كربلاء . وكانت سلطة المجتهدين تنمو وتتضاءل في التاريخ الفارسي ، فكانت لهم في بعض الفترات سلطة على المحاكم الدينية والمدنية ، وكانت تأتيهم الموارد والمداخيل من الاوقاف . واستولى نادر شاه في منتصف القرن التاسع عشر على كثير من املاكهم ، وخفف من سلطتهم . وانتقلت الى الحكومة بعض الاوقاف الغنية - مثل وقف الامام الرضا - بينما بقيت الاوقاف الصغيرة بيد الرتب الدينية ، التي استمدت من العرب وحيها وتفاصيل شعائرها ، ومن الفرس وظيفتها ومكانها في مجمع الاشياء .

اما في الافغانستان ، حيث معظم السكان من السنة وحيث المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي ، فان المؤسسات الدينية والسياسية غير منفصلة عن بعضها البعض . ومع ان الامراء لم يدعو الخلافة مثلما ادعاها الاتراك ، ولا بنوا مركزهم الديني على الانتساب الى الرسول ، مثلما فعل سلطان مراكش وامام اليمن ، الا انهم مع ذلك مارسوا الزعامة الروحية . وتحت رئيس الدولة مباشرة قاض كبير تعتبر محكمته الجهاز القانوني الرئيسي للبلاد .

وقد قسمت افغانستان من الناحية الادارية الى خمس مقاطعات ، كابل ، وتركستان ، وهرات ، وقندهار ، وبدكشان ، ويحكم كلا منها حاكم يحمل لقب نائب ، ويعينه الامير . ويتألف المجلس الملكي ، المسمى دربار كما في الهند البريطانية ، من ثلاثة أصناف من الزعماء : السردار ، وهما النبلاء الوراثيون ، والخان الذين تنتخبهم قبائلهم ، والملا ، الذين يمثلون الطرق الدينية . ورغم ادخال نظام اكثر تغريباً في الافغان يمكننا ان نقول بأنها اكثر الامم الاسلامية الحديثة اعتماداً على شيوخ الدين في التوجيه . فقد ساعدت الطبيعة على عزلتها في احد اسطحة الارض ، فحافظ علماء الدين فيها عليها سالمة لم يمسها أي تغيير ، حتى اصبحت جنة للباحث الانثروبولوجي اذ ما زال فيها البطهانية والتاجيك والخزر والاوزبك والنورستانيون ، يلبسون ألبستهم التقليدية بفخر ، ويبدون استعداداً طيباً لان يكونوا موضع درس . ولكن ليس في مقدورنا ان نقول كثيراً عنها هنا ، لأننا ما زلنا في حاجة الى معرفة الكثير من أمورها .

الفصل السادس عشر

بلاد الصلف

ان في مفهوم بلاد الصلف شيئاً يستهوي الاميركيين . ولعل سبب ذلك انه كان لدى الاميركيين أنفسهم ، مثل هذه البلاد في الغرب الجائش قبل وقت غير بعيد ، ولأن اجدادهم ساروا في طريق الصلف قبل ذلك بقرون من الزمن ، عندما وطئت اقدامهم مروج قرية لكسنجتون ، ووصلوا من هذا الطريق الى الحرية . فالجغرافيا تسمح بالاستقلال ولكن التقنية تقضي عليه . وهذا هو السبب الذي يجعل بعض الناس يشعرون بالقلق ازاء فكرة العالم الواحد ، التي يجبرنا العلم التقني الحديث على السير نحوها . فاذا توحد العالم فماذا يحل بالثائرين ؟ واذا زال الثائرون فكيف تبقى سائر اجزاء العالم الصراط المستقيم ؟

وهذا ينقلنا الى نوع خامس من انواع تقسيم العمل في الشرق الاوسط . فقد رأينا تقسيمه بين الشعوب ، وبين الجموع المتخصصة في المنتجات الاقليمية ، وبين سكان القرى والمضارب والمدن ، وبين اعضاء الحرف والصناعات . اما التقسيم الخامس فهو بين المطيع والعاصي ، بين

الأليف والمستقل ، وهو تقسيم يسمح بظهور العصاة الذين حافظوا لحضارة المدن في الشرق الاوسط على نضارتها وحركتها ، منذ ان بزغ العصر البرونزي . ولنذكر انه ليس في مصر جبـــال او صحارى مأهولة في جوانب واديها النهري . فليس فيها أرض صلفة ، ولذا فان المصريين مع كونهم بلغوا من الحضارة مثلما بلغت الشعوب المتعاقبة في العراق ، فان ما قدموه لحضارة سائر اجزاء العالم لا يكاد يبلغ جزءاً مما قدمته بلاد ما بين النهرين .

والذي يعرفه الرجل العادي عن التاريخ القديم انه كلما اخذت احدى الحضارات القديمة تتداعى (باستثناء حضارة مصر) كانت شعوب أخرى تنحدر من الجبـال او تخرج من الصحراء وتتسلم مقـاليد الامور ، ثم تتعرض بدورها الى الانحلال . وهذا التفسير التقليدي يقصر من ناحيتين ، فهو لا يفسر لنـا الانحلال الذي يحصل داخل المدن بالدرجة الاولى ، ولا يعطي صورة صادقة عن عملية الاستبدال . وانحلال المدن ليس لغزاً ولا قوة اخلاقية . فمصادر المياه في معظم المدن القديمة في الشرق الاوسط غير صحية ، وطرق التخلص من الاقذار غير ملائمة . والطعـام مرتفع التكاليف ، لأنه لا بد من نقله من الارياف . وكثير منه يأتي في شكل مصنّع . ويحتاج المرء وقتاً طويلاً ليتعلم حرفة ما ، ولا يستطيع ان يتزوج الا اذا اصبح مساعداً على الاقل . فاذا كان تقسيم العمل بين الجنسين يجعل الزواج المبكر امراً ضرورياً في القبيلة او القرية ، فلا ضرورة للاسراع بالزواج في المدينة لأن الرجل الاعزب يستطيع ان يستأجر غرفة ويأكل في الاسواق . وهنـاك شؤون اخرى تعوض عن افتقاره الى صحبة الاثاث . ويقضي أوقات عمله في الظل ، ولا يمرن سوى اجزاء معينة من جسمه . ونسبة الوفيات عالية في المدن ، ونسبة

الولادة منخفضة . وربما تطلب الأمر ان يأتي نصف السكان في كل جيل من الخارج[1] .

فلو كانت المدن معتمدة على الغزوات الكبيرة لتعويض ما تفقد من سكانها ، لكان حتماً عليهـــا ان تصير الى خراب وان تصبح مواقع صغيرة للغـــاية . ولكن التعويض عملية مستمرة . اذ يأتي الافراد ، والعائلات ، والجماعات الصغيرة من العائلات الى المدينة كل سنة ليحيوا فيها حياة المدينة . ويعود بعضهم الى مواطنهم ، ويبقى بعضهم . ولهذا النوع من التعويض مصدران : القرى في المناطق الخاضعة ، والقبائل الخارجية . ويستطيع القروي ان يكون صانعاً ماهراً لأنه متعود على كدح الساعات الطويلة وعلى التركيز في عمله ، وعلى الحياة الكفافية . وهو متعود ايضاً على ان يعيش مع جماعة صغيرة ، وينصرف الى عمله دون التفات الى الحوادث التي تقع خارج جماعته . وهو مهيأ لأن يأخذ مكانه في فسيفساء حياة المدينة ، في مكان يقرب من أسفل السلم .

ولابن القبيلة مزايا عديدة على الفلاح الطيّع . فقد تعود على مستوى أعلى من المعيشة ، وفي طعامه نسبة أعظم من المنتجات الحيوانية ، وله حظ اكبر في ان يكون قوياً وصحيحاً . أضف الى ذلك انـه درب في مدرسة مختلفة كل الاختلاف . فهو كالصقر والفلاح ازاءه كالحمامة . اذ انه نشأ على تقليد من الثارات والحروب فتعلم المخاطرة المقدرة ،

---

(١) وجد في تل مدينة تبة قوره (Tepe Gawra) القديمة في شمال العراق ٣٩٣ مدفناً في المستويات ٨ الى ١٣ مضافاً اليها قسم آخر رمز اليه بالمنطقة ا . وبين هذه القبور ٢١٣ قبراً او ٥٤٪ لرضيعين و ١٠٦ قبور او ٢٧٪ لاطفـــال و ٧٤ قبراً او ١٩٪ للكبـــار (A. J. Tobler, Excavations at Tepe Gawra, Museum Monographs, II Levels IX-XXX (Philadelphia 1950), فاذا كان الكبار يشكلون ١٩ بالمئة فقط فمعنى هذا ان النساء القـــادرات على الولادة قبل الوفاة يبلغن حوالي ١٠ بالمئة . فاذا اراد كل زوجين ان ينجبا عدداً مساوياً لهما ، احتاج الامر ان تلد المرأة عشرين مولوداً . وتظهر المدن الشرقية الاخرى نفس النسبة العامة . وما زالت نسبة وفيات الرضع عالية جداً في الشرق الاوسط .

وهو يقدر قدر شرفه وشرف عائلته وفضله فوق الحياة نفسها . وهو متعود على الانضباط لانه يعرف كيف يقدر المواقف الدقيقة وكيف يتخذ القرارات السريعة . ويعرف كيف يأمر وكيف يطيع . ويستطيع ان يستعمل قوته العضلية وفتوته في المدينة بأن يعمل حمالا ، كما يفعل الاكراد في بغداد ، فاذا كان ذكياً فقد يرتفع الى مركز من مراكز السلطة . وقد يصبح سقاء الماء او الحارس ملكاً .

ان نوع التدريب الثقافي الذي تعرض له القروي الحر ، والجبلي ، قد غرس فيه ذات الصفات النافعة المشهورة التي غرسها الفارسيون القدماء في نبلاء فتيانهم بواسطة المدارس الشديدة النظام الباهظة التكاليف حسبما انبأنا اكزنفون بتفصيل . وقد فهم الاتراك العثمانيون ذلك ، وطبقوا المبدأ ذاته تطبيقاً ناجحاً في تعليمهم للخدم والفتيان الاجانب واستفادتهم منهم . وقد يلذ لنا ان ننظر الى رجال القبائل في الشرق الاوسط وزهوتهم ، وكأنهم شيء اخاذ ، رائع الصورة ، يحفزنا على السياحة الى بلادهم للمشاهدة والمتعة العاطفية ، ولكن أولى لنا ان نتداوس ما كانوا عليه دائماً - فهم مستودع من الافراد السليمين ، الاشداء ، المدربين ، وقيمتهم بالنسبة للشاهات والسلاطين عظيمة بمقدار صعوبة التعامل معهم .

تتغير حدود اراضي الصلف دوماً وباستمرار ، لأنها تعتمد على ضعف الحكومات المركزية المختصة وقوتها . ولكنها تتبع على وجه العموم التقاسيم المناخية والسطحية التي تجعل الجبال والصحارى من نصيب رجال القبائل . ولنذكر بأن البدو كثيراً ما يسكنون الجبال والصحارى ، ولكن البدو ليسوا النوع الوحيد من رجال القبائل الذين لديهم حكوماتهم الذاتية . وتصلح بعض الجبال للزراعة ، والمزارعون الذين يقطنون اراضي وعرة وراء حواجز جغرافية ، هم من المحاربين الاشداء القادرين على تكوين مستودع بشري لحضارات المدن ، كمقدرة اشباههم البدو الرحل ، واذا قارناهم ببدو الصحراء وجدنا انهم أقدر منهم على البقاء ، لأن

معيشتهم لا تعتمد على تربية الجمال التي تفقد فائدتهـــا لدى استبدالها بالسيارات ، ولأن الجبال ملجأ أمنع من الصحارى في الاجل الطويل .

يعيش مزارعو الجبال في قرى ، مثلما يعيش مزارعو السهول المكشوفة الذين يؤدون الضرائب . ويعمل كلاهما في الزراعة ، ولكن الشبه بينهما ينتهي هنا . وتهمنا اربع جماعات من هؤلاء الجبليين هنا : وهم بربر شمال أفريقيا والدروز وغيرهم من الطوائف في سوريا ، والاكراد ، والبطهانية . ولقد سبق لنا ان تحدثنا عن بعض البربر الذين يعيشون في مضارب الصحراء ، او يرتادون المراعي العالية في الصيف . وتحدثنا كذلك عن تنظيم الحكم عند الدروز ، واليزيديين ، وشعب كافرستان والبطهانية ، وعندهم جميعاً بدو في عداد قبائلهم . اما الذين سنتحدث عنهم الآن فهم المزارعون من البربر ، والاكراد ، والبطهانية . وأول ما يستحق الدرس هو القرية ، لانها الوحدة الاجتماعية الرئيسية عندهم كما هي عند غيرهم .

ولو استطعنا ان نحلق فوق هذه الجبال المتنوعة لاستطعنا ان نستنتج وجود نوعين من القرى . احدهما هو الجمع الوثيق الصغير المكون من اسطحة متراصة متلاصقة منتشرة في سفح احد الجبال . ولا تختلف هذه القرية عن قرية السهل الا في موقعها . هذا ما يراه الانسان الطائر في جبال الاطلس الكبرى بمراكش ، وفي بلاد القبيلة بالجزائر ، وفي جبال الاوراس ، وفي كردستان . وثانيهـا هو القرية المتباعدة التي لا تبدو قرية على الاطلاق ، بل عقداً من البيوت المتباعدة ، المنتشرة على جانب مجرى مائي . ولو دقق هذا الطائر النظر ، لرأي ان بعض هذه البيوت محصنة ، وان كل بيت قلعة . واذا راجع الخارطة ، وجد نفسه محلقاً اما فوق اراضي الريف المراكشي ، او فوق جبال البطهانيين (واذا كان قد سمع وصدق ما يشاع عن هذه الشعوب من اقاويل تزعم انها

تدفن اسراها حتى الاعنـــاق في حفر ، او ان نساءها يقطعن هؤلاء الأسرى قطعاً بالمدى ، فانه يصلي الى الله ان يحفظ طيارته من السقوط) .

***

قبل ان نتوصل الى دراسة أهل الريف والبطهانيين ، سنبدأ بحثنا بوصف قرية كردية تدعى ولش[٢] . ان هذه القرية التي تتألف من اثني عشر بيتاً ، يقطنها تسعون من السكان ، تقع في تجويف من تجاويف السفوح الغربية لجبال زاجروس ، على طريق راوندوز التي اتمتها الحكومة العراقية بعد انتهاء الاحتلال البريطاني . وتنتظم بيوت ولش في كتل ، يسكن كلا منها عدد من العائلات التي تجمعها القرابة . وبما ان موقع القرية شديد الانحدار ، كثير الصخور ، لا يمكن زراعته ، فان اسطحة المنازل تظهر على مستويات متدرجة من الارتفاع بعضها فوق بعض . وتخصص الغرف السفلية من كل منزل عـادة للخزن ، بينما يقيم السكان في الغرف العليا . وتتألف بعض البيوت القليلة من طابقين ، ولمثل هذه البيوت سلالم خارجية يستعملها هؤلاء الجبليون الخفاف الحركة للوصول الى الطـابق العلوي . والحوائط مبنية من الحجارة والطين . وقد يقوم في البنـاء في بعض الاحوال بناؤون من المدينة . اما قضبان السقف ، المقطعة من شجر السنديان والزان ، فتبدو عتيقة مجللة بالدخان حتى ولو كان البيت نفسه جديداً ، وذلك لأن القاطن يأخذها معه اذا ترك البيت لما لها من القيمة الكبيرة . وفي وسط الغرفة حفرة لموقد النار المستعمل في الطبخ ، وليس فوق الموقد مدخنة تخرج الدخان ، ولذا فان الدخان ينتشر في الغرفة فيؤذي عيون الجالسين ، ويجد طريقه الى الخـــارج بواسطة شقوق السقف .

---

(٢) لقد اخترناها لسبب واضح هو انها القرية الكردية الوحيدة التي نالت دراسة دقيقة على يدي انثروبولوجي مدرب. انظر : Leach, Social and Economic Organization of the Rowanduz Kurds.

وهناك بضعة بيوت يختلف مظهرها عن غيرها ، اذ لها نوافذ زجاجية وأبواب متحركة ، وهي تبدو اكبر من غيرهـا ، وأحسن . فهي ملك الآغا ، مالك ارض القرية وشيخها . فاذا كان الوقت صيفاً ، رأيت الى جانب بيت الآغا ، عريشة تظللها اوراق الأشجار ، وتحتها بسط ووسائد تستعمل للجلوس ، وتدل رائحة القهوة والدخان على انها بيت الضيوف . اما في الشتاء فان الضيوف يجلسون داخل البيت .

اما الارض الواقعة خارج القرية فتبدو وكأنهـا من صنع رسام تكعيبي كوني ، لأنه بالرغم من كون الخطوط السطحية موروبة بشكل واضح ، فان السطوح ذاتهـا أفقية وعمودية . وان الدرجة التي تعلو الدرجة ، والسلسلة تتلو السلسلة ، لتفصح عن جهد مئـات وآلاف من الرجال الصبورين ، جيلاً بعد جيل ، لايجاد رفع من الحقول في سفوح الجبـال . وترى في تلك الربعان الالوان الخضر المتدرجة الظلال ، من الاخضر الشديد المـائل للزرقة المنبعث من رقع البصل المزروعة قرب أسفل الوادي ، الى الاخضر الخفيف المنبعث من سيقـان القمح الحديثة المزروعة في الجوانب . وفي أسفل الوادي زرقة لماعة تشق طريقها وسط السفوح : وتلك هي زرقة الماء . ويجف هذا المجرى المائي عندما تحول المياه للري . وعندما تدار مطحنة القمح يبدو وكأنه مبتدىء من نصف مجراه ، حيث تتدفق مياهه تحت عجلات الطاحون .

وهكذا فان ماء هذا الجدول يخدم اغراضاً أربعة . فهو يغطي البقع التي تزرع بالارز من أرض الآغا ، والارز نوع نبيل من الحبوب يقدمه الآغا لضيوفه في دار الضيافة . والماء يروي بساتين الخضار التي يزرعها افراد المزارعين ، ويروي اراضيهم المزروعة بالتبـغ ايضاً . ويدير طاحونة القمح . ولكن كمية الماء لا تكفي لهذه الاغراض كلها دفعة واحدة . فالتبغ ضروري للتدخين وللبيع . والطاحونة المدارة بالماء توفر كثيراً من الجهد النسائي العضلي ، وتوفر الوقت ايضاً . والكل في حاجة الى

الخضار . فلا بد اذن ان يوجد واحد يقرر من يستعمل الماء وكيف يستعمله ومتى . وذلك الشخص هو الآغا .

والآغا هو الرجل الأول في القرية ، وهو مسؤول عن باقي سكان القرية البالغين تسعة وثمانين . ويسكن اقرباؤه المقربون اربعة من منازل القرية الاثني عشر ، ويبلغ عدد هؤلاء ستة واربعين فرداً ، او اربعين بالمئة من مجموع سكان القرية . ومع انه خلف أباه الآغا في المركز ، فهو لم يكن اكبر اولاد أبيه . بل انتخب من بين اخوته باسلوب غير رسمي ، باعتباره اصلحهم للرئاسة . وأخو الآغا الأكبر يقيم في قرية رايات المجاورة ، حيث ينظم رحلة الصيف السنوية الى المراعي المرتفعة ، بينما يبقى الآغا نفسه في موطنه .

ولا يرسل اهالي قرية ولش انفسهم القطعان في الصيف ، بل يسلمون جميع حيواناتهم الى راع واحد يرعاهـــا حول القرية طول السنة على الحشائش المتيسرة وغيرها من العلف . فليس لأخي الآغا الكبير في ولش اذن اي واجبات خاصة ، مع انه قد يساعد الآغـا في ادارة طاحونة القمح وغير ذلك من الاعمال الثانوية . وقد غادر القرية اثنان من ابناء الآغا المتزوجين وأصبحا اغاوين لقريتين أخريين ، ولكن اثنين من ابنائه ما زالا مقيمين فيهـا . ويتألف منزل الآغـا من عشرين شخصاً ، من الزوجات والخدم والاطفال ، بينما يتكون كل منزل من منازل أخيه وابنائه من ثمـانية اشخاص ، فيشكل افراد هذه العـائلة الارستقراطية بمجموعهم اربعين بالمئة من السكان .

ويتخذ الاغوات لأنفسهم على وجه العموم اكثر من زوجة واحدة ، بينما يكتفي العامة بزوجة واحدة . وكان لآغـــا ولش سنة ١٩٣٨ ، عندما أجري ليتش (Leach) دراسته خمسة عشر ولداً على قيد الحيـاة ، خلفهم له تسع زوجـات ، والمفروض انه لم يكن له اكثر من أربع زوجات في أي وقت من الاوقات . وتتكاثر عائلات الأغوات بينما لا

تكاد عائلات العامة تحافظ على اعدادها . ومع ان بعض ابناء الطبقة العليا يقتلون في المعارك والثارات (او كانوا) ومع ان بعضهم ينتقل الى القرى الاخرى ليتسلم المسؤوليات فيها ، فان الفاشلين من ابناء هذه الطبقة لا يلبثون ان ينحدروا الى ما دونهـــا ، فاذا زاد العدد هاجر البعض منهم والمهـاجرون عادة من الطبقة الأدنى . ويلقب ابناء الآغا وأخوته بلقب الآغـــا ايضاً للمجاملة ، ولكن هذه المجاملة لا تستمر لأجيال متعددة .

وهذا هو السبب في القرابة التي تجمع بين معظم سكان القرية ، وخصوصاً لأن جميع المصاهرات تجري من بين افراد القرية نفسها ، فيما عدا زواج عائلة الآغا المباشرة . ويفضل العـــامة تزوج بنات العم ، ويشبهون بذلك البدو . فان لم يستطع احدهم ان يتزوج ابنة عمه فقد يتزوج ابنة عمته ، او ابنة خاله ، او ابنة خالته . ويستشار الآغـا في جميع المصاهرات ويوافق عليها . ويهمه بالدرجة الاولى طبعاً ، ان يحافظ على ترابط الجماعة وتقاربها . وهو لا يرغب في أية مصاهرات مع القرى الاخرى على أي مستوى ، دون مستواه . فهو يعـالج جميع المشاكل القائمة مع القرى بنفسه ، ولا بد له ان ينال من قريته ولاء كاملاً غير موزع . فهو الذي يتزوج من خارج القرية ويخطب لابنائه زوجات من خارجها . وبهذه الطريقة يوثق العلاقات بين مختلف اقسام القبيلة وبالشكل نفسه يحاول الآغا ان يزوج بناته الى المتكافئين معه في القرى الاخرى . وهذا يزيد في توثيق العلائق ، ويعوضه جزئياً عن المـال الذي دفعه مهراً لكل زوجة من زوجات أبنائه . وليس كل بناته يتركن القرية . فقد يظهر في القرية بين الحين والحين شـاب من أصل متواضع ، يميز نفسه في الحرب وفي قيادة الرجال ، وقد ينال مثل هذا البطل الشاب يد واحدة من بنات الآغا . فاذا تزوجها ارتفع الى الطبقة العليا ، وقد

يصبح هو نفسه آغا ، اذا لم يتعجله الموت . فهناك مجال للارتقاء لأعلى ، والنزول لأسفل ، وقلما يرث المرء مرتبته عن طريق الام[٣] .

وليست رغبة التحالف بالدافع الوحيد الذي يدفع آغا القرية الى تزوج زوجات عديدات . بل هو في حاجة الى أيد كثيرة لتأدية اعمال الطبخ اللازمة للضيافة ، اذ في «المضافة» يطعم المتجولين ويكرمهم وفيها ايضاً يستمتع رجاله بالشاي المحلى بالسكر وبالقهوة ، وتلك طيبات لا يستطيع معظمهم تناولها في بيوتهم . ولكنهم يقابلون ذلك بتقديم عنزة بين الحين والحين او قعب من اليوغرت (اللبن) ، او نصف كيس من القمح . ويجلب فضلاء الضيوف ، المهذبين والعاقلين ، الهدايا معهم الى الآغا ، ومن هذه الهدايا يتألف معظم الشاي والقهوة والسكر التي يتناولها القرويون او كلها . والعلاقات بين الآغا والقرويين عادة علاقات ودية . فان لم تكن كذلك فقد يأخذ آغا آخر محله . ويروي ليتش على سبيل المثال ان آغا ولش طرد رجلا سرق الماء ليروي به تبغاً زرعه ، ولكن ربما كان اللص مستحقاً للطرد . فلو لم يطرده الآغا ، فربما قام احد القرويين بضربه بقضيب حديدي على رأسه[٤] . ولا شك ان سائر القرية وافقت على قراره . (لا تقل الخلافات على الماء عن خلافات الجنود على سيارات الجيب . وفي شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤٩ ، كنا نسوق سيارتنا من السليمانية لدراسة احد كهوف هزارمرد ، فوجدنا طريقاً مغلقة بسبب فيضان ناجم عن سرقة المياه للري) . ولعل أهم واجبات الآغا داخل القرية هو تنظيم مياه الري . اما واجبه الخارجي فهو تأمين علاقات قريته مع القرى الاخرى داخل القبيلة وخارجها ،

---

(٣) لا يتحدث ليتش عن هذه الحركة صعوداً ، وقد وجدت ذكراً لها فيما دونته من ملاحظات عن قبيلة الشقاقي التي تقطن ايران عبر الحدود العراقية .

(٤) يقال بأن اكثر الحوادث التي تعالجها مستشفيات ايران الريفية في فصل الري هي عبارة عن كسور في الجمجمة قد يرافقها ارتجاج في المخ .

ومع الحكومة الرسمية . وتتضح من هذا حاجة القرية الى رجل يتحلى بصفات الزعامة .

ويعتقد الآغا ، ويعتقد سكان القرية معه ، بأنه هو مالك الارض ، وان الآخرين هم مزارعون عنده . ونصيبه النظري نصف المحصول ، ولكن النسبة الحقيقية تتغير تغيراً كثيراً . ويستطيع الآغا ، اذا اراد ، ان يخرج امرءاً من بيته ، فان فعل قام ذلك الشخص ينزع قضبان السقف ، وأخذها معه وارتحل . ولكن اخراج المزارعين نادر في الواقع ولا يتم الا بالاتفاق العام . واذا مات شخص ما فان الآغا هو الذي يقرر الى مَن مِن ابنـــائه او اخوته ــ اذا وجدوا ــ سيؤول البيت والارض . ولا توجد هنا مشكلة تجزؤ الارض الى قطع صغيرة جداً .

اما الحكومة فلهـا رأي آخر حول ملكية الارض . فهي تعترف بثلاثة انواع من الحيازة في جبـال كردستان : الملك ، وهي الاراضي المملوكة تماماً ، والميري ، وهي الاراضي التي تملكها الدولة ، ويشترط في حائزها القيام ببعض الواجبات ويسمح له بالتصرف بها ، والطابو ، وهي ايضاً ملك للدولة ، ولكنها تسجل باسم الحـــائز فيصبح لأولاده حق مضمون بهـــا . ولم يكن الاكراد يهتمون برأي الدولة في أرضهم في العهد العثماني . اما الان فان الحكومة العراقية شقت طريقاً وأصبحت قادرة على الوصول اليهم ولذا فقد بدأوا يهتمون بالامر . وتعتبر معظم الاراضي من فئة الميري ، ويفضل الاغوات تغييرها الى فئة الطابو . ولا توجد الاراضي الملك الا في الحواضر التي يمتلك فيها الاغوات بعض المنازل .

وهذه الحواضر هي التي يذهب اليها القرويون لشراء حاجاتهم ، وفيها يختلطون بالنصارى واليهود . ولا ضرورة تدعوهم لترك منازلهم بقصد الشراء ، لأن لديهم وسائل أخرى للاتجـار . فقد يفد عليهم بين الحين والحين بائع متجول ومعه مخزنه المتحرك ، فيبيع علب الثقاب ، والابر ، وأوراق السكاير ، والبهارات ، والكيروسين ، والخيوط ، والسكر ،

والشاي ، والقهوة . فاذا جاء الصيف ، انتقل الى المروج العالية ليبيع البدو . وفي ولش يشتري منه عامة النـــاس . اما الآغا فقد يشتري حاجاته من الحاضرة ، او يشتريها من بعض الباعة المتجولين الخاصين الذين يمثلون تجاراً من اليهود او الارمن . ويسلفه هؤلاء الباعة الاشياء بدون فائدة ، ولكن لقاء سعر مرتفع . وليس هؤلاء الارمن واليهود هم أهل الكتاب الوحيدين الذين يتعامل معهم الاكراد اذ تنتشر في بلادهم قرى يسكنها الآثوريون ، والنسطوريون النصارى الذين يكثرون في المنطقة الواقعة على الشواطىء الغربية لبحيرة اورمية . والآثوريون مزارعون مدهشون ، وهم ايضاً صناع مهرة . ويستطيعون عـــادة ان يتجولوا بحرية ويؤجروا خدماتهم للأكراد . وترى اليوم كثيرين منهم يخدمون في الشرطة العراقية .

وتقطن وادي راوندوز قبيلتان لكل منهـــا آغا كبير . وهاتان القبيلتان هما سوران المكونة من عشيرة واحدة وبليك المكونة من ثلاثة عشائر . اما آغا البليك الاكبر فهو صديقنا الشيخ محمد ، آغا ولش . ولبليك خمسة أغوات ، وبما ان اثنين منهم هم ولدا الشيخ محمد ، فان لعائلته الاكثرية بين الاغوات . وهناك قريتان تختلفتان عن سائر القرى ، وهما قريتـان مقدستان ، يحكمها درويشان ، عم وابن اخيه ، ولهذين الدرويشين زوايا صوفية على الطريقة النقشبندية التي يقع مركزها في بخارى . وسكان هاتين القريتين آمنون لا تمسهم الحروب ، لما لهم من قداسة ، ولذلك فـان هذا يوفر لهم الحماية الضرورية من اجل الترحال والتجول . وهم يتجولون فعلاً في الجبال والوديان ، ويتاجرون مع القبائل المنهمكة في خلافاتها ، وفي التهريب عبر الحدود .

وتتكون القبيلة من عدد من الجماعات ، تعرف كل واحدة منها باسم طائفة ، والمفروض ان يكون أفراد كل طائفة أقرباء عصبة . ولكن الظاهر ايضاً ان لا حاجة لوجود القرابة بين جميع طوائف القبيلة .

ويذكر ليتش مثلاً ، ان آغا سورك كان يحاول ان يقنع احدى طوائف مالك بالانفصال عن الام ، قصد الالتحاق به فيما يظهر . وتتكون الطائفة ايضاً من عدد من الجماعات الصغيرة المسماة تيرة ، وهؤلاء بالطبع يتكونون من منازل عدة . وقد يكون في القرية اكثر من تيرة ، ولكن المفروض ان ينتمي جميع سكانها الى طائفة واحدة .

ولماذا هذا التنظيم الواسع ، ما دام هؤلاء القوم لا يهاجرون ولا يحتاجون الى ذلك التنظيم اللازم للهجرة وحراستها ؟ والجواب هو بالطبع ان كل قرية وحدة اقتصادية ، منفصلة عن جيرانها ، ومتنافسة معهم . ويسهل عليهم ان يغزو بعضهم البعض ، وبخاصة في اوائل الربيع ، عندما تكون مستودعات القمح فارغة ، وتكون الامزجة حادة . فيحافظ النظام القبلي على الامن بمقدار يكفي للسماح بدخول البضائع المصنوعة وخروج المواد الاولية ، بحيث يمكن المحافظة على مستوى معيشة مساو لمستوى العصر المعدني . ويؤمن النظام ايضاً التعبئة السريعة لبضع مئات من المحاربين في حالة الغزو .

وقد حاولت الحكومات القائمة في جانبي جبال زاجروس منذ ايام قدماء الآشوريين والميديين حتى يومنا الحاضر ، ان تجذب الاكراد الى افلاكهـــا السياسية . ولكن الاكراد قاوموا طيلة هذه المدة الغزو والتمثل . وعندما يقرأ المرء حوادث التاريخ ، لا يجد فيما فعله الغزاة لهذا الشعب شيئاً يشجع الشعب نفسه على الاستسلام والخضوع . اما هم من جـانبهم ، فقلما استكانوا الى دور الضحية الضعيفة ، وكان لهم يد طولى في الغزو ونهب الابقار . والمعروف عنهم انهم في ايران يعيثون قتلاً ونهباً في قرى اذربيجان التركية ، وهؤلاء الاتراك بدورهم اتخذوا من الاثوريين ضحية لهم ، بينما علاقـات الاكراد والاثوريين حسنة على وجه العموم . وليس من الممكن ان تروى كاملة قصة الغزوات والثارات والحروب التي قامت في هذا الجبل ، حتى في السنوات العشرين الاخيرة .

ولكن هذه الاعمال التي تتضمن الشجاعة ، وتضحية الذات ، والطمع ، والغدر ، تكون مادة الاغـــاني الكردية الملحمية ، تلك الاغاني التي يسمعها الطفل في مهده ، وترن في اذنيه حتى يصبح محارباً صعب المراس . ولا يستطيع المرء الا ان يلاحظ كثرة التلقين العقائدي الذي يعرض له الكردي الشاب وغيره من ابناء الجبال حول بطولات الدماء .

***

فـاذا انتقلنا الى بلاد أخرى مكونة من القرى الجبلية وصلنا الى بلاد القبيلة في الجزائر(٥) . وهذه البلاد هي اكثر مناطق الجزائر كثافة سكان ، وتبلغ الكثافة فيهـا مئتين وخمسين شخصاً للميل المربع ، وقد تصل الى خمسمائة وثلاثين شخصاً في منطقة الحصن الوطني . واذا ارتقى المرء قمة تقرب من هذه المدينة ، استطاع في يوم منكشف ان يعد اكثر من مئة قرية منثورة على صخور الجبل وشعابه ، وهي تقع في اماكن ملائمة جداً للدفاع ، ولكنها كثيراً ما تكون بعيدة عن الاراضي وعن الميـاه . وقد اختيرت هذه المواقع بالطبع ايام كانت كل قرية دولة ذات سيادة ، فقررت الاعتبارات العسكرية بالتالي مواقع القرى . وتجد النساء في كثير من القرى يصرفن وقتاً كبيراً في حمل المـاء الى أعالي الجبال ، وتخزن كميات من المياه في القرية تحسباً للطوارىء .

وتختلف احكام القرى بحسب الاراضي الزراعية المتوفرة ، وتتراوح بين الضيعة الصغيرة المؤلفة من ستة بيوت ، وبين القرى المؤلفة من بضع مئات من البيوت ، يقطنهـا اكثر من ألف ساكن . فاذا رأى المرء عدة ضياع صغيرة تتباعد عن بعضها اميـــالاً قليلة ، فالغالب ان

---

(٥) ان الاشياء المكتوبة عن القبيلة كثيرة جداً ، الا ان أفضلها هو كتاب: A. Hanoteau and Le Tourneux, La Kabylie et les coutumes Kabyles (2d. ed. Paris 1893), 3 vols. وهناك كتاب صغير وحسن عنهم هو كتاب: Glora Wysner, The Kabyle People (New York 1945).

تكون تابعة لادارة جماعية موحدة باعتبارها قرية واحدة . اما الضيعة المفردة بين جيرانها فتتبع الجماعة الكبيرة التالية . ويهبط مزارعو القرية الى حقولهم في الصباح ، ويعودون في المساء تاركين المحراث في الارض حتى ينتهي البذار . ويعملون ازواجاً او جماعات . ولديهم وسائل قانونية كثيرة تنظم شراكتهم في العمل ، وهي تعود الى أصل بربري وتناقض الشريعة الاسلامية . ويفضل احدهم ان يملك حصصاً في عدة ثيران على ان يكون له ثور واحد ، لتخفيف الخسارة في حـال تلف الثور . ويشتغل كثير من الرجال عند غيرهم على الاسلوب الفارسي ، ويعطون خمس المحصول لقاء العمل ، وبعضهم يشتغل على اراضي الحبوس التي يعود ريعها الى الجامع .

وينتظم المزارعون كالعـادة ، في عائلات ابوية واسعة ، تقطن كل منها منزلاً واحداً او منازل متلاصقة . وتنتظم هذه المنازل بدورها في احياء ، وأفراد الحي الواحد هم عادة من الاقرباء . وفي منتصف القرية بنايتان عـامتان قائمتان على مقربة من فناء مكشوف وهما الجامع ، والجماعة او منتدى القرية . وليس في القرية مثل الحمام الذي شاهدناه في القرية الفارسية ، مع ان الحمامات موجودة في المدن . ولكن يجد المرء عدداً من المتخصصين . وفي القرية الكبيرة عائلة يهودية واحدة ، لا تتميز عن سائر السكان الا بحرفتها ودينها ، اما لباسها وطعامهـا فلا يختلفـان عن مثلها في القرية . واليهودي صانع يبيع الفضة والحلي المرجانية التي تحتاجها العرائس . وله أقرباء في القرى الاخرى ، والقرى التي لا يسكنها سوى اليهود قليلة في بلاد القبيلة ، مثلمـا هي قليلة في جبال الاطلس المراكشية ، وفي اليمن وغيرها من المناطق الجبلية .

وهنـاك اختصاصي آخر هو الحداد ، وهو ايضاً اجنبي . ويعيره القرويون بيتاً ، وتدفع له كل عـائلة مقداراً ثابتاً من القمح والمنتجات الاخرى كل سنة . ويقدم للجميع مقابل ذلك خدماته ، في حدو الحمير

والبغال وتصليح الادوات . والاختصاصي الاخر هو الحلاق . وهناك ايضاً خياط يخيط البرانس التي يلبسها الرجال ويزينها بالتطريز الحريري . وتعمل خياطة محترفة في الخياطة للنساء . وقد أخذ مختصو الخياطة ، منذ زمن ، يستعملون آلات سنجر التي تعينهم على السرعة في العمل . وان المرء ليتساءل الى أي حد عملت هذه الآلات على ايجاد هؤلاء المختصين ، اذ انك اذا زرت القرى المراكشية الجبلية التي ما زالت الخياطة فيها تعمل باليد ، وجدت ان الطلبة في الجامع هم الذين يقومون بأعمال الخياطة والتطريز للرجال والنساء .

ويأتي بعض الخبراء الاخرين ويزورون القرى في مواسم مختلفة . وبين هؤلاء برادعيون ، وصانعون للصحون الخشبية . ويأتي هؤلاء الاخيرون ازواجاً ، ويشترون شجرة سميكة الجذع من صاحبها او اصحابها ويقطعونها قطعاً ، ويحفرون من هذه القطع الصحون الملائمة لاكلة الكسكس . ويبيعون هذه الصحون بعد ذلك الى القرويين . ويجد المرء مختصين آخرين في الاسواق الاسبوعية (وقد وصفناها في الفصل الحادي عشر) . وهؤلاء هم الجزارون ، والوزانون ، والقياسون وكثيرون غيرهم من اصناف الباعة المتجولين . ويفد السكافون الى الاسواق والى القرى . ويظهر الراقصون والمغنون الذين يتقنون الايقاع على الطبول في فترات الاعياد . وازاء توفر هؤلاء الاختصاصيين كلهم لا يحتاج ابناء القبيلة للذهاب الى المدينة الا تفتيشاً عن عمل .

والى جانب قرى اليهود يجد المرء قرى كاملة من الدراويش في الجبال . وهؤلاء هم المرابطون ، ويتبرك الناس بهم لانهم من سلالة ولي معروف . وقلما يكونون ايضاً من سلالة النبي . وتجد في كثير من القرى عائلة واحدة من هؤلاء الدراويش المسالمين ، المختصين بالامور الدينية ، وهم يعيشون من شفاء الناس بالبركة ، ومن ارشاد المحبين والمهمومين . ويعمل احدهم اماماً للجامع . وقد يكون هذا مقيماً او

مستجلباً ، فيؤذن للصلاة ويعلم في مدرسة القرية ويأخذ التلاميذ عنه معلومات شفهية عن أوليات الدين الاسلامي على المذهب المالكي كما هي الحال ايضاً في مراكش .

ويطلب من كل فرد ذكر من ابناء القرية البالغين الذين سبق لهم صيام رمضان ثلاث مرات متتاليات ، ان يحضر الى الجماعة ، او منتدى القرية ، مرة في الاسبوع على الاقل . وينادي كل رئيس من رؤساء الاحياء (يسمى رئيس الحي الطامن) على ابناء حيه بأسمائهم ليتأكد من حضورهم الاجتماع . فاذا كان الطقس حسناً جرى الاجتماع في الفناء المكشوف . ويرأس الاجتماع شيخ وقور يسمى الامين ، ووظيفته تشبه وظيفة رئيس البلدية من عدة وجوه ، فيتلو جدول الاعمال ، ويدير الجلسة اثناء البحث . غير ان معظم المتحدثين هم ايضاً من الشيوخ الوقورين البيض اللحى . ويسمى هؤلاء « عقلاء » القرية ، وهم من الرجال الذين انضجتهم السنين ، ومن اصحاب الثروة نسبياً ، ومن البارزين في عائلاتهم ، واحيائهم ، واحزابهم . ويغلب ان يكونوا قد قرروا ، بالاشتراك مع الامين والامام ، جميع المواد المطروحة للبحث مقدماً ، ولكنهم يتناقشون فيها لاطلاع الشبان قبل التصويت . ومع ان الشبان لا يكادون يقولون شيئاً ، فان لرأيهم أهميته . اذ لا بد للأمين من الحصول على تصويت إجماعي قبل تنفيذ اي مشروع ، ويعلن هذا التصويت برفع الايدي . وفي بعض الاحيان يرفض الشبان مشاريع الشيوخ ، وينسحب هؤلاء مهزومين .

وكانت الجماعة قبل الغزو الفرنسي مستقلة استقلال مجلسي الكونغرس الاميركيين . فلها ان تصدر القوانين مثلما يصدرها السلطان التركي ، ولها ان تنفذ هذه القوانين . ولها ان تفرض الضرائب ، وتدير الحبوس ، وتعلن الحرب ، وتنشيء الاحلاف ، وتفاوض لعقد معاهدات الصلح . وكانت القرية لا القبيلة هي المؤسسة الرئيسية في بلاد القبيلة ، كشأنها

عند الاكراد . ولا شك ان من الاسباب الرئيسية لذلك ان المطر أغزر ، وهذا يسمح بنشوء القرى الكبيرة ، بينما تسمح الاجهزة التي سبق لنا وصفها[٦] بالاستقلال الاقتصادي .

ولنعد الى الجماعة ، فنجد اعضاءها يفضلون الا يتدخلوا في المنازعات الشخصية بين الافراد . فاذا تخاصم رجلان في أمر يهمها وحدهما ، كأن يدوس احدهما قمح الاخر ليصل الى نخلته الخاصة ، عينت الجماعة قاضياً او اثنين من القضاة بشكل غير رسمي ، او اختارت بعض خبراء العدالة لسماع القضية برئاسة الامين وبحضور « العقلاء » .

ونجد ان عدداً من القرى المشتركة في منطقة جغرافية واحدة كالقرى التي تشترك في دورة موحدة من الاسواق الاسبوعية (وهذا لا يعتبر مقياساً على الدوام) تعتبر نفسها من الناحية النظرية اعضاء في قبيلة واحدة ، ويشكل افراد القبائل المتلاصقة حلفاً من القبائل . تلك هي الخطوط الاساسية للتنظيمات النظرية ، ولكن قلما كانت القبيلة تجتمع بصفتها قبيلة ، وقلما كانت الاحلاف تجتمع . ولا يجمع بينها ويحفزها على اختيار « أمغار » سوى غزو رئيسي ، كغزو الاتراك او الفرنسيين . وكانت علاقات القرى فيما بينها تنظم من خلال جهاز آخر هو «الصف» او الحزب السياسي . وينقسم أفراد كل قرية الى صفين متساويين تقريباً ، ولكن احدهما يعتبر دائماً الصف الاقوى في اية قرية من القرى . و « الامين » هو دائماً زعيم الصف الاقوى . وتخدم هذه الانقسامات نفس الغرض الذي تخدمه في جميع انظمة الانشطار ، وهو ايجاد توازن في القوى وجهاز للعون المتبادل . والمرء حر في تغيير صفه ، لان عضوية الصفوف ليست وراثية ، كما انها تتناول الاحياء كلها ولا تنحصر في حي واحد . وقد يوجد الصف الواحد في قرى عديدة ، فيوثق ارتباطها بشكل يزيد عما يستطيع تحقيقه اي جهاز علني كاجتماعات مجالس القبائل

---

(٦) راجع الفصل السادس .

والاحلاف . ولا شك ابداً في ان نظام الاحزاب التي تتناول القرى ساعد كثيراً في حفظ السلام وفي الاقلال من العزلة التي تتولد من الثارات الدموية .

وان الانشطار الى حزبين مشابهين لاحزاب الصف الجزائرية امر شائع في البلاد الاسلامية . فتجد المدن والقبائل في جنوبي شبه جزيرة العرب ، منقسمة الى حلفين اثنين ، مبنيين على الانساب ، وهما الغافري ، والهناوي . ومهما يكن سبب نشوء هذه الاحلاف ، فانها تساعد في المحافظة على توازن القوى في اقليم يضعف فيه الحكم المركزي او تقل كفاءته . وقد نشأت مثل هذه الاحزاب في سوريا ومصر في العهد العثماني ، وكان تنظيم « اهل الفتوة » في بر الاناضول اكثر شبهاً بها ، لأنه قسم المجتمع فعلاً الى جماعتين متنافستين .

وهناك جهاز ثان يساعد كثيراً في المحافظة على التوازن داخل القرية ، وهو قيام الامين بتضحية خروف او ثور من اموال الضرائب ، كلما تجمعت لديه أموال كافية لهذا الغرض . فاذا ذبح الضحية وزع لحمها قطعاً متساوية بين جميع افراد القرية ، بقطع النظر عن الجنس والسن والثروة . ولا شك ان حاجة الفقراء الى اللحم جعلت الكثيرين منهم يهتمون بالمحافظة التامة على النظام اثناء جمع هذه الضرائب التي تنالهم منفعتها . ومع ان للأمين ان يختار الوقت الذي يريده من اجل توزيع اللحم ، فقد جرت عادته ان يختار اللحظات الحرجة عندما يكون توازن القرية متداعياً . فاذا مات احد الوجهاء وزع اللحم ، واذا هدد الجفاف المزروعات ، ضحى ثوراً ودعا الى صلاة الاستسقاء ، ولا شك ان زيادة مقدار البروتين في طعام القرويين تساعدهم على مزيد من الاحتمال والصبر في مثل هذه الشدائد . ويراقب الامين بالطبع مزاج شعبه دائماً ، بواسطة الطامنين او زعماء الاحياء . فاذا مات الامين او قرر ان يعتزل ، تجتمع فئة صغيرة من الجماعة مكونة من الزعماء السياسيين المحليين وغيرهم من الوجهاء

لترشيح خلف له . ثم تجتمع الجماعة كلها للتصويت على هذا المرشح . فاذا وجد شخص يتفق الجميع عليه ، ذهبت لجنة الى بيته لابلاغه قرار انتخابه . وقد جرت العادة ان يتظاهر بالرفض ، ثم يقبل بعد وضع الشروط . ولا بد ايضاً من موافقة الجماعة على هذه الشروط ، فان تمت الموافقة تسلم الوظيفة .

وهذا لعمري نظام ديموقراطي . وقد درسه الكثيرون من علماء السياسة وأعجبوا به ، وشبهوه بمدن الدولة القديمة عند الاغريق والرومان ، وبنظام اجتماعات المدن في نيو - انجلند ، عند الاميركان . واستطاع ابناء القبيلة وغيرهم من بربر الجبال في شمالي افريقيا ان يحافظوا بواسطته على حريتهم في مدى آلاف السنين ، ولو انهم خسروها عدة مرات اثناء ذلك . وليست قرية القبيلة مجتمعاً اختصاصياً دائراً في فلك مع مجتمعات مشابهة نواتها احدى الحواضر ، بل هي أمة على مقياس صغير ، تتصل بغيرها من الامم عن طريق السوق الاسبوعي (التجارة العالمية) والروابط العالمية (نظام الصف) .

ولابناء القبيلة شغف في استقبال الضيوف والحفاوة بهم ، وهم يشبهون بذلك باقي البربر والعرب ايضاً . ويذهب بعض الزائرين الى البيوت الخاصة وينزلون في ضيافتها ، ويذهب آخرون الى الجامع ، حيث يأكلون مدة ثلاثة ايام على الحساب العام . فاذا فتش احد الغرباء عن ملجأ او حمى ، فقد ينال الحماية من فرد ، او حي ، او صف ، او من الجماعة كلها . وتسمى هذه الحماية باسم « العناية » ، وهي واجب مقدس كل التقديس ، فاذا قدم احد أفراد جماعة ما عناية لشخص ما ، ثم غدر بذلك المحتمي ، فانه يقاصص بالقتل . وتوطد هذه الوسيلة اذن اقصى حد من العلاقات بين الجماعات ، ومن الامتزاج الحضاري . وهي تحافظ على حياة الناس وتساعد على توطيد الامن ، لانها تحمي اللاجئين من الغضب الانتقامي الذي يلاحقهم في مواطنهم . وهي ايضاً جهاز يستطيع عن

طريقه بعض افراد بلاد الصلف ، الذين يتوفر لهم العنفوان لا محبة الناس ، ان يصلوا بلاد الحكومة وهم أحياء . وبما أن تزويد المدينة بمثل هؤلاء الافراد سبب من الاسباب البيولوجية والحضارية الرئيسية لوجود أرض الصلف ، يصبح مفهوم العناية مفهوماً هاماً .

وهناك اداة أخرى لانشاء العلاقات بين القرى ، وتلك هي طريقة الرحمانية (وقد سبق لنا وصف شعائرها في الفصل الثامن) . وقد نشأت هذه الطريقة في أواخر القرن الثامن عشر وازدهرت في القرن التاسع عشر . وقد كانت طريقة الرحمانية هي التي تقدمت ثورات عام ١٨٥٧ و١٨٧١ ضد الفرنسيين ، وهذا يفصح لنا عن دورها . فلو ترك ابناء القبيلة وشأنهم وأجهزتهم في حرية وسلام ، فانهم لا يحتاجون الصوفية وطرقها . اذ ان ثقافة البربر تجعل من هذا الشعب شعباً واقعياً ، وهي تلبي حاجاته العاطفية . ولقد نشأت الطريقة الرحمانية تعبيراً عن الثورة ضد الحكم التركي ، ثم استمرت حركة معادية للفرنسيين . وان دارس تاريخ الهنود الحمر في اميركا ليجد شبهاً بينها وبين حركة «رقصة الشبح» التي انتشرت بين قبائل السهول ، ونشأت في فترة الفوضى عندما كانت الابقار قد أخذت تتلاشى ، وكان موعد تخصيص «التحويطات» لمعيشة الهنود قد اقترب* .

وكان بربر جبال الاطلس العظمى في مراكش ، الذين يؤلفون مع اقربائهم القاطنين في وادي سوس اكبر كتل البربر في شمال افريقيا عدداً ، وأكثرها تناسقاً - كان هؤلاء فيما نعلم يعيشون حوالي سنة ١٨٦٠ على نفس اسلوب القبيلة الذي وصفناه باختصار[٧] . وكان يقطن

---

* جمعت الحكومة الاميركية بقايا الهنود الحمر كلهم في مناطق خصصت لهم ، سمتها التحويطات (Reserves) ويعيشون فيها معيشة منعزلة . (المترجم)

(٧) هذا القسم مبني على كتاب : (Robert Montagne's) النفاذ : Les Berberes et le Makhzen dans le sud du Maroc (Paris, 1930).

الوديان الواقعة في جانبي سلسلة الجبال أفراد احرار من سكان القرى ، حكموا انفسهم بواسطة مجالس شعبية ، وأهم وحـــدة عندهم هي تلك المكونة من سكان الوحدة الجغرافية الواحدة كالوادي او شعب من شعابه . وينتخب المجلس بين الحين والحين رئيساً يرشدهم في حروبهم ضد جيرانهم او في مقاومتهم لعملاء السلطان . ويدعى هذا القائد العسكري أمغار (الشيخ) ومدة وظيفته سنة واحدة .

اما النظام الاجتماعي فكان معقداً بعض التعقيد . وهناك نسبة من السكان تتراوح بين الخمس والعشر ، حسب اختلاف المناطق ، وأفرادها يسمون انفسهم المرابطين . ويعيش هؤلاء في قرى منفصلة ، ويملكون معظم الاراضي الصالحة ، ولهم نفس الواجبات التي يؤدونها في الامكنة الاخرى من شمال افريقيا ، والعادة ان تفاخر كل قبيلة او كل حلف من القبائل بولي خاص بها ، يعتبر مقامه أقدس موقع في نظرها ، ويعمل بعض نسله في واقع الامر أئمة دينيين لها .

وتتكون الطبقة الثانية من الغالبية العظمى من الشلوح او القرويين ورجال القبائل . وتتألف الطبقة الثالثة من الجماعة المسماة بالحراثين الذين سبق لنا ان قابلناهم عند الطوارق وايت أتا – وهم من العبيد الزنوج ، والاتباع الزراعيين ، ويكثر وجودهم في أسافل الجبـــال . ولكن وجودهم نادر في مجتمعات الجبال ذاتها ، الا حينما يعمل افراد منهم في بعض القرى حدادين محليين . وعندمـــا تغير النظام فيما بعد ، ونشأ الرؤساء الكبار ، زادت أعداد هؤلاء العبيد الطيبين في الجبال . وأحط الناس مقاماً في نظر الناس هم اليهود ، وهم من صناع المعـــادن ، والتجار ، ولهم قرى خاصة . وتقول الاساطير بأنهم كانوا فيما مضى اكثر عدداً بكثير ، وأنهم كانوا يؤلفون بالفعل قبائل محاربة ، ولكن معظمهم ذاب في المجتمع البربري عن طريق الدخول في الاسلام .

وكانت بلاد الشلوح في سنة ١٨٦٠ تحتوي على ثلاثـــة انواع من المجتمعات ذات الطابع السياسي . فأقربهـــا الى قبضة السلطان ، القرى الواقعة على أطراف السهل ، والتي يصل اليها عملاؤه بمنتهى السهولة . وهنا كان السلطان يعين «قائداً» لكل قبيلة أي حاكماً لها ، وللقائد خليفة في كل فخذ من أفخاذ القبيلة ، ويعمل الشيوخ تحت امرة هؤلاء الخلفاء . وتحت الشيوخ مقدمو الضيع . والحكم هنا حازم ومباشر من اعلاه الى أسفله ، لا يختلف عن حكم رعايا الحكومة المركزية المقيمين في السهول المكشوفة . فاذا بلغ المرء نصف ارتفاع الوديان العميقة التقى بنوع ثان من المجتمع . فهنا تحتفظ القرى في بعض انحاء الوادي بحكوماتها الخاصة كاملة بما فيهـــا المجلس المسمى ايت أربعين . ولكن هذه القرى تدفع جزية صغيرة كل سنة يقبضها القائد المتمركز في أطراف السهل ، ولذلك فانها تحتاج الى شخص تلقبه الشيخ ليكون واسطة اتصالها بالعالم الخارجي . وهذا الشيخ هو فعلاً عضو من اعضاء المجلس ينتخب لمدة سنة او لمدة أخرى ، من أجل هذه الغاية .

فاذا زاد الارتفاع وابتعدنا عن الممرات ، وجدنا النوع الثالث من المجتمع ، المنظم على نمط من الجمهورية البربرية ، باقياً في عزلته . وقد بقيت بعض هذه الجمهوريات بعد الاحتلال الفرنسي ، ولكنها قليلة العدد . فقد طرأ سببان منعا استمرار هذا النظام وبقاءه ، أحدهما ادخال البضائع الاوروبية المصنوعة وما جر اليه ذلك من اضعاف الصناعة المحلية وزيادة الطلب على السلع . وقد اضطر الجبلي الى بيع المزيد من محـــاصيله ليشتري هذه السلع ، وأخصهـــا الاقمشة القطنية المصنوعة في المصانع ، والادوات الصلبة . فضعف بذلك مركزه المالي ، وزاد اتصاله بالعـــالم الخارجي . والسبب الثاني هو الاضطراب السياسي الذي عانته حكومة السلطان . فقد كان السلطان والمرشحون للعرش في حاجة الى العون والمؤازرة ، وكانوا مستعدين لقاء ذلك لان يقدموا المكافأة الى الزعماء الطموحين من ابناء الجبال . فنجح بعض امغاري (شيوخ) القبائل الصغيرة

في الحصول على سلطة مطلقة ، وكان الواحد منهم يذهب الى مراكش بعد ذلك ويعين قائداً . واستطاع هؤلاء ان يخضعوا القبيلة تلو القبيلة بمؤازرة السلطان والبندقية الحديثة ، وان يحلوا المجالس ويرسلوا الخلفاء والشيوخ الى الوديان المجاورة لتنفيذ اوامرهم .

واستقرت مناصب القـــادة هذه في ثلاث عائلات هي – من شرق الاطلس الى غربه – عائلة الجلاوي ، والغندفي ، والمتوقي (كانت عـائلة الجلاوي الى عهد قريب برئاسة الحاج تهامي الجلاوي القوي – باشا مراكش الذي مات اخيراً ، وهو من الجيل الثالث لهذه العائلة) . وقد استطاع هؤلاء المستبدون الثلاثة ان يسحقوا الجبليين الواقعين تحت سيطرتهم ، حتى لم يعد يتذكر نظام الحكم القديم الا اولئك الذين بلغ بهم الكبر عتياً . ولكل منهم قلعة ضخمة ، مبنية في موقع استراتيجي ملائم ، كأن تكون في أعلى القمة الفارقة ، كما هو الحال في قلعة تلوت مثلاً ، معقل الجلاوي . وفي داخل اسوار القلعة العـالية ابراج عديدة ، وفناء داخلي . وفي الداخل ايضاً مستودعات كبيرة للقمح تحفظ فيها الحبوب التي يدفعها المزارعون على سبيل الجزية . وفيها سجون يحفظ فيها قطاع الطرق الذين يلقى القبض عليهم ، ويتركون في حـــال يشبه الجوع . ويمتلىء الفناء برجـــال الحاشية من الزنوج ويهود الجبال ، ويأكل كبار الضيوف في غرف الضيافة (وكنت انا واحداً منهم سنة ١٩٢٧) .

وكان اعطـــاء السلطات الى القواد الثلاثة طريقة للحكم دون جهد يبذل ، فهؤلاء الرجال المسيطرون على جيوش خاصة قادرون على صنع السلاطين وتحطيمهم . وقد لعبوا اثناء الحماية الفرنسية دوراً سياسياً شبيهاً بالدور الذي لعبه امراء الهند ذوو الثروات الخيـــالية ، اثناء الحكم البريطاني . ويتحدث روبرت مونتين بحماس عندما يذكر ان موظفي الشؤون الداخلية استطاعوا ان يوجهوا حلف ادة اتنان (Ida Utanan) قبل ان يدرك آل المتوقي الغاية منه .

وكان الحكم بواسطة انابة السلطات الى مستبد محلي امراً جديداً في مراكش، ولكنه نظام قديم في البلاد الواقعة شرقيها، وقد سبق لنا ان رأيناه مطبقاً في بلاد غربي آسيا. وبهذه الطريقة سيطر الرومان والفرس والساسانيون على الانباط العرب. وهذه هي الطريقة التي تعامل بواسطتها شاهات ايران (عندما كانوا على جانب من القوة) مع البختياري وغيرهم من رجال القبائل. غير ان لرجال القبائل الايرانيين سبباً يدعوهم الى ان يتوحدوا وذلك هو حاجتهم الى الامن في هجراتهم السنوية. اما الشلوح فلا يحتاجون مقداراً يفوق ما كان عندهم حتى سنة ١٨٦٠، اذا كان ثمن الوحدة مثل الثمن الذي دفعوه. ومن الصعب معرفة رأي الفرنسيين في هذا النظام.

* * *

لقد أصبح القارىء الآن مستعداً ليدخل معي بلاد الريف، التي دخلتها اول مرة في سنة ١٩٢٦، وهي السنة التي استسلم فيها عبد الكريم. وقد لاحظنا ونحن في طريقنا الى قبيلة غزناية ان كلبنا أصبح مريضاً، وما لبث ان مات. لقد سممه احدهم، لا حباً بالاذى، ولكن على سبيل التجربة العلمية - فقد كان يختبر نوعاً جديداً من السم قبل ان يستعمله في ضحيته البشرية. وهذا الحس العلمي قوي عند الريفيين. وقد حدث مرة ان قتل احد المحاربين خصماً له يشكو الاستسقاء الدماغي في اثناء احدى المنازعات المحلية، لا لأنه اعتبره عدواً خطراً، بل ليشاهد ما في داخل رأسه. وزحف المحارب فوق ضفة مكشوفة مخاطراً بحياته، ليلتقط جثته. ثم حملها مع اقربائه الى الجامع، حيث قام معلم المدرسة بنشر الجمجمة الشوهاء. واستخرج سائلاً كان فيها وذاقه باصبعه وقال «انه مائل الى الملوحة». ثم عاد الجميع لمتابعة الحرب.

اما القرية التي حدثت فيها هذه الواقعة فلا تكاد تعتبر قرية أصلاً

لانها كانت تتألف من ثلاثة عشر منزلاً فقط سنة ١٩٢٦ . وكانت هذه المنـــازل منتشرة حول جانبي جدول جبلي صغير صاخب يسمى ماء أهروشن (Iherrushen) ، بالقرب من موقع التقائه بنهر آخر كبير ، هو نهر البـايو (Bayu) الذي يتدفق بسرعة في واد ذي جوانب عمودية . واذا نظر المرء الى هذا الموقع من عل وجد ان اكثر الاراضي انبساطاً هي الاراضي الواقعة في أعلى القمة الفارقة . وبالتالي يغلب ان تكون القرى هنا لا في الاماكن العميقة الواطئة . وللقاطنين في أعالي الجدول ايضاً الحق الاول في استعمال مياهه الحيوية للري .

واذا دققنا النظر رأينا ان احد البيوت هو جامع . وليس لهذا الجامع مئذنة ، بل عليه راية بيضاء ترفرف من أعلى سطحه ، معلنة انه بيت مقدس ، ويؤكد ذلك الصباغ الابيض لفنائه المكشوف وفوق نوافذه . ويحكى ان جد سكان هذه القرية المسمى عبد المؤمن (ومن اسمه اشتق اسم القرية اذ تدعى اولاد عبد المؤمن) كان يصعد بحذاء مياه أهروشن في عصر أحد الايام ، قبل ان تغيب الشمس وراء الجبال الغربية ، ومعه زوجته وبقرته وكلبه . ورأى امـامه صورة جامع ، ينبعث النور من ورائه ، وكان الجامع حديث البناء خالياً ، مفتوح الباب . وعندما رأى هذه المعجزة خلع النعلين اللذين يقيان قدميه من الصخور المدببة ودخل هذا المكان المقدس للصلاة . وقام هو وأولاده ببنـاء السلاسل في جوانب الوادي ، وبقطع الاشجار وغرس غيرها ، وعاشوا في سلام حتى امتلاء الوادي بالناس ، وأخذ الرجال يتقاتلون على اشجار الفاكهة ، وعلى النساء والماء .

ويسكن البيوت الاثني عشر التي شاهدناها عشرة رجـال مع ثلاث عشرة زوجة ، وتسعة عشر ابناً وخمس عشرة بنتاً . ولا عجب ان يكون ثلاثة من الرجـــال قد اتخذ كل منهم زوجتين ، لأن ستة من آبائهم التسعة ماتوا قتلاً بالرصاص ، ومات كثير من أخوتهم بنفس الطريقة .

فلا بد من اجراء بعض الترتيبات لصبايا الارامل واولادهن المحتاجين للعون . وكان هناك الى جانب السكان البشر الذي يبلغون سبعة وخمسين شخصاً ، مئة وخمسة وعشرون حيواناً موزعين بالشكل التالي : ١٠ أبقار ، عجل واحد ، ١٥ رأس غنم ، ٨٠ رأس ماعز ، حمار واحد ، بغلان ، و ١٦ كلباً . وكان الماعز ملكاً لستة من الرجال اما الغنم فكان ملكاً لرجل واحد . ولم يكن لثلاثة من الرجال شيء من الماعز او الغنم ، ولكن كان لكل رجل بقرة ، لأنهم جميعاً في حاجة الى الحليب .

ولديهم ٩٢٣ شجرة مثمرة ، فيكون نصيب الواحد منهم اكثر من ١٦ شجرة ويكون نصيب العائلة ٩٢ شجرة . وتقسم هذه الاشجار كما يأتي : ٥٢٥ شجرة لوز ، ٢٧٢ شجرة تين ، ٧١ شجرة زيتون ، ٣٣ شجرة رمان ، ١٦ شجرة مشمش ، وشجرتان من كل من البرتقال ، والليمون ، والجوز . ويمتلك كل رجل اربع شجرات لوز ، وخمس عشرة شجرة تين وثلاث شجرات زيتون على الاقل . واللوز والتين المجففان ضرورات لا غنى عنها على الاطلاق ، عوناً على الحياة ، في أواخر ايام الشتاء ، عندما يكون القمح قد نفد . وزيت الزيتون هو الدهن الحيوي ، اما باقي الاشجار فتثمر ثماراً مفيدة ، ولكن اهل الريف قادرون على ان يعيشوا بدونها .

وزراعة الاشجار هي مورد الحياة الاول في هذه الوديان المرتفعة ، ويشذب أهل الريف اشجارهم ، ويروونها ، ويطعّمونها ، ويسمدونها بعناية فائقة . ولا يصرف الريفي سوى قليل من الوقت في الحقول للأغراض الاخرى . ولديه ارض تحتاج في حراثتها مدة اربعة اسابيع في السنة ، وتختلف المدة التي تتوفر لها وسائل الحراثة عند الرجال العشرة متراوحة بين عشرين يوماً وخمسة واربعين . فمن قلت عنده الوسائل استأجرها ممن كثرت عنده ، على الاسلوب القديم الذي يعطي الحراث خمس المحصول . ومن اشتغل في بستان خضار فله ربع المحصول ،

ومن اعتنى بأشجار غيره فله ثلث فاكهتهـــا ، وذلك خلافاً لما تسقطه الرياح من الثمر ، فتأخذه النساء والاطفال والمساكين .

وقد اقتطعت الاشجار غير المثمرة منذ زمن بعيد ليزرع في مكانها شجر الزيتون ذو الاوراق الفضية ، وشجر الجوز الفـارع . وما زال على جانبي الجبال المرتفعة اشجار أرز يمكن اقتطاعها ، بل وهناك ايضاً بعض اشجار الصنوبر . وتحت خط الاشجار التي زرعها الانسان ، تقع منطقة من مزارع الماعز الغنية بالاعشاب ، وفي الاعمـاق الواقعة تحتهـا تزرع الكروم . وهنا تجتمع العائلات في شهر ايلول (سبتمبر) لتجمع العنب ، وتجففه من ثم زبيباً يؤكل مع التين واللوز . وفي أعلى الوادي تجد منشأتين عامتين هما المطحنة المائية المعهودة التي يملكها احفاد مؤسسها ، ومعصرة زيت تخدم عدة قرى . ومعصرة الزيت هذه قريبة من مركز قرية ثانية يسكنها الدراويش الذين لا يحاربون اطلاقاً . وينظم أورع هؤلاء الدراويش عصر الزيت ويؤم النـــاس للصلاة في يوم الجمعة ، ويشترك جميع الرجال البـــالغين من جميع القرى الواقعة في الوادي بهذه الصلاة .

وقد نفي اولاد عبد المؤمن قبل جيلين من واديهم ، ولكن عـاد البعض منهم اليه . ولذلك قصة طويلة[٨] ويكفينا بهذا المجال ان نسرد ملخصاً لها .

لقد بدأت القصة في ليلة قارسة عندما قتل عمار الاقرع ، جاراً له خطأ . وكان لأهل قرية عبد المؤمن ، وما زال لهم جيران يبلغ عددهم ستاً وعشرين عائلة ويسمون انفسهم بني تدموت ، على اسم جدتهم التي كانت احدى بنـات عبد المؤمن . والظاهر ان اولاد عبد المؤمن عقدوا

---

(٨) مفصلة في كتاب : Carlton S, Coon, Flesh of the Wild Ox, (New York, 1932).

حلفاً عن طريق المصاهرة مع عشيرة أخرى في الجبل المقــابل ، وفي القبيلة التالية ، وهي عشيرة بني اورياغل (Orriaghel) (التي انجبت فيما بعد الامير عبد الكريم الخطابي الذي ذاع صيته في العالم كله ، وما زال الى يومنـا هذا بكامل حيويته) . ووقعت هذه العشيرة الاورياغلية بمأزق ، اذ حاصرها جيران لها وضيقوا عليها الخناق ، فأرسلت رسولاً مع معزاة الى الجبل المقابل . وذبح هذا الرسول المعزاة عند مدخل الجامع حتى تدفق الدم على بابه ، وهذا نداء لا يمكن للمرء الشريف ان يتجاهله دون ان يدنس نفسه بالعار . ولذا فان اولاد عبد المؤمن وبني تدموت الذين كانوا يشتركون في الجامع القديم هبوا للنجدة .

ورفعوا الحصار ولكن العدو لم ينسحب . وكان احد التدموتيين يزحف مستكشفاً في ضوء القمر الباهت عندما شاهده عمـار الاقرع ، وأرداه قتيلاً . وهنا علت الضوضاء وتبــادل الطرفان النيران . ولما اشتمل الامر على اربعة فرقاء ، فقد صعبت معرفة الضارب والمضروب . وكان سي علي معلم القرية الوقور المحترم عند الجميع ، والذي يخــدم إماماً عند العشيرتين هو الشخص القادر على التوسط ، ولذا فقد سار من عند جماعة اولاد عبد المؤمن متجهاً نحو بني تدموت ، الذين لا يبعدون عنه سوى بضع خطوات . ولكن التدموتيين لم يستطيعوا السيطرة على غضبهم فأردوه قتيلاً . وهنـا خيم السكون على الموقع ، وعندما لاح الصباح عادت الجماعتان من الاقارب الى بيوتها ، وكل منها تحمل موتاها . وخشي الاورياغليون الذين ثارت حولهم المشكلة اصلاً ان يظــلوا في بيوتهم ، فانتقلوا الى قرية اولاد عبد المؤمن ، ورحب هؤلاء بهم لأنهم كانوا أقل عدداً من الجانب الآخر : بنسبة رجل لرجلين .

وعندما دفن الموتى وجد المتحاربون خمسين رجلاً مجتمعين بوقار تحت شجرة الزيتون ، وكان هؤلاء المجتمعون هم الاربعين ، او اعضاء مجالس جميع القرى الواقعة على طول الوادي وعرضه ، وقد سمعوا بالمشكل

فأسرعوا الى الموقع لمنع انتشاره . (وأفواههم تتحلب قرماً الى اللحم الذي سيفرضونه غرامة يأملون جمعها) . وقد رأس المجلس المعلم محمد ، اغنى اولاد عبد المؤمن ، وأرفعهم قدراً ، وكان مركزه في حد ذاته يضعف من موقف خصومه الجدد .

وكان واضحاً ان بني تدموت هم المذنبون . وقرر المجلس ان يدفع الطرفـــان دية دم لبعضها البعض ، على ان يكون المبلغ الذي يدفعه التدموتيون اكبر . وعلى كل منها ان يدفع غرامة الى المجلس لأنه تسبب في اجتماعه . وقد طلب التدموتيون ايضاً ان يجبر الاورياغليون على ترك المكان . ورواق أمغار الوادي القريب ، المدعو الحاج بكيش (والذي حاول فيما بعد ان ينافس عبد الكريم في حربه مع الاسبانيين وفشل) مع التدموتيين ، وأقنع المجلس برأيه . ولكن اولاد عبد المؤمن رفضوا قائلين ان اقرباءهم الذين ينالون حمايتهم قد خسروا بيوتهم التي أحرقت ، واشجارهم التي قطعت ، وانهم سيموتون جوعاً اذا عادوا الى منازلهم ، ان لم يقتلوا قبل ذلك .

وانتهى الاجتماع بغير قرار ، وبدون جمع غرامة . ولكن بكيش وبعض الزعماء الآخرين قرروا ان يدعو الى اجتماع اكبر يحضره خمسة فروع من الحلف ، يتألف كل واحد منهـا من وديان عديدة ، وبهذا تشترك في القضية ثلاث هيئـــات . وكان الضيوف الذين رفض اولاد عبد المؤمن اخراجهم ينتمون الى حلف آخر قوي ، وقد يؤدي ذلك الى مشاكل واسعة النطاق بين القبائل بسهولة . وفي الوقت نفسه ظهر معلم بني تدموت في اليوم السابق للعيد الكبير (وبرغم المشكلة كان الجميع يتطلعون الى العيد كما نتطلع نحن الى عيد الميلاد قبل تاريخه بيوم واحد) ، بدون سلاح ، ومعه معزاة ورجلان اعزلان . واقترب من بيت المعلم محمد وأعلن انه جاء لعقد هدنه ، ودعا اولاد عبد المؤمن للمجيء الى الجامع لحلف اليمين .

ووافق المعلم محمد بعد تحسب ونقاش طويل ، وذهب مع اثنين من اولاده . وكان التدموتيون قد نصبوا لهم كميناً ، فقتلوا عمـار الاقرع اولاً ، ثم صرع المعلم محمد اثنين منهم وقتل هو بدووره بعد ان اصيب في رأسه . ونجـــا احد اولاده الحاج محمد بعد ان جرح في قدمه ، فزحف واختبأ وراء احد الصخور . وفي اليوم التالي عندما كان أفراد بني تدموت يخرجون من بيوتهم بأحسن لباسهم ، متجهين نحو جـامع الوادي لصلاة العيد ، اطلق هذا رصاصه على معلم المدرسة واثنين آخرين فقتلهم قبل ان تتعطل بندقيته . وعندما تعطلت البندقية بكى .

فاستغاث التدموتيون برجال بكيش القاطنين في أسفل الوادي بأن ذبحوا ثوراً عند باب جامعهم ، وأريقت دمـــاء جديدة ، حتى اجتمع رجال المجلس من الجبال والوادي ، وجلسوا في مشهد المذابح كما تجلس الطيور الجارحة . وقيلت كلمات كثيرة في سورة الغضب ، وتوصلوا في النهاية الى قرار : ان اولاد عبد المؤمن مذنبون ، لأنهم قتـلوا نفوساً بشرية في يوم عيد الأضحى الذي شرعه الاسلام ختـاماً للحج ، بقطع النظر عن استحقـاق اصحاب هذه النفوس للموت . وليس لهذا الذنب الا عقاب واحد : رهو النفي . وقادت نساء عبد المؤمن ، والقلائل ممن بقي من الرجال ، أبقارهم وصعدوا في الممر المؤدي الى خارج الوادي ، وكان دخان بيوتهم المحترقة يتصاعد من ورائهم . وجاء يوم عادوا فيه ، ولكن لذلك قصة أخرى . وفي هذه الاثنـاء أقاموا في احدى القرى الواقعة خارج فاس ، مع غيرهم من أهل الريف المنفيين ، وأخذوا يعنون بأشجار الزيتون التي يملكها اغنياء العرب ، ويحلمون بالثأر . ولكنهم لم يعودوا جميعاً ، وما زلت ترى ابناءهم واحفادهم من ذوي العيون الزرقاء والعمائم الصفراء ، على مقربة من باب جيزة بفاس .

هذه الصورة توضح لنا نظام الحكم الريفي . فان وحدة المجتمع التي تعلو العـائلة ليست القرية ، بل العشيرة . ولما كانت الاراضي الزراعية

تمتد امتداداً طولياً وتنتشر على جوانب مجاري المياه ، فقد تعيش العشيرة في عدد من كتل المنازل المنفصلة . ولكل عشيرة معلم مدرستها الذي يدون تاريخهـــا ، لأنه دائماً قادر على القراءة والكتابة . وبينهم ايضاً كثيرون ممن يقرأون ويكتبون . ومع ان لغة التخاطب عندهم هي اللغة البربرية ، فانهم يكتبون باللغة العربية ، ولغتهم الكتابية أرفع من لغة التخاطب اليومي عند المراكشيين العرب ، وقل بينهم من يفهم لغة التخـــاطب هذه . ولكل قرية ايضاً حداد زنجي ، يقع موطنه في ترجويست (Targuist) ، وهي القبيلة التي جهزت عبد الكريم بحاجاته من السلاح والذخيرة .

وفي كل كتلة من المنازل تمتاز احدى القرى بأن فيهـــا جامعاً ، يشرف عليه عادة احد احفاد الاولياء المقدسين الذين تزين مقاماتهم مختلف المواقع ، وتجتذب الحجيج على مقيـاس صغير ، وبالاخص الحجيج من النساء . وتجد في قبائل بني أمرت (Beni Amart) وترجويست (Targuist) عدداً من عائلات المرابطين التي تجمعها القرابة ، وهم عـائلات اخمريجن (Ikhemrijen) ، ويقطنون في صروح طليت سقوفهـــا باللون الاخضر ، وبناها الهاربون الاسبانيون .

ولا تحتـــاج القرية مجلساً لان جميع الرجال من الاقارب ، ولا تفرقهم الاحياء ولا الصفوف . وقلما يزيد عدد الرجـال عن اثني عشر رجلًا او ثمانية عشر . ويلهو اطفال المدارس وهم يتناولون دروسهم في الجامع بتقليد الحكومة في العابهم ، حيث يؤلفون لانفسهم مجلس آشت الاربعين (Asht Arbaïn) . ويعطيهم الرجـال فرصة أصدار الاحكام في امور الخلافات الثانوية ، وفرض الغرامات المكونة من قليل من البيض والخبز لطعـامهم . وبذلك يتعلمون اسلوب اصدار الاحكام كما يتعلمون بعض القوانين غير المكتوبة ، ويصبحون مستعدين للواجب الخطير الذي ينتظرهم .

ويلتقي شيوخ القبائل المجاورين ، الذين يشبهون « العقلاء » عند اهل القبيلة ، مرة في الاسبوع عندما تقام اقرب الاسواق ، ويجتمعون في احد البيوت القريبة ، او قد يجلسون في ظل احدى الاشجار ، اذا كان الطقس حسناً . ويفضون جميع المنازعات التي قد تحصل في السوق ، او التي يعرضها عليهم المتخاصمون ، وهم يشربون الشاي . وعندما تثور أمور أخطر ، كمشكلة اولاد عبد المؤمن وبني تدموت ، يجتمع أفراد مجلس الوحدة الجغرافية الواحدة ، الذين يمثلون عشائر عديدة . ولا بد من تقديم الطعام لهم . ولذا فان مصلحة الطرفين المحتربين تقضي بالوصول الى حل سريع ، بما يتضمنه من فرض غرامة وفرض دية . فأما الغرامات فتذهب الى أفراد المجلس الذين يتصرفون بقسم منها ويوزعون الباقي . وأما الدية فتذهب الى اقرباء المقتول او المجروح . فاذا لم يستطع أفراد المجلس حل المشكل دعي « الخامس » الى الانعقاد — وهو يمثل سلسلة الوديان الصغيرة والمقاطعات القائمة على مجاري المياه ، ويؤلف الوحدة السياسية التي تلي وحدة الوادي بالحجم . ولبعض القبائل « خامس » واحد ، ولكن لكل من قبيلة الغزناية وبني أورياغل (Beni Urriaghel) خمسة خوامس . فاذا لم يستطع الخامس فض الخلاف ، وانتشرت اراقة الدماء ، اجتمعت الخوامس كلها . فاذا اشتركت القبيلة كلها في النزاع ، فقد يزورها افراد مجلس قبيلة اخرى بشكل مفاجىء ، فتتعرض لخسارة كبيرة . وكلما طال أمد النزاع بدون حل ، زاد عدد المشتركين فيه ، وتحاول كل هيئة جديدة أوسع من سابقتها ان تستغل اضطراب المتخاصمين .

ونرى مما تقدم انه قل ان تصل المشاكل الى مستوى يتناول القبائل فيما بينها . فهذا الاسلوب الحكومي القائم على العمق اسلوب عملي . فالثارات تعصف بالسكان ، ويخشى الناس ان يحصل تدخل في أمورهم ، فيساعد هذا على عزل الثارات والخصومات وحصرها ضمن نطاق محدود . اما الذين يثيرون المشاكل باستمرار ، والذين لا يراعون القواعد ، فلا بد من خروجهم . ومن الجهة الاخرى ، عندما تهدد قوة خارجية

قسماً غير صغير من بلاد الريف ، فان هذا الجهاز يعمل لتوحيد الناس ، بشكل قوي وان كان موقتاً . اذ يقوم شيوخ عشيرة ما بالاستغاثة بغيرها ، فيرغمونها بذلك على الدخول في حلف يسمى بلهجتهم « لف » وهو الاسم الشائع له في كل مكان . وكلما تزايد الخطر نما « اللف » وتعاظم . وبهذه الطريقة استطاع عبد الكريم (الذي تعلم عند الاسبانيين) ان ينشيء حكومة للريف كله ، وقد هزمت حكومته الاسبانيين في معركتين كبيرتين سنة ١٩٢١ ، و١٩٢٤ ، وربما كان يستطيع ان يوقف الجيش الفرنسي الى أمد غير محدود لولا استعمال اعدائه الطيـــارات والدبابات . وما استطاع سلطان ان يقهر هذه الزاوية التقليدية من بلاد الصلف ، وهذا لعمري أمر مدهش ، لأن جزءاً كبيراً من هذه البلاد ليس جبلياً على الاطلاق بل هو عبارة عن سهل مكشوف .

والريفيون من اشداء المحاربين . وهم الذين فتحوا اسبانيا لفرانكو ، لقـــاء وعد اعطاه لهم بالحرية عند سهل كتامة الأصفر . وقد أخبرني أحدهم ، وكان يعمل سجاناً عند عبد الكريم انه كان يمزج خبز الاسرى بالاقذار . ولكن ليس هذا شيئاً بالنسبة الى مـا فعله النصارى بهم ، واني لأمتنع عن ذكر تلك الأعمال في هذا المقام ، تقديراً مني لحساسية قرائي . ولكن لا حاجة بي لأن أقول بأن الريفيين لم يدفنوا النـاس احياء ، ولا قامت نساؤهم بتقطيع اوصال الاسرى . وقد زرت بلاد البطهانية مؤخراً لمدة قصيرة ، واستطيـع ان اكذب الاقاويل التي تذاع حولهم ، ولكن بمقدار اقل قليلاً من التأكد .

ويذكرني الحديث عن البطهـــانية كثيراً بأهل الريف مع قليل من الفروق . فالريفيون يعيشون في بلاد أرطب وأخصب ، وأغنى بالزرع ، ومع انهم مسلمون مؤمنون ، الا انهم قلما يعلنون مشاعرهم الدينية . وهم يصومون شهر رمضان ، ويحتفون بجميع الاعياد الاسلامية وببعض الاعياد الخاصة بهم . وشيوخهم لا يدخنون ، وقد يمتنعون حتى عن

شرب الشاي . وقد جمعوا اليهود في جاليات ساحلية قليلة ، وأهمها بادیس وملیلة ، أما المسيحيون فلم يسمحوا لهم بدخول بلادهم أصلاً قبل ايام عبد الكريم الذي سمح لجوردن كاننج (Gordon Canning) ، وفنسنت شين (Vincent Sheehan) وقليلين غيرهم بدخولها دون أن يتطلب منهم اعتناق الاسلام . ويقال أحياناً بأن البطهانيين «متعصبون» ، ولكن قد لا يكون هذا التعصب سوى شكل من الكره العام للاجانب ، عبر عن نفسه بالرموز الدينية .

وينتظم البطهانية ايضاً في قبائل ، تقسم الى عشائر وحمائل وأفخاذ ، تتكون كلها من عائلات أبوية واسعة[٩] ولكل عائلة ، وفخذ ، وعشيرة ، وحمولة ، شيخ يمثلها في المجلس التمثيلي للجماعة التي تعلو جماعته مباشرة ، ويسمى هذا المجلس الجركا (Jirga) وتجتمع هذه المجالس في مثل الاحوال التي تجتمع بها مجالس آشت أربعين لمحاولة حل المنازعات بين اعضائها . والمهمة الرئيسية لمجالس الجركا الصغيرة هي النظر في منازعات الري واعتداء الابقار على المزارع . اما الزنا والقتل فينظر فيهما مجلس القبيلة كلها برئاسة شيخها المسمى بالخان . وهو يشبه الامين في قرى «القبيلة» ، وقد لا تزيد صلاحياته في بعض الاحيان عن ادارة الجلسات . ويهرب القاتل في احوال القتل من بلاد القبيلة فوراً . ويختار الجركا وسيطاً معروفاً بحسن اخلاقه ونزاهته ، ليخفف من غضب عائلة المغدور ويقنعهم بقبول الدية . ولا يعود القاتل الا اذا هدأ روعهم ، وأعلنوا استعدادهم لقبول الدية .

وفي كثير من الاحيان لا يهدأ روعهم ابداً ، فينطلق احدهم مفتشاً عن القاتل ويقتله ، وهنا ينشأ الثار . ويهبط مجلس الجركا على المتحاربين

(٩) H. Horhager, Die Volkstumsgrundlagen der Indischen nordwest-grenz Provinz (Heidelberg,1943). M. Elphinstoue, An account of the Kingdom of Caubul and its Dependencies (London 1825). C. Collin Davies, The Problem of the Northwest Frontier, 1890-1908.

مثلما يفعل مجلس آشت أربعين ، فاذا لم يستطع تسوية النزاع ، أحرق بيوتهم وطردهم من ديارهم . وهكذا نرى ان آداب المحاربين وعاداتهم في طرفي العالم الاسلامي متطابقة تقريباً . فان الريفيين والبطهانيين ، وهم من شجعان المحاربين يحددون المنطقة التي نبحثها ويرسمون اطـــارها ، بخناجرهم المنحنية وبنادقهم الطويلة .

***

لقد ابتدأ هـــذا الفصل امتداداً لبحثنا عن الحكومات ، لايضاح العلاقات بين الحكومات المركزية في البلاد التي لديها بلاد صلفة ، وبين المناطق القبلية . وكان لا بد لنا من أجل ذلك ان نفهم كيف تدار القبائل ذاتها اولاً . ويمكننا تصنيف القبائل من الناحية التقنية والاقتصادية الى اربع فئات : القبائل التي تعيش على الزراعة الثابتة والتي تعيش على بداوة الجمال ، والتي تعيش على الرعي في المرتفعات ، والتي تعيش على الرعي في المرتفعات ، والتي تعيش على تربية الخيل في السهول . وظهرت كتابات سخيفة كثيرة في الماضي تزعم بأن المزارع أضعف مراساً وأقل بأساً واستعداداً للحرب من الراعي . وليس في العالم مزارعون أفضل من أهل الريف ، والبطهانية ، ولا في العالم محاربون أشد منهم بأساً . فليست حرفة الزراعة هي التي تضعف المراس والبأس بطبيعتها ، ولكن الذي يضعفها هو الخضوع لمؤسسة اكبر والاعتماد عليها ، سواء أكانت تلك المؤسسة حكومة مركزية او قبيلة من الفرسان البدو .

وجميع هذه الشعوب القبلية تتشابه من الناحية السياسية في انها منظمة في سلسلة من المؤسسات يتزايد حجمها ، من العائلة الواسعة الى العشيرة ، ومنها الى القبيلة بعد المرور بخطوة او خطوتين وسطيتين ، وأخيراً الى الحلف . والعشيرة المؤلفة من الأقارب هي أقوى هذه المؤسسات . فهي جماعة « العمل » ، ووحدة الانتقام ، التي يتحد اعضاؤها في الحيـــاة

والموت . اما الجماعات الكبرى فهي خطوط منظمات ، لا تستعمل الا عند الضرورة .

وتنقسم شعوب القبائل بمعنى آخر الى صنفين متقابلين . ففي احد الجانبين نجد قبائل العرب ، والاكراد ، والبلوجيين ، والبختياريين ، والكاشقاي . ويحكم كل وحدة من وحدات الحكم عند هذه الشعوب ، زعيم واحد قدير ، سواء كانت الوحدة كبيرة أم صغيرة . وفي الجانب الآخر نجد البطهانية ومعظم البربر وهم يحكمون أنفسهم بواسطة المجالس والاجتماعات الكبرى ، ولا ينتخبون الرؤساء الا اذا وجدت أزمة معينة تتطلب وجود الرئيس .

كيف نفسر هذا الفرق ؟ ان احد التفسيرات هو انه كلما زاد تقسيم العمل زادت الحاجة الى الضبط ، وان الضبط يتحقق بسرعة اكبر وكفاءة أعظم بواسطة فرد كرئيس البلدية ، منه بواسطة مجلس ، كمجلس المدينة . والشعوب التي حافظت على نظامها الديموقراطي في الحكم ، ليس عندها سوى حد أدنى من تقسيم العمل ، سواء عن طريق التقسيم العنصري او الطبقي او الطريقين معاً . اما الشعوب التي يحكم قبائلها الشيوخ والخانات الأفراد ، او مرتبة من الرؤساء ، فانها تعيش في مجتمعات اكثر تعقيداً .

ويقودنا هذا الى ملاحظة أخرى . فاذا استثنينا واحات الصحراء ، والجبال العالية ، وجدنا ان معظم المناطق التي يقطنها اكبر عدد من رجال القبائل الزراعية المنشقة يقع في أطراف المنطقة الاسلامية في مراكش وأفغانستان . وهذا الشبه ليس راجعاً للأسباب الطبوغرافية وحدها . فان مراكز النمو الحضري المدني كانت في العراق ومصر ، وانتشرت حضارة الشرق الاوسط من هذين المركزين . والاساس الجوهري لحضارة الشرق الاوسط قائم على تقسيم خامي للعمل ، وترى

النمط معقداً كل التعقيد كلما اقتربت من المركز الاصلي ، وبسيطاً كلما ابتعدت عنه باتجـــاه الأطراف . فأهل الريف والبطهانية يحافظون على أقدم الأشكال لمعيشة المجتمعات الصغيرة ، اما أهل القبيلة فيحافظون على النظام القديم لمعيشة مجتمع اكبر . وتلك بقـــايا مجتمع في عصر سابق لنشوء المدن ، عندما كان مجتمع الشرق الاوسط مؤلفاً من فسيفساء متعددة القطع ، ولكنها متكررة النمط ، كالبساط الذي تصنعه القبائل ، وقبل ان تصبح نظاماً منسقاً كالسجادة المصنوعة في المدن ـ ذا حدود ومرأى ، ورسم مركزي . واننا نرجح ان بلاد الشرق الاوسط كانت في بادىء الأمر مقسمة الى اعداد لا حصر لهـا من الجاليات المستقلة ، وكانت القرية اكبر وحدة من وحدات السكان فيهـا ، وليس في هذه القرية من اختصاصين سوى صانعي الأدوات وكل مـا عندها من تجارة هو التبادل بواسطة الأسواق التي تقـام في الاماكن المكشوفة الواقعة بين المجتمعات (من الطريف ان نلاحظ ان طريقة ايقاف حروب الجيران التي تتبعهـا الشعوب على هذا المستوى ، شديدة الشبه بالاسلوب الذي أخذت منظمة الامم المتحدة تطبقه في الايام القريبة العهد على مقياس عالمي) .

اما العلاقات بين الاجزاء المختلفة من بلاد الصلف وبين الحكومات المركزية التي تتبعها من الناحية الرسمية ، فقد أشرنا اليها لماماً اثنـــاء حديثنا عن تنظيم القبائل ، لأن بنيان الحكومات القبلية منبثق جزئياً عن العلاقات الخارجية للقبائل . وكل حكومة في العـالم مبنية لمواجهة نوعين من الأزمـات : الأزمات التي تنبعث من الداخل ، والازمات التي تنبعث من الخارج ، وحكومات القبـــائل لا تشذ عن هـــذه القـــاعدة . والعلاقة الجوهرية بين الحكومة المركزية وحكومات القبـائل قائمة على التوازن ، وهي عبارة عن جزئين متعاكسين يجتمعان في نظـــام من التوازن . وهذا لا يعني ان الشاهات والسلاطين او رؤساء القبـــائل كانوا بالضرورة مدركين لهذه العلاقة . ولا شك مع ذلك ان بعض سلاطين الاتراك أدركوهـــا ، كما أدركهـــا بعض

الحكام الاقوياء الحكماء مثل كورش ، وشاه عبـــاس العظيم ، ولكن النظام كان يعمل على العموم بشكل تلقائي ، مثلما تعمل جميع الانظمة الناجحة . وكان يحدث بين الحين والحين ما يخل من توازنه ـ كأن يصبح احد الحكام على جـانب عظيم من القوة والبأس ، فيفتئت على رفـاه القبائل ، او تستغل احدى القبائل او الاحلاف لحظة ضعف في الحكومة المركزية وتهبط على المدن وتحتلها ، وتبدأ سلالة حكم جديدة . والمألوف ان يستعاد التوازن حالاً .

الا ان هذه العلاقة لا يمكن وصفها وتبسيطها على اساس انها علاقة تنافر فقد تعقدها عوامل أخرى عديدة ، كما في مراكش حيث تعترف بعض القبائل بسلطات السلطان الدينية لا الزمنية ، او كما في ايران ، حيث نقلت قبائل كردية بأكملها من جبال البرز الى جبال زاجروس ، فأصبحت اكثر نفوراً في موقع اكثر مناعة وملاءمة . وفي بعض الاحيان يرتبط الاليف والمنشق بشكليات الاعتراف ، كما في امثلة قيـــام الشاه بتثبيت اختيار ايلخاني قبيلة البختياري ، او كما في منح سلطان مراكش الالقـــاب الى رؤساء الاطلس الثلاثة الكبار . ولكل فرد من أفراد القبائل مهما كانت قبيلته منشقة ، حرية دخول المدن والاتجار فيها ، في جميع انحاء الشرق الاوسط ، ما دام مسلماً ، وما لم يكن لرأسه ثمن . وقد جرت عـــادة صاحب العرش في الشرق الاوسط كله منذ أقدم الازمان ، ان يتزوج بنـات رؤساء القبائل ، ليوجد علاقة شخصية بين جزئي المملكة . وقد يلجأ الى طريقة حفظ الرهائن ، وهي ايضاً طريقة قديمة قدم القبائل والحكومات .

وان تأثير الثقـافة الغربية أشد وضوحاً في قضية توازن القوى بين الحكومة والقبـائل منه في أية دائرة أخرى من دوائر حضارة الشرق الاوسط . وهذا التجديد هو لمصلحة الحكومات المبـــاشرة من بعض النواحي ، لان السيارات والطائرات قادرة على قهر الجمال والخيول .

ولم تعد الصحراء معقلاً يلتجيء الناس اليه ، ولم تعد الجمال لازمة للنقل . والمعاقل الجبلية التي كانت حتى عهد قريب بعيدة المنـــال ، اصبحت معرضة للقصف بمقدار تعرض قرى السهول . ولكن هنـــالك اموراً اخرى ليست في مصلحة الحكومة . فالبنادق الحديثة التي تهربها الدول المتآمرة ، اشد خطراً عندما توضع بأيدي القبـائل المعتادين على استعمال الاسلحة النارية ، منهـا عندما تكون بأيدي فلاحين دربوا بسرعة على استعمالها ولم تألفها اصابعهم التي تعودت المناجل . ثم ان طرق الاتصال الغربية تصل ابن القبيلة بحملات الدعاية وليس لديه من الزاد العلمي ما يساعده على رفضها . ولا يستطيع افراد القبائل ان يفهموا ان مصلحتهم في الوقوف الى جـانب الحكومة ، عدوهم التقليدي ، على أن تظل في الوقت ذاتـه بعيدة عنهم ، بدلاً من ان يبيعوا أنفسهم الى « صديق » جديد ، من عصبة أخرى ، غير أن كثيرين من رؤساء القبائل يفهمون هذه الحقيقة .

لقد كرست الدول الاوروبية التي سيطرت على بلاد الشرق الاوسط حيناً من الدهر ، كثيراً من الوقت والجهد لبحث هذه المشكلة* . وقد عرف عن البريطـانيين تشبثهم بالوضع الراهن ، خصوصاً في البلاد التي تدعى اليوم باكستان وفي اقسام الجزيرة العربية التي وقعت تحت سيطرتهم . فقد اتفقوا على خط مع البطهـانيين مثلاً هو خط ديوراند (Durand) ، وسمحوا للقبائل فيما وراءه ان تقتل بعضها بعضاً اذا شاءت ، ما دامت لا تجتاز الجانب الثاني من الخط . ونلحظ فيما كتبه الخبراء السياسيون الانكليز انهم معجبون بالبطهـانية وبأسهم في الحرب ، مثل اعجابهم بالبدو ، وانهم لا يحبون التدخل في شؤونهم الداخلية . وعزل

---

* من هنـــا حتى آخر هذا الفصل درس قيم خليق بأبناء الشرق الاوسط ان يعوه بدقة . (المراجع)

البريطانيون حضرموت بالطريقة نفسها ، وتركوها الى منازعاتها الخاصة حتى جاء طلب التدخل من الحضارمة انفسهم ، فنظم الانكليز لهم صلح انجرامز ، (Peace of Ingrams) .

اما الفرنسيون فقد طبقوا نظرية ترمي الى اخضاع أرض الصلف اولا ، ثم رعايتها بعد ذلك . ولكن هذه النظرية لم تنشأ فجأة لأن غزو الجزائر علم الفرنسيين درساً حاولوا تطبيقه في تونس ومراكش . وقد احتكوا في بادىء الامر بالعرب ، وعندما تقدموا نحو الداخل عربوا البربر وهم لا يدركون ما فعلوا . ولما اكتشفوا ان البربر انفع لهم من العرب ، حاولوا ايقاف عملية التعريب هذه ، خصوصاً بعدما تبين لهم ان خلق العداء بين الشعبين يخدم أغراضهم السياسية .

ولم تقدم أية أمة من الامم علماء انثروبولوجيين اكثر او أقدر في الدراسات الانثروبولوجية ذات القيمة العملية من العلماء الذين قدمتهم فرنسا ، فقد قاموا بدراساتهم بقصد التطبيق السياسي . ولولا دراسات رجال من امثال باسيه (Basset) ، وبل (Bel) ، ودوفييه (Duveyier) ، وجويو (Guyot) ، وهانوتو (Hanoteau) ، ولاوست (Laoust) ، ولتورنو (Le Tourneau) ، ولتورنو (Le Tourneux) ، ومونتين (Montagne) ، وريكارد (Ricard) ، وتيراس (Terrasse) . (وهم الذين جعلوا بالامكان كتابة اجزاء كثيرة من هذا الكتاب) لما استطاع الفرنسيون تحقيق النجاح الذي حققوه . ولو ان موظفي الادارة كانوا اكثر اهتماماً بآراء خبرائهم ، لحققوا قدر اكبر من النجاح . ويوشك البريطانيون والفرنسيون ان يخرجوا ، وان المرء ليتساءل : أية نظرية سيثبت انها كانت أفضل بين نظريتيهم ، ان كان لاحداهما أي فضل .

وقد وجدت عند الفرنسيين والبريطـانيين على السـواء فكرة جعل أرض الصلف مدار اهتمامهم ، وحمايتهـــا من حكم السلاطين والشاهات المباشر . وان المرء ليتساءل عندما يرى هذه الحماية قد زالت او سارت في طريق الزوال : ماذا سيحصل بعد ذلك ؟ وعلى نوع التكيف الذي سيوجده الشاهات والسلاطين بين هاتين الفئتين من الرعـــايا ، يعتمد الكثير من نجاحهم في عالم المستقبل .

الفصل السابع عشر

السَفينة وَالقافِلة

قد يتساءل القارىء المحب للأسفار : « لماذا جعلتنا ننتظر طيلة هذا الوقت ، قبل ان تتحدث الينا عن النقل والأسفار ؟ » والجواب على ذلك ان وسائل النقل تتداخل في سائر عناصر مسرحنا المتنوعة الزاهية الألوان وتخدمها كلها ، فلا بد اذن من ان نلبسها ملابسها ، ونضعها على المسرح قبل ان تبدأ حركتها . فالسنيون والشيعيون ، والنسطوريون والأرمن واليهود والاقباط ، والحصية البيض والحصية السود ، والباشوات الذين ترفع لهم رايات ذات ذنبين من اذناب الخيل ، والاغوات الاكراد ، والشيوخ البدو ، وأحفاد الرسول الذين يلبسون الأثواب البيضاء ، والمفتون الكبار ، والتجار الفاسيون العائدون من منشستر محملين بالجنيهات الاسترلينية ، وجثث المؤمنين المرسلة الى كربلاء لتدفن فيها — هؤلاء كلهم لا بد لهم ان يسافروا في البر والبحر ، وان يمروا على بلاد تحكمها حكومات عديدة ، وان يجتازوا صحارى يخطف الابصار وهج نورها ، وان يجتازوا ممرات جبلية صعبة تجللها الثلوج . والآن لقد أخذت الأيدي تتزاحم على ظهر سفينة اختلط فيها الحابل بالنابل ،

وتجمع الحجاج الصبورون صفوفاً الى جانب الجمال الباركة ، وأعتلى الحراس ظهور الجياد . لقد تحرك الركب فلنسر معه .

فأمـا المسافرون بالبحر فسيكونون قليلين نسبياً من حيث العدد . لقد خسر المسلمون الطرق البحرية في البحر الأبيض المتوسط منذ وقت بعيد ، واستولى عليهـا المسيحيون . وطرح الصاليون مجاذيفهم التي طالما ضربت مياه الاطلسي . ولا يرى المسافر المراكب المثلثة الاشرعة إلا في المحيط الهندي وامتداديه : الخليج الفارسي والبحر الاحمر ، وفي المياه الداخلية في مصر والعراق . فاذا استثنينا القوارب ، التي تجوب الانهار والبحر الابيض المتوسط ، نجد ان عدد المراكب الشراعية التي تجوب البحار العميقة بلغ ما يقارب الالفين عند اندلاع الحرب العالمية الثانية . وأكثر ما تشاهد هذه المراكب في موانىء عدن والبصره ، وتشاهد ايضاً في بوشاير ، وبندر عبـــاس ومكلا والحديده ، وجميع موانىء أفريقيا الشرقية من مصوع الى ما دون زنجبار . ولكن أفضل موقع للتفرج عليها هو الكويت ، لانه اعظم موانىء التجارة وبناء السفن في الخليج الفارسي ، وموطن البحارة ، بينما الخليج الفارسي نفسه هو الموطن الاصلي لشعوب «البلاد البحرية» ، ومنهـا اجداد الفينيقيين ، وهو قلب صناعة الملاحة في العالم الاسلامي كله[١] .

وليس في الكويت حمولات تنقلها السفن ، ولكن فيها صناع السفن والملاحون القادرون على نقل الحمولات من امكنة اخرى . ويبنى صناع السفن مراكب تتراوح حمولتها بين خمسة وسبعين طناً وثلاثمائة طن ، ومعدل الحمولة مئة طن . وكان المركب الواحد يساوي ثلاثـة آلاف

---

(١) ان الوصف التـالي مأخوذ كله تقريباً من كتابين هما : Allan Villiers: Sons of Sindbad (New York, 1940), and «Some Aspects of the Arab Dhow Trade,» The Middle East Journal, II No. 4 (October 1947), 399-416.

انظر ايضاً: G. F. Hourani, Arab Seafaring in the Indian Ocean (Princeton, 1951).

دولار في سنة ١٩٣٩ . ومع ان المراكب المسجلة في الكويت في ذلك التاريخ لم تزد عن مئة ، الا ان مئات عديدة أخرى من المراكب بنيت فيها . ويستعمل في بناء المراكب خشب التك المستورد من الهند . ولا يرسم نماذج هياكل السفن مهندسون بحريون ، بل يتبع الصناع في بنائها النماذج التقليدية . وتستعمل المطارق والمسامير لبناء نوعين من المراكب على الطريقة الكويتية وهما البوم والبغلة .

والبوم مركب ذو طرفين وصاريين مائلين الى الامام — والصاري الرئيسي مثبت في وسط السفينة تقريباً — وله صار ناتىء في المقدمة (بومبريس) . ويحمل شراعين مثلثين وشراعاً في المقدمة . وللبغلة مقدمة ناتئة ، ومؤخرة مربعة ، وشراعان ايضاً ، ولكن الشراع الرئيسي أقرب الى مقدمة السفينة قليلاً ، وليس لها بومبريس ولا شراع في المقدمة . والبوم يبنى بأكلاف أقل ، وتسهل الملاحة فيه ، ولذلك فهو مرغوب اكثر من البغلة . اما البغلة المحفورة مؤخرتها بالنقوش الاخاذة ، وشكلها كبير ثقيل ، فهي أغلى ثمناً ، وأصعب للملاحة ، وليست لها مزية واضحة ، سوى شكلها الجميل . وكلا المركبين واسع ، ووحدة الحجم في كليهما ليست الطن ، بل اعداد صناديق التمر التي تستطيع العنابر استيعابها ، وتعادل كل عشرين من هذه الصناديق حمولة مساوية لطن واحد . ويحسب الملاحون ايضاً بالتمر ، اذ يلزم ملاح واحد لكل مئة صندوق من التمر .

ويزدحم سطح المقدمة ، وهو منطقة البحارة في المركب ، بصناديق الملاحين البحرية ، التي يملأونها ببعض السلع الصغيرة المعدة للتهريب . ويلفون امام هذه الصناديق البسط التي ينامون عليها ، وقد يكون بعضها من السجاد العجمي الاصلي الذي يأملون ان يبيعوه وينالوا من وراء ذلك ربحاً . وتحته غرفة يشغلها القبطان ، وفي الوسط مستودع للماء ومطبخ . وهذا المطبخ عبارة عن موقد طيني سقف جزء منه ،

وسدت ثلاثة من جنبـاته بالألواح الخشبية . وسطح المؤخرة هو منطقة الملاح ، وفيه بوصلة موضوعة في صندوق وعجلات قديمة انتزعت من مراكب اوروبية (في المراكب التي شاهدتها)[٢] ومع ان عدد الملاحين محسوب بأعداد صناديق التمور ، فهو ايضاً مرتبط بحجم المركب ، وبالتـالي بحجم الاشرعة . وينصب على كل صار شراع أوحد مثلث الشكل ، مثبت من طرفه الوتري بعارضة ثقيلة . فاذا أبحر المركب ، او غيّر اتجاهه وهو لا يزال مندفعاً مع الريح ، احتاج الى أيد كثيرة للامساك بحبال القلع . والشراع الرئيسي هو اكبر الاشرعة . اما شراع المقدمة فليس مهماً . ويذكر فيليرز (Villiers) انـه قضى تسعة اشهر على البوم « نصر الحق » ولم يرَ الشراع ينزل سوى مرة واحـدة لتغيير الاتجاه[٣] . وسبب ذلك ان المركب كان مبحراً مع الرياح الموسمية كما تفعل المراكب العربية عادة . وفي الرحلة القصيرة التي قمت بها على ظهر السنبك « منصور » سنة ١٩٣٣ ، بحذاء شاطىء البحر من عـدن الى الحديدة ، كثيراً ما كنا ننزل الشراع . وفي القوارب الصغيرة التي تبحر بالشراع الرئيسي وحده ، لا بد من اشتراك ايدي جميع البحـارة والركاب لانزال الشراع ، ونقل قارية القلع (عارضته) حول الصاري ، ورفع الشراع من جديد . وليس سهلاً الابحار بهذه المراكب بالشراع المنشور جنباً ، ولكنهـا تجري بسرعة مع الريح . فلقد سبقنا السفينة البخارية المحلية بمنتهى السهولة وخلفناها وراءنا .

اما المراكب الصغيرة وهي السنبك والزاروك التي تستعمل في البحر الاحمر ، حيث تعتبر سهولة الحركة أمراً مهماً ، فانهـا تختلف عن البوم

---

(٢) يعدد (Villiers) وسائل أخرى للقيادة ، ولكني لم أشاهد مثلها في المراكب ذات هذا الحجم .

(٣) لا يدخل في عدادها الوقت الذي قضاه تحت السطح بعد ان فقد الوعي بسبب سقوط القلع عليه (Villiers Sons of Sindbad pp. 44-48)

والبغلة من وجوه عدة . فللزاروك شراع واحد وللسنبك شراعان . وللزاروك سطح في المقدمة وآخر في المؤخرة . اما في الوسط فيجلس البحارة على البضائع او على كوات متحركة . والمطبخ في المقدمة ومعه صناديق البحارة . ويتألف المطبخ من احد براميـــل حفظ الاسماك ، المطلية حواشيه بالطين ، ومن رحى . ويقرفص الدومانجي (مدير الدفة) في مؤخرة المركب ، ممسكاً بذراع بدلاً من العجلة . ويتكون «رأس» المركب من هيكل من القضبان الخفيفة ، مثبتة بعوارض السفينة خلف منتصف المركب بمسافة قليلة ، ويربط به دلو ماء مربوط بحبل يدلى لنشل ماء البحر للوضوء . والظاهر ان هذا «الرأس» لم يعد لاحتمال الاشخاص الضخام ، اذ ما كدت احاول استعماله حتى هوى ، وألقى بأحد الركاب النصارى الى سطح السفينة ، كما تلقى الصناديق .

ويقسم اشخاص السفينة العربية الى ثلاث طبقات : الناخداه (كلمة فارسية) أي الربان ، والبحارة ، والركاب . ومعظم الناخودان من ابناء العائلات الكويتية البحرية . وهم ميسورون ، ويقرضهم التجار الاموال لانهم يعرفون مدى مقدرتهم على تحمل الخسارة التي قد تنجم عن غرق المركب . وقد يكونون من الاثرياء ، ولكنهم مع ذلك لا يستثمرون اموالهم بالتجارة ، اللهم الا تجارة اخشاب السفن وحبالها ولوازمهـــا ، وبناء السفن . فاذا أتم احد ابناء هذه العائلات تعليمه الديني القصير ، وتعلم القراءة والكتابة اللتين يحتاجهما لتسجيل حسابات السفينة ، فانه يرسل لركوب البحر . ولا يعمل بحاراً بل لا يمسك القلاع اصلاً . وهو انما ارسل ليصبح رباناً . ويقود السفينة عمه او اخوه الكبير او قريب له ، وعندما يحين الوقت ، سيكون لديه مركبه الخاص .

ومع ان بالمركب بوصلة فليس ثمة ضابط يستعملهـــا . ومع ان الناخودان يعرفون النجوم ، فقلما يحتاجونها في ملاحتهم ، لان الربابنة الكويتيين لا يكادون يبتعدون عن الشاطىء في ملاحتهم . والذي يتعلمه

الصي هو التفاصيل الدقيقة لكل ميل من الشاطىء ، ولكل تيار ، وكل موقع رملي ، وكل صخرة مخفية ، وكل تغير يأتي به المد . ولما كان المد مسبباً عن القمر ، فانه يراقب هذا الكوكب بعناية . فاذا غابت عنه الارض اثناء ابحاره بين البحرين ورأس الخليج أدلى الحبل المعدني ورفع التراب والصدف من قاع البحر واستدل منها على موقعه .

والطبقة الثانية من راكبي السفينة هي طبقة البحارة ، وتختار من مستوى اجتماعي مختلف كل الاختلاف . فكثير من البحارة زنوج ، او من نسل مختلط فيه دم زنجي ، وهم من الاحرار ، ولكن مقامهم الاجتماعي مساو لمقام الحدادين . وهناك غيرهم من الفرس او المنتمين الى أصل فارسي[٦] . وكثيراً ما يكون الطاهي زنجياً ، والبحارة فقراء ، وكثيرون منهم عازبون ولكن لهم صديقات على الشواطىء . وينام بعضهم في الاسواق عندما يكونون بالكويت ، او يعملون حمالين في فصل الصيف ، اذا لم يبحروا لصيد اللؤلؤ . ويبتدىء فصل اللؤلؤ في الوقت الذي تبتعد فيه المراكب عن منحنى اتجاه الرياح الموسمية ، الجنوبية الغربية وتختبىء داخل الخليج الفارسي ، خوفاً من العواصف .

وقد يرتفع هؤلاء الملاحون في العالم أحياناً . فاذا تعلم احدهم الملاحة حتى وصل الى مستوى ربانه ، أو فاقه ، وأظهر مقدرة على قيادة زملائه فقد يصبح سرنك او وكيل قبطان . وينال من أرباح السفينة نصيباً اوفى مما ينال رفاقه ، بل قد يصبح رباناً لاحد القوارب النهرية في شط العرب ، ولهذا المركز فوائد مادية جمة ، ولكن تعوزه المكانة الاجتماعية . وان وضاعة نسبه هي التي تمنعه من الارتقاء الاجتماعي . ويستطيع ان يتسلم قيادة السفينة بين الموانىء عندما يقرر الربان ان

---

(٦) ان القياسات التي أخذتها لبحارة عدد من هذه المراكب الراسية في ميناء عدن سنة ١٩٣٣ ، تؤيد أقوال (Villiers) تأييداً تاماً .

يبقى في أحد الموانيء لبعض الاعمال او لقضاء فترة قصيرة مع زوجة له ، لأن لبعض الربابنة بيوتاً في موانيء عدة .

ويقوم البحارة بجميع أعمال الحمل والرفع ما دامت السفينة في الميناء . فاذا أبحرت فانهم يهندمون الاشرعة ويصلحونها ، ويرفعونها ، وينشرونها ، وينزلونها ، ويشدون الصاري ، ليحلوا حبل القلع ، ويلفون الشراع ، ويراقبون الابحار ، ويستلمون الدفة باشراف الناخوداه او السرنك . واذا كان البحر هادئاً ينزلون قارب المركب ويجرونها وهم يجذفون القارب بالمجاذيف . واذا كان المركب صغيراً حركوه بالمجاذيف الكبيرة . وليست لديهم نوبات منتظمة ولذا فقد يدعون للخدمة في أي وقت . ويعمل احدهم ضارباً للطبل . فاذا طلب منهم عمل معين ، قفزوا الى السطح في نمط منتظم وأخذوا يرقصون على موسيقى دعاء منغوم . وتشبه هذه الرقصة « الحوسة » التي يقوم بها عمال التنقيب عن الآثار عندما تفتر الهمم ويحاول أحدهم اثارتها مجدداً . والمنقب العاقل يكافىء قائد « الحوسة » مكافأة حسنة ، ويستعمل الربابنة كل وسيلة لاجتذاب الموسيقيين الشعراء الى مراكبهم .

ويصعد الركاب وينزلون في كل رحلة ، وهذا يزعج موظفي الجمارك والجوازات الاوربيين في موانيء المستعمرات . ويأتي الركاب معهم بطعامهم ، ويعدونه بأنفسهم . ويدفعون اجرة واحدة اياً كان مقصد سفرتهم . وقد يسمح لبعضهم ان ينزلوا في الغرفة ، ولكن معظمهم ينامون ويعيشون على ظهر السفينة ، في أحوال يعتبرها الاوربي مزدحمة . فمركب البوم الذي تبلغ حمولته مئة وخمسين طناً ، وبحارته ثمانية وعشرين ، ويعتلي ظهره قارب صغير وآخر للصيد ، ومركب صغير مبني نصف بناء ، يحمل ما بين مئة وعشرين راكباً ومئة وأربعين ، كان بعضهم ذاهبين للقيام بالاعمال التجارية في الموانيء التي يمر بها المركب ،

وقد طلب من السفينة التي ركبها فيليرز ، في احدى المرات ان تحمل قبيلة صغيرة من حضرموت الى افريقيا[٧] .

وتقضي المراكب الكبيرة الخارجة من الكويت الليالي في البحر ، اما السنابك فيغلب ان ترسو في مواقع محمية قريبه من اليابسة . وقد رست السفينة التي كنت أركبها على مقربة من الشاطىء ليستطيع البحارة النزول وجمع الاحطاب ، وسرقة البطيخ من الحقول القريبة . ويصطاد الملاحون في جميع المراكب ما وسعهم اصطياده من السمك ، ليكملوا غذاءهم الذي يتكون من خبز الذرة الخشن المخبوز على ظهر السفن ، ومن السمك لا غير . وهذا هو الأكل الذي قدم الينا . وقد تكون حمولات سفن التمور غالية جداً فلا يستهلكها البحارة لغذائهم اليومي .

والناحية المالية لهذه الملاحة العربية معقدة ، خصوصاً وان الشريعة الاسلامية لا تسمح بالفائدة ولا بالتأمين . وفي الكويت تعتبر عائلات التجار الكبيرة أعلى في المقام الاجتماعي من عائلات الملاحين . وأفراد عائلات التجار هم الذين يمولون بناء السفن وشراءها ، ويرسلون حمولاتها الاعتيادية على اساس الامانة . ولا يرغب التجار في ان يمتلكوا سفناً خاصة بهم ، ويفضلون اقراض اموالهم الى الناخودان ، وتحميلهم المخاطر .

ويمتلك الممول في كثير من الاحوال مزارع النخيل الواقعة على النهر ، ويشحن منتجات بساتينه الخاصة . ولكن هذا لا يحدث دوماً . وقد يشتري التمر بالصناديق من السوق ، ولا يشتري الناخوداه التمور من التاجر ، بل ينقلها الى وكيل مقيم يمثل البيت التجاري ، والوكيل عادة من أقرباء التاجر . وللبيوت القوية وكلاء في بومباي ، ومكلا ، وعدن ، وعدد من الموانيء الافريقية . وقد يبيع الناخوداه بعض التمور او كلها في الاسواق التي لا يوجد الوكلاء فيها ، اذا تم الاتفاق على ذلك .

---

(٧) Sons of Sinbad pp. 55 ff.

ويعتمد الكثير على السعر ، وهذا يعتمد بدوره طبعاً على عوامل العرض والطلب . ومما تمتاز به المراكب الشراعية على السفن البخارية الاوربية بالنسبة لتجارة التمور ، ان مراكب البوم والبغلة تدفع رسوماً منخفضة للغاية في الموانىء ، وبما ان الملاحين يقبضون اجورهم حصصاً من ارباح الرحلة ، فان عامل الزمن لا يعود مهما عندهم ، ولذلك فقد تمكث السفينة مدة طويلة حتى يتحسن السوق . وفي الوقت ذاتـــه يستطيع الجميع من الربان الى البحارة والركاب ان يقوموا ببعض أعمال التجارة الخاصة ، وهذا حق من حقوق الجميع .

ولقد سافرت مثل هـــذه المراكب في المحيط الهندي منذ آلاف عديدة من السنين ، ولم يكن ملاحوهـا من العرب وحدهم ، بل ومن الفرس ، والهنود ، والاندونيسيين . وقد نقلوا شعوباً قريبة من الشعوب البولينيـية الى مدغشقر ، وأوصلوا نباتات كالارز ، والتارو (نبـــات كالبطاطا) وجوز الهند ، والموز ، الى افريقيا السوداء ، وأوصلوا اليها الابقار ذات السنام التي تؤلف قوام المعيشة ، والثروة ، والمكانة ، عند الكثير من قبائل افريقيا الشرقية . ولا شك انهم أوصلوا معظم المعادن المهمة ، وبالاخص القصدير ، الى سكان المدن من شعوب الشرق الاوسط منذ ايام الآشوريين ، ان لم نقل قبلها ، وجاءوا ايضاً ببضائع لاسمائها رنين أخاذ ، كالعـاج والابنوس ، والبخور ، وآلاف العبيد . وحملوا من الهند الاخشاب لتبنى منها السفن ، والخيوط لتصنع منهـا حبالها . ونقـــلوا آلافاً من سكان حضرموت الى جزر الهند الشرقية ، ونشر هؤلاء الاسلام بين الجـاويين والموريين وغيرهم ، واختلط البعض منهم بسكان الملايو فتكون من هذا الخليط شعب الملايو . وحملوا رحالين كابن بطوطة (الذي سمعنا الكثير عنه وسنسمع المزيد عما قليل) حتى الصين ، حيث قامت مدينة كاملة من العرب ، بأسواقها وقضاتها ، وشيخ الاسلام فيهـــا ، وطرقها الصوفية ، كجزء منها يعرف اليوم بمدينة

أموى (Amoy)[٨] . ولم يقتصر أثر هذه السفن على تبادل البضائع بين الشرق الاوسط والبلاد الاخرى ، وتبادل الاشخاص ، بل ساهمت في تطوير نظام العلاقات الانسانية الذي يعمل من خلاله مجتمع الشرق الاوسط ، وفي المحافظة عليه .

* * *

وتشترك السفينة في هذه المآثر مع الجمل منافسها الاصغر منها . ومع ان المراكب العربية قد قل عددها منذ أيام التوسع البرتغالي ، فانها ما تزال عاملة كما أوضح فيليبو . وربما فقدت قوافل الجمال ايضاً بعض عملها عندما تحولت وسائل النقل التجاري الى الطرق البحرية بظهور المراكب الاوربية العميقة ، ولكن تدهورها الحقيقي جـاء بظهور السيارات . ويرى المسافر بين طهران ومشهد عشرات من قطر الجمال تحمل صناديق البضائع في اتجاه شرقي ، وفي اتجاه غربي . وفي اليمن تتسلق مئات من الجمال الطرق الجبلية بين الحديدة وصنعاء وتهبطها ، ولم تنته اعمال الجمال في شمال افريقيا بصورة من الصور - مع ان القوافل التي كانت تسير بحذاء شاطىء طنجة ، تجد صعباً عليها اليوم ان تجتاز الاسوار الحاجزة التي أنشأها اصحاب الحمامات البحرية في داخل الماء . ومـا زال ممكناً دراسة تجارة القوافل - وهي من اروع نواحي حضارة الشرق الاوسط - عن طريق الاختبار والمشاهدة ، بدلاً من الكتب ، واني لآمل ان يقوم بهذه الدراسة فني مدرب ، ما دام الوقت أقل قيمة من الغـازولين ومن الفلوس .

والطرق التي كانت قوافل الجمال تعبرها كثيرة وطويلة ، حتى اننـا نحتاج الى مجلدات كثيرة لمجرد تعدادهـا . الا ان بالامكان ذكر بعض

(٨) ابن بطوطة (مهذب رحلة ابن بطوطة ٢ : ٢٥٩ ط. القاهرة ١٩٣٤) .

الطرق المهمة . فهناك طرق ثلاثة تجتاز الصحراء الكبرى من الشمال الى الجنوب ، فتربط البلاد الاسلامية في شمالي افريقيـــا بالسودان الغني ، وتتقاطع هذه الطرق مع طرق أخرى كثيرة . ويظهر لنـــا هذا من مراجعة الخارطة رقم (٧) ، ونرى على هذه الخـــارطة ايضاً الطريق الصحراوي الذي يصل فاس بالقـاهرة ، والذي فضله كثير من الحجاج على الطريق المار بالمناطق الواقعة على الساحل الاكثر سكاناً والاشد ارتفاعاً ووعورة .

والى الشرق من مصر استعملت في العهد الاسلامي نفس الطرق التي عرفها القدماء . وتتجه الطرق نحو مدن اليمن من مينائي مكلا وعدن الواقعين على المحيط الهندي ، وتتجه الطريق العلوية التي تجتـــاز هضبة اليمن بعد ذلك الى مكة والمدينة والبحر الابيض المتوسط . وتسير الطريق محاذية للصحراء ، فتجتاز مدن دمشق ، وحمص ، وحماه ، وحلب ، والموصل ، وبغداد . وتعتبر بغداد ذاتها نهاية الطرق المائية ، ونهـــاية الممر الجبلي المتصل بهمذان . فاذا بلغ المرء همذان اختار احدى طريقين : اما طريق طهران ، مشهد ، تركستان ، فالصين ، وأمـا طريق يزد ، كرمان ، زاهدان حتى الهند . وله ان يختار ايضاً طريق الموصل ، تبريز ، قزوين ، التي تنشعب عنهـــا فروع تصل آرمينيا ، والقفقاس وشواطىء بحر قزوين . ومن هنـاك يستطيع المرء ان يسافر في بلاد اسلامية حتى مدينة قازان على نهر الفولجا .

واياً كانت الطريق التي اختارها مسافرنا ، فانه كان ، في الايام الغـــابرة ، يلتحق بأحد انواع اربعة من القوافل ، وتلك هي القوافل

العسكرية ، والدينية ، والتجـــارية الصغيرة ، والتجارية الكبيرة[٩] .
والنوع الاول من هذه القوافل هو النوع الوحيد الذي مضى وانقرض ، لانه كان يتألف من جيوش كانت تسير في الايام السابقة للغـازولين . وسنعطي مثلاً لهذا النوع من القوافـل ، حملة باي طرابلس الغرب الى برقة سنة ١٨١٧ ، لاخماد ثورة أخيه[١٠] . كان جيشه مؤلفاً من القوات النظـامية ، المنظمة على الاسلوب التركي ، ثم انضمت اليه تجمعات من ابنـــاء القبائل الضاوية في الطريق ولم تسنح لها فرصة الفرار . فاذا استثنينا البدو الذين كانت لديهم جمـالهم الخاصة ، فيما نفترض ، وجدنا ان كل خمسة او ستة من الجنود جمعوا ثروتهم ودفعوهـــا ثمناً لجمل اشتروه . وكان هذا الجمل يحمل الشعير لخيولهم ، ولطعـامهم ، ويحمل حصراً من اوراق النخيل ينـامون عليها ، وقربة ماء ، ودلواً خشبياً صغيراً للماء .

اما تجهيزهم فكان بسيطاً يساعدهم على السفر الخفيف السريع . وكانوا يعتاشون على مؤن المناطق التي يجتازونها ، بالتهديد ، والتعسف ، والسرقة المكشوفة ، وما كانوا يخشون ان تنفق جمالهم ، ففي استطاعتهم ان يستولوا على غيرها بدون صعوبة كبيرة . ولم يخافوا هجمات الغزاة في المراكز التي يتوقفون فيها ، لانهم يزيدون في العدد عن أية مجموعة ممكنة من الغزاة . ولذلك فان تخييمهم كان لحاجتهم الى الراحة لا رغبة

---

(٩) W. D. Schorger, «The Caravan Trails of North Africa,» senior honors thesis in anthropology (Peabody Museum Library, Harvard University 1947). For source material I am using principally E. W. Bovill, Caravans of the old Sahara; Captain J. Riley, The Authentic Narrative of the Loss of the American Brig Commerce (New York, 1918); Ibn Battuta, op. cit; J. P. Ferrier, Caravan Journeys and Wanderings in Persia, Afghanistan, Turkistan, and Beloochistan (London 1856); and Sir Richard Burton, Personal Narrative of a Pilgrimage to Al-Madinah and Meccah (London, 1893), 2 vols.

(١٠) Paolo della Cella, Narrative of an Expedition from Tripoli in Barbary to the Western Frontier of Egypt, trans. by A. Aufrère (London, 1822), pp. 9-11.

في الدفاع ، مواجهين اثناء نصب الخيام الاتجاه الذي سيسلكون في المرحلة التالية من السير . ونصب جند الباي المكلفون بخدمته خيمته الكبيرة وسط نصف دائرة ، نصب على جانبيها جناحان للضابط والطبيب الاول ، وأحاطت بهـا خيام مماليك الباي وحرسه الزنجي . ووراءها نصبت خيام الجنود في شكل نصف دائرة اوسع ، وربطت خيل الباي بين قرني نصف الدائرة . وهنا ايضاً عسكرت المدفعية وراياتها ، وما هذا في الحقيقة سوى الاسلوب التركي - المغولي ، في النزول[11] منقولا الى افريقيا .

ومن صعوبات مثل هذه الحملة العسكرية ان عليها ان تباشر سيرها حالما تأكل المواد الغذائية المتوفرة محلياً . وكان سلاطين مراكش يستعملون اسلوباً مماثلا في سبيل اخماد ثورات القبائل القريبة من قبضتهم . فما على الجنود الا ان يبقوا اياماً قليلة حتى يدفع السكان متأخرات الضرائب ، وتسارع القبائل المجاورة التي لا أمل لها في المقاومة الى دفع الاموال خوفاً من ان تزورها قوات السلطان[12] .

والنوع الثاني من القوافل ، وهو قوافل الحجاج ، مشابه للقوافل العسكرية من ناحية جوهرية واحدة ، وهي ان القافلة كبيرة الى حد يجعلها في أمان نسبي . وربما سافر كثير من الحجاج بالبحر ، خلال قسم من رحلتهم ، فامتطوا مراكب كالتي وصفناها قبلا في هذا الفصل[13] ، بصورة خالية من المظاهر ، لا فرق بينهم وبين الركاب العاديين . ومن

---

(١١) Michael Prawdin, The Mongol Empire, Its Rise and Legacy (New York, 1940), p. 84.

(١٢) يذكر ميكين (Meakin) امثلة عديدة - ولكنه لا يؤيد صحتها - عن حوادث وقعت عند بربر الاطلس الاوسط ، عندما كان السكان يخشون مثل هذا الغزو فيذبحون فتياتهم ويلقونهن في طريق جيوش السلطان لتخجل وتستحي ، وينجون هم بنتيجة ذلك . انظر : The Moorish Empire, p. 221.

(١٣) See Burton, op. cit: I, 186-206, chap. 10.

الامور المعروفة ان ركاب سفينة ما يشكلون مؤسسة منفصلة ومستقلة ، ما دامت السفينة في البحر ، ويحتاجون الى قائد ، مثلهم في ذلك كمثل أية جماعة أخرى معزولة مشتركة في مشروع واحد . ويحتاج القائد بدوره الى هيئة من الموظفين . ويصدق الشيء ذاته على جماعات المسافرين في البر . ففي الحملات العسكرية يكون الضباط والمنفذون من المؤسسة العسكرية ذاتها ، اما في قافلة الحجاج ، فلا بد من ايجاد طريقة أخرى في القيادة والتنظيم .

وقد التحق ابن بطوطة بقافلة الحجاج العراقية العظيمة عندما بدأت عودتها الى العراق ، في ١٧ تشرين ثاني (نوفمبر) سنة ١٣٢٦م. وموّل هذه القافلة السلطان ابو سعيد الذي عين لها قائداً اختصاصياً ، تنوعت واجباته وسلطاته ، بمثل ما تتنوع واجبات ربان الباخرة المحيطية وسلطاته . وقد انحصر همه الاول في تأمين راحة الحجاج الفقراء ، فكان من أجل ذلك مع الركب :

« نواضح كثيرة لابناء السبيل يستقون منها الماء وجمال لرفع الزاد للصدقة ورفع الادوية والاشربة والسكر لمن يصيبه مرض . واذا نزل الركب طبخ الطعام في قدور نحاس عظيمة تسمى « الدسوت » وأطعم منها ابناء السبيل ومن لا زاد معه . وفي الركب جملة من الجمال يحمل عليها من لا قدرة له على المشي — كل ذلك من صدقات السلطان أبي سعيد ومكارمه[١٤] » .

وكان التجار المسافرون مع القافلة ، ينصبون الدكاكين عند كل محطة من المحطات ، كما يفعل باعة السندويتش في القطارات ، فيفتحون بذلك سوقاً نهارياً عامراً يؤمه الاغنياء من الحجاج ، وكان المسير يتم في الليل على اضواء المشاعل . وقد توفر الطعام للجميع ، سواء بذلك

(١٤) ابن بطوطة ١ : ٤٠٥

الذين حملوا معهم مؤنهم او الذين حملوا معهم المال ، او الذين لم يحملوا المؤن او المال . وقد خصص لابن بطوطة - الخبير في الاسفار المجانية - شقة محارة ، ليستعملها طول الطريق من مكة الى بغداد (اكتراها له امير الحج ودفع إجارتها من ماله) . وكان قد سبق له في رحلة ثانية مع قافلة خارجة من تونس ان انتخب قاضياً لفض المخاصمات بين الحجاج . والظاهر ان وجيهاً غيره كان قد اختير لهذه المهمة في السفرة التي نحن بصددها .

وأول ما يهتم به قائد الرحلة هو الماء . وقد تزوّد من المدينة بماء يكفي مسيرة ثلاثة ايام ، وهي المدة اللازمة للوصول الى وادي العروس . وتقطع المسافة بين وادي العروس والعسيلة - المحطة التالية - في أربعة ايام ، وبعض هذه الرحلة يقطع في أقسام من هضبة نجد . وقد أخذ الماء هنا وفي المحطة التالية من المصانع والحسيان القديمة ، ولما وصلت القافلة الى المحطة الرابعة (الحاجر) كانت مياه المصانع القديمة جافة ، فأخذت حاجتها من الحفر عن الماء في الجفار . ولا بد ان المقادير التي كان يأخذها ما لا يقل عن ألف حاج ، وحيواناتهم الوفيرة العدد ، من سلسلة من مستودعات المياه في الصحراء ، كانت كبيرة بحيث يشعر السكان المحليون بأثرها ويعانون من شحة الماء . ولا شك ان هذا يوجد مشكلة سياسية ، خصوصاً اذا تذكرنا ان القافلة كانت برعاية سلطان العراق .

وكان البدو المحليون يبيعون الحجاج الاغنام ، والحليب ، والسمن ، ولا يشترون بها سوى انواع معينة من الاقمشة الخشنة التي كانت تجلب من اجلهم . وتصل القافلة الى حصن يقع بين منتصف طريق مكة - بغداد يسمى حصن فيد ، حيث سبق ان ترك الميسورون من رجال القافلة نصف مؤنهم ، وهو النصف الذي يحتاجونه فيما تبقى من

رحلة الرجوع . وينتظرهم اثنان من أولاد امير القبيلة* الحاكمة ليتأكدا من حصولهم على امتعتهم ، وليبيعاهم الجمال والاغنام وليحمياهم من الحاح الاعداد الكبيرة من السكان المحليين الوافدين للتسول ، وللسرعة ان لاحت الفرصة .

ويترصد المتسولين للمسافرين دوماً ، ولذا فالحجاج هدف طبيعي من اهداف عنايتهم . وتراهم اليوم حتى في ايامنا هذه ، يتسكعون حول مواقف الباصات ، معرقلين حركة السير والبؤس بادٍ عليهم . ومن اسباب وفرتهم في محطات السفر ، ان المسافر يحتفظ عادة ببعض النقد ، ولا بد له ان يظهره . ومن اسبابها ايضاً ان سؤال الغريب اربح من سؤال الشخص الذي تراه في كل يوم ، لأن اشد تأثر المرء من منظر اليد المرتعشة والصوت المنكسر ، يكون عندما يقابلها أول مرة . وبينما يزن الاثرياء المحليون ما عليهم من الزكاة وزناً دقيقاً ، فان الحجاج الذين مستهم التقوى من حجهم ، أقل حساباً بتوزيع المال ، خصوصاً وانهم لن يروا المتسول مرة ثانية في حياتهم . واذا نظرنا الى الامر من وجهة نظر المجتمع ، فاننا نرى ان من الخير ان تزداد اموال الخير من مصادر خارجية الى جانب المصادر المحلية ، ولكن شرط ان لا يبالغ المتسولون بالسؤال الى حد يخل بالأمن او يبعد المسافرين . وهذا سبب من اسباب وجود الحراس المسلحين .

الا ان المتسولين في أسوأ احوالهم مصدر ازعاج . وأخطر منهم ، أن يقوم البدو او سكان التلال بالهجوم على القافلة . ولا شك ان هذين الولدين من ابناء الامير جاءا ليؤمنا للقافلة سلامة العبور في ارض أبيهما ، وقد أصبح وجه هذا الرجل العظيم رهناً بمرورها . ولن نعرف كم دفع قائد القافلة ثمناً لهذا الامان ، وهل دفع ذلك المال ام قدم الهدايا ام

* كان الامير حينئذ هو المهنّى بن عيسى اما ابناه اللذان كانا ينتظران القافلة فهما فيّاض وحيار . (المراجع)

كليهما . ولم يخبرنا ابن بطوطة ايضاً عما اذا كان في القـــافلة حرس محترفون أو لا** ، ومن كان يقوم بأعمال الشرطة في حال عدم وجود مثل هذا الحرس . ويذكر السير ريتشارد برتون (Sir Richard Burton) الذي رافق احدى قوافل الحج بعد ذلك بأكثر من خمسة قرون بأنه كان في عداد القافلة خمسمائة من الفرسان الالبانيين الذين بذلوا كل جهد ممكن لحماية المسافرين من رصاص الفاسقين وطمعهم(١٥) . ومع انهم وفقوا في احدى المعـارك الى طرد المهاجمين فقد كلفهم هذا النجاح اثني عشر قتيلاً . ومن الجائز ان يكون الامن في طرق القوافل قد اختل ما بين عهد ابن بطوطة وعهد برتون .

ولكن المرء ينتظر في كل من القـــافلتين وقوع مشاكل تستدعي وجود الشرطة . ولقد قيل لنا في الحالتين بأن الحجاج جاءوا من بلاد كثيرة ، وبينهم المتكلمون بالفارسية ، والبشتو ، واللغات الهندية ، الى جـانب اللغة العربية ، ويصر كل منهم على طريقته في الصلاة . ويشير برتون الى استنكار السنيين لما يفعله العجم من اضافة خمس كلمات الى الصلاة ، ويذكر كذلك مقدار استثـــارتهم ومكايدتهم للشيعة بترديدهم اسماء الخلفـــاء الثلاثة الاول المرة تلو المرة . ويذكر يميناً حلفها احد الحجاج بأن يطعن مسافراً آخر بمدية ، بعد انتهاء الرحلة .

ولنعد الى قافلة ابن بطوطة ، الذي يذكر لنا انه عندما بلغت القافلة ماء الواقصة الواقع على مسيرة اثني عشر يوماً من الكوفة ، واجه القائد أصعب فترة من حيث حاجة القافلة الى الماء ، اذ كان عليه ان يحمل ماء يكفي مسيرة اثني عشر يوماً . وكان الموقع لحسن الحظ قريباً من

** ان الاخبار عن قافلة الحاج العراقي وخاصة بعد ان اصبح القرامطة خطراً يهدد الحج ، لتدل على ان الخليفة كان يرسل مع صاحب الحج حرساً مسلحاً او على الاقل يزود صاحب الحج بالاسلحة وهذه ضرورة لا اظنها بطلت من بعد . (المراجع)

(١٥) Burton, op. cit; I, 272-274.

نهاية الرحلة ، بحيث ان معظم المؤن والحاجيات الكبيرة الحجم كانت قد استهلكت . ووجد الحجاج في الواقصة تجاراً من الكوفة حضروا خصيصاً لمقـــابلتهم ، وجلبوا معهم الطحين ، والخبز ، والتمر ، والفاكهة لينال الحجاج قوة تعينهم على المرحلة الطويلة الاخيرة من مراحل اجتيـــاز الصحراء . ولم تكن هذه السفرة سفرة ابن بطوطة الوحيدة مع الحجاج ولكنها الوحيدة التي وصفها بتفصيل . ويذكر لنـــا برتون وغيره من رحالي القرن التاسع عشر تفصيلات أخرى ، ولكن رحلاتهم تمت عندما كانت ايام الاسلام الزاهية قد مرت ، وغرقت في غمار الماضي .

والقوافل التجارية الصغيرة اكثر شيوعاً من قوافل الحج بكثير ، وهي التي تعتمد عليهـا معظم التجارة البرية . وما زالت هذه القوافل تسير الى يومنـا هذا ، ويمكن درسها بسهولة[١٦] . وتتألف مثل هذه القـــافلة من جماعة صغيرة من التجار وبضاعتهم ، او من تاجر فرد ، وخدمه ، وبضاعته ، وهم ينتقلون من مركز تجاري الى آخر . وكثيراً ما يلتحق المسافرون العاديون من الحجاج او غيرهم ، بقافلة تجارية ، او قد يشكلون قافلة لأنفسهم ، ويستأجرون لها الادلاء والخدم .

كانت جماعات التجار والمسافرين ، قبل أقل من خمسين سنة ، تتجمع في المدن المراكشية ، وتنتظر حتى يتوافر عددها ، وتستطيع استئجار ما يكفي من الحراس ، قبل ان تبدأ ارتحـــالها الى مدينة أخرى . ولكن هـــذا كان يحصل في فترة من فترات الفوضى النسبية . وهو الترتيب المألوف في أطراف الصحراء الكبرى ، وفي اطراف الصحارى الآسيوية . وكان عدد من التجار اليهود في مراكش ، يركبون حميرهم في أطراف القوافل ، ليستفيدوا من حمايتها ، دون ان يكونوا اعضاء كاملي الانتماء إليهـا . فاذا وصلت القافلة الى نهر في فترة فيضانه ، دفع

---

(١٦) ابن بطوطة ..

واحد من جماعة أهل الكتاب هؤلاء الى النهر ليختبر عمقه . فان اجتازه تبعه المسلمون .

وليست العواصف الرملية أهم الاخطار التي تواجهها القوافل الصغيرة العابرة الصحراء ، ولا هجمات المغيرين ، بل أهمها العطش ، ولذا كان همها الاول ان تحمل كمية كافية من الماء وتحافظ عليها . وتستعمل الجمال لحمل الماء ، والطعام ، والبضاعة ، ولكن النـــاس لا يركبونها الا عند الضرورة القصوى . ويعتمد عدد الجمال التي تقطر مع القافلة على المؤن اللازمة ، المعتمدة بدورها على مسافة الرحلة ، وتباعد مواقع المياه . ويعتمد عدد الاشخاص المشتركين في القافلة على طبيعة الارض التي ستجتازها القـافلة وعلى نوع البضاعة التي تحملهـا فعلاً . وبين اشخاصها اعداد مختلفة من التجار ، وقد يكون بينهم المسافرون . وللقـافلة دليل واحد او اكثر وعدد من الجمـالين وجماعة من الجنود المحترفين او الحرس . وينتخب التجار احدهم قائداً للقـــافلة ، اذ لا بد من وضع السلطة النهائية بيد شخص معين . ولكن لما كان هذا القـــائد تاجراً لا اختصاصياً بامور النقل ، كالقائد الذي رافق قافلة ابن بطوطة ، فانه لا يمـــارس سوى المقدار الادنى من السلطة تاركاً معظم القرارات للأدلاء .

ويقوم الجمالون بكافة الاعمال في اثناء الطريق ، فيحملون الجمـــال ويفرغون احمالها ، وينصبون الخيام ويقلعونها ، ويطبخون ، ويخدمون مستأجريهم . ويستأجر الادلاء محلياً ، وقد يعملون للرحلة كلهـــا او لأجزاء منها لهم بهـــا معرفة خاصة . ويختص الادلاء المحترفون بمعرفة منطقة معينة ، او عدد من الطرق ، وهم يستدلون بالمظـاهر الارضية نهاراً ، وبالنجوم ليلاً (ادعى دليل بلو «Pellow» بأنه يعرف الطريق من الرائحة) . ويسير الدليل في مقدمة القافلة مقرراً سرعتها التي تتراوح في العـــادة بين ميلين ونصف وثلاثة اميال في الساعة . فاذا أحس احد الافراد بالتعب فـانه يرتاح قليلاً ويغفو غفوة قصيرة ، فاذا أفاق جرى

وراء القافلة . ولا يسمح له بالركوب الا اذا أصيب بأذى او تعب . فاذا اضاع الدليل الطريق وفرغت قرب المياه ، اصبح كل فرد مسؤولاً عن نفسه ، لأن سلطة التاجر القائد لا تستطيع احتمال هذا الموقف . وقد يكون هذا بالفعل هو الافضل لأجل البقاء ، لأنه اذا بقي الجميع معاً كانت فرصة نجاة فرد منهم أضعف وأقل . وعلى النحو نفسه يترك الرجل الذي يقع في جانب الطريق ، اذ لو توقفت القافلة كلها للاعتناء به لتعرض جميع افرادها للهلاك .

ويحافظ على النظام اليومي اثنـــاء المسير محافظة تامة ، لان من الضروري قطع مسافة معينة كل يوم . فيبدأ المسافرون السير قبل الفجر ، ويسيرون عدداً معيناً من الساعات قد يبلغ اثنتي عشرة ساعة ، ويقطعون ما بين خمسة وعشرين ميلاً وثلاثين ميلاً . فاذا كان المسير طويلاً فانهم يتوقفون لطهي الطعام مرتين في اليوم ، في وقتي الفطور والعشاء ، ويأكلون قليلاً من التمر دون وقوف في موعد الغداء . ويحافظون على هذا التكرار حتى يصلوا موقع الماء التـــالي . اما اذا كانت المسافة قصيرة فربما توقفوا قليلاً لشرب الشاي . فاذا حل الليل ، وجاء وقت التخييم ، كان تصرفهم رهناً بتوقع الاخطار او عدم توقعها . فاذا توقعوا خطراً ، ابركوا الجمال في شكل دائرة وقيدوها ، ووضعوا وسط الدائرة بضاعتهم الثمينة ، ومؤنهم وماءهم . وقد ينام التجار الاثرياء وذوو الشأن في الخيام ، ولكن معظم الناس ينامون بين الجمال والمتاع ، ويحتمون وراءها من الرياح والرمال ، بأسوار مؤقتة من الاعشاب . ويفترض في الجنود ان يسهروا الليل في الحراسة ، على اساس التناوب .

فان لم يكن خطر ، ووجد الكلاء ، تركت الجمال ترعى اثنـــاء الليل . والا وضع الجمالون امامها التمر في كومة واحدة ، فتأكل اشرس الجمال اكثر من غيرهـا . ولا يسقي الجمالون جمالهم من مياه القرب ، الا اذا لم يكن مفر من ذلك . ولكي يتجنبوا مثل هذه الضرورة ،

فانهم يسمنون جمـــالهم مدة شهر او اكثر قبل الرحلات الطويلة ، ويدربونها على المسير بدون ماء فترات أطول . وتتبع الجمال الدليل في الطريق صفاً واحداً ، وينشطها الجمالون بالحداء . وتجد الموسيقى العربية ، ذات الوصلات القصيرة ، عند الجمل اذناً صاغية .

فاذا وصلت القـافلة الى مقصدها فالمفروض ان يجد افرادها مختلف الاعذار للتخلص من مقابلة بعضهم البعض ما أمكن ، حتى يحين موعد العودة . والواقع ان هذه القوافل تضيف دوماً اناساً وتترك آخرين ، وهذا من دواعي الرحمة .

اما القافلة التجارية الكبيرة فتتكون من عدد من القوافل الصغيرة المجتمعة معاً . وتستأجر القافلة شيخاً محترفاً من شيوخ القوافل ليكون قائدها بدلاً من ان تختار القـائد من بين أفرادها ، ويتخذ هذا القائد جميع القرارات النهائية ، واعضاء القـافلة مسؤولون تجاهه . وقد رأينا ان قبيلتين عربيتين خاصتين من رجال القوافل ، تسكنان بين الطوارق الغربيين ، وتدفعان لهم جزية اسمية لقاء الحماية الكاملة . وان لامثال هؤلاء الرجـــال الذين توارثوا مثل هذه العلاقات الخاصة مع سادة الصحراء ، قيمة خـاصة بالنسبة للمسافرين عبر الصحراء . ويأخذ هؤلاء الشيوخ أجرهم نسبة مئوية من ربح كل تاجر في الرحلة ، بنفس الطريقة التي يأخذ به بحارة السفينة أجورهم ، ولا شك ان في مقدورهم ان يقوموا ببعض التجارة لحسابهم الخاص .

ويشير رايلي[١٧] الى قافلتين في الفترة الواقعة بين سنة ١٨١٢ وسنة ١٨١٥ فيذكر ان احداهما كانت تتألف من ثمانمـائة رجل وثلاثة آلاف جمل وانهـا تحركت من وادي نون الى تمبكتو ، ويصف الثانية بأنهـا تألفت من ألف وخمسمائة رجل وأربعة آلاف جمل ، تحركوا من تمبكتو

(١٧) Riley, op. cit. p. 204

الى ساحل البحر الابيض المتوسط . والقوافل الكبيرة بهذا الحجم تتناول التجارة الكبيرة . والظاهر ان التجار المرتحلين من جميع المدن الواقعة بين طرابلس وفاس كانوا يجتمعون معاً مرة في السنة ، لتشكيل قافلة ضخمة واحدة الى تمبكتو ، تعود محملة بالذهب والعاج ، والصمغ الثمين ، وبعبيد قد يبلغون ألفين . ولما كان العبيد يزيدون في العدد عن آسريهم ، ولما كان عدد الناس في القافلة كبيراً بحيث يخشى ان يضل بعضهم ، او ان يخلقوا المشاكل في المنـــاطق المسكونة من الطريق ، كان لا بد لشيخ القافلة ان يطبق الصرامة العسكرية ، وان يهتم بشكل خاص بتوزيع الميـاه واستعمال الكلاء . ويتسلح جميع الرجـال بالبنـادق والسيوف ، ولما كان عددهم كبيراً فانهم يستطيعون الدفاع عن أنفسهم بغير حاجة الى جند خاصين . ومن الجهة الاخرى فانهم يعتبرون غنيمة سمينة ، ولذلك فانهم يتعرضون دائماً لغارات بعض القبائل المنافسة لحماتهم من الطوارق ، والتي قد تبلغ قوة يعجز عنها الطوارق . وكان الطرفان يشتبكان احياناً بمعارك دموية ، ويذكر رايلي ان احدى هذه القوافل ضلت طريقها في عاصفة رملية مرة من المرات ، وعندما أمر الشيخ في احدى اللحظات الحرجة بقتل بعض الجمـــال ثار عليه التجار وقتلوه . وتجزأت القافلة بعد ذلك ، وتحاربت اجزاءها وتبعثرت جماعات كثيرة شقت كل منها لنفسها طريق النجاة(١٨) .

ولابن بطوطة مـا يقوله في هذه القصة . فهو ايضاً اجتاز الصحراء الكبرى . ويذكر لنا انه عندما كانت القافلة متجهة نحو الجنوب ووصلت ماء يسمى تيسار ، ارسلت رسولا خاصاً راكضاً وينتمي هذا الرسول الى قبيلة مسوفة التي اشتهر رجالها بقدرتهم على الجري لمثل هذه القوافل . وقد وصل هذا الرسول جرياً الى إيوالاتن ، اقرب مدن السودان ، ومعه رسائل من أفراد القافلة الى اصدقائهم في تلك المدينة يطلبون

«١٨» Ibid. pp. 164-165.

منهم ان يرتبوا لهم الاقامة . اما التجار الذين لا اصدقاء لهم فيتعرفون على اسماء بعض السكان ويكتبون اليهم دون سابق معرفة . ويخرج مستلمو الرسائل مسيرة اربع ليال في الصحراء حاملين الماء الذي تحتاجه القافلة اشد الحاجة لأن أفرادها لا يحملون من الماء ما يكفيهم طول الطريق . وقد يختفي هؤلاء الراكضون في الصحراء فيهلك بعض افراد القافلة او كلهم[١٩] . ولكني اشك في ان يكون مثل هذا الامر متبعاً في طريق يكثر عليه السفر .

وتدار القوافل التجارية الكبيرة في آسيا بنفس الطريقة التي تدار بها القوافل الافريقية ، وتعاني من صعاب مشابهة . ورغم وجود كتب عديدة قيمة تصف هذه القوافل ، فان الكتابين اللذين اجدهما في غاية الطرافة هما كتاب فيرير (Ferrier) الواقعي ، والوصف القصصي الوارد في رواية حاجي بابا الاصفهاني – ذلك الوصف البالغ الدقة بحيث يصعب على كثير من الفرس ان يصدقوا ان مؤلفه انكليزي[٢٠] .

كان فيرير وحاجي بابا الاصفهاني يقضيان الليالي في خانات الطريق ، وهي بنايات كبيرة أقيمت حول أفنية وأقيمت فيها عشرات الحجرات لنزول المسافرين . وتكثر هذه الخانات في ايران ، وقد بنيت في مراحل عديدة معقولة ، وقام ببنائها عدد من الشاهات الاقوياء ، ومنهم الشاه عباس الشهير (١٥٨٨ – ١٦٢٩م) . والخان فندق للمرء ودابته ، وللمسافر ان يطهي فيه طعامه بنفسه ، او ان يشتري الطعام . وفيه يتقابل مع غيره من المسافرين ويتبادل معهم المعلومات . ويبني اصحاب الخانات النشيطون من الفرس في هذه الايام نوعاً جديداً من الخانات المعدة للسيارات ، وفيها أفنية توقف بها سيارات الشحن او غيرها من السيارات

---

(١٩) انظر مهذب الرحلة ٢ : ٢٩٦ (ط. القاهرة ١٩٣٤) Ibn Battuta, op. cit. p. 318.

(٢٠) Ferrier, op. cit. James J. Morier, Hajji Baba of Isfahan (NewYork, 1937).

في أمان اثناء الليل ، وتحتوي على غرف النوم والطعام . والمؤسسات الشبيهة بالخانات موجودة في المناطق المأهولة من الديار الاسلامية بأسماء مختلفة : فتدعى الفنادق في شمال أفريقيا والخانات في المناطق المتكلمة باللغة التركية .

وأروع مظاهر السفر في أزهر عصور الاسلام ، بل وفي عصور الاسلام كلها الى حد ما ، هو الوسائل المتعددة التي ساعدت على انتقال اكبر عدد ممكن من الناس ، كالنقل المجاني ، والطعام المجاني في قوافل الحج ، والنزول المجاني في زوايا الطرق الصوفية ، وبيوت أهل الفتوة ، والمساجد الريفية ، والمساعدات التي تخصصها بعض الاوقاف لأبناء السبيل والمسافرين ، وامكانية الارتزاق بالاتجار على الطرق او بالعمل في الكتابة والنسخ — هذه كلها وسائل نشطت الناس على السفر والارتحال ، ولعبت دوراً عظيماً في ايجاد التناسق في الحضارة الاسلامية كلها . ونشط السفر نقل البضائع ، بحيث تمكنت المدن المختلفة والقرى المختلفة ، ان تختص في انواع المنتجات ، وتطمئن الى بيع منتجاتها على مقياس واسع في منطقة جغرافية واسعة ، بما يؤدي الى مكافأة اصحاب المهارات الفائقة وبتنمية مهاراتهم في صنع المنتجات القائمة على المواد الاولية المتوفرة محلياً . ومكن السفر اهالي نصيبين في شمالي العراق من صنع ماء الورد ، ومكن أهالي سرمين من تصدير صابونهم المعطر الفاخر ، وأهالي بعلبك من التخصص في صنع الصحون والملاعق الخشبية .

وقلما تجد في الاوصاف الاسلامية القديمة ذكراً لجوازات السفر والتفتيش في المخافر الجمركية . ولكن الامرين كانا معروفين ومطبقين في بعض الامكنة وبعض الازمنة . ويصف ابن بطوطة انه أوقف اثناء خروجه من مصر الى سوريا في موقع يسمى قطيا ، قائم على موقع قناة السويس الحديثة ، وتعرض لعذاب ومضايقة على أحدث الطرق والأساليب التي يعرفها عصرنا . وهو يقول :

« وبهـــا (أي قطيا) تؤخذ الزكاة من التجار ، وتفتش أمتعتهم ، ويبحث عما لديهم أشد البحث ، وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود ، ومجباها في كل يوم ألف دينـار من الذهب ، ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر ، ولا مصر إلا ببراءة من الشام ، احتيـاطاً على اموال الناس ، وتوقياً من الجواسيس العراقيين ، وطريقها في ضمان العرب ، قد وكلوا بحفظه ، فاذا كان الليل مسحوا على الرمل لا يبقى به أثر ، ثم يأتي الامير صباحاً فينظر الى الرمل ، فان وجد به أثراً طلب العرب باحضار مؤثره ، فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم ، فيأتون به الامير ، فيعاقبه بما شاء . وكان بها في عهد وصولي اليها عز الدين استاذ الدار أقماري من خيـــار الامراء ، أضافني وأكرمني وأباح الجواز لمن كان معي[٢١] » .

ومصر بلاد مغلقة عند مداخلها الشرقية ، وتسهل حراستها . ولكن حدود معظم بلاد الشرق الاوسط واسعة يمكن اجتيازهـــا بسهولة ، وتجتاز فعلاً بسهولة . ولقد رأيت عرباً من الاردن يدورون حول مخفر الحدود العراقي الواقع على طريق الانابيب بنفس السهولة التي وجدهـا الركاب المرافقون لفيليبر عندما كانوا يصعدون قاربه او ينزلون منه . لقد كان المجمع الاسلامي عـالماً موحداً بشكل فذ ، وقـــائماً بذاته ، وكان الاتجاه الكلي فيه يسمح بحرية التجارة وحرية التنقل دون عرقلة . ولكن في امتلاكه المشترك لهذه الروح سر من أسرار عظمته .

---

(٢١) ابن بطوطة ١ : ١١٢ – ١١٣

الفصل الثامن عشر

درس في التقشف

ان غايتي المباشرة من وضع هذا المؤلف ، هي الغـاية الظاهرة من سرد الحقائق الجغرافية والثقافية عن الشرق الاوسط للأميركيين المهتمين بأمره ، لتكون عوناً لهم في فهمه . ولذلك فهو موجه بشكل مباشر الى طبقتين من الافراد : اولئك الذين يوشكون ان يذهبوا الى أي من البلاد الثماني عشرة التي ذكرتها او اليها جميعاً ، وأولئك الباقون في موطنهم الاميركي ، من الراغبين في ان يزدادوا علماً بالمنطقة ليقدروا على إصدار الاحكام العـاقلة عن العلاقات الخارجية التي تربط الولايات المتحدة الاميركية بها* .

ولقد تجنبت في محاولتي هذه ، الوصول في الصورة الى آخر لحظة زمانية معاصرة ، يؤلف عنها الكثيرون من المؤلفـين الذين تسنت لهم معلومات اكثر عن التاريخ الحديث والاحداث الجارية ، في كل يوم .

* كيف يتم ذلك والكتاب لم يمس الجانب المتطور من حياة هؤلاء الناس ، ولا عرّف بالمطـامع الحديثة التي تعتلج في نفوس اهل هذه المنطقة ، ولا نظر الى التصدع الكبير الذي أصاب نظام الفسيفساء ؟ «المراجع» .

وثمة مزلق آخر تجنبت الوقوع فيه ، وهو التحزب والمفاضلة . اذ انني شخصياً اعتبر العقائــــد السنية والشيعية متساوية في الفضل ، ولا تهمني الاضطرابات بين اسرائيل والبلاد العربية . اما الشيء الذي كان موضع اهتمامي ، فهو ان اضع امـام اولئك الذين يرسمون مخططات السدود ، ويقدرون أكلاف العمال المحليين وكفاءتهم في المعامل التي يفكرون بأن يوظفوا بها أموالهم ، صورة حقيقية عن الشعب الذي سيتعاملون هم او عملاؤهم معه .

ويهمني كذلك ان أظهر كيف استطاع معلمو الصناع التوصل الى هذا المستوى العالي من المهارة على مدى آلاف السنين ، وبأقل مقدار من الأدوات . وكيف يختلف المفهوم القائم على وجود مئات من المعلمين المنتظمين في نقابة ، ويشتغل كل منهم بنفس العمل ، عن المفهوم الأوربي للعمل . وما هذا سوى بند من قائمة المعلومات « العملية » التي حاولت سردهـــا . ويستطيع كل فرد مهتم بمشاكل العمل اليومي ان يكتشف معلومات كثيرة غيرها .

والناحية العملية الثانية من هذه الدراسة هي انها تظهر ان حكومات الامم الاسلامية لم تتدخل في الحياة الشخصية لرعـاياها الا قليلاً ، بينما كانت العلاقات المتبادلة بين هؤلاء تسير في مجار أخرى متعددة الانواع ، أهمهـا المجـاري الدينية . فالمؤسسات التي على شاكلة الطريقة الصوفية ، والوقف ، والنقـــابة ، والصف ، ومجلس القرية ، ومفهوم وجه الرجل العظيم ، كلهـا أجهزة تحفظ المجتمع الاسلامي في خط متوازن ، وتجب المحافظة على هذه المؤسسات اثنـاء عمليات التصنيـع الآلي الكثيبة ، مع تكييفها للظروف الجديدة بدلاً من تثبيطها وتحطيمها .

اما الغاية الثانية في اظهار ان اساليب الانثروبولوجيا التطبيقية هي أساليب عملية في دراسة الحضارات المعقدة المدونة ، بمقدار ما هي عملية في دراسة الثقـافات البسيطة السابقة للكتابة . فالشرق الاوسط اطول تاريخ مسجل بين مناطق العالم كله ، وهذه الحقيقة الواقعة تشكل تحدياً

ومزية في آن واحد . ولقد قبلت التحدي ، وأرجو ان اكون قد استفدت من المزية . ولقد مهدت ، على الاقل ، الطريق لآخرين ، قد يتعودون هذا النوع من البحث ، ولا يعودون يعتبرونه بدعة مستحدثة .

اما السبب في انه كان يعتبر بدعة فواضح كل الوضوح . فتذكرة السفر الى كابل تزيد في اكلافها عن اكلاف السفر الى مدينة نائية في اميركا تدرس فيها بقايا الهنود الحمر . وقد كانت مناهج الابحاث الانثروبولوجية قبل ان تنشأ حاجتنا الى الخبراء الاقليميين مفصلة لتلائم حجم اطروحات الدكتوراه . وكان اسهل وأيسر ان يقضي الباحث صيفه في احدى « التحويطات » الهندية بأميركا ، متباحثاً مع نفر قليل من بقايا القبائل ، مسجلاً احاديثهم عن الايام الطيبة التي انقضت ، قبل ان تتلاشى من ذاكرتهم . وقل بين جامعاتنا من تعلم اللغة العربية الحديثة ، او الفارسية ، او التركية ، واللغات ضرورية في الشرق الاوسط . ولم يكن لاميركا سوى مصالح قليلة في الشرق الاوسط ، فلم تهتم بأمره مؤسساتها الوقفية ، التي اصبحت الآن واعية تماماً للحاجة الى العلماء الاكفاء في ثقافة هذه المنطقة .

لقد تعلمنا بأن على الانثروبولوجيين ان يركزوا دراساتهم على الشعوب التي توشك ان تنقرض ، جسدياً ، او ثقافياً او من الناحيتين ، وان يعصروا كل نقطة من المعلومات عن هذه الشعوب قبل ان تزول ، ولهذا الموقف ما يبرره . ومهما يكن من أثر هذا الانشغال الكلي بالثقافات البسيطة في تحويل انتباهنا عن المشاكل التي تبدو الآن مهمة ، فانه مفتاح السر في نجاح طريقة البحث الانثروبولوجي ، لانه علمنا ان ننظر الى أية ثقافة ككل واحد ، لا كأجزاء . فلن نستطيع فهم اقتصاد شعب ، ولا تركيبه العائلي ، ولا طقوسه الدينية ، ولا حكومته ، ما لم نعرف خطوط قصته الثقافية بأجمعها ، مرسومة على بعدي الزمان

والمكان . وما دام الفهم قصدنا ، فان هذه الغاية الثانية تشكل جزءاً من الغاية الاولى .

اما الفهم وهو مفتاح الغاية الثالثة فانه عملية ذات اتجاهين . فاذا كنا نحن الاميركيين نساعد شعوب الشرق الاوسط على التوصل الى مستوى معيشي يقارن بمستوانا ، فليس هذا راجعاً الى كرم في العاطفة ولا هو – فيما أرجوه – عائداً الى رغبة في تحقيق منفعة مادية لنا بانشاء اسواق جديدة ولا لمجرد استبعاد منافسينا في هذه الفترة عن الوصول الى حقول البترول ، رغم كون هذين الدافعين من الدوافع القوية . فاذا كنا اذكياء ، فاننا انما نفعل ذلك كله لنتعلم شيئاً ذا قيمة بالنسبة الى انفسنا* .

لقد جاءت النصرانية من الشرق ، ومنه ايضاً جاءت امها الديانة اليهودية . ومن الشرق جاء القمح الذي نأكله خبزاً ، والحيوانات الاليفة التي نأكل لبنها ولحمها . وعنه أخذنا معرفتنا بالافران التي ينفخ في نارها فتذيب خامات المعادن ، والعجلة المركبة على قضيب متحرك وهي التي نستعملها لتحريك مصانعنا وعجلاتنا الآلية . ومنه أخذنا الكلمة المكتوبة .

فاذا كان الشرق الاوسط قد اعطانا هذه الاشياء كلها ، فربما تبقت لديه حكمة لم نعرفها ، او لعلنا عرفناها قبل زمن طويل ثم نسيناها بعد ذلك . فكم يسهل نسيان المبادىء الاساسية للتصرفات الانسانية في عصر تتقدم به التقنية بسرعة لم يعرف لها مثيل من قبل ، بينما تجهد الوسائل الاجتماعية محاولة اللحاق بها . في مثل هذه الايام لا يأبه الناس بأحكام الشيوخ ، لانهم جاهلون بأحدث التقنيات . فاذا أردنا استعادة معرفتنا بالحقائق الاساسية عن علاقات الانسان بالانسان ، وجب ان نتجه الى مجتمع أثبت ، مجتمع تمت تكيفاته الداخلية ومحصتها التجربة

---

* ترى ما نسبة هذا الدافع – من وجهة عملية – الى الدافعين السابقين ؟ (المراجع) .

منذ عهد بعيد ، قبل ان يدخل بدوره في نطاق الزوبعة الصناعية ، ويبدأ في ضلال يفوق ضلالنا يأساً .

واول ما نتعلمه هو الدرس التالي . ستذهب النوايا الطيبة هباء في أي مجتمع ، وستضيع المقاصد الرفيعة عبثاً ، وستهدر جميع الجهود التي يبذلها أعقل البشر ، اذا كان النظام الذي يعيشون فيه مغلوطاً ولا يستطيعون تغييره . اما اذا كان النظام صحيحاً ، وحافظ الشعب عليه ومنع تغييره ، فقد ينشأ في مجتمعه افراد انانيون ، منفرون ، جاهلون ، معادون للمجتمع الى الحد الذي يريدونه ، ويستمر الآخرون مع ذلك في السير معاً جنباً الى جنب دون مشاكل .

ما الذي يجعل نظاماً ما صحيحاً او مغلوطاً ؟ ان الصواب والخطأ كلمتان ذاتيتان ، واذا ترجمناهما الى مصطلح عملي فانهما يعنيان الانظمة التي ركبت بحيث تحافظ على توازنها ، وتلك التي يختل توازنها بسهولة ، بسبب خطأ في اجهزتها الاجتماعية . والاجهزة الاجتماعية التي تحافظ على توازن المجتمعات التي تمتلكها — بحيث يستطيع افراد هذه المجتمعات ان يستمتعوا بأقصى حد ممكن من السعادة — تتكون من ازدواج من وسائل الموازنة ، ومن وسائل الضبط التلقائي التي توقف الخلل قبل تطوره . فاذا اختل نظام فرد من الافراد بحيث اصبحت افعاله تهدد الآخرين ، طبق في حقه القصاص التقليدي فوراً ، وحصر نطاق الخلل . انظر الى اجتماع القبـــائل عندما ثارت المشاكل بين اولاد عبد المؤمن وبني تدموت .

ومجتمع الشرق الاوسط القديم الذي حاولت وصفه كان مجتمعاً محافظاً على توازنه بواسطة اعداد كبيرة من هذه الضوابط التلقائية . ومن أبرز الضوابط تقسيم العمل القائم على خمس مستويات ، تقسيماً اعطي كل فرد فرصة للتخصص في عمل ما ، ولتوجيه نشاطه — عرف او لم يعرف — نحو أفضل استغلال ممكن للأرض بواسطة اكبر عدد من النـاس ، في

مستوى تقني سابق للعصر الصناعي . وجميع اشخاص الشرق الاوسط من بلاد الريف الى بلاد البطهانيين وهما طرفاه الحضاريان ، معبأون على أعظم جانب ممكن من الكفاءة في واجباتهم المترابطة ، حتى كأن منظماً إلهياً اختارهم ، وخصص لهم اعمالهم بموجب خطة مرسومة ، ووضعهم في امكنتهم الصحيحة .

كيف حصل ذلك ؟ يقول اتباع المدرسة الآلية انه حصل بالتجربة والخطأ . ويعتقد هؤلاء بأنه لم يخطط هذا الامر عقل انساني ، بل نشأ وظهر على هذا الشكل . ويقول المتدينون بأنه شاهد آخر على قدرة الله ، واهتمامه بشؤون البشر . ولو نظرنا الى العالم لوجدنا مجتمعات كثيرة ، بينها البسيط والمعقد ، تعمل بموجب اساليب معقدة في التكيف ، مثلما يطير الزقزاق الذهبي مهاجراً كل سنة بأسباب لم يكتنهها حتى اليوم انسان . ونرى مجتمعات اخرى خطها البشر بأدق تفاصيلها ، دون ان يتكيف الناس فيها او يشعروا بالسعادة ، لانها تفتقر الى اجهزة الضبط والموازنة . فالطاغية فيها لا يقتل حتى يستريح منه الشعب ، والحر فيها لا يصدق جاره ولو اقسم له أغلظ الايمان ، ولا يجرؤ انسان في داخلها على الاعتراف بأن معارف خبراء بلاده قد لا تكون كاملة شاملة ، او ان حاكمه غير معصوم عن الخطأ .

وقد وضع بشر آخرون طرقاً في الحياة نجحت وما زالت ناجحة . ولكن النظام الذي وضعوه لم يزد عن الخطوط العريضة والمبادىء العامة ، كقولهم أحب جارك كما تحب نفسك ، ولا تعمل على اغواء زوجة جارك . هذه المبادىء التي اعطتنا اياها اديان الشرق الاوسط الثلاثة العظيمة ، لم توضع على اساس انها من خلق عقول الافراد الذين اعلنتها ألسنتهم ، بل كرسائل جاءت من الله بواسطة بشر من خلقه . ولقد أعلن القائلون بهذه المبادىء في ايمان صحيح خالص ، بأن هذه الحكمة تتجاوز حدودهم البشرية ، فنالت وزناً اعظم بكثير من الوزن

الذي كان يعطى لها ، لو ان قائليها تبجحوا وزعموا انها من صنع البشر وحدهم دونما عون إلهي .

ولم يقل المسيح شيئاً ضد لحم الخنزير او الخمر ، لان رسالته أخذت العموم دون التفـــاصيل . اما رسالة محمد فكانت كالتوراة ، اكثر تحديداً ، كما رأينا . ولو درسنا تفاصيل تعاليمه بنداً بنداً ، لوجدنا ان هذه التحديدات لا تمنع المرء الا من الافراط والاسراف . ولقد أوجد محمد نظاماً قادراً على التماسك والثبات بشكل عجيب مدهش .

ولو حللنا الطريقة الاسلامية في الحياة بأقصى ما نستطيع من الموضوعية لوجدنا انها أمنت اكبر مقدار من الخير الملائم لأعداد كبيرة من البشر القاطنين في محيط الشرق الاوسط حيث تتناقص الثروة باستمرار . خذ مثلاً تحريم اكل لحم الخنزير ، الذي عرفه اليهود قبل محمد بكثير . لقد علل تحريمه بتفسيرات كثيرة ، ومن بينهـــا القول بأنه يورث مرض التريكينوسس ، والقول بأنه غني بالدهن الذي يؤذي الناس في الأجواء الحارة . ولكن هذه العلل لا تصمد امام التحليل . فلم يكن الناس يعرفون عن التريكينوسس ايام التلمود أو ايام محمد ، اكثر مما يعرفون عن السل او السرطان . ثم ان المناخ ليس حاراً دائماً في الشرق الاوسط ، وللحم الخنزير طعم طيب في ليالي حلب الباردة ، وهو سهل الهضم فيها ، كمثله في ألاسكا .

ولكن الخنزير حيوان لا منتجات له سوى اللحم . ومن الصعب سلخه ، ولذا فان جلده قليل الاستعمال . اما الحيوانات الاليفة الاخرى فتوفر اللبن ، والصوف ، والنقل ، او مزيجاً من هذه الامور الثلاثة . فاذا تساوت الاعتبارات كانت تربية الخنازير اغراقاً ومبالغة في الاسراف . وربما سهل ارسال قطيع من الخنازير في أحد الاقسام غير المستغلة من بلاد البحر المتوسط الى غابة تبقت فيهـــا تفاريق من اشجار السنديان والزان ، ليأكل شوكها وأثمار بلوطها ، وجذورها . اذ ان الخنزير يأكل

اشياء لا يأكلها غيره . وتنجب انثاه عشرة بطون بالسنة فيستطيع المزارع ان يأكل اللحم النضر في الخريف ، ويحفظ الباقي للشتاء . والخنزير في مثل هذه الظروف ذو فائدة اقتصادية مدهشة .

اما اذا كثر السكان وقطعت اشجار السنديان لتزرع في مكانها اشجار الزيتون ، فلا يبقى مكان لرعي الخنازير . فان ربيت رغم ذلك فانها تأكل الطعام الذي يحتاجه الناس ، ويأكل الخنزير ما يكفي لاطعام عدد من الرجال . فمن ربى الخنازير اذن ، فانما يفعل ذلك ليختال بثروته ، وهذا يخل توازن الجماعة التي يعيش فيها ، ويمنع التوزيع العادل لمواد الطعام . فليذهب الخنزير اذن . وهكذا ذهب . اما الماعز ، رفيقه القديم في الغاب ، فيبقى ليأكل الاعشاب الجافة في الارض اليباب الواقعة بين القرى ، ويحولها يوماً بعد يوم الى لبن ، مع انها لا تصلح لولاه الا للوقود . وقد ساعد الماعز الفقير والذي لا ارض له على توفير الغذاء والاكل . وهكذا بقي الماعز .

اما بالنسبة الى النبيذ الذي لم يكن محرماً عند اليهود ولا عند النصارى ، فلنتذكر ان الكرم لا ينبت في الحجاز ، موطن محمد . فلا بد اذن من استيراد النبيذ ، وحمله على ظهور الجمال بدلاً من سلع أخرى ثمينة ، خصوصاً وانه من البضائع الثقيلة . فاذا شربه تجار الحجاز فنهم يبعثرون مالهم ، واذا حملوا مكانه البضائع العابرة ، فانهم يوفرون مالهم . واذا شرب رجال القوافل الخمر في طريقهم ، فقد يعجزون عن الوصول الى مقصدهم . وأهم من هذا الناحية الاجتماعية من شرب الخمر . فالمسلمون في غاية الكرم وهم يقدمون للضيف دائماً نوعاً من الشراب . فاذا قدم المضيف النبيذ لكل ضيف ، فانه لا يلبث ان يفتقر اذا كان من متوسطي الحال . والاخبار التي رواها مؤرخو المسلمين مليئة بالاشارة الى الخمر ولكن شاربيها هم الزنادقة الذين يسكنون في الجبال القارسة ، والاثرياء من سكان المدن . اما الرجل العادي ، رب العائلة

المسلم المؤمن الذي يجد المتعة بلقاء اخوانه ، فيعتبر شرب الخمر اسرافاً يساعده دينه على تجنبه ، ولا يتطلب العرف الاجتماعي منه تقديمه الى ضيوفه* .

ومن الامور الطريفة الاخرى قضية الحجاب . ففي ايران كانت النساء يلبسن الشرّار ، او العباءة ، وهي قطعة قماش نصف دائرية يمكن لبسها بحيث تغطي الجسم كله مـــا عدا العيون ، وما زال كثير من النساء يلبسنها . وتتشابه هذه العباءات كلها في المظهر تقريباً . وتستطيع المرأة الجميلة ان تذهب الى السوق في العباءة دون ان تستجلب الانتباه الذي قد يخلق لها ولزوجها المشاكل . ولا تعتمد المصاهرات على اللقاء العابر في الشوارع ، بل على المفاوضة الجدية بين العائلات . وفي نفس الوقت تستطيع السيدة المتوسطة العمر التي لا تمتلك سوى رث الثياب ان تلبس عباءة مماثلة ولا تخجل من نفسها ، وتعجز السيدة الغنية بسبب العباءة عن ابراز جواهرها التي تخلق الحسد . فالعباءة تساوي بين النساء في المظهر وهي لذلك مفيدة جداً في بلاد يزدحم سكانها وتكثر امكانيات التوتر الاجتماعي فيها .

وفي البلاد العربية تخفى النساء قوامهن بطرق مشابهة ، وقد يلبسن حجاباً خاصاً ، كذاك الذي وصفه سير ريتشارد برتون بقوله :

هو اكثر ألبسة النساء غنجاً ... فهو يخفي البشرة الخشنة ، والانوف الكبيرة ، والافواه الواسعة ، والذقون الناتئة ، ويبرز اجمل ما في هذه البلاد من اعضاء الجسم ــ العيون[1] .

فالاسلوب الاسلامي اذن يساوي مظـــاهر النساء ، والرجال ، فيما يلفت النظر ومـــا يحسره . وهو يساعد ايضاً على عدم الافصاح عن

* كل هذه مجرد تعليلات مستطرفة ، قد يتقبلها المسلمون وقد لا يتقبلونها . «المراجع»

«١» Sir Ricard Burton, Pilgrimage to Al-Madinah and Meccah, I, 229, n. 2.

شخصيات النـاس في مجتمع مزدحم . فاذا خرج المرء الى الارياف او القبائل فقلما يرى الحجاب . فان النـــافع في المدينة مزعج ومضايق في الارياف ، لأن نساء الارياف يحتجن الى العمل من غير اعاقة في الحقول ، كما ان الناس يعرفون بعضهم بعضاً تمام المعرفة على أي حال .

ومن أمثلة الحكمة العملية عند المسلمين مقدرتهم على العيش المرتب بأقل مقدار من الأثاث . فالعربي او الفـارسي القديم يخلع نعليه عندما يدخل احدى الغرف ويتركهما عند البـــاب . ويسهل عليه فعل ذلك ببساطة ودون ارتبـاك ، لأن نعليه صنعا بحيث يسهل خلعهما . وبذلك لا تهترىء البسط ، ولا تتلف بالوحل . والسجادة الشرقية قطعة جميـلة من الاثاث في غرفة شرقية عارية الحوائط ، وعالية السقف . اما الغرف الغربية فان حوائطهـا مغطاة بورق مزخرف بزخارف صارخة ، وسقفها منخفض ، وأرضها مزدحمة بالكراسي ، والطاولات ، وخزانات الراديو ، ورفوف الكتب ، ولذا فان السجادة الشرقية الجميلة تضيع فيها عبثاً .

والصوف رخيص في الشرق الاوسط ، وهو منتوج محلي . امـــا الخشب فثمين ومعظمه مستورد . فالسجاد والوسائد اذن ، تؤمن الراحة للتعب ، ولا حاجة الى الكراسي . ويستطيع المرء ان يكون مرتاحاً وقوراً على الارض بمقدار ما يكون مرتاحاً وقوراً على الكرسي . فاذا جلس الملك او الخليفة على سجادة ، فانه لا يفعل شيئاً يعجز عنه أفقر رعاياه ، الذي يستطيع بدوره ان يجلس على حصيرة صنعتها يداه . وعندما يستعد الخليفة للطعام يغسل يديه اولاً . وهذا ايضاً مـا يفعله افقر رعاياه ، وان المرء ليقدر الحكمة في فرض غسل اليدين قبل الطعام كجزء من آداب المائدة ، قبل ان توجد نظرية الجراثيم . فـاذا كانت الأيدي نظيفة استطاع المضيف ان يقدم الطعام الى ضيوفه دون خوف تـلوثه . وهذا التصرف البسيط الشخصي ، الذي يتم في جو من المودة

والوقـار ، يخلق الروابط بين الرجال الذين يأكلون من وعاء واحد بشكل لا يمكن ابداً تحققه في مأدبة حول الموائد .

ولنعد الى موضوع النظافة فنجد ان المسلمين واليهود مقيدون بقواعد جامدة . والقواعد المفروضة لذبح الحيوانات وطبخ اللحم هي في الواقع قواعد مثلى في بلاد تنعدم بها وسائل التبريد . وان حلق مناطق الجسم المعرضة للالتهـاب والعدوى ، وغسل الايدي والاعضاء الخاصة قبل الاستعمال وبعده ، من العـادات التي تحسن الشعوب الاخرى خارج الشرق الاوسط لو قلدتها . وقد ساعدت من غير شك في الحرب ضد الجراثيم ومـا زالت نافعة بجانب أفضل وأحدث وسائل تطهير المياه وتعقيمها .

وتكفي هذه الامثلة لتظهر لنا كيف ان ابناء الشرق الاوسط كيفوا أنفسهم للشظف الناجم عن ازدياد السكان ، واقتطاع الغابات ، وتعرى التربة ، وانخفاض مستوى المياه ، وغيرها من المصائب الزاحفة . وقد تم هذا التكيف بالدرجة الاولى في نواح ثلاث . أولها المهارة في استعمال المواد المحلية لتوفير اكبر مقدار ممكن من الطعام ، والسكن ، واللباس ، والنقل والمصنوعات المتنوعة الكثيرة . وثانيها تطبيق مبادىء في السلوك من شأنهـا ان تخفض اسباب التحاسد والاحتكاك بين الغني والفقير ، والوضيع والرفيع الى أقصى حد ممكن . وثالثها ايجاد نمط من الطقوس الدينية تكراري ، وتكويني الى حد بعيد ، يجعل التقيد بالنـاحيتين الاولى والثانية تلقائياً وفوق كل سؤال .

ولقد قلنا ما فيه الكفاية الآن . اذ وصفنا الطريقة الاسلامية في الحياة ، التي توخى هذا الكتاب بالدرجة الاولى بحثها . وقد حققت هذه الطريقة أقصى مقدار من البقاء والسعادة لملايين البشر ، في محيط متناقص

الثروة ، على مدى أربعة عشر قرناً من الزمن . اما الطريقة اليهودية الابعد قدماً ، والتي وصفها كثير من المؤلفين الآخرين مرات عديدة ، فقد حافظت في الشرق والغرب على جماعة خاصة من النـــاس العظيمي التدريب والفكر على مدى قرون تعاقبت فيهـا الايام الطيبة والايام المرة . وقد لعبت الطريقة المسيحية نفس الدور في الشرق . امـــا في الغرب فقد كانت مناراً للسلوك عند شعوب تقطن في بيئة اكثر غنى ، وأفضل حظاً بالامطار ، والوقود ، والمزايا الطبيعية الاخرى المفقودة في الشرق . وهـــذه المزايا هي التي مكنتنا من خلق العصر الصناعي على اساس الاكتشافات التقنية التي أوجدها الشرق الاوسط .

وفي الشرق بدأ كثيرون من المسلمين المتغربين «المفكرين» يتراخون في شؤون العبادة . وفي الغرب عاد ابناء الملحدين للذهاب الى الكنائس . ويدرك الاميركيون اليوم ان امامهم اياماً صعبة ، وان موارد بلادهم تتناقص ، بينما ينمو سكانها . ونحن نحس بأننا نحمل معظم العــــالم على اكتافنا . وندرك الآن اننـا نحتاج الى الشجاعة لا العواطف ، والى الايمان ، لا التشبث ، والى الفرصة لمتابعة جميع فروع البحث العلمي انى وجهتنا ، دون ان نجعل العلم سيداً علينا . وهذه المهمة التي نعد انفسنا لهـا مهمة صعبة . ولا نستطيع ان نتجاهل دراسة الحضارات الاخرى كجزء من اعداد النفس ، لنتعلم ما نستطيع من دروس تفيدنا في توجيه حضارتنا . ولا شك ان مما يساعدنا ان نعرف أقدم حضارات العالم ، وكيف عملت هذه الحضارة في فترة مماثلة من الامتحان والشدائد .

هذه الحضارة مهدت من نواح عديدة للعـالم الواحد الذي يهفو اليه كثير من البشر في ايامنا ، عـــالم لا يحتاج المرء فيه الى جواز سفر سوى صفته البشرية ، وتعيش فيه الحكومات المركزية والقبلية لغرض

واحد ، هو المحـــافظة على الامن بين كميات لا تحصى من المؤسسات الاخرى التي تتجاوز الحدود الدولية ، عـــالم يلقى المسافرون فيه كل ترحاب ، ويكرمون في الطريق ، ويوفر العلم فيه مجـــاناً ، وتعتبر الحكمة فيه أثمن وأشرف ما يمتلكه الانسان . فاذا استطعنا من جديد ان نحقق هذه الاشياء بطريقتنا الخاصة ، وعلى مقياس أوسع ، فـــاننا نكون قد تعلمنا هذا الدرس في التقشف .

Tobler, A. J. Excavations at Tepe Gawra. Museum Monographs. Vol. II, Levels ix-vv. Philadelphia, 1950.

Tweedy, Owen. « Arabia and Egypt, » in The Middle East, a Political and Economic Survey.

Ungnad, Arthur. Zeitschrift für aegyptische Sprache. Bd. 43 (1906), pp. 161 - 162.

Vida, Giorgio Levi della. « Pre-Islamic Arabia, » in N. A. Faris, ed., The Arab Heritage.

Villiers, Alan. « Some Aspects of the Arab Dhow Trade, » The Middle East Journal, II, No. 4 (October, 1947), 399 - 416.

—. Sons of Sinbad. New York, 1940.

Wilber, Donald L. Iran, Past and Present. Princeton, 1948.

Wilson, Sir Arnold. The Persian Gulf. London, 1928.

Wilson, S. G. Persisn Life and Customs. New York, 1895.

Woolley, C. L. Ur Excavations. London and Philadelphia, 1934.

Wysner, Glora May. The Kabyle Peoples. New York, 1945.



—. The Empty Quarter. London, 1933.

Pottinger, Henry. Travels in Beloochistan and Sinde. London, 1816.

Prawding, Michael. The Mongol Empire, Its Rise and Legacy. Translated from the German by Eden and Cedar Paul. New York, 1940.

Ricard, Prosper. « Les Métiers manuels à Fès, » Hesperis, IV (1924), 205 - 224.

Riley, Captain J. The Authentic Narrative of the Loss of the American Brig Commerce. New York, 1918.

Robertson, Sir George. « Kafiristan, » Encyclopaedia Britannica, 13 th ed. Vol. XV.

—. The Kafirs of the Hindu Kush. London, 1896.

Rodd, Francis R. People of the Veil. London, 1926.

Schorger, William D. « The Caravan Trails of North Africa. » Senior honors thesis in anthropology. Peabody Museum Library, Harvard University, 1947.

Scott, Hugh. In the High Yemen. London, 1942 ; revised ed 1947.

Senyürek, Muzaffer Suleiman. Fossil Man in Tangier. Peabody Museum Papers. Vol. XVI, No. 3. Cambridge Massachusetts, 1940.

Speiser, Ephraim A. Mesopotamian Origins. Piladelphia, 1930.

Spillmann, Georges. Les Ait Atta du Sahara. Rabat, 1936.

Stuhlmann, Franz, Ein Kulturgeschichtlicher Ausflug im Aures. Hamburg, 1912.

—. Die Mazigh-volker. Hamburg, 1914.

Sykes, Sir Percy. A History of Persia. Oxford, 1922.

« The Tale of the Shipwrecked Sailor », Petersburg Papyrus 1115.

Tannous, Afif I. « The Arab Village Community in the Middle East, » Smithsonian Report for 1943, Pub. 3760 (Washington, D, C., 1944), pp. 523 - 544.

—. « Emigration, a Force of Social Change in an Arab Village, » Rural Sociology, VII (1942), 62 - 74.

—. « Land Tenure in the Middle East, » Foreign Agriculture, Office of Agricultural Relations, VII, No 8 (August, 1943), 170 - 177.

Terrasse, Henri. Histoire du Maroc. Casablanca, 1949-50. 2 vols.

Tharaud, Jerome and Jean. Fèz ou les bourgeois de l'Islam. Paris, 1930.

—. Marrakesh ou les seigneurs de l'Atlas. Paris, 1920.

Thomas, Bertram. Alarms and Excursions in Arabia. London, 1931.

Lucas. A. Ancient Egyptian Materials and Industries. London, 1934 ; 2d ed.

Mackay, Ernest. The Indus Civilization. London, 1935.

Marvin, Charles. Merv, or the Man-stealing Turcomans. London, 1881.

Meakin, Budgett. The Land of the Moors. London, 1901.

—. The Moorish Empire. London, 1899.

—. The Moors. London, 1902.

Meissner, Bruno. Babylonien und Assyrien. Vol. I. Heidelberg, 1920.

Miles, S. B. Countries and Tribes of the Persian Gulf. London, 1919. 2 vols.

Mirza, Youel. Stripling. New York. 1940.

Montagne, Robert. Les Berbères et le makhzen dans le sud du Maroc. Paris, 1930.

—. La Civilisation de desert. Paris, 1947.

Morgenstierne, Georg. Report on a Linguistic Mission to Afghanistan. Institut für Sammenlignende Kulturforskning. Vol. I, Serie C-1-2. Oslo, 1926.

Morier, James J. Hajji Baba of Isfahan. Random House de Luxe Edition. New York, 1937.

Muir, Sir William. The Caliphate. Revised by T. H. Weir Edinburgh. 1924.

—. The Life of Mohammad. Revised by T. H. Weir. Edinburgh, 1923.

Musil, Alois. Manners and Customs of the Rwala Bedouins. Monographs of the American Geographical Society, No. 6, New York, 1928.

Nielson, Ditlef, ed. Handbuch der altarabischen altertumskunde. Vol. I. Copenhagen, 1927.

O'Donovan, Edmond. The Merv Oasis. New York, 1883. 2 vols.

Oliver, Douglas. The Horomorun Concepts of Southern Bougainville. Peabody Museum Papers. XX. Cambridge, Massachusetts, 1943. 50 - 65.

Opler, Morris, and Singh, Rudra Datt. « The Division of Labor in an Indian Village, » in Carleton Coon, ed., A Reader in General Anthropology, pp. 464 - 495, chap. I7.

Oppenheim, Max Freiherr von. Die Beduinen. Leipzig, 1939 - 43. 2 vols.

Pellow, Thomas. The Adventures of Thomas Pellow of Penrhyn, Mariner. Edited by Dr. Robert Brown. London. 1890.

Philby, St. John B. Arabia. New York, 1930.

—. Arabian Days. London, 1948.

Hörhager, Herbert. Die Volkstumsgrundlagen der indischen Nordwest-Grenz Provinz. Hiedelberg, Magdeburg, and Berlin, 1943.

Hourani A. H. « Syria and Lebanon, » in The Middle East, a Political and Economic Survey.

Hourani, George F. Arab Seafaring in the Indian Ocean. Princeton Oriental Studies. Vol. XIII. Princeton, 1951.

Huart, Clement. L'Evolution de l'humanité : La Perse antique. Vol XXV. Paris, 1925.

Hughes, Thomas Patrick. Dictionary of Islam. London, 1885.

Issawi, Charles. An Arab Philosophy of History : Selections from the Prolegomena of Ibn Khaldun of Tunis (1332-1406). London, 1950.

Jochelson, Waldemar. Peoples of Asiatic Russia. New York, 1928.

Koller, P. Ange. Essai sur l'esprit du Berbère marocain. Fribourg, 1949.

Lambton, A. K. S. « Iran, » in The Middle East, a Political and Economic Survey.

Lammens, Henri. Islam, Beliefs and Institutions. Translated from the French by T. Denison Ross. London, 1929.

Lane, Edward William. The Manners and Customs of the Modern Egyptians. Everyman's Library, New York, n. d.

Laoust, E. L'Habitation chez les transhumants du Maroc Central. Paris, 1936.

Lattimore, Owen. The Desert Road to Turkistan. Boston, 1929.

Layard, Sir Austen Henry. Early Adventures in Persia, Susiana, and Babylonia. London, 1887. 2 vols.

Leach, E. R. Social and Economic Organization of the Rowanduz Kurds. London School of Economics and Political Science Monographs on Social Anthropology, No. 3. London, 1940.

Le Tourneau Robert. La Villa de Fès avant le Protectorat. Casablanca, 1949.

—, Paye, L., and Guyot, R. « La Corporation des tanneurs et l'industrie de la tannerie à Fès, » Hesperis, XXI (1935), 167-240. fasc. i-ii.

Lewis, Bernard. The Arabs in History. London, 1950.

Lhote, Henri. Les Touaregs du Hoggar. Paris, 1944.

Lloyd, Seton. « Iraq, » in the Middle East, a Political and Economic Survey.

Erman, Adolf. Aegypten und aegyptisches Leben im Altertum. Translated by Hermann Ranke. Tübingen, 1923.

—. Life in Ancient Egypt. London, 1894.

Evans-Pritchard, E. E. The Sanùsi of Cyrenaica. Oxford, 1949.

Faris, Nabih Amin, ed. The Arab Heritage. Princeton, 1949.

Ferrier, J. P. Caravan Journeys and Wanderings in Persia, Afghanistan, Turkistan, and Beloochistan. London, 1856.

Field, Henry, and Glubb J. B. The Yezidis, Salubba, and Other Tribes of Iraq and Adjacent Regions. General Series in Anthropology, No. 10. Menasha, Wisconsin, 1943.

Fisher, W. B. The Middle East, a Physical, Social, and Regional Geography. London, 1950.

Fraser-Tytler, W. K. Afghanistan. London, 1950.

Gautier, E. F. Le Passé de l'Afrique du Nord. Paris, 1942.

—. Sahara, the Great Desert. Translated by Dorothy Ford Mayhew. New York, 1935.

Gibb, H. A. R. Mohammedanism. London, 1949.

—, and Bowen, Harold. Islamic Society and the West : Islamic Society in the Eighteenth Century. Vol. I, Pt. I. London, 1950.

Haas, William S. « The Zikr of the Rahmaniya Order, a Psychophysiological Analysis, » The Moslem World, XXXIII, No. 1 (January, 1943).

Hanoteau, Adolphe, and Letourneux A. La Kabylie et les coutumes kabyles. Paris, 1893 ; 2d ed. 3 vols. See Wysner, Glora May, for translation.

Harris, Walter B. A Journey Through the Yemen. London, 1893.

—. Tafilelt. London, 1895.

Hayden, L. J. « Living Standards in Rural Iran, » The Middle East Journal, III, No. 2 (1949), 140 - 150.

Herodotus, Historia. Translated by George Rawlinson. Everyman's Library, London, 1910. 2 vols.

Hitti, Philip. The Arabs, a Short History. Princeton, 1943.

—. History of the Arabs. London, 1937, 4 th ed., 1949.

—. History of Syria. New York, 1951.

Holme, H. C. « Palestine, » in The Middle East, a Political and Economic Survey. London and New York, 1950.

Cella, Paolo della. Narrative of an Expedition from Tripoli in Barbary to the Western Frontier of Egypt. Translated by Anthony Aufrère. London, 1822.

Charles, Henri. Les Tribus moutonnières du Moyen Euphrate. Beirut, 1939.

Cline, Walter. Notes on the People of Siwah and el Garah in the Libyan Desert. General Series in Anthropology, No. 4. Menasha, Wisconsin, 1936.

Coon, Carleton S. Cave Exploration in Iran, 1949. Museum Monographs. Philadelphia, 1951.

—. Flesh of the Wild Ox. New York, 1932.

—. Measuring Ethiopia and Flight into Arabia. Boston, 1935.

—. « North Africa, » in Ralph Linton, ed., Most of the World. New York, 1949. Pp. 405 - 461.

—. The Races of Europe. New York, 1939.

—, ed. A Reader in General Anthropology. New York, 1948.

—. Southern Arabia, A Problem for the Future. Peabody Museum Papers. XX. Cambridge, Massachusetts, 1943.

—. Tribes of the Rif. Harvard African Studies, Peabody Museum. Vol. IX. Cambridge, Massachusetts, 1931.

Cooper, Merian C. and Schoedsack, Ernest B. Grass. New York 1925.

Davies, C. Collin. The Problem of the Northwest Frontier, 1890 - 1908. Cambridge, England, 1932.

Dennett, Daniel C., Jr., Conversion and the Poll Tax in Early Islam. Harvard Historical Monographs. Vol. XXII. Cambridge, Massachnsetts, 1950.

Depont, Octave, and Coppolani, Xavier. Les Confreries religieuses musulmanes. Algiers, 1897.

Despois, Jean. L'Afrique du Nord. Vol. I. Paris 1949.

—. Le Djebel Nefousa. Paris 1935.

Dickson, Harold R. P. The Arab of the Desert. London, 1949.

Dougherty, R. P. The Sealand of Ancient Arabia. Yale Oriental Series, Researches. Vol. XIX. New Haven, 1932.

Duveyrier, Henri. Les Touaregs du Nord. Paris, 1864.

Elphinstone, Mountstuart. An Account of the Kingdom of Caubul and Its Dependencies. London, 1825.

Encyclopaedia of Islam. London and Leyden, 1913 - 38.

BIBLIOGRAPHY

Battuta, Ibn. Travels in Asia and Africa, 1325 - 1354. Translated by H. A. R. Gibb. New York, 1929.

Bel, Alfred. La Religion musulmane en Berberie. Vol. I. Paris, 1938.

Benhazera, Maurice. Six mois chez les Touaregs du Ahaggar. Algiers, 1911.

Birge, John Kingsley. The Bektashi Order of Dervishes. London, 1937.

Bishop, Mrs. Isabella (Bird). Journeys in Persia and Kurdistan. London, 1891.

Bissuel, H. Les Touaregs de l'Ouest. Algiers, 1888.

Blake, Robert P., and Frye, Richard N. « History of the Nation of the Archers, by Grigor of Akanc, » Harvard Journal of Asiatic Studies, XII, Nos. 3, 4 (1949), 269 - 399 [1 - 131].

Blunt, Lady Anne. Bedouin Tribes of the Euphrates. New York, 1896.

Boas, Franz. The Social Organization and the Secret Societies of the Kwakiutl Indians. Report of the Smithsonian Institute. Washington, D. C., 1895.

Bode, Baron C. A. de. « On the Yamud and Gokland Tribes of Turkomania, » Journal of the Ethnological Society of London, I (Edinburgh,) 1848, 60 - 78.

Bourilly, Joseph. Elements de l'ethnographie marocaine, Paris, 1932.

Boville, E. W. Caravans of the Old Sahara. London, 1932.

Bowen, Richard LeB., Jr. « Pearl Fisheries of the Persian Gulf, » The Middle East Journal, V, No. 2 (1951), 161 - 180.

Brockelmann. Carl. History of the Islamic Peoples. Translated from the German by Joel Carmichael and Moshe Pearlmann. New York. 1947.

Browne, Edward G. A Year Amongst the Persians, 1887-1888. London, 1950.

Brunel, René. Essai sur la confrerie religieuse des 'Aissaoua au Maroc. Paris, 1926.

Burton, Sir Richard. Personal Narrative of a Pilgrimage to Al-Madinah and Meccah, London, 1893. 2 vols.

Cameron, George C. History of Early Iran. Chicago, 1936.

—. The Persepolis Treasury Tablets. University of Chicago Oriental Institute Publications. Vol. LXV, Chicago, 1948.

فهرست الاماكن

ا

ب

ح

خ

د

ر

ز

غ

ف

ق

م

فهرست الطوائف والشعوب

ا

ب

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

فهرست الاعلام والالهة

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ر

ز

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

فهرست الموضوعات

ف . ب . (٢١) ١٩٥٩

صمم الغلاف
الفنان « اسماعيل شموط »

مطبعة الكريم – جونيه

هذا الكتاب ..

ان كتاب « القافـــلة » الذي وضعه الاستاذ كارلتون كون هو محاولة فذة لدراسة الشرق الاوسط ، ككل عضوي واحد. فلئن سبق ان درست بعض بلدان الشرق الاوسط ، او بعض حقب تاريخه، او بعض معالمه الطبيعية او الاجتماعية او الاقتصادية، فلم يسبق ان وحدت هذه الدراسات كلها في نسق واحد يجمع بينها جمعاً مترابطاً ، وينظر اليها من زاوية كونها مفصحة — باوجه متعددة — عن نفس القوى الحضارية الفاعلة.

ويرى الاستاذ كون ان اهم ما يميز حضارة الشرق الاوسط انها تتكون من نظام فسيفسائي متناسق منسجم ، لكل قطعة فيه دور تؤديه ووظيفة تقوم بها. وهذا النظام الفسيفسائي ذاته يقوم على ابعاد متعددة — فهناك التنوع العرقي في انقسام المنطقة الى عرب وايرانيين واكراد واتراك وبربر وغيرهم ، ثم هناك التنوع الوظيفي في انقسام المنطقة الى بدو وفلاحين وسكان حواضر وسكان مدن ، ثم هناك التنوع السياسي في انقسامهم الى مناطق محكومة واخرى مجافية للسلطة. ويتكرر هذا النمط الفسيفسائي ذاته في كل جزء من اجزاء هذه التقسيمات كلها. ولكن هناك الى جانب التنوع وحدة جامعة قائمة على توازن دقيق بين الاجزاء تقيمه مؤسسات كثيرة ظهرت لتمكين الكل من اداء وظيفته.

كتاب جدير بالقراءة